كريستا فولف

مدينة الملائكة
أو
معطف الدكتور فرويد



ترجمة: نيفين فائق

منشورات الجمل

رواية

كريستا فولف

مدينة الملائكة
أو
معطف الدكتور فرويد

رواية

ترجمة: نيفين فائق

منشورات الجمل

كريستا فولف: مدينة الملائكة
أو معطف الدكتور فرويد، رواية

كريستا فولف، روائية وناشرة، ولدت عام ١٩٢٩ في لاندسبيرغ بألمانيا. درست الأدب الألماني في يينا ولايبزغ. عملت بعد ذلك خبيرة في إحدى دور النشر الألمانية. ثم تفرغت للكتابة في برلين. حصلت أعمالها الروائية ودراساتها الأدبية على عدد كبير من الجوائز الوطنية والعالمية. توفيت في برلين عام ٢٠١١. من رواياتها: **السماء المشطورة** (١٩٥٣)؛ **تاملات حول كريستا ت.** (١٩٦٩)؛ **الأموات يبقون شباناً** (١٩٦٨)» **نموذج طفولة** (١٩٦٩). ومن مؤلفاتها أيضاً: **في الطريق إلى التابو** (نصوص ١٩٩٠ - ١٩٩٤). صدر لها عن منشورات الجمل: **كاساندرا**، (رواية، ١٩٩٩)؛ **ميديا. أصوات** (رواية، ١٩٩٣).

كريستا فولف: **مدينة الملائكة أو معطف الدكتور فرويد**، رواية، الطبعة الأولى
ترجمة: نيفين فائق

تلفون وفاكس: ٣٥٢٣٠٤ ١ ٠٠٩٦١
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Christa Wolf: *Stadt der Engel oder The Overcoat of Dr. Freud*

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

ساهم **معهد غوته** في بعض تكاليف ترجمة هذا الكتاب.

كل شخصيات هذا الكتاب - باستثناء الشخصيات التاريخية المذكورة بالاسم - هي من وحي خيال المؤلفة، لا تتماهى مع أي شخص حيّ أو ميت، كذلك قلّما تمثل الأحداث الموصوفة هنا أحداثاً واقعية.

هكذا يكون تتبع الذكريات الحقيقية بطريقة أقل إخباراً من كونها مجرد وصف دقيق للمكان الذي استرجعتها الباحثة من خلاله.

Walter Benjamin: *Ausgraben und Erinnern*

الكثافة الحقيقية للحياة المعاشة

لا يستطيع مؤلف أياً من كان إعادة إنتاجها.

E. L. Doctorow

«سقوطاً من السماوات»

هذا هو التعبير الذي خطر ببالي حين هبطتُ في لوس أنجلوس وصفق ركاب الطائرة تحية لقائدها الذي حلق بنا فوق المحيط متوجهاً إلى «العالم الجديد»[١] وأخذ يدور حول مدينة الأضواء العملاقة ثم هبط بسلاسة على أرضها.

ما زلت أذكر أنني قررت استخدام هذا التعبير لاحقاً عندما أنوي الكتابة عن الوصول إلى الساحل الغريب واستقباله: الآن. أن تمضي هذه السنين كلها من المحاولات الدؤوبة لأجد الطريق الملائم للاقتراب من العبارات التالية لتلك الكلمات الأولى، هو ما لم أكن أتصوره. أخذت على عاتقي أن أحفظ في ذاكرتي للمستقبل كل تفصيلة. كم أثار جواز سفري الأزرق ريبة الشرطي ذي الشعر الأحمر المجعد الذي كان يفتش في أوراق المسافرين بحزم، أخذ يدقق فيه

---

(١) **العالم الجديد**: هو الاسم الذي شاع بين الألمان استخدامه عند الحديث عن أمريكا الشمالية.

ويتفحص كل تأشيرة على حدة، ثم توقف عند الدعوة المعتمدة بأختام كثيرة والموجهة من «المركز» الذي سوف أقضي الأشهر التالية تحت رعايته، وأخيراً وجّه عينيه الزرقاوين نحوي: «ألمانيا»؟ - نعم! ألمانيا الشرقية. كان من الصعب إعطاؤه أية معلومات إضافية، أيضاً بسبب اللغة، لكنه استعان بمشورة هاتفية. جاء المشهد مألوفاً، كنت أعرف جيداً هذا الشعور بالتوتر، وما يليه من اطمئنان، لاسيما بعدما بدا أن الإجابة عن سؤاله جاءت مرضية، فختم التأشيرة ومد جواز سفري بيده المغطاة بالنمش: أمتأكدة أنت من وجود هذا البلد؟ - نعم متأكدة! ما زلت أذكر أني أجبته باختصار مع أن الإجابة الصحيحة كانت لا بد أن تكون «لا»، وبينما انتظرت حقائبي طويلاً كان عليَّ أن أسأل نفسي إن كان الأمر يستدعي حقاً أن أسافر إلى الولايات المتحدة بجواز سفر سارٍ لدولة لم يعد لها وجود، فقط لأزعج موظف الجوازات الشاب ذا الشعر الأحمر. كان ذلك أحد ردود الأفعال العنيدة التي كنت أجيدها آنذاك، والتي - كما يبدو لي الآن - تتراجع مع *السن*. ها هي الكلمة كُتبت على الورقة، عرضاً بشكل أو آخر، الكلمة التي ألقت بظلالها عليّ آنذاك - أي منذ أكثر من عقد ونصف - ثم صارت ضاغطة مع الوقت، بحيث صرت أخشى ألا يمكنني تداركها قبل الوفاء بالتزامي المهني، قبل أن أصف كيف سحبت أمتعتي من على سير الحقائب وحملتها على العربة الضخمة وتوجهت وسط الحشود البشرية المختلفة إلى باب الخروج. كيف - وأنا لم أكد أخطو إلى قاعة الخروج - حدث ما كان عليّ ألا أسمح بحدوثه، طبقاً لكل تعليمات الوصول المتعارف عليها، حيث جاء إلي رجل عملاق أسود: «تحتاجين إلى سيارة يا سيدتي؟» وأنا ككائن تلقائي قليل الخبرة هززت رأسي بالموافقة بدلاً من الإصرار على الرفض كما نصحني الجميع. كان

الرجل قد استولى على العربة وانطلق بها إلى غير رجعة فدق جرس الإنذار بداخلي. تبعته بأقصى ما استطعت من سرعة، كان بالفعل قد وقف على حافة طريق الوصول، حيث اصطفت سيارات التاكسي بأضوائها الخافتة قادمة باتجاهنا. حصّل الرجل الدولار الذي حقّ له وسلمني لزميل أسود أيضاً كان قد اختلق لنفسه وظيفة منادٍ لسيارات الأجرة. أخذ يتفنن في أداء مهامه، أوقف التاكسي التالي وساعد في تكديس متاعي بداخله وتسلم هو الآخر دولاراً ثم سلمني بدوره للسائق النحيف المناور. بويرتوريكي لم أفهم إنجليزيته لكنه أنصت إلى إنجليزيتي عن طيب خاطر وبدا - بعد أن تفحص الرسالة المكتوب عليها عنواني المقرر أن أقيم به - أنه يعرف أين عليه أن يوصلني. الآن فقط عندما انطلق التاكسي - أتذكر جيداً - شعرت بنسيم الليل المعتدل، وبمسحة الجنوب التي كنت قد تعرفت عليها من قبل في ساحل مختلف تماماً، كانت قد مستني لأول مرة كشرشف سميك دافئ في مطار فارنا. البحر الأسود بظلامه المخملي ورائحة حدائقه الثقيلة الحلوة. حتى اليوم يمكنني أن أتوارى في هذا التاكسي، الذي تتلاحق على يمينه ويساره سلاسل الضوء، فتظهر من بينها أحياناً حروف رجراجة، وعلامات تجارية عالمية، ولافتات إعلانات فاقعة لمحال السوبر ماركت وحانات ومطاعم تطغى على ظلمة السماء. كلمة مثل «رتابة» لا محل لها هنا في هذا الشارع الساحلي أو ربما في القارة كلها. بصوت خافت، يكاد يكون مقموعاً، جاء سؤال السائق على استحياء عن دوافعي للمجيء إلى هنا، صوت بالكاد سمعته عندما تكرر أكثر إلحاحاً. على كل حال - كما لو كان هذا سبباً كافياً - تطايرت من حولنا أنواع النخيل المختلفة. رائحة الوقود وعوادم السيارات. رحلة طويلة.

سانتا مونيكا يا سيدتي؟ - نعم. - «سكوند ستريت» يا سيدتي؟ - صحيح. - ميس فيكتوريا؟ - نعم. - ها نحن وصلنا.

رأيت لأول مرة اللافتة المعدنية المثبتة على السور الحديدي بأضوائها: *فندق ميس فيكتوريا*. . *فتنة العالم القديم*. هدوء مخيم. كل النوافذ مظلمة. كان ذلك قبيل منتصف الليل. ساعدني السائق لحمل أمتعتي. حديقة أمامية، طريق حجري، عبير أزهار لا أعرفها بدت كأنها تتناثر في الليل من خلال بصيص ضوء يطل من المصباح المتأرجح بخفة فوق باب الدخول، ورقة مخبأة خلف لوحة الجرس مكتوب عليها اسمي. أهلاً وسهلاً، قرأت: «الباب مفتوح». عليّ أن أدخل، في البهو على الطاولة مفتاح شقتي، الدور الثاني، الغرفة رقم سبعة عشرة. «مديرة فندق ميس فيكتوريا تتمنى لك ليلة رائعة».

أيكون هذا حلماً؟ لكنني - على عكس الحلم - لم أضل طريقي، وجدت المفتاح، صعدت الدرج الصحيح، أدرت المفتاح في القفل الصحيح، مفتاح الضوء موجود في مكانه، في غمضة عين رأيت كل شيء أمامي: مصباحين عموديين يضيئان غرفة كبيرة فيها مجموعة من الأرائك وطاولة طعام طويلة ناحية الجدار المقابل محاطة بالمقاعد. دفعت لسائق التاكسي ما يبدو أنه أرضاه من تلك العملات الغريبة، التي كنت قد صرّفتها لحسن الحظ قبل مغادرتي برلين، شكرته بلطف وتلقيت الإجابة المعهودة: You are welcome, Madam (عفواً سيدتي).

تفقدت شقتي: بالإضافة إلى الغرفة الكبيرة هناك مطبخ مجاور، وغرفتا نوم، وحمّامان. يا له من هدر. يمكن لعائلة من أربعة أفراد أن تعيش هنا بسهولة، كان هذا تفكيري في تلك الليلة الأولى، بعدها تعودت على الرفاهية. على الطاولة رسالة ترحيب من سيدة تدعى

أليس، لا بد أنها زميلة من «المركز»، هي التي كانت توقّع الدعوات، على الأرجح أنها أيضاً التي اهتمت بوضع الخبز والزبد وبعض المشروبات في المطبخ. تذوقت بعضاً من كل شيء، فاستطعمت مذاقاً غريباً.

ذكرت نفسي أن هناك - حيث جئت - كان الصبح قد طلع، بحيث يمكنني إجراء مكالمة هاتفية من دون أن أزعج أحداً أثناء نومه. بعد محاولات فاشلة، بذل فيها العديد من عاملي الاتصالات الدولية الجهد معي، تمكنت من التوصل للأرقام الصحيحة من «كابينة التلفون» الصغيرة المجاورة لباب الدخول، فسمعت من خلف هدير المحيط ذاك الصوت المألوف. كان هذا الاتصال الهاتفي الأول ضمن مئة اتصال ببرلين في الشهور التسعة التالية. قلت إنني وصلت إلى الناحية الأخرى من الكرة الأرضية، ولم أقل - ما لم أسأل نفسي عنه - ما جدوى ذلك. قلت أيضاً إنني مرهقة - وكنت كذلك فعلاً - إرهاقاً غريباً. بحثت عن ملابس النوم في حقيبتي، غسلت وجهي ويدي، استلقيت على السرير الضخم الشديد الطراوة، وانتظرت النوم طويلاً. في الصباح الباكر استيقظت من منام صباحي إذ سمعت صوتاً يحدثني: الوقت يفعل ما يعرف.. يمضي!

كانت تلك هي الكلمات الأولى التي دوّنتها في الدفتر المسطّر الذي اهتممت بإحضاره معي ووضعته على ركن طاولة الطعام، وقد امتلأ سريعاً بالكثير من الملاحظات التي أستند إليها اليوم. خلال ذلك كله مر الوقت كما أخبرني الحلم باقتضاب، وهو ما كان وما زال من أكثر الأمور المحيرة بالنسبة إليّ، والتي أعرفها وكلما مر العمر تعذر عليّ فهمها. أن يخترق شعاع فكرة طبقات الزمن ذهاباً وإياباً بين الماضي والمستقبل أمر يبدو كالمعجزة، أما الحكي فهو شريك في

تلك المعجزة، لأننا من دون هذه النعمة ما كنا نجونا وما استطعنا البقاء.

على سبيل المثال يمكن أن تدع مثل هذه الأفكار تعبر الرأس أثناء تصفح حزمة التعليمات التي وجدتها صباحاً على طاولتي في الشقة: «تعليمات السلامة» التي يوفرها «المركز» للوافدين الجدد في يومهم الأول، وفيها تعريف بأقرب المتاجر والمقاهي والصيدليات، كما يوجد وصف للطريق إلى المركز وقواعد العمل فيه، وبالطبع يوجد رقم هاتف صاحب المركز الذي يمكن الاتصال به خلال النهار والليل. هنا أيضاً قائمة بالمطاعم ومحلات الوجبات السريعة بالإضافة إلى المكتبات والمناطق السياحية والرحلات والمتاحف، والحدائق العامة ووسائل الانتقال، وأخيراً وليس آخراً يتم التشديد على توجيه عناية الوافد الجديد عديم الخبرة إلى القواعد المتبعة في حالة حدوث زلزال. أخذت هذا كله على محمل الجد، تدبرت قائمة الحائزين على المنحة الآتين من شتى البلدان، والذين سيصيرون زملائي خلال نصف العام التالي، ولا بد أنهم سينخرطون كأعضاء في منظومة الصداقة، بينما عليهم أن يتناثروا مع الريح، أي يعود كلٌّ إلى بلاده.

زلزال قوي وقع بعد وصولي، وظل فالق سان أندرياس[١] - الذي يمر تحت المدينة - يشكل خطراً كبيراً، حيث تسبب في زحزحة كتل أرضية ضخمة. لو أن أحداً كان قد أطلعني على صورة العالم اليوم، ما كنت لأصدق، رغم أن رؤيتي للمستقبل وقتها كانت قاتمة بما يكفي. يبدو أن البقية من السذاجة التي لا بد أنني كنت أتحلى بها

---

(١) **فالق سان أندرياس**: هو صدع متحول يمتد بطول حوالي ١,٣٠٠ كيلومتر في ولاية كاليفورنيا بالولايات المتحدة الأمريكية.

وقتئذ قد انقضت. بقيت لي خصلة يصعب الامتثال لها، إلا أنها تظل غير قابلة للرجوع فيها فتحصين نفسها باستمرار هي: تتبع أثر الألم.

هذا ما حدثت عنه بيتر غوتمان بعد ذلك كثيراً، لكنني في ذلك الصباح الأول لم أكن أعرفه بعد، فهو الذي سيصبح أحد آخر الزملاء الذين سأتعرف عليهم، وهذا ما كان مثار سخريتنا. في العموم كان هناك الكثير مما يثير السخرية في بهو المركز حيث كنا نلتقي لاحتساء الشاي وأكل الكعك الذي كانت تجهزه لنا ياسمين - الأخت الأصغر بين سكرتيرات المكتب - بانتظام في الساعة الحادية عشرة ظهراً والرابعة بعد الظهر مع الصحف العالمية من كل البلدان التي أتينا منها. الصحف الأمريكية طبعاً بالإضافة إلى الإيطالية والفرنسية والألمانية والسويسرية والنمساوية وحتى الروسية رغم عدم وجود أي روسي بيننا. كل الصحف مشدودة على عصا خشبية كما في المقاهي النمساوية، متأخرة يوماً أو اثنين، وهو ما كان يحفظ لنا مسافة مريحة من الأخبار غير السارة عادة، والتي كنا نتلقاها ونهز رؤوسنا بينما نتبادل قراءتها كأننا في سباق حول أيٍّ من بلادنا تسودها الظروف الأكثر إيلاماً.

لا أعتقد أني أكون مخطئةً إذا قلت إن النظرات الأكثر فضولاً كانت تتوجه إليّ دوناً عن أي شخص آخر في دائرتنا، ليس لأنني كنت الأكبر سناً فحسب - وهو ما كان عليّ الاعتياد عليه - بل بسبب موطني الذي يؤمّن لي وضعاً خاصاً. لم يكن أحدهم عديم اللياقة ليوجه لي سؤالاً مباشراً، لكنهم جميعاً كانوا يودون معرفة شعور شخص غادر لتوه بلاداً سقطت.

كان ضوء النهار يسقط كل يوم في غرفة نومي من خلال قضبان النافذة، متخللاً تشكيلات النباتات التي اعتلت جدار «ميس فيكتوريا»

وتسلق بعضها إلى نافذتي. ظلت أحلامي الصباحية تسوق إليّ الكلمات التي كنت أدونها فيما بعد: «ميئوس منه» أقرأها كلمات شاردة من سياق ضائع. في السرير أولاً ثم على طرفه كنت أقوم ببعض التمارين القليلة التي ألزمت نفسي بها، فبينما أنا وحدي في هذه البلاد البعيدة الغريبة يجب ألا أمرض أو تتعذر قدرتي على الحركة. أتوجه بعدها إلى الحمام الصغير الذي اخترته لنفسي، أقف تحت «الدُّش» المثبت في الحائط بطريقة غير الطريقة المعتادة في أوروبا، بحيث يتطلب ذلك تقنيات خاصة لترطيب كل أعضاء الجسد. أما الفطور الذي رافق الموسيقى الغامضة والأخبار غير المفهومة في إذاعة لوس أنجلوس المحلية، فكنت أصنعه من خليط مكونات غير مألوفة، «مافينز» - نعم ولم لا؟ - مع خلطة «الموسلي»[١] الفريدة وعصير البرتقال الذي كان أفضل ما حصلت عليه بعد عدة إخفاقات، أما القهوة فكان عليّ أن أتبع معها بعض التجريب. تطلب ذلك أن أجد شخصاً يعرف مذاقها لدى الألمان فيشير عليّ بالعلامة التجارية الأقرب لذاك المذاق بين عشرات العلب في متجر «بافيليونز» (في الجمهورية الألمانية الديمقراطية كادت تحدث انتفاضة حين حاولت الحكومة - للحد من استخدام حبوب القهوة «الحقيقية» الغالية - فرض خلطة غير مستساغة من البن على الشعب، إلا أن الاحتجاجات وصلت إلى حد التهديد بالإضراب مما اضطر الحكومة إلى سحب تلك الكميات من السوق بسرعة).

ترك لي بيل - الذي كان يسكن في الشقة المقابلة لكنه ذهب للإقامة مع صديق - مجموعة متنوعة من التوابل العجيبة ومخزوناً لا

(١) خليط من الشوفان والفواكه المجففة.

يستهان به من زجاجات زيت الزيتون وخل البلسميك والويسكي الفاخر ونبيذ كاليفورنيا. في يومه الأخير بالمدينة جاء معي لتناول الطعام في المطعم الإيطالي في شارع «سكوند ستريت» حيث أوضح لي بمودة وسخرية تقاليد فندق «ميس فيكتوريا» العتيق و«المركز» الحديث. المثير في الأمر- هكذا قال - أنه ما من مكان أفضل من «العالم الجديد» لدراسة «مجد أوروبا القديمة». فهم هنا مأخوذون بجمع كل شيء يتعلق بالقارة العجوز، لكأنهم يودون - إذا ما سقطت أوروبا جراء قنابل نووية أو كوارث طبيعية - إعداد نسخة ثانية منها بأي ثمن. كان بيل يدرس تاريخ الكاثوليكية في إسبانيا وفرنسا، وقد ذكر لي آلاف التضحيات البشرية التي تطلبتها حملات التبشير الأولى في هذه البلاد. مع كل حملة استعمارية، قال بيل إن الهمّ الأول كان القضاء على عقيدة البلاد التي يتم إخضاعها لانتزاع هويتها. بالإضافة إلى ذلك - وهو ما يصعب تصديقه - حاول الغزاة بدافع إلحاح عقد النقص المترسبة في أعماقهم ليس ادعاء تفوق أسلحتهم وبضائعهم فقط، بل التأكيد على أفضلية عالمهم الفكري والعقائدي أيضاً. بلى! أعرف هذا. تحدثت بينما رمقني بيل الإنجليزي بنظرة متفحصة: هذا بالضبط ما تعرفونه أنتم، أليس كذلك؟ لم يكن ينتظر إجابة. أحياناً حين أشرب كأساً من مخزونه في المساء أذكره فأشرب نخباً في صحته.

كثيراً ما كنت أمر صباحاً في طريقي عبر الحديقة الأمامية لفندق «ميس فيكتوريا» المزروعة بنباتات غريبة تتوسطها كعكة حجرية تنبت فيها شجرة نارنج رأيت ثمراتها تنضج. السيارات هنا تتسلل بأحجامها الاستثنائية في حذر شديد عبر التقاطعات، تقف بأدب حتى لو لم يظهر الرجل الأخضر الصغير على إشارة المرور للسماح للمشاة بالسير، ثم يميل جسد المركبة بخفة. سائقات ودودات أنيقات شعورهن مصففة

بعناية، أو سائقون يتسمون بالوسامة يرتدون بذلات داكنة وربطات عنق تلف الياقات، يتركون أسبقية الطريق للمترجِّلة، فأعبر من دون استعجال شارع «كاليفورنيا أفينيو». هل انتبهت أصلاً إلى الأشجار المزهرة بالأحمر الفاقع في نوفمبر وديسمبر على أطراف الشارع؟ ارتحت هذا العام من الجو الرمادي وأوراق الخريف التي بقيت رغم ذلك معطّلة بداخلي. فهل افتقدتها؟

في أي لحظة يمكن لذاكرتي استعادة منظر المركز، هذا البناء العملي المحايد متعدد الطوابق الذي ضم العديد من المكاتب، وقد استبدل منذ فترة بمجمع مبانٍ هائل على الطراز ما بعد الحداثي. سلم خارجي عريض مقام على مجموعة من الأعمدة أرى نفسي من بينها في زجاج الأبواب المتحركة الضخمة اللامعة كالمرايا وأنا صاعدة كل صباح. من بين ستة أبواب كنت أفتح الباب ذاته كل يوم لأدخل إلى البهو العظيم، حيث يقف الرجل ذاته كل يوم حارساً أو شيالاً، يحيي زائرين بعينهم بأن يمد ذراعه اليمنى ويطقطق بإصبعيه الوسطى والإبهام، يجول بنظره الثاقب أيضاً في المساحة المترامية الأطراف حيث شبابيك الصرف التابعة لمصرف «فيرست فيدرال بنك» التي تمتد على الجهة اليمنى من القاعة. بالمناسبة هذا هو المصرف الذي عهدت له عدة مرات بصرف «الشيك» الوارد إليّ كل أسبوعين، وهو الذي أكد شفهياً وكتابياً امتنانه لهذه الثقة، لكنه أعرب في المقابل عن عدم ثقته بجدّية وضعي المالي. فلم أكن بعد أمتلك بطاقة الصرف الآلي التي تمكنني من سحب النقود من ماكينة الصرف، الأمر الذي أبدت الموظفات خلف شباك الصرف أسفهن بشأنه مرة تلو الأخرى مع عدم إعطاء أية تأكيدات، بينما اختمر بداخلي انطباع أنهن أو مدراءهن المختبئين خلف الكواليس يتعمدون تأجيل استخراج هذه الوثيقة

المهمة حتى يتأكدوا أولاً أن الحساب المصرفي لهذه العميلة رغم صغره آخذ في النمو مما يقلل نسبة مخاطر وقوع انهيار مالي مفاجئ. ما زال الضحك يساورني أحياناً كلما استرجعت تنوع أسباب الشك فيّ في مختلف المجتمعات التي عشت وكنت أعيش فيها. على كل حال وفرت على نفسي التوجه للشبابيك المصرفية، وتوجهت مباشرة للمصعد وسجلت الطابق ولكن ليس من دون الاطمئنان إلى أن الحارس قد حياني لأول مرة ضمن زائري المبنى - وهم كثر - باعتباري جزءاً من دائرة المرتبطين بالمكان: كيف حالك اليوم يا سيدتي؟ - أه.. بخير! - وهناك مستوياتُ تدرُّجٍ لكل خير.

بين كل أربعة مصاعد اتخذت دائماً الثاني من الناحية اليسرى وتفحصت بإعجاب شديد الموظفة الشابة التي كانت تقف أمامي - في ثوبها الضيق القصير - تبسط كفها لي بهدية، بجعة مغلفة بالورق المذهب، ترتفع مع صعودنا للطابق العاشر الذي لا أضل طريقي فيه أبداً. كيف حالك اليوم؟ - Fine (بخير)، سمعت نفسي أقولها، دليلاً على صياغة ردود فعل جديدة، فحتى وقت قريب - الأمس فقط - كنت قد أحتاج إلى التنقيب طويلاً في رأسي لأجد بسرعة الإجابة المناسبة التي كان يمكن أن تكون pretty bad (سيئ للغاية) - لكن لماذا؟ هذا ما كان عليَّ التفكير فيه لاحقاً، لكنني عرفت آخيراً أنه ليس ثمة شيء متوقع مني سوى أداء طقوس لم تعد خاويةً وسطحيةً بالنسبة إليّ بل تكاد تكون إنسانيةً، وهي أعراض المصعد.

كالعادة خرجت في الطابق الرابع حيث يقف رجل الأمن الأسود الذي صار يناديني باسمي، أعطاني ظرفاً كان قد تسلمه عني. أدخلت المفتاح تلقائياً في الخزانة الصغيرة قاصدة المشجب الصحيح، وقد نسيت تثبيت بطاقة الهوية مع الصورة الشخصية على ثنية السترة وهي

تعد علامة أخرى على التبعية للمكان وهو الشيء المهم بالأساس.

أحياناً كنت أصعد سلم الطابقين الباقيين إلى الطابق السادس، وأحياناً - حين يشتد ألم المفاصل - أستقل المصعد. الرفوف التي تحمل أرشيف صور كل الأعمال الفنية من كل القرون وكل القارات كانت قدماي تعرفان الطريق إليها بسهولة. لم يعد يحدث لي أن أدخل مفتاحاً خاطئاً في باب غير صحيح. كنت أفتح إذن باب مكتبي وقد امتلأت روحي بحيث لم يعد عليّ التوجه فوراً إلى النافذة كي أطلَّ خلف شارع «سكوند ستريت» وخلف صفوف البيوت والنخيل ليغمرني شعور الاحتفاء برؤية المحيط الذي يمتد وراءه. الهاتف! إنها برلين، المدينة كلها انصهرت في صوت واحد كان عليَّ أن أسمعه كل يوم، ودَّ أن يذكرني ببحر البلطيق. بحر البلطيق.. أي نعم. كان وما زال عزيزاً على قلبي وسوف يظل كذلك. معروف أنني لا أتحمل طويلاً المناظر الطبيعية الشاسعة، مثل جبال الألب، لكن هذا يختلف عن الإحساس بأن المسافة حتى اليابان لا يوجد فيها أي شيء سوى هذه المساحات المائية اللانهائية. أكانت مشاعري مبالغاً فيها؟

وضعت حقيبتي التي حملت فيها كل ما أمكن من قصاصات الأوراق التي سقطت في يدي قبل عامين، بعد موت صديقتي إيما مباشرة. لا أبالغ إذا قلت إنها قد مسّت روحي: خطابات من السيدة «ل» التي لم أعلم عنها شيئاً سوى أنها كانت تعيش في الولايات المتحدة الأمريكية، كما يبدو أن صداقة قوية جمعتها بصديقتي إيما القريبة لها في السن. كانت هذه الخطابات سبباً آخر لمجيئي إلى هنا، بينما ظلت الأوهام تساورني أنني أستطيع أن أكتشف من تكون تلك السيدة «ل».

سلكت طريقي إلى داخل المركز ملوحةً أثناء مروري على

الأبواب المفتوحة حيث يجلس زملائي على مكاتبهم أمام الحاسب الآلي، هذا إن لم يكونوا في مكان ما في مكتبة المبنى الواسع أو في الأرشيف يتتبعون أثر شيء ما، أو في المدينة للالتقاء بباحثين آخرين. كنت أحسدهم أحياناً على مهنيتهم الشديدة، إذ كانت لديهم القدرة على تحديد تخصصهم فوراً، تاريخ العمارة أو الفلسفة أو الآداب والفنون أو تاريخ صناعة الأفلام بل وآداب العصور الوسطى، وكانوا جميعاً قادرين على تحديد موضوعات الأبحاث التي جاءوا هنا من أجل إتمامها، بينما أنا أقع في حرج شديد كلما سأل أحد عن بحثي، أو ربما كان عليّ أن أعترف أنه ليس عندي سوى رزمة من الخطابات القديمة لسيدة متوفاة وأن ما قادني إلى هنا هو فقط فضولي تجاه صاحبتها التي لا بد أنها عاشت هنا حين كتبتها لصديقتي إيما المتوفاة أيضاً، وأن الدعوة إلى هنا أتيحت لي لهذا السبب نفسه وأنني أيضاً قررت أن أستغل الفرصة بما أنه ليس من المفترض توقُّع معلومات دقيقة من مؤلفة كتب خيالية عن مشروعها. لكنني كنت شبه متأكدة أن الحظ والنجاح لن يحالفاني، وحتى الآن يبدو لي أن الصدف التي حالفتني في النهاية لإتمام هذا المشروع بنجاح شيء لا يصدق. عذراً إذا أنا أردت استثناءً أن أستخدم تلك الكلمات غير اللائقة لمرة واحدة.

الأقل إحراجاً بالنسبة إليّ كانت هي أساليب المناورة - أو ربما استشعرتها أنا فقط هكذا - التي اتبعتها مع سكرتيرتي القسم كيتشن وياسمين: الأولى في منتصف العمر غير لافتة في مظهرها إلا أنها على دراية وخبرة بجميع الأمور المتعلقة بالمركز، ويمكن الاعتماد عليها تماماً فهي كتومة ومتمرسة لاسيما فيما يخص تلك المهارات التقنية التي كثيراً ما كنت أحتاج فيها إلى المساعدة في البداية، بالإضافة إلى ما شعرنا جميعاً بقيمته وهو انخراطها في الأزمات والمصاعب التي

واجهت أياً من أعضاء جماعتنا. الثانية - ياسمين -شقراء صغيرة السن نحيفة محط أنظار الرجال، فكانت مسؤولة عن كل ما يخص أمور إعاشتنا وعن البريد الوارد والصادر وعن كل الشؤون التي تجري خارج المبنى، أي تنظيم المقابلات مع أشخاص آخرين من المدينة، وهو ما يتطلب دعوة من هذا الباحث أو ذاك في أحد المطاعم، ذلك لأن الزميلتين موظفتي القسم اعتبرتا نفسيهما مسؤولتين عن أن يشعر الوافدون الجدد بالألفة في هذه الغربة.

أخذت البريد من درجي، وأعطتني ياسمين مجموعة من الصحف، وقالت كيتشن إنه فيما يخص الطلب الذي أرسلَتْه بناء على طلبي إلى مكتبات الجامعة لم يصل الرد بعد. ولكن على كل حال لا يرجح أن يكون هناك أو في أي مكان آخر سجل كامل للألمان المهاجرين الذين وجدوا لأنفسهم ملاذاً هنا إبان فترة الثلاثينيات والأربعينيات. مع أن - قال لوتس - المواطن الذي يصغرني بكثير، الباحث في مجال الفنون - هذا الذي بجوارنا - يعمل على ماكينة التصوير، مع أن رابع المستحيلات ممكن هنا، أين إذن إن لم يكن هنا؟ ذكر على الفور مثالاً على ذلك، كيف وجد صورة لإحدى لوحات فنان منسي تمت إعادة اكتشافه - كان قد اختارها مادة لعمله - ببساطة شديدة موجودة هنا في الأرشيف، بعدما أعلنت كل أرشيفات أوروبا عن اختفائها. حسناً - قلت - بعض التعطيل، لكنني لا أعرف عن الشخصية التي أبحث عنها حتى اسمها. لا أعرف سوى الحرف الأول، في الغالب من اسمها الأول وهو حرف «ل». نعم إذن - قال لوتس - هذا موقف معقد في حد ذاته. إذن حتى هو لا يعرف ماذا بعد - قال - بينما نحن في طريقنا إلى الاستراحة، بما أن هذا وقت احتساء الشاي وسوف يتجمع الآخرون أيضاً هناك.

في القاعة حيث واجهة زجاجية ضخمة تفسح الطريق لنور كاليفورنيا الصافي من دون عائق وتجتذب النظر إلى المحيط الهادئ وإلى مسار الشمس في انعطافتها الممتدة من اليسار إلى اليمين، صورة أخاذة تخطف قلبي في كل مرة، ومنذ ذلك الحين وهي تتجلى من جديد في ذاكرتي أكثر من أي صورة أخرى رأيتها في تلك السنة. هناك جلسوا، كلٌّ وراء جريدة بلاده. عادات حسنة بدأت تتشكّل. مرحباً!- حييتهم - مرحباً! جاءتني من خلف الجريدة. كان هناك بالفعل شبه أماكن ثابتة، ومكاني - بالمصادفة أو لسببٍ ما - كان بين الإيطاليِّين: فرانشيسكو الباحث في مجال العمارة، وفالنتينا التي كانت قد جاءت في إقامة قصيرة لإتمام بحثها حول عمل فني من العصور القديمة في متحف «المركز» الشهير. كانت قد وضعت لي فنجاني، وإبريق الشاي في متناول اليد، والجريدة الألمانية التي قاموا هنا بدفع اشتراكها أيضاً. شكرتها بنظرة. بشعرها البني المموج وسترتها المرقّعة بجميع الألوان بدت مرة أخرى شديدة الجمال. كالعادة كلما التقينا ابتسمت لي بسعادة غامرة. صببت لنفسي الشاي، فتحت جريدتي وقرأت ما كان قد اعتبر ذا أهمية للنشر في ألمانيا منذ ثلاثة أو أربعة أيام. قرأت إذن أن زميلاً - كان قد اضطر لمغادرة بلادنا قبل سقوطها وبدا مع ذلك كرفيق عقيدة - ظهر كناقد متطرف لكل من بقوا في الجمهورية الألمانية الديمقراطية بدلاً من مغادرة هذه البلاد كرهاً فيها مثله. قرأت أنه اتهم «ثورة» خريف ١٩٨٩ بأنها لم تكن دموية. كان لا بد أن تتدحرج الرؤوس - قرأت - لكننا كنا مترددين وجبناء. كتب هذا من لم تكن رأسه في خطر على كل حال، خطر ببالي، ثم أدركت كيف بدأ بداخلي نقاش مع هذا الزميل.

تذكرت - وما زلت أذكر حتى اليوم - شعورك بالارتياح، حين

سار المنظمون باتجاهك صباح يوم الإثنين الرابع مع نوفمبر ١٩٨٩ في محيط ميدان ألكسندر بلاتس وفي أفضل الأجواء بالأوشحة البرتقالية التي كتب عليها: **لا للعنف!** في الليلة السابقة انتشرت في اجتماع - كنت حاضرةً فيه - شائعة تقول إن أعداداً من أفراد الشتازي[١] متنكرة في زي عمال قد تم حشدها باتجاه العاصمة، لاستفزاز المتظاهرين السلميين وإعطاء تبرير لهجوم قوات الأمن المسلحة عليهم. أصابك نوع من الذعر، هاتفت ابنتك، عليها ألا تحضر الأطفال معها إلى ميدان ألكسندر بلاتس، لكنهم كانوا قد لونوا لافتاتهم: «**أيتها المدرسة كوني أكثر متعة!**» و«**يا غوربي**[٢] **ساعدنا!**» ولم يكن من الممكن ثنيهم عن ذلك. راجعت خطبتك كلمة كلمة مرة أخرى. لم تتحدثا عنها، لكنكما فكرتما في مذبحة ميدان تيانانمن[٣] في بيكين. إن التصوّر بأنكم شديدو السذاجة وأن من السهل أن تكونوا واقعين في فخ

---

(١) **الشتازي**: جهاز استخبارات أمن الدولة الألماني في الجمهورية الألمانية الديمقراطية.

(٢) **غوربي**: اختصار لاسم غورباتشوف رئيس الاتحاد السوفياتي من ١٩٨٨ حتى ١٩٩١.

(٣) **مظاهرات ساحة تيانانمن**: أو ساحة السلام السماوي هي مجموعة من المظاهرات الشعبية التي وقعت في جمهورية الصين الشعبية، بين ١٥ أبريل ١٩٨٩ و٤ يونيو ١٩٨٩، وتمركزت في ساحة تيانانمن في بكين التي قام باحتلالها طلاب جامعيون صينيون طالبوا بالديمقراطية والإصلاح. في ٢٠ مايو، أعلنت الأحكام العرفية، إلا أن هذا لم يكن كافياً لإنهاء المظاهرات التي استمرت بدعم شعبي. بعد عدة أسابيع، اتُّخذ قرار فض المظاهرات وإخلاء الساحة بالقوة مما أسفر عن وقوع إصابات بين الجنود والمواطنين، إلا أن إخلاء الساحة تم في ليلة ٤ يونيو. واستمرت المعارك على الطرق حول الساحة، حيث كرر الناس تقدمهم باتجاه قوات جيش التحرير الشعبي المسلحة بالأسلحة الثقيلة، والتي ردت بنيران الأسلحة الآلية.

كان يثقل عليك. ولكن كلما زاد عدد المتظاهرين الذين خرجوا من فتحات مترو الأنفاق وتوافدوا على الميدان ورفعوا لافتاتهم وشعاراتهم وانضموا لصفوف المتظاهرين من دون الحاجة إلى توجيهات من أحد، زاد إحساسك بالاطمئنان إلى أنه لن يحدث مكروه. لم يكن ممكناً أن تعرفي، كلكم لم تعرفوا، أن مجموعات من قوات الجيش الشعبي على أسطح المباني العامة في منطقة أونتر دير ليندن تقف مسلحة بالذخيرة الحية. لربما تتطور الأمور. لربما يخرج المتظاهرون عن المسار المرسوم لاختراق حائط براندنبورغ عبر الحدود غرباً. وما نما إلى علمك لاحقاً هو: أن ابن أحد الزملاء كان بالأعلى في زيه الرسمي منبطحاً على السطح، بينما الابن الآخر يمر مع حشود المتظاهرين بالأسفل.

ولكن هل كان الجنود سيطلقون النار حقاً؟ بعد هذا اليوم ببضعة أشهر، حين كانت الحدود بالفعل قد فُتِحت، وكانت أجواء النشوة قد انقضت، والواقع الذي يبدو أن عليه أن يكون دائماً موقظاً آخذ في الزحف، كنت أنت محملة بحقائب التسوق عائدة إلى البيت في الحي الذي تسكنين فيه، فتبعك شاب وألح عليك أن تشربي معه واثنين من رفاقه - ثلاثتهم مجندون في الجيش الوطني بزي مدني - فنجان قهوة. جلستم في الحديقة الأمامية لأحد المقاهي، لا بد أن ذلك كان في أول أيام اعتدال الطقس. كان الثلاثة حتى سقوط الحائط يحرسون الحدود الغربية، تم سحبهم من موقعهم لعدم الحاجة إليهم، ليتم نقلهم إلى الحدود البولندية، وهو ما لم يكن يرضيهم إطلاقاً لأن لهم عائلات وبيوتاً أو منازل صغيرة هنا في برلين، وعلى أي حال كان سيتم تقليص حجم القوات. وهم لا يعرفون مصيرهم. لكنهم زعموا أنهم ساهموا بالفعل في ألا تطلق رصاصة واحدة في ليلة التاسع من

نوفمبر. الثلاثة - نقيب وملازمان - قالوا إنهم حين زحفت الجماهير إلى الحدود فحالت دون الوصول لمن يعطيهم الأوامر قد أجمعوا على جمع الزخيرة حتى لا يحدث مكروه. سألتهم لِمَ فعلوا ذلك، قالوا: إن الجيش الوطني لا يمكن أن يطلق الرصاص على الشعب. قلت: اذهبوا عني. فهل كان هذا كل ما حصلوا عليه؟ - أخشى أنه كذلك - إذَن - كما قال ثلاثتهم - فهم الخاسرون من الوحدة.

الاستراحة. كنت قد غبتُ عن الوعي لمدة أجزاء من الثانية، الذاكرة تتجاوز سرعة الضوء. سوف أطبع نسخة من مقال زميلي وأترك له الجريدة مع قصاصات ونسخ أخرى على الرف في شقتي، حيث ارتفعت بسرعة الكومة التي أودّ أن آخذها معي عبر المحيط عن طريق الشحن الجوي، لأضعها هناك في بيتي على كومة مشابهة بأحجام متفاوتة، صائدات تراب غير ذات جدوى، ربما تكون مفيدة يوماً ما لتدعيم الذاكرة التي لم أكن خلاف ذلك لأثق بها. لم أعد قادرة على الوثوق بها من باب الاحتياط. على الرغم من وعيي بأن الذاكرة التي تقدمها لي الصحف لا تساوي بالنسبة إلى عملي غير رقعة مؤقتة على الأكثر.

تأفف فرانشيسكو بشأن جريدته الإيطالية. السياسيون يقودوننا إلى الهاوية - قال - هؤلاء المجرمون. بلادي تغرق في الفساد. أطلعته على مقالي فقرأه وأخذ يهز رأسه. هل أصاب الجنون الجميع؟ - قال - أرجو ألا يحملك كلامي على الاكتئاب. لم أقل له ماذا كان يحملني على الاكتئاب. أخذ يحكي كيف يتمنى لو يعيش هو أيضاً تجربة الثورة يوماً ما. كيف يتصوّر أن إحساس الإنسان بالحياة - التي كلما طالت به صارت ضاغطة - قد يتبدل تماماً من خلال تجربة كتلك، بل يعتقد أنه قد يتأجج.

تغلبت على إحجامي - الذي لم أكن أنا نفسي أفهمه - عن الحديث عن تلك الأيام. فقد قلت إن التجربة التي أتاحتها لي المشاركة في واحدة من أندر الثورات التي عرفها التاريخ الألماني قد محت كل شك لديّ فيما إذا كنت أصبت حين بقيت في البلد الذي كان الكثيرون ليغادروه لأسباب وجيهة. لكنني اليوم سعيدة بذلك. ولكن ثمة خلل ما يبدو أنني منيت به يحول دون أن أدرك النشوة التي توازي حجم ما يسمى بالأحداث التاريخية. في ذلك الرابع من نوفمبر مثلاً - قلت - يوم المشاعر الجياشة، باغتتني وسط الخطبة التي كنت ألقيها على مئات الآلاف الذين وقفوا في الميدان نوبة اضطراب ضربات القلب - التي أعرفها جيداً، والتي لا يود الأطباء تحت أي ظرف من الظروف ربطها بأي أسباب نفسية - واضطررت لأن انتقل إلى المستشفى في إحدى سيارات الإسعاف التي وقفت متأهبة في محيط المظاهرة، مجهزة بكل المستلزمات لنقل العديد من المصابين. لكنني كنت الأولى والوحيدة التي تم نقلها، وقد قابلت فريقاً من الأطباء والممرضات الذين اعتبروني ظاهرة لأنهم كانوا قد رأوني للتو على الشاشة في قمة الحيوية. هكذا قضيت بقية الحدث مستلقية على سرير في غرفة الطوارئ بانتظار مفعول الحقنة. هذا يا عزيزي فرانشيسكو هو كل ما يتعلق بالإحساس بالحياة. ضحكنا. تعهدت بالمشاركة في الجولة التي ينظمها فرانشيسكو لليوم المقبل والتي سيأخذنا خلالها لمشاهدة عمل من الفن الحديث.

بات ومايك - الشابان الأمريكيان مساعدا القسم اللذان يضعان شارات كلينتون على القميص - أطبقا على عدد نهاية الأسبوع من جريدة «نيويورك تايمز» التي توقعت انخفاض فرص الديمقراطيين في الانتخابات. قال مايك عابساً: لو لم يفز كلينتون لكان عليّ أن أغادر

بلادي. - لماذا هذا؟ - أخذ الاثنان اللذان يعملان كل ليلة في مقر الحملة الانتخابية للديمقراطيين يشرحان لي كيف أمسى من الصعب على الليبراليين - فما بالك باليساريين - أن يجدوا وظيفة معقولة، وكم عصية ومحبطة بل مُستَنكَرَة هي الأجواء في الهيئات العامة وحتى داخل الجامعات، وكيف صار على المرء أن أن يحسن تقدير مع من يمكن أن يتحدث بصراحة، وأن أي شاب مثلهما لم يعد له أي أفق إلا إذا تكيف لدرجة التخلي عن ذاته. مثل هذه الأمور يسمع عنها في البلاد الأخرى القليل؟ - قلت: فعلاً.

بعد ذلك تجمّعنا لمشاهدة غروب الشمس في المحيط الهادئ، هو طقس لم يكن متفقاً عليه، لكن غالباً ما يُلتزم به، أما الشمس فقد ابتدعت من غروبها شيئاً خاصاً، نشوة لم نكن نعتقد أنها ممكنة، وقفنا مشدوهين نشاهد هذا العرض حتى خطر على بال أحدهم أن ينطق: الله موجود.

الضوء! نعم الضوء.. هو أول إجابة لي إذا ما سألني أحد عما أشتاق إليه عندما أسترجع ذكرياتي، الشوارع المحفوفة بالنخيل على الجانبين إلى ما لا نهاية والتي تبدو كأنها تصب في المحيط مثل طريق ويلشاير بوليفار الذي مررت عبره ذهاباً وإياباً مرات عديدة. أي نعم وكذلك فندق ميس فيكتوريا قد يخطر ببالي، فقد أغرمت به تدريجياً قبل أن أدرك أنه مكان مسحور. لم يكن مفاجئاً أن يأتي الزلزال الذي ضرب لوس أنجلوس بعد مغادرتنا جميعاً على هذا المبنى العتيق ذي الطراز الإسباني تماماً حتى يصير بلا نفع. لم يكن من السهل الالتفاف حول "how it works" (كيف يجري العمل به) ولكن كان لا بد من تناول الأمر بسخرية، فعن أي سكن آخر غيره يمكن قول ذلك؟ احتفظت ببعض النشرات التي كانت تدفع إلينا من تحت الباب من

مديرة الفندق الخفية، وهي في معظمها إنذارات: كان علينا مثلاً تركيز انتباهنا على أن يبقى الباب الخارجي طوال الوقت مقفلاً، وألا نسمح لأنفسنا بفتح هذا الباب لأي غريب تحت أي ظرف، لأننا بالطبع نتفق معها على ضرورة توفير الأمن، لاسيما في تلك الأوقات التي لم تحددها السيدة أسكوت. حينئذٍ لم يكن أحد منا قد قابل هذه المديرة وجهاً لوجه، لكن صورتها كانت قد ارتسمت في خيالنا جميعاً. سيدة صارمة في ثوب رمادي، متوسطة العمر شعرها معقود بإحكام. بالطبع كان لزاماً علينا للتعايش في فندق ميس فيكتوريا التحايل على تعليماتها، مثلاً تكوين شبكة علاقات في حالة ما إذا حدث - وإن نادراً - أن يقف زائر في وقت متأخر من الليل على الباب، الذي لا بد أن يبقى مغلقاً في وجهه من دون رحمة، وهو عادة ما يكون حسب السن والنوع إما عند إيميلي - الباحثة الأمريكية في مجال صناعة الأفلام التي كانت تسكن فوقي - أو عند بينتوس وريا، الشاب والشابة السويسريان اللذان كانا يسكنان تحتي، أو شخص وجد لنفسه مأوى ليلياً عندي.

وقد اتضح أن تهريب البشر أسهل من تهريب الحيوانات. في يوم من الأيام أُشهِرَت لافتة كبيرة: ممنوع الحيوانات! على الباب الخارجي المقدس، وقد تعاملت السيدة أسكوت - مبدعة هذه اللافتة - مع الأمر بمنتهى الحزم فيما يخص منع الحيوانات - كما عرفت من إيميلي - التي لم يُسمح لها باصطحاب ولا قطة واحدة من قططها المحببة.

وقتئذ لم أكن قد التقيتها وجهاً لوجه - صاحبتنا السيدة أسكوت - وحين رأيت سيدة عجوز نحيلة ذات يوم تركب السيارة الكاديلاك الفارهة التي كانت تزعجنا باعتراضها نصف الطريق أمام موقف

السيارات، لم يكن ليخطر ببالي ولا في الحلم أن أتوقع أن تكون هذه المرأة هي السيدة أسكوت - التي تحمل لقب المديرة في نهاية الأمر، وبالتالي لا بد أن تكون - كما أظن - بارعة في وظيفتها، وقد كانت على ما يبدو كذلك بالفعل، فإن المجموعة التي تتكون في معظمها من عمال النظافة البويرتوريكيين - امرأة ورجلين - والتي تقوم كل أسبوع مرتين بتنظيف غرفتي وتبديل ملاءات السرير كانت تعمل حتى يوم الأحد، أما العاملة - سوداء، شعرها قصير مجعد، ناهدة الثديين عريضة الأرداف - التي سألتها إن كان هذا ضرورياً، فقد دحرجت عينيها وقالت بإنجليزيتها العسيرة التي تتحدثها بعناء إن السيدة أسكوت "not good" (ليست طيبة). حسمت أمري حينها أن أحرص على أن أضع في ورقة الاستبيان الشهرية التي توزعها الإدارة لاستطلاع آرائنا فيما يخص مستوى أداء عاملي النظافة علامة ممتاز بلا مواربة. نعم، أداء ممتاز في تنظيف غرفة المعيشة، غرفة النوم، الحمام والمطبخ، أيتها السيدة أسكوت. آهٍ لو تعلمين كم أني لا أبالي بهذا.

الحكي بدءاً من النهاية

قد يكون عيباً، فإن المرء يواجه خطر أن يبدو أجهل مما هو في الحقيقة، مثلاً فيما يخص السيدة أسكوت التي كان علي أن أقابلها ذات يوم لا محالة، إذا صح استخدام هذا التعبير لوصف أول لقاء بيننا. ذات صباح تسلل من باب الشقة المقابلة لشقتي على السلم الخارجي كائن أنثوي نحيل، ذو شعر أشعث أبيض، ملفوف في تنورة صباحية مزركشة بالورود، نزلت الدرج أمامي، تعرفت عليها، سائقة

السيارة الكاديلاك التي عبرت بخطى خفيفة رشيقة البهو المترب المحتفظ بالطراز الكولونيالي الإسباني، واتجهت فوراً نحو الرجل المكسيكي القصير الذي جلس خلف طاولة أشبه بشباك التذاكر ممثلاً حارس العقار: «السيد إنريكو» الذي يقدره ويحبه جميع سكان فندق ميس فيكتوريا. ما أدهشني هو أن الرجل هبَّ حين اقتربت منه السيدة الغريبة وراح يتلقّى منها بعض التعليمات، ليس بخضوع ولكن لِنَقُل بجدية واحترام. هذه لا يمكن أن تكون إذن سوى السيدة أسكوت. حين التقينا أخيراً في البهو رمقتني بنظرة متململة من عينيها الزرقاوين الصافيتين، لأول مرة سمعت تحيتها اللطيفة بشكل مبالغ فيه بصوت عال مرتعش: "Hi" (مرحباً)، وجاءني انطباع أن مديرة الفندق تلك ليس لديها أدنى علم من الذي يمر بها في فندقها أو ما الذي يجري تحت هذا السقف، حيث يُفترض أن تكون هي المسؤولة عن إحلال النظام.

لا يمكنني التدليل على ذلك، لكنني لا أستبعد أن يكون أحد أسباب رفضي لكل دعوات العودة إلى هذه المدينة في السنوات الأخيرة الماضية هو أنني لا أريد أن أرى فندق ميس فيكتوريا وقد تحول إلى بقايا حطام أو إلى بناية جديدة على الطراز الحديث. يمكنني أن أتصور، أن بعض زائري مدينة نيو أورليانز القدامى لا يرغبون في السفر إليها بعدما شاهدوا هذه المدينة على شاشات التلفاز غارقة، يخوض أفقر سكانها حتى صدورهم في المياه الملوثة. لكن ربما كنت قد خدعت نفسي بشأن ذلك.

قبل أن أنتقل إلى التعريف ببعض أهم الأشخاص الذين سوف يضفون على فترة إقامتي بعض الإثارة لا بد أن أتذكر كيف كنت أقضي

أوقاتي حين لا أكون وحدي أو ربما في جولة بصحبة بعض الزملاء لاختراق المدينة أو التمتع بمزاياها، فبما أنني لم أكن أرغب في مناقشة مشروعي الأصلي المثير للسخرية - ألا وهو الكشف عن تلك السيدة «ل» التي كنت أحمل معي رسائلها إلى صديقتي إيما في كل مكان - فقد كان عليَّ التظاهر بالعمل. أجلس إذن مثل الآخرين جميعاً عدة ساعات كل يوم في مكتبي الذي يبقى بابه مفتوحاً مثل أبواب الآخرين أيضاً، وأتمادى بذلك في تسجيل يومياتي هنا بإخلاص وباستفاضة، وذلك باستخدام آلة كاتبة إلكترونية، ماركة BROTHER، كنت قد أحضرتها معي بلا داعٍ في الحقيقة، إلا أنني اعتبرتها نموذجاً انتقالياً قبل الكمبيوتر حيث إنني لم أكن بعد قد أَلِفت أجهزة الكمبيوتر الفعلية، والذي كان متوفراً هنا بالطبع للجميع كما كان الآخرون يستفيدون منه بالفعل. إن كوني الأكبر سناً كان عذراً مقبولاً لتأخري المخجل في المهارات التقنية، الذي تغلبت عليه بالمناسبة فيما بعد. على كل حال فقد كنت أجلس منهمكة في العمل أمام آلتي الصغيرة وما لبثت أن أدركت قصر الوقت المتاح لإنهاء تلك اليوميات المفصلة. هي - تلك اليوميات - تتكدس الآن حولي في كل ناحية على طاولات مختلفة بشكل مؤقت، إلا أن الرجوع إليها لتدعيم الذاكرة يحدث أقل تواتراً مما قد يتصور المرء. بالمناسبة كنت قد سجلت أيضاً بعض الأقوال المأثورة والملحوظات التي يبدو أنها لم يكن لها أية علاقة بتلك اليوميات. هكذا مثلاً أجد الآن مكتوباً بأحرف كبيرة وصغيرة متداخلة:

أما المدينة فيمكن استبدالها، لكن النافورة لا. المفترض أن تلك مقولة صينية قديمة، وهي تبدو قريبة جداً إلى قلبي، ولكن هل هي

صحيحة أو هل لها مغزى أصلاً؟ ألا تتعارض أساسا مع كلمة السر التي رافقتي إلى هنا سراً والتي هي على ما يبدو «المسافة»؟

الإنسان مخلوق غامض، قال الصوت على الهاتف، وعندما كنا نتبادل تلك الجمل العائلية كانت أموري عموماً بخير، بالطبع أنا بخير، وإلا كيف أكون إذن غير ذلك؟ ولماذا وممَّ المسافة؟

حتى الأزمة لا بد أن لها فوائد، أو هكذا على أي حال يزعم الناس الذين لا يعانون من أزمة آنية. الفائدة الكبرى من الأزمة يفترض أن تكون الإيقاع بالمبتلى بها في براثن الشك. على سبيل المثال: فإن الحقيقة القديمة التي تقول باستحالة توقيع كل ما يحدث و يتم التفكير فيه والشعور به في اللحظة نفسها على الورق بشكل موازٍ تزعجني لدرجة أن يتحول الشك في واقعية ما أكتب إلى محض انعدام لأي فرصة للكتابة.

لماذا لم أذكر بعد حيوانات الراكون[1] الثلاثة، تلك الحيوانات المهذبة التي كنت قد تعرفت عليها قبل أن أتعرف على السيدة

---

(١) **الرَاكُون أو الرَاقُون أو الرَاتُون**: هو حيوان ثديي من آكلي اللحوم يستوطن أنحاء متفرقة من الولايات المتحدة وجنوب كندا. وللراكون وجه يشبه وجه الثعلب وجسم يشبه القط السمين وتضم هذه الفصيلة ١٧ نوعاً تعيش في أمريكا الشمالية ونوعان في آسيا وبالتحديد جبال الصين وجبال التبت. ويقال إن الزعيم النازي هرمان نمورنغ قام في عام ١٩٣٤ بجلب مجموعة من الراكونات إلى ألمانيا لإثراء وتنويع حيوانات ألمانيا وتدريجياً سجلت أعداد الراكون هناك مستويات قياسية حيث تجاوز عددها المليون. وفي الولايات المتحدة ارتبطت كلمة راكون والتي اختصرت إلى كون Coon بحقبة سوداء من العبودية والتمييز العنصري وظهرت ككلمة احتقارية للمواطنين ذوي البشرة السوداء من عام ١٨٣٠. ولا تزال هذه الكلمة تستخدم ولكن من قبل المتطرفين فقط.

أسكوت؟ كانت تبدو لي مخيفة بعض الشيء حين تبرك على الممر الحجري المؤدي إلى مدخل فندق ميس فيكتوريا وتحملق فيَّ بثبات بعيونها المستديرة المحاطة بهالة فاتحة وتنكمش من دون أن تصدر أي حركة حتى أصفق بيدي فأهشها.

تفكرين بالتأكيد في البقاء هنا، قال فرانشيسكو، صاحبنا الإيطالي. كنت جالسة بجانبه في سيارته الكابريوليه الأمريكية القديمة المتأنقة بحِلياتها الخشبية، والتي كانت تمثل له تحقيقاً لحلم الشباب. انطلقنا بعد غروب مبكر وسريع للشمس في طريقنا على أحد الطرق السريعة، طويلاً طويلاً باتجاه الشرق، لنشاهد أحد الأعمال الفنية لفنان كان فرانشيسكو قد قال إنه «مشهور». لم أكن أعرفه، لكنني ذهبت مع الآخرين الذين تجمعوا في مرأب فندق ميس فيكتوريا حيث وزعنا أنفسنا على ثلاث سيارات. ذهبت معهم ببساطة كما أذهب معهم دائماً كلما أتيحت الفرصة، لأن المدينة - الوحش - قد بدأت تمارس عليّ عملية امتصاص لم أكن بعد أود أن أدركها. وها هو فرانشيسكو يرعبني بفرضيته أو بتشجيعه لي أن أبقى هنا.

أنا؟ أبقى هنا؟ لكن كيف يخطر لك هذا؟

معظمنا يظن أنه من الغباء ألا تفعلي. أن تعودي الآن. إلى محرقة الساحرات الألمانية.

تظنون أن عليَّ أن أهاجر؟

لبعض الوقت. بالمناسبة ألسنا نحن نسكن في مدينة المهاجرين؟

هل كانت معرفة الآخرين بي محدودة إلى هذا الحد؟ أم كانت رؤيتهم لوضعي أكثر واقعية من رؤيتي؟ لم أستطع توقع عدد المرات التي سيُطرح عليّ فيها سؤال فرانشيسكو نفسه، وكيف سيتم تحوير هذا الادعاء.

الشاعرية القاسية على الطريق السريع في ضوء المساء. بمتعة شديدة انخرط فرانشيسكو في حركة المرور، بينما حاول أن يشرح لي فكرة شرائه لهذه السيارة الفارهة من خلال عدوى الرغبات التي أصابته في صباه بسبب جرعة زائدة من الأفلام الأمريكية. كنت أرى فرانشيسكو من الزاوية: شعر أسود حالك ينسدل عنيداً فوق جبهته، أنف كبير مستقيم، كل شيء في منتهى الرجولة، أما إيناس التي جلست خلفنا فقد تحدثت بنبرة قد تعني الشك، والاستنكار، لكن أيضاً المواءمة المحسوبة. كانت هي الأكثر جمالاً بيننا في رأيي، بوجهها حاد القسمات ولبدة الشعر الأسود الذي يصعب ترويضه.

ساعة الذروة. كان علينا أن نتحول إلى جزء من ذلك الكائن الأسطوري ذي الألف عين الذي ينقسم إلى جزءين متساويين يتكون كلٌّ منهما من خمسة مسارات ويندفع كلاهما في مواجهة الآخر بمسافة لا تعدو الشعرة. كان علينا أن نضع أنفسنا مكان من كانوا أمامنا وخلفنا وبجانبنا عن يميننا أو يسارنا، من الأجزاء الأخرى من هذا الكائن الذي كان يتحكم فينا جميعاً ويعاقب بقانون حركته الخاصة كل خطأ بمنتهى الحزم، كما كان يُنقل لنا عبر التلفاز ليلة بليلة. العربات المنبعجة، والمنقولون في حالة هلع أو كجرحى، أو حتى الموتى الملفوفون في أغطية بيضاء على نقالات من ركاب كومة الخردة تلك، الذين يتم انتشالهم باعتبارهم غير أكفاء، باعتبارهم فشلة مخنثين لم يستطيعوا اجتياز اختبار الصلابة الذي نعرض نحن أنفسنا له - كما خطر لي - بلا داعٍ وبمنتهى التهور والسذاجة.

كان للحركة المطّردة التي كنا محاصرين بداخلها أثر التنويم المغنطيسي عليّ وأدخلتني في حالة نشوة خفيفة بحيث صارت كلمات فرانشيسكو تصل خافتة إلى مسامعي: قال إن هذا العمل الفني الذي

كنا ذاهبين لمشاهدته يدور حول شيء حديث جداً جداً، ولكن أن يكون هذا المعهد اللعين بعيداً إلى هذا الحد فهو ما لم يكن هو أيضاً يظنه. منذ فترة كان قد أضاء المصابيح الأمامية، من خلال الأضواء اللانهائية انقض علينا وحش حركة المرور. حينئذٍ فقط ظهرت منطقة وسط المدينة على اليسار، كالسراب، أبراج أضواء أشكالها غريبة. لا يمكن لأحد أن يتخيل - كما قال فرانشيسكو - أنه قبل عشرين عاماً لم يكن هناك شيء هنا، أن لوس أنجلوس كانت كعكة مفرطحة، من الناحية العمرانية. إلا أنه حتى اليوم يمكن الاستسلام لهذا الانطباع - كما خطر لي - تحديداًعندما أدارت منطقة وسط المدينة ظهرها وامتدت على الجانبين مساحات شاسعة ومسطحة من المشهد الحضري الذي يذكّر بحصص الحدائق[1]، لا يرتفع فيها سوى جذوع النخيل حاملة السعف المنفوش. كم لديهم من مساحات للبناء وتكديس الأبنية، هكذا تحدث المعماري بداخل فرانشيسكو.

كان الظلام قد صار حالكاً. تساءلت إيناس إن لم يكن فرانشيسكو قد فوّت المخرج، لكن فرانشيسكو عارضها غاضباً، بينما سبقنا من ناحية اليسار ريا وبينتوس الأصغر سنّاً في مجموعتنا اللذين يسهل تمييزهما من خلال سيارتهما الأنيقة الحمراء الفاقعة إلى جانب قبعة بيا

---

(١) **حصص الحدائق**: تتصف بتجمعها في مكان واحد وتشغل عدة أفدنة تخصصها مأمورية المحافظة لتوزيعها بالتأجير على بعض العائلات من السكان. تكثر في سويسرا وألمانيا حيث تقوم العائلة المنتفعة بزراعة حصة الحديقة التي استأجرتها، ويمكن للعائلة أن تقضي فيها وقتاً للاستجمام، أو أن تستفيد من المزروعات التي تقوم بزراعتها بنفسها، مثل الأعشاب العطرية أو الخيار أو القرنبيط أو الورود والأزهار ولكنها بكميات صغيرة حيث تكون مساحة حصة الحديقة في الغالب نحو ٥٠ متراً مربعاً فقط.

الجلدية. أبدت إيماءات يائسة من لانهائية الطريق. بعدها ظهر فجأة على لافتات المرور فوقنا اسم المخرج الذي كنا نبحث عنه، والآن كان على فرانشيسكو أن يسرع إلى الحارة اليمنى، كان عليه أن يأمل أن يدعه السائقون الآخرون يعبر كل الحارات الأخرى. وقد فعلوا ذلك، كانوا غالباً ما يفعلون، فالأمريكيون ينفسون عن إحباطاتهم أثناء القيادة، لهذا الغرض لديهم الأسلحة في منازلهم، "you see" (أتفهمين)، هكذا ستشرح لي صديقة أمريكية فيما بعد. "EXIT ONLY" (خروج فقط)، كدنا لا نصدق أننا على الطريق الصحيح وأننا وجدنا المنعطف الصحيح ثم حللنا في أرض مظلمة فظللنا ندور في الشوارع الجانبية باحثين عن كتلة سكنية، رأينا بينتوس وريا ينزلان أمام مدخل بيت مضاء، هناك توقفت أيضاً السيارة التي كان فيها أصحابنا المحاربون الأربعة الآخرون، هانو الباريسي العاطفي، الذي كان يأمل في وضع دراسة تأسيسية مقارنة بين مدينتي باريس ولوس أنجلوس، وإيميلي الأمريكية الوحيدة بيننا، التي لا تتوقف عن إبداء سخطها بسبب قسمات وجهها الحادة التي كنا جميعاً نعجب بها، كما كنا نعجب بمقالاتها عن الفيلم الأمريكي. كان لوتس - أخي في الوطن من هامبورغ - قد اعترف لي أنه جاء معنا فقط من باب الذوق، فإن تلك الحداثة ليست ما يستهويه، بينما مايا - زوجته التي كانت تعشق الملابس الفضفاضة - كانت تتواجد في كل مكان فيه شيء جديد عليها، وفي النهاية صارت تعرف عن لوس أنجلوس أكثر من أي واحد منا. العصابة كاملة، قال أحدهم.

دخلنا. كانت إحدى الطالبات بانتظارنا، فتاة بملامح يابانية، تقدمتنا عبر ممرات مبنية جزئياً من سياجات وأسوار متداخلة إلى مقصد رحلتنا، ذلك التركيب في الفراغ المشهور: غرفة مربعة مبنية من

حوائط سريعة التجهيز مصنوعة من أبسط المواد، وفي جهتين مقابلتين أقيمت أماكن مخصصة للجلوس أو الاستلقاء وُضِعت عليها كتل رمادية مختلفة الأطوال بعضها فوق بعض، حيث يُفترض أن يجلس الزائر ليرسل نظره إلى الحوائط الحمراء الداكنة المضاءة بإضاءة غير مباشرة، ومنها إلى السقف، حيث يوجد ثقب مربع يبلغ حوالي مترين مربعين، نافذة على السماء، الحدث الفعلي في هذا التركيب في الفراغ: سماء مسائية حالكة السواد، يحملق فيها المرء برأس مُسْنَد إلى الوراء لمدة كافية حتى يرى شيئاً. يريد الفنان من خلال هذا التكوين أن يعلم الجمهور الرؤية، حسبما شرح فرانشيسكو. لوتس الذي كان متخصصاً في فنون القرن التاسع عشر لم يستطع أن يكبت آهةً بداخله. حسناً - قال بينتوس المنشغل عادةً بآداب العصور الوسطى - دعونا نرى. كانت السخرية واضحة على ملامح معظمنا، لم يلجمها سوى وجود الطالبة اليابانية التي ظلت غير متأثرة إطلاقاً. صلبة إلى حد كبير هذه المقاعد، قالت إيناس أيضاً. أما ريا فقد ساءها أننا لم نكن نستطيع أن نرى ولا حتى النجوم. خلعت قبعتها الجلدية الصغيرة وانزوت في ركن ما. وحدها إميلي التي كان عملها يتمحور حول الخيال - صناعة الأفلام - بقيت صامتة ومنتبهة وكأنها تتوقع شيئاً غير عادي.

حسناً. استلقيت على إحدى الكتل الرمادية ونظرت لأعلى إلى هذا الثقب السماوي. بدأ السواد -كما بدا لي - يومض بعد وقت قليل. قلت لنفسي: انعدام العدم. صمت. على ما يبدو أصابتنا جميعاً حالة من السكون، لكنني سألت نفسي ماذا يعني ذلك حقاً. ربما يتخلص فرانشيسكو لبعض الوقت من الشعور بالذنب ومن الحصار بسبب عدم رضا إيناس عن حياتهما المشتركة، ويتحرر من التوتر الذي يجبره عادة على الاستعراض. وقد تكتسب إيناس أيضاً خلال هذه

المدة القصيرة بعض الثقة بالنفس، حتى لا يكون عليها أن تحمل فرانشيسكو مسؤولية هذا الفشل الذي تتصوره - هي وحدها ولا أحد سواها - عن نفسها. أما ريا فلن يكون عليها أن ترمي قبعتها الجلدية مرة تلو الأخرى في وسط الدائرة، ولن يكون على بينتوس أن يركض ليكون أول من يلتقطها - ممارسة لابد أن كلاهما سئمها، عرفت بعد فترة أنهما قد انفصلا، لم أعرف ذلك إلا مؤخراً. هانو - هكذا استكملت تصوراتي - لا بد أنه يحب ذلك الشعور بالتحرر من قيد نزعة إثبات تفوقه الحضري من خلال التعبيرات المقعرة والملابس الأنيقة.

وأنا؟ ماذا عني أنا نفسي؟

تدريجياً تفككت المعاني. الثقب السماوي المربع مارس عليّ جاذبية ما، ذكرني ببوابة الأسود المربعة في مدينة موكيناي[1] حيث الظلام يتربص بالمهزومين خلفها، تلك الظلمة المتناهية، لم يعطني ثقبي السماوي المربع حالك السواد منها سوى شعور مبهم بالترقب،

---

(١) **الحضارة الموكينية Mycenae** أو (الميسينية) هي أول حضارة أنجبتها بلاد **اليونان** القارية، ومركزها مدينة موكيناي الواقعة في إقليم أرغوليس **Argolis** شمال شرقي شبه جزيرة **البيلوبونيز** (الموره). وفي الزاوية الشمالية الشرقية لسهل أرغوس، التي تبعد نحو عشرة كيلومترات عن مدينة أرغوس ونحو اثني عشر كيلومتراً عن **البحر** الساروني. تؤكد الحفائر التي جرت في موقع المدينة وما حوله أن هذا الموقع عرف استيطاناً بشرياً منذ العصر البرونزي (٣٠٠٠-٢٨٠٠ق.م)، وأن مدينة موكيناي أنشأها ملك غابر نحو سنة ١٧٠٠ق.م، وأقام حولها أسواراً ضخمة وبوابات اشتهرت منها بوابة الأسود التي كشفت عنها الحفريات في القرن العشرين والتي تذكر المصادر التاريخية أنها كانت تفتح أبوابها في الصباح وتغلق في المساء ببوابات خشبية ضخمة. (المصدر: الموسوعة العربية)

بل أخذني معه، وتراجعت الحواس، تتراجع الحواس، خطر لي أيضاً، تسري بداخلي، ولِم لا، أعمق، أكثر عمقاً، الظلمة المتناهية، مرغوب فيها، نعم، أحيانا هي مرغوب فيها، تلك التي تحرّر من شعور الإجبار على قول كل شيء. كي لا تكوني في هذا النفق مجدداً، لا يمكن لأحد أن يطالب بذلك، ولكن من قال إن عليَّ أن أعدِّل نفسي حسب ما يطالبني به الآخرون؟ أعدّل، كلمة جميلة، إنني أحب تلك الكلمات مزدوجة المعنى، يُعدّل، يتم تعديله، هذا عادل. عدالة، أيتها الكلمة اللعينة. أعْمَق. أكثر عمقاً. دوامة تنتزعني ثم تقذف بي بعيداً. صمت. عين العاصفة هي المكان الأكثر هدوءاً على الإطلاق. والآن الاستسلام للسقوط. فقدان السيطرة، السقوط إلى الهاوية.

هيه، استيقظي!

لكنني لم أكن نائمة أصلاً!

ولكن يبدو أنني بدوت كذلك. هل رأيت حلماً على الأقل؟

أعتقد ذلك.

والآن دعونا نذهب إلى المطعم الصيني، هل ترغبين؟

أرغب في الذهاب إلى المطعم الصيني بعد منتصف الليل؟ كنت دائماً أرغب في ذلك، على ما أتذكر. كانت الصينية تدور وسط الطاولة الكبيرة المستديرة حاملة مختلف أصناف الطعام حيث تبادرها أيدينا، نعم كانوا على حق: كان هذا أفضل مطعم صيني في المدينة الكبيرة كلها. كان الوقت متأخراً، وكنا نحن آخر الزبائن على الطاولة، التي ستصبح طاولتنا الأساسية فيما بعد. كان صاحب المطعم البسيط وزوجته اللطيفة يقومان على خدمتنا بالمستوى نفسه من الأدب المتناهي، وبابتسامة خفيفة قد تعني الصدّ أو الترحيب، بحذاقة لا

يمكننا نحن الأوروبيين بلوغها. هكذا كانت الحال كل مرة، كلما أخذنا على عاتقنا أن نتحمل هذه الرحلة الطويلة فتحملناها إلى ذلك المطعم البعيد. أخذ كل منا يمتدح الأطباق المتخلفة لدى الآخرين. ذقنا كل شيء، شربنا نبيذ الأرز، كان مزاجنا جيداً.

حينئذ خطرت لبينتوس تلك الفكرة المشؤومة، وهي أن يوجه لي السؤال، والغريب أنه سألني بالإنجليزية، غالباً بسبب استشعاره الحرج:

What about Germany? (ماذا عن ألمانيا؟)

تعلمت أن أخشى هذا السؤال، فقد كان دائماً يعني الشيء نفسه: بم تفسرين لنفسك ولنا تلك الصور الآتية من المدن الألمانية التي تمتلئ بها الصحف هنا: مساكن اللاجئين المشتعلة، العبارات المعادية للسامية على جدران المنازل، رئيس يتم قذفه بالبيض أثناء مظاهرة مناهضة للعنصرية. كانت العيون المتسائلة كلها موجهة إليّ وهو ما يجعله مستحيلاً بالنسبة إليّ أن أقول ببساطة: أنا أيضاً لا أعلم. لا أستطيع أنا نفسي أن أجد تفسيراً. إن ذلك يفاجئني تقريباً كما يفاجئكم أنتم أيضاً.

لكن كلمة «تقريباً» هي بالضبط المشكلة. أفلم يكن عليك أن تكوني مستعدة لأي شيء منذ ذلك اليوم الذي وقفت فيه عند شواهد قبور بريخت وهيلينا فايجل[1] الملطخة بعبارات «اليهود الخنازير»؟

---

(١) **هيلينا فايجل**: ولدت فايجل ١٩٠٠ في فيينا وكانت ابنة مدير وصاحب شركة لصناعة اللعب. بعد أن أكملت مدرسة الدراما في فيينا عام ١٩١٩، سافرت إلى فرانكفورت وبرلين، ودرست الدراما على يد ماكس راينهارت عام ١٩٢٢. وهي الزوجة الثانية لبريخت الذي طلق زوجته الأولى الممثلة ماريان تسووف في عام ١٩٢٤ وتزوج بعد خمس سنوات، في عام ١٩٢٩، =

ولكن أستعد لأي شيء؟ لأن يخرج أهل بلدة ميكلنبورغ، تلك الهادئة المسالمة الخاضعة المملة بعض الشيء ذات يوم جميل بعد «التحول»[1] إلى الثكنات المحتلة من قبل القوات السوفياتية، المطوقة بصرامة والمحاصرة بالشائعات، شائعات تسريح للجنود التي تأكدت فعلاً بعد سحب القوات السوفياتية: نعم، هنا في الجوار القريب تمركزت صواريخ نووية. إذن أن يخرج الأهالي المسالمون من بلدتهم ليحتلوا الثكنات ليل نهار، لأنها كان لا بد أن تتحول إلى مخيم انتقالي للاجئين، كما كانوا جميعاً يتمنون - هم الذين صاروا في تلك الأثناء جميعاً عاطلين عن العمل - وليس إلى مركز سياحي وسط الطبيعة في تلك المنطقة التي تشبه قطعة من الجنة. هل كنت لأتصوّر أنهم سيسكنون في مخيمات، وهو ما لم يفعلوه منذ طفولتهم ومنذ خدمتهم في الجيش الوطني الشعبي؟ وأن النساء سيجلبن لهم الطعام إلى غابة «فرو زومر» العطرة الآمنة في أوانٍ عازلة للحرارة؟ هل كانوا يغنون في المساء؟ أي أغنيات، كم أحب أن أعرف ذلك.

لم يكونوا عدائيين ضد الأجانب، هكذا أعلن سكان المدينة الصغيرة. هم فقط أرادوا لفت الانتباه إلى أوضاعهم البائسة ووقف عمليات الفصل التعسفي من العمل. لكن قيل إنهم حين انسحبوا من الثكنات عائدين إلى بيوتهم وضعوا شجيرات البتولا الخضراء أمام

= من صديقته هيلينا فايجل التي رافقته فترة طويلة، وقد استمر زواجها ببريخت حتى وفاته ١٩٥٦، محفوفاً بمخاطر انفراطه، بسبب علاقات بريخت المستمرة بنساء أخريات. (المصدر: لطيف الحبيب: نساء بريخت المقدسات، الحوار المتمدن، ٥/ ١٢/ ٢٠١٣، العدد ٤٢٩٦)

(١) **التحول**: هو التعبير الشائع في ألمانيا لوصف الأوضاع ما بعد سقوط حائط برلين والوحدة بين ألمانيا الشرقية وألمانيا الغربية.

أبواب منازلهم، كعلامة على أن الغجر غير مرغوب فيهم هنا. ولم يسعني سوى أن أتخيل كم بدا جميلاً ذلك الشارع الوحيد الطويل الذي كان يبدو في أحوال أخرى رصيناً - ذلك الذي كان قد تمت تغطيته مؤخراً بلافتات الإعلانات فاقعة الألوان - وهو مزين بحليات من البتولات الخضراء، وكم كان هذا الحسن ربما حزيناً. وكم قد يكون محزناً أيضاً دخول الحجرات الصغيرة مساءً، حيث يكون التلفاز مفتوحاً طوال النهار، والزوج آتياً ليس من العمل إلى المنزل وإنما من الحديقة الصغيرة أو من الحانة أو من على الأريكة المقابلة للمنزل التي يمكنه الآن الجلوس عليها طوال اليوم وقراءة الصحف التي تجعله فقط أكثر سخطاً وإحباطاً، ففيها قرأ - وما زال يقرأ حتى اليوم - ما لم أستطع أنا معرفته عندما كنا نجلس في المطعم الصيني وكان عليّ أن أحدِّث الآخرين عما يجري في ألمانيا. قرأ ويقرأ حتى اليوم معدلات البطالة، حوالي ٢٠٪، وهي أعداد تم تجميلها، وقد تساءلت وقلت ذلك: إنني أسأل نفسي كيف يمكن للمرء أن يحول دون أن تتراكم الإشارات الخاطئة واحدة تلو الأخرى، لماذا مثلاً - قلت بينما دارت الصينية المستديرة حاملةً الأطباق الصينية - لماذا لم يتحدث أحد إلى الناس في البلدة الصغيرة، ولماذا لم يسألهم أحد ما الذي يريدونه أصلاً، ولِمَ تُرِك الأمر ليصل إلى هذا الحد بحيث يتم استنكار عدائهم للأجانب إلى حد التشهير بهم باعتبارهم معادين للأجانب؟ كلا - سمعت نفسي أقول - كلا، إنني لا أصدق هذا. إن التقارير الإخبارية في وسائل إعلامكم أحادية النظرة، وكأنه لا يوجد شيء في ألمانيا الشرقية سوى منازل اللاجئين المحترقة. هذا كل ما تنتظرونه إذن هنا من الألمان. لكن لن يحدث ذلك التكرار الذي تخشونه. نحن لن نرتضي ذلك.

من «نحن»؟ سأل فرانشيسكو، وكأنه صدى الصوت المرتفع للسؤال الذي كنت أسأله لنفسي في صمت.

وبالمناسبة - قال هانو الفرنسي حرصاً منه على حفظ بعض التوازن - بالمناسبة هذه ليست مشكلة دولة أو منطقة. القضية الفصل هي في الحقيقة مدى سمك وقوة تحمل سقفنا الحضاري. كم يتحمل من الكيانات المنسحقة الحمقاء التي لا تملك أفقاً، حتى يتحطم عند هذه النقطة أو تلك التي لم يكد يتم رأبها.

ثم ماذا؟

حينذاك كنت أكثر حرصاً في استخدامي لكلمة **الهمجية**، بينما أجدها اليوم ببساطة على طرف لساني. تفتقت خيوط اللحمة التي كانت توحد كيان حضارتنا، ومن الهوة التي انفتحت طفح الوبال ليدع الأبراج تنهار والقنابل تسقط والبشر ينفجرون كعبوات ناسفة.

إشارات على الشريط متعدد المسارات الذي دار في ذهني في حلقة مستمرة، والذي تمت مناقشة أحد مساراته من دون تدخّل مني. حذفٌ، حذفٌ، لكل المادة غير المرغوبة وغير المفيدة، ما تم التفكير فيه بشكل مبدئي أو بالأحرى ما تم التفكير فيه بينما ارتسم على مسار ذهني آخر خليط سمعبصري متتابع، أصوات المدينة، صفارات إنذار، أصوات سيارات الشرطة المزعجة بحضورها الطاغي السخيف بينما تتتبع ضحاياها وهي تعوي كالحيوانات المفترسة الجريحة، أو القرع القصير الصاخب لأحد أجهزة الإنذار عندما يقترب شخص من إحدى تلك السيارات المقدسة. أو سيارات الإطفاء، تسرع نائحة بكل ما تحمله صورة رجال الإطفاء منذ الطفولة من جمال، كعادتها متجهة مباشرةً نحو الحريق ونحو الكاميرات التي عادة ما تكون قد وصلت بالفعل إلى هناك لتنقل إليّ بإصرار كل مساء صور جثث المحروقين

والمشوهين وصرخات ودموع الناجين على الشاشة في شقتي، بدأب - كما تفعل القطط الوحشية مع أي فأر يقع تحت حصارها - كانت تنقل كل قتيل من الضحايا اليوميين لهذه المدينة المتوحشة حتى عتبتي، وهو ما جنيته أنا على نفسي في البداية بل والتزمت به كأنه تدريب إجباري. ماذا يعنيني في هؤلاء الموتى الغرباء؟ حتى فاجأت نفسي ذات مساء - وسط فورة من اليأس أصابت أمّاً كان ابنها الأصغر قد جرفه جدول الماء الذي لم يكن خطيراً لولا آخر موجة أمطار غزيرة مفاجئة - وأنا أضغط على زر الإيقاف الوردي. هذه الإيماءة الصغيرة أوضحت لي أنني قد توطّنتُ هنا وأن الأمل الكامن في أن أبقى خارج هذا المشهد قد خدعني مرة أخرى.

كنت جالسة على الناحية الضيقة من طاولة الطعام الطويلة في شقتي حيث كانت مؤخراً آلتي الكاتبة، وكتبت:

ماذا لو أن نشاطاتي كلها التي لا بد أن تنم عن منتهى الاجتهاد لم تكن سوى محاولة لإسكات ذلك الشريط الصوتي الذي يدور في رأسي، لكنني لا أستطيع أن أعرف بعد أي ضحالات قد يعاد حرثها أو على العكس قد تدفن بداخلي.

حاولت المكالمة الهاتفية جاهدة تحذيري عبر المحيط: إنك الآن حرة تماماً ويمكنك أن تكتبي ما تشائين. انطلقي إذن، فماذا يمكن أن يحدث لك؟ - نعم، نعم. - ليس عليك الدفاع عن نفسك، عليك فقط وصف الحال كما كانت. - نعم نعم. الدفاع؟ في البدء كانت فقط مثل تلك الكلمات المتفرقة الخادعة.

بعد ذلك حاولت أن أنام في سريري الواسع الذي لم يعد كما كان أكثر طراوة مما يجب منذ أن وضع السيد إنريكو لوحاً تحت الفراش، بعدما عبّر عمودي الفقري عن حاجاته الماسة لذلك. لم أستطع النوم، ولم أستطع أن أطرد صورة مقبرة بريخت الملطخة، ولا أن أتوقف عن استحضار بعض أبيات الشعر:

نظراً لأنكم تهددوننا
بالمدافع والسلاح
قررنا منذ اللحظة أن نهاب حياة البؤس
أكثر مما نهاب الموت

على المسرح هناك يقف الممثل في زي الكومونيين[1] الباريسيين، وفي قاعة المتفرجين، أنتم الشباب، وجوه المتحمسين من جيلك، التي لا ترى في نفسها مصير الكومونيين، ألا وهو الفشل، وقد كنتم متأكدين من ذلك، تضحكون بازدراء على كل المتشككين،

---

(١) **كومونة باريس** أو الثورة الفرنسية الرابعة هي حكومة بلدية ثورية أدارت باريس لفترة قصيرة ابتداءً من منتصف مارس ١٨٧١. قامت الثورة في باريس وبعدها الكومونة كنتيجة لخسارة نابليون الثالث الحرب مع بروسيا ودخول الجيش البروسي المذلّ إلى باريس بعد حصارها، وانتخب تسعون ممثلاً في الكومونة أو مجلس مدينة باريس باقتراع عمومي وأعلنت حكمها على كامل فرنسا. كان نزاعها حول السلطة مع الحكومة المنتخبة لفرنسا سبباً رئيسياً في القمع الوحشي لها من طرف القوات الفرنسية النظامية فيما سمي بعد ذلك بـ«الأسبوع الدموي» في ٢٨ مايو ١٨٧١. صاحبت النقاشات حول سياسات ومآلات الكومونة تداعيات سياسية مهمة في داخل فرنسا وخارجها خلال القرن العشرين حيث اعتبرت أول ثورة اشتراكية في العصر الحديث.

خطر لي وقد رأيت تلك الوجوه بعين الخيال في ثوان وقد كبروا وصاروا ضيقي الأفق ومستهلكين ومحبطين. خائفين أيضاً، وأنانيين، وأغبياء، لامبالين، فاقدين الإيمان ومتشككين، كالعادة. نحن بالتحديد لا بد أن ذلك لن يمسنا، يال الغطرسة.

قفزة زمنية. أليس هذا هو المكان نفسه في المدينة نفسها - على بعد بضعة كيلومترات من هذه الغرفة التي كنت أرقد بها ساهدة - حيث أنزل المهاجر بريخت على صاحبه غاليلي - الذي سوف يتجسد لنا نحن الشباب فيما بعد في صورة إرنست بوش[1] - تلك النزعة المتوحشة للسعي وراء الحقيقة. لا يمكن لأحد أن يستمر في رؤية حجر يسقط على الأرض ويظل يستمع إلى حديث: إنه لا يسقط. بلى يا بريخت، كلنا نستطيع ذلك. وعندما أردنا أن تحتقر صاحبك غاليلي لأنه تخلى عن موقفه في النهاية كان الحجر قد سقط بالفعل أمام أعيننا، سقط واستمر في السقوط ونحن لم نره حتى. ولو أن أحداً كان قد أشار إليه لكُنّا سألنا فقط: أي حجر؟

(١) إرنست بوش (١٩٠٠-١٩٨٠): ممثل ألماني بدأت شهرته كمحلل للأغاني السياسية في برلين في العشرينيات وكان من أشهرها أغاني كورت توخولسكي. اضطر بسبب انتماءاته الشيوعية للهرب من النظام النازي الألماني في عام ١٩٣٣ والاستقرار في الاتحاد السوفياتي بعد مطاردة الغيشتابو له. في عام ١٩٣٧ انضم للقوات الدولية لمواجهة القوميين في إسبانيا وقام بتسجيل أغنيات الحرب في إذاعة برشلونة ومدريد. وبعد سقوط الجمهورية الإسبانية هاجر بوش إلى بلجيكا حيث تم اعتقاله وإيداعه معسكر جورس جنوب فرنسا، وقد تم تحريره فيما بعد عام ١٩٤٥ من قبل الجيش السوفياتي. استقر بعدها في شرق برلين حيث عمل مع برتولد بريخت وإيروين بيسكاتور، وذاعت شهرته في الجمهورية الألمانية الديمقراطية لاسيما بعد أدائه دور البطولة في مسرحية حياة غاليليو لبريخت.

بلى لقد رأيتِها - بائعة الورد التي كانت تقحم نفسها في شؤون الدولة، كان ذلك في خريف ١٩٨٩. كانت تقف في الشارع وتوزع المنشورات التي صممتها بنفسها. كان بإمكانك تمييز تعبيرات وجهها عن وجوه الممثلين الذين لعبوا دور الكومونيين. وجه مشرق ينضح بالأمل والإصرار. إذن فإن هذا موجود - خطر لكِ - وكنت لا تريدين نسيانه، حتى وإن كانت اللحظة التاريخية التي تُبرز مثل هذه الوجوه قد مرت بسرعة رهيبة، وانقضت بالفعل. كان كافياً أن تكوني قد مررت بها - كما خطر لكِ - من أجل ذلك كان كل العناء مستحقاً. وقد قالت بائعة الزهور الشيء نفسه بالكلمات ذاتها.

في لحظة ما غالبني النعاس فوقعت ثانية في أحد تلك التجمعات الخيالية والتي بدت مبدئياً كمحاكمات، هذه المرة في قاعة الاستماع الكبيرة بالجامعة. نوديَ على اسمكِ ثانية، وسمعتِ الصوت الحاد يقول كلمة: «الوثيقة»، كان عليك الإدلاء بأقوالك فيما يخص ضياع وثيقة الحزب الخاصة بك، والتي وقعت هي وحقيبة الخطابات كلّها في يد أحد اللصوص. إنه لشرف لكل رفيق أن يحمل وثيقته معه دائماً، لكنه أيضاً مطالب بأن يكون جديراً بالحفاظ عليها من الضياع. هل تدركين أن ضياعها يفتح باباً لكثير من الاستنتاجات حول علاقتك بالحزب؟ اعترفتِ في تردد، لكنكِ سراً كنت تعارضين. ألم تكوني على علم بما كان الرفاق ليُحمّلوا أنفسهم أيام الفاشية لحفظ وثائقهم الحزبية وحمايتها؟ وكيف كان يمكن لعدو الطبقة هذا الذي وقعت وثيقتك في يده أن يسيء استخدامها. نعم، سمعت نفسي أصرخ بينما أفقت من النوم. تعرفت على شعور اليأس وكبح الاحتجاج الذي ظل وقتها - قبل أربعين عاماً - يطاردني مدة طويلة.

عقوبة الحزب. يجب ألا تأخذي الأمر بشكل شخصي، قال لك

فيما بعد أحد الرفاق، ذاك الذي كان الأكثر هجوماً عليك في الاجتماعات. ولكن كيف تأخذين ذلك إذن؟ كانت تلك مسألة مبدأ - كما سمعتِ - وكان ذلك بالنسبة إليك أمراً مفروغاً منه، وكنت ستكونين أول شخص يحتج على أن يلعب حَمْلَكِ أي دور في هذا الجدل. على المرء أن ينحني أمام المبدأ. في هذه الحالات لا يمكن تفادي بعض الصعاب.

أخرج الكتيب الأحمر من حافظته، أتصفح أوراقه الملصقة عليها علامات تجارية مختلفة. لن أتخلص منه، سيعاد لحافظته مع أوراق أخرى لم تعد صالحة. عبثاً أنتظر أي استثارة للمشاعر. متى انتهت صلاحية المشاعر التي كانت تربطني بتلك الأوراق؟ تلك الزمرة من المشاعر المختلفة المتناقضة والمستعصية؟ تلك التي تلاشت على مر السنين. ولكن ماذا يعني ذلك؟ علي أن أسأل نفسي. ألم يتلاشى كياني العاطفي كله معها أيضاً؟ هل أصابه الهزال؟ وهل سيتمكن من تذوق إحساسي بالحياة ما تبقى منها؟

هرولت بلباس النوم إلى آلتي الكاتبة وكتبت:

للذاكرة عدّة مسارات. مسار المشاعر هو الأبقى والأكثر صدقاً. لماذا هو كذلك؟ هل يتم استخدامه بشكل أكثر إلحاحاً من أجل النجاة؟

جزء من متعة الحكي هو بالأساس متعة الهدم التي تذكرني بمتعة الهدم في الفيزياء التي قرأت عنها في الصحافة تحت عنوان: «إعادة البث للمتقدمين». استطاع إذن علماء الفيزياء الكمية التحكم في

الذرات بحيث يمكن الهمس عبر مسافات بعيدة ونقل حالة التراكب الأصلية للذرة «أ» على الذرة «ب»، أياً كان ما يعنيه ذلك. على كل حال فإن أكثر ما يفتنني هو خبرية أن عالم الفيزياء استطاع بمعاييره هدم الحالة الأصلية وذلك بمراقبة البشر بدقة ونقل كل ما يدور بينهم من دون أي مراعاة للعواطف على الورق. لكن متعة الهدم تلك - كما أقول لنفسي - تتوازن من خلال متعة الخلق. تجعل الأشخاص الجدد والعلاقات الجديدة تُخلق من لا شيء. وكل ما كان قبل ذلك يتعيّن عليه أن ينمحي.

ليلة بليلة - أذكر ذلك جيداً - كنت أجلس أمام التلفاز الذي يعرض مسلسل Star-Trek وقد سمحت لنفسي أن أتحجج بأن عليَّ أن أُحَسِّن لغتي الأمريكية، لكنني كنت أعلم في قرارة نفسي أن تلك كانت حاجتي للحكايات الخيالية وللنهايات السعيدة التي كانت تأسرني، لأنه كان باستطاعتي أن أكون متأكدة أن احتلال Star-Trek سيحمل كل قيم البشرية النبيلة فيَّ إلى كل المجرات البعيدة، ويفرضها رغم أنف كل عدو شائن، ومع ذلك لن يتكبد هو نفسه أي خسائر.

رن جرس الهاتف. أخيراً سمعت صوتاً كنت قد انتظرته منذ أيام.

- كيف حالك يا سالي؟ جاءني صوت غريب مكفهر، قال: انكسر قلبي، أعني ذلك حرفياً. أدركت الأمر عندما وقفتُ أمام سالي في بيتها الصغير بعيداً عن المركز في منطقة يصعب الوصول إليها. لم يكن هناك سبيلاً للمساعدة ولا للتعزية، لم يكن هناك ما يمكن قوله، حتى الفزع من مدى ما بدا عليها من التقدم في السن، وشعرها الذي صار رمادياً ولم يعد قصيراً سهل التصفيف، بل صار مشعثاً كالأدغال، كل ذلك كان لا بد من كتمانه. سألتني كم سيستغرق هذا، كانت تعني شعورها بالخسارة. سيستمر ذلك - قلت وأنا واقفة في المطبخ العملي

الصغير بجانب سالي، أنظر إليها كيف تقطع الطماطم وتبشر الجبن - سيستمر ما لا يقل عن سنتين. تذكرت عندما قالها لي صديق من براغ. كان ذلك في ١٩٧٧، أي قبل عقد ونصف من تلك اللحظة، كان ذلك على الطريق من هارادشاني[١] إلى البلدة القديمة، في يوم بارد وعاصف في بداية أبريل، كان ربيع براغ قد مضى منذ زمن بعيد، أما الصديق البولندي فكان قد تخطى تجربة الاستسلام لليأس قبل ذلك بأكثر من عشر سنوات. أما أنت فلم تعرفي سوى منذ الخريف الماضي معنى أن يعيش المرء بلا أمل. ١٩٧٦، العام البغيض، في شهر ديسمبر شديد البرودة كنتِ واقفة في شارع برليني مظلم أمام إحدى نوافذ العرض المضيئة تحملقين في أنابيب معجون الأسنان والمنظفات ثم أدركتِ فجأة: هذا هو الألم. أن يكون عليك تحمّله لأكثر من عام هو ما لم تودي تصديق صاحبك بشأنه. سنتان! قلتِها ساعتها بتشكك، لكنني أدركت خلال هذه المعركة الكلامية كم بقيتُ تحت وطأة هذا الضغط. تبقّى بالنسبة إلى سالي قياساً على تلك الحسبة ستة أشهر. قالت إنه أمر مهين، فقلت: نعم. هكذا شعرت أنا أيضاً. أحياناً - قلت وأنا أحاول جاهدة الاقتراب بقدر الإمكان من تجربتي الشخصية - أحياناً يأتي التحول فجأة، "you know"، بين عشية وضحاها. تستيقظين من النوم وتشعرين أنك حرة.

لكن سالي لم تكن تستمع إليّ، كانت لا تزال تحت وطأة هذا الضغط. قالت إنها كانت دائماً تظن أنه إذا حدث معها ذلك فسوف

---

(١) **هارادشاني أو حي القلعة**: يعتبر بوابة لقلعة براغ التاريخية أكبر قلعة في العالم حيث تقع أيضاً كنيسة القديس فيتوس. في عام ١٧٨٤ كانت هارادشاني واحدة من أربع مدن اتحدت لتشكل مدينة براغ. المدن الثلاث الأخرى هي المالاسترانا والبلدة القديمة والبلدة الجديدة.

تستطيع أن تكون متسامحة مع الرجل الذي تركها من أجل امرأة أخرى، لكنها لم تستطع. كلا، لم تستطع. فلم يكن هذا أي رجل - "you see" - كان هذا رون. كانت تشعر بما يشبه الالتزام وكأن عليها أن تستغل شعوره بالذنب إلى آخر مدى، هل تفهمين ذلك؟ كان لديه كل ما يتمناه، وظيفة تروق له، ونقود وامرأة شابة جميلة يزين الوشم أنحاء جسدها. كان حراً، يمكنه أن يفعل ما يشاء أو يدع ما يشاء يحدث. وأنا - قالت سالي وهي تخلط السلاطة - كنت دائماً أعدّل من نفسي حسب ما ينتظره مني الآخرون. أنتِ يا سالي؟ قلت لها: لا تبالغي، ورحت أصف الصورة التي كنت قد رسمتها لها عندما تقابلنا أول مرة في تلك الكلية في الشمال: شابة مثيرة، شديدة النحافة، واثقة بنفسها، لديها خبرة، مرحة ونشيطة، متطرفة في حماستها، راقصة عنيدة لديها دائماً أفكار مبتكرة، أستاذة بالكلية التي كان عليّ أن أدرس فيها الكتابة الإبداعية، ونسوية أصيلة.

آهٍ، قالت سالي، لو كنت تعلمين. وأنا أيضاً خطر لي: نعم لو كنا نعرف بعضنا. لو كانت تعلم ما يدور برأسي من أصوات طوال الوقت، لو أن أحداً يعلم أن عليّ الآن أن أفكر: من أين تأتي هذه النزعة للتعلق بأناس وأفكار وأشياء تدمرنا؟ دار ذلك برأسي بينما قالت سالي: أتعرفين أصلاً أنني بقيت عشرة أشهر في دير بوذي؟ كانت هناك راهبة بذلت معي مجهوداً كبيراً فعلاً لترافقني إلى طريق المحبة وتقبل الذات، أعتقد أنها أحبتني رغم إحساسي بأنني مجرد قطعة قذارة لا قيمة لها استطاع رون التخلص منها ببساطة. كانت تجمعنا للتأمل الروحي وتشرح لنا بأسلوبها اللطيف ونبرة صوتها الهادئة، أن كل ما لدينا في تلك اللحظة على قِلّتِه، وكل ما تلزمنا به يومياً من أعمال، وحالتنا الروحية والذهنية في هذه اللحظة كانت جميعها تماماً ما نحتاج

إليه لنُبقِ إنسانيتنا حية ويقظة، وكأننا بالضبط اخترنا أن نحيا حياة مكتملة. لكن حتى الراهبة لم تساعدني. كان بإمكاننا أن نختار، هكذا أكدت لنا - قالت سالي وهي تخلط السلاطة - إن بإمكاننا أن نكون خبراء في الغضب والحقد وتدمير الذات أو أن نكون حكماء استثنائيين مرهفي الحس تجاه كل المخلوقات البشرية التي نتعرف على ذواتنا من خلالها. أما أنا فقد أردت أن أنتقم من رون. لم أكن أريد أي شيء آخر.

قالت سالي إن هذا هو العشاء الأول الذي تدعو أحداً إليه وحيدةً، والآن هي غير متأكدة إن كان اللحم جيداً. كيف تفضلينه؟ نصف مطهو أم كامل الطهو؟ قلت: متوسط، فأبقت الشواء عشر دقائق أخرى. كنا أربعة جلسنا إلى المائدة الصغيرة المستديرة في حجرة معيشتها الملونة، كان الطعام شهياً، وكان من الصعب تفادي الحديث عن أعمال الشغب، وهو ما لم أُرِد أنا أيضاً تفاديه، تلك الاضطرابات العنيفة التي تنطلق من أحياء السود والتي رجّت المدينة قبل نصف عام وما زال البيض يتحدثون عنها نصف قلقين نصف مستنكرين. أردت أن أعرف مدى احتمالية أن تتكرر. بالطبع، قال آل الاختصاصي الاجتماعي. السؤال هو هل ستكون الشرطة مستعدة هذه المرة لإخماد أي محاولة لإثارة الشغب في مهدها؟ أما ماغي التي كانت تعمل مدرسة في حي فقير قالت إن شيئاً لم يتغير في حي وسط مدينة لوس أنجلوس الجنوبي. فإن به عدداً هائلاً من الناس الذين ليس لديهم ما يخسرونه، لذلك فإن البيض يحاولون بقدر الإمكان التخلص منهم بسرعة، قبل أن يقفوا جميعاً أمام منازلهم مرتعشين يشاهدون المدينة من أحيائهم الغنية تحترق.

لكنكم تعرفون ذلك، أليس كذلك؟ قال آل، ولم أفهم على التو.

قال: الاضطرابات عندكم.

تسمِّي تلك اضطرابات؟ هل تقصد ذلك الذي يطلق عليه اليوم التحول؟ البعض أسماها ثورة. ثورتنا السلمية.

كان آل يعرف تعريف لينين، فاستشهد به: إنها اللحظة التاريخية، عندما ترفض الطبقات الدنيا الحياة التي عاشتها حتى تلك اللحظة، وعندما لا تستطيع الطبقات العليا الاستمرار في العيش كما كانت.

ربما صح ذلك. ولكن إذا كنا سنعتمد النظريات الماركسية، أفلا تتضمن الثورة إذن الخطوة الأولى نحو تشكيلات مجتمعية أكثر تطوراً؟
- إذن ماذا؟ هل يمكن الحديث عن ذلك في حالتكم؟ من الاشتراكية إلى الرأسمالية؟

لمدة قصيرة تركوا لي فسحة من الصمت. لبضعة أسابيع - قلت- بدا لنا أن التاريخ سينحاز إلينا. بوادر المستقبل الذي يتوق إليه الكثيرون لكن أحداً لم يره بعد، ذلك الذي شاركنا في وضع ركائزه.

قالت ماغي إنها تود خوض هذه التجربة ولو مرة واحدة. ربما يمنحها ذلك ثقة بالنفس ما لبثت تتضاءل بداخلها مؤخراً، كأن الهواء تسرب من وعاء بقينا نحن البشر فيه بلا هواء ولا طاقة، ولم نُمنح سوى حياة بديلة.

أنا أعرف ذلك، قالت سالي. وكم أعرفه! أدارت شريط فيديو. قالت: إنه عن وظيفتي. كانت تعمل مع مؤسسة للأحداث. في الفيديو رأينا وسمعنا كيف كانت تتعامل معهم. كيف توجه الأسئلة بحذر، وكيف يتحدث الصبية عن حياتهم، أقدار قاتمة: منهم من تخلى عنه أبوه، ومن نسيته أمه فنشأ في مناطق «الغيتو» البائسة بين عصابات شبابية، مدمناً للمخدرات يترعرع على حافة الإجرام، بل وكثيراً ما

يُدفع إلى ما وراء تلك الحافة. الفتاة ذات الهيئة الأفريقية التي اصطحبتها سالي إلى المسرح وأجلستها بجانبها أخذت تبكي لأنها أدركت: كان الحديث هنا أيضاً عنها، حيث قالت لها سالي مباشرة: لقد تم الاعتداء عليك في طفولتك. قالت الفتاة لأول مرة: نعم، بطريقة جعلت سالي تتردد في طرح المزيد من الأسئلة: هل تربطك به صلة قربى؟ - نعم - هل كان أبوك؟ - نعم، نعم، نعم، نعم. هكذا هي في مرحلة العلاج، قالت سالي وهي تبتسم لأول مرة في ذلك المساء. حالياً هي غاضبة مني، عليها أن تستأصل أمها من داخلها، وهو ما تجربه عليّ.

أنت لا تعلمين كم أنت قوية يا سالي، قلت لها ونحن نودع بعضنا. كم انطفأت ابتسامتها لحظتها. كما قالت:

لكنني حالياً على وشك ترك وظيفتي. لم أعد أتحمل. إنه أشبه بأن يكون عليك استخراج الماء بمصفاة.

وأنت؟ - سألَتني عندما وقفنا أمام باب منزلها الصغير الذي يؤدي إليه سلم ضيق مطل على الشارع - ماذا أتى بك إلى هنا؟ لكسب بعض المسافة؟ من أجل النسيان؟ ما الذي تسعين وراءه هنا؟

قلت: بحثاً عن شخص ما. إمرأة لا أعرف حتى اسمها. إذن، حظاً سعيداً! قالت سالي، فتعالت ضحكاتنا، بعد منتصف الليل في أحد شوارع لوس أنجلوس الجانبية الهادئة، في هواء كاليفورنيا المخملي وتحت الشاحنة الكبيرة التي كانت قد انقلبت فوقفت شامخة على رأسها.

في البيت كتبت على آلتي الكاتبة: ربما كُتب علينا أن نقلّص تدريجياً تلك البقعة العمياء[1] - التي تقبع على الأرجح في بؤرة وعينا، لذا فإننا لا نلحظها - باجتثاثها من الأطراف حتى يتسنى لنا كسب بعض مساحة تمكننا من الرؤية. ولكن - كتبت - هل نرغب في ذلك أصلاً؟ هل باستطاعتنا أن نرغب في ذلك أصلاً؟ أليس في ذلك خطر شديد؟ ألم شديد.

حين كانت خواطري تدور في دوائر كنت أقفز وأجري في ضوء المساء إلى شارع «سكوند ستريت» حيث الحشد البشري مختلف الألوان يتمدد وينقبض حباً في الظهور، أو للجلوس أمام المطاعم الصغيرة وتناول الهامبرغر أو أصناف الباستا الإيطالية أو التورتيلا المكسيكية أو السوشي الياباني، أو لجذب انتباه منسقي العروض الفنية. وفي وسط تلك الأعداد المفعمة بالحياة التي لا يلحظها أحد كأنها غير مرئية، هذه النقاط الملونة بلون العدم، هؤلاء المشردين الذين يجدون لأنفسهم مناخاً ملائماً هنا، سوف يصير علي أن أتعلم كيف أخفي الدموع، حين ينطق أحدهم من خلف ظهري بصوت

---

(١) **البقعة العمياء** في العين هي النقطة التي يلتقي فيها العصب البصري بالعين ولا توجد بها عصي أو مخاريط ولذلك لا تتأثر بالضوء، وبالتالي فإننا لا نرى الصور التي تقع على هذا الجزء من الشبكية. وفي العادة، لا يلحظ أي شخص البقعة العمياء إذ إنها تغطي مساحة صغيرة جداً، كما أن العينين في حركة سريعة دائمة. وبالإضافة إلى ذلك، فإن أي شيء لا تراه البقعة العمياء لإحدى العينين تراه العين الأخرى.

خفيض تشوبه لكنة متكاسلة - بعد أن أكون قد أعطيته دولاراً - «طاب يومك»، أو الأسوأ «بارك الله فيك». كان شعوري بالتعاطف مجانياً، ماذا ينفع السيدة المشردة ذات الطاقية الرمادية الملبدة إذا أنا جلست بجانبها على الأريكة أمام متجر الأثواب الرخيصة، حيث كانت تستقر عادة وبجانبها حقيبة تسوق متجر «بافيليونز» التي تجلب فيها بعض قطع الملابس الباهتة، وبعض الزجاجات الفارغة، وأكياساً بلاستيكية كثيرة منتفخة، وبطانية. كل ما تملك. أمتعة الإعاشة. لم تكن تريد المال، هزت رأسها وأشارت إلى الزجاجات التي كانت تلتقطها من صناديق القمامة وتتكسب من رهنها. ما زلت أذكر كم شعرت تجاهها بالخجل والذنب بسبب حياتي المترفة التي لم أكن أستحقها، فالسيدة تبدو في مثل سنّي، بداية الستين، شكلها مميز، شعرها الأبيض المشعث ينسدل من تحت طاقيتها، فقد جسدها تناسقه بسبب سوء التغذية. مددت نفسها وأشياءها بثقة على أريكتها التي لا يجادلها أحد على أحقيتها، وبدأت الحديث مع السيدة المشردة على الأريكة المقابلة. سمعت خشونة صوتها ولهجتها المحلية غير المفهومة لي، التقطت فقط بعض الكلمات: أبناء، أسرة. رأيتها تسرف في إيماءاتها وتضحك ضحكات عالية من القلب فاغرة ثغرها كاشفة عن تلف أسنانها. قلت لنفسي إن تلك السيدة قد تركت كل الهموم وراءها، كل أشكال التكيف والرياء، إذا كان هذا هو معنى الحرية، فهي حرة تماماً، متحررة أيضاً من الأملاك، فهي تملك أقل القليل مما يحتاج إليه الإنسان، ليس عليها أن تحافظ على ثروتها أو تدافع عنها، لم تأخذ شيئاً من أحد، لم تشارك في استغلال ثروات هذه الأرض، هي بلا خطيئة - خطر لي - بينما كلنا مذنبون، لأننا لا نريد دفع الثمن الذي نحن مطالبون به.

هكذا قفز الشريط الصوتي إلى رأسي مرة أخرى، بينما كنت آكل السمك المشوي والسلاطة، تاركةً البشر يتدافعون أمامي. حل الظلام فعدت إلى فندق ميس فيكتوريا. كان علي أن أعترف ببساطة أنه بالإضافة إلى كل مزاياه فهو أيضاً مكان نموذجي لتصوير فيلم بوليسي. هذا ما خطر لي وأنا أعبر البهو نصف المظلم والسلم الضيق صاعدة إلى شقتي. كل شيء معتم بعض الشيء، كل شيء يتسم ببعض الغرابة، ولكي تتأكد مشاعري، وجدت أمام بابي مباشرة بالفعل حافظة خطابات منتفخة، فيها كميات كبيرة من الشيكات وبطاقات الائتمان مكتوب عليها اسم صاحبها، السيد غوتمان. بيتر غوتمان الذي كان يسكن في البناية نفسها. كان عليّ أولاً فك شفرة رقم شقته غير المقروء من كثرة الخربشات وسوء الإضاءة عند الباب لكي أطلبه. كان يسكن في شقة فوق شقتي. لحسن الحظ أجابني، لكنني لم أتذكر ماذا تعني «حقيبة الخطابات» بالإنجليزية، حتى أنني أضطررت لإخبار السيد غوتمان المندهش أنني وجدت "something" (شيئاً) يخصه.

ماذا وجدت؟

شيئاً يا سيد غوتمان. انزل من فضلك.

جاء، وهكذا رأيته لأول مرة في الظلام على السلم. كان طويلاً ونحيلاً جداً، بدت الملابس معلقة بلا مبالاة على أطرافه، رأسه بيضاوي أصلع، "egghead"[1]، لم أستطع إلا أن أفكر في ذلك، رأس بيضاوي نموذجي، ويا للغرابة أنني لم ألتق هذا الرأس المميز من قبل في فندق ميس فيكتوريا. استلم حافظة خطاباته فرحاً: "wallet"،

(١) في العامية الأمريكية تستخدم هذه الكلمة للدلالة على الشخص رفيع الثقافة قليل التواصل مع الناس العاديين، فهو يكون عادة منفصلاً عن الواقع بسبب ثقافته العالية وتعاليه.

أي نعم، هكذا يسمى هذا الشيء، ها أنا قد تعلمت كلمة أخرى. لم يكن قد أدرك هذه الخسارة بعد. سألني بأدب إن لم أكن أريد الصعود معه لشرب كأس ليتمكن من رد الجميل. كلا، شكراً- عجباً أنني رفضت - قلت إنني متعبة. ربما مرة أخرى.

في وقت لاحق ذكرني بهذا الرفض الأول، وأنا سخرت منه لأنه أصر على استكمال الحديث معي بالإنجليزية رغم أنه بلا شك عرف منذ الجملة الأولى أنني ألمانية. لكنني كنت حينئذٍ قد عرفت بالفعل لماذا لم يستطع التحول إلى الألمانية من الكلمة إلى أخرى، إن هذا لا يزال يمثل حاجزاً - هكذا قال - لاشعورياً، ومن دون قصد. وبالمناسبة كان قد تعود على الاختباء وراء اللغة الأخرى التي نشأ بها.

حكيت له آنذاك- كان هذا بعد أسابيع - ما فرض نفسه على خيالي عندما عاد ليصعد السلم بينما دخلت أنا شقتي وجلست بصحبة كأس المارغاريتا لمشاهدة الحلقة الجديدة من مسلسل "Star Trek": لقد نسجت حول شخصه الغامض قصة بوليسية، ابتكرت بطاقة تعريف يفترض أنها وقعت من حقيبة الخطابات ولم أُعِدْها إليه. كان عليها عنوان، هكذا أخذت أتخيل، عنوان مكتب محام، عنوان فخم في بيفرلي هيلز. مالروف و مالروف - ابتكرت بثقة - الأَخوان، ولم لا، وعلى ظهر البطاقة اكتشفت موعداً بخط يد بيتر غوتمان غير المقروء، الذي كان عليّ ابتكاره هو أيضاً بالطبع، بالإضافة إلى ملحوظة تقول إن على بيتر غوتمان الاتصال بسيدة تدعى «غلاديس ميدو» في أسرع وقت للأهمية على رقم هاتف في حي «باسيفيك باليساديس[1]».

---

(١) **باسيفيك باليساديس**: هو حي من أفخر وأرقى الأحياء السكنية في الجهة الغربية لمدينة لوس أنجلوس يسكنه الأغنياء.

سألت نفسي ماذا لو قمت أنا بالاتصال بهذه السيدة غلاديس. لا بد أنني سأسمع صوتاً غامضاً لطيفاً، يجيبني متفاجئاً على سؤالي إن كانت هذه السيدة غلاديس ميدو موجودة - أسماء خطرت لي هكذا عفوياً - بالإيجاب، وأنا سوف أرد بصوت لطيف ولكن حازم: Thank you so much! (شكراً جزيلاً!) ثم أضع السماعة، بينما يتنامى لدي الشعور بأنني من خلال تلك المكالمة الواحدة - سواء أكان ذلك يحدث في الواقع أم فقط في خيالي، أياً كان ما تعنيه كلمة فقط! - قد تورطت في تلك الأحداث الكائنة بين السيد غوتمان والسيدة غلاديس ميدو ذات الصوت الغامض بلا رجعة.

كان بيتر غوتمان منبهراً بهذا الخيال، وزاد شغفه لاستكمال دوره في القصة ولإدراج غلاديس ميدو ضمن الأشخاص الواقعيين. لكن ما هو أصلاً «الواقعي»؟ ذلك هو أحد الأسئلة الجوهرية التي تناولها فيلسوفه. كنت آنذاك قد عرفت كيف كافح بيتر غوتمان لسنوات مع ذلك الفيلسوف الذي لا يكاد يكون ذكر اسمه أبداً، وكأنه إذا ما تثبت من اسمه سيكسر سحراً ما. إذن أرأيت - قلت له - لكن لم نكن كلانا نعلم ما الذي يفترض أن «يرى».

لا أريد أن أستبق الأحداث، فقط إلى هنا: لقد اقترفت غلاديس ميدو ذنب تعريفنا ببعضنا ثم اختفت عن الصورة تماماً ومن دون ضجيج. على غير المتوقع قابلت بيتر غوتمان في اليوم التالي في بهو «المركز»، كان قادماً باتجاهي من ناحية المصاعد، حيّاني بلطف ثم توجه إلى باب الخروج بينما حدت أنا يميناً ناحية منافذ مصرف «فيرست فيديرال بنك» حيث تمكنت أخيراً من الحصول على بطاقتي الائتمانية التي سلمتني إياها إحدى تلك الشابات التي تشبه الكائنات الخرافية بابتسامة منتصرة، بحيث أدركت: أنني صرت منذ هذه اللحظة

فقط عميلة فعلية لدى البنك، هذا إلى جانب: أنني صرت مواطنة معتمدة في هذه المدينة. ماذا عساه يكون ما يبحث عنه السيد غوتمان في هذه البناية متعددة الطوابق؟ ركبت المصعد إلى الدور الرابع وأنا غارقة في أفكاري، فنسيت أن أرد التحية لرجل الأمن الأسود. أحضرت سلسلة مفاتيحي الصغيرة من الخزانة الصغيرة، ثم صعدت إلى شقتي في الطابق السادس، بينما تفقدت سريعاً لافتات الأسماء على الأبواب التي مررت بها، وتركت نفسي أسقط على الكرسي خلف طاولة الكتابة الخاصة بي. وبينما ظلت التساؤلات حول عمل السيد غوتمان تدور في رأسي، كان عليّ في الوقت نفسه أن أكتشف ما الذي أزعجني منذ قليل في الطريق إلى مكتبي. لا بد أنها كانت ملاحظة صغيرة لم تتمكن من اختراق وعيي لكنها راحت تحك دماغي كما تحك القدمَ حبةُ رمل في الحذاء. وأنتم - قلت له، وكان هذا في اليوم التالي حيث صرنا نتحدث معاً بالألمانية إلا أننا ظللنا نستخدم صيغة «أنتم»[١] - بما أنكم كنتم تسكنون في فندق ميس فيكتوريا فقد خطر لي أنه يمكن أن تكون لكم علاقة ما بمجال الفنون. أو ربما بالإدارة، في إحدى المجالات الفنية. منتج أفلام؟ بالأغلب كلا. مدير متحف في رحلة عمل؟ بالكاد. - استمري في التخمين. هذا كل ما أجاب به بيتر غوتمان، وكأن شخصيته تعهد إليّ بالألغاز. مستشار- قلت له - مستشار بأي شكل من الأشكال. أو خبير فني، من أولئك الذين يوجد منهم الألوف. يبقى السؤال فقط في أي مجال. كان ذلك ممتعاً لنا.

لكن من أين جاءني هذا الشعور الملح في مكتبي لمعرفة عمل

---

(١) صيغة التعظيم للمخاطب.

بيتر غوتمان، وبأن حل لغز شخصيته قد اقترب. أغمضت عينيّ وأفرغت رأسي. تجلت لي بطاقة بيضاء عليها اسمه ولها إطار يشبه الإطار الذي يحيط بلافتات أبواب مكاتبنا في «المركز». ولكن كان هذا مستحيلاً. قفزت من مكاني، وجريت إلى الممر وتفحصت باب المكتب المجاور. كان مكتوباً عليه: الأستاذ بيتر غوتمان. رويت له ذلك لاحقاً، حقاً وبكل صدق. هل تصدقني إذا قلت إنني كدت أشعر بالأسى بسبب هذا الحل البسيط لذلك اللغز المركب؟ وأنا التي كنت قد أقمت صرحاً خيالياً معقداً لتشابك الأحداث، رأيتك متورطاً فيه، وقررت أن أبتعد عن طريقك لأطول وقت ممكن. وقعت في الفخ، قال بيتر غوتمان بجدية العلماء على ملامحه. لقد استسلمت قبل الأوان. في تشابك الأحداث وفرة وغزارة. تفحصت وجهه بدقة. قلت: حقاً، فلتبدأ الحكايات إذن. كنا واقفين عند مكنة التصوير في مكتب السكرتارية بـ«المركز» وقد راودني شعور عارم بالسعادة.

مساءً اتصلت سالي. هل قرأت الكتاب الذي أعطيتك إياه؟ ذلك الذي كتبته الراهبة البوذية؟ بدأتُ بقراءته - قلت لها - لا يبدو سيئاً. ولكن اسمعي، هل أصغيت جيداً لما تقترحه؟

بالطبع لا! صاحت سالي. إن ما تطلبه هو الأصعب على الإطلاق: الاستسلام! لم تكن تستطيع ذلك ولا ترغب فيه. كانت لتوها قد بدأت العلاج، وقد شجعتها معالجتها على قبول الأموال التي عرضها عليها رون. لا بل: الدين الذي كان لها، من ميراث أمه التي كان مقرراً لهما. في النهاية هما لا يزالان متزوجين، كما أن المفترض أن أم رون كانت تحبها وكان الأمر بالنسبة إليها بديهياً أنهما سيتشاركان في تركتها. ولكن بالوضع الذي صارت عليه الأمور - ألن يقال عنها إنها قبضت ثمن أن تعطي رون حريته؟

أنت التي ستقولين ذلك لنفسك - قلت لها - أنت فقط. كان بودّي لو سألتها إن كانت لا تزال تأمل أن يعود رون إليها، لكنني كتمت سؤالي. كان الأمر واضحاً بشأن ما تعتقده وتتمناه سالي، وإن كانت معالجتها صالحة، فعليها أن تبعد عنها هذا الأمل، ولكن سوف تكرهها سالي، أما أنا فقد سئمت الكراهية.

بالمناسبة كانت الراهبة ترى أن هناك انتشاراً واسعاً لسوء الفهم بين البشر فيما يخص محاولة تفادي الألم قدر الإمكان، "to get comfortable" (لإراحة النفس)، وكان لابد أن أتعجب من أين تأتي تلك الراهبة البوذية بهذه المعرفة. بالطبع كنت أود تفادي الألم، بالطبع كنت أود أن أعيش حياةً «مرتاحة»، ما لا يعني بالضرورة حياة الرغد، كلا، ليس هذا يا بريخت. ولكن في المستوى الميسور نسبياً، بشروط تتيح لي العمل. كانت تلك هي «الراحة» بالنسبة إليّ، قلت وأقول لنفسي كل يوم إن هذه ميزة كبيرة صعبة المنال في هذا العالم. من دون قصد استحوذ عليّ الفضول لمعرفة أفكار تلك المرأة التي رأت معايشة الحياة أكثر متعة وودية ومغامرة وبهجة إذا ما طوّر البشر حبهم للمعرفة من دون النظر إلى نتيجة بحثهم إن كانت حلوة أو مرة. عليهم فقط أن يتفهموا أن باستطاعتهم تحمل الكثير من الألم والفرح ليتمكنوا من اكتشاف أنفسهم والعالم، ما هي وظيفتهم وما هي وظيفة العالم: ما هو حقيقة هذا الشيء كاملاً.

ودعت سالي، جلست وراء آلتي الكاتبة وكتبت:

الفرصة مواتية. لمَ لا أكتشف حقيقتي، إذا كانت تلك الراهبة تظل تواجهني بزعم أن بإمكاني أن أتعرف على نفسي أكثر فأكثر وأن أصل إلى مصالحة مع نفسي بالفعل. تسمي هذا "loving kindness،

ثم تتركني في حيرتي لأنني لا أستطيع ترجمة ذلك إلى الألمانية. يبدو أننا لا نمتلك ذلك اللُطف تجاه أنفسنا. هناك كره للذات وحب للنفس وتعالٍ، وعلى الوجه الآخر للعملة هذا الشعور الثاقب بالدونية. هذا غريب حقاً.

وجدت ورقةً تحت باب مكتبي في «المركز». رأيت لأول مرة خط يد بيتر غوتمان الصغير المنقمق كاملاً - ذلك الجار الغامض الذي حكى لي لاحقاً متى تدرب على الخط - فقرأت في الرسالة أن اليوم عيد ميلاد صديقنا المشترك إيفيم إيتكيند من لينينغراد، ذلك الذي طرد من بلاده ويعيش الآن في باريس. كان رقم هاتفه مكتوباً أيضاً. هكذا إذن كان لنا أصدقاء مشتركون، ولكن كيف عرف ذلك؟ وهل لا بد أن يكون التواصل بيني وبين بيتر غوتمان بالضرورة حول أشياء أجدها على بابي؟ خرجت مرة أخرى إلى الممر: كان باب المكتب المجاور مغلقاً كالعادة. دخلت كيتشن ومعها آخر مطبوعات الكمبيوتر، قائمة الكتب التي انبعثت من نظام الكمبيوتر المسمّى «أوريون» بعدما غذته ببعض الكلمات الاسترشادية. ولم يكن إدخال حرف «ل» المريب سهلاً، ومع ذلك فقد حاولت كيتشن ذلك، عبثاً طبعاً. ثم حاولت من دون أن تضع أملاً كبيراً أن تدخل اسم صديقتي إيما، تلك الرفيقة القديمة التي تركت لي حزمة الخطابات التي أرسلتها إليها السيدة «ل». هنا تمكن أوريون من إيجاد اسم كتاب وطبعه، الكتاب الذي كنت قد حددت مكانه في مكتبة الجامعة لكنه كان معاراً: «الصحافة اليسارية في جمهورية فايمار، تحرير: إيما شولتسه، فرانكفورت، ١٩٣٢». لم تتحدث إيما أبداً عن هذا الكتاب، كما أشك أنها كانت لا تزال محتفظة بنسخة منه.

خطر لي أن كيتشن تعرف كل شيء عن المركز والعاملين فيه معرفتها بكف يدها. سألتها: أين بيتر غوتمان؟ آهٍ، هذا الرجل - قالت - ظهوره عزيز. يندر أن يتواجد هنا. اليوم رأيته في الصباح، أخذ خطاباته من صندوق البريد ثم اختفى ثانية. كأنه يتفادى المشاركة في ساعات تناول الشاي معنا.

بدا لي ذلك مفهوماً. لا أعرف لماذا؟ خبأت خطاباتي وحملت حقيبتي الملونة التي حصلت عليها في المتجر الهندي على كتفي وذهبت إلى فندق ميس فيكتوريا غارقةً في أفكاري. قلت لنفسي: لكي أكتشف لماذا يتصرف بيتر غوتمان بانطوائية هكذا عليّ أن أعرف المزيد عن ماضيه. أكلت ثم رتبت لنفسي جلسة مريحة على المقعد الكبير أمام التلفاز والنبيذ في متناول يدي، كالعادة دار مسلسل "Star Trek" على القناة ١٣. بمنتهى الشغف تابعت القبطان بيكارد وفريقه الذي أوكلت إليه شركة المركبات الفضائية رحلات الفضاء الخارجي المثيرة، فيما يقدّم فريق بيكارد مثالاً على أن الانضباط المطلق يمكن جداً أن يتواكب مع قيم إنسانية ناضحة مصقولة بقدر من الذكورة الخفية.

الهاتف. بيتر غوتمان. يا لها من صدفة! قلت، وكان من الصعب أن أشرح لماذا أسميت تلك المكالمة «صدفة»، فلم يكن بوسعي أن أعترف له أنني كنت أفكر فيه. أما هو من ناحيته فقد أراد فقط أن يتأكد أنني وجدت الورقة التي دفع بها تحت باب مكتبي. بالتأكيد. بل كنت أيضاً قد اتصلت على الفور بباريس وعرفت من إيفيم أنه - بيتر غوتمان - صديق قديم. بالطبع هنأته بعيد ميلاده. "Great" (عظيم)، قال بيتر غوتمان ثم سألني من أين أعرف هذا الصديق. كل هذا بالإنجليزية. أجبت بالإنجليزية، قلت إنها قصة طويلة. في تلك اللحظة صدر منه السؤال بألمانية لا تشوبها شائبة: لم لا أريد أن

أحكي له هذه القصة. - الآن؟ قال: ولِمَ لا؟ فهو مدين لي بكأس على أية حال، لن يسمح لنفسه أصلاً أن يتخيل ماذا كان ليحدث لو كانت حافظة خطاباته وقعت في أيدٍ غير أمينة. أهٍ، خطر لي. يبدو هذا كالتزام بكتمان الأسرار. لكنني موافقة على الكأس، قلت ذلك أيضاً بالإنجليزية. نبيذ أبيض أم أحمر؟ - أبيض. حسناً - قال بيتر غوتمان - سيحضر معه زجاجة أخرى.

المرات العديدة التي طرق فيها بيتر غوتمان بابي خلال الأشهر التالية، وأدخل رأسه الأصلع الطويل المهذب، واستقر بجسده على أحد مقاعده الكبيرة، لم أعد أستطيع أن أحصي عددها أو أن أفصل بينها. المرة الأولى أذكرها جيداً. قبِل مني بعض المقرمشات وقبِلت منه النبيذ، وأعلن للمرة الأولى عن أطروحته، أننا نعيش على سفينة فاخرة، هنا في فندق ميس فيكتوريا، وأكثر من ذلك هناك في «المركز». نتنقل من على سطح هذه السفينة الفاخرة إلى سطح تلك الأخرى الأكثر فخامة فقط لنشعر بأهميتنا حين نفرز نصوصنا التي لا قيمة لها أصلاً على أي حال. ماذا قال بريخت عن توماس مان: «الرجل مغيب وليس مرتشياً». دعينا نأمل أن يقال مثل هذا عنا، قال بيتر غوتمان، بالألمانية طبعاً. قال: في النهاية كلنا لا نعلم شيئاً. وقتها لم يكن قد أكمل العشر دقائق في شقتي التي لم تعتد على مثل هذه الأصوات، بل لم تعتد على أي صوت سوى صوت التلفاز وأحياناً صوت أغنيةٍ أغنّيها لنفسي بصوت خفيض.

إيه! - قلت - ماذا يجري- بالألمانية. كان كلانا يتحدث الآن بالألمانية. فقام بيتر غوتمان بأداء حركة يده المميزة للدفاع والاعتذار ثم عاد للموضوع: من أين أعرف صديقنا إيفيم الذي اتضح أنه مشترك؟

هل زرت لينينغراد من قبل؟ مدينته التي طرد منها؟ هز بيتر غوتمان رأسه.

ولا سانت بيترسبورغ، كما تسمى المدينة اليوم؟

كلا. لم يعرف بيتر غوتمان روسيا، لقد تعرف على إيفيم بالجامعة في تكساس عندما عملا معاً كمحاضرين هناك عن المراحل المختلفة في الأدب: - أنا اليهودي الألماني الإنجليزي، وهو اليهودي الروسي - قال بيتر غوتمان - كنا نتندر على ذلك معاً.

إذن - بدأتُ - في ذلك الوقت عندما كان إتكيند لا يزال أستاذاً للأدب الألماني في لينينغراد، قمت برحلة مع عائلتي كلها إلى بيت الكُتاب في كوماروفو، مدينة مجاورة للينينغراد.

الآن أحاول أن أتذكر ما الذي حكيته لبيتر غوتمان في تلك الليلة الأولى. أبحث في جميع الأدراج الممكنة عن وثيقة معينة سوف تدعم ذاكرتي. أدرك ثانية أنني عاملت الملف الذي يحتوي على هذه الأوراق ببرود وعدم اكتراث. ليف كوبيليف[١] - صاحبكم الروسي من موسكو - أرسل إليكم إيفيم. ذات يوم مرّ فجأة بسيارته «البوبيدا»[٢] القديمة

---

(١) **ليف كوبيليف** (١٩١٢-١٩٩٧): كاتب روسي ولد في كييف في أوكرانيا لعائلة يهودية من الطبقة الوسطى. درس الفلسفة وبدأ الكتابة منذ كان يدرس في الجامعة باللغتين الأوكرانية والروسية. وقد كان شيوعياً مثالياً وبلشفياً نشطاً، تم اعتقاله للمرة الأولى عام ١٩٢٩ لتعاونه مع المعارضة البوخاريستية والتروتسكية. أما لاحقاً فقد سُحبت منه الجنسية السوفياتية عام ١٩٨١ بسبب كتاباته النقدية. آنذاك استضافه الكاتب الألماني الكبير هاينريش بُل في بيته، وظل كوبيليف يعيش في وطنه الثاني كولونيا حتى وافته المنية عام ١٩٩٧.

(٢) **البوبيدا**: سيارة كانت تصنع في الاتحاد السوفياتي من عام ١٩٤٦ حتى ١٩٥٨، وكلمة بوبيدا تعني النصر.

أمام بيت الكُتاب ليصطحبكم في رحلة إلى «الداتشا»[(١)] الخاصة به في اتجاه الحدود الفينلندية. أتذكُرُ غابة الصنوبر، الصنوبر المتقزم. كنا في آخر فصل الصيف. فجأة همس إيفيم: إنبطحوا! فاختفت رؤوسكم خلف زجاج السيارة ومررتم بسلام من أمام حارس عسكري كان سلاح الكلاشينكوف معلقاً على صدره. يجب ألا يعلموا أنني أحضرتكم إلى هنا، قال إيفيم، ثم أوصلكم إلى بيت خشبي ملون ودافئ ومريح في وسط الغابة. استقبلتكم زوجته بترحاب وبدأت بنتاه تتحدثان مع بناتكما بالألمانية والروسية. إذا كانت ذاكرتي لا تخونني فقد قُدم الشاي في السماور[(٢)] أولاً ثم تلته بعض المعجنات، بعد فترة جاء طبق البيلميني[(٣)]. ما زلت أذكر جيداً أنه في تلك الغرفة، حيث تكون عادة في البيوت الروسية القديمة الأيقونات والمصابيح معلقة كان هناك ركنٌ مخصص لألكسندر سولجينيتسين[(٤)]: صور، كتب،

---

(١) **الداتشا**: تعني قطعة أرض بحديقة أو بيت مخصص لقضاء العطلة والاستجمام وله عادة حديقة تسمح بممارسة هواية زراعة النباتات. وهي كلمة مأخوذة عن الروسية وتعد من الكلمات الروسية النادرة التي انتقلت إلى اللغة اليومية في الجمهورية الألمانية الديمقراطية وشاع تداولها في الألمانية.

(٢) **السماور**: إناء لإعداد الشاي.

(٣) **البيلميني**: من الأطباق الروسية، يشبه عجين الزلابية لكنه يكون محشواً بمختلف أنواع اللحم.

(٤) **ألكسندر إيسايفيتش سولجينيتسين**: كاتب روسي ولد يوم ١١ ديسمبر ١٩١٨ في مدينة كيسلوفودسك. حكم عليه بالسجن في عام ١٩٤٥ بتهمة «معاداة الدولة السوفياتية» لمدة ثماني سنوات، ثم بالمؤبد بعد ذلك. أعيد له الاعتبار في مطلع عام ١٩٥٧. حصل على جائزة نوبل عام ١٩٧٠ في الآداب «للقوة الأخلاقية، التي واصل بفضلها تقاليد الأدب الروسي الأصيلة». وقد ترك سولجينيتسين إرثاً أدبياً سطر واقعاً وتاريخاً عاشه. ولكن كان اسمه محظوراً على مدى سنين عديدة، وكانت كتبه لا تقرأ إلا في

خطابات، حتى أنك تظنين أنك رأيت مصباحاً صغيراً عتيقاً. - أتعرفه؟ سألتما إيفيم فرد ببساطة: نحن أصدقاء. منذ ذلك الحين أصبح بالنسبة إليكم، لاسيما للبنات، في منزلة أعلى بين البشر. هذه الصداقة هي ما كلفته هو وأسرته وطنهم، فقد اتُّهِم بإخفاء مخطوطات سولجينيتسين وترجمتها وإتاحتها في الغرب. لم يتمكنوا من إثبات ذلك، لكن كل من عرفه صدق أنهم لم يشتبهوا فيه اعتباطاً، وأنتما كذلك صدقتما لكنكما لم تسألاه أبداً ولا حتى بعد ذلك. على أي حال فَقَد وظيفته ثم أجبِر على الرحيل. في باريس، في حيٍّ شديد الحداثة قابلتماه بعد سنوات. كانت شقته حافلة بالتذكارات مشبعة بمشاعر الحنين للوطن التي تسببت - في اعتقادي - في وفاة زوجته رغم أن تشخيص المرض كان: السرطان.

وبينما أخذت أستحضر كل هذه الذكريات وراحت الصور تتوالى في خيالي وجدت تلك الوثيقة أخيراً، بعدما بحثت في الحقيبة الكبيرة طبعاً التي تحتوي على نسخ ملفات الشتازي التي كنت أفتحها نادراً وعلى مضض. إنها الوثيقة الوحيدة المكتوبة باللغة الروسية في هذه الملفات. تقرير من المفوضية الشعبية للشؤون الداخلية (NKWD) إلى نظيرتها الألمانية وفيها إشارة دقيقة لزيارة أحد الشباب لمنزلنا. فقد تسلل لكسب ثقتكما - هكذا حكيت لبيتر غوتمان ذلك المساء بشكل موجز - بذكره اسم إيفيم على الهاتف، وعليه فقد دُعي بالطبع

= الخفاء، عاش حياة المعتقل ومعسكر العمل الإجباري بعد رسالته الشهيرة التي انتقد فيها ستالين، وحياة المنفى في ألمانيا وسويسرا والولايات المتحدة الأمريكية، وجرد من الجنسية السوفياتية في عهد بريجنيف، ثم عاد إلى روسيا بعد انهيار الاتحاد السوفياتي واستمر في عمله الأدبي والفكري والاجتماعي حتى توفي في موسكو في الثالث من أغسطس ٢٠٠٨.

وأخبركما عندها أنه - حيث إنه يدرس العلوم الطبيعية في لينينغراد، ربما بجانب عمله الأساسي - كان قد قابل إيفيم في إحدى مكتبات الكتب القديمة - ويا لهذه الصدف الروسية! - حيث اضطر لبيع بعض الكتب لأنه أُجبر على مغادرة البلاد: استأمنه على ذلك بعد أن كانا قد تبادلا الحديث لبعض الوقت. وقد كلفه إيفيم أن يسألكما إذا كنتما تسمحان له بالتواصل معكما من خارج البلاد أم إن ذلك سيشكل خطراً كبيراً عليكما. وأنتما بدوركما بسذاجة مستعصية، أكّدتما أنكما متمسكان بعلاقتكما بإيفيم بل وعرضتما عليه المساعدة.

هذه هي الترجمة الألمانية لما كان مكتوباً بالروسية في الوثائق المذيلة بالأختام الروسية أيضاً. أما إيفيم فقد ظللتما تلتقيان به، في الشارع في بلومسبيري في لندن، وفي إحدى مدن ألمانيا الغربية حيث شاركتم معاً في أحد المؤتمرات، وفي حي بوتسدام، أعني بالطبع بعد «التحول» حيث كان يسكن أخيراً، وفي شرفة سطح بيته، أو على وجبة روسية. كان محملاً بالحكايات الروسية واليهودية، وقد ضحكتم كثيراً، لكنه أيضاً كان دائماً ما يريد الحديث عن أكثر القضايا جدية، فقد كانت تؤرقه بعض المخاوف فيما يخص المستقبل، كان يحاول التنفيس عنها بالتجوال إلى جميع أرجاء الكرة الأرضية لإلقاء المحاضرات والعمل بالتدريس. لم يكن قلبه بكامل صحته. في مكان ما على الطريق سوف يسقط، هكذا كنتما تفكران. لكنه مات في النهاية في المكان الذي لم يكن يتخيله أبداً، في بوتسدام.

أنا لم أفهم أبداً - قلت لبيتر غوتمان - كيف يمكن أن تشغل واقعة بهذه التفاهة جهازَي استخبارات.

حسناً - قال بيتر غوتمان - لم تبذلوا الجهد الكافي للتفكير في أسلوبهم.

بلى - قلت له. كنا أحياناً نعرف كل شيء، ثم ننسى كل شيء ثانية. بعض الرؤى كانت تظهر بإيقاع يصعب التنبؤ به، لكنها كانت تغرق ثانية، في «بحر النسيان»، أليست هذه صورة جميلة؟ ألا تجدها متميزة؟ سألته ولم أدرك كيف انتقلت إلى صيغة «أنت»، فعلى ما يبدو أن عقولنا ليست مؤهلة للحفاظ على هذه التفاصيل البسيطة، بينما تحفظ في المقابل كل أنواع الحكايات ببساطة واستهتار.

أعترض يا فخامتكم! قال بيتر غوتمان بينما خطر ببالي أنه إنجليزي وأن صفة «كاتب مقالات» كانت مكتوبة بجوار اسمه في قائمة المدعوين. قلت: كيف؟ القصص محفوظة في تيار الحكايات عبر القرون، ما حكي قد حُكي. لن يظهر أبداً آخيل إلا بطلاً. أو خذ فيرتر[١]. سيظل مراراً وتكراراً يطلق تلك الرصاصة في رأسه. غوته نفسه لم يكن ليوقفها. إذن ماذا نفعل، أو ماذا نكتب، وكيف نكتب؟ كون الموت هو نهاية كل إنسان فهذا شيء مأساوي لكن لا تتولد عنه قصة في الحقيقة. أم ماذا تظن؟

لا أعرف - قال بيتر غوتمان - ما تقولينه ليس ببعيد عما يقوله فيلسوفي عن الحكي، دعيني أخبرك به. لكن هناك شيء آخر: أتظنين أن القصة تتولد عندما يكون في الحياة نمطٌ يظل يتكرر باستمرار؟

قلت: لا أعلم هذا. في أي نمط تفكر؟

قال: مثلاً نمط الحياة الضائعة.

حسناً اسمع. أنت الخبير بالأدب لا بد أن تعرف. . .

دعك من ذلك. هذه الكتب أعرفها جميعها وأعرف قصصها كلّها. إنها لا تنفعني في شيء.

---

(١) بطل رواية آلام الشاب فيرتر للأديب الألماني يوهان فولفغانغ فون غوته.

قلت: Right (صحيح). نحن متفقان على ذلك.

أراد بيتر غوتمان أن يدع الأمر اليوم عند هذا الحد. هبّ واقفاً، وخرج. بعد بضع دقائق اتصل بي. شكراً على هذه الأمسية. لا بد أنك لاحظت: إن الأمر يتعلق بي. أنا هو ذلك الذي يضيع عمره حالياً. لا، لا تقولي شيئاً الآن. لقد أراحني الحديث.

كانت كل خلية من الخلايا المسؤولة عن الأعمال اليومية في رأسي قد سجلت شبكة باصات سانتا مونيكا وتعليمات استخدام مكتبة الجامعة. كنت أستقل خط الباص الأزرق رقم ٢ بلا منازع، يمر بي في الشوارع المستقيمة المحفوفة بالنخيل على الجانبين، دائماً في هذا الضوء الخيالي. بحثت عن المكتبة ووجدتها في حرم جامعة UCLA، أدخلت بيانات بطاقة المكتبة على الكمبيوتر ثم كلمة البحث وأخذت أتصفح على شاشة الحاسوب الآخر أسماء كُتّاب وعناوين كُتُب حتى صادفني عنوان يمكن أن يكون مفيداً لبحثي: «الهجرة النسائية إلى الولايات المتحدة الأمريكية». ضغطت على زر طلب استعارة الكتاب وعرفت أن الكتاب معار بالفعل، وذلك منذ بضعة أيام. صرفت النظر عن حجزه. مسار آخر لا يؤدي إلى شيء. السؤال عن سبب وجودي هنا بدا أكثر إلحاحاً.

اعترفت لنفسي أنني شعرت بوخزة من الغيرة حين وقعت في يدي في حقيبة السفر- تركة صديقتي إيما - هذه الحزمة من الخطابات في ظرف بني كبير مكتوب عليه اسمي في ركن ما بخط إيما وفي الوسط بقلم عريض أسود وبخط كبير الحرف «ل»، الحرف نفسه الذي كانت كاتبة الرسائل توقّع به على رسائلها. كل هذه السنوات التي كنت أظن خلالها أنني الصديقة الأقرب لإيما كانت هي تراسل هذه السيدة «ل»

من دون أن تحكي لي أي شيء عن الموضوع. لا تكوني حقودة - اضطررت أن أوبخ نفسي - ولا تتعاملي مع ذلك على أنه خذلان. هل تظنين أن إيما كانت مجبرة على أن تقول لك كل شيء وأي شيء؟ إن علاقة إيما بـ«ل» ممتدة في الماضي البعيد منذ العشرينيات. عندما ولدت أنا كانت إيما قد انضمت إلى الحزب الشيوعي وعلى الأرجح كانت تربطها صداقة مع «ل». كونها تترك لي هذه المكاتبات فإن في ذلك تعزية لي ودليلاً على سلامة الثقة بيننا. لكنني أيضاً أحسست أنها تكلفني بالاهتمام بذلك الجزء من حياتها التي كانت قد أخفته عني. لو لم يكن الأمر كذلك ألم تكن لتتخلص من تلك الرسائل قبل وفاتها؟

في حالة إعياء غير عادية وفي وضح النهار بدلاً من أن أذهب إلى مكتبي ذهبت إلى فندق ميس فيكتوريا واستلقيت ثم غفوت في الحال. أحلم بكِتاب أحلام، كنت أود أن أدونه ذات يوم. خطة مثلها مثل خطط كثيرة أخرى لم أحققها. ولكنني في الحلم أمسكت بذلك الكتاب في يدي، دفتر مدرسي مسطر بحجم A4 كنت قد وضعت بين صفحاته بعض الأوراق النقدية غير السارية منذ سقوط الدولة التي كانت متداولة فيها. صديق متوفى يهاتفني: يحتاج إلى نقود غربية لأمه. لا بد أننا إذن في زمن الجمهورية الألمانية الديمقراطية، كما يسمونها اليوم، هكذا أفكر في الحلم وأقول لصديقي المتوفى: مؤخراً سمعت أحداً يتحدث أيضاً عن «أيام الشرق». ولكن أين لي أن أحصل بهذه السرعة على نقود غربية؟ سألته فقال: يكفي الذهاب فقط إلى مكتب مختص وإبداء الأسباب للحصول على بعض الأوراق النقدية. نسافر إذن عبر أطلال مدينة صحراوية لنصل إلى مبنى إداري كئيب، حيث يتم إعطائي بالفعل عند أحد المنافذ بعض الأوراق التي لا تمتّ إلى النقود بأي شبه، أشرت إليها بانزعاج «ن»، فيهز كتفيه

قائلاً: اقتصاد طبيعي. والآن علينا أن نوصّل هذه «النقود» - عديمة القيمة في رأيي - إلى أم صاحبنا المتوفى. نمر عبر أرض وعرة ونصل أمام منزل يبدو من بين كل البيوت المهجورة التي أحلم بها هو الأكثر إقفاراً، مهمل تماماً، يرتفع أحد جملوناته في السماء كخلفية، في الحديقة توجد بعض الأحجار يتخللها طين وعشب، قلنا: لقد تسبب المطر الأخير هنا في الكثير من الخسائر. تأتي أم صاحبنا المتوفى باتجاهنا، شكلها مختلف تماماً، ملامح محطّمة، وشائخة وغامضة، هي التي كانت دائماً ترتدي الثياب اللائقة، هي الآن ملفوفة بأشياء ثقيلة ومتسخة، يبدو أنها كانت تعاني من الصقيع. اصطحبتنا إلى غرفة باردة موحشة. ندرك أنها تفاجأت من زيارتنا وأنها تتساءل إن كنا ننوي المبيت، لكننا نطمئنها، ونسلمها الأوراق المالية التي لا تعرف ما نفعها. قلنا إن ابنها أرسلنا. آه - ردت بخفة - إنه يعتني بشؤونها حتى من داخل القبر. لدي شعور بأن المرأة ليست في كامل قواها العقلية، تكاد تجن من الوحدة. نتركها في حالة كرب شديد ثم نلتقي ابنتنا الصغرى التي تقول لنا إن السيدة تتصنع فقط عندما تتصرف بود، فقد رأتها للتو عبر النافذة كيف ألقت بالـ«نقود» في الموقد بابتسامة خبيثة.

في الصحو راودني شعور بأن الحلم يرمز من خلال الساحرة الشريرة العجوز الأسطورية إلى سقوط دولة ألمانيا الشرقية التي لقيت حتفها بين حشود البشر الذين اصطفوا أمام البنوك من أجل الأموال الجديدة، وفي مواكب السيارات التي احتفلت بها في منتصف الليل حول ميدان ألكسندر بلاتس بكثير من الضجيج والشمبانيا. في غفوتي تزاحمت في رأسي الصور التلفزيونية قبل أطياف الحلم التي أردت أن أمسك بها وأفسر معانيها، أخذت تتلاشى. وأنا غفوت ثانية.

في الصباح استلزم الأمر الرجوع إلى خطابات «ل» التي كان وجودها هو المبرر لوجودي في هذا المكان. الملف الأحمر كان قريباً من يدي على الرف بجوار كومة الصحف الآخذة في الارتفاع. اليوم يوجد في الدرج الذي أحفظ فيه تذكارات أخرى تخص إيما: صور فوتوغرافية لمراحل مختلفة من حياتها، كلها من فترة ما بعد الحرب، إيما السيدة المحبة للحياة مع الأصدقاء، وأيضاً معي في الحديقة أمام كوخها، وكتاب الطبخ البالي الذي كانت تطبخ لي من وصفاته، وكتاب الحزب العتيق الخاص بها الذي يرجع إلى العشرينيات، ونسخ من سجلات المحكمة من الخمسينيات، عندما تم اعتقالها لمدة سنتين باتهامات «ملفقة» - كما هو مكتوب في تقرير إعادة التأهيل - في سجون الجمهورية الألمانية الديمقراطية. كنا نقضي ليالي طويلة نتحدث عن ذلك.

افتقدتها. تحديداً الآن افتقدتها. ما من أحد يستطيع ترتيب الأشياء مثلها. من خلال كلمات صديقتها «ل» كنت أريد أن أسمع صوتها. جلست إلى الطاولة وفتحت الملف الأحمر: كومة صغيرة من أوراق الخطابات المصفرة بأحجامها المختلفة أغلبها من القطع الأمريكي، معظمها مكتوبة على الآلة الكاتبة وبعضها بخط نسائي ذي مسحة ذكورية هو الذي خطَّ هذه الرسائل التي تحوي أكثر من ثلاثة عقود تحول خلالها إلى خط مسن تصعب قراءته. لا توجد أظرف عليها اسم المرسِل، ولا ظرف واحد، وكأن المرسل إليها قد تخلصت منها بعناية وإتقان. لا توجد صورة ولا أي أثر آخر يدل على المرسِلة ما عدا ما يسبق التاريخ من إشارة للمكان «لوس أنجلوس».

يشبه ذلك إيما نفسها: عدم الرغبة أبداً في التحدث إليّ بشأن خطتي لكتابة سيرتها، إلا أنها تترك لي مادة مهمة من دون أي تعليق.

رسالة هامة لا بد أن فحواها: اكتبي! مالم تستطع أن تتوقعه هو: أن يتلبسني ما يشبه الولع بتتبع «ل» مرسِلة الخطابات، وبحل اللغز الذي قادتني إليه تلك الرسائل.

ما زال عليّ أن أتجاوز بعض العقبات وأنا أقرأ تلك الخطابات. كنت أمسك بالأوراق الأقدم بحذر شديد خشية أن تتفتت الأوراق الرقيقة التي اهترأت أطرافها بالفعل بين يدي. اليوم يدهشني تهوري، كيف حملت معي أصل الخطابات عبر هذه الرحلة البعيدة بدلاً من أن أستخرج نسخة منها كالموضوعة أمامي الآن بينما الأصول في خزانة مؤمّنة.

الخطاب الأول من سبتمبر ١٩٤٥. الحبر الأزرق الذي خُطَّ به وجها الورقة يشف، مما يصعب مهمة تفسيره. كنت أحفظ الجمل الأولى عن ظهر قلب:

«إيما، حبيبتي، آمل وأتمنى أن تكون كتابتي الآن إلى شخص حي. هذا هو السؤال الأهم الذي يمكن للمرء أن يطرحه على أصدقائه في أوروبا. أرجوك، جاوبيني على هذا السؤال بأسرع ما يمكن، حتى وإن كان الأمر قد لا يزال صعباً أن ترسلوا خطاباً من عندكم لما وراء البحار. سأعطي هذه الرسالة لشاب سيجول أوروبا خلال عمله كمراسل لإحدى الصحف الأمريكية الكبرى. لو أنك ما زلت تعيشين هناك أينما أظنك فسوف يأتي لزيارتك ويطلب منك أن ترسلي معه خطاباً إليّ. قلبت لتوي في دفتر العناوين القديم، أحد الأشياء القليلة جداً التي اصطحبتها معي خلال رحلة هربي من أوروبا وحرصت على صيانتها في كل الأحوال، وقد فزعت، بل حزنت أيضاً لقلة أسماء الباقين الذين

يمكنني أن أوجه لهم رسالة كتلك. لقد كاد الفوهرر[1] يحيل شعبنا إلى صفحة بيضاء. أما اسمك يا إيما فقد ظل على رأس القائمة في ذاكرتي. عبر كل السنين القاتمة كان يصاحبني كعلامة يمكنني أن أتبعها: عندما يحل السلام سوف أجدك ثانية، وستكونين أنت نفسك كما كنت، لم يكن لدي أدنى شك في ذلك.

يكفي مني هذا اليوم: أنا بخير في حدود ما يَسمح به الحال والسن، كما لم تتغير أوضاعي المعيشية، لا الخارجية ولا الداخلية. سوف تفهمين ما أريد قوله بذلك وسوف تهزين رأسك بابتسامتك الساخرة كما كنت تفعلين في الماضي. نعم يا حبيبتي، إن الإنسان لا يتغير، لعلك ستختلفين معي في ذلك. إذن سأحكي لك بعض التفاصيل وستحكين لي أنت أيضاً! قبلاتي لك. «ل». »

كنت أعرف أن إيما كانت تسكن في برلين في خريف ١٩٤٥ قبل أن نتعارف، فهي لم تسكن في أي مدينة أخرى سوى برلين، ولكن ليس في المنزل نفسه الذي قد يكون هذا المراسل الأمريكي الشاب قد زارها فيه. منزل خلفي في حي نويكولن دمّرته القنابل وربما كان ذلك إنقاذاً لساكنته التي عاشت فيه سنين طويلة وكانت مراقبة من الغيشتابو[2] وعلى وشك التعرض للاعتقال مجدداً. هكذا استطاعت ليلة التفجير أن تنجو بنفسها من تحت الأنقاض وتختفي وسط غابة

(١) **الفوهرر**: كلمة ألمانية تعني الزعيم أو القائد كانت تطلق على هتلر.
(٢) **الغيشتابو**: جهاز الاستخبارات الألماني في فترة النازية.

الحطام في المدينة التي تكاد تكون قد دمرت بالكامل. لم تكد إيما تتحدث عن ذلك أبداً. كم جلسنا في بيتها المحيّر على الأطراف الشرقية للمدينة والذي كسته على مر السنوات خلال أعمال الهدم والبناء الأكواخ التي كانت إيما تختبئ فيها فترة نهاية الحرب. أخرجتُ الخطاب الأخير من الظرف. كان يرجع لشهر مايو ١٩٧٩ ولكن ليس من «ل» وإنما من شخص غريب، وكان يحوي خبراً موجزاً عن وفاة «ل» بالسكتة القلبية. كان موقعاً بالاسم الأول «روث».

أتساءل ماذا كانت إيما لتقول لي اليوم. عيشي على أرض الواقع يا فتاة! مجرد التفكير في ذلك يُحسّن مزاجي.

الدكتور كيم الذي يذهب المرء إليه على مضض ليجلس في غرفة الانتظار على المقعد البامبو كان يسأل أسئلة مختلفة عن التي يسألها الأطباء الآخرون. بالطبع كان ينشغل بألم الجسد الذي قادني إليه بدقة وعناية. مفاصل الفخذ، أي نعم، لم يبدُ ذلك مقلقاً بالنسبة إليه. ثم رفع رأسه الآسيوي النحيف من على الورقة التي تعيّن عليّ أن أملأها له: أنت كاتبة. ما الذي عليك فعله لتصيري كاتبة جيدة. شعرت أنني في اختبار مرة أخرى، وأردت أن أجتازه بنجاح، حاولت أن أستقرئ ما يود المعلم سماعه، قلت: أن أبذل جهداً لأتعرف على نفسي بدقة وأعبر عنها. بدا الدكتور كيم راضياً. نصحني أن أكثر من التأمل، حينها سأتعرف على نفسي بشكل أفضل، وعلي ألا أفزع مما سأكتشفه وألا أخجل من التعبير عنه. بذلك يمكنني أن أصير أفضل كاتبة في العالم.

يمكنني أن أقول بمنتهى الصدق إن هذا ليس هدفي وهو ما أدهشه. بدم بارد أخذ ينغز جسدي بإبره المعدنية الدقيقة. لكنه لم يكن هدفي، أخذت أثبّت نفسي عندما ركبت الباص الذي يطوي طريق

ويلشاير بوليفار الطويل كله تحت إطاراته ويلتقط المساكين من غير ملاك السيارات الذين يوجد منهم أيضاً على ما يبدو في مدينة السيارات هذه. هل أنا منهم؟ سؤال باطل، فقد كان بإمكاني في أي وقت أن أتدبر أمر سيارة مستعملة بسعر معقول إذا ما استطعت التخلص من هواجسي تجاه حركة المرور في هذه المدينة التي أعجز عن فهمها.
حاولت أن أحفظ الركاب المتعاقبين، الأم السوداء ومعها طفلها الأسود المزين بربطة صغيرة، والرجل المشرد المهمل شديد التعلق بالزجاجة والذي كان يتمتم غاضباً من نفسه، مجموعة من التلاميذ البيض والسود والسُّمر الذين كانوا يتجمعون أمام الباب الأوسط يتحامقون مثل كل التلاميذ في أنحاء العالم، وسيدة تغمر كمية اللحم في جسدها مقعدي الصف الواحد كاملين. كنت أراقبها كما عودت نفسي. في كل محطة لفت انتباهي عدد الناس الذين يسيرون بصعوبة وبالكاد يستطيعون الركوب والنزول بعد عناء. كم منهم من يمشي بعصا أو عكاز، وكم منهم له ذراع مربوط أو عين مغطاة. وعندما توقف الباص أخيراً عند شارع فورث ستريت تحاملت على نفسي قدر المستطاع لأنزل برشاقة، كأنني حقاً لا أحتاج إلى المقبض رغم أن النجاح الذي يبدو أن الدكتور كيم كان يتوقعه من إبره الخمس الأولى لم يُرِد أن يتحقق. مع ذلك فقد سمعت أن تفاقم الأعراض قد يفسَّر كأحد الآثار لجلسات العلاج، وتساءلت - حين صعدت السلم إلى شقتي بصعوبة - إن لم يكن علي أخذ قرص من تلك الأقراص التي يجب ألا يعرف بها الدكتور كيم، حيث إنه كان بالفعل قد حظر عليّ متعة القهوة والنبيذ - no coffee, no wine! (لا قهوة ولا نبيذ!) - فحسب رأيه إن هذه العقاقير الضارة تمنع تدفق تيارات الطاقة التي أراد الدكتور كيم لتوه أن ينشطها في جسدي.

بلا مقدمات فاجأني التقرير الذي لم أكن أود سماعه، والذي جاء في نشرة الأخبار التلفزيونية قبل أن أترك الغرفة هرباً، استطعت فقط أن أغمض عيني، وفي الجريدة استطعت أن أقلب الصفحة التي ظهرت عليها صورة جهاز القتل المسمى بالكرسي الكهربائي. لكن الرجل الذي ظل عشر سنوات منذ ارتكابه جريمة القتل في انتظار تنفيذ حكم الإعدام كان قد تم إعدامه حقناً بالسم. عبثاً حاولت أن أكبت الفكرة، لم يتسنّ ذلك. عبثاً حاولت أن أواجه خبر اختطاف عالمة آثار في العراق بهدوء لكي يصير محتملاً. لم يتسنّ ذلك، أو ربما فقط من حين لآخر. ما زلت أذكر حين كنت أستلقي في سريري وأنا صغيرة وأتساءل كيف علي أن أتحمل أخبار المعاناة التي تفرض بشكل دائم على بشر آخرين والخوف من الجراح الخاصة طيلة حياة كاملة. لم أكن أعرف بعد، ولم أكن لأصدق أن الإحساس بالآخر يتضاءل عندما يتم الإفراط في استدعائه، وأنه لا ينمو بالقدر نفسه الذي يتم به التعبير عنه، وأن المرء يطوّر - من دون علمه ومن دون رغبته - حِيَلاً دفاعية في مواجهة ذلك الإحساس بالآخرين المدمر للذات.

قصدت «المركز» وعبرت البهو. "How are you doing today? Great, thank you. O good" (كيف حالك اليوم؟ عظيم، شكراً. آه جيد). أربعة مصاعد، اثنان في جهة واثنان في الجهة الأخرى. تخيّلتها شفافة، رأيت الكبائن الزجاجية صاعدة هابطة، حافظة دورة الحركة في المبنى الإداري. رأيت أفواه الناس تتحرك في الكبائن بالإجابات نفسها على الأسئلة ذاتها، رأيت المصاعد تتوقف في الأدوار المختلفة، السيدات الشابات تحملن ملفاتهن ورسائلهن المهمة في كل غرفة، في كل ركن من أركان المبنى الكبير: أحوالنا ممتازة، بديعة، فائقة. لا يمكن أن نكون في حال أفضل. وهكذا هي

الحال في جميع أنحاء البلاد. أما اعتقادي أن الابتسام المتواصل لا بد أن يكون مرهقاً فكان خاطئاً تماماً، كما أيقنت في تلك الأثناء. أن تكون على طبيعتك ليس بالأمر المرهق.

في صندوق البريد أصبحت الآن أجد رسائل أكثر مرسلةً من المدينة، منها دعوات، وهي علامة على أن المزيد من الأشخاص والمؤسسات قد علموا بوجودي. هناك زميل من برلين الشرقية يفترض أنه سيأتي إلى هنا محلقاً فوق المحيط، حيث لا يعرف أحد شيئاً عنه ولا عن ماضيه. تحت عنوان الرسالة: لا توجد حياة صحيحة في الأكذوبة، مستهزئاً بأولئك الزملاء الذين لم يعلنوا صراحة تخليهم عن انحرافاتهم اليسارية كما فعل هو مؤخراً، وذلك من دون أن ينسى أن يضيف أنه من الواضح تماماً بالنسبة إليه أن الزملاء لن يستطيعوا أن يعيشوا حياةً كريمة في ظل النظام السياسي في الشرق.

لم أكن أعرف هذا الرجل شخصياً وأردت أن أصون نفسي من أن أظلمه. لكن كان علي أن أتساءل أليس الواجب على هذا - تحديداً ذلك الذي كان الأكثر انتماءاً لليسار - أن يعرف على الأقل صاحبه أدورنو[١]. ألم يكن بإمكانه معرفة أن تلك الجملة من كتاب "MINIMA MORALIA" (الأخلاق الدنيا) التي تستخدم من قبل جميع وسائل الإعلام ضد مثقفي الجمهورية الألمانية الديمقراطية، والتي توجد في نهاية الفصل الثامن عشر تحت عنوان «مأوى

---

(١) **تيودور لودفيغ فيزنغروند أدورنو (١٩٠٣- ١٩٦٩)**: فيلسوف ألماني، ورائد من رواد مدرسة فرانكفورت الشهيرة، اشتهر بدراسته للفن وعلم الموسيقى والمجتمع الرأسمالي أصحاب النظرية النقدية، ويعتبر من أبرز مفكري القرن العشرين في الفلسفة وعلم الجمال، بالإضافة إلى كونه من أبرز كتّاب المقالات.

للمشردين» وتناقش استحالة وجود العيش الملائم في ظل معطيات «الأكذوبة» أي العلاقات الرأسمالية: *في الواقع لم يعد يتسنى للمرء أن يسكن أساساً*. ولكن - أياً كان المقصود بها أصلاً - لا يمكن تفادي مثل هذه الصياغة الآسرة. أجلس إلى آلتي الكاتبة وأكتب:

كيف يمكن أن تكون تلك الحياة الصائبة في الصواب. لو حالفنا الحظ في نهاية الحرب وتمكن فوج النازحين من عبور نهر الإلبه الذي سعينا إليه جاهدين حتى آخر ما تبقى لدينا من قوة من خلال سلاح الفرسان؟ هل كنت سأصير مع الآخرين ضمن العلاقات الصحيحة إنساناً آخر؟ أذكى، أفضل، بلا خطيئة؟ ولكن لماذا ما زلت لا أستطيع أن أتمنى استبدال حياتي بتلك الحياة الأسهل والأفضل؟

كان عليّ حينئذ أن أهرب، بعيداً عن تلك الآلة الكاتبة الإرهابية المثابرة، خارج شقتي الهادئة، تلك الزنزانة التي تطبق حوائطها على أنفاسي، كان عليَّ الفرار من هذا المونولوغ المتواصل في رأسي إلى ذلك المكان في حديقة «أوشن بارك» الذي يمنحني المشهد الأكثر انفتاحاً على المحيط الهادئ.

بالكاد يمكن أن أصدق ومن الصعب أن أحتمل أن يكون جميع هؤلاء الناس الذين أقابلهم في حديقة «أوشن بارك» غير مذنبين. كان هناك أناس بلا خطيئة، العاشقان اليابانيان اللذان كانا يصوران نفسيهما باستخدام مفتاح التشغيل الذاتي في أوضاع مختلفة، ثم طلبا مني أن أصورهما أثناء محاولتهما عناق جذع شجرة الكافور الضخمة. بلا خطيئة كانت أيضاً العائلة المكسيكية الكبيرة التي ضمت أريكتين

وراحت تستخرج من علب الأكلات السريعة القابلة للتدوير الهامبرغر والهوت دوغ. كلهم بلا خطيئة، بدءاً من السيدة المتلفحة بالألوان الهندية الفاقعة وصولاً إلى الرضيع الأسمر حديث الولادة، حتى لو كان بعض أعضاء المجموعة قد عبروا الحدود إلى هنا بطريقة غير شرعية. ليس هذا هو المهم. الشباب الذين يمارسون رياضة العدو فرادى أو أزواجاً، بعضهم ملتزم بعَدّاد النبض أو عدّاد الخطوات، ما شأني أنا، ربما للتغلب على بعض المصاعب كان بعضهم مدججاً بالأثقال. DO YOU LIKE ME (هل أعجبك؟) كانت مكتوبة بحروف سوداء على قمصانهم المبللة بالعرق، ولم يكن من الممكن أن تكون الإجابة سوى نعم ثم نعم.

أو تلك المجموعة من المهاجرين الروس، الذين كنت أشاهدهم من مركز المراقبة من موقعي على أريكتي ورأيت كل ما هو روسي فيهم عن بعد، هم أيضاً بلا خطيئة، تحديداً هم. حاولت أثناء مرورهم أن ألتقط شيئاً من لغتهم، الروسية التي أوصتنا بها أول مدرّسة - ألمانية من منطقة البلطيق - درَّستنا اللغة الروسية، نحن طالبات المرحلة الثانوية من جميع أنحاء «الرايخ» الألماني الأكبر المهزوم في البلدة الصغيرة في ولاية تورينغن مخدوعات وما من شيء أسوأ لدينا من تعلم لغة المنتصرين علينا تلك: «تعلموا يا صغاري، تعلموا أن الروسي أينما تواجد مرة فلن يرحل أبداً». التقطت بعض الكلمات، ولم أجرؤ على أن أسأل إلى أي موجة من موجات الهجرة المختلفة تنتمي هذه العائلة. لاحظت أن الأطفال يتبادلون فيما بينهم بعض الكلمات الإنجليزية.

غمرتني موجة منْ الذكريات هيجتها اللغة من خلال كلمة «موسكو». ذكرى رحلتي الأخيرة إلى موسكو في أكتوبر ١٩٨٩ التي

أصابتني بالاكتئاب الشديد بسبب الأخبار المقلقة من الأصدقاء بشأن حال بلادهم.

قبل رحلة العودة، في مطار شيريميتييفو حدثتكِ امرأة شابة بلهجة سكسونية خالصة. قالت إنها مع أعضاء فرقة كورال موسيقى المادريجال[1] من مدينة هالّه في الطريق من آسيا الوسطى منذ أسابيع، بمعزل عن أخبار الجمهورية الألمانية الديمقراطية، وسألتك إن كنت تعلمين شيئاً عن تظاهرات يوم الإثنين في مدينة لايبزيج، فقد كانت شاعت أنباء عن سقوط ضحايا من بين المتظاهرين إثر اشتباكات مع قوات الأمن، وقد كانوا قلقين على ذويهم وأصدقائهم، سألتك إن كان باستطاعتك أن تفيديهم بشيء. أي نعم، كان باستطاعتك ذلك. الاثنين الماضي، التاسع من أكتوبر ١٩٨٩ كنت قد وصلت إلى موسكو ظهراً، وفي المساء اتصلت بالبيت محملة بالقلق بشأن مصير التظاهرات في لايبزيغ، حينها سمعت ما يمكنك نقله الآن: بلغ العدد مئة ألف في الشارع ولم يحدث شيء. شعرت وقتذاك بالسعادة نفسها التي شعرت بها الآن السيدة الشابة التي عانقتك ونقلت الخبر لبقية أعضاء الفرقة.

بينما كنتم - مجموعة كبيرة من المسافرين ومن بينهم العديد من السيّاح من ألمانيا الشرقية - تنتظرون في صالة السفر جمعت الفرقة نفسها وراءك وبدأت في الغناء O Täler Weit, O Höhn (آه أيتها

(١) **الماردیجال:** هو نوع من الغناء الذي تتخلله فواصل ورقصات وغناء جماعي، وهو بمثابة البذرة الأولى لفن الأوبرا، وبطبيعة الحال لم تعد المصاحبة الموسيقية مقصورة على آلة واحدة، بل تعددت وتنوعت بين آلات وترية وأخرى خشبية أو نحاسية، وبذلك بدأت أول التكوينات النهائية لإقامة شكل ثابت للأوركسترا.

الأودية البعيدة، آه أيتها المرتفعات)[1]، بأصوات متعددة الطبقات، منتهى الصفاء، شديدة الوضوح، غاية في الحميمية. أنت الوحيدة من بين المستمعين من كانت تفهم لماذا يغنون، واضطررت للانصراف عنهم ولم يكن باستطاعتك تسمية شعورك المستثار بالألم. لم يكن مجرد وداع لموسكو ذلك الذي جرى هنا. لاحقاً، في الزمن الجديد، مرة بعد أخرى يتم بمنتهى الإذلال استجوابك حول ما يمكن بحق الجحيم أن يكون في هذا البلد المنهك حتى يبكيه المرء. ماذا كان فيه غير القرف وأعمال التجسس ليجلبه إلى ألمانيا العظيمة الغنية الحرة. وقتها كان عليك أحياناً التفكير في تلك الدقائق بالمطار في موسكو: لقد كنا نغني هذا لك الآن، ولوجوه المسافرين الألمان الشرقيين المدهوشين المتعجبين الذين أخذوا يتهامسون بموطن الفرقة الأصلي، ثم صفقوا بحماس استحساناً لأدائها. لقد استمتعوا بالغناء، ولم يدركوا ألم نغمة البهجة الخفيضة الموجعة، وقد كنت أنت صامتة لاحقاًحين تم الإلحاح عليك بالأسئلة والاتهامات.

في وقت ما تكونت الجملة: لقد أحببنا هذا البلد. جملة مستحيلة لم تكن لتلقى سوى السخرية والازدراء حينما تنطقين بها. لكن هذا ما فعلته. لقد احتفظت به لنفسك كما تحتفظين بالكثير الآن لنفسك.

يصاب المرء بالعيّ جراء ذلك. كان عليّ أحياناً أن أدع كل شيء قائماً أو موضوعاً في مكانه وأذهب إلى شقتي لأستلقي. بدأت في قراءة مذكرات توماس مان التي كتبها كمهاجر في هذا المكان، على بعد بضعة كيلومترات من فندق ميس فيكتوريا، لكن الكتاب كاد يسقط من يدي، فقد غفوت. نمضي على الطريق السريع باتجاه برلين. مرة

---

(١) من الأغاني الشعبية الألمانية.

أخرى وضعت أطلس السيارة مفتوحاً فوق ركبتي ورحت أبحث عن البلدة، تلك المدينة التي يمكننا أن ننزح إليها، رفيقي يتحدث عن أجهزة مراقبة السرعة التي يعرف أماكنها، فلم يسبق أن استوقفته الشرطة بسبب سرعته الزائدة، قلت له: لكنها لم تعد الشرطة نفسها، فقال بلى، لقد بدّلوا ملابسهم فقط، أما لافتات تحديد السرعات الجديدة فهي مجرد خدعة، في حقيقة الأمر يتعيّن علينا الالتزام بالسرعات القديمة أي بسرعة مئة كيلومتر في الساعة، كل ما هو غير ذلك مفترض أن يخضع للمحاسبة. في الحارة اليسرى تسرع بجوارنا كالعادة السيارات الغربية، يقول إن لهم الحق في ذلك لأن القوانين السارية عليهم مختلفة. فجأة نجلس مع بناتنا وأزواجهن في مقهى كانسلر في منطقة «كودام». أستطيع أن أخمن ماذا تريد ابنتنا الكبرى أن تخبرنا، تقول: إذن لقد قررنا أن نرحل، فما الذي يدعونا للبقاء هنا إلى الأبد في ظل هذه الحياة القاتمة ولماذا نبقى سجناء الحرمان والضيق. أهز رأسي ولديّ هذا الشعور المزعج بأن شيئاً في قرارها هذا لا يستقيم، لا أستطيع أن أحدد ماذا يمكن أن يكون، يقول زوج ابنتنا الثاني قلقاً: «هكذا سيكون علينا نحن أيضاً أن نرحل». أقول: كلا، هذا ليس ضرورياً أبداً. كانت أمام الجميع أكواب الآيس كريم العملاقة بالقشدة إلا أننا كنا نشعر بالأسى، هكذا جاء دورنا نحن أيضاً، خطر لي وأنا أستيقظ من النوم، واستغرقت طويلاً حتى اتضح لي لماذا لم يعد ضرورياً، نعم، بل لم يعد ممكناً الرحيل.

جاء بيتر غوتمان ليس للمرة الأولى في اللحظة المناسبة. يبدو أن لديك قرون استشعار جيدة لضبط التوقيت الصحيح لظهورك هنا. أراد أن يعرف ما الذي كان يجري. لقد اكتشفت - قلت له - أن حالتي الشعورية لا تتوافق في كثير من الأحيان مع الأحداث التاريخية.

مثال، هل تسمح؟

بكل سرور. سقوط الحائط كان يوم عيد كما تعرف. هكذا سيبقى أيضاً إلى الأبد في كتب التاريخ.

نعم، ماذا في ذلك؟

أما أنا فقد عشته هكذا: في المساء كنا في السينما، في افتتاح أحد الأفلام، ذلك الذي كان يصف «خروج» أحد المدرسين المثليين في الجمهورية الألمانية الديمقراطية، موضوع لم يكن قد تم تناوله علناً بعد. كان الجمهور متأثراً جداً وقد منح فريق العمل تصفيقاً لعدة دقائق. في تلك الأيام كنا جميعاً مشحونين بسبب الأحداث التي كانت تجري في بلادنا. بعدها ذهبنا إلى ابنتنا. استقبلنا زوجها عند باب غرفة المعيشة: «هل سمعتم؟ لقد فُتِحَ السور». فماذا قلت أنا بمنتهى التلقائية؟ قلت: إذن عليهم أن يرفعوا الراية البيضاء على مقر اللجنة المركزية للحزب الشيوعي.

وماذا في ذلك؟ قال بيتر غوتمان. هل كان هذا خطأً؟

ليس خطأً. غير لائق. كان يفترض أن ألقي بنفسي في أحضان زوج ابنتي وأصرخ: شيء لا يصدق! كان يفترض أن أجهش بالبكاء فرحاً.

نعم، نعم، قال بيتر غوتمان.

دائماً تلك المشاعر المتضاربة

متضاربة؟ خطر لي. هل كانت عندي مشاعر متضاربة حين كنا في السيارة في طريق العودة إلى المنزل عندما اضطررنا للوقوف طويلاً عند

تقاطع شارع شونهاوزر مع بورنهولمر إذ لم ينقطع سيل سيارات الترابانت والفارتبورغ[1] الذي أخذ يتدفق عبر معبر بورنهولمر الحدودي؟ كيف كان شعوري وقتها فعلاً؟ سعادة؟ انتصار؟ ارتياح؟ كلا. شيء مثل الهلع. شيء مثل الخجل. شيء مثل القلق. والاستسلام. قُضِيَ الأمر. كنت قد فهمت.

قلت: لو أن المرء يعرف دائماً ما سيأتي لاحقاً. ما تصفين - قال بيتر غوتمان - هو تضارب المشاعر الأقل إيذاءً. هناك الأسوأ. المدمر. أبي مثلاً. رئيس هيئة البريد في برومبرغ. كيف كان شعوره عندما جاء هتلر إلى سدة الحكم: صدمة؟ خوف؟ على الإطلاق. لقد أحس بلا مبالاة. الإنذارات ضرب بها عرض الحائط. إلى أن احتجزه الغيشتابو لمدة أسبوع. حينئذ أدرك ووضع مشاعره في نصابها الصحيح. هكذا أرسل ابنيه في أقرب فرصة إلى إنجلترا ودبّر رحلة الخروج لنفسه ولأمي التي لم تكن قد صارت أمي لأنني لم أكن قد ولدت بعد. استطاعوا الهروب والنجاة. كم من البشر قادتهم المشاعر الخاطئة وحسن النية إلى حتفهم.

قلت: لقد ولدت أمي في برومبرغ. كان جدي كمسارياً في محطة سكك حديد الرايخ. كان يحب أن يشرب كأساً كلما أحس بالعطش.

حسناً أرأيتِ؟ قال بيتر غوتمان وكأنه يواسيني. ثم ضحكنا.

بعدها اتصل بي: بالمناسبة - هكذا بدأت معظم أحاديثه - بالمناسبة لقد تناول فيلسوفي أيضاً مسألة عدم التكافؤ بين الحدث الموضوعي والمشاعر الذاتية.

قلت: إنني مقتنعة بذلك. ماذا يقول إذن؟

---

(١) من أنواع السيارات التي كانت تصنع في الجمهورية الألمانية الديمقراطية.

يقول إن الوقائع ليست دائماً متوافقة مع المشاعر.
قلت: أنت الذي ابتدعت هذا الآن.
فقال: سيدتي! مستحيل أن أجرؤ على مثل هذا.

صور من الذاكرة: جلست مع جون وجودي لأول مرة في المقهى الذي سيصير بعدها مقهانا المفضل في شارع ١٧ حيث يمكن تناول السلاطات اللذيذة بأسعار معقولة. كان جون قد أرسل إليّ بعض الرسائل على المركز عدة مرات بها دعوات وكنت أرد عليه، نعم، يسعدني أن ألتقي به مع مجموعة من الأصدقاء اليهود «الناجين» - على حد تعبيره - أو «أبناء الجيل الثاني». كانوا يريدون التحدث معي عن ألمانيا. كنت أخشى هذا اللقاء. لكنني كنت أريد مبدئياً التعرف على جون وزوجته جودي. جون - الذي جاء لاصطحابي إلى العشاء - كان وقتها وفيما بعد أيضاً يمسك بزمام كل الأمور. قال: «أرجو أن تكوني بخير» وكأننا نعرف بعضنا بعضاً منذ زمن، ما يدعو للدهشة أنني قلت: لست في أحسن حال يا جون. فجاء رده هو أيضاً مدهشاً: أعلم ذلك. لا عليك. ستكونين بخير.

عرفت أنهم سيصيرون أصدقائي في المستقبل. زوجان في منتصف الأربعين، هو نحيف طويل القامة وقور ذو شعر أشقر ناعم مصفف إلى الوراء، وهي قصيرة، وشعرها داكن مموج، محبة للحياة. لأول مرة جلسنا بعضنا قبالة بعض وبدأ جون على الفور يحكي عن عائلته التي توصل مؤخراً إلى آخر من تبقى منها - بعد التحول - في برلين الشرقية، ألا وهما ابنا عمومته اللذان يسكنان مع زوجتيهما وأبنائهما في شارع كارل ماركس في برلين. أحدهما يعمل مهندساً والآخر محرراً في دار نشر، وهما - على حد قول جون - يشعران

بالـ«استعمار» جراء الوحدة. فرش جون فوق المائدة، فوق أطباق السلاطة، ورقة كبيرة فيها شجرة عائلته التي قضى سنوات في البحث عنها ورسمها بنفسه. سمعت الرواية الأولى من بين الروايات الكثيرة عن سيرة حياة اليهود الألمان التي سوف يتسنى لي أن أستمع إليها فيما بعد: رواية الأبوين اللذين تمكنا من مغادرة ألمانيا في اللحظة الأخيرة، ١٩٣٩، وكيف جاءا عبر إنجلترا - حيث سيولد جون لاحقاً - إلى الولايات المتحدة في النهاية واستغرقا وقتاً طويلاً ليشقّا طريقيهما من خلال فرص العمل المتاحة. لأول مرة كنت أسمع أن ابن يهودي نازح يشعر بالحنين لألمانيا. قال جون إن جذوره توجد هناك. وقد حرص على الاعتناء بعلاقته بأقاربه الذين فاز بهم مؤخراً في برلين الشرقية، وكان يجمع باهتمام وشغف كل ما أمكنه اكتشافه حول الوحدة بين الدولتين الألمانيتين. كما أطلعني على بعض المقالات الخاصة بذلك في حافظته التي يحملها معه دائماً ويقوم بتحديث محتواها باستمرار. كان هو أول أمريكي لا ينتظر مني تعبيراً حالماً حين تذكر كلمة «الوحدة».

كان هو وجودي يتقاسمان وظيفة اختصاصي اجتماعي في الجامعة، يبحثان في مجال الإدارة الصناعية ولم يخفيا اعتقادهما أن النظام الرأسمالي نظام شاذ لاعتماده بالأساس على النمو الاقتصادي اللانهائي، لكنهما لم يقدرا على الخروج بوجهة نظرهما تلك إلى الرأي العام - أو على حد قولهما - ليس بعد. ليس فقط لأن هذا قد يعرضهما لفقدان وظيفتهما على المدى الطويل، وإنما قبل كل شيء لأنه لا يكاد يوجد من يفهمهما. لقد تم بالفعل إقناع الناس - كما قال جون - أنهم يعيشون في أفضل العوالم الممكنة، وما داموا يصدقون رغم كل الدلائل فهم يصمون آذانهم عن الآراء المغايرة. على الأرجح

إن وقوع كارثة هو فقط ما سوف يهزهم، وهذا ما لا يمكن أن يتمناه المرء في الحقيقة. حتى ذلك الحين كان عليهما استغلال الوقت وجمع الحقائق المقنعة، ولكن أيضاً كلما أمكن تطوير اقتراحات للبدائل.

قلت: كم أعرف ذلك.

كم كنت أعرف ذلك. كم ظللت في السنوات الأخيرة مترقبةً سقوط بلادي وأنا أتذكر سطور غوته القديمة. كانت تبدأ هكذا: لا نود أن نتمنى الاضطرابات التي يمكن أن تمهد لها الأعمال الكلاسيكية في ألمانيا. «ثورة حفاة أدبية».

يجب أن نتمنى، وهو ما يعني الهدم، أن نقبع في المأزق، أن نتعلم العيش من دون بدائل. هكذا الأوضاع الألمانية. سيتم تصنيفنا على أننا معاتيه - قال جون - إلى هذا الحد ناورنا لإبعاد أنفسنا إلى هامش المجتمع بسبب آرائنا. ربما كنت قد أدركت بالفعل مدى قوة الضعط الاجتماعي باتجاه التكيّف في الولايات المتحدة وكيف يتضاءل إدراك أصحابه له. وأن الحياة اليومية الأمريكية صارت هي النموذج للعالم كله. أنه صار طبيعياً أن يعيش المرء من أجل المكسب والنجاح. وأن يُنتخَب الرئيس من ثلث المواطنين فقط ومع ذلك يعتبرون أنفسهم النموذج المثالي بين كل الديمقراطيات. كل هذا تم تمريره بعد انهيار الشيوعية كأنه شيء خالد إلى أبد الآبدين. سوف يستغرق الأمر وقتاً طويلاً حتى تحل التناقضات الرئيسية الكامنة في ذلك النظام نفسه. وقتذاك لا بد أن يكونوا مستعدين ولو نظرياً على الأقل.

أيها المساكين! ما زلت أذكر أنني قلت ذلك لنفسي ولديّ إحساس بالشفقة من جهة وبالغيرة من جهة أخرى. على الأقل لم يكن

الشك يفترسهم في كل الأحوال. خطر لي أنه لا بد أن ذلك يعينهم كثيراً. إنكم لا تعلمون ما الذي ما زال بانتظاركم، قلت لنفسي. أما نحن فنعرف وعلينا أن نسلم بأن خيالنا لم يتسع حينذاك لنتصور أنه سيتم نقل ما يزيد على ألفي نعش تحملّ الجنود الأمريكيين الأموات من العراق إلى الولايات المتحدة الأمريكية من دون أن يحتج الأمريكان على ذلك.

الكثير من التفاصيل تتلاشى، فأنا بالطبع لا يمكنني أن أتذكر بدقة المراحل المختلفة من التقارير الإخبارية التي تأتي من أوروبا، لكن ما زلت أعرف أن المقالات التي كانت ترسل إليّ عبر البريد أو الفاكس والتي كانت كيتشن تسلمها لي في أحد الملفات كانت تعزف نغمة مختلفة أقل حِلماً، أكثر حدة وصرامة. كنت أقرأ صفحات بريد القراء في الصحف: ضجر القراء الألمان الغربيون من مشاكل الشرقيين. وأعربوا عن حيرة حقيقية: ماذا بحق السماء كانت تعني هذ النداءات حول القيم المزعومة التي يودّون الحفاظ عليها من الدولة الساقطة؟ ما الذي يمكن الحفاظ عليه من مثل هذه الديكتاتورية؟

المرونة والدقة والانفتاح، تقول الراهبة، كتبت على آلتي الكاتبة. جلست ساعات كل يوم على الناحية الضيقة من مائدة الطعام وكتبت، وهو ما اعتبره كل من كان يعرف ذلك اجتهاداً، إلا أنا التي كنت أعرف ما الاجتهاد وكيف يمكن أن يكون، ولكن ربما يقع اجتهادي أيضاً ضمن مفهوم الراهبة عن ذلك التسامح المطلق مع كل شيء.

المرونة نوع من الترفق بأنفسنا - أخذت أترجم سطور الراهبة - **الدقة تساعدنا على أن نرى بوضوح من دون أن نخاف، تماماً كما لا**

يخاف العالِم من النظر في المجهر، والانفتاح هو القدرة على الاستغناء وكشف الذات.

ما أراد أن يتجلى لي هو أن مثل هذه الجمل عادة ما تريد أن تتجلى لي، هكذا أظن الآن بعد مرور سنوات. سنوات عملت خلالها جاهدة ضد هذه الجمل. أتذكر الحلم الذي رأيته الليلة: أنا مع عائلتي كلها فيما يشبه الكهف، في حقل واسع أمامنا يرتفع برج عملاق، معمار حديدي على طراز برج إيفل يميل ببطء إلى اليمين في مشهد مروع، ثم ينكسر مثل مطواة جيب عند نقطتين. نهرب مثل أناس كثيرين حولنا في حالة فزع، أفقد جدتي، فأهرول عائدة. تحول الكهف في تلك الأثناء إلى مطعم بسيط، هناك تجلس جدتي على كرسي متحرك وتوجه نظرها صوبي. أفكر: الحادي عشر من سبتمبر! وأستيقظ صارخة. سمعت صوتاً: نقطة تاريخية فارقة.

آخر مرة اندفعت فيها من نومي صارخة - على ما أتذكر - كانت تلك الليلة بعد زيارة متحف الهولوكوست الصغير في لوس أنجلوس. غرفتان. في إحداهما على الحائط صور من الحياة اليهودية في أوروبا قبل الإبادة. صور عائلية. وثائق عن إبادة اليهود الأوروبيين. صور لبعض الناجين. أما الغرفة الثانية فهي فارغة إلا من عربة قطار أعيد بناؤها على شكل عربات نقل البهائم التي استخدمت لترحيل البشر إلى معسكرات الإبادة.

أجلس مع مدير المتحف الشاب - رجل قصير غير لافت للنظر ذو نظرة حادة - في أحد المقاهي المجاورة. عرفت قبل أن ينطق ما الذي يود أن يسألني. كان هو أيضاً بالطبع قد رأى صور ألمانيا في الصحف. استبقت حديثه، قلت إنني أنا نفسي لا أملك تفسيراً لأعمال العنف ضد

اللاجئين في ألمانيا. قلت إن الشباب - لاسيما في ألمانيا الشرقية - قد خبروا في السنوات الأخيرة صعوبة أن تعيش ضعيفاً. قال: لكنهم ضعفاء، وعليهم أن يتعلموا رغم ذلك ألا يبادروا بالهجوم. اعتقدت أنني أشرت له إلى كون الألمان حتى بالنسبة إليه مصابين بمرض غير قابل للشفاء، فيروس يمكنه أن يتخفى أو يدعي الموت في الأوقات الأفضل، بحيث تسير ألمانيا مثل أي بلد طبيعي، لكن كل أزمة تستثيره بحيث يعرب عن نفسه ويصير شرساً. يدعى هذا الفيروس «احتقار البشر». ظللت لوقت طويل أظن أنه في الجزء الذي كنت أعيش فيه من البلاد قد تم الانتصار عليه، الانتصار عليه عن طريق التنوير. عندما نطقت هذه الكلمة أظن أنني رأيت في عيني محاوري اليهودي ما يشبه لمحة سخرية حزينة. تنوير! قالها ببعض التطويل. نعم، نعم. كان هذا أقرب لخداع الذات. فلم يكن هذا غريباً علينا.

كان ذلك جديداً بالنسبة إليَّ، وأحسست كم كنت أميل لمقاومة أن أضطر للوقوف هنا والآن للتحدث باسم ألمانيا كلها، التي كنت أنا أيضاً أجهل عنها الكثير ليس فقط جغرافياً. تركني أتحدث، أتلعثم، أبحث عن دلائل، أعبّر عن معارضتي. أخيراً التزمت الصمت. وفي النهاية جاء ثانية ذلك السؤال المتشكك: وتودين فعلاً العودة إلى هناك؟ وإجابتي المتعجلة: نعم، بكل تأكيد. وما البديل؟

وبعد أن كنا قد ودعنا بعضنا بعضاً وكنت قد جلست ثانية في الباص لم أستطع التخلص من ذلك الشعور أن ثمة شيئاً هاماً نسيت أن أقوله له. لم أستطع أن أتذكر ماذا يمكن أن يكون هذا الشيء.

في ذلك اليوم لم أعاود الذهاب إلى «المركز». جلست إلى آلتي الكاتبة وكتبت:

كيف يمكن للباقين على قيد الحياة أن يتصالحوا مع حياتهم. كيف يمكننا نحن الألمان أن نتصالح مع حياتنا. إنه عبء يثقل عاماً بعد عام. لا يوجد ما يمكن إصلاحه، ما من شيء يمكن حله، ولا منطق يمكن التوصل إليه. لا يوجد سوى ذاك الكم من الجرائم الخارقة على ناحيتنا، وذلك الكم من الأسى على ناحيتهم.

وكم استغرقنا حتى نقول «جريمتنا». وكم تشبثنا وتشبثتُ أنا بالعروض التي كانت تعِد بما هو مغاير تماماً، النقيض المحض لهذه الجريمة، المجتمع الآدمي الصحيح، الشيوعية.

المستغلون يسمونه جريمة.

لكننا نعلم: إنه نهاية الجريمة.

الهاتف. بيتر غوتمان. كان المساء قد حل. سأل إن كان بإمكانه أن يقرأ عليّ شيئاً. اقتباساً.

طبعاً، تفضل. إن لم يكن طويلاً ومعقداً أكثر من اللازم.

قرأ: *الراوي - هذا هو الرجل - معذرة، سيدتي! - الذي يستطيع أن يدع فتيلة حياته تحترق بألطف شرارة لهب في حكايته.*

أي نعم. جملة رائعة.

ولكن؟

شرارة اللهب اللطيف كنت لأستبدل بها شرارة اللهب الحارقة.

إذن - قال بيتر غوتمان - لن تنتهي فتيلة الحياة بل سوف تتفحم غالباً.

هذا هو الموضوع تحديداً، قلت له.

حسناً، قال بيتر غوتمان. فهمت. تصبحين على خير يا سيدتي.

سيقولون عن أيامنا:
كان عندهم صلب قديم وقليل من العزيمة
لأن قوتهم قد تضاءلت بعد الهزيمة
سيقولون عن أيامنا:
قلوبهم كانت تطفح بالدم المر
وحياتهم مرت على مسارات ممتدة
سيقولون
وسيقفون على شرفات من زجاج
ويشيرون إلى الجسور
ويمرون بالحدائق
وسيرون المدينة الشابة ملقاة تحت أقدامهم

في السرير دارت تلك الأبيات في رأسي. الشاعر كوبا[1] الذي كتبها ذات يوم كان يؤمن بها وجعلنا نؤمن بها واستشاط غضباً عندما خمد إيماننا ثم انعدم، عندما صار إيمانه الذي لا يتزعزع يقابل بالسخرية والازدراء. لم أكن أستطيع المشاركة في الاستهزاء به ولا أستطيع ذلك حتى اليوم. سيقولون عن أيامنا.. كلا، يا كوبا، هذا تحديداً ما لن يقولوه. ولا يقولون أيضاً: «يا أم غوري كم هو طويل القامة ابنك»[2]. لحسن الحظ لا يقولون ذلك، خطر لي، وأنا أمسك

(١) **كوبا**: هو الاسم الحركي للكاتب والشاعر والمسرحي الألماني كورت بارتيل.
(٢) من أغاني الستالينيين الألمان في الخمسينيات.

بالشريط الرقيق والغلاف الرمادي غير المزخرف وأتصفح وأجد السطور التي كنت أبحث عنها:

غوري، أيها اليابس الضائع في الحدائق
أيها المهد الكائن في أزمنة الحرب
أيتها البشرية الباسلة، الموهوبة للسلام،
كن مثل أبي السلام في العالم
رأس العامِل، عقل العالِم
تنورة المحارب: الرفيق ستالين

كوبا: واحد من هؤلاء الذين ماتوا في الوقت المناسب في رأيي. مات ونُسي، أو صار مفيداً فقط كمادة للرفض الساخر، وهو أهل لذلك بالفعل. تاريخ الإصدار ١٩٥٢ مكتوب في الكتيب الصغير وفوقه بالحبر تاريخ شرائكما له: ١٩٥٣.

كنت قد أنهيت المرحلة الجامعية، كان لديك طفل يحتاج إلى الرعاية، إيجاد مسكن للأسرة كان على رأس الأولويات، كنت تمرين عبر الشوارع المحطمة في الطريق إلى العمل باتحاد الكتاب في شارع فريدريش شتراسه. في أحد الطوابق الإدارية أقام الشاعر كوبا باسم ولمصلحة زملائه، بلا انقطاع كان يلقي على الكُتّاب الشباب المحاضرات التي كنتم تعدونها له، حيث كان قد طلب من السائق أن يشتري له بدلته الوحيدة التي كان يحتاج إليها في المناسبات الرسمية، لم تكن مضبوطة على مقاسه وإنما على مقاس السائق، وقد آلت إليه فعلاً في نهاية الأمر. عندما كان أحد يحتاج إلى نقود كان يضع يده في جيبه ويعطيه ما يجود به اليوم. كان فخوراً بانتمائه للطبقة الكادحة،

أثناء هجرته إلى إنجلترا اعتنق الشيوعية، صار أحد أكثر المؤمنين بها، بل الأكثر صرامة وعنداً وإخلاصاً للحزب من دون قيد أو شرط. اليوم لا يُعرف عنه سوى كونه ذلك الذي وبخ الشعب الأهوج بعد أحداث السابع عشر من يونيو ١٩٥٣[١]: «إذ كان عليه أن يعمل ملياً ليعيد تصحيح الخطأ الذي اقترفه في حق الحكومة». كما يعرفه الناس بسبب الرد الذي وجهه له بريخت: «فلتنتخب الحكومة لنفسها شعباً آخر».

---

(١) أصدر مجلس الوزراء في حكومة ألمانيا الديمقراطية قراراً بتاريخ ٢٨/٥/١٩٥٣ وهو ما عُرف وقتذاك بـ Normerhöhungen مما يعني زيادة الإنتاج المطلوب من العامل تقديمه في الساعة دون أن يهتم المجلس بالجهد الذي بذله العمال طيلة السنوات المنصرمة ولا حتى مجرد الوعد بتحسين أوضاعهم الاقتصادية ورفع الأجور مستقبلاً، مما أدى إلى احتجاجات ومظاهرات من العمال ليس في برلين الشرقية فحسب، بل وفي بعض مدن ألمانيا الديمقراطية أيضاً التي تتركز فيها الصناعة. ثم تطورت الاحتجاجات في ١٦/٦/١٩٥٣ إلى انتفاضة شعبية سلمية طالبت باستقالة الحكومة. لم تتمكن الحكومة من السيطرة على الموقف إلا بمساعدة القوات السوفياتية وإنزال الدبابات إلى الشوارع وإخماد الانتفاضة بالحديد والنار في ١٧/٦/١٩٥٣، فنشر كورت بارتل Kurt Barthel سكرتير اتحاد الكتّاب في ألمانيا الديمقراطية مقالاً في صحيفة Neues Deutschland بتاريخ ٢٠/٦/١٩٥٣ مدافعاً عن القرارات والإجراءات ومبرراً العنف الدموي للحكومة. فكتب الشاعر والكاتب المسرحي الكبير برتولت بريشت وعضو اتحاد الكتاب قصيدة نثر قصيرة ساخرة وبكلمات بسيطة كانعكاس وتأمل للأحداث الدامية وما تضمنته من تبرير من جانب سكرتير الاتحاد وكغطاء لنقد الحكومة مما دفع الآخرين إلى نقد متواتر وهجوم لاذع على السكرتير مما اضطره إلى ترك منصبه كسكرتير لاتحاد الكتّاب بالرغم من تمتعه حينها بسلطة كبيرة كعضو في اللجنة المركزية للحزب الحاكم. (المصدر: حامد فضل الله، الحوار المتمدن - العدد: ٣٨٠٧ - ٢/٨/٢٠١٢).

كان قد أهدى ديوانه الصغير إلى صديقه لويس فورنبرغ[١]، مثله الأعلى وداعمه، الذي كان في مقدمة المهاجرين العائدين - كل ذكرى تجر الأخرى - وكان قد دعاكم إلى فايمار. هل كنتم تعلمون وقتها أن فايمار وعمله على جمع أرشيف غوته وشيللر سيكونان بمثابة المنقذ له؟ في موطنه بمدينة براغ كانت محاكمات سلانسكي[٢] يمكن أن تعني الموت بالنسبة إليه. وقد تمّت إدانة بعض أصدقائه المقربين - وكانوا يهوداً مثله - بتهمة الخيانة العظمى، كما قُتِل آخرون.

متى علمتُ ذلك؟ ومن أي مصدر؟ كان فورنبرغ شديد الفضول تجاهكم أيها الشباب أياً كانت أسماؤكم. حكى لكم الكثير. أستطيع أن أراه في منزله في فايمار جالساً على البيانو، يترنم بأغنيات لفرقته الموسيقية «أجيتْبروب» العشرينية التي كنتم تحفظونها عن ظهر قلب مثلها مثل أشعاره وتستطيعون غناءها معه، مثل:

أغنية الحالمين

عندما يسير الحالمون قدماً
لتشييد أحلامهم

---

(١) **لويس فورنبرغ** (١٩٠٩-١٩٥٧): كاتب وشاعر وصحفي ومؤلف موسيقي ودبلوماسي ألماني تشيكوسلوفاكي من أصل يهودي. اشتهر بكونه مؤلف النشيد الرسمي للحزب الشيوعي الألماني في الجمهورية الألمانية الديمقراطية.

(٢) **محاكمات سلانسكي**: هي أكبر محاكمة صورية أجريت في فترة ما بعد الحرب في التشيك وأدت إلى إعدام العديد من اليهود الذين كانوا يتولون مناصب عالية بعد أن استخدمت القيادة السوفياتية تهمة المؤامرة الصهيونية كذريعة للتخلص منهم. كما استمرت العديد من أحكام الإدانة تصدر استناداً إلى هذه المحاكمة في السنوات التالية.

فلا شيء يطيل النوم ولا شيء يضيع.
من يغير العالم في الحلم
ويسعى لذلك في الصحو
فقد أجاد الحلم
وصار منا

شيوعي أصيل. معه بدأ بالنسبة إليكم طريق المعرفة الطويل. فورنبرغ، ابن رجل الصناعة الألماني اليهودي من كارلسباد، أفلس ولم يهرب في الوقت المناسب قبل اجتياح القوات الألمانية، في الطريق إلى محبسه أفقدوه السمع إذ قذفوه بوابل من الكتب. استطاعت زوجته أن تشتري حريته بأن دفعت رشوة من أموال جده لأحد رجال قوات الأمن الخاصة ليعيش مع العائلة في المنفى في فلسطين ويصير بالنسبة إليكم مؤلف أغنية «*لابد لك من هدف نصب عينيك لئلا تضيع في العالم*». كانت تلك الأغنية تبدو لكم أفضل من كل الأغاني التي غمرت الطفولة والشباب والتي يصعب جداً نسيانها. لكن فورنبرغ كان أيضاً مؤلف الشعر الحميم والنثر الرقيق مثل «قصة موتزارت القصيرة». أما اليوم فهو منسي، أو الأسوأ من ذلك أنه يستدعى فقط عندما يحتاج المرء إلى مثال عبثي للشعر الحزبي، لأنه كتب هذا أيضاً، فإن « أغنية الحزب» التي كتبها - وهو ما لا يعرفه أحد - لمواجهة شكوكه عام ١٩٥٠، أي بعد عامين من طرد ستالين إلى يوغوسلافيا - إحدى الدول التي لجأت إليها عائلة فورنبرغ وأحبتها كثيراً - من رابطة المجتمعات الاشتراكية. «*لأن من جاهد من أجل الحق فهو دائماً على حق ضد الكذب والاستغلال*». أغنية التجمعات التي اختير على أنغامها الرفيق ستالين للرئاسة الفخرية بجانب الرفيق ماو تسي تونغ.

إلى أن قُرئ تقرير للرفيق خروتشوف في أحد التجمعات حول التقديس الذي يعامل به ستالين وعن أول تلميحات لـ«أخطائه»، فأجهش الرفاق الذين قضوا وقتاً في المنفى في الاتحاد السوفياتي بالبكاء واعترفوا أنهم شاهدوا ذلك بأنفسهم وكانوا يعرفون الكثير إلا أنهم صمتوا لكي لا يعرضوا مسيرة البناء في بلادنا للخطر. وكان كوبا هو من هرول إلى المنصة وقال إنه يشكر الرفاق على كتمانهم سراً خطيراً من أسرار الحزب طوال هذا الوقت، ومن هنا اعتُبِر الرفيق خروتشوف خائناً مارقاً بينما أصدر لويس فورنبرغ هتاف تحية: سيذوب الجليد! أخيراً يمكن الكتابة مرة أخرى! - كشف هذا الهتاف عن الكبت العميق الذي عاشه هو والكثير من الرفاق من جيله طوال هذا الوقت. ولم يروا بديلاً. وصمتوا. وكتبوا قصائد مثل:

ساعة عسيرة

ربما كنا ملتفين حول هدف أسمى
فصرنا الضحية باختيارنا، هو الصمت إذن،
وإن أحنى الألم والخزي ظهورنا
خلال هذه اللعبة

اليوم مسني الموت، كتب لويس فورنبرغ يوم ٢٣ نوفمبر ١٩٥٣. عندما مات إثر نوبة قلبية عام ١٩٥٧ عن ثمانية وأربعين عاماً، حملته حشود من البشر إلى قبره، كنتِ في الجنازة معهم.

تمر أمام عيني جنازات أخرى لشعراء كثيرين عادوا إلينا من المهجر وماتوا خلال عقد واحد، كلهم تقريباً إثر «غصة في القلب»،

بالتعبير القديم: صمدت قلوبهم إزاء الضغط الذي استمر لعقود، لكنها لم تتحمل التحرر المفاجئ من هذا الضغط. المواكب التي سارت باتجاه مقابر مدينة دوروتيين بدأها ف.س. فايسكويف. أما برتولت بريخت ويوهانس ر. بيشر فماتا خلال الأربع سنوات التالية، دُفِنوا بجانب فيشته وهيغل وشينكل وراوخ وشادوف، ثم لحقهم بعدها بودو اوزه وويلي بريدل. اليوم تمر حشود السواح على هذه القبور وعلى قبور من ماتوا في العقود التالية ودفنوا هنا أيضاً، فيلاند هيرتسفيلده، هيلينا فيجيل، آنا زيغيرز، هانس ماير، هذا إذا توقفنا عند هذا الجيل. كل هذا الكم من الأسماء. كل هذا الكم من الحكايات. من سيحكيها؟ ومن الذي سيرغب في الاستماع إليها؟ هي ليست مسلية تلك الحكايات، وبالتأكيد ليست خالية من الفشل واللوم. أخطاء؟ خلل؟ هذا أيضاً. بطولات؟ نعم كذلك. لكن لا توجد قصص لأبطال، هم أنفسهم لم يرغبوا في ذلك. وعندما انهار «الحلم الأسمى» أمام أعينهم اختلفت ردود أفعال كل واحد وواحدة منهم: تشكك، تحفظ، أسى، غضب أو صمت، أو إنكار للواقع أو خداع للذات. وبعضهم تعامل بدوغماتية أو بتعنّت.

بعد أحد أكثر التجمعات إثارة لفّ فيلي بريديل ذراعه حول كتفيك: حسناً علينا أن نعتني بكم الآن أيها الشباب أيضاً بعض الشيء. وفي أول فرصة حين سافرتم لحضور أحد المؤتمرات في موسكو جاب معك مدينة موسكو التي عرفها وقت الهجرة: هذا هو فندق لوكس، حيث كنا جميعاً نسكن، أيام التطهير العرقي العصيبة كنا في المساء نهاتف بعضنا بعضاً ليسمع كل منا إن كان الآخر لا يزال موجوداً، وحين يأتيه الصوت يغلق الخط في صمت. بعض الرفاق لم يعودوا بالفعل موجودين. أما هنا فكانت اللوبليانكا، مركز المفوضية

الشعبية للشؤون الداخلية NKWD بنوافذها المسوّرة. كانوا يُرَحّلون من هنا إلى المعتقلات، بعضهم لم يُسمع عنه شيء بعدها. وعندما وقّع ريبنتروب ومولوتوف اتفاق عدم الاعتداء بين ألمانيا-هتلر والاتحاد السوفياتي، كان علينا نحن المهاجرين وقف الترويج للأفكار المناهضة للفاشية في العلن.

حاولتِ أن تتصوري تلك الوحدة التي اصتدموا بها. «ثم؟» سألتِ. كيف تحملتم ذلك؟ - لم يكن لدينا بديل.

لم يكن من المفترض أن يحدث لكم ذلك. كنتم أنتم الشباب وقتها ترابضون لدى بعضكم البعض، ساعة بعد ساعة، ليلة بعد ليلة. كنتم تظنون أن مهمتكم لا بد أن تكون صرف عفريت ستالين عن الحياة الاجتماعية وتخطي الصراعات - التي لم تكونوا تتوقعون حدتها - وعدم الاستسلام. خطة ساذجة.

حتى الساحل الغربي الأمريكي، كاليفورينا المشمسة، يمكن أن تغرق تحت الأمطار المستمرة. لم أكن أعرف ذلك. بقيت في فندق ميس فيكتوريا، رأيت في التلفاز أجزاءً من المنحدر الساحلي على بعد أمتار مني في الشارع الساحلي تنهار.

هرولت إلى أريكتي في حديقة «أوشن بارك»، كان المطر قد توقف، الأرض غارقة تماماً، وسعف النخيل وورق شجر الكافور تلمع بخضار فاقع. كان بيتر غوتمان جالساً هناك بالفعل، حياني تحية عابرة كأننا كنا على موعد. هو أيضاً كان قد اختبأ في شقته منذ أيام، هو أيضاً بدا مشتاقاً للهواء. ذهبنا إلى فندق هانتللي، استقللنا المصعد الخارجي الزجاجي، رأينا الخط الساحلي يتضاءل تحتنا، والناس على الشاطئ يتحولون إلى كائنات متناهية الصغر. تمكنا من إيجاد مكان في

المطعم ذي الواجهات الزجاجية. الساعة السعيدة.[1] مجموعات من الشباب احتلوا معظم الطاولات، تصرفوا كأصحاب مكان، تناولوا المشروبات الرخيصة بكميات كبيرة، أقبلوا على الطعام بشهية مفتوحة، لم يلتفتوا للمشهد من تحتهم، قوس ساحل ماليبو الجميل، بل انتشروا أمام بعضهم البعض، وراحوا يتصايحون محدثين ضجيجاً استطعنا بالكاد أن نتحدث بسببه. نحن أيضاً شربنا المارغاريتا الخفيفة المقدمة في الأباريق الزجاجية وأكلنا النقانق المشوية مع الخضروات، وراقبنا عبر الحوائط الزجاجية العملاقة مشهد الغروب العظيم الذي افتقدناه منذ أيام.

سألت بيتر غوتمان: هل يمكن لإنسان أن يتغير كليةً؟ أم أن علماء النفس محقّون في أن صفاته الأساسية تتكون في السنوات الثلاث الأولى ثم يمكن تنميتها فقط وليس تغييرها؟

على سبيل المثال؟ سأل بيتر غوتمان.

مثلاً: خطر أن يقع الإنسان بشكل دائم في التعلق بشيء؟ بسلطة؟ بمن يسمون زعماء؟ بإيديولوجيات؟

قال بيتر غوتمان: لقد فكر فيلسوفي ملياً في هذا الأمر، موضوع مناسب تماماً. في رأيه أننا - نحن الغربيين - ندفع مقابل حياتنا المترفة افتقارنا إلى النضج. إن ما تغرسه فينا أمهاتنا هو أن من يسبح عكس التيار السائد يتم طرده من مؤسسة الرعاية.

ولكن هل يمكن تصور شيء آخر؟

هذا بالضبط ما تمكنوا من تحقيقه: أن تبقى يوتوبيا الإنسان

---

(١) الساعة السعيدة: تقليد معروف في الحانات الغربية التي تقدم عرضاً سخياً حيث يحق للزائرين الحصول على مشروبين بثمن واحد خلال هذه الساعة.

الأوروبي قاصرة على هذا التصور. أن نظل نأمل فحسب في المزيد من ذلك الذي هو كائن. أو الأقل. أو الأجمل. أو الأكثر منطقية.

صحتُ: وماذا يوجد غير ذلك!

بالضبط - قال بيتر غوتمان - ثم نتعجب أن إيماننا الراسخ بالمنطق يتهاوى إلى أقصى درجات اللامنطق. ثم نتحرك ثانية على القضبان نفسها التي نسميها «تقدم». هكذا يقول فيلسوفي.

قلت: لذلك فإنك لا تَخلُص من كتابه إلى شيء. تصطدم مع أفكار مستحيلة.

ربما يكون الأمر كذلك فعلاً، قال بيتر غوتمان.

غربت الشمس، لا يسع المرء سوى الصمت.

غادرنا المطعم ونزلنا في المصعد مع بداية حلول الظلام إلى شارع ثيرد ستريت الذي ازدحم بالمارة والفنانيين والموسيقيين والحواة.

إذن - سألت - صارت كل أشكال اليوتوبيا شيئاً مضحكاً؟

قال إنه لم يقل ذلك، إلا أنه يخوض حالياً صراعاً مع فيلسوفه حول جدوى الثورات. الثورات باعتبارها السبيل الوحيد لتحقيق اليوتوبيا.

قلت: ربما باعتبارها السبيل الأكثر فاعليةً للتمويه عن خداع النفس بشأن استحالة تحقيق اليوتوبيا.

أنت من يجب أن يعرف يا سيدتي، قال بيتر غوتمان، ولم يرغب في الاستطراد أكثر في هذا الموضوع. انخرطنا صامتين في زحام الشارع المسائي.

إذا ما كانت كلمة الثورة قد ذكرت بينكم عام ١٩٨٩ هو ما لم أعد أعرفه، بل كنت أشك فيه. كانت لتبدو لكم مثيرة للشفقة. الكلمة

التي احتلت الفراغ، التي تم استثناثها صارت غير ملائمة واتخذت مهمة التستر على «الأحداث»: «التحوُّل». ما هو ذلك الذي «تحوَّل»؟ وإلى ماذا؟ ما عشتموه كان انتفاضة شعبية اتخذت لنفسها شكل التظاهرات السلمية قلبت الأوضاع رأساً على عقب. فإذا كانت تلك هي مهمة الثورات فقد كانت تلك ثورة. كلما أمعنت التفكير في ذلك وجدت أنها صارت بدقة وفق النظرية. تآكُل النظام القديم على جميع المستويات تقريباً. فجأة ألقى الممثلون في المسارح بيانات احتجاجية، ولم يوجد بينهم من أسقِط في يده ليعيد الجمهور الصائح بالتحيات العارمة والتصفيق الحاد إلى صوابه. فجأة ولأول مرة لم يذهب الناس للانتخابات ووزعت مجموعات من الحقوقيين نفسها على مراكز الاقتراع، شاهدوا عملية فرز الأصوات التي كانت تعد على الأصابع، قارنوها بالأرقام الرسمية وأخبروا بعضهم بعضاً وكل معارفهم عبر الهواتف المراقبة: تم تزوير الانتخابات! فجأة لم يعد هناك من لا ينتقد الأوضاع بمنتهى الحدة، وقد أظهر ذلك مدى الغضب الذي وصل إليه حتى الأكثر حرصاً والتزاماً: هبت رياح التغيير.

في البدء كانت المجموعات الصغيرة التي تخَفّت وراء دوائر القراءة التي تواصلت بعضها مع بعض وتوحدت وأدارت النقاشات السياسية وقامت بتطوير البرامج وتحرير التوصيات وصياغة المطالب. نشاط عارم من منزل إلى آخر، تم تبادل المنشورات، عاشوا المؤامرة، وكانوا بالطبع مراقبين من الجهات الأمنية. بدا أن تكوّن الأحزاب لم يعد بالإمكان تفاديه، بدأت التعبيرات تتداول «**نظام جديد، الديمقراطية الآن**»، بينما كان يتم الاحتفال بذكرى تأسيس الدولة بالتشريفات العسكرية والأُبّهة، استشعرت الدولة الخطر الأكبر عندما هتفت الجماهير في الشوارع: سنبقى هنا!

قلت لبيتر غوتمان: هناك دائماً "Point of no return" (نقطة اللاعودة). ولكن المرء لا يدركها دائماً.

تركنا أنفسنا نمضي مع تيار البشر الذين راحوا يتسلون بعروض الحواة وفناني الشوارع. أصابني شيء من الغيرة. هكذا يمكن للمرء أيضاً أن يعيش. بدا لي التصور عبثياً أن تتولد لدي الرغبة في أن أحكي لهؤلاء الناس - الذين كان معظمهم من الشباب الذين يفنون ذواتهم الثمينة في أغرب أشكال التنكر مستسلمين للحظة تماماً - عن الشغف الذي تملّك شباباً مثلهم في الناحية الأخرى من الكرة الأرضية قبل عشرات السنين أياماً وليالي في محاولة لبلوغ مستقبل لا يعامل فيه الإنسان أخاه الإنسان كذئب. قلت شيئاً عن ذلك لبيتر غوتمان الذي قاطعني قائلاً إنه يعرف أيضاً مثل هذه النقاشات. لكنها عندنا كانت معلقة في الهواء بينما كنتم أنتم - كما ظننا - تقفون على أرض صلبة: علاقات الملكية الجديدة التي حُسبت عليكم جريمة وانقلبت ضدكم سريعاً، بينما الجريمة الحقيقية هي «اقتصيادات المال المسمومة»، هذا ما عرفه لودفيغ بورنه[1]. ولكن ما تستطيع قواعد الملكية الجديدة أن تجلبه إذا ما ترافقت مع أنظمة شمولية فهذا ما لم يكن يعرفه.

سرنا في صمت. كانت القبعات والطواقي موضوعة في الشارع أمام الراقصين والموسيقيين السحرة، والدولارات ملقاة أمام الجمهور

(١) **لودفيغ بورنه** (١٧٨٦-١٨٣٧): كاتب سياسي ألماني. ولد في فرانكفورت، وتوفي في باريس. ينتمي إلى عائلة يهودية كانت تعمل في مجال البنوك. درس الطب والحقوق. وفي عام ١٨١٣ طرد من الخدمة لأنه يهودي. وفي عام ١٨١٨ تحول إلى البروتستانتية. وفي الفترة من ١٨٢٢ حتى ١٨٣٠، عمل صحافياً في باريس. بعد ذلك قرر البقاء في باريس، وأصبح واحداً من أهم المهاجرين الألمان الديمقراطيين الراديكاليين في باريس.

العابر ببساطة، أما أنا فوقفت مشدوهة أمام رجل أسود شديد النحافة، وقف على إحدى المنصات مرتدياً زي العم سام: على رأسه القبعة الأسطوانية المغطاة بالعلم الأمريكي مشخصاً إنساناً آلياً يهتز اهتزازات دقيقة منتظمة مدفوعاً- على ما يبدو - بجهاز مخبأ في عباءة الإنسان الآلي بحيث صرت أتوقع بشكل لاإرادي أن أسمع صوت صرير المفصلات، وتابعت بانبهار كيف يزوي ذراعيه ويفردهما بتشنجات شديدة البطء، ثم يحني جذعه ويعيده إلى وضعه المستقيم وهو ما استغرق بضع دقائق وتطلب التحكم التام في الجسد. صفق الجمهور بحماس. استكملنا السير حتى آخر شارع سكوند ستريت وتناولنا بعض الرقائق المحلاة بعسل الأكاسيا لدى أحد الباعة.

عندما مررنا ثانية على العم سام الأسود رميت له في قبعته الأسطوانية دولاراً كان قد استحقه واستدرت لأكمل السير. الآن يلوّح لك! صاح بيتر غوتمان. بالفعل. تحرك الإنسان الآلي متشنجاً ملوحاً بسبابته اليمنى، بدت على وجهه ابتسامة مقنعة. اقتربت منه. بإيقاعه البطيء مد لي يده، انحنى أمامي، ضمني، وحاولت أنا أن أحاكي حركاته، ضحكت، وذهبت. الآن يأتي! صاح بيتر غوتمان. كان الرجل الأسود قد تحرر من ميكانيكيته، ترك منصته في خطوات مسرعة وجاء إليّ بمرونة إيقاع الحركة الأفرو-أمريكية المتحررة، ابتسم وصافحني مرة أخرى، هذه المرة بشكل صحيح، ببساطة، ببساطة تعانقنا مرة أخرى كأن عناق الإنسان الآلي لا يُحتسب، ثم تركني أذهب، ولوّح لي أيضاً. تملّكَت أطرافي رعشة لكون القطعة الفنية قد تحولت إلى إنسان، وكأن هذا هو غير الطبيعي، بالفعل كأن قوساً قد تصدع أو مفصلةً كانت قد قيدت أجزاءه منذ زمن قد انكسرت. كأنه كان بحاجة إلى هذه الدفعة، هكذا شعرت، كأن شيئاً ما قد حدث كما

بدا أن بيتر غوتمان يلحظ ذلك عليّ. ذهبنا بسرعة وفي صمت إلى فندق ميس فيكتوريا، ودعنا بعضنا بعضاً من دون كلام تقريباً أمام باب غرفتي. جلست إلى طاولتي وكتبت - كأنني في حصة إملاء - ما أتصفحه اليوم من التدوينات القديمة وأقرأه باندهاش:

الجدير بالذكر أن وقت اللوم والعتاب قد انقضى كما أنه يجب علينا تخطي الأسى ولوم الذات، حتى لا نقع في وعي خاطئ تلو الآخر. «الأعلام تصلصل في مهب الريح»[1] - أياً كانت ألوانها. وماذا في ذلك؟ فلتصلصل إذن، ولكن لماذا أدركنا نحن ذلك متأخراً. لا بد أننا نعيش وفق بوصلة داخلية غير منضبطة ومن دون قيم أخلاقية مناسبة، ولكن يجب علينا ألا نخدع أنفسنا أكثر من ذلك. أنا لا أرى أين يمكن أن يكون المخرج، نحن نحفر في الظلام ولكن علينا أن نحفر على أية حال.

توجهت نحو رف الكتب الذي كان فيه ملف رسائل «ل». خطابها الثاني إلى صديقتي إيما يرجع إلى يناير ١٩٤٧. بدأ بنداءات الفرح بِكَوْن إيما لا تزال على قيد الحياة وأنهما عاودتا التواصل مرة أخرى.

«حتى لو كان مستحيلاً - استطرَدَت في الكتابة - أن يستطيع خطاب تعويض حواراتنا في المطبخ. ستتفقين معي في ذلك. أما زلت تذكرين؟ كنا نجلس إلى طاولة المطبخ، كان الترام يمر

(١) تعبير مقتبس من قصيدة «نصف الحياة» للشاعر الألماني فريدريش هولدرلين (١٧٧٠-١٨٤٣).

تقريباً عبر حجرتك، الحجرة والمطبخ، هذا كل ما كان بوسعك تحمل نفقاته. كنا نشرب «محلول القهوة» فقد كنت عاطلة من العمل، لم تكن الجهات الرسمية تتحمل تكلفة اختصاصية مساعدة للمدمنين، لكنني كنت لا أزال أعتبر نفسي طبيباً مساعداً في مستشفى الفقراء الذي التقينا فيه. وقتها تعرفت أيضاً على سيدي الحبيب. منذئذٍ صار لحياتي قيمة. وهكذا ظلت. إذن، ها قد قلت لك - أنا السيدة العجوز - أهم ما عندي، ألا وهو أنني ما زلت هوجاء كما كنت في شبابي، وأنا أرى الآن تعبير وجهك الساخر المشدوه. لا بد أن حامل رسائلي - ذلك المراسل الشاب - قد حكى لك أنني أعمل منذ زمن كمحللة نفسية.

وبما أنني أعرف فضولك: نعم. لا تزال زوجته دورا هنا، يعيشان معاً كما كانا دائماً أبداً. لا تضحكي. كلا، ما من شيء مضحك.

بينما أكتب هذا تتصاعد بداخلي الذكرى ثانيةً.

إنني أراكِ. أتعرفين حقاً كم كنت جميلة وقتها؟»

فهل كانت إيما جميلة؟ ليس حين عرفتها. كانت قد قضت لتوها فترة اعتقالها في سجن بلدة بوتزوف الصغيرة في ميكلنبورغ التي تعرفتُ عليها بعد ذلك بشكل جيد. كانت ملامحها حادة ومنهكة في الوقت نفسه. ولكن في الغرفة الأكبر في بيتها الخشبي الغريب عُلقت فوق أريكة من الطراز القديم صورة لها، كان قد رسمها صديق رسام في أواخر العشرينيات، اضطر هو أيضاً للهجرة فيما بعد وكان قد اجتاز فترة حكم هتلر بأساليب شديدة الإثارة: امرأة شابة جذابة واثقة،

ممتلئة بالتحدي. «لا تسمحي لأحد أن يسرق الزبد من رغيفك يا بنيتي». بدت أحياناً غير راضية عني، كانت تود أن تنزع عني الشعور بالذنب.

اتصلت سالي. قالت إن أحوالها كما هي. وإن معالجتها تريد إقناعها بأن ما يحدث لها الآن طبيعي. طبيعي! صاحت سالي. عندما يخونك أقرب الناس إليك! كانت لدي رغبة في سؤالها ما إذا كانت تظن أن كلمة «خيانة» هي الكلمة المناسبة لوصف التوقف عن الحب. وإذا ما كانت تفضل أن يبقى رون معها بينما لم يعد يحبها. لكنني كتمت السؤال، فقد كانت تلك هي الفضيحة، ألا وهي أنه لم يعد يحبها وأنه لا ذنب لأحد في ذلك، وأنها لا تستطيع مقاضاة حبه.

وأنتِ؟ سألتني سالي. ماذا تفعلين؟ هل استقرت أوضاعك؟ كيف هو مزاجك؟

من دون أن أخطط، ومن دون حتى أن أتوقع، سألتها فجأة عن مرادف كلمة «ملفات» بالإنجليزية. لماذا تريدين معرفة ذلك؟ سألت سالي. تجاهلت السؤال وحاولت أن أوجهها للتوصل إلى الكلمة الصحيحة من خلال الوصف. "Files" قالت أخيراً. ولكن من أجل ماذا تحتاجين إلى الكلمة؟ - قلت لها: لاحقاً. ربما في وقت لاحق.

للتأكد بحثت في قاموس «لانغنشايت». لم أستطع أن أصدق أن هذه الكلمة القصيرة المشرقة تحمل المعنى نفسه لتلك الكلمة الألمانية السوداء «الملفات». «أن تحفظ ملفاً عن شخص» (to keep a file on someone) كانت إذن تعني في الألمانية «أن تحتفظ بملف ضد شخص». (to file away) كانت تعني أن تدلي بشيء ما: خطابات، تقارير، محاضر تنصت، إقرارات، أياً كان. ولكن كل هذه الكلمات

كانت محايدة في البداية، «رقم ملف» يمكن أن يكون شيئاً بريئاً - قلت لنفسي - فلا داعي للتصبب عرقاً.

انقضت الأشهر الحرم، الوقت الذي حددته أنا لنفسي بنفسي. لم أكن أحفظ رقم ملفي الذي كانت تُسجّل فيه كل التقارير التي تخصني لدى جميع الموظفين. حيث - كما في حكاية عصيدة السميد، التي لا تتوقف عن التضخم في الآنية السحرية حتى تغطي المدينة وتخنقها - تطبق الورقة على الورقة آتية من مصدر أسود ومحفوظةً بدقة حتى تحتل الأوراق غرفاً كثيرة، بل بناية كاملة، تضاف إليها غرفٌ جديدة باستمرار، تنطلق منها العواقب الوخيمة. نسخ من الأوراق «الجيدة» التي يطلق عليها بشكل أهوج «ملفات الضحايا» كانت توجد في حقيبة بالمنزل، ولا زالت حتى اليوم. كان عليَّ أن أفكر في مجموعة من الحاويات التي كانت مخبأة قبل هذه الحقيبة في صندوق لسنوات طويلة: علب مربوطة وملصقة بالطول والعرض، شرائط كاسيت، حقائب سفر فيها بعض المواد، مخطوطات، مذكرات كان يجب ألا يصلوا إليها. فإذا كانت تلك الحاويات متواجدة في مخبئها ببساطة فقد كانت تلك علامة على أنك لا تعتبرينها في خطر. كان ذلك الأمل هشاً ويؤكد كيف أنك اطمأننت للانتقال إلى طبقة أخرى في وعيك إلى حد كبير بسبب خداع الذات الذي حين انهار كان لا بد من معالجته فوراً. المواد التي تستحق الحفظ كان يجب أن تنقل إلى مكان آخر: كان على الأصدقاء أن يكونوا مستعدين لنقلها لديهم من دون أن يسألوا عن فحواها، كان لا بد من الالتزام بالاتفاقات حول المكان التي ستنقل إليه هذه الحاويات إذا لم تعد في مأمن حتى عند هؤلاء الأصدقاء. بشكل مربك وبابتسامة خجولة كان لا بد من ابتداع بعض الشفرات التي ترمز إلى معان مغايرة لاستخدامها عند الضرورة عبر الهاتف. وكان

هاجسك الأكبر دائماً هو أن تختلط عليكِ الشفرات التي لم يكن بإمكانك كتابتها - كما هو متفق عليه بشكل صارم - ولا حتى بتدوين بعض الكلمات غير اللافتة. كم من التفاصيل لا يوجد اليوم في الملفات التي يروج لها الموظفون، أشياء لم أحكها سوى لبضعة أشخاص. الحقيبة ليست خفيفة. لم أفتحها منذ سنوات.

أجلس إلى آلتي الكاتبة وأكتب:

مرة أخرى نعيد الأسفل إلى أعلى

إنني أعرف بالفعل ما يمكن توقعه من ذاكرتي، يمكنني أن آمل فحسب ألا أصل إلى مرحلة أن يكون عليّ أن أحكي لهؤلاء الناس الأبرياء الذين يملكون ذاكرة صافية خالية من الثغرات عن التذكر والنسيان.

تهيأت بعد ذلك لدعوة العشاء المقبلة - لدى زوجين متخصصين في اللغة الألمانية وآدابها - التي كان من المقرر أن تقام في حي باسيفيك باليسادس، وهي الدعوة التي تبدو لي جلية في الذاكرة من بين دعوات العشاء العديدة التي تلقيتها في ذلك العام. جاء زوجان بولندیان لاصطحابي، سعدت بذلك كثيراً، فقد كنت أود أن أسأل الزوج - ذلك الكاتب الصحفي عن طقوس الأضحية لدى السكان الأصليين، التي كنت قد قرأت عنها مؤخراً في مقالة له. لكن رجلاً نحيفاً مريضاً جلس بجانبي في السيارة اتضح أنه يعاني صعوبة في السمع، كان يبذل مجهوداً كبيراً أثناء التنفس ويتحدث الإنجليزية

الأمريكية بلكنة بولندية ثقيلة يصعب عليَّ فهمه. أما زوجته - سيدة عجوز نحيفة - فجلست صامتة بجوار السائق تحوطها هالة من شجن، أو هكذا بدت لي.

حاولت أن أشاهد حي باسيفيك باليسادس قدر الإمكان أثناء المرور به، الشجر المشذب والفيلات الفخمة المختبئة عادة خلف الأشجار المقلمة العالية صعبة الاختراق. كلبان أبيضان لا أعرف نوعهما النبيل قفزا بنباح شرس على السور الشائك بجوار بوابة الدخول إلى مضيفَينا. كان أحدهما يدعى فيللي لكنه لم يستجب لأوامر سيده لا منادياً بهذا الاسم ولا غيره. كان على الكلبين البقاء في الخارج. جاء للترحيب بنا ماريا وهنري - هي اليهودية المجرية وهو ابن العائلة اليهودية الألمانية - اللذان كنت قد قابلتهما في برلين عندما قضيا فصلاً دراسياً هناك. كانت ماريا أكبر سناً مني قليلاً، تولدت بيننا محبة منذ البداية. الضيفان اللذان جاءا قبلنا - غوتفريد المخرج وزوجته سيلفيا - كانا يقفان حاملين كأسي الشامبانيا في الجزء الأمامي من غرفة المعيشة المفروشة بالمقاعد المنخفضة والأرائك، التي تحوطها المصابيح العمودية من الجهتين كما في كل البيوت الأمريكية. جلسنا إلى مائدة الوجبات الخفيفة الإجبارية. عرّفونا بتيد، أحد أعضاء القسم الألماني في الجامعة، وتم تقديمه إليّ باعتباره ليبرالياً ويسارياً، أما زوجته إليزابيث عالمة الأنثروبولوجيا المتأنقة ذات الشعر المصفف بعناية فلم تكن تتحدث الألمانية، لا بد أنها كانت تحس بالملل عندما كان الآخرون يتحولون إلى الحديث بها مجاملة لي.

وأخيراً جاءت الدفعة الأخيرة من المدعوين، أرادت ماريا أن تفاجئني بهم، ونجحت في ذلك بامتياز: سفيتلانا وكوبا، ابنة زوجة ليف كوبيليف وزوجها، كنا قد تعرفنا في موسكو، فعانقنا بعضنا

بعضاً. كانت امرأة ضخمة، سمراء، ترتدي ثوباً أسود ووشاحاً مزخرفاً بالأبيض والأسود، امرأة روسية بامتياز، خطر لي. كان هو رجلاً ضخم الجثة، ثرثاراً، سعيداً بتمكنه من إلقاء محاضرة عن الشاعر أوسيب ماندلشتام[1] في الجامعة المحلية. «أمام عشرة طلاب» قال مستهجناً.

دائماً حين أسمع الاسم يتجلى أمامي كتاب ناديشدا ماندلشتام[2] وهو من أوائل الكتب التي أظهرت لكم الكثير عن الحياة في عهد ستالين. ناديشدا ماندلشتام التي حفظت قصائد زوجها عن ظهر قلب وصانتها بذلك في رأسها عبر العقود التي كانت ممنوعة خلالها. استرجعت تلك الليلة في موسكو حين اصطحبكم ليف إلى مسكن أقاربه، حيث قابلنا كوبا الذي كان قد خرج لتوه من السجن. كان قد تظاهر مع مجموعة صغيرة ممن يشاركونه الأفكار نفسها في الساحة

---

(١) **أوسيب ماندلشتام** (١٨٩١-١٩٣٨): شاعر وكاتب روسي يهودي، وُلد في روسيا لأسرة متدينة. ولكنه تلقى تعليماً علمانياً ثم سافر إلى فرنسا وإنجلترا وألمانيا وإيطاليا، وانضم إلى الحركة الشعرية المسماة «الأكميزم Acmeism» (نسبة إلى «أكمي Acme» أي «القمة» أو «الذروة») والتي تُعَدُّ ثورة على المدرسة الرمزية. وقد كتب بعض الوثائق الأساسية لهذه الحركة. عاش ماندلشتام في روسيا أثناء وبعد الثورة البلشفية ونشأة الاتحاد السوفياتي. قابل ماندلستام الثورة البلشفية بكثير من الترحاب، ولكن الفجوة بدأت تتسع بينه وبين الثورة، فاعتقلته حكومة ستالين في ١٩٣٠ ووضعته تحت الإقامة الجبرية مع زوجته ناديشدا، ثم انتهى الأمر بأن قُبض عليه عام ١٩٣٤، ونُفي إلى سيبيريا حيث مات فيها عام ١٩٣٨.

(٢) **ناديشدا ماندلشتام** (١٨٩٩ - ١٩٨٠): هي زوجة الشاعر أوسيب ماندلشتام، والتي كتبت مذكراتها عن حياتهما معاً وعن قمع نظام ستالين وأصدرتها في جزءين، صدرا في الغرب مترجمين إلى الإنجليزية في عامي ١٩٧٠ و١٩٧٤.

الحمراء ضد غزو القوات السوفياتية لتشيكوسلوفاكيا. كانوا وقتئذٍ يتجمعون في الشقة ويتحدثون عن المهاجرين. جرى ذلك قبل عشرين عاماً، فرّقتهم الحياة مذاك في شتى أنحاء العالم. ليف - الذي كان قد جُرّد من جنسيته - قال لكم مرة وهو متكئ على طاولة المطبخ الكولونية: تشتَّتت عائلتي في جميع أنحاء الأرض. ولكن تم ذلك لاحقاً.

في تلك الليلة الكاليفورنية بين المهاجرين من مختلف البلدان ألحت عليّ صورة شخص كان لا بد من استحضاره بينما استمر الحفل، وبينما جلسنا إلى مائدة الطعام الكبيرة أمامنا الأرز وفواكه البحر. تثبيت شخص في الذاكرة كانت أشلاؤه مدفونة في مقبرة بموسكو وهو يغيب كما يغيب الموتى. ليف، خبير من تلك البلد التي كانت له، حارب كجندي من أجلها واكتسب صداقة حتى بعض من كانوا أعداءها لأن شعاره في الحياة كان يندرج تحت ذلك المسمى القديم: الإنسانية. ليكن ذلك في أي موضع آخر، ليكن ذلك عند أي شخص آخر مبالغة أو تفسيراً خاطئاً لكن تلك الكلمة صادقة تماماً فيما يخصه هو. كان ليف إنساناً، لم يكن بمقدوره سوى أن يكون كذلك. أصابني الألم ذات يوم حين رأيت في مكتبة ميد نايت سبيشيال في شارع «ثيرد ستريت» كتابه «يُحفظ إلى الأبد» في قسم السير الذاتية - بجوار كتاب مادونا الساخن عن الجنس الذي صدر مؤخراً. هذه الطبعة الفاخرة التي سمحت بعض المكتبات لقرائها المتميزين بتصفحها مقابل دولار واحد لكي يمتعوا أنظارهم بجسد النجمة السينمائية العاري في مختلف الأوضاع. لكن بالتزامن مع بوادر الانفعال التي شعرت بها كان واضحاً لي أن ليف نفسه كان ليتقبل هذه الجيرة بابتسامة سخية.

لم يكن باستطاعته أن يكره. في هذا الكتاب الذي يصف فيه

الجريمة التي سجلها عبر سنوات المعتقل والختم المرعب على كتابه "Chranitj wetschno" «يحفظ إلى الأبد»: رغم أنه يعرب عن نفسه كضابط سوفياتي ضد الهجمات الوحشية التي شنها الجنود السوفيات على المدنيين الألمان في شرق بروسيا، لا كراهية في هذا الكتاب. أتساءل إن كنت قد سمعت منه كلمة محملة بالكراهية. بالتأكيد ليس في تلك الليلة الأولى حين التقيتما عند آنا زيغرس[1] عندما دخل ليف معها - وهي التي كان يكنّ لها كل التقدير - في نقاش حاد حول منشورات إيليا إيرنبورغ[2] التي تحض على الكراهية تجاه العدو الفاشي. آنا زيغرس الشيوعية الألمانية التي ساعدها إيرنبورغ في باريس

(١) **آنا زيغرس** (١٩٠٠-١٩٨٣): كاتبة ألمانية ولدت في مدينة ماينز لعائلة يهودية وتزوجت من الشيوعي المجري لازلو رادفاني (الشهير بيوهان لورنس) عام ١٩٢٥. درست علوم اللغة وتاريخ الفن وحصلت على شهادة دكتوراة في عام ١٩٢٤ برسالة عن الرسام الهولندي رمبرانت. وانضمت للحزب الشيوعي عام ١٩٢٨ في ذروة صراعه مع حزب العمال الألمان الاشتراكي القومي. جاءت روايتها «الرفاق» عام ١٩٣٢ بمثابة نبوءة تنذر بخطر الفاشية الصاعدة، وقد تم اعتقالها على إثرها من قِبل الغشتابو. وفي عام ١٩٣٣ اضطرت للهرب إلى فرنسا، وفي عام ١٩٤١ هربت إلى المكسيك. واشتركت في العديد من المؤتمرات المناهضة للفاشية. وفي عام ١٩٤٧ عادت إلى برلين الشرقية، وتولت منصب رئيس اتحاد الكتاب الألمان في ألمانيا الديمقراطية. وقد اشتهرت أعمال زيغرس عموماً بتناولها للتجربة الأخلاقية خلال الحرب العالمية الثانية.

(٢) **إيليا غريغوريفيتش إيرنبورغ** (١٨٩١-١٩٦٧): كاتب وصحفي ومترجم ومثقف سوفياتي ولد في كييف لعائلة يهودية. نشر ما يقرب من مئة كتاب، واشتهر كروائي وصحفي لاسيما بسبب عمله كمراسل حربي شاهد على ثلاث حروب (الحرب العالمية الأولى، والحرب الأهلية الإسبانية، والحرب العالمية الثانية).

حين كان أبناء وطنها في زي النازي يتعقبونها دافعت عنه، بينما لم يُرِد ليف، الضابط السوفياتي السابق التصالح مع تصرفه. تشاجرا بمرارة ثم عانق أحدهما الآخر في النهاية بحرارة. كانت هذه إحدى تلك اللحظات التي كنتِ بالصدفة شاهدة عليها والتي علمتْكِ أكثر من بعض هاتيك الكتب الضخمة.

«وخلقت لنفسي صنماً - سنوات تأهيل شيوعي» هذا هو اسم الثلاثية التي قدم فيها ليف مراجعاته حول قناعاته الخاطئة أيام شبابه. ألم تشاركيه هذه القناعات نفسها لاحقاً؟ أدركتِ - ليس فقط من خلاله - أن معرفة الذات بشكل كامل شرط أساسي لاكتساب حق الحكم على الآخرين. كان بإمكاني استدعاء الكثير من المشاهد التي تخصه. كيف كان بضخامة جسده يتهادى في أرجاء غرفة معيشته في موسكو، تلك الممتلئة دائماً عن آخرها بالزوار الذين كانوا يلوذون به من أجل النصيحة والدعم، والذين كان بعضهم أيضاً يتجسس عليه. كيف ركل الهاتف الموضوع على الأرض: «أيها الخائن الصغير، أنت!» كيف جاب معكما أنحاء موسكو ساخطاً، واصطحبكما إلى ذلك الرسام الذي كان محظوراً عليه رسمياً أن يعرض أعماله. في ذلك اليوم الذي شنت فيه مجلة «أوجونيوك» الرجعية مجدداً حملتها الإعلامية ضد أنصار فلاديمير ماياكوفسكي[1] الذين كانوا لا يزالون على قيد الحياة:

---

(١) **فلاديمير فلاديميريوفيتش ماياكوفسكي (١٨٩٣-١٩٣٠)**: كاتب وشاعر روسي ولد في جورجيا. والده روسي من أصول تتريه، وأمه من أصول أوكرانية، اتقن اللغتين الجورجية (بحكم الدراسة)، والروسية الأصلية (بحكم العائلة)، انتقل مع أمه واختيه إلى العاصمة موسكو عام ١٩٠٦ بعد وفاة والده، وفصل من الدراسة عام ١٩٠٨ لصعوبة تدبر مصاريف تعليمه. ولكنه التحق فيما بعد بكلية الفنون الجميلة عام ١٩١١. تعرف في موسكو على

ضد ليليا بريك[1] وزوجها.

«كلهم يهود» قال ليف الذي كان هو نفسه يهودياً أيضاً. يمكن أن تكون لذلك عواقب سيئة. إن هذا يهيّج معاداة السامية لدينا مجدداً. رأيتِه متأثراً ومهموماً أكثر منه غاضباً ومحملاً بالكراهية.

الاتحاد السوفياتي الذي جرده هو وزوجته ريا من جنسيتهما - وهو ما سبب لهما أسى شديداً - لم يعد موجوداً. عاش ليف أطول منه بضع سنوات. أنقّب قليلاً في الأوراق المتناثرة. بالفعل: احتفظت بنسخة مجلة «أوجونيوك» التي أحضرتماها معكما من موسكو.

لا أكاد أجد ما يميزه أكثر من تلك المكالمة الهاتفية بعد سقوط الحائط بيومين: أنا هنا. أين أنت؟ - حسناً، أنا عندكما. هل يمكنني أن أراكما؟ مأخوذاً بنشوة الجماهير التي تدفقت هنا وهناك رغم عدم إلغاء الحدود بين شرق وغرب برلين، بعد أن كان قد وضع نفسه في شاحنة من دون جواز سفر ولا تأشيرة دخول وجاء إلى برلين. وحين أراد حرس الحدود توقيفه فلقنهم المارة من الجمهورية الألمانية

= الفكر الماركسي، وشارك في نشاطات حزب العمل الاشتراكي الديمقراطي الروسي، بالرغم من صغر سنه. كتب العديد من المسرحيات والقصائد من أهمها قصيدة غيمة في سروال، التي سماها بذلك الاسم بعد اعتراض الرقابة على الاسم الأصلي لها، وهو (الحواري الثالث عشر). انتحر ماياكوفسكي في ١٤ أبريل عام١٩٣٠ بعد فشله في حياته العاطفية، وعدم تحقيق الثورة طموحاته وأحلامه.

(١) **ليليا بريك** (١٨٩١-١٩٧٨): هي عشيقة الرسام فلاديمير ماياكوفسكي وزوجة ناشره الشاعر والناقد أوسيب بريك. ولدت ليليا في موسكو لعائلة يهودية ثرية وفرت لها ولشقيقتها إيلزا فرص التعليم المتميز بحيث أتقنتا اللغتين الألمانية والفرنسية بالإضافة إلى العزف على البيانو، وقد اتسمت الشقيقتان بجمال فتان فقام برسمهما مشاهير الفنانين.

الديمقراطية درساً بملء صوتهم: مستحيل أنكم تريدون توقيف الكاتب السوفياتي المعروف ليف كوبيليف، أليس كذلك؟ سُمح له بالعبور بشرط أن «يعود» من النقطة الحدودية نفسها. أول شيء أراد رؤيته كان مقابر بريخت وآنا زيغرس. كان يكنّ لكبار الكتاب تبجيلاً يكاد يكون طفولياً.

أو لاحقاً: كيف تلعثمت خطاه قبل خروجه على مسرح أوبرا «أونتر دين ليندن» ومع ذلك استطاع أن يوصل نفسه إلى مكانه على خشبة المسرح وألقى خطابه، وكيف اكتشف لاحقاً أنه أصيب بكسر في مفصل الفخذ. وكيف نام في سريره في مستشفى «شاريتيه» الجامعي متأففاً، محاطاً بالصحف والخطابات والمخطوطات، دائم العمل، محفزاً زملاءه في العمل، دافعاً مشروعه عن العلاقات الألمانية الروسية إلى الأمام، وكل قرون استشعاره موجهة إلى موسكو حيث كان الأقارب والأصدقاء قد اعتمدوا على مساعدته. في مطبخ رايا وليف بمدينة كولون اجتمع عادة كل من جاء في زيارة قصيرة إلى «الغرب». وأما اغترابهما فلم تأتِ على ذكره أبداً.

المشهد الأخير الذي أذكر به ليف: يجلس إلى طاولة في غرفة المهاجرين خاصته في كولون، تحوطه على الجدران صور أصدقائه وأفراد عائلته. غرفة تم نقلها من بلد آخر وزمن آخر مثل ساكنها. حدد موقفه بين الجبهات. شخص مثله لن يتكرر. لقد نضب الزمن من مثل هؤلاء البشر. إنه يتجاوزنا جميعاً - خطر لي - جميع من يجلسون هنا في منزل أمريكي بامتياز، في غرفة طعام أمريكية بامتياز، لتناول وجبة أمريكية أعدت لنا بعناية، بينما سيطرت تقاليد مغايرة تماماً لشكل الوليمة على مخيلة معظم الجالسين حول المائدة. تقاليد مجرية، اسكندنافية، روسية، يهودية، ألمانية. تساءلت عما إذا كان كل منهم

قد شعر - كما شعرت أنا - كأنه ممثل في مسرحية غريبة عليه، يتظاهر بمعرفتها، وهو ما تعلموه عقاباً لسقوطهم، ويتحدث كل منهم لغتها صحيحةً قدر الإمكان، حوارات منمقة، لكنها لن تكون لغتهم الخاصة أبداً، هذا ما يعرفه كل منهم عن الآخر، وكونهم يعرفون ذلك فقد كان هذا هو الرابط بينهم، ربما يكون هو الأقوى من أي رابط آخر بين أبناء الوطن الواحد، وقد عرفوا ذلك أيضاً وقد خبرت ذلك في تلك الليلة من نظراتهم وأحاديثهم، وصمتهم وإيماءاتهم. كان دوري أن أستمع إليهم وأتظاهر بأني أفهم إنجليزيتهم التي يخلطونها ببعض الروسية والمجرية والبولندية أكثر مما أفعل حقاً.

كانت ليلة من تلك الليالي التي تمنيت فيها أن يكون معي جهاز تسجيل. تحدثوا عن معارف مشتركين، سخروا من مراوغات الأصدقاء اليهود، ومن أنفسهم، ومن هوس الأمريكان بكل ما هو مفرط وعرضي. أدركت أنني الوحيدة غير اليهودية في هذه الجلسة. تطرق الحديث إلى كيف كانت معاداة السامية في الثلاثينيات والأربعينيات في أمريكا، لم أكن أعرف ذلك. حتى اليهود الأكثر ثراءً لم يسمح لهم بدخول نوادي الغولف - قال غوتفريد - ولم يستطيعوا المبيت في كل الفنادق. حدث ذلك لوالده أيضاً، والده الذي كان يعد إلهاً في المسرح البرليني.

أستمتع بسماع بعض الروسية مرة أخرى. كان لكوبا وجهات نظر صارمة تجاه السياسيين الجدد في موسكو. رأت ماريا التطورات في المجر «رهيبة»: Up to the end of this century, the landscape doesn't look so optimistically, right? (ليس في المشهد ما يدعو إلى التفاؤل حتى نهاية هذا القرن، أليس كذلك؟) أما الزوجان البولنديان فقد كانا فرحين وفخورين بكون ابنهما المتزوج من أمريكية

يعيش الآن في وارسو حيث يعمل مستشاراً لإحدى الشركات الكبرى، وأن حفيدهما يتعلم الإنجليزية والبولندية.

على المائدة أخذت الأمور تمسي أكثر حيوية، أكثر بهجة أيضاً، الكل يشرب ويمتدح النبيذ الأمريكي الجديد، بدت المجموعة مرتاحة ومتجانسة، ومع ذلك شعرت بمدى الأسى الذي خيم على هؤلاء البشر. كنت أجلس مع مجموعة من المهمشين. كانوا قد دربوا أنفسهم جميعاً على ألا يلحظ أحد همومهم - تلك التي بدت محفورةً أكثر عمقاً في ملامح السيدة البولندية العجوز - وأن يتعامل كل منهم معها بمفرده خلف جدرانه الأربعة. يجب الاعتراف بفضل أمريكا: كانت بمثابة سفينة إنقاذ لملايين البشر مثل هؤلاء.

التفتت إليزابيت إليّ. جاء أخيراً السؤال المنتظر واللعين: ماذا عن ألمانيا؟ تعيشين في برلين؟ الغربية أم الشرقية؟ الشرقية؟ في ظل ذلك النظام؟ طوال هذا الوقت؟

"Yes, madam. Under the regime" (نعم سيدتي، في ظل النظام). خيم الصمت من حولي. شعرت أنني الغريبة هنا، وأن حياتي كلها وكل محاولاتي لشرحها تتلخص بالنسبة إلى امرأة أمريكية عادية حسنة النية في كلمة واحدة: النظام. كلمة لا يمكن الإفلات منها كما لا يمكن لبصيص ضوء أن ينسل من ثقب أسود في الفلك إلى الخارج. لم تعقب الجماعة على شيء. فقط غيروا الموضوع. مثّل غوتفريد وجهة النظر التي ترى أن الاشتراكية القومية في ألمانيا لم يكن لها أن تستمر في الحكم بفعل الغوغاء وإنما من خلال النخبة. لماذا لم يرافق زميلُه ماكس بلانك أخاه ألبرت أينشتاين عندما اضطر للهرب من ألمانيا؟ جاء اعتراض: قام ماكس بلانك بمساعدة الكثير من اليهود.

لكن غوتفريد لم يدع فرصة للمعارضة وضرب مثالاً آخر بغوستاف غروندجنس، واحتدم النقاش.

شعرت بأن الزمن توقف بهؤلاء البشر منذ عقود، بالنسبة إليهم لم يكن شيء قد مضى، لم تخفّ حدة أي شيء، لم يخفت الألم، لم تتلاشَ خيبة الأمل، ولم يولِّ الغضب. كان الملاذ الوحيد هو الحديث ولو لبضع دقائق مع شخص يريد معرفة ذلك، ينصت ويشارك ويثني على مشاعرهم. في تلك الليلة كان عليَّ أن ألعب أنا هذا الدور بغض النظر عن جدارتي أو استحقاقي لذلك، فقط أنا لأنني ألمانية ولأنني أصغر سناً. أول مرة أشهد حاجة المهمشين إلى إشراك ألمانية في حيرتهم التي لا تنتهي، فتوقفت عن المقاومة وقبلت بهذا الدور.

تم تمرير القهوة، وتم إدخال فيللي والكلب العملاق الآخر اللذين راحا يتجولان بين الضيوف. تحول الجميع عن تلك الحكايات التي كان لدى غوتفريد مخزون لا ينضب منها. أثناء الحرب خدم كشاويش لدى إحدى وحدات الدعاية في الجيش، وقد تم اختياره لاستقطاب ألبرت أينشتاين للمشاركة في فيلم ضد الحرب. ورغم قبول الفيزيائي الكبير عن طيب خاطر إلا أن لكنته كانت بشعة، على سبيل المثال كان ينطق الكلمة الإنجليزية الصغيرة "such" بلكنة ألمانية «سوتش» دائماً، وبذلك فشل المشروع في النهاية، لكن غوتفريد ظل مذاك يكنّ لهذا الرجل تقديراً شديداً. يقول إنه لم يقابل قبلها ولا بعدها رجلاً مثله، وإن تواضعه مثير للدهشة، لكن هذا هراء: لم يكن أينشتاين يوماً متواضعاً. كان فقط واثقاً من عمله. وقد قال له ذلك أيضاً بنفسه. لم يحتج في عمله إلا إلى الورق والقلم الرصاص ليتم حساباته، وعندما تنجح معادلة لم يكن بحاجة إلى موافقة أو تأكيد، فإن لم يحدث فلا بأس.

ذات مرة شرح له أينشتاين نظرية النسبية - قال غوتفريد - كان ذلك عندما اصطحبه على طريق العودة إلى برينستون. قال له إن عليه أن يتخيل نفسه في صندوق مغلق بلا نوافذ، وأنه دُفع بقوة فجأة حتى أنه - هو الجالس بالداخل - ارتطم بإحدى أضلاع الصندوق، حينئذ كان يمكنه أن يتصور - من باب العادة - أن ذلك حدث بفعل الجاذبية، لكن الأمر لا يتعلق بالجاذبية على الإطلاق إنما بالقوة المركزية الطاردة. هكذا بالتقريب - قال غوتفريد متأثراً - هكذا فهم وقتئذ في السيارة على الطريق إلى برينستون، أو اعتقد أنه فهم لأن أينشتاين كان واثقاً تماماً أن باستطاعة أي شخص أن يفهم ذلك. ونحن الجالسين حول المائدة اعتقدنا أيضاً للحظة أننا فهمنا. سأل هنري تيد أستاذ الأدب الألماني الذي جلس مثلي صامتاً معظم الوقت عن الموضوع الذي يشغله مؤخراً. سوف تضحكون - قال تيد. فهو يشتغل مع مجموعة من الطلبة على بعض جوانب الأدب في الجمهورية الألمانية الديمقراطية. موضوع ملائم جداً - قال هنري. موضوع غير مطروق في مجالات البحث. - نعم، خلافاً للرأي العام السائد - قال تيد - هذه هي اللحظة المواتية تماماً. إن ما يفعله الرأي العام الغربي الآن بثقافة الجمهورية الألمانية الديمقراطية وممثليها لا يمكن تفسيره سوى بضرورة تدارك ما تم التغاضي عنه أثناء تصفية الحسابات مع ثقافة النازي. في كل الأحوال فإن الثابت في هذه الحملة هو استمرار الإشارة إلى المظاهر المشتركة بين الفاشية والشيوعية. لكن تحديداً من خلال الأدب - كما يعتقد تيد - يمكن التدليل على مدى الاختلاف بين تلك المظاهر المشتركة. وافقته ماريا وذكرت أمثلة لأسماء وعناوين. عندما ذكر اسم «بريخت» سألت ما إذا كان - وسط انغماسه في عمله مهموماً بأحوال ألمانيا ومنخرطاً في

النقاشات مع زملاء العمل ومع الممثلين الذين كانوا سيؤدون الأدوار المختلفة في مسرحيته «غاليلي» - قد تعرف على مدينة المنفى لوس أنجلوس أصلاً. وما كان من هنري إلا أن اتجه نحو مكتبته وأخرج كتاباً وفتح صفحة. «مشهد المنفى» قرأ هنري:

أبراج النفط وحدائق لوس أنجلوس الظمأى
وشعب الجبال الكاليفورنية المسائية العميقة وأسواق الفاكهة
لم تدع بشائر الخطوب تفتر

حسناً، على الأقل - خطر لي- ليس في هذا فتور.

في تلك اللحظة تحولت أنظارنا إلى زوجة الكاتب البولندي التي أطلقت صرخة ألم عالية. أحاط بها الجميع لسؤالها إن لم تكن على ما يرام؟ كلا، لم تكن على ما يرام، كان الحديث عن تقلصات. أعطيت جرعة من القطرات وكان لا بد من نقلها إلى المنزل. كانت تلك علامة الرحيل السريع للجميع. اعتذر هنري - الذي أوصلني إلى فندق ميس فيكتوريا - عن هذا الانقضاء المفاجئ للأمسية. لكن الأمسية كانت طويلة بما يكفي بالنسبة إليّ.

لم أستطع أن أنام. استلقيت على سريري الواسع ولم أستطع أن أمنع تلك السطور الأربعة التي ظلت عالقة في رأسي عن أن تستدعي سطوراً أخرى من ذاكرتي. *إنها الحكمة، يسهل على الجميع فهمها... ، يمكنك إدراكها. إنها خير لك، فاستعلم عنها*[1]. فعلنا هذا يا بريخت - خطر لي - وكان الأمر يبدو بسيطاً جداً، منطقياً جداً،

(١) تقصد الشيوعية وتعاليمها.

نعم، بل وحتمياً. لقد كان قائماً بالفعل، ذلك المجتمع الآدمي، وما كان علينا سوى إلغاء الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج، كان لا بد أن يستطيع كل إنسان العيش سعيداً بقدر ما لديه من مهارات ورؤى ومنطق. ألم تكن تلك هي الفضاءات الإنسانية الأزلية؟ خطر لي أنه هنا في هذا المكان الغريب نفسه من الألف إلى الياء، على بعد كيلومترات قليلة من هذه الغرفة حيث استلقيت على السرير الغريب كان بريخت في بيت المنفى البسيط قد وضع صاحبه غاليلي في الصراع بين حبه للحقيقة واستعداده لتقديم التنازلات. ذلك الصراع كما عرفناه. هل كان هناك أي شيء في العالم ليثنينا أو يستطيع أن يجبرنا على التقاعس؟ محاكم التفتيش؟ لم يكن بوسعنا سوى أن نضحك.

أخيراً ظهر تأثير الدواء، نمت. وجدت نفسي في أحد هذه البيوت الخيالية، هذه المرة في فندق غير منظم، وقفت في شرفة محاطة بقطع من الأثاث كانت كلها غير صالحة للاستخدام. بدأت في ترتيب الأشياء، حملت جميع أنواع الأشياء غير النافعة من ركن إلى آخر، لم يصبح المكان أكثر ألفة ولا أكثر ترتيباً. خلف لوح زجاج كان هناك مساحة من العشب غير المشذب، محترقة بعض الشيء، قامت سيدة ببعض الأعمال هنا وهناك، كانت شاحبة، لا تنم ملامحها عن أي تعبير، شعرها أشقر فاتح، ترتدي ملابس مهلهلة. اقتربت وأدارت وجهها نحوي، ضغطته في لوح الزجاج وقالت بنبرة تعليمية: ابدئي من الناحية الأخرى! عندما استيقظت فهمت الحلم: يجب ألا أبدأ دائماً من جهة الإحساس بالذنب. ولكن كيف لهذه السيدة قليلة الجاذبية أن تعطي لنفسها حق أن توجهني إلى ذلك؟ ظللت أضحك حتى أثناء تناول الإفطار.

كان اليوم الأحد، جلست إلى آلتي الكاتبة وكتبت:

مصنع الكتابة هذا يزحزح نفسه إلى الأمام في صفائح مجهرية ضد قوة مقاومة تتنصل مني كلما حاولت أن أعين لها اسماً.

ربما تكون صدفة، أن يخطر لي أحد العناوين الصحفية المنشورة اليوم: «ساتر رقيق على الهمجية»، هكذا استقبل المحرر عرض «دون جيوفاني». وقد حذر مؤخراً أحد المعلقين مشاهدي التلفاز أن أحداث هذه الأيام قد تتطور إلى كارثة كبرى علينا جميعاً. أما نحن فقد ظننا أنه ما دمنا لم نقذف بعد بقنبلة ذرية فسيبقى الأمر على هذه الحال في المستقبل.

إن الفزع الذي يتكرر يفقد قوة تأثيره - قلت لبيتر غوتمان حين كنا نازلين من منتزه أوشين بارك. أتذكرين كيف كنا نرجف خوفاً حين نصبت الصواريخ النووية في أوائل الثمانينيات على الحدود الألمانية الألمانية؟ ثم - قال بيتر غوتمان - تجلى لنا الحل: الأحمر ولا الحياة تُهدر.

كان بيتر غوتمان قد أقنعني بتناول الغذاء في أحد المطاعم الفاخرة. كانوا قد استلقوا كالعادة تحت شمس كاليفورنيا - أولئك المشردون - فرادى أو جماعات، على العشب في الجزيرة الوسطى بين الحارات المرورية، بعضهم على أغطية مبطنة خرج منها الحشو، بلا وعي في سبات عميق. مررنا بجوارهم كأننا لم نر حطام الرجال الرثة، تلك التي كانت تقيم هنا دائماً منغمسة في محادثات ذاتية مسموعة والتي كانت أحياناً تتحول بشكل مباغت تماماً لاستخدام

العنف مع المارة. خلسة أخذت أراقب مختلف درجات التداعي والتبلد البادية على المشردين.

تكلمنا عن النهاية المحتملة لحضارتنا. لكن وقتها لم تكن الصواريخ قد سقطت بعد على بغداد، ولا كان البرجان في نيويورك قد انهارا. "Nine eleven" (الحادي عشر من سبتمبر) لم يكن بعد قد تحول إلى تاريخ أسود.

God bless you (باركك الرب) - قال الرجل الأسود الكفيف الواقف على باب المطعم الذي دخلنا إليه بعدما دفعنا له تعريفته. قلت إنني أستطيع فقط أن آمل ألا يكون هناك رب ولا يوم حساب لأنه لن يمنح البركة لنا نحن البيض الشبعى عديمي الإحساس إلا إذا كان فحسب فعلاً ربنا.

كان هذا المطعم يشتهر بالمحار. طلبنا نبيذاً أبيض جافاً.

لامني بيتر غوتمان لأنني حسب رأيه دائماً ما أسعى إلى «البقعة العمياء». يرى أن كل مجتمع من مجتمعاتنا الحديثة المبررة بالاستعمار والقمع والاستغلال عليها لتحتفظ بثقتها بذاتها - وهو أمر ضروري للحفاظ على بقائها - أن تمحو جزءاً من تاريخها وتجمل أجزاءً كثيرة من حاضرها بقدر الإمكان. ولكن - قلت له - يوماً ما ينهار كل شيء عندما يتكشف الواقع. أي نعم - قال بيتر غوتمان - عاجلاً أم آجلاً.

كلمة ظلت تطارد أفكاري، ليس للمرة الأولى: «التيه»، فكرت أنها تصلح عنواناً لعمل أدبي قادم، قد يرشدني بشكل جذري إلى الاتجاه الصحيح، كلا، الإجبار، وهنا يطرح السؤال: هل كنت أرغب في ذلك أصلاً؟ هل كان بإمكاني أن أريد ذلك؟ بدا العنوان أفضل من المطلوب، فبقي وحيداً. عنوان وحيد يبحث عن نصه. كنت أعلم أنه

كان موجوداً، هذا النص، مكتوباً بحبر غير مرئي، مستعداً لمواجهة وصوله غير المصرح به. خطر لي أن الخط قد يبرز بإضاءة معينة لا بد أن لا تكون فاقعة ولا خافتة أكثر من اللازم، وإنما - قلت الكلمة على استحياء - منصفةً. إحدى تلك الكلمات المستبعدة التي تقف مثل كتل صخرية من عصور ما قبل التاريخ في طريق تيار لغتنا الجديدة الأملس.

فالنتينا الإيطالية التي كانت ضيفة هنا لفترة قصيرة اتصلت، بمنتهى الترحيب. انتهت فترة إقامتها. جاءت لتودعني. كانت مفعمة بالحياة، بِحُب الحياة. أطلت عليَّ ببهجة نزعت عني كل أسلحة مقاومتي. ذهبنا إلى المطعم التايلاندي. في الطريق راحت تطلق صرخات متقطعة أمام كل زرعة جديدة تلحظها. قالت إنها تكاد تعتبر إمكانية رؤية كل هذا الجمال بمثابة خطيئة، صاحت: !C'est génial (إنه لشيء عبقري!). - ما هو يا فالنتينا؟

قالت: الحياة. La vita. La vie. Life. Das Leben.

كنا قد وصلنا لتونا إلى شارع ثيرد ستريت الرصين في قلب عالم كامل من الحياة العبقرية. كانت فالنتينا ساحرة لكنها لم تكن تعلم ذلك. احتسينا شربة فواكه (البحر اللاذع) التي كانت فالنتينا تتحمس لها. كنت أراها شخصاً هادئاً راضياً، سعيداً ليس فقط بالآخرين بل بذاته، لكنها أرادت مع ذلك الآن أن تحكي لي كيف تجد صعوبة في عدم الاكتراث للآخرين وآرائهم، بزوجها مثلاً الذي ظلت خاضعة له زمناً طويلاً ولا تزال عالقة في عملية الانفصال الصعبة عنه، كما ظلت فترة تخجل من كونها كادت تفقد ابنها أثناء ذلك، والآن أصيب زوجها في حادث كبير وكان عليها أن تسأل نفسها إن كان من حقها أصلاً أن تهجره.

فالنتينا؟ مقهورة؟ تشعر بالذنب؟ قلت لها إنني لم أكن أتخيل هذا، وكان رأيها أنني أتغاضى عن الآخرين. توقفي يا فالنتينا! لكنني الآن لا أستطيع أن أنزع عنها هذا الوهم.

بلا مقدمات سألتني: كيف ترين الموت؟ - ماذا تعنين يا فالنتينا؟ سألتها لأكسب بعض الوقت. كانت تود أن تعرف إن كان الموت يمكن أن يكون نهاية كل شيء حقاً. وإن كنت أؤمن بذلك بالفعل. - نعم. أتذكر أنني قلت لها بثقة أكثر مما لو قلت ذلك اليوم. أؤمن بذلك لكنه أمر لا يشغلني. «ليس بعد» - فكرت وقتها - تلك الـ«ليس بعد» تحولت مذّاك إلى «الآن».

أبدت فالنتينا تعبيراً غامضاً، لكن كان واضحاً أنها أرادت أن تُسأل لكي تتمكن من الإفصاح عن عقيدتها. الجسد يموت، هذا أكيد. يفترض أنه يتحلل إلى جزيئات وذرات وتتم إعادة استيعابه في الدورة الطبيعية لعالم المادة. ولكن النفس، الروح، تلك الطاقة التي لا تفنى ولا بد أنها تبقى محفوظة بأي شكل. ليس للموت سلطة عليها. قلت: نحن فقط، أنا وأنت، نحن كأشخاص لا نكون موجودين وقتئذ. وافقتني فالنتينا. ولكن ربما ليس على المرء أن يؤمن بأهميته أكثر من اللزوم. على كل حال فقد كان رأيها - من وجهة النظر الأعمّ - أنه لمن العزاء أن ثمة شيئاً يبقى، وأن هذا الشيء ليس الكتلة الصلبة، أي تلك الأجساد الخرقاء. فإن تلك الروح الزئبقية المرحة أحب إليها كثيراً.

لم أجد في ذلك ما أعترض عليه. عند الوداع سألت فالنتينا إن كنت أتسم بالألمانية الشديدة. للأسف كان ردها بالإيجاب: كانت تراني صارمة ومثابرة ودقيقة، أليست تلك هي الخصائص الألمانية بامتياز؟ وبالمناسبة فإن سؤالي عن كوني أتسم بالألمانية الشديدة في حد ذاته ألماني بامتياز. أم يمكن أن أتخيل أن يسأل إيطالي أحداً ما إذا

كان يتسم بالإيطالية؟ ضحكنا وتعانقنا بحرارة، وشعرنا بصعوبة أن نفترق. لم نلتق بعدها.

ما زلت أذكر جيداً حين كنت أبذل جهداً كبيراً لئلا أتصرّف بألمانية. ولكن ألم يكن هذا حالنا جميعاً؟ قال لوتس الأشقر ابن مدينة هامبورغ الذي ينتمي إلى جيل ١٩٦٨، والذي التقيت به في مكتب السكرتارية. كان - وهو الذي يصغرني في السن بسنوات - يعرف هذا الشعور بالعار، أن تكون ألمانياً؟ ألم تكن تلك سمة مشتركة بين الألمان الشرقيين والغربيين بعد الحرب ألا وهي عدم الرغبة في أن يظهروا ألمانيتهم؟ بالتأكيد، قال لوتس. لم يكن يمكن تفسير غضب جيل الشباب وقتها على الجيل الأكبر بغير ذلك.

سألت نفسي وسألته إن كانت تلك صفة مشتركة تم البناء عليها. بالمناسبة: بناء ماذا. «شعور وطني صحي» - قرأت في الجريدة التي أخرجتها من أحد الأدراج. عرضتها على لوتس الذي حك أنفه: كيف يمكن ذلك مع جزءين من شعب عوّض كل جزء منهما قلة الثقة بالنفس بطريقة مختلفة، كيف يتولد «شعور وطني صحي» بإلقائهما معاً؟ ألن يضطر كل طرف أن يسقط عجزه على الطرف الآخر؟ ليتمكن من التشفي من مواضع الضعف الواضحة لدى الآخر؟ ولإعطاء دفعة لثقته المهزوزة بالنفس؟ كما يحدث في ذلك الشيء المسمى بالوحدة.

قلت: كنا نحن - الألمان الشرقيين - من كان عليهم الانضمام إلى الشعوب الشرقية، أكثر الشعوب معاناةً بسببنا.

لا يمكنني أن أنسى، كيف دار الحديث مراراً على المائدة الحافلة في الكولخوس[1] السوفياتية، حيث أُعِدّت مأدبة لوفد

---

(١) **الكولخوس**: كلمة روسية تعني المزرعة.

الجمهورية الألمانية الديمقراطية أثناء التبادل المفرط للأنخاب في صحتكم وسعادتكم ورخائكم - من دون توجيه أي اتهام - عن ذلك الابن البطل القومي الذي قتل برصاص الألمان، وذلك الأخ الذي سقط في الحرب، وعائلة الجيران تلك التي أُبيدت. وكيف كان يجهش بالبكاء رئيس وفدكم - الشيوعي المسن الذي اكتسب صلابته خلال الصراع الطبقي في العشرينيات وأظهرها في المعتقل وفي التنظيمات السرية، والذي كان قد صار مسؤولاً متعنتاً وعنيداً - أثناء تبادل الأنخاب.

لاحقاً كان هذا المشهد تحديداً هو ما صعب عليك تحمل غضبه وعدائيته حين كان الأمر يتعلق بمعارضة مبادئه بشكل جذري وحاد. إن انتماءك الأصلي للبرجوازية الصغيرة قد طغى عليك، هذا ما استطاع أن يصرخ به في وجهك، لقد طرأ لديك من وجهة النظر الطبقية تلك قصور إنساني، قال إنه انخدع بك بشدة، فلا تتوقعي منه أي تسامح. فكرت في زمانه حين كان في المقاومة وفي زمان شبابك أيام هتلر وتمنيت بشدة لو لم تفرقكما مواقفكما المتباينة حول ما هو صالح «لنا» بهذا الشكل. وقفت في مواجهته في حجرة مكتبه الذي وصلت إليه بتصريح دخول وبعد تفتيش دقيق من حرس مسلحين تتبعوكِ في الطريق إلى السيد الأعلى حيث كان رفاقهم المسلحون أيضاً بانتظاركِ في الطابق الأعلى لمقارنة بطاقة هويتك بتصريح الدخول وتوجيهك على الطريق عبر ممرات لانهائية مهجورة وعدد من ردهات الانتظار التي لم تضلّ تأثيرها عليك.

لماذا كانوا يحتاجون إلى هذا كلّه، وممّ هذا الخوف، ذلك الفزع من شعب أعطاهم الكثير وهم الآن يحكمون الجزء الأصغر منه. اضطروا لأن يحكموا من دون أن يتخلصوا من انعدام الثقة في هذا

الشعب. تملكتكِ رعشة خوف لم تكوني قادرة بعد على صياغتها في كلمات.

وقتها كان الأمر يتعلق بكتاب كنت قد كتبته وأراد الرفيق المسؤول الكبير منع صدوره لأنه يعتقد أنه مسيء. كان أمر هذا الكتاب فاصلاً بالنسبة إليك، بل كان بمثابة اختبار إن كان بوسعك الاستمرار في العيش في هذا البلد أم لا. فصرخ في وجهك. كونها مسألة مبدأ أمر مفهوم لكما. ثم صارت نبرتك باردة، ثم صارت نبرتك متشككة. ودعتما بعضكما بعضاً من دون تسوية للأمر، في الطريق إلى الباب سقطت مغشياً عليك، وحين أفقت رأيت وجهه المذعور فوقك.

كنت أعرف أن لوتس لم يعايش مثل هذه المشاهد، وأنني لن أستطيع جعله حتى هو أن يستوعبها.

لم يستسلم الدكتور كيم. سألني بابتسامة مرائية: هل يمكنك تقليل الأكل؟ فأجبت بنعم. كل ما يقترحه عليّ الدكتور كيم أجيب عليه بنعم، لكنني لم أعد كما كنت في البداية مصممة على اتباع كل تعليماته الحكيمة، كنت أريد التحرر منه، لم أعد أرغب في تقييد نفسي، كنت أريد أن أعيش كما تعودت وكما يحلو لي، ولم أعد أرغب كذلك أن أقول له كل ما أفكر فيه وأشعر به، لكنه استحوذ عليّ ثانية بسؤاله كيف كانت علاقتي بأمي: Did you love her? (هل أحببتها على الإطلاق؟) مرة أخرى قلت نعم، كانت امرأة قوية وقد أحببتها. ابتسم الدكتور كيم بوجهه الأسمر وشعره الأسود الكثيف ورداء اليوغا الأزرق، وكأنه يعلم مسبقاً ما يمكنني أن أحكيه له، غرس إبرة في ظهري وفي فخذي وساقي: Relax! (اهدئي)، أطفأ النور وتركني لتيار الذكريات والفِكَرِ الذي غمرني.

حياة الأم. امرأة قوية، الأقوى في العائلة، توحي إليك من دون وعي منك أن الطبيعي هو أن تتولى المرأة زمام الأمور وتقود الدفة في أوقات الأزمات. لا بد أن تعرف أين تتجه الرياح وأن تكون لها الكلمة في ذلك أيضاً. لم تشهدي أي نظرة دونية للمرأة، خطر لي وأنا داخل غرفتي الدافئة المظلمة. لكن خطر لي أيضاً أن القوة لا تؤدي بالضرورة إلى السعادة، تلك القوة التي ترافق الصرامة، الصرامة في عدم إظهار الضعف حتى تجاه الذات، وعدم الاعتراف بنقاط الضعف لأحد، الحفاظ على التحكم بالذات حتى انهيارها. أن تخفي عن الجميع سر ورم الثدي الذي اكتشفته كيي ينتهي الاحتفال العائلي حتى لا تتسبب في أي إزعاج. كم كان عليك تصور إمكانية احتواء نمو هذا الورم في الأسابيع الفائتة بينما كانت الأم مستلقية في المستشفى متماسكة تماماً. عندما انبثقت منها رائحة غريبة بعد العلاج الإشعاعي. عندما قلت لها ذات يوم وأنت منفعلة ومنزعجة إن قوات حلف وارسو قد قضت على ربيع براغ أجابت قائلة وهي تحتضر: هناك ما هو أهم. كان الأمر مهماً بالنسبة إلييك، ربما أكثر من اللازم، وربما منذ فترة طويلة والأمور المهمة حقاً لا تبدو لك بالأهمية الكافية. كنت متعبة جداً. سمعت هدير مياه البحر، هل كنت على البحر؟

Did you sleep? (هل غالبك النوم؟) كان الدكتور كيم قد أضاء النور، فهل كنت نائمة؟ كان وجهي غارقاً في الدموع فأعطاني الدكتور كيم منديلاً دون تعليق. قال: Don't worry (لا تقلقي). Be careful (خذي حذرك). أثناء ارتداء ملابسي كنت أسمع هدير مياه البحر من بعيد جداً. شريط صوتي. إحدى وسائل الدكتور كيم لتهدئة مرضاه.

تساءلت إن كان باستطاعة المرء أن يغسل شعوره بالذنب عن طريق هدير مياه البحر.

ذهبت. وفي وسط طريق ويلشاير بوليفار لاحظت أنني لا أشعر بأي ألم، بوركت يا دكتور كيم. عبرت الشارع إلى الصيدلية العملاقة التي كانت قد داعبت عيني منذ فترة وقررت استكشافها أخيراً. مررت بالأرفف التي يتجاوز طولها ربما الكيلومتر وملست عليها بمتعة شديدة. كانت ممتلئة بعشرات الأنواع من مواد التنظيف لكل غرض يمكن تصوره، أو لا يمكن تصوره، من أجل جعل حماماتنا ومطابخنا وسلالمنا وأرضياتنا خالية من الجراثيم وعلى أعلى مستوى من اللمعان. تسكعت عبر الحواري الضيقة محفوفة بالعطور والكريمات والصابون ومضادات العرق وجِلّ الاستحمام ولوسيون الجسم والساق والشامبو وصبغات الشعر، أنواع لا حصر لها مجدداً. من سيغتسل ويدهن جسده ويتعطر بكل هذه الأشياء؟ ومن سيتجمل بكل تلك الأنواع من كريم الأساس وأحمر الشفاه والماسكارا؟ خطر لي أن محتوى تلك الزجاجات والقوارير والعلب الصغيرة في الصيدليات قد تكفي لإغراق الأرض كلها في رغوة الصابون وتنظيفها، ثم يمكن شطفها بماء البحر جيداً ودهانها بالكريمات واللوسيونات لجعلها مستعدة للاحتفال. فكرت أنه ربما تستطيع كذلك المساحيق المضادة للشيخوخة أن تفرد تجاعيد وجه كوكبنا العجوز. ولكن أتت في المقدمة الآن منتجات العناية بأثاثنا الرقيق ومساحيق غسيل ملابسنا وأغراضنا. كان علي أن أفكر كيف كانت جدتي تكتفي بـ«برسيل» مع الخل، وبمسحوق «آتا» [1]، والصابون والصابون السائل لغسل

---

(١) آتا: مسحوق غسيل كان الأول الذي تنتجه شركة هنكل عام ١٩٢٠ ثم بعد تقسيم برلين بعد الحرب العالمية الثانية كان المصنع تابعاً للمنطقة التي سيطرت عليها القوات السوفياتية فتم تأميمه وصار آتا هو المسحوق المستخدم في الجمهورية الديمقراطية الألمانية.

الملابس وتنظيف المنزل، وقد كانت جدتي امرأة تهوى النظافة، كانت تغتسل بصابون «بالموليف» رغم أنها لم تمتلك في حياتها حماماً خاصاً. لا أزال أراها أمامي واقفة أمام البخار في غرفة الغسيل، كيف كانت تفرك غسيل العائلة كلها على اللوح، بينما راح جدي يقلّب الغسيل في الغلاية الكبيرة على النار بأداة من العصور الوسطى لا يوجد مثلها اليوم.

بالطبع حمّلت مفصلي أكثر من المطلوب منه، ركبت الباص الذي كان عليه أن ينتظر موكب الدراجات النارية الضخم الذي مر مسرعاً، يقوده سائقون شبان يرتدون مجموعة من الأزياء الجلدية السوداء. هزت السيدة السوداء الجالسة بجواري رأسها مستنكرة، لكن ماذا تعني كلمة «مراعاة» بالإنجليزية؟ كلا، لم يراع هؤلاء الشبان حجم ماكيناتهم، ولم لا يستغلون قوتهم وتفوقهم في مواجهة الآخرين جميعاً؟

استقللت الباص عبر طريق ويلشاير بوليفار المستقيم باتجاه المحيط الهادئ، ثملت كالعادة بالضوء الذي لم ولن أود أن أنساه والذي أستطيع الآن فقط أن أتذكر منه لمعة خافتة. وتذكرت التجمل الكبير في أحد البيوت الثقافية الجديدة الجميلة التي تم بناؤها بجوار شركات القطاع العام. لا بد أن هذا كان في بداية الستينيات. أحد كبار المسؤولين الاقتصاديين كان قد ألقى خطاباً مؤسساً وذكر فيه أن الشباب يشتكون من نقص الدراجات النارية، وقد أطلق البشارة بأنكم أيضاً في شبابكم سوف تستطيعون بأنفسكم توفير دراجاتكم النارية التي ستكون مصنوعة في مصانعكم. لكنك أردت أن تلعبي دور الذكية مرة أخرى، تحتم عليك أن تنتفضي وتتقدمي للكلمة وتسيري إلى المنصة لتعترضي: لا يمكن أن يكون هذا هو هدفكم. لا يمكن أن يتلخص

سعيكم في منافسة الدول الرأسمالية في إنتاج السلع الاستهلاكية التافهة. لا بد أن تركزوا على قيم أخرى، وأن توجهوا احتياجات الشباب إلى أهداف أسمى. حسناً - قال المتحدث بمزاج صاف - هل تخافين من قيادة الدراجة النارية؟ وسط ضحكات الحضور في القاعة انسحبت عائدة إلى مكانك.

كان عليَّ أن أفكر في الجماهير، أبناء بلادي الذين عادوا فرحين من أول زيارة إلى الغرب بعد سقوط الحائط وبعد أن قبضوا مكافآتهم المالية محملين بالحقائب والصناديق المكتظة بجميع أنواع السلع التي لم تكن متاحة من قبل. هذا إذن هو مربط الفرس، فما هذا الذي كنت أظنه أنا؟

ازدحمت الاستراحة تدريجياً، دخلوا واحداً تلو الآخر، أحضروا لأنفسهم الشاي وبدأوا في الحديث مع زملائهم المجاورين، حتى بيتر غوتمان كان هنا، كان قد خبأ رأسه الطويل خلف جريدة «تايمز» ولم يشارك في النقاشات العامة حول التكهنات الانتخابية حتى وجهتُ إليه مباشرة ودفعته للتعبير عن قناعته أنه لا يهم من يفوز لأن ذلك لن يغير شيئاً في الأوضاع، لاسيما أن معظم الناس لا يريدون أصلاً أن يتغير أي شيء: أبناء الطبقة الحاكمة وكبار الملاك بحكم غريزة حماية المصالح من أجل البقاء - وهي غريزة متأصلة فيهم - بالطبع لا، والآخرون أيضاً لا لأنه تم إقناعهم بنجاح أنه ليس في الإمكان أفضل مما كان. أم أن هذا ليس صحيحاً؟

قابلنا جميعاً ذلك بالصمت، تحديداً حتى أدلى بينتوس، صديقنا السويسري الشاب، غاضباً شهادته حول كون الأفكار الراديكالية ليست غريبة عليه، وأنه كان هو نفسه ذات يوم أثناء سنوات الدراسة الجامعية عضواً في جماعة ماوية في زيوريخ، إلا أنه كافح بعد ذلك من أجل

الوصول إلى أفكار أكثر تمايزاً. فمثلاً هو كان يعتقد أن شواهد التغيير البسيطة يمكن أن تحدث فارقاً.

التفت بيتر غوتمان إليه بلطف وأراد أن يعرف: مثل ماذا؟ حسناً - فكر بينتوس الذي كان شعره القصير يقف مثل الجبال على رأسه ولم يكن يرتدي سوى حُلّات الجينز - على كل حال انضمت قوى جديدة غير مستهلكة إلى اللعبة ارتأت أن بإمكانها أن تستفيد من الامتيازات التي أحرزها السابقون. كما تم إعطاء فرصة للعقول النقدية الشابة، قال بالألمانية، بتنويعاته الصوتية السويسرية الثقيلة.

حقاً؟ قال بيتر غوتمان. وكم سيستمر هذا؟ حتى يضمن هؤلاء لأنفسهم المميزات نفسها؟

لقد كان يعرف حقاً كيف يُفقد الآخر رغبته في استكمال النقاش. هو أيضاً لم يطرح الموضوع مجدداً حين سرنا عائدين إلى فندق ميس فيكتوريا. فجأة بدأ يحكي عن مدى خوفه وحذره من أن تفلت منه كلمة ألمانية في المدرسة رغم أنه كان في البيت يتحدث الألمانية مع أمه. بالمناسبة هي الوحيدة في العائلة التي كانت تبدي بعض مشاعر الغربة.

وما شأن هذا بنتائج الانتخابات؟ سألته بينما مررنا بجوار حيوانات الراكون الثلاثة اليقظة في فندق ميس فيكتوريا ولوحنا للسيد إنريكو الذي أبدا فرحاً شديداً لرؤيتنا. فكري في الأمر جيداً، قال بيتر غوتمان أثناء صعودنا الدرج. ودّعني عند باب شقتي: كلا لن أشرب اليوم. كان يبدو عليه الإرهاق، أما أنا فقد أحسست ببوادر شعور بالذنب من دون أن أفهم لماذا.

تشظت المشاريع مرة أخرى في المجهول، لم أفهم لماذا لم أستطع الاستمتاع بذلك كما كنت أفعل سابقاً. بعد ساعتين اتصل بيتر غوتمان. بدا لي أنه شرب كأساً صغيرةً هو الآخر. هل أزعجكِ؟ -

كلا. قال: ما الذي نعنيه حقاً «بقيمنا الغربية» التي لا بد أن تندهش لنا وتحترمنا من أجلها الثقافات الأخرى؟ بقيت صامتة متفاجئة. قال بيتر غوتمان: فلتفكري في الأمر يا سيدتي. لكنني لم أكن أريد التفكير في هذا الأمر تحديداً هذا المساء.

اليوم الغائم التالي كان الأحد، صاح الواعظ التلفزيوني، بل صرخ في شعبه الهائل: "Your sins are forgiven!" (مغفورة لكم خطاياكم!) بينما كان شعب الكنيسة يئن وانطلقت نداءات متفرقة: "Yeah! O Lord!" (يا الله!) خطى الواعظ مثل مروض وحوش إلى الصف الأول، كان يرتدي ثوباً خياليا بنفسجياً مبهراً يموج خلفه، والآن سأل شعب الكنيسة أي معجزة أكبر: أن يقول يسوع للمشلول: انهض وسر! أم أن يقول لنا جميعاً: مغفورة لكم خطاياكم! والآن يصعد الواعظ المشهور على الممر الأوسط، يتقدم نحو الكاميرا، ويخاطب بعض المؤمنين فرادى. لامرأة سوداء: ماذا تظنين يا أختاه! ولرجل أبيض أنيق: وأنت يا أخي - نعم، ألم تفكر بعد في الأمر؟ مع كل لمحة كانوا كلهم يشعرون - كما شعرت أنا أيضاً - بما سيأتي الآن، الجميع ينتظر بفارغ الصبر أن تأتي كلمة الخلاص، أن يسمعوا، أرادوا أن يسمعوا منه هو، لأنه هو الوحيد - الواعظ المكلف في ثوبه الملون والذي عاد ليقف في المقدمة مرتفعاً على الدرج بجانبه صحبة من أغصان الزهور الصفراء - هو الوحيد من يمكنه نطق هذه الكلمة. وأخيراً وبحركة مدروسة رفع الإنجيل صوب السماء وصاح: الرب شاهدي! لا شيء أكثر إعجازاً تحت الشمس من مغفرة الذنوب!

Yeah! صاح شعب الكنيسة المتأثر بصوت واحد، انهمرت الدموع على الأوجه، تعالى التصفيق، نجح تأثير الطقس، تم التطهير.

ظهيرة يوم الأحد تكون شوارع المدن الأمريكية ممتلئة بصفوة الناس في سياراتهم الفارهة المتنقلة بهدوء، لكن المعابد الحقيقية - المتاجر والأسواق - لا تغلق أبوابها دقيقة واحدة، وكأنهم يخشون لو انقطع الاستهلاك ولو حتى لثانية لتحطمت الدورة من المال للسلعة إلى المال في منتهى السرعة، ولانهار هذا الكائن المسمى بالمجتمع المعتمد على التمويل إثر أعراض انسحابه على الفور.

جلست إلى آلتي الكاتبة وكتبت:

إن البحث عن الفردوس أدى في كل مكان إلى خلق جهنم. فهل يحكم ذلك قانون لا يمكن اختراقه؟ إذن لا بد من تقَصّيه. كذلك يجب التفكّر في لماذا يتولّد عن الاعتقاد السائد هنا بأن لكل مشكلة حلاً، وأن لكل شر ما يعادله ولكل ألم ما يخففه ولكل مرض علاج شعور باللاواقعية، بل الرهبة، ولماذا قد ينقلب بسهولة إلى الجنون.

أمسكت بالملف الأحمر الذي كان يحوي خطابات «ل». لاحظت أنني دائماً ما أمسك بهذا الملف كلما احتجت إلى مواساة. ليست الخطابات مكتوبة على فترات زمنية منتظمة، الخطاب الثالث مؤرخ في يونيو ١٩٤٨. وهو أحد أكثر الخطابات إسهاباً، من الواضح أنه يرد على أسئلة وآراء كانت إيما قد وجهتها إلى صديقتها. كتبت «ل» إنها لا تتعجب لكونها هي وإيما تنشغلان بالمشكلات نفسها مجدداً، فقد كانت الحال كذلك في الماضي أيضاً.

«يصعب بالتأكيد مقارنة تجربة اعتقالك بتجربة منفاي. قد يبدو أنهما تشتركان في نقطة واحدة على الأقل: الشعور بالاغتراب

الذي ولدتاه بداخلنا. فإننا مع كل معارضتنا للمجتمع في السنين الماضية فقد كنا ننتمي له، ربما تحديداً بنقدنا المتطرف كنا ننتمي له.

لكن في تلك اللحظة عندما عبرت الحدود الألمانية الفرنسية بالقطار في أبريل ١٩٣٣ أطبق عليَّ هذا الشعور بالاغتراب الذي لم يغادرني أبداً، وأستشف من خطابك أن هذا ما جرى لك بالضبط حين أغلقت أبواب المعتقل من خلفك. كنا نحن في الخارج. وإذا كنت قد استقرأت خطابك بشكل صحيح - بما في ذلك الهوامش، وكلمة عزيزتي التي كثيراً ما تمثل لديك المتن - لم يعد يهزك أنت أيضاً الشعور بالاغتراب عن أبناء وطنك الذين أبعدوكِ وابتعدوا عنك. كان هذا - واسمحي لي أن أصادق على كلامك الآن. أحد أسباب عدم عودتي «إلى الوطن»: كنت أعرف أنني لن أشعر بكوني في «وطني» أبداً مع هؤلاء الناس. لكنك تعرفين بالطبع السبب الآخر: من دون زوجي الحبيب لم أكن لأستطيع مغادرة هذه القارة أبداً. فلن أستطيع أن أتركه أبداً. أياً كانت الأسباب التي أحاول جمعها لذلك: كذلك الحال فحسب كما هو».

هل يواسيني هذا الخطاب كما كنت آمل؟ بشكل ما. خطرت لي فكرة أن إخلاص إيما لحزبها الذي كانت تعترف بأخطائه وتنطق بها من دون أي اعتبارات كان يتعلق بالاحتياج إلى مكان واحد على الأقل تشعر فيه أنها في وطنها إذا كان كل ما دون ذلك يشعرها بالغربة. فهل كنت أنا أيضاً أشعرها بالغربة؟

تتبعاً لشعوري الخاص بالاغتراب

هذا ما ظللت أتجنبه لفترة طويلة إلى الآن.

تعالى بداخلي صوت أغنية من دورة الأغاني التي رافقتك في إحدى السنوات الأكثر كآبة. كنت تديرين القرص عدة مرات في اليوم الواحد. أمدتني ذاكرتي بالمقطع الأول، وكذلك باللحن:

إلى هنا جئت غريباً
وأعود أغادر غريباً
بدا أيار مغرياً
ببعض باقات الزهور
الفتاة عن الغرام حكت
والأم عن الزواج
هكذا العالم غائم
والطريق متدثر بالثلوج[1]

كان أحد الأصدقاء قد أرسل لك الأسطوانة، كان قد استشف ما كنت تحتاجين إليه. قارن في تعليق مقتضب الزمن الذي لحن فيه شوبرت قصة فيلهيلم موللر[2]، زمن التصالح بعد مؤتمر

---

(١) من مقطوعة رحلة الشتاء لفرانس شوبرت.

(٢) **يوهان لودفيغ فيلهيلم موللر** (١٧٩٤-١٨٢٧): شاعر غنائي ألماني ولد في مدينة ديساو لعائلة فقيرة وتلقى التعليم المدرسي في قريته ثم التحق بالجامعة في برلين حيث ركز اهتمامه على دراسة فقه اللغة والدراسات التاريخية. نحو

كارلسباد[1]، السنوات الضبابية بعد ثورة ١٨٤٨، مع التصالح الذي وقعتم فيه والذي أودى بكم إلى الكآبة. كان يود أن يقول لك: لسنا الأولين! لكنكما كنتما قد اكتشفتما ذلك بالفعل أثناء رحلات السير في المنطقة المحيطة بمشفى الغابة «فالد كرانكنهاوس» حيث كنتما تداويان أوجاعكما النفسية والجسدية بكثير من الماء والمأكولات النباتية الطازجة، ولكن الأهم أنكما كنتما تصيران «كمجذوبين على الطريق»، كما يصف كبير الأطباء حالتنا. لن يستطيع أحد اليوم أن يتخيل مدى الجهد ودقة الإجراءات الذهنية وكم من المقاومة الداخلية وكم من الوقت بذلتما للتصالح مع وجهات نظركما. ما زلت تتذكرين سقوط الضوء على محمية شجر السرو التي كنتما قد مررتما عليها لتوكما حين قال صديقك: إذن هذا ما نعرفه الآن: هذه الدولة مثل أي دولة هي أداة تسلط. وهذه الأيديولوجيا مثل أي أيديولوجيا: وعي مغلوط. لا

= عام ١٨١٣ تطوع في الجيش البروسي إبان الانتفاضة الوطنية ضد نابوليون حيث شارك في العديد من المعارك.

(١) **مؤتمر كارلسباد**: هو المؤتمر الذي عقد في ١٨١٩ وتضمنت قراراته: فرض القيود على الصحف، وإعادة الرقابة على الصحف، وتعيين لجنة رقابة على النشاط الألماني. إذ إنه بعد مؤتمر فيينا عام ١٨١٥م أخذت النمسا تتدخل في الشؤون الألمانية للقضاء على أفكار نابليون، فظهرت إلى جانب أفكار نابليون دعوة إلى الوحدة الألمانية، كذلك ظهرت قوة بروسيا فزاد تفكير الألمان بالوحدة وأزعج ذلك النمسا فتدخلت للحفاظ على مصالحها بمحاولة القضاء على هذه الأفكار، ونتيجة لذلك بدأت تُعقد اجتماعات للطلبة في الجامعات وزادت ووصلت إلى النمسا هذه الأفكار ولكن النمسا لم تتدخل وذلك بسبب الاتفاق وهو أنه لا يحق لأي دولة التدخل بشؤون الدولة الأخرى إلا إذا طلبت منها الدولة التي تواجه المشكل. لذلك حاولت النمسا التدخل بشكل غير مباشر. ثم قام طالب بقتل أحد الصحفيين البروسيين فدعت النمسا للتدخل في ألمانيا، وكان مؤتمر كارلسباد.

يمكن أن نستمر في خداع أنفسنا بشأن هذا. توقفتما، فسألته: ماذا علينا أن نفعل؟ التزمتما الصمت طويلاً ثم قال الصديق: نحتفظ بلياقتنا.

كتبت:

كم تكمن الحقائق كلها في النهايات. إلى أي مدى لا يستطيع المرء التعرف على النموذج ما دام بداخله. لأن «البقعة العمياء» تحجب مركز الرؤية والإدراك.

ذهبت سيراً إلى منتزه الشاطئ، نظرت إلى المحيط الهادئ الذي كانت الجزر اليابانية تسبح فيه بعيداً خلف المدى، راقبت لفترة طويلة عائلة كبيرة من السود كانت تتسلى في الماء، والنساء تشمرن تنانيرهن لتواجهن الموجات اللطيفة مصحوبات بصرخات الأطفال الحماسية، لم أشبع من مشاهدة طفل ربما كان في العاشرة من عمره لم يكن يستطع أن يتمالك نفسه من فرط الفرحة، كان يقفز ويرقص ويصدر صياحات رنانة. ليس لدينا مثل هذا، خطر لي وتملكني الحسد. إن التحكم في النفس أيضاً شكل من أشكال التسلط، وليكن على الذات.

كان المشهد مفتوحاً أمامي من فوق جسر سانتا مونيكا على قوس خليج ماليبو، خضار البحر الشاحب المحفوف بالرغوة البيضاء وبالرمال الصفراء يتقدمها صف من البيوت، وخضار الهضاب الداكن في الخلف وأخيراً القمم الحادة لسلسلة الجبال متلائمة مع الألوان تماماً في الخلفية، وفوقها السماء الزرقاء بصفاء لا يصدق.

شعرت بالألم، كل شيء يؤلمني، مرة أخرى أكتفي بذلك. بمنتهى الخوف وحدي تابعت على شاشة التلفاز في المساء تصادم

الطائرة الإسرائيلية مع ناطحتي سحاب في أمستردام. قرع بيتر غوتمان الباب، كان قد رأي المشهد. لكننا لم نرد أن نتحدث، شاهدنا معاً فيلماً عن باحث إنجليزي مهم في مجال الفنون. كان بيتر غوتمان يعرفه إلا أنه اكتشف الآن أنه عمل لفترة طويلة جاسوساً سوفياتياً، كان مثلياً بالمناسبة، منحته جلالة الملكة شرف الحديث معها ذات مرة حيث دار الحديث عن اللياقة والقيم الأخلاقية وقد استطاع هذا الباحث أن يصل إلى صياغات مبهرة ومؤثرة، مؤثرة بالنسبة إليه هو الذي كان يعرف وضعه، لكن تم فضح أمره بالطبع، تحمل كل شيء وقد وعدوه بحمايته، لكنهم - على عكس الوعد - قدموه كبش فداء للرأي العام المفترس ودمروا حياته، بقدر ما كان هو - وللطعن على ذلك مبرراته - قد دمرها بنفسه أصلاً. بالكاد كان الأمر محتملاً أن نشهد معاً كيف تم تقديمه في النهاية على الشاشة، رجلاً عجوزاً منكسراً. كيف اضطر للتجاوب مع الأسئلة المتطفلة التي ألحّوا بها عليه.

«لا متعة في هذا بالنسبة إليّ» - قلت وأطفأت التلفاز. بالمناسبة فأنا أفكر في ذلك كثيراً مؤخراً - قال بيتر غوتمان - وأدرك أنني انتهيت ثانيةً إلى إحدى هذه المراحل، أو أن الوحشية التي يتسم بها الزمن و ضيق خلقي يتعارضان معاً حالياً مرة أخرى، فأضغط على زر إطفاء التلفاز أو أبعد نظري عندما تطلق حشود ضخمة من البشر لعناتها باسم الله علينا نحن البيض، أو عندما يجمع الرجال ذوو السترات الوقائية البيضاء العصافير الميتة من على شاطئ بحر البلطيق. كون بعض، كلا: الكثير من ذلك كان يمكن توقعه فإن هذا لا يواسيني. فهل ما زلت أعرف بالضبط ما هو الصواب وما هو الخطأ، ما الخير وما الشر؟ بما أنني أضبط نفسي وأنا أشعر بالتعاطف مع الأشخاص الخطأ عندما أراهم في دور المهزومين.

هذا أفضل من عدم الشعور بالتعاطف على الإطلاق، قال بيتر غوتمان. بالمناسبة: مَن المسيحيّ هنا؟ على مَن يحق القول: «من لطمك على خدك الايمن فحول له الآخر ايضاً»[1]؟ إنك تتحركين في أعمق نقطة من منظومة قيمك يا سيدتي. لا تنسي ذلك.

وأنت: عيناً بعين، وسناً بسن؟[2]

لم يكن لدينا إنجيل في البيت. أياً كانت لغته. كنا ثلاثة إخوة. حرم علينا والدانا القليل ولم يأمرونا بأي شيء تقريباً سوى قواعد المعاملات لئلا نفشي سر كوننا ألمان في الشارع. وعندما كان الأولاد في المدرسة ينعتونني بالنازي لم يكن أحد في البيت يلحظ عليّ شيئاً. كان المبدأ الأساسي هو: الحفاظ على الأم. ماذا عن أبي؟ كان لا يكاد يتكلم منذ كان في المنفى. في المساء يعود إلى البيت من عمله الشاق قليل الأجر في المصنع، يوضع الطعام، الذي كان شحيحاً جداً بالمناسبة. ثم يتم إخلاء المائدة ليفرد أبي كتبه عليها وينهمك في إعداد أبحاثه حول الأدب الألماني في القرن التاسع عشر. لم ينشر سطراً أبداً. لا أعتقد أن هناك أي شخص أكثر تعلقاً بكونه ألمانياً ولا أكثر شعوراً بالصدمة والجرح والمرارة بعد طرد الألمان له. لم أكن بعد قد جئت إلى الدنيا عندما اضطرت العائلة على شدة فقرها أن تجد لنفسها سبيلاً في بلد غريب، فكيف بالأبوين أن يرحبا بطفل ثالث في مثل هذه الظروف بعد اندلاع الحرب، بالطبع يمكنك تصور الوضع.

---

(١) إنجيل متى ٣٨:٥-٣٩

(٢) «وإن حصلت أذيَّة تُعطي نفساً بنفس. وعيناً بعينٍ وسناً بسنٍ ويداً بيدٍ ورجلاً برجلٍ. وكياً بكيّ وجرحاً بجرح ورضاً برضٍّ» (العهد القديم - سفر الخروج - الإصحاح ٢١: ٢٣ - ٢٥)

صمتنا، ثم قلت أنا: هل تعرف هذا: أن يدور شريط صوتي في الرأس ليل نهار؟

بحق السماوات - قال بيتر غوتمان - أنا الخبير في هذا. آه لو تعرفين ما يدور في رأسي ليل نهار كالطاحونة.

ماذا يا سيدي؟ إذا كان مسموحاً بالسؤال.

حسناً، دائماً الشيء نفسه. فكرة أنني عاماً بعد عام لا أنجز شيئاً سوى أن أهدر حياتي بشكل ممنهج. ماذا يمكن القول في ذلك؟

ربما علينا أن نتفق أن الأسئلة المجازية لا يلزم الرد عليها بالضرورة.

حسناً، حسناً. كما تعلمين سأتم ثلاثة وخمسين عاماً قريباً - قال بيتر غوتمان.

وهي مناسبة أرجو أن نحتفل بها مع زجاجة من نبيذ كاليفورنيا الفاخر.

أنا معلق في الهواء كصبي صغير. لم أبن لنفسي شيئاً. لا زواج. ولا أسرة، وهي التي كنت أتمناها. لا علاقة ممتدة مع امرأة، ولا حتى مشوار مهني يذكر.

أعترض، يا صاحب السيادة.

دعك من هذا. نعم، نعم! منذ عشرين عاماً يتلبسني فيلسوفي، ما زلت أستقصي أكثر هواجسه شذوذاً. رجل ترك من ناحيته تشظيات كثيرة. اسمحي لي، لا يلزم أن يعرف المرء السيد فرويد لكي يعتقد أن هذا الاحتياج الملح لكي أعَبِّر عن نفسي من خلال شخص آخر، أو أن أدفع بشخص آخر أمامي هو ضرب من الاضطراب العصابي. شخص يسحقني. شخص ذاب فيَّ كما ذبت فيه، تشابكنا بحيث لا يمكن فصل أحدنا عن الآخر. لا أستطيع التخلص منه، والسخيف أنه

يعطلني عن أن أتم الكتاب الذي أؤلفه عنه وأريد أن أخلد نفسي بدَفنها فيه.

كيف. كيف يعطلك؟

هذا ما سألته لنفسي طويلاً. أعتقد أنه يعطلني بكماله. فحيث إن ما تركه وراءه هو مجرد تشظيات فإن هذا تحديداً علامة على أنه كان ينشد الكمال. ربما كان يعتبر النص الكامل الذي يفترض وجود رؤية متكاملة للعالم مجرد كذبة. لا شيء عنده أبشع من هذا. ثم: كيف توصلت إلى فكرة أن أكتب أنا كتاباً عنه، وهو الذي لم يضع أفكاره ورؤاه ضمن نظام معين أبداً ولم ينشر كتاباً واحداً في حياته؟ ألا يعد هذا تطاولاً؟ فيما يخص فكرته الأساسية أيضاً: هذه الثقافة الخاصة بنا لن تتعافى ثانيةً من سقطتها الكبرى. أي أننا نعيش آخر الزمان.

كانت هذه المرة الأولى التي يتحدث فيها بيتر غوتمان بإسهاب عن فيلسوفه. في تلك الليلة سألته أيضاً إن لم تكن في حياته علاقة عميقة بامرأة سابقاً.

قال: بلى بالطبع. تحديداً الآن لديه علاقة مع امرأة هي الأقوى على الإطلاق، لكنها بلا أفق، وهو ما عرفاه منذ البداية. فهي لن تترك زوجها وأبناءها أبداً. وقد قررا مؤخراً منذ أسبوعين أن يقطعا اتصالاتهما الهاتفية. والآن هو في أسوأ حالات اكتئابه، تصيبه نوبات خوف رهيبة كما يستيقظ كل صباح بإحساس من الفزع.

قلت له: لم يُلحظ عليك شيء.

نعم فقد تدربت على ذلك منذ الصغر، ألا يُلحظ عليَّ شيء. والآن: تصبحين على خير يا سيدتي. لا تطيلي التفَكُّر. نصيحة جيدة من خبير في التفكّر الطويل.

ذهب هو، وبكيت أنا. لن يود أن يعلم سبب دموعي. فكل من

كان وأراد أن يبقي بهذا القرب منه كان عليه أن يلتزم بعقد غير معلن: ألا يخترق المجهول. بدا لي واضحاً أنني استوفيت هذا الشرط حتى الآن. لا بد أن لا تستمر هذه الحال. قلت لنفسي: عليَّ أن أخربش بحذر بل وبمحبة على المخزون الذي ظل يعمل على إنمائه بتخطيط دقيق عبر السنين. يتصور المرء أنه أمام الرجل فيجد نفسه أمام المخزون.

وضعت مذكرات توماس مان في متناول يدي. منذ ذهبت مع مجموعة من أصدقائنا الباحثين إلى بيته، باسيفيك باسيلادس، ١٥٥٠ شارع «سان ريمو درايف»، حيث تلكأنا أمام المدخل، حيث لا توجد بالمناسبة لافتة تذكر باسم ساكن البيت الأول المشهور. منذ أن تصفحت رحلة سيره عصراً إلى حديقة «أوشن بارك» قرأت مذكراته الأكثر إثارة. وجدت القطعة التي دوّنها حول خطابه عن غوته ١٩٤٩:

ومن جديد، يضاف إلى المرء شهادات حميمية بعينها مثل هذا المقطع من رسالة السيدة فون شتاين أثناء رحلة الشتاء إلى جبال هارز[1]*: «كم اكتسبت في هذا القطار المظلم محبة هذه الطبقة من الناس التي تسمى بالأدنى، بينما أَشهِد الله أنها الأعلى»، ... لو أضفنا إلى ذلك أنه يتحدث في «هرمان ودوروتيه»* [2] *عن الحرية*

---

(١) **جبال هارز**: هي أعلى سلسلة جبلية في شمال ألمانيا، كما أن تضاريسها وعرة وهي تمتد عبر أجزاء من ولاية سكسونيا السفلى وساكسونيا أنهالت. أما أعلى قمة فيها فهي جبل بروكن الأسطوري بارتفاع ١,١٤١ متر فوق مستوى سطح البحر.

(٢) **هرمان ودوروتيه**: قصيدة ملحمية رعوية من تأليف الأديب الألماني يوهان فولفغانغ فون غوته، نشرت للمرة الأولى في عام ١٧٩٧. بدأ غوته العمل في =

المدهشة وعن المساواة الأعلى - «الأعلى»! وأنه تناول قبل موته بفترة قصيرة نظريات الاشتراكي الفرنسي سان سيمون عن قرب بموضوعية، لوصلنا بذلك إلى طرح أسئلة متفردة. لست متأكداً تماماً - إنه مجرد استنتاج لكنني أريد أن أعبر عنه - ولكن المحتمل أن غوته كان ليوجه نظره لروسيا اليوم بدلاً من أمريكا. أشير هنا أيضاً إلى استنكاره للاستبداد بالمقابل في هذا المقام. ولكن في مواجهة هذا الظاهرة نابليون فشلت المقاومة - كما هو معروف - ومن يعلم مَن يمكن أن تفشل في مواجهته اليوم. فالسؤال أساساً عن مدى اختلاف عملية انصهار الذات في ظل العمل مع الجماهير المنظمة - التي إن لم تكن بمثابة مُثُله العليا فهي إذن رؤيته الخاصة - عنها تحت سيطرة الدولة ومع قدر ما من الاستبداد. لا يمكن أن تكون فطرته السليمة قد أوقعته في وهم أنه لم يكن ليحدث المزيد والمزيد في ظل الأوضاع الاشتراكية الجديدة في الفضاءات المتحررة من سيطرة الدولة والتي تقوم عليها الليبرالية. ولن أتعجب لو شغله السؤال حول ما إذا كانت حرية البحث والفن قد لا تكون مكفولة بشكل أفضل لدى دولة لم تعد تعتبر نفسها أداة لصون المصالح الخاصة بالمقارنة بنظيرتها المعتمدة بالأساس عليها.

= القصيدة في ١٧٩٢ تقريباً، في بداية حروب الثورة الفرنسية، عندما غزت القوات الفرنسية أجزاء من بالاتينات وهي منطقة في جنوبي غرب ألمانيا. القصيدة أشبه بالرواية من حيث محتواها وهي تتحدث عن فتاة تدعى «دوروتيه» هربت من الفوضى التي أحدثتها الثورة الفرنسية، ومن ثم تنتقل كلاجئة إلى أحد المناطق الألمانية، فيهب المواطنون لمساعدة اللاجئين ومن بينهم الشاب «هرمان» الذي يقع في حبها، تستمر بعد ذلك الأحداث وتنتهي بخطبتهما. وقد أثر هذا العمل في العديد من الأدباء في وقت لاحق.

من يطرح اليوم مثل هذه الأسئلة؟ من يجرؤ على النطق بها؟

الآن بعد أكثر من عقد ونصف أقرأ أسئلة مشابهة في بعض الصحف منبثقة عن «**أزمة**»، هي في الحقيقة انهيار كما فهمتها في مستقبل أبعد. لكن يتم بالأساس إزاحة أسباب انهيار الكيان المصرفي - شريان الحياة للنظام الاقتصادي الذي سُمح بتسميته بـ«الرأسمالية» مرة أخرى - بقدر الإمكان على الأسباب النفسية: جشع المُدراء ورجال الأعمال الذي لا يشبع للمال. بالأمس سمعت أن فريق بحث يعمل في مجال طب الجهاز العصبي اكتشف جيناً وراثياً يعمل على تنشيط النهم للمال وحب الامتلاك عبر منظومة إثابة معقدة في المخ، بحيث يصعب على من ابتُلي بهذا الجين أن يفعل شيئاً إزاء تصرفاته الأنانية الشرسة. ليصبح الحل لكل المشكلات - هكذا يقال - هو المزج الصحيح بين الموظفين في إدارة كل شركة: بين حاملي جين النهم والآخرين من ذوي الخلقة الأميل للمعاملات المحسابية.

كيف كان جون وجودي ليعلقا على الأوضاع اليوم إذا كانا قد تنبآ بها وقتها؟ جلسنا مرة أخرى في مقهى شارع ١٧، كانت لدينا طاولتنا الخاصة كزبائن، كنا نعرف قائمة الطعام فطلب كل منا سلاطته المفضلة. كانت النادلة السوداء الشابة ذات العينين المضيئتين تعرفنا فابتسمت لنا، كان هذا شعوراً مريحاً.

كان جون قد أحضرني. وكنا نود أن نذهب مع جودي إلى أصدقائها الذين دعوني، وكان معظمهم من أبناء «الجيل الثاني». قال جون: علينا أن نؤجل المناقشة حول نص توماس مان. فقلت: إن المثير إلى درجة تقترب كثيراً من مدى إثارة هذا النص المدهش هو أنه لم يُعتمد في الصياغة النهائية لعرض غوته. قلت: ربما فعل خيراً بأن جنب نفسه التعرض للاتهامات المتوقعة. «الشيوعية» كانت ستكون

أقلها. هل كان جون وجودي يعرفان الفضيحة المتعلقة بجولة توماس مان في ألمانيا ١٩٤٩؟ كلا. في أمريكا عدت الشيوعية جثة هامدة، أكثر موتاً من الأموات. لكن تحت السطح تغلي مشاعر عداء هيستيرية للشيوعية.

قال جون إن ابن عمّه الذي اكتشف أنه يعيش في شارع «كارل مارس» في برلين بدأ يسأل مجدداً عن الشيوعية. كونه لا يعني شيوعية الجمهورية الألمانية الديمقراطية فهذا أمر واضح. إنه يقصد الشيوعية المعتدلة التي كانا هما أيضاً - جون وجودي - يقصدانها. آهٍ أيها الأحبة! - قلت وخطر لي - هذا حقل واسع، وقد ذوبنا نعال أحذيتنا بل وأقدامنا أيضاً في هذا الحقل. اعتقدت أنني رأيت - لاسيما في عيني جون - هذا الشرر الساذج الذي كان موجوداً في عيوننا جميعاً يوماً ما بالتأكيد. يوماً ما سوف ينطفئ كذلك عند جون.

في الطريق ناقشتني جودي في رأيها أن هناك شيئاً مشتركاً بين أبناء القتلى اليهود وأبناء الألمان الذين تورطوا في الجريمة أو شهدوا عليها: هو أن آباءهم لم يحدثوهم عن الماضي. اعترضت. هذا موضوع مختلف تماماً. هذان هما النقيضان بعينهما: أن يسكت عن الجريمة، وأن لا يستطيع المرء أن يحكي لأبنائه عن الجرائم والمهانة التي وقعت عليه. لكنهما بقيا على رأيهما بأن هذا الاختلاف الضمني للصمتين يمكن أن ينتجا نماذج متشابهة في العلاقات بين الآباء والأبناء.

مررنا عبر مناطق سكنية فاخرة لم أكن قد زرتها من قبل. توقفنا في شارع جانبي عند منزل ينتمي أهله للطبقة المتوسطة، صعدنا سلماً خارجياً صغيراً ووصلنا إلى شقة كل مصابيحها مضاءة، كانت مفروشة بشكل يجعلها تشبه شقة محام ألماني غربي أو ناظر مدرسة ابتدائية، وكان هناك أشخاص من مختلف الأعمار محشورين في غرفها. صاحبة

الدعوة امرأة شقراء لطيفة في منتصف الخمسين، تقدمت إلينا وقالت بالألمانية: أنا روث. أهلاً بكم. وأضافت بالإنجليزية: I was a hidden child (كنت طفلة مخبّأة).

أثرت فيَّ الجملة. فهمت على الفور ماذا تعني: طفلة تم إخفاؤها عن عيون الألمان. كانت تلك إحدى القصص التي لا تشفع فيها المواساة، والتي سأسمع منها الكثير فيما بعد. عندما أستعيد ذكرى هذا المساء أرى هذا وذاك يتقدم إلي وكأسه في يده ليتحدث معي بصوت خافت. لم أشهد لمحة واحدة لأمل كاذب في عيون هؤلاء الناس بأنه يمكن أن تحدث معجزة فتنسد الهوة التي كانت حياتهم قد أُلقيت إليها، أو أن يخف الألم المستمر على أقل تقدير إذا ما شاركهم أحد في هذا الألم. كلا، ليس أي أحد: امرأة ألمانية. معظمهم لم يكن قد زار ألمانيا من قبل، الأكبر سناً لم يعودوا إليها أبداً. التزمت الصمت. لم يكن هناك ما يمكن قوله، لا شيء يمكن شرحه، ولا شيء يمكن إصلاحه. لا شيء يمكن أن يصير «جيداً».

"What about Germany today?" (ماذا عن ألمانيا اليوم؟)

كان لا بد أن يأتي هذا السؤال. أتذكر أنني كنت أبذل مجهوداً كبيراً - مستجمعة السؤال بداخلي - لأجيب بموضوعية. سقوط الحائط. نعم، حدث تاريخي، لا بد من الاعتراف أنه - قلت مترددة -لم يكن مقصوداً ولا متوقعاً من قبل المتظاهرين. استشهدت ببعض الشعارات على اللافتات التي كانت قد ذوت مع الوقت: إنها نشوة الفترة الانتقالية. لم أرد أن أصدم الموجودين الذين كانوا يتوقعون أنه في ألمانيا المتحدة لا بد أن الجميع يعيش سعيداً. لا، لم يكن هناك شيء مكتوباً عن خيبة الأمل في صحفهم. لا شيء عن الخسائر. بدا لي أن التحدث عن ذلك يعد من التفاهة هنا.

ولكن كان هنا محام يبدو أن لديه موكلين ألمان. كان يعرف أن هناك الآلاف من الملاك السابقين الذين يعيشون منذ زمن في ألمانيا الغربية وكانوا قد تقاضوا بعض التعويضات عن خسائرهم، يطالبون الآن باستعادة بيوتهم وأراضيهم حيث يسكن الألمان الشرقيون منذ عقود، عن قناعة تامة بأنهم اشتروها بشكل قانوني أو يتمتعون قانوناً بحق الانتفاع. هذا صحيح - قلت وكان عليَّ أن أستحضر الجملة الرئيسية إلى داخل اللعبة: إعادة الحقوق قبل التعويضات. استشاط جون غضباً. لا أحد يعرف شيئاً من هذا هنا. تخيلي فقط لو أن ذلك يحدث في بلد آخر! حاولت أن أشرح له أن الملاك السابقين وورثتهم حتى وإن كانوا أصحاب الضمير الأنقى في العالم، فهم يصرون على ادعائهم لأن الاستحواذ على الممتلكات ضمن أسمى قيمهم.

ماذا عنكم؟ - سأل أحدهم - أنتم الألمان الشرقيين؟ قلت إنهم فُطموا عن اعتبار الممتلكات بهذا القدر من التقديس، حتى وإن كانوا قد رفضوا الدولة السابقة، يميل معظم الألمان الشرقيين للاعتقاد: إن الصالح العام يأتي قبل الربح.

قلت لجون بصوت أهدأ، ربما يكمن جوهر الشكوى المتزايدة من انقسام الآراء في هذه العلاقات المتباينة مع الملكيات. قال جون: إن هذا لا يضعكم أنتم فقط في دائرة التساؤل، لا بد أن الألمان الغربيين أيضاً يشعرون أنهم مهددون إزاء طريقتكم في التفكير. ارتأيت هذا جديراً بالمراجعة.

لكن المهم كان بالنسبة إلى ضيوف هذه الليلة شيء مختلف: إنهم يرون ويسمعون عن جرائم اليمينيين ضد اللاجئين خاصة في شرق ألمانيا. هذا ما كان علي أن أفسره لهم. حاولت أن أنقل إليهم باستفاضة وإطناب الظروف التي كانت سبباً في تطور أعمال العنف

تلك. لاحظت أنني لم أستطع إقناع أحد. في نهاية السهرة جاء شاب وشابة إليّ، زوجان - هو ألماني وهي أمريكية يهودية - يحتاجان إلى نصيحة. كانا ينتويان مؤخراً الانتقال إلى ألمانيا، حيث لاحت في الأفق له فرصة وظيفة جيدة ككيميائي. لكنهما يتساءلان الآن إن كان بإمكانهما تحمل مسؤولية الاتيان بطفلهما إلى هذا البلد. أصابني الفزع. هل أنا آتية من بلد همجي لا يجب الإتيان الأطفال إليه؟ قلت لهما إن معلوماتهما أحادية النظرة بشكل كبير، وإنني سأكون سعيدة إذا جاءا. لكنني لم أرغب في إعطائهما نصيحة مباشرة، فتحاشيت ذلك.

اصطحبتني روث إلى المنزل. شعرت أنها أرادت أن تتحدث معي ولم تعرف إن كنت أريد أن أسمع ما لديها: استطاع والد روث الألماني اليهودي صاحب الخبرة المتميزة في اللغة الفرنسية أن يهرب إلى الإلزاس(١) وينتحل شخصية فرنسي. وعندما دخلت القوات الألمانية لم يعد لهم ملاذ. ولإنقاذ الطفلة على الأقل سلموها لأحد أديرة الراهبات، فلم يشك أحد أن تكون الفتاة الشقراء يهودية. بقيت هناك شهوراً طفلةً مخبأة مقطوعة عن أهلها. هكذا بقيتُ - قالت روث أثناء مرورنا على الطريق السريع في المدينة التي لا تنطفئ أنوارها ولا تنام أبداً- هكذا بقيتُ حتى عندما وجد والداي منفذاً للهرب لنا جميعاً واستعادوني ثانية. بقيَتْ هي طفلة مخبأة حتى اليوم. لست متأكدة أن بإمكاني تصور هذا. لكنها توقفت عن توجيه الاتهامات لأمها. لم تعد أيضاً تقول لها إنها - روث نفسها - لم تكن لتتخلى عن طفلتها تحت أي ظرف. أما أنا فالتزمت الصمت.

---

(١) منطقة في شرق فرنسا.

بالطبع- قالت روث وهي تقود سيارتها باتجاه مناطق مألوفة أكثر بالنسبة إليّ - بالطبع كانت تتفهم الوضع المأساوي الذي عانى منه الأبوان في ذلك الوقت. قالت: «عقلي يستوعب كل شيء، أتفهمين؟» لكن في أعماقها لم يبرأ الجرح الذي سببه تخلي والديها عنها أبداً، ليس باستطاعتها أن تنسى أو أن تصفح. الصفح عن والديكِ- قالت روث والدموع تنهمر على وجهها. كانت تتهمهما بدلاً من أن تلعن الألمان الذين فعلوا بهم هذا كلّه. لم يكن ينقص الكثير - كما قالت روث - حتى تُجَنّ في عقلها بسبب هذا العالم الأخرق. قالت إنها لم تستطع الاعتراف بطفلها - بابنها هي - في البداية. لست متأكدة إن كنت أفهم ما تعنيه بذلك. ليس قبل علاج طويل، كان بالمناسبة لدى مهاجرة ألمانية أيضاً صارت صديقتها المقربة إلا أنها توفيت قبل بضعة أعوام، ليس من دون مساعدتها تعلمت كيف تفهم ما يجري بداخلها. والآن تعمل هي نفسها كاختصاصية نفسية.

في شقتي كان الإجراء الأول هو الإمساك بالملف الأحمر. لم أندم على ذلك - كما بدا لي - مثلما ندمت اليوم على أنني لم أتعرف على «ل». رسمت لنفسي صورة دقيقة جداً عن شكلها الخارجي. ملامح وجه جسورة لم يستطع الزمن النيل منها كثيراً، خصل شعر رمادية مشدودة إلى الخلف، القوام متوسط الحجم في أقصى تقدير، لا نحيفة ولا ممتلئة، ودائمة الحركة. ترتدي ملابس كلاسيكية من أقمشة جيدة بألوان غامضة على عكس إيما التي لم تكن تعول كثيراً على مظهرها الخارجي. اضطرت إيما أن تسخر من ولعها بالأزياء في أحد خطاباتها. أسمت ذلك «آثار البرجوازية». لكن «ل» عارضتها في خطاب أرسلته في شهر فبراير ١٩٤٩ - الذي يتزامن مع فترة الإعداد لامتحاناتي في المرحلة الثانوية في بلدة بولاية تورينغن - وسألتها إن

كانت قد نسيت أن سيدها الحبيب يقدر هذا الأسلوب في اختيار الملابس لدى النساء. واستطردت:

«فلماذا لا ألبي له أمراً بسيطاً مثل هذا بينما كانت هناك أشياء أخرى عليَّ أن أعارضه فيها؟ فقد ذهبت مثلاً إلى إسبانيا أثناء الحرب الأهلية مع أن سيدي العزيز كان يعارض هذا بشكل صارم - ليس لاعتقاده أن المعركة ضد فرانكو لم تكن مجدية ولا صحيحة ولا حتمية، إنما فقط لم يكن عليّ أن أعرض نفسي للخطر لأنني - في رأيه - لم أخلق «للمواقف البطولية».

لكنه لم يخاطر بالانفصال عني، فذهبت إلى إسبانيا كمراسلة. وقد قرأ بالطبع مقالاتي بنهم واعتنى بجمعها. لاحظت لاحقاً أنه ضمّنها في تأملاته حول مصادر الوحشية في ثقافتنا، وهو الموضوع الذي كان مستحوذاً عليه، والذي هوى به أكثر فأكثر إلى اليأس الذي لم أرغب ولم أستطع أن أشاركه فيه.

لقد عشنا بالمناسبة في بؤس شديد في باريس، حالنا حال معظم المهاجرين، وكان سيدي يعيش - كما عاش لاحقاً أيضاً في كثير من الأحيان - من عمل زوجته التي حصلت على وظيفة عاملة نظافة لدى عائلة فرنسية ثرية، قامت بتدريس اللغة الألمانية لأبنائها أيضاً. كانت دورا امرأة رائعة، لم تتبدل قناعتها ولو للحظة على مدار هذه الأعوام كلّها بأن من واجبها أن تبقي على حياة هذا الرجل. كما أنها لم تبد أي أثر لأبسط مشاعر الغيرة تجاه علاقتنا. إن سيدي الحبيب متعلق جداً بدورا ولا يمكن أن يتركها يوماً وأنا لا أتوقع منه هذا أبداً.

كان هذا أحد أطول الخطابات التي كتبتها «ل» لإيما بخط الآلة الكاتبة الباهت على ورق أبيض من القطع الأمريكي، كان أكثر اضطراباً - على ما بدا لي - من كثير من خطاباتها الأخرى. لم تكن تلك المرة الأولى التي أحاول فيها وأنا جالسة إلى المائدة الطويلة في شقتي الكاليفورنية أن أقرأ بين سطور تلك السيدة، حاولت أن أستنبط من بينها مشاعر الأسى وإنكار الذات والاستعداد الدائم للتنازل التي يبدو أن الحب قد فرضها عليها. ثم حاولت أن أتخيل فحوى النقاشات المستمرة التي دارت بينها وبين «سيدها الحبيب» على مدى العقود.

وأنا؟ ألم أكن أنا - بينما لم أكد أتم عامي العشرين - متأكدة من قناعات كنت قد استقيتها لتوي من بعض الأعمال الكلاسيكية؟ بالطبع كان لا بد أن تدور حول فكرة: **الثورة**. كانت الثورة هي الخلاص الوحيد للبشرية. مدرس الرياضيات والفيزياء في مدرستكم، النازح من الشرق، المبعد مثلك إلى البلدة الصغيرة في ولاية تورينغن، الرجل شديد الذكاء، الغامض بعض الشيء، مما يجعله أكثر فتنة بالنسبة إليك، والذي كان يتميز تماماً عن بقية هيئة التدريس، كان قد أشار عليك بهذه الكتابات الثورية، وأضاف ملاحظة لا تخلو من المتعة، ستوضح لك أن العالم لا يجب التوقف عند تفسيره فحسب وإنما لا بد أن يتم تغييره من الأساس، ثم أخذ على عاتقه مسؤولية رعايتك حين قررت الانضمام إلى الحزب الذي تضمن برنامجه هذا التغيير بالتحديد. ولجعل هذه القصة قصة نموذجية من العهد الماضي: يفترض أنه لاحقاً اتضح أن هذا المدرس الذي ترقى مع الوقت إلى منصب ناظر المدرسة بناءً على قدراته التي لا يختلف عليها اثنان كان يعمل في وزارة غوبلز، وقد أخفى ذلك بأن قلل من شأن نفسه حتى تم إبعاده إلى مدرسة قروية صغيرة. لكنك - رغم تأثرك الشديد بهذا الخبر - لم تشكي ولو للحظة

واحدة أنه خدعكم. . أنه خدعك أنت بأن لم يكن هو نفسه مؤمناً بالأفكار التي أوصاكِ بها أو أنه كان مثلاً مؤمناً بأفكار مخدومه السابق الجنونية. كنت تظنين أنه أذكى من ذلك بكثير.

تصفحت مذكرات توماس مان، وجدت الملاحظات التي كنت أبحث عنها والمؤرخة في ٣١ مارس ١٩٤٩، تاريخ قريب من تاريخ خطاب «ل»: *عصراً كان خطاب تشرشل الذي استمر ساعة في بوسطن، تملق فظ لروح التضحية الأمريكية، تمجيد للحرب الباردة، تحريض مبتذل ضد الروس، شيء مكئب في مجمله وإن بدا كما يجب أن يكون بالضبط.*

تساءلت إن كنت قد سمعت مصطلح «الحرب الباردة» من قبل في ربيع ١٩٤٩، لم أستطع أن أتذكر. كنت تجلسين ليلاً في غرفتك تحت في الطابق السفلي تحت الأرض، والتي كانت نافذتها تسمح لك برؤية برج كنيسة البلدة المائل والسماء المرصعة عن آخرها بالنجوم، وكنت منهمكة في مقال من أجل إحدى المسابقات: «الثورة - ضرورة أم رفاهية تاريخية؟» ناديت بفكرة «الضرورة»، فزت بجائزة وسُمح لك ضمن برنامج أيام غوته للشباب بالذهاب إلى فايمار حيث رأيت لوثر موتل(١) في دور مفستوفيليس(٢) وسمعت

---

(١) **لوثر ماكس موتل** (١٨٩٦-١٩٦٤): ممثل ومخرج مسرحي وسينمائي ولد في برلين ودرس التمثيل في معهد ماكس راينهارد. بعد انضمام النمسا إلى ألمانيا النازية تقلد موتل منصب مدير مسرح «بورج تياتر» في فيينا، وقد أخرج مسرحية «تاجر البندقية» ١٩٤٣ حيث قام الممثل فيرنر كراوس بدور شيلوك. وقد بقي موتل في هذا المنصب حتى سقوط النظام النازي ١٩٤٥.

(٢) **مفستوفيليس**: شخصية الشيطان في مسرحية يوهان فولفغانغ غوته الشهيرة «فاوست» المأخوذة عن الحكاية الألمانية الشعبية عن الساحر والخيميائي =

غروتول[1] رئيس الوزراء لاحقاً يتفوه بشعار: *إن عليك أن ترتقي أو تسقط/ تتعذب أو تنتصر/ أن تكون السندان أو المطرقة.*

ينّا. الجامعة العريقة التي استطعتم أن تشهدوا في قاعات محاضراتها على الطرق التي قد يكون غوته وشيللر قد سلكاها معاً. من الأبنية الفكرية لهذين الرائدين أمسك أساتذتكم بالخيط الذي امتد حتى وصل إليكم: التقدمية والرجعية وقفتا دائماً متواجهتين

= الألماني الدكتور **يوهان جورج فاوست** الذي يُبرم عقداً مع الشيطان. وتدور قصة فاوست في شكلها الأساسي حول سعيه إلى اكتشاف الجوهر الحقيقي للحياة، ما يقوده إلى استدعاء الشيطان ويمثله مفستوفيليس ليبرم معه عقداً يقضي بأن يقوم بخدمته طوال حياته ليستولي على روحه بعد مماته، لكن الاستيلاء على روح فاوست مشروط ببلوغه قمة السعادة.

(١) **أوتو غروتول** (١٨٩٤-١٩٦٤): هو أحد رجالات ألمانيا الشرقية، والرئيس الأول لألمانيا الشرقية. ولد في براونشفايغ وعمل في مطبعة ثم انضم إلى الحزب الديمقراطي الاجتماعي الألماني سنة ١٩١٢. خدم في الجيش الألماني خلال الحرب العالمية الثانية. بعد ذلك كان عضواً لفترة قصيرة في الحزب الاشتراكي الديمقراطي المستقل (USPD)، لكن سرعان ما عاد إلى الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني، ثم أصبح عضواً في البرلمان في براونشفايغ في الفترة ما بين ١٩٢٠ - ١٩٢٥، وفي الفترة ما بين ١٩٢١ - ١٩٢٣ عمل وزيرًا للداخلية والتعليم والعدل في براونشفايغ. وفي الفترة ما بين ١٩٢٥ - ١٩٣٣ كان عضوا في الرايخستاغ، بعد ذلك تحوّل إلى رجل أعمال مستقل. في سنة ١٩٤٦م كان رئيس الحزب الاجتماعي الديمقراطي الألماني (SPD)، وقد عَقد في أراضي الاتحاد السوفياتي تحالفاً بين حزبه والحزب الشيوعي الألماني (KPD) مما أدى إلى إنشاء حزب الوحدة الاشتراكي الألماني والذي تحول إلى الحزب الحاكم، ومع مرور السنوات تم تأسيس جمهورية ألمانيا الديمقراطية. في ١٢ أكتوبر وبعد خمسة أيام من إعلان تأسيس جمهورية ألمانيا الشرقية في ٧ أكتوبر عام ١٩٤٩ تم تعيينه كأول وزير لحكومة الدولة الجديدة، حيث بقي في منصبه هذا حتى وفاته.

ومتصارعتين. ترين نفسك تجلسين في قاعة المحاضرات في المربع مع الآخرين حول الطاولة المطوقة بجدران من الكتب، تسمعين المحاضر الصغير يتحدث بحماس عن جورج لوكاش[١] الذي كانت نظرياته جلية بالنسبة إليكما، كانت تدور حول الواقعية، وكيف كانت لتكون غير ذلك؟ بحماس تشربتما أطروحاته ولم يكن بإمكانكما أن تتصورا كيف يمكن الحكم على الأدب سوى هكذا.

في تلك الليالي قرأتما كتاب ريمارك[٢] «قوس النصر» - الأول

---

(١) **جورج لوكاش** (١٨٨٥-١٩٧١): فيلسوف وكاتب وناقد أدبي مجري ماركسي ولد في بودابست عاصمة المجر. يعده معظم الدارسين مؤسس الماركسية الغربية (في مقابل فلسفة الاتحاد السوفياتي) أسهم بأفكاره «التشيؤ» و«الوعي الطبقي» في الفلسفة الماركسية والنظرية الماركسية، وكان نقده الأدبي مؤثراً في «الواقعية» وفي الرواية باعتبارها نوعاً أدبياً. خدم لفترة وجيزة كوزير للثقافة في هنغاريا بعد ثورة ١٩٥٦ على الرئيس راكوشي.

(٢) **إريك ماريا ريمارك** (١٨٩٨-١٩٧٠) وهو مؤلف ألماني، اشتهر بروايته «كل شيء هادئ في الميدان الغربي». ولد أريك ماريا ريمارك في أوستنابروك لعائلة من الشرائح الدنيا للطبقة الوسطى. أجبر عام ١٩١٦ على الخدمة العسكرية في الجيش الألماني للمشاركة في الحرب العالمية الأولى، أصيب فيها بجروح بالغة. وبعد عشر سنوات من انتهاء الحرب، أصدر روايته بالألمانية والتي ترجمت إلى العربية تحت عنوان «كلّ شيء هادئ على الجبهة الغربية»، وهي تدور حول معايشة الجنود الألمان العاديين للحرب. وقد حطم ريمارك الأساليب التقليدية لكتابة روايات الحرب، وأصبحت روايته عالمية وصورت عام ١٩٣٠ كفيلم ناجح تحت عنوان الرواية نفسه.
بعد وصول هتلر إلى السلطة عام ١٩٣٠ في ألمانيا، هاجم النظام النازي رواية «كل شيء هادئ على الجبهة الغربية» متهماً إياها باللاوطنية. وخشية الانتقام لم يبدِ ريمارك أية مقاومة على اعتداءات النظام النازي، وقام بطبع كتاب آخر عام ١٩٣١ باسم «طريق العودة» يصف معاناة المدنيين الألمان من آثار الحرب بعد انتهائها. وعلى إثر نشر الكتاب المذكور الذي اعتبره النظام =

بين مئات الكتب التي كنتما قد قرأتماها معاً في تلك الأثناء - كنتما قد استعرتماه لبضعة أيام فقط فالتهمتماه، ونسيتما أن تصنفاه، هل كان تقدمياً أم لم يكن شديد الرجعية؟ كنا في عز الشتاء، في وقت متأخر من المساء مشيتما عبر الشوارع المتجمدة خافتة الإنارة فوق جسر «زاله»[1] حيث صفرت الرياح في وجهيكما والقمر فوق سلسلة التلال أمامكما، لم تكادا تقابلان بشراً، تحدثتما عن ريمارك.

جلست في شقتي في فندق ميس فيكتوريا. عُرض في التلفاز فيلم عن امرأتين رائعتين كرّستا حياتيهما لإجراء الأبحاث عن الشامبانزي والغوريلا. تابعت بشغف محاولاتهما الدؤوبة للتقرب من مجموعة من

= النازي تحدياً له ومثيراً للمعارضة ضده، هرب ريمارك إلى سويسرا مع زوجته غوتا زامبونا عام ١٩٣٢. أصدر النظام النازي عام ١٩٣٢ قراراً بمنع روايتي ريمارك وقام بحرق نسخهما حيثما وقعت عليها عيون النظام وجلاوزته. رحل عام ١٩٣٩ إلى الولايات المتحدة مثل معظم المثقفين الألمان الهاربين من النازية، وحصل على الجنسية الأمريكية عام ١٩٤٧. وأثناء الحرب العالمية الثانية قتل النظام النازي شقيقته لاتصالها بشقيقها. وقد ألهمه عشقه للممثلة مارلين ديتريخ وهيامه بها إلى كتابة روايته «قوس النصر». وتزوج عام ١٩٥٨ نجمة سينمائية أخرى وهي باوليت جوددارد، فانتقلا إلى بورتو رانكو بسويسرا حيث مات ريمارك في ٢٥ سبتمبر عام ١٩٧٠. (المصدر: حميد كشكولي: رواية - كلّ شيء هادئ على الجبهة الغربية - وأجيالنا المحترقة في نيران الحروب الاجرامية، الحوار المتمدن، العدد: ٣٨٨٠، ١٤/١٠/٢٠١٢).

في منفاه الأمريكي كتب ريمارك رواية أخرى حققت نجاحاً عالمياً بعنوان «قوس النصر» (Arc de Triomphe) ١٩٤٦، تحدث فيها بأسلوب مثير عن مصير هاربين ألمان من وجه النازية في باريس قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية. (المصدر: الموسوعة العربية).

(١) الفرع الغربي لنهر الإلبه.

القردة. قادتني خاطرة أخرى إلى قاعة محاضرات أخرى حيث حدثتكم منذ أربعين عاماً محاضرتكم الشيوعية اليهودية التي اضطرت لمغادرة ألمانيا في الثلاثينيات ثم جاءت إليكم هناك واشتغلت معكم على دراسة ما يسمى بحركة العاصفة والاندفاع[1]، بمنتهى الحيوية وبمنتهى الإقناع حتى أنني لم أنسها أبداً. حركة برجوازية مبكرة مناهضة للإقطاع. كنتم تشعرون بالتماهي مع أولئك الشباب الذين رفضوا بطش قيود الملكية المطلقة. كانت شعاراتهم: الطبيعة! الحرية! قاوموا الرقابة بالحيلة. فقد وضع غوته مثلاً «بروميثيوس»[2] ضمن ديوان شعر كامل، بحيث يمكن في حال اعترضت الرقابة استبعاد هذه القصيدة من دون المساس بالكتاب كله. *إنني لا أعرف ما هو أفقر منكم تحت الشمس أيتها الآلهة*. آهٍ.. هذا الملحد، آهٍ.. عدو الأمراء، كان غوته

(١) العاصفة والاندفاع **Sturm und Drang** هي حركة أدبية تمتد من عام ١٧٦٧ إلى عام ١٧٨٥. وأخذت هذه التسمية من اسم مسرحية فريدريش ماكسيميليان فون كلنجر. ويتميز عصر العاصفة والاندفاع بتمجيده للعاطفة البشرية الجارفة والقلب المتأجج بالشعور. ولم تولِ الحركة أي اهتمام بالعقل الذي كان سائداً في عصر التنوير الذي سبقها. ومن الأعمال الأدبية التي كتبت في ذلك العصر رواية غوته «آلام الشاب فرتر».

(٢) بروميثيوس: هي قصيدة للأديب الألماني يوهان فولفغانغ فون غوته و«بروميثيوس» هو أحد الجبابرة في الميثولوجيا الإغريقية وهو في قصيدة غوته يوجه حديثه للإله زيوس بنبرة اتهام وتحدٍّ بأسلوب رومانسي. كتبت القصيدة ما بين عامي ١٧٧٢ و١٧٧٤ إلا أنها لم تنشر إلا بعد خمسة عشر عاماً أي في ١٧٨٩. وترجع أهميتها إلى أنها تعد أول القصائد التي تربط بين الميثولوجيا الإغريقية والحركة الشعرية الرومانسية التي يمثلها غوته وحركة العاصفة والاندفاع. إذ كان بروموثيوس يمثل روحاً متمردة مبدعة منبوذة من الإله لكنها لا تتوانى عن أن تتحداه.

لكم، وسوف تزهر براعم أحلامكم.[1] نعم - قالت أستاذتكم التي كنت تبجّلينها - ربما لم يكن صاحبنا غوته ثورياً لكنه - وهو ما يقوله هو نفسه - ظل دائماً يمس طرف العصا بهدوء. أما أنتم في عصركم التقدمي فقد أمسكتم بالعصا بكلتا يديكم وما كنتم لتتركوها أبداً. تلك المحاضرة التي فتحت عيونكم على أن قصيدة الحب الأكثر رقة ما زالت مجرد غزل داخل النسيج الاجتماعي، هي نفسها التي حثت طلابها بعد ذلك بثلاثين عام - بعد أن تقدمت في السن وانتقلت للتدريس في مدينة أخرى - بكتابة توصية تم اتهامكِ فيها بإخضاع للأيديولوجية. لم يهن عليك ذلك الأمر مثلما هانت بعض الأمور الأخرى.

الباحثتان اللتان جابتا أنحاء الأرض لدراسة سلوك قردة الشامبانزي والغوريلا تألفهما مجموعات القردة بعد فترة طويلة بالفعل لدرجة أنها تسمح لهما بالاقتراب منها بشدة من دون أن تصدر عنها ردود فعل معاكسة بالهرب أو استخدام العنف، وقد جلست أتابعهما بتعاطف بل ربما بشيء من الغيرة.

في خاطرة أخرى كانت تدور في رأسي بلا توقف، ظهر أمامي معرض «مجتمع وثقافة عصر غوته» الذي أقيم في قصر فايمار والذي كنت ترافقين بعض المجموعات التي تأتي لزيارته أثناء العطلة الصيفية. رأيتكم جالسين في وسط التجمع، وسمعت المتحدث الذي قال إن صراع الطبقات آخذ في الاحتدام وإن عليكم أن تعدوا أنفسكم

(١) تعبير مقتبس من قصيدة «بروميثيوس» لغوته. يقول مخاطباً زيوس: «أتظن مثلاً / أنني سوف أكره الحياة / وأهرب إلى الصحاري / لأن براعم الأحلام / لم تزهر كلها؟»

للمواقف الحرجة. قال: بقدر ما كنا نكره الحرب فإن المسالمة في هذه الأيام تحديداً تعد بمثابة عمل انتحاري. إن استعدادكم للدفاع عن الجمهورية يجب ألا يبقى محصوراً في القول. ملخص الكلام باختصار: عليكم أن تتعلموا الرماية. فجأة خيم الصمت على المكان.

في الليل صعدت الجبل مع إحدى الرفيقات إلى بيت نيتشه الذي كنتما تسكنان فيه. قالت: لم أكن أرغب أبداً في حمل السلاح - بينما تجلت أمام عينيك تلال الأسلحة التي ألقى بها جنود القوات المسلحة الألمانية المهزومون في أبريل ١٩٤٥ في الخنادق التي مررتم بها أثناء رحلة هربكم. أنتم لم تلمسوا أياً من الأسلحة أما المعتقلون الذين كان يتم اقتيادهم في مسيرات الموت من المعتقلات عبر الشوارع نفسها تقريباً باتجاه الشمال، فهؤلاء استولوا على بعض الأسلحة التي استطاعوا بالكاد حملها من شدة الإعياء واتخذوا مواقعهم على المضيق الجبلي الذي كنتم قادمين عبره.

قلتِ لقائد المجموعة: إن لدي طفلاً. قال لك: أعرف ذلك، فكري جيداً إن كنت تريدين الدفاع عنه. اتصلتِ بأمك، كنت بحاجة إلى سماع صوت طفلك الذي لم يكن يجيد الكلام بعد. بالكاد استطعت أن تنامي ليلاً. في اليوم التالي قلتم كلكم للقائد: نعم، إنكم سوف تشاركون في تدريبات إطلاق النار. لا أتذكر أنه تم مطالبتكم بذلك أبداً. كان ذلك في عام ١٩٥٣ . كنت تبلغين من العمر أربعة وعشرين عاماً.

تأثرت جداً بإيماءات القردة الأقرب للإنسانية، وتابعت مفتونة على الشاشة كيف كانت «ميليسا» -أنثى القرد الوحيدة تلك ومعها طفلها - أن تلحق بالمجموعة، وكيف أدت ببراعة إيماءات الخضوع والاستكانة التي - كما خطر لي - نعرفها نحن بشكل خاص جيداً،

وكيف ربتت بحذر على كتف كبير القردة الأكبر سناً بعد أن جلسا إلى بعضهما في صمت لبعض الوقت، وأمسكت بيده في النهاية وقربتها من ثغرها وقبلتها، ثم كيف حاولت بمنتهى الدأب استرضاء مجموعة النساء حتى استطاعت - ويا لارتياحي وتأثري - أن تنضم وابنها على حجرها إلى المجموعة بسلام.

اتصلت ببيتر غوتمان، كان لا بد أن أسأله إن كان يعرف أن القردة تستطيع التقبيل، لكنه أجاب بأنه لم يكن يعرف ذلك. لكن ما كان يعرفه هو أنه كاد ينسى التقبيل مع الوقت تدريجياً. أم أنني كنت أظن أن التقبيل عبر الهاتف يمكن أن يعوض القبل الحقيقية؟! كلا، قلت له إنني بالطبع لا أظن ذلك، وقد سعد بيتر غوتمان أننا كنا متفقين على هذا. قال: الحياة البديلة. أعتقد أنه يجب أن يتم إرغامنا جميعاً عليها. بدائل لكل شيء حتى أكثر مظاهر حياتنا حميمية.

أيها السيد - صحتُ - مهلاً، لا تزايدوا على أنفسكم. أم أنكم تعنون أنه على الطريق الطويل من القردة إلى الإنسان المعاصر قد فُقِدَ الأصل؟ أصل الحياة؟ الحب؟

يمكن للمرء أن يظن ذلك أحياناً، قال بيتر غوتمان. فمثلاً: من يضمن لي أنني أستطيع أن أفعل شيئاً مع تلك المرأة الرائعة التي أتمشى معها ساعات طويلة على شاطئ المحيط وأهاتفها بلهفة، إذا صارت متاحة لي فجأة؟ ألا يمكن أن أكون فقط بحاجة إلى هذا الموقف السخيف، وهذا الألم السخيف بسبب عدم تمكننا من الارتباط لكي أبقيها بعيدة عني؟ هكذا مثلما أحتاج إلى وهم الكمال ليعطلني عن إتمام كتابي عن فيلسوفي.

تلك مسألة معقدة جداً يا سيدي - قلت له - ثم خطر لي: ما هذا الذي نناقشه؟

معقدة؟ تنهد بيتر غوتمان ثم صدق على كلامي. قال: وإلا فلم أكن لأتحدث عن ذلك. فسألت: لماذا معي؟

لأنك أنت نفسك تعيسة وتفهمين معنى التعاسة.

تعيسة؟ أنا؟ لكن لم تَظن هذا؟ أنا لم أقل لك أي شيء عن ذلك.

بالضبط - قال بيتر غوتمان. هل لديك شيء نشربه هنا؟ حسناً، تصبحين على خير.

أطفأت التلفاز ثم المصباح أيضاً، جلست في الظلام وسمعت صوت أنفاس فندق ميس فيكتوريا. بعد وقت طويل دخلت إلى المطبخ وأحضرت لنفسي كأس مارغاريتا أخرى، أخذتها معي ووضعتها على اللوح الضيق بجوار الهاتف، وفرت على نفسي حساب فارق التوقيت لأنني لم أكن أكثر حاجة الآن من أن أسمع هذا الصوت. إذن طلبت الرقم البرليني المعتاد. بالطبع لم يسمع الطرف الآخر الهاتف على الفور فقد كان نائماً، تركت الجرس يرن طويلاً حتى سمعت صوته الغارق في النعاس يقول «مرحباً؟». كان عليّ أن أعاتبه لأن عليه أن يتعلم أن يرد باسمه، وسألني هو إن كنت أعرف كم الساعة لديه، فقلت كلا لم أكن أعرف. قال: الخامسة والنصف فجراً. فقلت: حسناً أود أن أذهب إلى النوم الآن. التزمنا الصمت، وهدر المحيط، ثم سألني: هل حدث شيء؟ قلت: لا. ماذا يمكن أن يحدث؟ هل تسمع المحيط يهدر؟ هل تعرف أن فندق ميس فيكتوريا يتنفس ليلاً ويتمايل كالسفينة فوق الأمواج؟ قال: لم أكن أعرف. لكن أبلغي سلامي لصاحبك ميس فيكتوريا، فليهتمّ بكِ. سألته: هل تظن أن ذلك سيكون ضرورياً؟ فقال: من يدري. قلت: حقاً، لا أحد يدري. أنهينا المكالمة. تحسنت حالي.

استيقظت في وقت متأخر، فقد كنا في عطلة نهاية الأسبوع،

أعددت لنفسي إفطاراً متكاملاً، وماذا غنيت أثناء ذلك من دون قصد؟ كنت قد تعلمت أن أنتبه لذلك، غنيت: «*كان لي رفيق*» - نسخة الألوية المشتركة في الحرب الأهلية الإسبانية بعد أن سقط هانس بايملر[(١)] - «*جاءت رصاصة مسرعة، جاءت من ألمانيا، كانت الريح مواتية، والحبة لم تخيّب، بندقية ألمانية على حق*». في الماضي كانت عيني تدمع لهذا النص، كان ذلك في زمن السذاجة حين كان المرء لا يزال يؤمن بالخرافات. قال لي صديق إسباني - كان هو نفسه محارباً في إسبانيا، وقد استطاع مؤخراً الحصول على أرشيفات عسكرية سرية إسبانية - إن الرواية المذكورة في كتبنا التاريخية عن موت تود هانس بايملر لا يمكن أن تكون صحيحة. «*فلتسعد البلاد التي لا تحتاج إلى أبطال*». بالمناسبة خطر لي أنه لم تعد توجد منذ أيام إسبانيا أي أغنية جديدة في الحركة الشيوعية الألمانية. فقد تم فصل روحها عن الجسد بآلات حادة، لم يكن هذا الألم ليغنَّى. لفترة طويلة كان المطلوب عدم الشعور به أصلاً. تم إدخال أغانٍ بديلة بشكل مصطنع واعتمادها باعتبارها الأغاني الرسمية، لكنها لم تقوَ على البقاء عبر الزمن. تساءلت: لِمَ يجب أن تعيش الأغاني أطول من الإنسان الذي غناها؟

---

(١) **هانس بايملر (١٨٩٥-١٩٣٦)**: عضو ناشط في الحزب الشيوعي الألماني ونائب في مجلس نواب دولة فايمار. خدم في الجيش الألماني أثناء الحرب العالمية الأولى، وصار بعد ذلك مناهضاً شرساً للنازية، فتم اعتقاله عام ١٩٣٣ حيث سُجِن في معتقل داخاو، ثم استطاع الهرب. تطوع بعد ذلك في الألوية الدولية المشتركة وشارك مع القوات دعماً للجمهورية الإسبانية أثناء الحرب الأهلية الإسبانية وأسهم في الدفاع عن مدريد ضد القوميين في موقعة مدريد نوفمبر ١٩٣٦ حيث قتل أثناء هذه المعركة.

«*سماء إسبانيا فرشت نجومها فوق خنادقنا*»[1]. كنا نغني أغاني الأولين، كنا نغني أغنية جنود الوحل: «*حيثما نظرت العين، الوحل والأراضي القفرة تطوقنا*». لكننا كنا أيضاً نغني أغنية «تيلمان» الجديدة: «*تيلمان وتيلمان قبل كل شيء، ابن ألمانيا الذي لا يموت*»، كما غنينا في اللقاء العالمي للشباب: «*في أغسطس تزهر الورود*». لكن ظل شيء ينقص تلك الأغاني، توقفنا عن غنائها، لم تكن لائقة.

إذن ماذا كان بي؟ قلت لنفسي: يجب أن أستجمع ذاتي، يجب ألا أقضي حياتي اليومية غارقة في أعماقي هكذا. في سوق الخضروات الرائع في شارع سكوند ستريت نسيت أن آخذ مشترياتي اليوم مرتين لدى بائعين مختلفين اضطرا للهرولة بالأكياس ورائي. ثم اختفت فجأة عربة التسوق التي لا أستطيع التخلي عنها، الآن حدث ذلك بالفعل، خطر لي أنهم الآن سلبوني عربتي الصغيرة ومعها سترتي الجلدية، لكنها كانت بعد ذلك واقفة في سلام أمامي، انحشر المارة عند المرور من جانبها. فكرت إنني متغيبة تماماً. حين ذهبت إلى المكتب ظهراً استمررت في السير رغم الإشارة الحمراء في التقاطع. اضطرت إحدى السيارات للفرملة. كانت توجد في صندوق بريدي حزمة من قصاصات الجرائد، مرسلة بالفاكس من برلين. وضعت

(١) أغنية ألّف موسيقاها بول ديسو (تحت اسم مستعار هو بيتر دانييل) وكتبت نصها زوجته جودرون كابيش (أيضاً تحت اسم مستعار هو بول إيرنست) أثناء الحرب الأهلية الإسبانية (١٩٣٦-١٩٣٩). اتخذت الأغنية شهرة خاصة حين قدمت في نسخة إرنست بوش في المعسكرات اليسارية وذاعت شهرتها على مدى عقود وغناها آخرون من بينهم هانّيس فادر وغيورغ دانتزر، كما تم ضمها إلى تراث أغاني الجيش الوطني وتم تدريسها في المدارس في حصص الموسيقى في الجمهورية الألمانية الديمقراطية.

الأوراق في ملف، حشرته في حقيبتي من دون حتى أن ألقي عليه نظرة. لم يكن مزاجي صافياً له.

عبرت الطريق إلى فندق ميس فيكتوريا، جلست في شقتي إلى آلتي الكاتبة وكتبت شيئاً كان مدهشاً لي شخصياً:

في مدينة الملائكة يتم تجريدي من جلدي. يريدون معرفة ما تحته فيجدون المعتاد عند أي إنسان: عضلات وأوتار وعظام وشرايين. دم وقلب ومعدة وكبد وطحال. يخيب أملهم. كانوا يتوقعون أحشاء وحش.

حسناً - سمعت نفسي أقول لنفسي - لا تتورطي. تركت الجمل مكتوبةً كما هي.

اتصلت ببيتر غوتمان. سألته: كيف وصل الأمر إلى حد أن حضارتنا صارت تنتج وحوشاً؟

الحياة الموقوفة - قال - ماذا غير الحياة الموقوفة؟

لا أعرف - قلت له - ألا يمكن أن نكون في الأصل وحوشاً؟

قال بيتر غوتمان: تهب عاصفة من الجنة. تدفع ملاك التاريخ المحلق إلى الخلف قُدُماً. لكنها لا تصنع منه وحشاً.

قلت: لكن ليس له عينان في الخلف.

ليس هذا - قال بيتر غوتمان - كذلك الأمر بالضبط: إنه أعمى.

قلت: أعمى عن التاريخ.

أعمى عن الفزع إذا سمحت يا سيدتي.

شكراً جزيلاً - قلت وأنهيت المكالمة. كنت أظن أن العمى عن

الفزع يعني تمني الإنسانية، فمن يستطيع أن يعيش حاملاً معه كل أشكال الفزع إلى الحاضر. خطر لي أنه لا بد أن يوجد شيء طارد للخوف. أتذكر كم كان عليك أن تتخيلي باستمرار مشهد غرق الابن الأصغر لمربيتكم الذي انتهى به الحال تحت مركب نقل صغير حين كان يسبح في نهر فارتا[1]، وكيف كان على الأم أن تراقب عملية انتشال ابنها الشاب من الماء، وكنت تسألين نفسك كيف ستستطيع أن تتعايش مع ذلك. كما أنني تذكرت، أنك - أنت الطفلة وقتها - سألت نفسك كيف سيكون عليك تحمل هذا الخوف من التعاسة ومن المجهول والألم الخاص طيلة حياتك، لكنك وقتها لم تعلمي بعد ولم تكوني لتتصوري أنه من الممكن أن يطوِّرَ المرء من دون علم أو إرادة حيلاً دفاعية لمواجهة مشاعر التعاطف المدمرة للذات.

تعالى في نفسي وقع بضعة سطور من القصيدة القديمة التي بقيت مدة طويلة على رأس الأوراق في درج مكتبي لأنني كنت أحتاج إليها كل يوم، والتي كنت أحفظها عن ظهر قلب والآن نسيتها، لكنني تذكرت تلك السطور: *تقبّل هلاكك، واهجر كل شيء غير آسف*.

هذا الأحد العقيم في شقتك. الأمطار تهطل. التلفاز. واعظ ذو ملابس ملونة وعادات خيالية على مذبح إحدى كبرى القاعات الكنسية تحوي مئات من البشر، وبجانبه الجنرال شوارزكوف[2]. بصوت

(١) **فارتا**: هو نهر يقع في وسط غرب بولندا وهو فرع من نهر الأودر يبلغ طول النهر ٨٠٢ كلم ويعتبر ثالث أطول نهر في بولندا.

(٢) **هربرت نورمان شوارزكوف** (١٩٣٤-٢٠١٢): جنرال متقاعد في الجيش الأمريكي خدم بين عامي ١٩٥٦ و١٩٩١، ولد في ترنتون - نيوجرسي، في الولايات المتحدة الأميركية، كان قائد تحالف قوات الهجوم البرية والبحرية والجوية ضد العراق خلال حرب الخليج الثانية عام ١٩٩١ التي عرفت =

رخيم قرأ الواعظ الشهير على الجنرال الرسالة التي كان قد كتبها لعائلته في بداية حرب الخليج. اختلجت الدموع في عيون الرجلين. ماذا تغير في بلادنا منذ ذلك الحين؟ سأل الواعظُ الجنرال. فقال إن بعض الناس ما زالوا يكتبون إليه ليشكروه على ما قدمه للبلاد. واستطرد: ربما كان نجاحنا أكبر من اللازم. انهارت الشيوعية. قال إن «القائد المهيب» الرئيس بوش قد اتخذ القرارات الصحيحة. المفترض أنه يعمل في الحملة الانتخابية لبوش.

طبول ودفوف. هبّ الجميع في القاعة وقوفاً مؤدين التحية للجنرال. وجوه منهمكة ومتحمسة. صلى الواعظ بصوت جهوري: "God, give us men. What we need are leaders. Strong minds, great hearts, true faces who will not lie." (يـــا رب، امنحنا الرجال. ما نحتاج إليه هو الزعماء. عقول ثاقبة وقلوب كبيرة، وجوه صادقة لا تكذب أبداً). -"Yeah"! صاحت مئات الأصوات في القاعة. دعاهم واعظهم للتثبت من أنفسهم بحرص أثناء الصلاة قبل أن يدلوا بأصواتهم الأحد المقبل. "Yeah"!

قبل أن تبدأ حرب الخليج - خطر ببالي الآن - اتخذت إجراءً علنياً أخيراً: كتبت نصاً إلى منظمة الأمم المتحدة لحثها على عمل ما بوسعها لاعتماد التوصية الفرنسية بتأجيل شن الحرب على منطقة الخليج. وقد أوصلت هذا النص عبر الهاتف والفاكس إلى الكثير من معارفك، طلبت منهم التوقيع عليه، وأرسلت الوثيقة عند استلامها إلى

= بعاصفة الصحراء. والده، هربرت شوارزكوف، كان رجل أمنٍ عسكري أيضاً، تسلّم قيادة شرطة نيوجرسي ومن بعدها ولّي عام ١٩٤٦ تنظيم القوات الأمنية الإيرانية.

الأمم المتحدة - بينما يحمر وجهي خجلاً الآن حين أفكر في ذلك - فقد كنت جالسة بعد بضعة أيام حوالي الساعة الرابعة فجراً أمام التلفاز، فرأيت القوات الأمريكية تهبط على ساحل الخليج حيث استقبلتها الكاميرات التلفزيونية المستأجرة، فانهمرت الدموع على وجهك لأنه كان عليك تصور ذلك العداء الذي لا مفر منه من قبل العالم العربي تجاه الغرب بسبب شهادات زور، كما نعلم اليوم.

- كيف حالك؟ اتصلت سالي. قالت إنها تركت عملها في مؤسسة الأحداث وأنهت دورة إعداد لاستكمال دراستها. أي دراسة؟

- العمارة. تصميم الديكور.

قلت: يا للعجب، وأنا التي طالما فكرت فيك كراقصة موهوبة.

كنت أراها أمامي، كما ما زلت أراها أمامي اليوم كما تعرفت عليها في السبعينيات في المدينة الجامعية الصغيرة بولاية أوهايو. كم كانت صغيرة في السن، كم كانت ممشوقة ومتناسقة، كم كانت سعيدة حين تم إذاعة عرض لفريق الرقص التي كانت عضوة فيه. رأيت.. بل أرى رأسها الصغير كرأس العصفور وشعرها القصير قصر عيدان الكبريت، كم تحركت بخفة وفن، كم كان رون مغروماً بها، كان الجميع يتطلع إليهما حين كانا يسيران وأرغفة الخبز تحت ذراعيهما وهما خارجان من المخبز اليهودي الألماني عبر موقف السيارات الكبير إلى سيارتهما، وكان رون يحب النظر إلى سالي وتلمسها. كانت مشرقة. كانت مقبلة على الحياة.

الحقيقة يا سالي - قلت لها - لم يكن ليخطر ببالي أبداً أن ثقتك بنفسك مهتزة إلى هذا الحد.

ليس لديك فكرة - قالت سالي - لقد قامت أمي بواجب كبير في ذلك. والآن هي تشعر بارتياح تام لأنني فشلت، لأن حياتي مع رون

لم تجلب لي السعادة. - قلت لها: لا يمكن أن أصدق هذا. - إذن فلماذا تدفع لي ثمن تلك الدورة بهذا السخاء رغم شحها في ما عدا ذلك؟ وبالمناسبة: هل تظنين أنت أيضاً أن الرجل يشعر حين تصير المرأة ضعيفة؟ كما يتشمم كلب الصيد دم فريسته فيصير أكثر ضراوة في تتبعها. أتعرفين لوحة كاهلو[1]: غزال منغوز بالسهام برأس امرأة.. رأسها هي؟ - أعرفها. - أولا تعرفين أن الاصطياد الحق لا يبدأ إلا حين تتم إصابتك؟ - بلى يا سالي، أعرف هذا أيما معرفة.

بالحق قولي لي - سألت سالي - ما الذي يصيبك بالضيق؟

دعكِ يا سالي، إنها قصة طويلة.

احكها لي.

لاحقاً. قريباً.

لكنني لم أحك القصة لاحقاً لسالي أولاً إنما لفرانشيسكو. لم أكن بعد مستعدة.

ظهيرة يوم الإثنين في الاستراحة كانوا كلهم تقريباً موجودين، مختبئين وراء صحف بلادهم. كانت وسائل الإعلام قد نشرت قبل الانتخابات مباشرة خبر ارتفاع معدلات الدخل القومي بشكل غير متوقع هذا العام بنسبة بلغت ٢,٧ بالمئة، بحيث كان بإمكان الرئيس بوش أن ينادي في الجماهير: !The recession is over (انتهى الكساد!). لكن الصحف المحلية كذبت هذا: الكساد في كاليفورنيا في أوجه. هناك أعداد كبيرة من العاطلين. بعض الصناعات التي كانت

(١) **فريدا كاهلو** (١٩٠٧-١٩٥٤): رسامة شهيرة ولدت في إحدى ضواحي كويوكان، المكسيك في ٠ يوليو ١٩٠٧، وتوفيت في ١٣ يوليو ١٩٥٤ في المدينة نفسها.

تعمل حتى وقتها أساساً في تصنيع السلاح مهددة بالانهيار. بالتأكيد - قال لوتس الذي كان يفهم في السياسية تماماً كما في تاريخ الفن - لا يملك أحد أي رؤية لما بعد الانتهاء غير المتوقع للمواجهة بين الكتلتين. لم يكن أحد يرغب في ذلك حقاً. قرأ لنا تعليقاً من صحيفة ألمانية يقدم دليلاً على مدى البركة التي حلت جراء الحرب الباردة حتى على المجتمعات الديمقراطية، وأنها أعطت العديد من الصناعات دفعة قوية، وفي الوقت نفسه حققت السعادة من خلال التمسك الصارم بتقييد صورة الأعداء وفقاًلقواعد اللعبة الديمقراطية كما أوقفت التوحش السرطاني لأجهزة الاستخبارات السرية. فهل ستقوى المجتمعات الحديثة على انهيار العدو، أي تلاشي صور العدو؟ من دون خلق أعداء جدد وأهداف جديدة للعنف ومن دون تصنيع لأسلحة ردع؟

بدا أن التصويت لمصلحة كلينتون قد تراجع حتى المساء.

نما حقل الذكريات - على ما أعتقد - جاء شعاع الفكر يتلمسه. تقع عيني أثناء تدوين ملاحظاتي على عبارات الراهبة في الكتاب التي أعطتني سالي إياه:

بدأت أفهم قيمة حكمة كل إنسان وحقيقة أن البشر جميعاً ينشدون الحقيقة عبر دروب مختلفة. افتح قلبك بحيث لا تبقى سجين أنانيتك. ساعتها لن ترى نفسك مركزاً للعالم لأنك ستكون غارقاً في عذاباتك وآلامك وحدودك ورغباتك ومخاوفك بحيث تعمى عيناك عن رؤية جمال الحياة. سوف ترى كم هي معجزة الحياة بينما نقضي نحن كل هذا الوقت في محاولة اكتشاف مواضع الظلم فيها.

لم يدهشني كون الدكتور كيم يعزف على الوتر نفسه الذي تعزف عليه الراهبة. حين قلت له إن الألم قد زاد بشكل سيئ خلال الأسبوع الماضي شرح لي من دون أي تأثر: يعتمد هذا على ما تأكلينه. ثم منع عني الحلوى كذلك. ماذا بقي لي لآكله إذن؟ الأرز والخضروات. حسناً. كنت متأكدة أنه هو نفسه أيضاً يلتزم بتعليماته تلك. ما لم أقله له هو أنني تعاطيت مسكنات للألم. نصحني أن أضع صورة متكاملة لحالة عظام الحوض وأن أطوّقَ الأجزاء الغضروفية بالأفكار الطيبة. وخزني بإبره وزعم: "I will rebuild your hip" (سوف أعيد بناء فخذك). لم أستطع تصديق هذا، أنبني ضميري بسبب ذلك وكنت أرى أن نبوءته لا تحق على امرأة ملحدة أصلاً. حذرني أيضاً من الإفراط في أكل الخبز، ثم جعل أحد مساعديه يزن لي قرطاساً مليئاً بالمكونات الغريبة التي احتوت بالإضافة إلى بعض الأوراق والأعشاب والدرنات[1] على بعض العظام أيضاً التي كان عليَّ غليها لمدة طويلة كل صباح، وهو ما قلب شقتي إلى سكن كريه الرائحة، وأنتج منقوعاً كان عليَّ أن أشربه، وقد فعلت وأنا سادة أنفي، لكنه لم يكن لينفع ما دمتُ أكرهه إلى هذا الحد. كنت أعرف أن الدكتور كيم يصوم يوماً كل أسبوع ويأكل فيما عدا هذا قليلاً، وفكرت أنه - وأنا في الباص مرة أخرى - لاشك يكِنّ لنا نحن السكان القادمين من العالم الغربي احتقاراً بسبب شهوانيتا.

اقتربنا من نهاية العام، كانت الشمس تغرب حوالي الساعة الخامسة، نزلت من الباص ثانية لأشتري من متجر الدراجات ذي

(١) الدّرَنةُ (في علم النبات): جزءٌ من جذر نباتيّ، أو ساق نباتية، يكون منتفخاً ومحتوياً على موادّ غذائية مُخْتَزَنَة.

السمعة الجيدة أقفالاً لدراجتي الجديدة التي تكبدت لأجلها مئة وستة دولارات عند متجر وولوورث لأن القديمة التي ورثتها عن بيل كانت قد سُرقت من الموقَف ومعها دراجتان أخريان كانتا هناك أيضاً ومربوطتان بالأقفال طبعاً. لا بد أن تكون قد نُقلت بشاحنة! - نعم - قالت الشرطية الشابة الجميلة التي جاءت إلى المكتب لتحرير محضر مفصل. قالت إن الواضح أنها عصابة منظمة تفك الدراجات في لمح البصر وتعيد بيعها، كل يوم يأتيهم على الأقل عشرون بلاغ سرقة في سانتا مونيكا وحدها. - واحتمالات استعادة الدراجة؟ - هزت كتفيها. النسبة صفر، لاسيما إذا كان صاحب الدراجة المسروقة مثلي لا يذكر حتى رقم الشاسيه.

مع ذلك قلت شكراً للشرطية الشابة، فردت: عفواً. كنت قد اشتريت دراجة جديدة وقدتها مرة واحدة على طريق الساحل إلى فينيسيا بدافع الواجب فحسب وليس المتعة: فلابد أن يعيش المرء هذا ولو مرة. حينئذ لاحظت أنني أواجه صعوبة في الركوب والنزول بسبب شدة ارتفاع القضيب الأوسط. أحضرت الدراجة الجديدة وأوقفتها في الموقف وأحكمت عليها القفل الجديد الذي بقي أيضاً بعد أسبوع معلقاً بأدب في مكانه، أما الدراجة فقد انفصلت عنه بهدوء وسرقت مجدداً، لكنني هذه المرة لن أزعج الشرطة المثقلة أصلاً في هذه التفاهات. فكرة أنني لا يجب أن أقود دراجة في هذه البقعة من الأرض كانت تستوجب إذن أن أكَلّف نفسي مئة وستة دولارات.

«بوب روبرتس». فيلم في وقته - كما يمكن للمرء أن يفكر - بمتعة محتدمة يتتبع المشاهدون في دار العرض بشارع سكوند ستريت مسيرة مرشح برلماني فاسد ومحتال يُدخل الجمهور - حين يقوم بدور مغنٍّ شعبي - في حالة من النشوة من خلال أغاني تُذكّر ببوب ديلان،

يؤلف عليها نصوصاً مغايرة، وعندما لم تعد تليق به في النهاية فإنه يختلق مع فريق عمله قصة تعرضه لحادث هجوم ويفوز بالانتخابات كمرشح على كرسي متحرك، إلا أن الكاميرا تظهر كيف تتحرك ساقا الرجل الذي يفترض أنه مُقعَد مع إيقاع الموسيقى في إحدى الحفلات. أما الرجل الذي كان قد تم استئجاره لتمثيل محاولة قتلِه فقد قُتِل هو نفسه بيد أنصار روبرتس المتطرفين.

فيلم لم يترك من المتعة ما يبقى للمرء ليتمناه - قلت لفرانشيسكو الذي كان قد دعانا لأكل الريزوتو، حيث مررنا معاً - المجموعة كلها - من شارع سكوند ستريت المأهول الآخذ في الإظلام إلى فندق ميس فيكتوريا. كان من السهل التقاط الإسقاطات الحيية على العملية الانتخابية الحالية. كان بإمكاني أن أتصور أن بيتر غوتمان الذي جاء معنا على غير عادته سوف يعارضني.

قال: جميل وجيد. لكن الأفلام المشابهة لهذا الفيلم لا تترك أثراً على الإطلاق. لست وحدي، الآخرون جميعاً لم يودوا تصديق هذا. من يشاهد هذا الفيلم - الذي كان جيد الصنع بالمناسبة - لا يمكن أن يتعايش مع العملية الانتخابية الحالية بالقدر نفسه من السذاجة وحسن النية كمن لم يشاهده. شكراً لحججكم - قال بيتر غوتمان الذي يثير أعصابي أحياناً بتهكمه. أتظنون حقاً أن أحداً من أنصار مرشحينا الثلاثة الحاليين، الذين يصابون بنوبات هياج حماسي لاعقلانية عندما يظهر مرشحهم سوف يرون هذا الفيلم؟ أقول لكم، ولا واحد. أما الخطب المهيجة التي يلقيها واعظ يوم الأحد في التلفاز هي وحدها ما يشاهدونه ويستمعون إليه. بل إنهم يستقبلون رسالة أنه من الطبيعي لمرضاة الرب إلغاء العقل عند اتخاذ القرار بشأن الرجل الذي سيدير البلاد في الأعوام القادمة؟

لدى فرانشيسكو وإيناس شعرنا بحميمية المكان المفروش بالأغطية الإيطالية والوسائد وملصقات الحائط. اتخذ فرانشيسكو دور القائد في المطبخ، كان عليه أن يركز على الريزوتو فلم يستطع أن يشارك في نقاشنا سوى بمداخلات نادرة. أما لوتس فلم يسمح بتمرير ما أسماه بتشاؤم بيتر غوتمان الثقافي. فيلم كهذا يعد جريئاً على كل حال، ولا يمكن الحكم عليه بأنه عديم التأثير حتى لو كان تأثيراً يصعب قياسه. أليس كذلك يا إيميلي؟

هزت إيميلي - الباحثة في مجال صناعة السينما والتي نصحتنا بمشاهدة هذا الفيلم بالأساس - رأسها. تأثير؟ - قالت - لا No, Nothing, Niente. (لا، كلا، لا شيء).

تبقى إذن حيلة واحدة كما لخص بيتر غوتمان راضياً.

لسبب ما كنت غاضبة عليه واتهمته بأنه يتلذذ بأن يبدو على حق في تفسيراته الكئيبة.

رفع بيتر غوتمان حاجبيه.

جاء من المطبخ صوت القلْي حيث ألقى فرانشيسكو بالسمك في الزيت. سألت إيناس أي نوع من الإضافات نحب على السلاطة. قلنا الصلصة الإيطالية بالطبع. ثم ترك فرانشيسكو لريا - التي كانت تحتفظ بقبعتها الجلدية حتى الآن أيضاً - القرارات الآخيرة بشأن الريزوتو: التقليب وإضافة المرقة الساخنة بحذر، تحديد مقدار قطعة الزبد، وإضافة جبن البارميزان التي قامت ببشرها. رص فرانشيسكو شرائح السمك مع قطع الليمون والشبت على صينية كبيرة، ووزعت إيناس السلاطة في الزبديات الصغيرة. كانت لدينا جميعاً الأطباق البيضاء نفسها في خزانات مطابخنا. كان النبيذ الأبيض بارداً ونحن كنا نشعر بالجوع، كان الطعام لذيذاً ومزاجنا جيد.

بالمناسبة - سأل بينتوس - إن كنا لا نلاحظ أن ما يحرك الأمة أقوى بكثير من نتائج الانتخابات هو اعتزال معبودها لاعب كرة السلة «ماجيك جونسون» الذي قيل إنه أصيب للأسف بفيروس نقص المناعة (الإيدز)، ثم اضطر بعد الاحتفال القصير بعودته بسبب مخاوف اللاعبين في الفرق الأخرى لأن يرمي منشفة اليد.. اللاعبين الذين لم يكونوا على استعداد للمخاطرة بأن يصاب هو أو أحد منهم فيختلط دمهم السليم بدمه المريض. هذا هو ما انقسم عليه المجتمع وليس البرامج الانتخابية المتشابهة لمرشحي الرئاسة.

التزمنا الصمت.

أحاول أن أستعيد ذكريات العهد الماضي التي تبدو الآن كأرض مضيئة ماثلة بوضوح أمامنا، أو بالأحرى وراءنا، وأسأل نفسي إن كنا حتى في أقصى درجات شكوكنا لنتوقع وقتها بهذا الوضوح واليقين ما ستكون الحال عليه اليوم. أننا سنخوض الحرب ثانية. فقط بيتر غوتمان هو من يعتبر كل شيء ممكناً. بعد سهرة الريزوتو تلك لدى فرانشيسكو وإيناس دعاني لأصعد معه إلى شقته، لأول مرة بالمناسبة. قال إن الليلة لم تنته بعد. كان علي أن أرد: بالنسبة لي أنا أيضاً لم تنته، وكان عليَّ أن أصعد معه طابقاً إضافياً إلى شقته التي كان تصميمها الداخلي مثل تصميم شقتي تماماً إلا أنها كانت تختلف عن شقتي تماماً، كما هو متوقع. وجدت نفسي في مسكن بِكر ليس فيه أي شيء ينم عن أن أحداً يسكن هنا. لا كتاب، لا صورة، لا جريدة على الطاولة، لا وردة، ولا حتى مقعداً واحداً طائشاً. رصانة مزعجة. رآني بيتر غوتمان واقفة على الباب. كان يعرف أن رؤية شقته ستكون صدمتني، لم يقل شيئاً، وأنا لم أقل شيئاً. نصحني بالمقعد الكبير المريح، ذهب إلى المطبخ، سمعت صوت باب الثلاجة يفتح ثم

يغلق، أحضر نبيذاً أبيض فاخراً، كان بارعاً في ذلك. في لحظة ما ذكر أن الارتياح يثير اشمئزازه بسبب كذبه. كان لديه - على ما أظن - هدف في تلك الليلة، كان يريد أن يصل إلى شيء معي. بدأ الأمر بأن استفزني، قال: لقد سلبوكم شجاعتكم.

كنت أفهم قصده، لكنني تظاهرت بالسذاجة. من؟ ماذا؟ أي. . . شجاعة؟

لم يجِب على ذلك أصلاً. قال إن المرء لا يصير مهزوماً إلا عندما يرى نفسه مهزوماً.

سألته إن لم يكن يعترف بالنقاد الموضوعيين إذن؟

قال إن المسألة لديه تتعلق بمدى استعداد المرء لتقبل تعريف الطرف الآخر - الطرف المنتصر - له.

مختصر القول أن بيتر غوتمان كان قد أخذ على عاتقه أن يحميني من الاستسلام للذات. كان قد لاحظ عليَّ - كما شرح لي بعد وقت طويل - اكتئاباً عميقاً أراد أن يقاومه. على كل حال فهو لم يستطع أن يعلم بعد في ذلك الوقت سببه الحقيقي.

لا بد أنني في تلك الليلة نفسها حكيت لبيتر غوتمان عن تجربة مسرحية من الماضي البعيد. قلت: الأرجح أن ذلك كان في الخمسينيات. «ليوبوف جاروفايا» - مسرحية لكاتب سوفياتي. كانت البطلة تشارك عام ١٩١٩ في الحرب الأهلية كمحاربة في صفوف الحُمر. أما زوجها الذي كانت تحبه فقد كان جندياً أبيض. وقد خطط لهجمة على الحمر ودخل في صراع مدمر مع ليوبوف التي لم يدع لها فرصة لإثنائه عن ذلك. لذلك فهي تطلق عليه الرصاص. كان عليها أن تقتله، يقترح الكاتب. وكنت أفكر - كما حكيت لبيتر غوتمان: هكذا لا بد أن تكون المرأة الثورية. لا بد أن تمتلك القدرة على ذلك. وفي

الوقت نفسه كنت أعرف: لم أستطع أن أكون هكذا أبداً.

سألني: وماذا في ذلك؟

فاستغرقت طويلاً حتى أدركت أن الحكمة التي تضع البشر في مثل هذه الصراعات تسلبهم شيئاً من إنسانيتهم. الإنسان الجديد في صورة الأقل إنسانية.

لكن هذا يحدث حتى اليوم في كل مكان تدور فيه المعارك حول الأفكار بحد السيف - قال بيتر غوتمان - تحديداً اليوم. ثم قال إنه لم يكن من السهل كتابة شيء كهذا.

كلا.

مع ذلك افعل. يمكنك الحذف لاحقاً. خطر لي أننا لم ننادِ بعضنا بعضاً بالاسم الأول أبداً. «سيدي» - «أيها السيد» كانت تكفيني لأتحدث إليه. كان يناديني بـ«سيدتي» أو يتحاشى صيغة المخاطب.

وداعاً يا سيدي.

نامي جيداً يا سيدتي.

بغض النظر عن اليوم، بدا لي أن الوقت المتبقي حتى تحوُّل العام من ١٩٩٢ إلى ١٩٩٣ قد اقترب، لأن أشياء كثيرة كان مقرراً أن أراها وأسمعها وأفكر فيها في تلك الشهور القليلة. وجوه جديدة كثيرة ألحت عليَّ في تلك الشهور القصيرة أيضاً. بعضهم جاء مرة بمعلومة أو بسؤال أو برسالة أو خبر ثم توارى، وآخرون صاروا «معارف». كلمة لا يوجد نظير لها في اللغة الأمريكية. بسرعة شديدة يتحول المعارف إلى أصدقاء بشكل مختلف بعض الشيء عما هو في الألمانية. خذ مثالاًبوب رايس المختص في تاريخ العمارة ظهر الآن فجأة.

كنا نقترب من احتفالات عيد الميلاد، سادت موجة حارة، هوس أعياد الميلاد على أشده، رغم أنه لم يكن من اللياقة الحديث عن أعياد الميلاد لئلا ينزعج أصحاب الديانات الأخرى غير المسيحية. تكون الأمنيات «بعطلة» سعيدة. تألقت الشوارع بالزينات المضيئة البديعة، شجر عيد الميلاد انتشر بكميات في كل مكان مقصوصاً غالباً في شكله الهرمي بدقة مبالغ فيها، في قاعة «المركز» استقبلتها شجرة عيد الميلاد العملاقة المزينة، أما المصعد فقد صعد بنا على أنغام أغنية "Es ist ein Ros' entsprungen"، (أزهرت وردة). أما السيدة أسكوت فقد دعتنا إلى حفل تزيين شجرة عيد الميلاد في بهو فندق ميس فيكتوريا، ساعتها اتفقنا أنا وبيتر غوتمان على أن السيدة أسكوت هي الأنسب لدور سيدة القصر في فيلم بوليسي غريب.

بيوت، على طراز نويترا[١]! كلمة السر التي تفوه بها بوب رايس، صاحبنا المرشد المعماري. كان يعرف كل شيء عن المعماري الشهير الذي هاجر من ألمانيا في العشرينيات إلى أمريكا. فرانشيسكو وإيناس

---

(١) **ريتشارد جوزيف نويترا** (١٨٩٢-١٩٧٠): معماري أمريكي من أصل نمساوي، ولد في فيينا لعائلة يهودية ثرية، درس التصميم المعماري بجامعة فيينا التي تخرج فيها عام ١٩١٨. بعد الحرب العالمية الأولى سافر إلى سويسرا حيث عمل مع المعماري غوستاف آمّان ثم عاد إلى ألمانيا في ١٩٢١ حيث عمل لفترة قصيرة في تخطيط المدينة ببلدة لوكنفالده لينتقل بعد ذلك للعمل في مكتب المعماري الشهير إرنست مالندلزون في برلين، وقد شارك في أهم المشروعات آنذاك أشهرها مشروع المركز التجاري الجديد بحيفا في فلسطين (١٩٢٢) ومشروع إسكان حي تسيلندورف في برلين (١٩٢٣). وفي العام نفسه هاجر نيوترا إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث حصل على الجنسية الأمريكية في عام ١٩٢٩ وعاش ونفّذ معظم تصميماته المعمارية في جنوب كاليفورنيا.

حشرا نفسيهما في سيارة بوب الـ«هوندا» الصغيرة التي كانت تقيس حالة الطقس وتسير كأنها تنطلق من تلقاء نفسها باتجاه الهدف، بطول وعرض المدينة العملاقة على الطرق السريعة والممرات وفي الشوارع الحجرية حادة الارتفاع صعوداً إلى الوادي الضيق حيث يوجد «بيت الجدة». بالأعلى في أقصى نقطة على القمة، بيت متناهي الصغر، بناه ريتشارد نويترا كمَضيَفة لأم العائلة التي سكنت بالأسفل على المنحدر. نجاح مزدوج لأن الجدة أحست براحة شديدة في هذا البيت حتى أنها بقيت فيه ضيفة مستدامة. السيدة العجوز التي تسكن فيه اليوم تعرف الحكاية، وقد أطلعتنا على المنظر البانورامي الخلاب على المدينة.

هكذا كانت حالنا في كل مكان، سُمح لنا بالدخول إلى كل ركن، فقد كان كل السكان يعرفون بوب. في بيت من البيوت - كان قد شُيِّد لممثلة مشهورة - كانت تسكن امرأة مريضة في الطابق العلوي، لكننا استطعنا رغم ذلك التجول في الطابق الأرضي ومشاهدة الغرف الكبيرة المضيئة، وقياساتها، وعلاقات بعضها ببعض. هكذا يكون السكن.

بدا لنا طبيعياً أن نويترا لم يرسِ طرق بناء جديدة فحسب، بل أراد أن يجرب طريقة حياة جديدة أيضاً. اصطحبنا بوب إلى بيت «شيندلر» الذي بناه المعماري المهاجر الآخر الذي خلف أثراً لا تخطئه العين في هذه المدينة الخالية من الملامح. هنا إذن سكنت عائلتا نويترا وشيندلر. بيت على الطراز الياباني، منخفض جداً، منبسط، بحوائط منزلقة ومنافذ عدة إلى الخارج، في وسط الطبيعة والضوء، حيث يمكن - كما قيل لنا - للمرء أن يسكن على مدار العام كله. وقفنا على السطح المنبسط، أخرج بوب زجاجة نبيذ أحمر من حقيبته، وستة أكواب فضية وعلبة صغيرة من فول السوداني المملح. هنا. .

تحديداً هنا أراد أن يشرب معنا نخباً، فقد كان لديه حس عال إزاء الإيماءات الرمزية.

قال إن علينا رؤية بيت واحد آخر على الأقل، كان يقع في طرف «المدينة الكورية»، أي في الحي الذي اشتعلت معظم متاجره بالنيران خلال أعمال الشغب في أبريل، أشعلها السود الذين أحسوا بالظلم إزاء الصعود الاجتماعي السريع للآسيويين. البيت الذي أرانا بوب إياه كان نويترا قد شيده في الثلاثينيات من أجل الأسر محدودة الدخل. لم نتمكن من الدخول إليها، إذ يسكنها اليوم أناس فقراء معظمهم من اللاتين. خمسة طوابق متساوية النوافذ، ستائر نصف منسدلة، زجاجات خمر على جلسات النوافذ، رؤوس أطفال ونساء يختلسون النظر، والغسيل ممدد على عتبات النوافذ. في المنطقة المجاورة على الناحية الأخرى بيوت عائلية صغيرة، فقيرة أيضاً، ومجموعات من الرجال العاطلين من العمل بقبعات من القش أمام المداخل. كانوا يراقبوننا في صمت. في مثل هذا المناخ هنا - قال بوب - لا يكون للعشوائيات الأثر الكئيب نفسه الذي تخلّفه في نيويورك أو ديترويت.

كان فرانشيسكو وإيناس قد ابتعدا عنا، كانا يتمشيان حول بيت نويترا، أخذ فرانشيسكو يصوّر. اقتربت منهم سيارة من الخلف، رجل أسود على مقعد القيادة وامرأة سوداء على المقعد المجاور. أدارت مقبض نافذتها إلى الأسفل وصاحت بهما بشتيمة: هذين المتنطعين المتطفلين. أما فرانشيسكو فبدلاً من أن يسكت رد رداً عنيفاً، فأوقف السائق السيارة قريباً جداً من سيارتنا، خرجت السيدة، كانت ضخمة وربما في الثلاثينيات من العمر، واثقة جداً من نفسها، وأطلقت علينا وابلاً من الشتائم بصوت عال مليء بالتهديد. أمسك بوب بذراعي،

دفعني بسرعة داخل السيارة، وقال للسيدة محاولاً تهدئتها: نحن فقط نلقي نظرة على المعمار. كان واضحاً لكلينا كم سيبدو هذا التفسير سخيفاً بالنسبة إلى السيدة السوداء، لكنها عادت إلى سيارتها التي انطلقت إطاراتها محدثة دوياً هائلاً، وركب فرانشيسكو وإيناس السيارة معنا. أما الرجال ذوو القبعات المصنوعة من القش فقد نظروا إلينا بالنظرة غير المكترثة نفسها. قال بوب: إنها مستثارة فقط. فخطر لي: كان لا بد أن نشهد هذا أيضاً.

كارل - أحد أصدقاء بوب رايس - كان يعمل مصوراً، كان بانتظارنا بصحبة بعض الضيوف في منزل بوب وقد حضّر لنا بعض المشروبات. جين بمياه التونيك، شربت بسرعة وكان ذلك ممتعاً. تجولنا والكؤوس في أيدينا في منزل بوب، بيت على طراز نويترا بالطبع like a shrine (مثل مزار) - قالت إحدى المدعوات بصوت خفيض. المكتبة مليئة بمختلف الكتب لريتشارد نويترا وعنه. في غرفة المكتب مخطوطات رسائل نويترا تحت الزجاج. لكن القطعة الأهم بالنسبة إلى بوب والوحيدة التي تنازع هو زوجته عليها وقت طلاقهما كانت لوحة إعلان فيلم قديم بعنوان: «تزوجت شيوعياً». سأل توم هل كان ليُسمحَ عندنا بعرض فيلم عنوانه «تزوجت رأسمالياً»؟ قلت: الأمر يتعلق بشكل أساسي بالنهاية. إذا فشل الزواج لهذا السبب، فلم لا؟!

كانت معنا سيدة - زوجة أحد الأساتذة - أنيقة الملبس، شعرها مصفف بعناية، تحمل الوجه النموذجي لسيدة أمريكية مسنة، وجهاً شديد الهندام مليئاً بالتجاعيد أضفت عليه الشمس بعض سمرة. أرادت أن تعرف مني إن كان من الحكمة أن يُسمح لذلك الزعيم الشيوعي الألماني - ما اسمه مرة أخرى - أن يهرب إلى الخارج - لم أعد أذكر إلى أين، فقاطعتها على الفور: إلى تشيلي، قلت: إن اسمه

هونيكر[1]. - "Right" (بالضبط) قالت السيدة وسألتني أين كنت أسكن وقتها.

في برلين - أجبت ثم أضفت - برلين الشرقية. أي نعم - قالت السيدة وسألت إن كنت أعيش هناك طيلة حياتي. Yes (نعم)، أجبتها بشيء من التلذذ الأحمق، ولم يكن لدى السيدة ما تضيفه بعدها، لكنني أستطيع أن أراهن أنه كان في مقدوري أن أرى أي صوَرٍ دارت في رأسها.

أما بوب رايس فقد بدأ يسرد حكاية تحسباً لأي توترات بين دائرة معارفه. حكاية كيف فاز بمعطف فرويد ثم أضاعه. ما حدث أن أرملة ريتشارد نويترا أعطت معطفه بعد وفاته لمؤرخه المخلص تذكاراً. أكدت له أن هذا كان في الأصل معطف د. فرويد "The overcoat of Dr. Freud"، فقد كان كلاهما نمساوياً من فيينا وقد نشأت بينهما معرفة وطيدة. كان المعطف قد صار قديماً مع الزمن لكنه لم يكن

---

(١) إريش هونيكر (١٩١٢-١٩٩٤): سياسي شيوعي ألماني، ورئيس ألمانيا الشرقية من عام ١٩٧١ حتى ١٩٨٩، جاء إلى السلطة عندما خلف والتر أولبرخت في منصب سكرتير أول للحزب الشيوعي. وفي الثمانينيات من القرن الماضي تصاعد عدد الرافضين من الألمان الشرقيين لغياب الحرية تحت حكم هونيكر. كما هربت أعداد كبيرة منهم إلى ألمانيا الغربية عام ١٩٨٩. في أكتوبر عام ١٩٨٩ أجبر هونيكر على الاستقالة من منصب السكرتير العام. وفي شهر ديسمبر طرِد من الحزب الشيوعي. بعد توحيد البلاد أدانت ألمانيا هونيكر بالقتل لإعطائه الأوامر لحرس الحدود أثناء حكمه بإطلاق الرصاص على مواطني ألمانيا الشرقية أثناء محاولتهم الهرب إلى ألمانيا الغربية. وفي عام ١٩٩١ نقل المسؤولون السوفيات هونيكر إلى مستشفى بالاتحاد السوفياتي (السابق) للعلاج من السرطان. وقد طلبت الحكومة الألمانية عودته. لكنه ذهب إلى المنفى في تشيلي وبقي فيها إلى وفاته هناك عام ١٩٩٤.

رثاً، منتج من منتجات ما قبل الحرب، كان بوب يعرف: كان ليشعر أنه مستعد لمواجهة أي موقف في الحياة بهذا المعطف، ونحن بدورنا تفهمنا أنه كان من الممكن أن يتعرض لمواقف كثيرة تستدعي مثل هذا الساتر الدافئ. لكنه لم يلبس هذا المعطف أبداً - كما قال - وإنما علقه على باب مكتبه في الجامعة ليظل دائماً أمام عينيه. ثم اضطر للسفر لبضعة أيام، وعلى عكس المتعارف عليه وعلى عكس عادته فقد أغلق باب مكتبه ويستطيع أن يقسم على ذلك. حين عاد لم يكد يصدق عينيه: كان المعطف قد اختفى. من شدة حيرته بدأ بالفعل حملة كبيرة للتحقيق والبحث، من دون جدوى بالطبع. قال إنه لم يستطع تعويض هذه الخسارة أبداً. كان الآن يحاول تعزية نفسه بالتفكير في أن المعطف قد يكون انتهت به الحال عبر سلسلة من الأحداث الخرافية لدى أحد المشردين وأنه يمنحه بعض الدفء في هذا الشتاء الرطب البارد.

"What do you think about my story?" (كيف تجدين قصتي؟) - سألني بوب لاحقاً.

قلت له: اسمع! غداً سأبدأ في تأليف كتاب، سيكون عنوانه:

مدينة الملائكة أو معطف الدكتور فرويد

افعلي ذلك - قال بوب ثم جاء عرضه السخي: خذي مني كل ما تحتاجين إليه.

- كل شيء؟

قال: كل شيء.

قلت: سيكون هذا كتاباً لن أستطيع نشره.

قال بوب: هذه هي فرضيتك لكي تقتربي أكثر من الأشياء.

لن يكفي ذلك هذه المرة - قلت له - بالطبع لدي بعض المخاوف.

أعرف ذلك- قال بوب - انتبهي لنفسك.

حمل كتاباً إلى الطاولة، شعر، بالألمانية والإنجليزية، طلب مني أن أختار قصيدة، وأقرأها بالألمانية. بحثت تحت عصر الباروك فوجدت باول فليمنغ[1]:

إلى نفسه

لا تخشى بأساً، ابقَ أبداً فوق الهزائم
لا تستسلم للحظ، وارتفع فوق الأحقاد
متع نفسك بنفسك فلا يكونن بلاءً
إن تآمر عليك الحظ والمكان والزمان.

قرأتها سعيدة بكوني وجدتها من جديد، مررت أصابعي أتلمس الكلمات، إذ تصاعدت بداخلك مرة أخرى تلك التي كنتِ تحفظينها ذات يوم عن ظهر قلب. بجوار تلك القصيدة تحديداً كانت في درج الأوراق الأقراص المهدئة الخضراء التي كنت تودين أن تخففي بها وطأة الجدل مع الناس الذين ما زلت تعتبرينهم أبناء وطنك. كنت ما زلت تأملين أن يتضح أن كل هذا مجرد سوء فهم.

(١) **باول فليمنغ** (١٦٠٩-١٦٤٠): طبيب وشاعر ألماني. يعتبر من أهم الشعراء عصر الباروك الألمان.

ما يكدر صفوك وما يواسيكِ، اعتبره مقدراً
تقبّل هلاكك، واهجر كل شيء غير آسف
افعل ما يجب أن يفعل، قبل أن يُطلب منك
كل ما بوسعك أن تتمناه لا بد سوف يتحقق بعد

لكن حينذاك تذكرت جدالاً بدا حاضراً في ذهني بكل بواعثه ومساراته، كان عليك أن تسلمي بشيء لم يكن بمقدورك التسليم به. لم يُذعنوا ولم تُذعني أنت أيضاً، وعرفت ساعتها: «كلا، أنا لا أريد ما يريدونه نفسه». وكانت تلك الرؤية مُرّةً ومُخَلِّصةً معاً.

ممّ الشكوى وفيمَ الثناء؟ شقاء المرء وسعادته
هي من داخل ذاته. تأمل كل الأشياء
كلها بداخلك، دعك من أوهامك العبثية

وقبل أن تتقدم عد إلى نفسك
فمن يك سيد نفسه يتحكم بها
صارت له الدنيا الواسعة وكل شيء طوعاً له

ليس ذلك ضرورياً، خطر لي. لم تعد كلمة مثل «طوعاً» تستخدم.

ألمانية بامتياز، قال فرانشيسكو. في البدء تودون التحكم في أنفسكم ثم في العالم كله. أما كارل المصوّر فقال: «طوعاً» إنها أكثر كلمة ألمانية يكرهها. ربما كانت مغادرته ألمانيا أصلاً بسبب هذه الكلمة. لم أكن أتخيل أن كارل ألماني بالأساس، حتى عندما كان

يتحدث الألمانية كانت لديه بعض لكنة أمريكية وكان يضطر أحياناً للبحث عن كلمة ما. في الإنجليزية - قال - لا يمكن إيجاد مرادف لكلمة «طوعاً» هذه أصلاً. قرأنا في الترجمة فوجدنا:

The man who is master of himself and can control himself has the whole wide world and what is in it at his feet.

(من يك سيد نفسه ويستطيع السيطرة عليها صارت الدنيا الواسعة وما فيها تحت قدميه).

حسناً إذن - قال فرانشيسكو. هذا هو الحد الفاصل: إن كنت أنت تريد أن تحكم العالم أو أن يضع العالم نفسه تحت قدميك. أي نعم ولكن - قلت - التحكم في الذات ليس بالشيء المذموم. بلا بالعكس - صرخ فرانشيسكو. فإن قمعكم لذواتكم هو ما يجلب التعاسة. وتقبل الهلاك - لا ينقصنا سوى ذلك! لم نكن قد شربنا القليل، بلذة الشجار قرأنا القصيدة سطراً سطراً، بعض السطور ظلت ماثلة أمام عيني فرانشيسكو، والبعض الآخر كان يسقطه. زعمت أن كل شيء مرتبط بالآخر: قلت إن التعاسة والمواساة هما ركيزتا «معطف الدكتور فرويد»، لكن فرانشيسكو كان يريد بعض الحب للحياة والإقبال عليها وتأكيد الذات من دون ظلال للشجن، وللفشل وخيبة الأمل. قلت: إذن من دون الخلفية التاريخية الألمانية. هنا أراد فرانشيسكو أن يمنعني عن أتلذذ بالألم الألماني، دخلت المناقشة طوراً أكثر حدة. أثناء لحظة صمت مفاجئة جاء صوت تلك السيدة: لكن حين سقط الحائط هللتم كلكم، أليس كذلك؟ ولم تفهم لماذا أثار سؤالها البسيط عاصفة من الضحك. لكنني قلت لها: أي نعم! ورمقتها بنظرة غير عابئة. "I was so happy" (كنت سعيدة جداً).

بوب - قلت - أحتاج إلى هذه القصيدة. - قال: سأجهزها لك.

في الصباح التالي سوف أجدها في صندوق بريدي في المكتب، سوف أحتاج إليها، وقريباً سأكون قد حفظتها عن ظهر قلب ثانية. وسيراقبني بوب، سيكون موجوداً لدى عودة بعض الأصدقاء القدامى أو لدى مقابلتي لأصدقاء جدد. سوف يسألني: كيف حالك؟ ولن أضطر للرد بـ "fine" (بخير) وإنما أحياناً ب: "bad" (سيئ)، وأحياناً أخرى: "It is very hard" (الوضع صعب جداً)، وسوف يقول: "I know" (أعرف ذلك)، وفي يوم من الأيام سوف يدعونني للعشاء في مطعم «غلادستون» الشهير، لكن هذا سيأتي لاحقاً.

فقط بعد ذلك اليوم الطويل مع بيوت نويترا حدث أن حلمت ذات مرة بالمهاجرين مجدداً. جلسنا في سيارة متهالكة، كان واضحاً أن «النقود الجديدة» آتية، ثم كان علينا أن نهاجر. رجل ذو وجه عريض متدثر بالفراء حتى أنفه كان مخوّلاً باتخاذ القرار، وقد أكد أن علينا أن «نرحل». أردنا أن نعرف إن كان قد وجب على الكثيرين «الرحيل». كلا - قال الرجل - معظم الناس يرغبون في النقود الجديدة. كنت في الحلم أعي جيداً غرابة موقفي. لقد أوجعني أن كان علينا «الرحيل». قيل إن بإمكاننا أخذ بعض الأشياء معنا، بعض النساء كدست لنا بعض الملابس في السيارة ثم انضم إلينا بالإضافة إلى ذلك بعض الرُّكّاب، أخذت السيارة تزدحم. لكننا قلنا إنه ما زال علينا أن نودع بنتينا. قالتا إنهما تعرفان الوضع جيداً وإنهما تريدان البقاء هنا.

وعند الصحو تذكرت رحلاتنا عبر البلاد، عندما كنتِ تضعين الأطلس على ركبتيك وتبحثين عن البلاد التي يمكن أن تجدا لكما فيها ملاذاً ولم تجديها فرحتما تتندران على نص بريخت «مثال بوذا عن البيت المحترق»: *صدقاً / أيها الأصدقاء/ من لم تكن الأرض ساخنة تحت قدميه بما يكفي / ليكون أحب إليه أن يستبدلها / بأي أرض*

أخرى على أن يبقى هنا، فهذا / لا شيء عندي لأقوله له، وعندما صحتِ ذات يوم أخيراً بعد التصفح في الأطلس قليلاً: ستراسبورغ! ليست ألمانيا ومع ذلك لغتها الألمانية. لكنك في قرارة نفسك كنت تعلمين أنها خدعة.

ألم نكن في ذلك الوقت أيضاً نقترب من أعياد الميلاد؟ في ذلك الشتاء القاتم من عام ١٩٧٦ الذي كشر عن أنيابه وأوقعكما بين شقي الرحى. ولكنني لم أستطع سوى الآن، بعد أكثر من ربع قرن ومن على بعد هذه المسافة كلّها من أصل هذا الجرح أن أسأل نفسي بكل هدوء عما كان يحدث وقتها حقيقةً. ماذا كان هذا الذي أيقظ كل هذا الألم المذهل الذي لم تدركي كنهه في البداية، والذي كنت تحاولين أن تجدي لنفسك مهرباً منه في الشوارع الغائمة المظلمة. شارع «فريدريش شتراسه» صعوداً إلى شارع «شوسيه شتراسه»، على الناصية تلك الصيدلية المختبئة، نافذة عرض مضيئة، فيها أنابيب معجون أسنان، وشراشف، ومساحيق غسيل، وقد علقت في وسطها نجمة عيد الميلاد الوردية المدببة المضاءة من الداخل، مسرح صغير رخيص جعل منظره قلبك ينقبض، فأدركت فجأة وشعرت بارتياح: إنه الألم. ألمٌ يكاد يكون غير محتمل يتعلق بخسارة ما.

يمكن أن يتحمل المرء الحس الخاطئ، أو حتى يلعنه، لكنه لا يستطيع فرض الرقابة عليه أو تغييره. على كل حال فإن الأمر يستغرق سنين بل عقوداً حتى يتحول الحس الخاطئ إلى خطأ وليس حساً. وربما يسمى هذا أصلاً تغييراً. ولكن يمكن للمرء أيضاً أن يترفق بحسه الخاطئ.

أم ربما لم يكن هذا خوفاً أصلاً - سألت نفسي حين نظرت إلى آلتي الكاتبة من أعلى. فقد كنت تعرفين الخوف أيضاً. الخوف هو ما أصابكِ في نوفمبر ١٩٧٦، ذلك الشهر موضع حديثنا هنا، عندما كنتما عائدين من ذلك التجمع لدى أحد الأصدقاء وحاولتما أن تتخيلا مسار رسالة الاحتجاج التي كنتما قد صغتماها معاً والتي ربما تكون في هذه اللحظة التي تصلان فيها إلى منزلكما على الأرجح قد أحيلت إلى جهاز الاستخبارات عبر مستويات عدة صعوداً إلى أهم رأس فيه، وربما تم إرسال نسخة منها - عبر وكالة الاستخبارات الغربية التي كنتما قد سلمتماها إياها بالأساس - لاسلكياً من المدينة المقسمة إلى المحطات الإذاعية المتنوعة. تلك الإذاعات التي - حتى وإن التزمت بمواعيد الحظر المفروضة عليها - فإن من شأنها أن تحدث من خلال برامجها ضجة يمكنكم تصورها بشكل ما. إنهم يسجنوننا، قالت الصديقة/ الزميلة/ الرفيقة، التي كانت تجلس معكما على المقعد الخلفي في السيارة. أما أن يعيدوا المغني الذي سلبوه جنسيته إلى البلاد ثانية بناءً على احتجاجكما، فإنكما لا تصدقان ذلك، أتفعلان؟ هكذا سألكما الكثيرون، البعض بغضب والبعض في حيرة وآخرون بجبن، وكان ردكما: بلى، أو: كلا، على حسب من الذي يتحدث إليكما أو قام باستدعائكما، وعلى حسب تقديركما لما يقتضيه الموقف من الحرص أو الصراحة. وفي كل موقف كنتما تقولان إنكما اضطررتما لفعل ذلك، وكانت تلك إجابة صادقة. وأحياناً كنتما تضيفان أن إجراءات سحب الجنسية تلك تذكر بالعصر البائد في ألمانيا، وأنكما لن تستطيعا أن تستمرا في الكتابة إذا ما ارتضيتما الصمت إزاء هذا الإجراء. هل ذُكرت كلمة «الاشتراكية»؟ حتماً. كانت تستخدم من الجانبين، كتهمة، كدفاع، أما من كان منهم أكثر

تمسكاً بجبنه كان أكثر إبداءً للغضب عليكما والأكثر ترديداً لكلمة «إساءة»، واتهاماً لكما بأنكما تسببتما في إساءات بالغة لبلادكما. أما أنتما فقد كنتما تلتقطان الكلمة وتردانها. فقط عندما صاحت عليكما مرتعشة إحدى الرفيقات القديمات - يهودية كانت قد عاشت في المهجر طويلاً - بأنكما تريدان استعادة معسكرات اعتقال النازي، التزمتما الصمت. لم يكن هناك ما يمكن قوله في ذلك، وقد أدركتِ: إن الوضع ميئوس منه. هنا جاء الألم. أما من جهة الآخرين - الذين جلسوا أمامكما سواء متوترين أو فاترين والذين أخذوا يحثونكما على التراجع، وكانوا يودون استنطاقكما عن المؤلف الأصلي للمؤامرة وتقليب أحدكما على الآخر - فقد جاء الغضب، وأخذ الشعور يتنامى ويتنامى بأنكم أنتم الأعداء، بمنتهى التعنت، وأنه لم يعد هناك لغة مشتركة ولا مستقبل مشترك.

في صباح باكر لم أتحمل الوضع في شقتي بفندق ميس فيكتوريا، ذهبت إلى منتزه «أوشن بارك»، استمر شريط الذكريات في الدوران في رأسي، وخطر لي أنها كانت بالفعل خسارة كبيرة حين قررت بعد سنة من ذلك الشتاء الذي تعرضنا فيه لهذا الأذى أن تضعي تلك المفكرة - التي كنت قد كتبت فيها في أحد الحمامات العلاجية بالمجر تسلسلاً تاريخياً دقيقاً للأحداث - كإجراء عقابي لكي لا تكون في حوزتك أثناء التفتيش في تلك الحقيبة التي تم تحميلها مع المتاع الآخر على الطائرة إلا أنها لم تصل إلى مطار لايبتزيغ أبداً. انتظرتما طويلاً أمام مكتب الحقائب المفقودة، أرسلتما كل استمارات البحث المطلوبة في مثل هذه الحالة، والتي كانت تأتي عادة بنتائج جيدة كما تم التأكيد لكما. إلا أنك لم تذكري في قائمة الأشياء الفقودة تلك المفكرة، ولم يعثر علي شيء ولكن تم تعويضك عن كل الأشياء المفقودة من قبل شركة

التأمين من باب اللياقة، مساحيق الغسيل وملابس النوم والأحذية، ما عدا المفكرة التي لا يجب أن تكون موجودة أصلاً، والتي لم يتم توثيقها - من باب الاحتياط ولا حتى من قِبَلي أنا - لذلك كان من السهل أن تنتهي إلى لا شيء، بحيث لا يشك أحد في وجودها في أي وقت، ذلك أنه حتى ملفات الأمن التي كنت أعول عليها بعض الأمل قد خذلتني هذه المرة: لم تكن المفكرة موجودة في الصندوق الخشبي الأخضر الكبير بين الوثائق الأخرى، وقد ضبطت نفسي متلبسة وأنا أتهمهم بالتقصير، هم الذين كانوا يجتهدون لجمع المعلومات عن أفعالنا وأقوالنا. ولكن هل كان مطلوباً منهم الكمال؟ أو الصدق؟ لم نجد أيضاً أي دليل فيما يخص تلك الليلة القاتمة التي وقفت فيها سيارة الشرطة متمركزة مع طاقم كامل على التقاطع أمام منزلكما لساعات طويلة. كنتما تقفان وراء الستائر التي كنتِ قد اشتريتها مؤخراً منذ قام السادة الصغار بمراقبة منزلكما من السيارة التي كانت في المَوْقَف في الجهة المقابلة من الشارع. راقبتما كيف انفصل واحد منهم عن المجموعة وذهب باتجاه كابينة الهاتف الموجودة في الشارع على ناحيتكم، حيث رن جرس هاتفكم فوراً، بعد منتصف الليل، دون أن يرد أحد، حين رفعتِ السماعة، وبعد مرور بعض الوقت انطلقت السيارة واستطعتما أن تخلدا إلى سريركما بالطبع من دون أن تناما. في اليوم التالي وصلت جريدة الحزب (سنترال أورغان Zentralorgan) متأخرة، ليس قبل الظهيرة.

كل شيء حقيقي لكن بلا دليل - خطر لي - بينما مر بجانبي الرياضيون الصباحيون وقد تسحبت الشمس صعوداً على جهة اليسار ولم تعد الذاكرة قابلة للتوقيف، لأن تلك الليلة الغريبة صار لها بعد ذلك تفسير من خلال مقالة لممثل كان من بين الأصدقاء. كان في

تلك الليلة صدفة بعد انتهاء إحدى الحفلات الافتتاحية قد مر على المطبعة التي كانت الصحف الطازجة قد خرجت منها لتوها، لتنقل محزّمةً على الألواح في الشاحنات. كانت إحدى الربطات قد حُلّت، فوقعت جريدة، فتمكن من قراءة عنوان الصفحة الأولى الذي كان يقول إنكم جميعاً، أيها الخونة أول الموقعين على ذلك الاحتجاج اعترفتم بسوء فعلتكم وتراجعتم عنها. وأراد آخر أن يعرف، كان من الممكن القبض عليكما في تلك الليلة وممارسة الضغط عليكما إلى أن توقعا على تراجعكما، لكنها كانت خطة تم إيقافها من قبل نفرٍ آخر من القيادات. نسخة أخرى أكثر إثارة لا يمكن إثباتها.

وقتذاك كنت خائفة. مع مرور الوقت عرفت أن الذاكرة العاطفية لا تقوي نفسها، وإنما تبقى حساسة في النقطة التي أصيب فيها الشعور بجرح عميق من قبل. هل صرت أكثر خوفاً؟ أرفض الإجابة. خلال ذلك الوقت - على ما أتذكر - كنت قد عثرت في ملفاتي على نسخة تلك الخطة التي وضعها موظفو الأمن، والتي تم تنفيذها فيما بعد: لقد قاموا - بغرض تشويه سمعتك لدى المحتجين الآخرين - بإشاعة خبر أنك سحبت توقيعك سراً في إحدى «المناقشات - المحادثات» واعترفت بما في فعلتكم من الخطأ. ما أخفوه هو أنهم لم يسمعوا منك سوى كلمة لا التي كانت كما تعرفين جيداً لا رجعة فيها ولن تكون كذلك لأسباب تتعلق بالاعتداد بالذات. كما خطر لي إن تلك كانت إحدى نقاط التحول في حياتي.

حديقة «أوشن بارك». ارتفعت درجات الحرارة، مر بأريكتي العداؤون والراكضون الوحيدون، متصببين عرقاً متمسكين بهدفهم. ثم جاء رجل تبدو ملامحه هندية، استلقى أمامي على الأرض، وقال: عيد ميلاد سعيد، وسأل إن كان بإمكانه أن يجلس معي على الأريكة.

"Sure" (بالطبع). - قال: أنا هندي من أوكلاهوما. كان سيقضي يومين فقط هنا لزيارة صديقة، لكنه حين وصل إليها كانت هي قد انتقلت إلى ولاية كنتاكي. قال إنه قد مشى طويلاً من فينيسيا إلى هنا. كان يرتدي قميصاً فاتح اللون ويربط سترة بيضاء حول رقبته. سألني عن اسمي. قلت اسمي الأول. كان اسمه ريتشارد. قلت: "No indian name" (اسم ليس هندياً). قال إن اسم عائلته هندي، ذكره، معقّد جداً. مد لي يده التي كانت مشلولة. سألت عن وظيفته. قال إنه لم يعد بإمكانه أن يعمل، أشار إلى تلك اليد وإلى ندب طويل في ساعده: حادث سيارة. - "very bad" (مؤسف جداً)، ثم جاء ما انتظرته بفارغ الصبر: "do you have some change for me?" (هل معك بعض الفكة لي؟) للأسف كنت قد خرجت بسرعة من دون حقيبة، دون نقود. قلت له ذلك آسفةً. هز رأسه. سألني إن كنت متزوجة. رددت بالإيجاب، فهب واقفاً: "Nice to have spoken to you" (سعدت بالحديث معك)، ثم ذهب. وقد كان هذا - كما خطر لي - أول لقاء لي مع أحد سكان أمريكا الأصليين.

ثم جاء الرجلان الشابان ذوا مفرق الشعر المصفف بعناية، بقميصيهما الأبيضين المزكشين بالورود ليفرضا عليَّ نسخة من إنجيلهما المورموني المقدس. تظاهرت بأنني لا أكاد أستطيع نطق كلمة واحدة بالإنجليزية، وكأنني لا أفهم شيئاً، كما أنني غير مؤمنة أصلاً ولن أكون، وهو ما استوقفني من أجله واحد منهما بحدة ليسألني من أين لي أن أعرف ذلك. على أية حال فقد اكتفيا بإعطائي أحد المنشورات التي كانت تقول إن الرب أيضاً قد ضحى بابنه من أجل أن يغفر لي ذنوبي. في الحقيقة كان لا بد أن أسأل هذين الشابين - ذوي القمصين البيضاوين المزركشين اللذين نجحا في توزيع إنجيلهما على بعد مسافة

قريبة لدى إحدى السيدات - عن مدى وحشية ذلك الأب ليُعَرّضَ ابنه لمثل هذه الميتة البشعة من أجل الفداء. ولم يكن السبيل الوحيد لخلاص الإنسان المسيحي من خطاياه هو الصليب، آلة التعذيب تلك التي تخلع ذراعيه. بينما الدائرة - رمز البوذية - تضع الإنسان ككل متكامل في مركز العالم، الدائرة التي تحيط بك، تعمل على - كما كتبت برما الراهبة - أن تبقيك دائماً في مكان مقدس، ويمكنك أن تفتح حواسك لتكون دائماً واعياً بمعنى وجمال كل تفصيلة في كل لحظة في حياتك. "If you want to attain enlightenment you have to do it now" (إذا كنت تنشد النور فعليك به الآن).

ليكن الركض عودة إلى فندق ميس فيكتوريا في مثل هذه الساعة من الصباح حيث لا يكون مأهولاً سوى بالسيد إنريكو وفرقة عمال النظافة. Hallo, Herr Enrico, nice to see you, yes, I am fine, yes, my apartment is okay «مرحباً، يا سيد إنريكو، تسرني رؤيتك، نعم، أنا بخير، نعم، شقتي في حالة جيدة، أشكرك»، وفي شقتي وجدت أنجلينا، السيدة السوداء الوحيدة بين عمال النظافة في فندق ميس فيكتوريا، وأمامها ألفونسو البويرتوريكي، حيث كانا قد بدلا الملاءات للتو - بالإضافة إلى ملاءة السرير الذي لا أستخدمه أبداً، وهو ما لم يكن يمكن الجدال فيه معهما - وكانا الآن ينظفان المطبخ. يا لحرارة الجو، سألتهما إن كانا يشعران بالعطش، فاعترفا بعد تردد لكنهما لم يرغبا في أن أحضّر لهما مشروباً. خلطت لثلاثتنا مشروب الكامباري بالصودا فقبلاه بتردد، إلا أن ألفونسو جلس معي إلى الطاولة المستديرة الصغيرة وشرب بسرعة، أما أنجلينا فلم ترغب في الجلوس، قالت إنها مرهقة بحيث لن تقوى على الوقوف ثانية إذا ما جلست. أغلب ظني أنها لم تكن تريد الجلوس في حضرتي. لم

تكن أنجلينا فقط شديدة السمرة مثل الآخرين الذين نسميهم نحن البيض «سود»، بل كانت أنجلينا سوداء فعلاً. تميز جسدها بكثرة مناطق الاستدارة أينما سُمح لجسد امرأة أن يظهر استدارةً، من دون أن تبدو ممتلئة، حتى جبهتها، وخدودها، وشفتاها كانت ممتلئة، حتى ذقنها كانت مستديرة، وجناحا أنفها الذي اندست عظمته بين تجويفي العينين اللامعتين أقرب للاستدارة أيضاً. كذلك الكوع، والركبتان اللتان برزتا من تحت التنورة الواسعة الملونة كلما انحنت، أما شعرها فقد التف حول بعضه في تموجات صغيرة فوق رأسها المكوّر. سألتها منذ متى تعمل هنا. ست سنوات. قالت إنها من أوغندا. لها ستة أطفال هناك كانوا يعيشون مع أمها ثم مع أختها بعد وفاة الجدة وهي تعمل من أجلهم هنا. قالت مبتسمة: "I have to work very hard" (عليَّ أن أكدّ في العمل). علمت أنها تتم ورديتين في اليوم الواحد في فنادق مختلفة ولا تكاد تأخذ قسطاً من النوم أحياناً. لم أسأل عن والد الأطفال، سألت أنجلينا كم تبلغ من العمر. قالت: ستة وثلاثين عاماً. أما أبناؤها فهم بين الستة والثمانية عشرة. لم ترهم منذ عام ١٩٨٩- ثلاث سنوات - بسبب ارتفاع أسعار الرحلات الجوية. مدت يدها تودعني وانحنت أمامي شاكرة إياي على المشروب. في هذا الصباح سعدت بأنهما - أنجلينا وألفونسو - سيغادران شقتي بسرعة، وأنني سأتمكن من إحضار الملف الأحمر من المكتبة في الغرفة الكبيرة. لم تخني الذاكرة، كانت إحدى رسائل «ل» مكتوبة في شتاء عام ١٩٧٧، جاءت رداً على خطاب إيما الذي كانت قد أشارت فيه على ما يبدو إلى الأحداث الأخيرة في بلادنا. كان واضحاً بالنسبة إليّ أن بعض هذه المراسلات لم تتم عن طريق البريد الرسمي، لذلك كان أملي ضعيفاً في أن

أكتشف أيّ رسول قام بإسداء هذه الخدمة لإيما و «ل» من دون إثارة للشك. على أي حال قامت «ل» في هذا الشتاء القاتم من عام ١٩٧٧ بكتابة هذه الرسالة لصديقتها (وصديقتي!) إيما:

«عزيزتي. كلا، لا أعتقد أن التاريخ يعيد نفسه. مع أن سيدي الحبيب من رأيه أننا نحن البشر - خاصة اليساريين منا - غير قادرين على أن نتعلم من أخطائنا. لكن انظري: أنا وأنت يمكننا أن نقول بكل تواضع: لقد تعلمنا شيئاً. فأنت لم تعودي كما كنت سابقاً على استعداد للتسليم بالدوغما التي ترى في كل فكر مغاير عدواً طبقياً، ولم يكلفك ذلك القليل. وأنا التي أثقلت عليك بالسخرية والازدراء من إخلاصك للحزب، ها أنا أتفهم اليوم كونك لم تنشقي عنه أبداً. اليوم لن نعود للشجار حول مثل هذه القضايا وللوقوف وجهاً لوجه نزلزل الأرض في مطبخك من شدة الغضب. ألا يعد هذا تقدماً؟ بالمناسبة أنا أرى مطبخك أمام عيني، أستطيع أن أصف كل قطعة فيه. نعم، أحياناً أشعر بالحزن لأنني لن أتمكن أبداً من رؤية المطبخ الذي تجلسين فيه مع أصدقائك الآن. ولن أرى هذه الفتاة التي يبدو أنها تقلقك لأنها كما يقال بالعامية «سرقها السِّكِّين»؟ لكن لماذا؟ ماذا تريد أن تثبت لنفسها؟ أنها شجاعة؟ أنها تستطيع أن تكون مؤثرة؟ أم أن ما تؤمن به جدير بكل جهد؟»

هل كانت صديقتي إيما تقصد إعادة توجيه هذا السؤال إليّ؟ أحياناً كان يهزني، وأحياناً كان يجرحني أنهما كانتا تتبادلان الحديث عني من وراء ظهري. إن كان صحيحاً أنني قد سرقني السكين - خطر

لي - فذلك لأنني لم أعتبر السكين سكيناً. وقد تغير هذا. لكن لماذا بهذا البطء كلّه؟ لماذا بهذا الجهد كلّه؟

كتبت «ل»: «اتركي الشباب يشكل خبراته الخاصة. فلن يفعلوا ذلك بشكل أسوأ مني ومنك لو أن فيهم خيراً. وإلا فما الذي عليهم فعله؟ الاستسلام؟»

حكت بيرما - الراهبة البوذية - قصة امرأة تحاول الهرب من النمور. ظلت تجري وتجري والنمور تقترب. وحين تصل إلى حافة الهاوية تجد بعض الكروم في الأسفل، فتتسلق نازلة وتقطف بعض العنب. حين تنظر إلى أسفل تكتشف أن هناك نموراً أيضاً. ثم تلحظ فأراً يهرول بين الكروم، ترى شجيرة توت بري شديدة الجمال بالقرب منها كانت قد نمت بين الأعشاب. تظل تحدّق فيها وتطيل النظر، ترى الفأر وتقطف توتة، تضعها في فمها وتتلذذ بطعمها بكل حواسها. - لم يبدُ لي ذلك إنسانياً ولا محبذاً.

عطل مفاجئ في جهاز الكمبيوتر. بعد الصدمة الأولى، بعد محاولات الإنقاذ من خلال الأصدقاء الأكثر خبرة، الذين استعانوا بدورهم باستشارات هاتفية من بعض الأصدقاء الأكثر خبرة منهم هم أنفسهم في ساعات الليل المتأخرة - ويبدو أن من البديهي التعامل مع عوار الكمبيوتر باعتباره كارثة تَوَلّد عنها استعداد هائل للمساعدة من جميع خبراء الكمبيوتر - وبعد أن صارت لدينا فكرة عامة عن كم النصوص التي ضاعت بالفعل بسبب تكاسلي عن تسجيلها كل ليلة على الأقراص الممغنطة، أي بعد أن صار واضحاً بالنسبة إليّ أن المساحة الفارغة لا بد من ملئها بما في رأسي من مادة مسجلة،

ظهرت عليَّ أعراض ما يشبه الشماتة. ماذا يمكن أن تعني هذه الحادثة؟ هل كان ذلك البؤس التقني نداءً يصعب تجاهله بأن «توقفي!»؟ هل هو إبراء ذمة محمود من بذل الجهد المتواصل؟ هل يمكن اتخاذ هذه الحرارة غير العادية في صيف مدينة مكلنبورغ ذريعة للكسل؟ أم كيف يمكنني - على إدماني المعروف للبحث عن التفسيرات - أن أفهم هذه الصدفة السخيفة غير ذلك؟ أيودّ هذا «الانهيار» - ويا لوضوح هذه الصورة - أن ينذرني أنني من خلال الكتابة كنت أقترب من تلك النقطة التي أطوف حولها تارة عن قصد وأخرى بطريقة فنية؟

كان تساقط شعري دائماً علامة، حينذاك أثناء ارتفاع درجات الحرارة مع تغير الفصول كان شعري يتساقط مجدداً، بكميات، نقلت الخبر لبرلين، يتساقط شعري بكميات هائلة. لديك ما يكفيك وسوف ينمو مجدداً - جاء الصوت عبر المحيط. ليس هذه المرة - خطر لي - اشتريت أقراصاً لتغذية الشعر والأظافر وحاولت أن أتذكر متى كان شعري يتساقط قبل ذلك. بعد الإصابة بالتيفوئيد ١٩٤٥ كدت تصابين بالصلع. بعد ولادة الأطفال كانت خصلات الشعر تسقط على وسادة رأسك، مثلما تسقط الآن على الوسادة المحشوة عن آخرها في سريري الأمريكي العريض. بعد جلسة الحزب تلك عام ١٩٦٥. بعد دخول قوات حلف وارسو إلى براغ ١٩٦٨. في شتاء ١٩٧٦/٧٧ القاتم عندما انطلقت السيارات كلٌّ براكبَيها المراقبين من أمام نافذتكما ورحتما تناقشان من وراء الستائر مسألة الرحيل أم البقاء. بعد العمليات الخمس ١٩٨٨. بعد فشل انتفاضة الشعب في خريف ١٩٨٩ - إذ لم تقدم خطة - فشلاً ذريعاً. ولكن يبدو أن تلك الهرمونات المسؤولة عن

نمو الشعر لا تعبأ كثيراً، يبدو أنها لا تتفاعل مع وجهات النظر وإنما فقط مع التقلبات العاطفية التي تمس جذور الوجود.

مذكرات توماس مان. حي باسيفيك باسيلاديس، *الأحد الموافق ١٥/١٠/٤٩: . . . خطاب إلى الألماني الذي أرسل لي رسالة غرامه بزيرينوس تسايتبلوم*[١]. . . : *يسعدني معرفة أن في ألمانيا أناساً يجدون في أهم أعمال حياتي أو في أحد أعمالي عموماً ما يغرمون به وليس فقط ما يتنطعون عليه. الحقيقة أنه غباء من الألمان أن يهدموا ويشوهوا أفضل ما بين أيديهم وأفضل من يمثلهم بالشكل اللائق في العالم كله. ما من شعب آخر يفعل ذلك.*

التلفاز. رأيت السيد كلينتون - الذي سوف يصير رئيس الولايات المتحدة الأمريكية في اليوم التالي - مع زوجته السيدة هيلاري التي اضطرت أثناء المعركة الانتخابية إلى التخفف من اعتدادها بالذات، وإلى تغيير أسلوب ملبسها لتتقدم مع ابنتها تشيلسيا حشد الجماهير الأمريكية من مختلف الألوان والأعمار على ذلك الجسر الشهير في

(١) **زيرينوس تسايتبلوم**: أحد أبطال رواية «**دكتور فاوستوس: قصة حياة الموسيقي أدريان ليفركون يحكيها صديقه**» وهي رواية من تأليف الألماني توماس مان، بدأ في كتابتها في عام ١٩٤٣، ونُشرت للمرة الأولى في عام ١٩٤٧. الرواية تستند إلى أسطورة فاوست، وتدور أحداثها في النصف الأول من القرن العشرين حول الاضطرابات التي حدثت في ألمانيا في تلك الفترة. الشخصية الرئيسية في الرواية هو الموسيقار أدريان ليفركون الذي يحكي قصته صديقه زيرينوس تسايتبلوم، فهو موسيقار يعقد اتفاقاً مع الشيطان بأن يمده بأربعة وعشرين عاماً من العبقرية الموسيقية مقابل أن يمتلك الشيطان روحه.

واشنطن، وفي يدها أطفال سود سيراً باتجاه أجراس الحرية المُقَلّدة التي بدأت تدق حينئذ. أن تكون تشيلسيا غير مقيدة في مدرسة حكومية رغم كون عائلة كلينتون مؤيدة للمدارس الحكومية بالطبع، فهذا ما يبدو أن الأمريكان قد تسامحوا مع الأبوين بشأنه. وسألت نفسي إن كنت سأخجل من نفسي بعد ثلاثة أو أربعة أشهر لأن الدموع تلألأت في عيني لدى رؤية هذه الجموع المطمئنة الفرحة المتقدمة للأمام.

حلم. أسير على الطريق السريع مع أناس كثيرين في سيارات مختلفة لا أعرف أياً منها في حياتي «الحقيقية». أراض جرداء مقفرة. استراحة قصيرة. انطلاق مفاجئ. الآن كنت وحدي في سيارة صغيرة جداً، أتوقف، فأرى في المرآة صورة ضخمة لغطاء محرك شاحنة خضراء ضخمة. لا بد أن أمضي في طريقي، لكنني أصر على العودة لسبب ما، لذلك أنحرف وأوجه السيارة خلال مناورة جريئة إلى الحارة المرورية الوسطى. هناك في الأفق تقف أجسام شاحبة، أحدهم يقول للآخر: اليوم هو ذكرى الجمهورية الألمانية الديمقراطية، والآخر يجيب بهدوء: فلننحه جانباً. ثم يصيحون بي بانفعال: احذري! على تلك الناحية من الطريق التي أردت أن الانتقال إليها تأتي سيارة إسعاف مسرعة يرفرف عليها علم الصليب الأحمر، تحيد قبل أن تصل عندي وعند سيارتي الصغيرة بقليل إلى الحارة المرورية التي جئت منها وتتوقف بعد مئة متر. الآن فقط أرى: ثمة جثث ممددة هناك ملفوفة بالأغطية، وبضعة نعوش متناثرة أيضاً. كل شيء رمادي. كنا قد قطعنا بضعة أمتار قبل تلك الاستراحة المشؤومة، ولم نكن قد لاحظنا أي شيء. الضوء الشاحب فوق المنظر الطبيعي. صورة سيريالية.

في الراديو سمعت أثناء تناول الإفطار رجلاً يتحدث عن أبويه

اللذين أُعدِما منذ أربعين عاماً. سمعته يقول إنهما كانا شخصين جديرين بالتقدير كانا يودان تغيير العالم للأفضل. فهمت: كان المتحدث هو أحد أبناء إيتيل ويوليوس روزنبرغ.

قال: أنا وأخي كنا في السادسة والعاشرة من عمرنا حين حُكم على أبوينا. بغض النظر تماماً عن معنى أن يفقد أبويه بهذه الطريقة يصعب على المرء تصور معنى أن يتربى ابن مثل هذين الأبوين في الولايات المتحدة. - ما معنى ذلك إذن؟ سألت المذيعة. فحكى روبرت عن أحد كوابيس طفولته، عن الاضطرار لإخفاء اسم العائلة، عن إحدى دور الأيتام التي وصفها بـ«السجن». عن الفصل التعسفي من المدرسة حين اكتشف آباء التلاميذ الآخرين هويتهما. "It was an experience" (كانت تجربة) - قال - وإنه لا يزال هناك الكثير من الأطفال في أمريكا مات آباؤهم من أجل عالم أفضل ونسيهم العالم. وقد أنشأ هو وأخوه صندوقاً لدعم هؤلاء الأطفال.

أذكر هذا اليوم جيداً. لا بد أنه كان في عام ١٩٥٣. كنتِ تدرسين في مدينة لايبزيغ، كان طفلكما الأول قد ولد، كنت جالسة على الأريكة في الغرفة المُدفأة والرضيع على ذراعك. كان ذلك في الصباح. سمعت في الراديو أن إيتيل ويوليوس روزنبرغ[١] قد نُفِّذَ فيهما ليلاً حكم الإعدام بالكرسي الكهربائي في الولايات المتحدة الأمريكية. بكيتِ. ملست على رأس ابنتك الصغيرة. ما زالت أحس

---

(١) **يوليوس وإيتيل روزنبرغ**: زوجان شيوعيان من أصل يهودي من مدينة نيويورك أدينا بتهمة التجسس لمصلحة الاتحاد السوفياتي سنة ١٩٥٠ وحُكم عليهما بالإعدام بالكرسي الكهربائي، وهو الحكم الذي نفذ فيهما سنة ١٩٥٣ في سجن سنج سنج.

بملمسها حتى اليوم على أطراف أصابعي، كم كانت ناعمة ورقيقة. ما زلت أعرف أنكِ فكرتِ: هذا اليوم لن أنساه. ولم أنسه.

استراحة شاي في «المركز». كان الجميع يعرف اسم روزنبرغ، الجميع كان قد فكر في المسؤولية الأخلاقية الواقعة على عالِمَي الفيزياء النووية: هل أسهم عملهما على القنبلة الذرية في إسقاط الاشتراكية القومية؟ ألم يكن على العالِم أن يفعل كل ما بوسعه لتوقيف مدمّري البشرية، باستخدام وسائلهم هم أنفسهم البشعة؟ أي: أن يكون مذنباً في كل الأحوال. صراع التراجيديات القديمة. لِمَ بدا لي صراع الأوريستيا(١) وأيفيجينيا(٢) إنسانياً، وصراع أصحابنا علماء الفيزياء في

---

(١) **ثلاثية الأوريستيا**: تتكون من ثلاث مسرحيات (أغاممنون - حاملات القرابين - الصافحات)، وتتناول موضوع اللعنة المتوارثة في بيت أتريوس وأحداثها الرئيسية كالآتي: أنجب بلوبس ولدين هما أتريوس وثيستس، وحاول ثيستس غواية زوجة أتريوس، قام أتريوس بالتظاهر بأنه قد غفر خطأ أخيه، لكنه انتقاماً من أخيه قام بدعوته إلى مأدبة، كان أتريوس قد ذبح فيها أبناء أخيه إلا واحداً وقدمهم أتريوس لأخيه في المأدبة، وأكل الأب لحم أبنائه دون أن يعرف الحقيقة ولكنه سرعان ما علمها فلعن أتريوس وذريته وفر بابنه الباقي هارباً. ثم تزوج ابنا أتريوس أغاممنون ومينيلاوس من كليتمنسترا وهيلين التي قامت من أجلها الحرب الطروادية الشهيرة وأثناء غياب أغاممنون في الحرب يعود إيجستوس ابن ثيستس، ويتخذ كليتمنسترا عشيقة له، وعندما يعود أغاممنون إلى وطنه منتصراً، فتتأمر كليتمنسترا وعشيقها لقتل أغاممنون، وبالفعل ينجحا في ذلك (وهذا ما تناولته مسرحية أغاممنون). وعندما يكبر أوريستس ابن أغاممنون، يعود إلى وطنه وبالاتفاق مع شقيقته إلكترا لقتل كليتمنسترا أمه وعشيقها انتقاماً لأبيه (وهذا ما تناولته مسرحية حاملات القرابين)، فتطارده الأيرينيات (ربات العقاب) عقاباً له على جريمته إلى أن تتم محاكمته وتعلن براءته فترفع اللعنة من على منزل أتريوس.

(٢) **إيفيجينيا**: ابنة كليتمنسترا وأغاممنون في الأساطير الإغريقية. وأغاممنون هو قائد القوات اليونانية في حرب طروادة. وقد ضحى أغاممنون بإيفيجينيا إلى =

المقابل غير إنساني؟- سألت بيتر غوتمان الذي سار معي إلى فندق ميس فيكتوريا. قال: عندما يُدفع أناس حسنو النية إلى مثل هذه الورطة بحيث لا يتسنى لهم حسب مقاييسهم أن يفعلوا أي شيء صحيح فلا بد أن هذا المجتمع الذي يعيشون فيه مجتمع مريض. التزمت الصمت.

أراد الدكتور كيم فجأة أن يعرف الانطباع الذي يخلفه عندي. حسناً هو مغرور بالتأكيد - فكرت ساخرةً- أمعنت التركيز وقلت إنه يبدو لي قوي الإرادة، طيباً، يعرف ما يريد، خفيف الظل، يمكنه أن يضحك، وقبل كل شيء هو قادر على ترتيب الأولويات، يعرف كيف يفرق بين ما هو ضروري وما ليس ضرورياً. ابتسم الدكتور كيم ابتسامة أكثر غموضاً من أي وقت، غرس ست إبَر، أطفأ الأنوار وقال: "Relax!" (استرخي!) ورحت أنا أفكر وأنا نصف نائمة، ربما لم يكن غروراً، ربما يعرف أن كل شخص سوف يسقط عليه تلك الصفات التي يتمناها هو لنفسه، وخطر لي ما لم أقله لك: ألا وهو أنه يحب ممارسة نفوذه على الآخرين، وأن يبدو متفوقاً عليهم كلما أمكن، إلا

= الإلهة أرتيميس، كما تزعم الأساطير الإغريقية، أملاً في أن ترسل الإلهة إلى الأسطول اليوناني رياحاً مواتية لرحلته إلى طروادة. وتقول إحدى روايات الأسطورة إن إيفيجينيا ماتت خلال التضحية. ووفقاً لرواية أخرى قامت أرتيميس بإنقاذ إيفيجينيا وتقديم غزال برّي بدلاً منها. وقد حملت الإلهة إيفيجينيا إلى أرض طوريس، حيث أصبحت كاهنة أرتيميس. وبعد ذلك أقدم أوريستيس، شقيق إيفيجينيا، على اغتيال كليتمنسترا. وأمره الإله أبولو، عقاباً له، أن يذهب إلى طوريس، ويجلب من هناك تمثالاً خشبياً مقدساً لأرتيميس. وقبض الطوريون، الذين اعتادوا تقديم الأجانب ضحايا، على أوريستيس، لكن إيفيجينيا وأوريستيس هربا من طوريس ومعهما التمثال. وبعد عودة إيفيجينيا إلى اليونان صارت مرة ثانية كاهنة لأرتيميس.

أن الاحترام الذي يحظى به ينبع من سلطة حقيقية، من تفَوُّق لم يكن يدعيه وعلى ما يبدو فإنه أيضاً لا يستغله. عندما عاد: "Did you relax?" (هل استرخيتِ؟) حملقت فيه لكي أتمكن من وصفه: رأسه المستطيل داكن البشرة ذو الملامح الآسيوية، يداه النحيفتان الحساستان، لباسه الأزرق المصمم على طريقة ملابس اليوغا ذو الياقة الناصعة البياض. تقول زيغريد التي أعطتني وصلاً بستين دولاراً في غرفة الاستقبال إنه قد أنقذها - هي التي كانت مريضة بورم سرطاني خبيث عن طريق حمية صارمة وجلسات التأمل والإبر الصينية، وإن آخر اختبار لم يُظهر أي خلايا سرطانية. كانت زيغريد ألمانية، لكنها تحدثت معي أنا أيضاً أغلب الوقت تلقائياً باللغة الإنجليزية.

في شارع ثيرد ستريت عصراً ذهاباً إلى دار العرض المزدحمة. إيميلي - جارتي التي تسكن بالأعلى - الخبيرة السينمائية الخاصة بنا كانت قد أقنعتني بالذهاب معها. "Close Encounters of the Third Kind" (مواجهات تقريبية من النوع الثالث) فيلم لا بد من مشاهدته. لم أكن مستعدة لرؤية الكائنات الفضائية تقتحم حاضرنا بشكل مباشر، لأن تفزعنا بالأضواء الساطعة في السماء، تدع الدمى ترقص أمام أعين ربة المنزل في الضاحية الأمريكية المُرَتّبة، وتقوم بتحريك كل الآلات بداية من المكواة إلى الثلاجة، وتأتي للأم المروَّعَة بطفلها عن طريق جذبه حرفياً من بيت القطط، أي أن توقظ كل المخاوف الخفية وتحقق كل الأماني المكبوتة. ثم أن يتم السماح لها - بفعل التقنيات والموسيقى - بالهبوط في أحد الميادين التي أقامها ببراعة فرنسوا تروفو[1] - المؤمن

(١) فرانسوا رولاند تروفو (١٩٣٢-١٩٨٤): مخرج فرنسي عمل خلال تاريخه الفني الذي استمر أكثر من ربع قرن في مختلف الوظائف: كاتب سيناريو، =

بالأطباق الطائرة - حيث تتم إستعادة بعض البشر المختطفين ومن بينهم بالطبعً ذلك الطفل المخطوف وتسخير مسافرين آخرين. وحيث نكتسب نحن صورة مؤثرة لهؤلاء الفضائيين، ألا وهي أنهم من الناحية التقنية يتسمون بالكمال ومن ناحية أخرى غير محرَّرين بما يتماشى مع توقعاتنا، وهو ما لم تكن إيميلي - التي ظلت شحيحة الكلام طوال الطريق - تريد أن تستبعده. هكذا أبدت بشكل غير مباشر أن تأثير رسالة فيلم الفضائيين قد تجلت لها من خلال ما بدا علينا من تعاطف.

في تلك الليلة قامت بدعوتي إلى شقتها لتناول البط المشوي، حيث عثرت على ماري، الصحفية الإذاعية اللبقة، الناجحة، شديدة النحافة، ومارك الذي يعمل مهندساً في أحد مشروعات التلسكوب الفضائي، الذي يُفترض أن يلتقط إشارات من حضارات أخرى كانت لدى مارك قناعة راسخة بوجودها. قال إنه أمر «محسوم بالإحصاءات». لكن ماري وحدها من استطاعت أن تضيف شيئاً من خبراتها الخاصة «بالنوع الثالث» الذي قالت إنها لا تتحدث عنه في

= مخرج، منتج أو ممثل في أكثر من ٢٥ فيلم. كان أحد مؤسسي الموجة الحديثة الفرنسية في صناعة الأفلام، ويعد أيقونة صناعة الفيلم الفرنسي.

والموجة الجديدة (La Nouvelle Vague) مصطلح يستخدمه النقاد للتعبير عن أفلام سينمائيين فرنسيين من نهاية خمسينيات وحتى نهاية ستينيات القرن العشرين، الذين تأثروا بسينما الواقعية الجديدة الإيطالية، وسينما هوليوود الكلاسيكية. ورغم أنها لم تكن حركة منظمة بشكل رسمي، فإن سينمائيي الموجة الجديدة كانوا مرتبطين برفضهم الواعي للشكل السينمائي الكلاسيكي وروحهم الشبابية المتمردة على التقاليد وشكلوا جزءاً من السينما الفنية الأوروبية. العديد منهم اشتركوا بأعمالهم بالانقلابات السياسية والاجتماعية في تلك الفترة، جاعلين تجاربهم الراديكالية في التحرير والأسلوب البصري والسردي جزءاً من انقطاع عام مع النموذج المحافظ.

مقام آخر: أي مع من لا يؤمنون به. فإنها حين كانت منذ بضع سنوات في رحلة بالسيارة عبر أريزونا مع عائلتها، التي ينتمي إليها أيضاً طفل صغير وكلب، على أحد الجبال حيث يوجد برج مراقبة شهير، بدت في السماء ظواهر ضوئية غريبة شديدة السطوع، لم يتسنَّ لهم بعدها إعادة تشغيل السيارة. فاضطُّروا لدفعها نزولاً من على الجبل، وبدأ الطفل يرتجف ويرتعد من شدة الخوف والكلب يضع كفيه على رأسه مرتعشاً، وتسلل إلى أسفل المقعد. أما هي فقد نظرت خارج النافذة فرأت في السماء ثلاثة كائنات داكنة اللون تشبه شكل السيجار تتحرك في تشكيلات متماسكة باتجاهها. قالت ماري إنها صرخت وإن الآخرين رأوا ذلك أيضاً. ثم حدث ما يشبه انفجاراً غير مسموع، وهج ضوء شديد السطوع، ثم كان كل شيء قد انتهى. كانت السماء فارغة، عاد محرك السيارة يدور، وأكمل الجميع الطريق في ذهول. بالنسبة إليها صارت المسألة محسومة منذ ذلك الحين، حكايات هؤلاء البشر الذين يزعمون أنه تم اختطافهم من قبل فضائيين مبنية على حقائق.

ليس هذا فحسب - قالت ماري - بل إن صديقاً لها، عالِماً ذا هَوَس خاص بالساعات بحيث لا بد أن تكون ساعته دائماً منضبطة بالثانية قد كان في رحلة بالسيارة إلى لندن المفترض أن تستغرق ساعتين أخريين، رأى فجأة مرة أخرى أحد هذه الكائنات في السماء يقترب منه، كان متعدد الزوايا، أخضر، محاطاً بضوء ساطع يشبه الهالة، هبط بجانب الشارع الذي كان يسير فيه، تحديداً بجوار سيارته. وكان هذا آخر ما استطاع أن يتذكره. وعندما استعاد وعيه وجد نفسه على أطراف مدينة لندن وقد أشارت ساعته المنضبطة إلى أنه لم يمض سوى خمس دقائق. دعنا من تكهنات الهلوَسة. فإن صديقها لم يحدث أحداً عن هذه الخبرة لكي لا يتهم بالجنون، إلا أن

سائقي شاحنات كانا على الطريق في النقطة نفسها من الزمان والمكان معه كان قد حدث معهم الشيء نفسه وقد توجهوا إلى الشرطة لتحرير محضر بالواقعة، وقد تم نشر خبر عن ذلك قرأه صديقها في الجريدة بعد يومين.

أما البط المشوي فقد كان مقرمشاً وجيد التتبيل، وكان النبيذ الكاليفورني لذيذاً. لمدة لم تطل استطاعت الأخبار والشائعات حول «المركز» وإدارة الجامعة أن تسيطر على الجلسة، إلا أن حديث المساء وجد لنفسه منفذاً إلى الأسماع مرة أخرى. أرادت إيميلي أن تعرف أكثر عن قصة إحدى السيدات التي تزعم أنها قد حملت طفلاً من تلك الكائنات الفضائية. وقد تم اختطافها إبان عملية الولادة لنزع وليدها منها. لاحقاً مكنوها من رؤية الطفل لتتأكد أنه كان مطلوباً لتحسين الخلايا الجينية لتلك الكائنات، تحدثت إيميلي عن ذلك بمنتهى الجدية وكأن الموضوع هو الأكثر منطقيةً في العالم. على أي حال - أضافت - من قال إن الفضائيين طيبون فقط؟ ولِمَ لا تكون ثنائية الخير والشر قد وجدت طريقها إلى «هناك» أيضاً، بحيث يكونون «هم» صورة طبق الأصل من عالمنا، أكثر اكتمالاً تقنياً وأقل اكتمالاً إنسانياً؟

التفتت إلى مارك: أليس علينا أن نعتبر ذلك خطراً كبيراً؟ فقال مارك إنه يصعُب معرفة ذلك، لكنه على أتم استعداد للانضمام لأي مؤسسة تتحمس لاستكشاف أعماق الفضاء الخارجي، فإذا عاد من هناك ووجد أن إيميلي لا تزال تعيش على وجه الأرض فإنه سيخبرها بكل المعلومات التي يبدو أنها تثير اهتمامها بشدة. نعم - قالت إيميلي إنها حاوَلت بالفعل أن تعرف من رواد الفضاء مباشرة بِمَ كانوا يحلمون في الفضاء الخارجي. لقد اتصلت مرةً بالفعل بأحد الرواد الذين صعدوا إلى القمر، إلا أنها لم تجرؤ على أن تسأله. أما هو فقد صدها

بفظاظة: لم يكن بإمكانها أن تعتصر الدم من الحجر. تعبير بشع - كما تعتقد إيمي - لكن تكوَّنّ لديها انطباع بأنه يكذب. أو أنهم دربوه على التخلي عن الأحلام. ربما اختلف الأمر - حسب رأيها - فيما يخص رواد الفضاء السوفيات.

احتمالات ألا تكون هناك كائنات ذات قدرات عقلية غيرنا في الكون هو ما لم يريدوا أخذه في الاعتبار، وكأنهم يخشون الشعور بالوحدة الذي سوف يداهمهم حينها.

ما زلت أذكر أنني بعد ذلك في تلك الليلة رأيت أحد أغرب أحلامي. كنا كلانا سائرَين على أرض غير مستوية مُعَشّبَة موحِلة بعض الشيء، وأنا أجلب أحد قوارير الحليب البيضاء الناصعة كما يستخدمها الفلاحون في حظائر البقر - هذه أنا عندما أحلم - وعنزة داكنة اللون ترعى بسلام أمامنا، ونحن نسير نحوها غالباً لنطعمها، كانت أليفة جداً - وأنا أحلم - تركتني أداعبها، وعلى دفعة واحدة ابتلعت وعاء الحليب الكبير كله، كنت في الحلم واثقةً، لن تستطيع العنزة إعادة هذا الوعاء، تحسست جسدها بحذر وخوف وشعرت بالفعل بالحواف المعدنية للوعاء تحت فرائها، لم يبد على العنزة الإعياء بعد، إنه ذنبي - أقول في الحلم - كان عليّ أن أكون أكثر حذراً، ثم يخطر لي أن قدماء اليونانيين كانت لديهم عنزة مقدسة، أمالثيا[1]، ربما تكون هذه هي، أقول مستاءةً بسبب ذنبي حيث مَنَحتُ العطب هبةً، ها هي العنزة تتحرك بل وتبتعد عنا إلى الأرض الموحلة، وقبل أن نلحق بها لننقذها

(١) **أمالثيا**: هي الحورية العنزة التي احتضنت الوليد زيوس بعدما خبأته أمه ريا على جبل أوكاديوم في منطقة أركاديا خوفاً من أن يبتلعه أبوه كرونوس كما ابتلع إخوته من قبل.

تغوص أمام أعيننا في الوحل بلا تذمّر، شدها الوعاء المعدني في أحشائها بثقله إلى الأسفل وأنا أراقبها بشعور عميق بالتأذّي. لم أجرؤ على الاقتراب من تفسير هذا الحلم.

اليوم منعتني مشاهدة تلفزيونية أن أكتب على الفور ومن دون تردد وهو ما كان مقرراً لهذا اليوم: ظهور وجوه هؤلاء المسنين الذين كان معظمهم رجالاً على الشاشة في ساعة متأخرة الليلة الماضية. ما كانوا يحكونه، أو بالأحرى يصرحون به كان فيه مسحة من الواقعية. كان معظمهم يعملون في ذلك الجهاز الأسطوري الذي يدعى سي أي إيه (CIA) في مناطق مختلفة من العالم يحظى بردود فعل متباينة بين مختلف طبقات الشعب. لكن لماذا يبدأون الآن في استعادة أعمالهم البطولية من الستينيات والسبعينيات والثمانييات، هذا ما لم يُرِد أن يتضح لي. هل يجبرهم أحد على ذلك، وهم الذين يعدّهم التاريخ بالفعل المنتصرين؟ أي شيطان يتلبسهم الآن لكي يحكوا أن عشرين ألف فيتنامي - سواء تابعين للفيت كونغ(١) أم لا - قتلوا بأمر من جهاز السي أي إيه؟ أنه كانت هناك أوامر بقتل باتريس لومومبا ومارتين لوثر كينغ وفيدل كاسترو؟ أن سقوط سالفادور ألليندي في تشيلي كان من تبعات خطة مدبرة؟ كل من أرادت أمريكا التخلص منه قتله جهاز السي أي إيه، وإن كلاّ من هؤلاء الرؤساء الذين وصلوا إلى سدة

(١) **الجبهة الوطنية لتحرير جنوب فيتنام المعروفة بـالفييت كونغ**: حركة مقاومة مسلحة فيتنامية نشطت بين عامَي ١٩٥٤ و١٩٧٦. بدأت قوات الفيت منه في الجنوب في التمرد على حكومة ديم. وقد عُرف هؤلاء بالفيت كونغ. وفي عام ١٩٥٩م أعلنت فيتنام الشمالية تأييدها لهذه الفئة وأمرتها بشن كفاح شامل ضد حكومتها. كانت أول مجموعة متمردة ناضلت ضد الاستعمار الفرنسي وضد جمهورية جنوب فيتنام.

الحكم إما قاموا بترتيب ذلك بأنفسهم أو كان ذلك بعلمهم على الأقل، قال أحد الرجال المسنين. لماذا يقول هذا؟ هل لأن رغبة في التوبة استحوذت عليهم؟ هل لأن بعض هذه المعلومات قد انكشفت على أي حال؟ هناك احتمال ثالث: لأن بإمكانهم السماح لنفسهم بذلك. لأن أحداً لا يستطيع القصاص منهم. لأنهم يملكون حكم العالم ومعه بالتالي تلقائياً كل الحق. لأن كل ما كان ضرورياً للوصول إلى هذا الحق في حكم العالم عُدَّ بدوره صالحاً. هكذا هي الحال، كما أن هؤلاء الرجال المسنين لم يخل استرجاعهم لتلك الذكريات من النقد إلا أنهم يعرفون جيداً أن كشف تلك الأسرار لن يكون له أي تبعات. أو ربما يثير في قلوب بضع مئات من المشاهدين الفزع أو حتى الصدمة، ولكن ما أهمية ذلك؟ إن هذا لن يضر إحساسهم بالحياة الذي يسمح لهم بألا تهتز ثقتهم بأنفسهم وهم يعيشون على جزيرة ميسوري الحال مالكي الحق.

وبعد أن غالبني النعاس على غير المتوقع ظهرت لي قرب الصباح امرأة شابة لا أعرفها، ليست سخيفة، مدت يديها اللتين بدتا كأنهما شفافتان نحوي، بمخلوق يشبه البرمائيات وقالت: عليك أن تبتلعي الضفدع. عندما استيقظت كان لا بد أن أضحك. فهي محقة.

معطف الدكتور فرويد - خطر لي - ما الذي يمكن لهذا المعطف أن يبقيه مخبأً داخل بطانته ثم يظل يفصح عنه شيئاً فشيئاً؟ نعم - قال بوب رايس - أنا أيضاً تساءلت. ماذا يمكن أن يعني فقداني لهذا المعطف المسحور. أن يكون قد سُرِقَ مني. هل أغلقت الباب حقاً؟ إن لم أكن فعلت - وهو أمر مستحيل في الحقيقة مع أنني لا أستطيع أن أستبعد الفكرة تماماً وفقاً لفرويد - فماذا يمكن أن يعني ذلك؟ أكانت لدي رغبة في التخلص من هذا المعطف؟ لكي لا يبقى معلقاً

على بابي فيذكرني كل يوم بأشياء كنت أُفضّل أن أنساها؟

لمن توجه هذا الكلام أيها السيد؟ - قلت له، لأنني كنت في ذلك الوقت أتعلم عن التذكر والنسيان بعض أشياء لم أكن أحسب أنها ممكنة. كل ما فيّ كان يحجم عنها إلا أنها لم تعد تستسلم لمحاولات استبعاد خروجها إلى المجال العام، بدأت أكتب مقالاً حاولت أن أجعله صادقاً بقدر الإمكان، وأرسلته عبر الفاكس إلى إحدى الصحف في برلين. لم أحدث أحداً بشأن هذا حتى أخرج بيتر غوتمان ذات صباح مقالاً من ماكينة الفاكس ألقى نظرة على عنوانه المكتوب بحروف كبيرة ثم ناولني إياه: إنه لك بالتأكيد. قرأت الكلمة الرئيسية المطبوعة بخط كبير، قرأت اسمي وأدركت: تم تسليم ملفي لوسائل الإعلام.

اسمع - قلت لبيتر غوتمان - عليّ أن أحكي لك شيئاً.

ليس عليك أي شيء - قال بيتر غوتمان، وتركني واقفة: لم يرد أن يسمع شيئاً. إلا أنه عاد ثانية بعد بضع دقائق: أرجو ألا تكوني قد نسيتِ أن غداً عيد ميلادي. في الثامنة عندي.

كان هو أحدَ آخِر من استطعت أن «أحكي» له شيئاً، بل وأكثر شخص كنت أحكي له في معظم الأحيان وبالتفصيل.

إذن لمن يمكنني أن أحكي الحكاية

تلك الحكاية التي كان يجب أن تُحكى الآن رغم أنها لم تكن قصة بالأساس؟ كان على الصدفة أن تقرر: من سيكون جالساً في الاستراحة عصراً لشرب الشاي؟ فرانشيسكو. وحيداً. كاختيار للصدفة

ليس سيئاً أبداً. وضعت صفحة الجريدة المرسلة بالفاكس أمامه على الطاولة، المقال الذي جاء فيه اسمي في سياق الحرفين(١) اللذين تم استخدامهما خلال الشهور الأخيرة الماضية في وسائل الإعلام الألمانية للتعبير عن أعلى درجات الإثم، وظللت أتحدث عن الموضوع طيلة فترة ما بعد الظهيرة، لم يزعجنا أحد، تأخر الوقت، كانت الشمس قد غربت من دون أن نلتفت، بعدها فحسب كنت قد وصلت إلى النهاية، فقال فرانشيسكو: اللعنة.

فرانشيسكو الذي كان يجلس في هذا الأحد الماطر وحده خلف جريدته يائساً كالعادة من الأخبار الآتية من إيطاليا. قال: لقد دمروا البلاد. دمرت الطبقة الحاكمة بلادنا ووقفنا جميعاً نتفرج. قلت: الغباء واحد. وبما أنه التفت مبدياً اهتماماً استطعت أن أضع المقال المرسل بالفاكس أمامه على الطاولة، وبما أنه طوى جريدته ورمقني بنظرة مشجعة استطعت أن أتكلم. فرانشيسكو - الذي اعتبره البعض قليل الحساسية، والذي كان ميالاً للإصابة بنوبات غضب شديدة - أجاد الاستماع لي، وأنا حكيت له عن ذاك الأسبوع الذي سقط من الزمن بالنسبة إليّ قبل تسعة أشهر.

عن رحلتك التي استمرت لمدة عشرة أيام كل صباح في تلك المنطقة من شرق برلين التي لم تعرفيها جيداً. عن ذلك الشارع الذي صار الآن مشهوراً ومشبوهاً لأنه حمل عنوان ذلك الجهاز، عنوان الشر

---

(١) تم استخدام حرفي IM في وسائل الإعلام الألمانية اختصاراً لكلمتي Informeller Mitarbeiter وتعنيان حرفياً الموظف غير الرسمي ويقصد العميل السري، وهو الشخص الذي كان يتعاون مع جهاز الاستخبارات الألماني (الشتازي) لجمع المعلومات وكتابة التقارير بشكل سري.

الأكبر الذي جسدته الدولة الساقطة، الأكثر خبثاً على الإطلاق، ذلك الشيطان الرجيم الذي يصيب بالعدوى كل من يمسه. حاولت أن أصف لفرانشيسكو الشعور الذي تملكك عندما توقفت في ذلك الفناء محاطةً بالبنايات الإدارية ذات الطوابق الخمسة الرتيبة من الجهات الأربع. قال فرانشيسكو إنه يعرف هذه البنايات. وكيف كان له - وهو المتخصص في تاريخ المعمار- أن لا يعرفها؟ مروراً بفكرة أنه لا يمكن لهذا النوع من الأجهزة سوى أن يأوي إلى مثل هذه البنايات. شعور بالوحشة والضيق استحوذ عليك بينما رحت تبحثين عن ثغرة في موقف السيارات المكتظ. لكنك كنت تعرفين إلى أي مدخل سوف تتجهين، وكنت قد أعددت بطاقة هويتك. والمفارقة هي أنه سَهُلَ عليك أمر الدخول لكَوْن الحارس قد صار يعرفك تدريجياً. بالطبع كان عليه أن يسجل رقم بطاقتك في كل مرة، فقد فعل ذلك جميع الحراس الذين كانوا في الخدمة هنا قبله - خطر لك وأنت صاعدة السلم، وكنت تعين كيف كان شعورك بالضيق أقوى بكثير حين تم استدعاؤك - إبان تلك الأوقات التي سبقت التحول - قبل ثلاثة أو أربعة أعوام إلى هذا المبنى. لم يكن المرء يعلم حتى إن كان الغرباء - المشتبه فيهم؟ - يتم استدعاؤهم إلى هذا المبنى أم أنه لا أحد سوى موظفي ذلك الجهاز يدخل ويخرج من هنا، هؤلاء الذين صارت الآن أكثر ملفاتهم سرية - بعد أن تحولت إلى تراث مكشوف أمام أعين الجميع، وكذلك أمام عيني بالقدر الذي يخصني - قلت لفرانشيسكو. أتستطيع أن تفهم؟ - سألته - أنه كان عليَّ أن أجبر نفسي كل يوم أن أعاود الذهاب إلى هناك، وأن أثبت حضوري لدى تلك السيدة التي كانت بالمناسبة بسيطة ومتواضعة، والتي كانت تقوم على تفريغ كل تفصيلة في تقريركما الذي كانت تحفظه في صندوق أخضر كبير

سميتماه «صندوق البحارة»، والذي كانت تخرج لك منه يومياً الحصة المطلوبة من الملفات لتضعها أمامك على الطاولة في غرفة الزوّار تلك والتي يجلس فيها زوّار آخرون حول الطاولة نفسها أمام كومات ملفاتهم.

كان الهدوء يخيم على هذه الغرفة. قامت الموظفة المسؤولة عنك بتعريفك بقواعد اللعبة، وبالمناسبة كان من ضمن هذه القواعد أن تقرأ عليك ملفاتك كلمة كلمة، لكنها - كما أكدت - كانت ملتزمة بألا تتحدث عن محتواها.

اسمعي - قال فرانشيسكو - ليس عليك أن تكملي حديثك الآن.

قلت: بلى، عليّ أن أفعل. كانت الملفات أكثر بكثير مما توقعت. اثنان وأربعون مجلداً، أضيف إليها المزيد فيما بعد، وكان من بين ذلك محاضر تنصت على مكالمات هاتفية. كانت المراقبة قد بدأت منذ وقت مبكر جداً. كانت ملفات الثمانينيات موجودة ما عدا بطاقة واحدة، كان مكتوباً عليها في خانة المحتوى: غير متوفر. تم التخلص منها. على أي حال لا يمكن العثور عليها.

ثم ماذا؟ - سأل فرانشيسكو - هل كان أسلوب حياتكما ليختلف لو أنكما عرفتما ذلك؟

قلت: إنني أفكر في ذلك منذئذٍ. كنتما - مثلكما مثل الكثير من الأصدقاء - تضعان في الحسبان أن تتم مراقبتكما. لكن ليس مبكراً هكذا. ليس بشكل كامل هكذا. كنتما تتبادلان النكات عبر الهاتف. كنتما تعبران عن آرائكما أيضاً كاملة من دون أي تَحَفُّظ لكنكما كنتما تتجنبان ذكر الأسماء. إلى هذا الحد كان الحذر واجباً. ومع ذلك فلم ترغبا في إعطاء نفسيكما أهمية أكثر من اللازم لكي لا تُسقِطا نفسيكما في فخ جنون العظمة. يصعُب وصف ذلك، هذه الحالة من المعرفة

والإنكار التي عشنا فيها - قلت لفرانشيسكو - أما هل كان أسلوب حياتنا ليختلف لو عرفنا؟! لا أعرف.

في ذلك النهار في الاستراحة لم أكن لأعرف كم من الليالي وكم من الساعات ستمضي في السنوات المقبلة في ثرثرة لانهائية حول ما سنسميه «نقاشات الشتازي». روايات حول وضع تلك الملفات. حول ما إذا كان أحد الشكوك ليتأكد أم ليتبدد. أما لدى الرأي العام فقد سيطر الحرفان: "IM" (العميل غير الرسمي). أياً كان من ينطبق عليه هذان الحرفان أو بدا أنهما ينطبقان عليه، فهو مدان بغض النظر عن كثرة أو قلة ما ينبئ به هذان الحرفان عنه حقاً. أما مشرفتي - قلت لفرانشيسكو - التي كانت تعرف ملفاتي فكانت بالمناسبة قد حذرتي مرتين في الصباح: قالت إنني سوف أشهد مفاجأة غير سارة في هذا اليوم. حسناً - سأل فرانشيسكو - وهل أتت المفاجأة غير السارة؟

أتت بالفعل: تقارير مفصلة من صديق عن حياتكما وأنشطتكما. وبما أنكِ كنتِ تعرفين هذا الصديق جيداً فقد سنحت لك الفرصة لأول مرة للبحث عن تفسير لأسباب قدرتهم أن يحملوه على أن يشيَ بكما. لقد أوقعوه في شركهم بلا ذنب. ولكن لِمَ لم يُلَمِّح لكما؟ حين كنت أقرأ هذه التقارير - قلت لفرانشيسكو - كان علي أن أقاوم شعوراً بالغثيان، وكان علي أن أفكر كم يبلغ عدد من قرأوا هذه الصفحات قبلي وكم يبلغ عدد من سيقرأونها بعدي، كنت أتساءل هل كان يجب السماح بذلك، ثم نما بداخلي هاجس مُلحّ، لو أن حريقاً هائلاًأُشعلَ في الفناء الداخلي لمربع البنايات الكئيب هذا لأحضر الملفات من صندوق البحارة وأقذف بها واحداً تلو الآخر في النار، مدون أن تُقرأ. كم كنت لأشعر بالراحة ساعتها.

أتفهّم ذلك جيداً، قال فرانشيسكو.

ولكن - قلت - كان عليّ أن أبحث عن الأسماء المستعارة في تلك الملفات التي أردت أن أطبع منها نسخاً، ملء حقيبة سفر. كان عليّ ملء الاستمارات لطلب هذه النسخ، واستمارات أخرى لطلب معرفة الأسماء الحقيقية لهؤلاء الذين كانوا مكلفين بالتجسس علينا. تلك التي مثلت أمام عيني بعد بضعة أيام موثقة على الأوراق البيضاء بالحبر الأسود، إلا أنني لشدة خجلي تصفحتها بسرعة. في أغلب الأحيان وجدت تأكيداً لظنٍّ ما، وفي أحيان أخرى أصبت بالأسى من هول المفاجأة، والعجب أنني نسيتها بعد ذلك بسرعة.

ظهراً ذهبت - لكي تخرجي من تلك الغرفة المليئة بالقرّاء الصامتين، كلٌّ منهم غارق في همومه الخاصة لا يبدو أن لديه القدرة على مشاركة الآخرين فيها، نوع خاص من الحياء منعكم سوى من تبادل تحيات عابرة - ظهراً ذهبت عبر الفِناء إلى إحدى البنايات الأخرى، هناك أكلت وجبةً - في ما يشبه المقصف الذي كان على ما يبدو مخصصاً لموظفي هذا الجهاز - مُعدَّةً بلا اكتراث. تفقدت الآخرين الذين جلسوا يأكلون وسألت نفسك كم واحداً منهم يعمل هنا منذ ثلاثة أو أربعة أعوام وإذا ما كان قد اضطر للتنكر لأفكاره ونشاطاته السابقة لكي يحصل على هذه الوظيفة. أم أنهم في الماضي كانوا يتنكرون لأفكارهم الحقيقية وهم اليوم يشعرون بالطمأنينة. لكنهم لم يبدوا مثل المطمئنين، قلت لفرانشيسكو. مع ذلك كيف يمكن أصلاً التدليل على هذا. وصفت له كيف كان شعورك بالضغط يزداد يوماً بعد يوم، وكيف تاقت نفسك لتلك اللحظة التي تسلمين فيها الملفات وتستطيعين إنهاء العمل. وحين كنت تعودين إلى البيت عبر الشوارع الغريبة التي صارت مألوفة راودك شعور بأن عملية وبال بدأت خطاها تتسارع على جانبي الطريق. بدا القِدَمُ على واجهات البيوت خلال أيام

قليلة، الناس على الأرصفة بدوا وكأنهم ينكمشون رغم أنهم حملوا إلى منازلهم في الأكياس البلاستيكية ذات الطباعة الجديدة الملونة السلع الجديدة التي كانوا يتلهفون عليها. حتى أنواع السيارات الجديدة التي أخذت تظهر بأعداد أكبر بين المركبات القديمة لم تنشر البهجة المرجوة منها حين كانت لا تزال حلماً على الشاشات. ربما كانت نظرتي غائمة - قلت لفرانشيسكو - وربما كنت أشهد مرة أخرى إحدى تلك اللحظات التاريخية التي لم أستطع التهليل لها حين كان الجميع يهللون. كان عليَّ أن أعترف لنفسي أن آمالي لا تتخذ مسار آمال معظم الناس نفسه. وأن الكثير من أخطائي تنشأ بالتالي من ذلك. كان عليك أن تتوقفي أحياناً على طريق العودة، تدخلي أيّاً من المتاجر الجديدة وتشتري لنفسك قميصاً أو أي قطعة ملابس أخرى لم تلبسيها بعدها أبداً. وفي البيت كنت تشعرين أن عليك أن تستحمي فوراً وتبدلي ملابسك كلّها.

إنه النظر في تلك الملفات - إن كنت تعلم - هو ما قد أفسد الماضي وسمَّمَ معه الحاضر في الوقت نفسه. قال فرانشيسكو إنه لا يفهم ذلك تماماً. قلت: إن الاختراق المفاجئ للحقائق يمكن أن يكون له تأثير مدمر. هنا ثارت ثائرة فرانشيسكو فصرخ في وجهي: سألني أحقاً اعتقدت أن ما وجدته في تلك الملفات يُمثّلُ حقيقة الوقائع؟

قلت: إن هذا ما يتم توجيه الرأي العام لتصديقه.

بالضبط - قال فرانشيسكو - اسألي نفسك لماذا.

قلت: لقد فكرت في ذلك. كثيراً حين كنت أعود من ذلك المكان الذي كان يوثق الألم، بل ينشر الألم ويعمقه، كنت أسأل نفسي إذا ما كان هذا النوع من المعرفة يمكن أن يؤدي إلى علاج الجراح.

بلى - قلت - لقد كنا نعلم أننا مراقبون. السيارات التي كانت تقف بالأسابيع أمام الباب. المرآة المكسورة في الحمام. آثار الأقدام في أروقة المنزل. الخطابات والطرود البريدية التي كان يظهر بوضوح أنه تم فتحها ثم لصقها مجدداً. المكالمات الهاتفية التي يتكرر التشريش عليها وقطعها باستمرار. يقيناً. كان هذا هو العمل الطبيعي للأجهزة المسؤولة.

ألم تثر تلك الأجهزة مخاوفكم؟ أراد فرانشيسكو أن يعرف. بلى. إنه الخوف الطبيعي من أي خصم يملك أدوات أكثر تأثيراً منك. وقد أحسنت صنعاً إذ استطعت تسميته «خصماً» بلا تحفظ: علاقات واضحة. استغرقني ذلك بعض الوقت. - إنني أعرف ذلك - قال فرانشيسكو - أعرفه كاملاً. أما التصنيفات التي تم إدراجكم تحتها فقد استخلصتها أيضاً من الملفات: «عدائية - سلبية»: حسناً، لقد كان بإمكانك التكهن بذلك.

ألستم تنتمون إلى الـ PUTS[1] (الأنشطة السياسية السرية) والـ PIDS[2] (الانحرافات السياسية الأيديولوجية) - قالت لك

---

(١) PUTs وتعني الأنشطة السياسية السرية التي تروج لتلك الأفكار الغربية العدائية - من وجهة نظر الحزب - ولذلك قام جهاز أمن الدولة بمراقبة هذه الأنشطة اعتقاداً بأنها موجهة من الغرب بهدف تقليب الرأي العام ضد سياسات الحزب الحاكم.

(٢) PIDs: تعبير استخدمه جهاز أمن الدولة الجمهورية الألمانية الديمقراطية لوصف التأثيرات الغربية الأيديولوجية والفكرية لاسيما من خلال وسائل الإعلام وأجهزة الاستخبارات الغربية على المجتمعات التي تقع في منطقة نفوذ الحزب الشيوعي، وهي الأفكار التي كان الحزب الشيوعي الألماني يعتبرها خارجة عن مسار أفكاره كما أنها تثير الشعب والرأي العام ضده، ويضم ذلك كل الأفكار النقدية التي تتناول أيديولوجية وسياسة الحزب.

الموظفة المسؤولة عنك. ولكن ما الذي كان بمثابة السم الذي تسرب من هذه الملفات واستنشقته فأصابك بالشلل؟ وقتها لم تستطيعي تسميته. الآن أعرف: إنه التسطيح الفج لحياتكما في تلك المئات من الصفحات. الاعتيادية التي تعامل بها هؤلاء الناس مع تكييف حياتكما حسب أهوائهم. حتى وإن صحت المعلومات التي كتبها المراقبون والتي أوجزها الموظفون التنفيذيون من وقت إلى آخر - وهو ما لم يكن كذلك دائماً بأي شكل من الأشكال، فقد كان لا بد من تعديلها حسب مصالح وتوقعات صاحب العمل - حتى حينئذٍ لم يصدق أي شيء حسب ظني. إذا كنت قد تعلمت أي شيء من الاطلاع على هذه التقارير فهو مدى ما تستطيع اللغة أن تفعله بالواقع. إنها لغة أجهزة الاستخبارات التي عزلت نفسها عن الواقع. إن جامع الحشرات إن أراد أن يتلذذ بكائناته لا بد له أن يقتلها أولاً. إن النظرة الضيقة للمراقب تتسلل إلى هدفه لا محالة، فيدنسه بلغته الوضيعة. نعم - قلت لفرانشيسكو - هكذا كان الأمر كما استشعرته وقتئذٍ: شعرت أنني قد تدنست.

مرة أخرى عرض عليّ فرانشيسكو أن أتوقف عن الحديث قليلاً، أحضرنا الشاي وكان الظلام قد حلّ. توجهنا إلى النافذة الكبيرة ورأينا آخر شعاع ضوء على البحر. وهل سيستطيع أحد أن يفهم ذلك؟ - سأل فرانشيسكو. ليس كمّ المعلومات ولا مقدار ما وقع علينا نحن العملاء السريين، ولا حتى عملية الكشف عن الأسماء الحقيقية، كل هذا لم يكن هو ما يثير الكآبة بداخلي ويبعث فيّ شعوراً بأنه ليس عليّ أن أسمح لنفسي بالتعمق أكثر في تلك الملفات لكي لا يمسّني الروح الشرير الذي ينبعث منها. كلا ليس «يمسّني» بل: ينقض عليّ. يجب ألا أسمح تدريجياً بتمرير فكرة أنهم انتصروا علينا، هذا ما يحدث بالفعل من خلال الرأي العام.

كان أحب إليك - قال فرانشيسكو - لو أن المخبرين الذين يقتفون أثركم كانوا أذكياء وأكثر حساسية؟

قلت: «حب» و «أَحَبّ» هي كلمات لا تصلح على ما يبدو في هذا السياق. ولن تأتي بالطبع في التقارير أبداً. لا بد أن هؤلاء المخبرين كان عليهم أن يتندروا سراً حين يدركون بأي قدر من الجدية يتم تناول سجلاتهم القذرة الآن، كيف تم تحويلها بشكل مجحف إلى أداة ضغط، وكيف اكتسبت قوة الدليل وتم استخدامها مرة أخرى لتقرير مصائر البشر. كم تم استخدامها للاستيلاء على لقمة العيش أو لإبعاد أحدهم عن منصب مرموق. قلت: لا ينجو من العاقبة من يفتح صندوق باندورا[١].

قال فرانشيسكو إنه يشعر بالغثيان حين يتصور ما كان يمكن أن يحدث في إيطاليا لو فُتحت كل ملفات جهاز الاستخبارات.

لا كلها - قلت له - فقط تلك التي تخص جزءاً واحداً من بلادكم: الشمال أو الجنوب مثلاً.

مستحيل! - قال فرانشيسكو.

---

(١) **صندوق باندورا:** في الميثولوجيا الإغريقية هو صندوق يتضمن كل شرور البشرية من جشع، وغرور، وافتراء، وكذب، وحسد، ووهن، ورجاء. وتقول الأسطورة إنه بعد سرقة بروميثيوس النار، أمر زيوس ابنه هيفيستوس بخلق المرأة باندورا كجزء من العقوبة على البشرية. أعطيت باندورا الكثير من الهدايا من أفروديت وهيرميز والكارايتات وهوري. حذر بروميثيوس شقيقه إبيميثوز من أخذ أي هدية من زيوس خوفاً من أعمال انتقامية، غير أن إبيميثوز لم يصغ وتزوج باندورا التي كانت تمتلك صندوق أعطاها زيوس إياه، وأمرها ألا تفتحه، غير أن باندورا فتحت الصندوق وخرجت كل شرور البشر منه، أسرعت باندورا لإغلاق الصندوق، ولم يبقَ فيه إلا قيمة واحدة لم تخرج هي الأمل.

ضحكت. كان الليل قد حل، وقد لاحظت أن فرانشيسكو قد بدأ يمل، كان يريد أن يرحل ولكن كان عليّ أن أبقيه. قلت إنني وصلت لتوّي إلى ما كان لا بد أن أحكيه أصلاً وما تطلّب مني هذه المقدمة الطويلة كلّها. آخر يوم في الجهاز، أخيراً. كنتِ قد اطلعت بالفعل جيداً بشكل أو بآخر على الاثني وأربعين ملفاً وتعرفت على الأسماء الحقيقية للمراقبين ثم نسيتها، اعتقدت أنك قد انتهيت منها، فقمت بالضغط على الموظفة المسؤولة عنك التي كنت قد كوّنت معها علاقة أشبه بالصداقة والتي كانت تعرف ملفاتك أكثر منك شخصياً: قلت إن هناك شيئاً آخر. راودك فوراً شعور بوبال محدّق من دون أن تعلمي ماذا يمكن أن يكون هناك بعد. لكن أردت أن تعرفي، على الفور. أبدت تردداً. ليس مسموحاً لها أن تطلعك على «سجلك الجنائي» - أول مرة تظهر هذه الكلمة! - فقد وقّعت على تعهد بذلك. لكنك أصررتِ. في النهاية أخذت منك عهداً أن لا تقولي لأحد أنها خالفت هذه التعليمات.

ثم غادرت الغرفة التي جلستما فيها سريعاً حيث انتهى وقت العمل وعادت حاملةً غلاف ملف أخضر رقيقاً وضعته أمامك وقلّبت أوراقه - وأنت لا تزالين غير مدركة بعد - وهي واقفة خلفك لبضع دقائق لم تتوقف خلالها عن التلفُّت حولها لكي لا يضبطها أحد وهي تقترف تلك المخالفة. أليس هذا خط يدك؟ - سألتك بصوت خفيض يشوبه الشجن، وكان هو بالفعل خطي، قلت لفرانشيسكو، ومنذ ذلك الحين عرفت: إنه ليس مجرد قول أن يقف شعر رأس المرء، وإنما هذا ممكن حقاً. لكنك لم توقّعي على شيء، لا إقرار ولا أي شيء - قالت الزميلة - فهذا يغير الوضع تماماً.

لم يكن لديك وقت، لم تتمكني من القراءة بدقة، كان بإمكانك

فقط أن تطّلعي على تلك الصفحات القليلة بسرعة: خطك على تقرير يبدو أنه غير ذي أهمية عن أحد الزملاء، تقارير من وسيطين عن ثلاث أو أربع «مقابلات» معك، كونهم أشاروا إليك باسم مستعار هو ما حوّل هذا الدفتر إلى «سجل الجنايات» وزج بك بلا مقدمات إلى فئة مختلفة من البـ-شر.

قالت الموظفة المسؤولة عنك التي جذبت الدفتر إليها بسرعة: لقد مر على ذلك كله أكثر من ثلاثين عاماً، لم يحدث شيء تقريباً، ثم إنه جاءت بعد ذلك أكوام من «ملفات الضحايا»، لا بد أن يكون الجميع قد أدرك بعدها كم يبلغ هذا الإجراء القديم من التفاهة، لكنها لم ترد أن تتركني أقع في الفخ الذي سوف يأتي بعد ذلك قريباً من دون تحذير. فهي أيضاً في نهاية الأمر تقرأ الصحف. فإن أي صحفي يطلب منها ذلك سوف يحصل على هذا الملف - قانوناً - وكان تقديرها لموقفي أنها مسألة وقت حتى يلتقط أحدهم خيطاً ليقتفي أثري.

أما أنا - قلت لفرانشيسكو - فسمعت نفسي لأول مرة أقول: كنت قد نسيت ذلك تماماً، وأدركت كيف بدا ذلك غير قابل للتصديق. تنهدت مشرفتي: هذا ما نسمعه هنا كثيراً. وخرجت بالملف بسرعة.

قال فرانشيسكو: اللعنة. وبعد قليل: ما الذي تريدين فعله.

قلت: سأقوم بنشر هذا كلّه.

فكري في هذا الأمر جيداً - قال فرانشيسكو. فأنا أيضاً أقرأ صحفكم. عليك أن تسألي نفسك إن كان باستطاعتك تحمل ما سيحدث بعد ذلك.

قلت: ليس عندي خيار. بالمناسبة لم أكن أستطيع التحدث علناً

عن هذا الملف لكي لا أتسبب في مشكلة للموظفة التي أطلعتني عليه بالمخالفة للقانون. أما الآن فقد عرفت أنها ماتت شابة بعد إصابتها بالسرطان. إذن يمكنني الإفصاح عن ذلك.

كافكا - قال فرانشيسكو - كان بإمكانه ابتداع شيء كهذا. قلت: نعم. أيضاً لأن عنده ليس هناك مذنب. كما في الحياة الواقعية. عبرت المنعطف من شارع سكوند ستريت إلى الحديقة الإسبانية، رأيت وجوه حيوانات الراكون الثلاثة محملقة من خلف الشجيرات، دخلت إلى البهو ولوّحت للسيد إنريكو الذي كان لتوه يرتب طاولته منهياً دوامه. دخلت إلى شقتي الغريبة وكأنني في بيتي، صببت لنفسي كوباً من الماء، شربت كأنني كدت أموت عطشاً، وجلست إلى آلتي الكاتبة على الطاولة. كتبت:

كيف يمكن أن أصون نفسي من الوقوع في دائرة التبرير الذي سوف يكون بمثابة أغبى أنواع السلوك. ولكن هل يوجد سلوك محتمل، صائب، ملائم لهذا الموقف. أم أنني أقع ثانية في خطأ السؤال حول تطلعات الآخرين.

استلقيت على سريري العريض، كان الظلام قد حل بالخارج، لكن لم يحن وقت النوم بعد، قلت للراهبة بيرما التي كان كتابها موضوعاً على الطاولة الصغيرة بجانب سريري: النمور هنا، فأين يكون التوت، غالبني النعاس بينما مرت أمام عيني بعض أبيات الشعر التي أعرفها، *تقبّل هلاكك*، فليمينغ يا أيها المقدس، ماذا كان باستطاعتك أن تعرف عن الهلاك. ثم بزغ لي حلم عابر آخر، ظهر لي وجهٌ، وجهُ صديقتي إيما التي كانت ميتة بالفعل لكنني كنت بحاجة إليها الآن، إلا

أنني اعتقدت أنني عرفت ما كانت ستطلبه مني: عدم إظهار أي تأثير. هذا ما كانت ستقوله. كما كانت تقوله في الماضي، ١٩٦٥ - يا إلهي، أكثر من ربع قرن كان قد مضى منذ ذلك الحين! - بعد تلك الضجة التي صاحبت جلسة اللجنة المركزية للحزب الشيوعي التي تم خلالها التضحية بالثقافة كبش فداءٍ لكل ما حاد عن المسار. حيث رأيت أنتِ ضرورة في الدفاع عن كل من يتم توجيه الهجوم ضده، وكنت بذلك طبعاً تصطدمين بحائط فتم توجيه الهجوم إليكِ، وحين خرجت في النهاية من القاعة وفي رأسك يدور ذلك التعبير: قُطعت يداي. توقفي - قالت إيما - لا تحسبي نفسك بهذه الأهمية. كان جيداً أنك قلت شيئاً وإلا كنت ستشعرين بالخزي. أما الأيدي فهي تلتئم مجدداً. قلتِ: طبعاً فأنت تؤمنين بالمعجزات. - ماذا غير ذلك، قالت إيما. كوني أجلس هنا أمامك فهذا يرجع الفضل فيه إلى سلسلة من المعجزات.

كنتِ تعرفين ماذا تعني: أنها استطاعت أن تنجو من سنوات المعتقل أيام الرايخ الثالث. أنها استطاعت الهرب من برلين المدمَّرة قبل اعتقالها مرة أخرى ووجدت ملاذاً في حصص الحدائق تلك. أن دموعها انهمرت حين قبعت في السجن لدى «أصحابنا» مرة أخرى «بتهمة ملفقة» - حيث جاءها خبر موت ستالين. وهنت مفاصلها، روماتيزم، الزنزانة الرطبة الباردة. كانت تمشي على عصا، تشعر بالألم، وتتجاهله. ألم يكن عليّ أن ألح عليها أكثر في السؤال لماذا لم تشفَ من إيمانها بستالين حتى خلال فترة سجنها لدى «أصحابنا»؟ كانت إجابتها ستنفعني الآن. يا صغيرة - قالت لي مرةً- هل لديك أية فكرة عمّا يتمسك به المرء حين يكون مغروساً في الخراء كما كنا وقتها. لو أننا كنا تخلينا عن ذلك، أملنا في قائد الشعوب الحكيم،

لكان ذلك بمثابة التخلي عن أنفسنا. - وقد أدركتِ أنت أن نصف ألمانيا تلك، هذه الدولة، حتى وإن كانت قاسيةً عليهم، حتى وإن كان فيها الكثير من الأخطاء، كانت هي ملاذهم الوحيد. أنه كان عليهم التمسك بإيمانهم بأنها سوف تتطور لتغدو صورة المجتمع الآدمي المرجو. أنه كان عليهم الدفاع عنها.

صارت إيما - التي كانت على عكس الآخرين لا تتوارى عن رؤية وضع الحقائق نصب أعينها - إحدى أكثر مستشاراتي اللاتي أثق بهن. لكن حينذاك - تذكرت - بعد تلك الجلسة المشؤومة كنت بحاجة إلى المزيد. كنت بحاجة إلى ما يسمّونه المساعدة المتخصصة.

قال الطبيب إن الأنظمة الحاكمة في جميع أنحاء العالم يهمها بل وتعمل على إضعاف قيم الفردية أو حتى محوها بقدر الإمكان لدى رعاياها. لذلك يستحسن ألا يضع المرء نفسه في مواجهة مع تلك القوى التي تقوَى في كل موقف تلو الآخر، وأن يتراجع محافظاً على سلامه الداخلي. فالأمر لا يخلو من احتمالية أن يأتي زمن يستطيع الناس فيه أن يعربوا عن أنفسهم من جديد: حينئذ سيتضح أن قمع فرديتهم ليس نتاج تغيرات في الخلايا الجينية، وأن نصيبهم في الميراث لم يُمَسّ، وأن جيلاً جديداً بمقدوره أن يعيش من دون أغلال روحية.

تذكرت أن الأدوية التي كان الطبيب قد كتبها لك لم تصل إليك، تذكرت الأسابيع التي قضيتها في تلك المصحة التي وضعك فيها الطبيب في النهاية لأنه لم يعد يود تحمل المسؤولية. «يجب عدم إرسال جندي جريح إلى ساحة المعركة مرة أخرى»! غرفة صغيرة جداً ذات نافذة مسوّرة محاطة بالكرم، لكنك لم تكوني بحاجة إلى السور، فلم تكوني لتختاري القفز من النافذة. كنت تتشبثين بسلامة جسدك.

بعد مرور وقت طويل أخبرني أحد الأطباء عن كمّ الأقراص التي تم استخدامها ومن أي نوع، يبدو أنه أراد أن يُظهِرَ أهميته بشكل ما. الشيء الوحيد الذي حكيتِه لكبير الأطباء في المصحة هو أنك كنت تعانين من فوبيا الصحف: فالصحف كانت تمتلئ بعناوين التأييد لتلك اللجنة ولتلك الإجراءات التي كنت قد تمردت عليها. كانت هناك أسماء كنتِ تتوقعين وجودها تحت مثل هذه المقالات والخطابات. كنت حين ترين صحيفة تتصببين عرقاً.

استشعرت الحملة الصحفية القادمة، التي اتخذت لها بالفعل قانوناً يثير جروحاً قديمة. أما الصحف التي كانت تُرسل إلى غرفتك في المصحة كل يوم - كعلاج - فكنت تدسينها بسرعة من دون النظر إليها تحت الغطاء. بما أنك كنت تواجهين صعوبة في النوم - وهو ما أواجهه أنا الآن مجدداً - فقد كنت تطوفين ليلاً في أروقة المستشفى صعوداً ونزولاً وتقابلين غالباً مريضة أخرى، زوجة ضابط لدى قوات حرس الحدود الذي كان عليه أن يستقبل الزائرين الأجانب على السور الذي كان قد بني منذ أربعة أعوام ويشرح لهم الإجراءات الحدودية الخاصة بالجمهورية الديمقراطية الألمانية. منذ ذلك الحين تتلقى زوجته ليل نهار مكالمات هاتفية يتم فيها تهديدها وشتمها باستمرار على كثرة عدد مرات تغيير رقم الهاتف، حتى أصيبت بفوبيا الهاتف ولم تعد تستطيع أن تنام. أما طبيبكما المشترك - الذي كان مقتنعاً بأن الخطأ الذي يتعلمه العقل يمكن محوه بالتعليم الصحيح وأن التدريب جزء من هذه العملية - تركها في غرفة الأطباء مستلقية على الأريكة حيث تقوم الممرضة التي تعمل ليلاً بالاتصال بها هاتفياً، وهو ما كان يثير فزع السيدة فكانت لذلك تقضي الليالي في الأروقة. عندما حاولت أنت أن تتحاملي على نفسك وتقرئي العناوين في الصحف كانت تلك علامة

أولى على التحسن. أما العلامة الثانية فقد اكتشفتها بسعادة غامرة مساعدة البروفسور - التي كانت متعلقة برئيسها جداً - وهي شراء الأحذية الجديدة الذي لاحظته عليك، الأحذية التي صُمّمت عليها كتل الأبيض والأسود في أشكال لافتة، والتي ظللت أرتديها لمدة طويلة.

عيد ميلاد بيتر غوتمان الخمسون. كنا أربعة، كان هذا مناسباً لحياته الزاهدة وأيضاً لميله إلى الوحدة. سواي كانت هناك يوهانا - التي تفاجأت بوجودها - وهي إحدى الشابات الحاصلات على منحة وكانت تبحث في تناول الموضوعات الاجتماعية في الأدب الأمريكي المعاصر - موضوع له وجاهته في «مركزنا» من وجهة نظر بيتر غوتمان، ومالينكا التي كانت في نهاية الثلاثين، شخصية نحيفة، شعرها داكن، جذابة وحادة. أصلها من يوغوسلافيا سابقاً وكانت تعيش في هذه المدينة منذ سنوات. لم أعد أعرف كيف تعرف بيتر غوتمان عليها، فلم يكن لها أية علاقة بـ«المركز». كانت تقوم بتنظيم بعض الأعمال البحثية في أحد معاهد العلوم الطبيعية.

أصر بيتر غوتمان على أن يتولى ضيافتنا من دون مساعدة، بالقرع وشرائح اللحم، وبالنبيذ الفاخر. ثم اختفى في المطبخ ليطبخ لنا في إناء «الووك» الصيني طبقاً صينياً سريعاً من الخضروات والدجاج، بينما أخذنا نحن السيدات نتبادل أطراف الحديث: حول استمرار تراجع مشاعر التعاطف لدى ميسوري الحال مع «المحرومين»؛ أنهم يجتهدون لإبداء التعامل اللائق معهم، لكن المساعدة الملموسة التي قد تمس حافظات أموالهم تزداد تراجعاً. كنا جميعاً قد لاحظنا كيف يمر الأغنياء المعاصرون كالعميان الطرشان على المشردين، وعلى وجوههم تعابير الاشمئزاز، ويأبون عليهم دولاراً بإمكانهم الاستغناء عنه بسهولة.

هنا انفعلت مالينكا. فهي تتفهم ذلك تماماً. هي أيضاً لا تُخرِج الهبات. من لم يعش ذلك بنفسه لا يمكنه تصور صعوبة الحياة في هذا البلد بالنسبة إلى شخص كان عليه أن يبدأ من الصفر. فقد كانت بداياتها هنا قاسية بشكل لا يوصف بحيث قررت أن تقتل كل مشاعر التعاطف مع هؤلاء الذين بقوا في القاع اليوم. لقد دربت نفسها على أن تجلس خلف عجلة قيادتها وتمر من دون اكتراث على كل شيء: حوادث السيارات، جثامين الموتى على جانب الطريق، على الفقر الأكبر والجريمة الكبرى التي يندرج تحتها بالطبع الثراء الفاحش. فإن تعويذتها هي: "I don't care, I don't care" (أنا لا أعبأ، أنا لا أعبأ). كما قالت إنها لا تتعاطف مع المشردين كما نفعل نحن. ولا تعطيهم نقوداً. إنها تحتفظ بكل سنت ملعون لنفسها. بل إنها تشعر بالغضب تجاههم، وتود لو تهزهم وتصرخ فيهم: لا تفعلوا ذلك بأنفسكم! لا تهدروا كرامتكم! إن عليهم أن ينتشلوا أنفسهم من الوحل. فهي أيضاً لم يساعدها أحد على ذلك.

أخرج بيتر غوتمان رأسه من باب المطبخ ليشاهد مالينكا، لكنّ أحداً منا لم ينطق بكلمة. تبادلنا النظرات، وساورتنا بعض الحيرة.

حكت يوهانا كيف أعطت رجلاً في نيويورك بعض النقود مرةً وكيف شكرها بنبرة البؤس المعهودة بقولة "God bless you" (باركك الرب). فكان أن صرخت في وجهه: يجب ألا يقول لها «باركك الرب» بل الأجدر أن يلعنها. حينئذ رمقها الرجل بنظرة ذهول ثم قال بالحزم نفسه: "My business, madam!" (إنه شأني يا سيدتي!)

آهٍ يا بريخت![1] - ضحكنا.

---

(١) إحالة على مسرحية بريخت «الإنسان الطيب من سيشوان» (Der gute =

كان واضحاً بالنسبة إليّ أن الكثير من النقاشات التي أثارها بيتر غوتمان في هذه الليلة - وقد كنا بدأنا نتحدث عن تراجع أو بالأحرى تقليص دور المنطق في ثقافتنا الغربية - والكثير منها مما كان موجهاً إليّ جاء تعليقاً منه على ذلك المقال الذي كان قد أخرجه من جهاز الفاكس في اليوم السابق. كان يعلم جيداً لكنه لم يرد التحدث معي بعد. كان يريد أن يعلمني درس المسافة. ولكن الوقت كان لا يزال مبكراً. كان الشريط الصوتي قد قفز إلى رأسي ولم يكن ينوي أن يسكن قريباً. عندما ودعته قال لي: "Be careful" (انتبهي لنفسك).

كيف سارت الأمور بعد ذلك؟ فجوة تنشأ ثم تتسع. الظن المعتاد أن الكتابة قد وصلت إلى نهايتها لأنني لا أنجح في كسر حاجز «لا تقربيني أبداً»، ولأن الكتابة لن تجدي شيئاً. معطف الدكتور فرويد - خطر لي مستهزئةً - يمكن أيضاً إساءة استخدامه للتستر على بعض مواطن التجريح.

أحياناً يطارد الماضي المرءَ

هكذا خطر لي، ثم يبدأ المسار المعروف والمنصوص عليه. الرأي العام يتفاعل بسرعة البرق وبسعادة مع كلمة «الأخلاق» ليجد السبب الوجيه لسلخ جلد الفاسق - المتهم باللاأخلاقية من على جسده.

= (Mensch von Sezuan) وتدور أحداثها في إقليم سيشوان الصيني الذي يمثل مجتمعه في المسرحية نموذجاً لاستغلال الانسان لأخيه الإنسان. ويقدم فيها بريخت تحليله ونقده لبنية الأنظمة الرأسمالية.

والحقيقة التي يعملون جميعاً لإعلائها؟

كيف سارت الأمور بعد ذلك؟ فلا بد للأمور أن تسير؟ في فندق ميس فيكتوريا لا بد أن تسير الأمور. وأنا كان عليَّ أن أسير على الدروب المعروفة مسبقاً. "How are you doing today?" (كيف حالك اليوم؟)، هذه المرة جاءت من أفراد الأمن ذوي الزي الموحَّد على باب المطعم الفاخر في شارع سكوند ستريت الذي يشير إليه دليل المدينة باعتباره أحد أفضل عشرة مطاعم في لوس أنجلوس، والذي كان المرء يتوقف أمامه بسيارات الليموزين الفارهة ويتركها بثقة لذلك الحارس أو رجل الأمن بقفازاته ناصعة البياض، الذي لم يكن لديه سبب بالمناسبة لسؤالي أنا بالذات عن أحوالي، فلا بد أنه يدرك بالنظر إليّ أنني لا أنتمي إلى دائرة زبائنه. أنا بخير - قلت له متفاجئةً - وأنت؟ - "Terrific" (رائع!) أجابني قانعاً ومقنِعاً. تلك الكلمة كنت في البداية أخلط بينها وبين "terrifying" (مُروِّع)، وهو الأمر الذي تسبب لي مراراً في سوء الفهم حتى وجدت الكلمتين أخيراً متتاليتين في القاموس، إلا أن الأولى "terrific" كانت مترجمة إلى «بديع»، «خيالي»، وأيضاً «وهمي»، بينما الكلمة الأخرى "to terrify" كانت تعني التسبب لشخص ما في رعب شديد. عبارة بدأت على الفور تعبث في رأسي، التسبب في رعب وهمي، الإصابة برعب خيالي، أن تجد الخوف المُروِّع بديعاً. كفى! - أمرت نفسي - كفى. كفى. لكن إيقاف الشريط الصوتي لم يكن بيدي.

أما حيوانات الراكون الثلاثة التي كانت تجلس أو تبحث عن طعام لها بين الشجيرات أمام فندق ميس فيكتوريا فقد صارت أكثر وقاحةً، ويبدو أنها وجدت ضالتها في صناديق القمامة في الشارع الخلفي الضيق. حين كنت أعود في المساء كانت ترابض في الظلام حول

الكعكة الحجرية التي نبتت فيها شجرة النارنج وتحملق فيّ. "Hi!" (مرحباً)! قلت بلطف لم يثر إعجابها. حسناً إذن دعوني أمرّ الآن - قلت - لكنها لم تكن تفهم الألمانية، فخطوت رويداً رويداً نحوها، نحو وجوهها الخالية من أي تعبير ذات العيون المحملقة على الدوام، ظلت رابضة بلا حركة، "don't worry" (لا تقلقي) - كنت أقولها لنفسي أكثر من قولي إياها لها، فهي لم تبد قلقة بأي شكل من الأشكال، إذن عليَّ أن أتسلل الآن ببساطة بجانبها، أم ماذا؟ حينئذٍ فتح باب فندق ميس فيكتوريا، خرج الضيف الضخم ذو الوجه الهندي، صفق بيديه وصاح بصوت عال وعدواني ففرت الراكون بين الشجيرات. "Come in!" (تعالي إلى الداخل!) صاح الرجل بي، "Hurry up, please, they are dangerous" (أسرعي من فضلك فهي خطرة)، فهرولت إلى داخل المبنى، وحين استدرت عند الباب رأيت ثلاثة أزواج من العيون مفتوحة بإلحاح. "They are crazy" (إنها مجنونة) - قال الرجل - "they behave abnormally" (لها تصرفات شاذة).

في الأيام التالية رأيت القطة الرمادية المشعثة تحوم حول البناية، "NO PETS!" (ممنوع دخول الحيوانات!) كتبت بالخط الكبير على الباب، لم يكن أحد يجرؤ على أن يمر إلى داخل المبنى بهذا الحيوان أمام السيدة أسكوت، ولكن لمن كان الطعام الملقى بين الشجيرات فعلياً، الحيوانات الراكون المجنونة أم للقطة المشعثة؟ لكن بعد بضعة أيام بدا فراؤها أكثر نعومة ثم أضيفت إليها ربطة عنق بنية من الجلد، ثم رأيتها ذات صباح تحت الشمسية في الحديقة الأمامية جالسة على حجر الرجل الضخم ذي الملامح الهندية، وتحت قدميه طبق صغير من الحليب، وكان يملس على القطة التي راحت تتمسح فيه بثقة. كان

قد لاحظ نظرتي فقال: "I adopted it" (لقد تبنيتها)، ومنذ ذلك الوقت والقطة مستلقية بمنتهى السلام النفسي، مكوّرة جسدها أمام باب فندق ميس فيكتوريا في الشمس، تاركة كل شخص مألوف يداعبها. قال بيتر غوتمان أن الرجل الضخم نفسه "crazy" مجنون بعض الشيء. ألم تسمعيه أبداً وهو يغني؟ إنه يضع أسطوانات قديمة مخدوشة أصلاً، ثم يغني معها. سألته: يجيد الغناء؟ - بشع. لكن هذا جيد، فأنا أهوى الضوضاء الطبيعية في محيطي، لاسيما تلك التي لن أسمعها أبداًعلى سفينة فاخرة.

إنها حيل دفاعية لتشتيت الانتباه، جميعنا يعرف هذا. تحدثنا عن كل شيء ممكن إلا عن محتوى رسائل الفاكس التي ترسل إليّ من السكرتارية بأعداد متزايدة في «المركز» والتي كانت كيتشن تضعها بلا تعليق في صندوق بريدي. كأنه لا يوجد لدى قطاعات كبيرة من الصحف الألمانية أي موضوع للاهتمام سوى سلوكي أنا. لم أقرأ كل المقالات على الفور، كانت هناك حدود للحصة اليومية من الاتهامات كنت أستطيع تحملها. علاوة على ذلك فقد اتضح أنني - حتى في الأعمال اليومية البسيطة مثل التسوق - على عكس أمنيتي الأصلية أحتاج إلى سيارة. كان ذلك مشروعاً صعباً استغرقني عدة أيام لإنجازه، وشغلني وعرفني على تاجر ذكي. في النهاية اتبعت حماسه واشتريت سيارة GEO حمراء فاقعة رغم أنها كانت تصدر صوت خربشة غريب أثناء مناورات الانعطاف الشديد إلى اليسار، ولكن متى كان عليَّ أن أنعطف بحدة إلى اليسار؟ لقد كانت رخيصة وحجمها مناسب في الفجوة رقم سبعة بموقف سيارات فندق ميس فيكتوريا. أما بيتر غوتمان الذي حذرته من الركوب معي فقد أصر رغم تحذيراتي على أن يركب هذه السيارة بينما أجلس أنا خلف المقوَد في منطقة

غريبة علينا في لوس أنجلوس حيث كانت مالينكا تنتظرنا لترَينا البيت الذي أرادت أن تشتريه.

كان بيت مالينكا فقيراً في منطقة فقيرة، وقد فهمنا بعضنا بعضاً من نظرة وبقينا خارج المنطقة. قالت مالينكا إنها تعرف طبعاً أن هناك بيوتاً أفضل. لكن هذا ما تستطيع تحمل نفقاته. وسيكون لها وحدها. كما أنه يبعد بما يكفي عن المناطق المحتمل أن تندلع فيها أعمال شغب جديدة. لأنها تذكر جيداً مشاعرها المتضاربة أثناء أعمال الشغب في أبريل. جزء منها كان يشعر بالفخر والانتصار: ها! أخيراً! أما الجزء الآخر فكان يتتبع ألسنة اللهب تقترب ويقول: ربما كنتم على حق، ربما كان من حقكم أن تثوروا لكن اللعنة، ارحموا بيتي. هكذا هي الحال - قالت - كلما زادت ملكية الفرد قلّت قدرته على السماح لنفسه برؤية العالم كما هو، بل يصير آخر ما يسمح لنفسه به هو رؤية العالم كما يجب أن يكون.

قلت: تلك هي الماركسية.

حسناً - قالت مالينكا - لتكن ماركسيتك، إن كان ذلك ما تريدينه. هي ليست بعيدةً أبداً عن المسيحية الأولى.

حين أسمعكما تتحدثان - قال بيتر غوتمان - لا بد أن أفكر أن الشيوعية ربما لم تصل إلى النهاية بعد.

دائماً هذه الكلمات - قلت - ألا يمكن أن يعيش المرء بعض الوقت من دون هذه الكلمات؟

كلا - قالت مالينكا - فإن الكلمات مهمة للغاية. فمثلاً «أعمال الشغب» أو في أقصى تقدير «الاضطرابات» - تلك كلمات استقرت اليوم بالفعل. واضح بالتأكيد من من مصلحته أن يتم تناول هذه الانتفاضات باعتبارها فتنة، ضجة، اضطرابات، وليس «احتجاجاً»،

«تمرداً»، «عصياناً»، «مدّاً شعبياً» أو «ثورة»: لا بد أن ما جرى في أبريل بوسط جنوب لوس أنجلوس محض عنف وحشي أثار الخوف والفزع فحسب، لا توضع أي دوافع سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية لدى المتمردين في الحسبان. فقد تعدوا على قدس الأقداس، على ثوابت هذا المجتمع، على الملكيات الخاصة. نعم - قالت مالينكا - بالطبع تصعب عليّ حال البائعين الكوريين الذين أصيبوا بلا ذنب جراء ذلك، لكن الجزء الآخر مني، هذا الجزء القديم، يتفهم المتمردين. هكذا كانت الثورات تبدأ دائماً، الأكثر تضرراً يستولون على ما كانوا قد حرموا منه من الأغنياء.

وعندما تضل الثورة طريقها للهدف وتكون في نهايتها - قلت - يكون أول ما يفعله هؤلاء الذين يرثونها هو إعادة إنتاج علاقات الملكية السابقة نفسها.

سألت مالينكا، فقد كانت هذه ضرورة ملحة، كان عليّ أن أسأل كل شخص أقابله إن كان قد حدث له مرة أن نسي تماماً أحداثاً هامة للغاية في حياته. نعم بالطبع - قالت - إنهم يتندرون عليَّ طوال الوقت حين أذهب لزيارة عائلتي. فهم يذكرون أحداثاً كثيرة كنت قد شهدتها معهم إلا أنه لم يبق لها أي أثر في ذاكرتي. بالنسبة إليهم تُعدُّ تلك الذكريات ثروة غالية، أما بالنسبة إليّ فهي عبء كان عليّ أن أتخلص منه.

سألتها: أليست تلك أيضاً خسارة؟

قالت مالينكا إنها قامت بتدريبات قاسية لقمع مشاعر الندم على هذا النوع من الخسائر. لكنها لم تتمكن من ذلك بشكل كامل - قلت لبيتر غوتمان في طريق العودة - وإلا ما كانت لتتحذلق هكذا بشأن مسميات احتجاجات أبريل. بالمناسبة فقد شغلني منذ فترة السؤال

حول مدى الضغط والاستعجال الذي يكتنف طبقة الساسة ووسائل إعلامهم، عند وضع المسميات المناسبة لأحداث يتفاجأون بها وربما تتجاوزهم. أقرب مثال لذلك هو الانتفاضة الشعبية في ١٩٨٩ مع نهاية الجمهورية الألمانية الديمقراطية؛ فقد ترسخ تعبير «التحول». والمثير هو أن الدولة التي كان لا بد أن يختفي اسمها مع هذا المسمى تمت الإشارة إليها في الصحف الرسمية تحت مسمى « ديكتاتورية الحزب الاشتراكي الألماني الموحد»، «دولة الظلم». وفي الأحاديث الشخصية يقال اليوم: «إبان أزمنة الجمهورية الديمقراطية الألمانية». لكنني أذكر - قلت لبيتر غوتمان الذي ظل صامتاً وأحس مثلي أن شيئاً محموماً يجلس بجانبي في السيارة الـ GEO الحمراء ويتحمل فنون قيادتي الجريئة بعض الشيء بلا تعليق - أتذكر ما حدث مرة قبل ذلك بعدة سنوات، في السابع عشر من شهر يونيو ١٩٥٣[١]، حين رأيت الجماهير تتظاهر لأول مرة في الشوارع، وكيف سببت تسمية تلك الأحداث صداعاً للساسة وللصحف: كيف كان الحديث في الأيام الأولى بعد السابع عشر من يونيو عن «التظاهرات العمالية» وعن «المطالب المشروعة»، ثم كيف تم إخبارنا بعد ذلك أننا نشهد «ثورة مضادة»، وهو بالطبع ما سهل عملية التصدي للأحداث بشكل معلن. فحين كانت مالينكا تتحدث عن الانقسام الذي يحدث داخل ذاتها، كنت أتذكر جيداً الانقسام الذي عشته وقتئذٍ.

كم فزعتِ حين كنت في الترام في لايبزيغ آتية من المكتبة

(١) **انتفاضة ١٩٥٣ في ألمانيا الشرقية**: بدأت بإضراب عمال البناء في برلين الشرقية يوم ١٦ يونيو. ثم تحولت في اليوم التالي وبشكل واسع النطاق إلى انتفاضة مناهضة للستالينية ضد حكومة الجمهورية الديمقراطية الألمانية.

الألمانية فجاءك همس من الخلف ينذرك، ورأيت على الطريق عمالاً في أحد مواقع البناء ينصبون لافتة: نحن مضربون! كيف ركضت عبر وسط مدينة لايبزيغ إلى معهد الدراسات الألمانية في مبنى الجامعة القديم شبه المحطم، حيث لم يكد يكون هناك أحد - لم يكن هناك أحد على الأقل يعرف ماذا يجري في الخارج، لأن إذاعات الجمهورية الديمقراطية الألمانية كانت ببساطة تبث موسيقى هادئة، وأما الإذاعة الغربية فلم تكن مسموعة في المعهد. كيف ركضت إلى الناصية عند شارع ريتّر شتراسه، إلى FDJ-Kreisleitung «القيادة المركزية - مقر منظمة الشباب الألماني الحر»[1]، ورأيت كيف كانوا يقذفون بالملفات والآلات الكاتبة والأدوات المكتبية والأثاث من النوافذ وكان الواقفون بالأسفل يهتفون بالتحية لهم ويصفقون. لكن هؤلاء ليسوا بأي حال من الأحوال عمالاً، خطر لك وشعرت بالطمأنينة. كيف كنت تضيعين في وسط المدينة بين صفوف البشر التي أخذت تضيق وتتزايد على أمل إيجاد شخص تعرفينه. كيف مسحت بمنديلك الكلمات المكتوبة على الترام «ليرحل صاحب السكسوكة!» والعجيب أنني أذكر حتى اليوم وجه الرجل المسن الذي ظننت أنه موظف والذي أمسك بذراعك وقرب وجهه جداً من وجهك ليخبرك بنهاية دولتك الحقيرة ويأمرك بنزع شارة الحزب الخاصة بك. كيف تكونت بسرعة شديدة دائرة من البشر حولكما كانت تطلب منك الشيء نفسه وكيف قلت للرجل بمنتهى الهدوء: فقط على جثتي!

(١) **منظمة الشباب الألماني الحر (FDJ)**: هي المنظمة الشبابية الوحيدة التي كان مسموحاً للشباب بالمشاركة السياسية من خلالها في الجمهورية الألمانية الديمقراطية، وقد كانت عضواً في الاتحاد العالمي للشباب الديمقراطي وفي اتحاد الطلبة الدولي.

كان هذا مضحكاً بالطبع، لكن وقتها بدا لي - ولا أعرف إن كنت تستطيع أن تصدق هذا - أن تلك كانت الإجابة الوحيدة المناسبة، قلت لبيتر غوتمان الذي التزم الصمت وأنصت إليّ. ثم كان رفيق من المؤرخين فجأة يقف بجانبك فشدّك بعيداً، ركضتما إلى معهد الدراسات التاريخية وقابلتما في الطريق مجموعات من البشر كما لم تشاهدي مثلها من قبل، وجدت أنهم أناس شرسون، تقدم إحدى تلك المجموعات رجل قوي البنية له لحية يسير عاري الصدر ويحمل ما يشبه الوتد في يده. تصوري لو أمسك هؤلاء بنا! قال رفيقك، وقد شعرت أنت أيضاً بغصة في المعدة. لكن في معهد الدراسات التاريخية كانوا هؤلاء أنفسهم من يتولون أعمال الدفاع. حسناً اضحك كما شئت، ولكن بمَ يمكنني أن أسمي هذا؟ أغلقوا الباب من الداخل بتكديس المكاتب أمامه، ووضعوا مسؤولاً للحراسة يدخل فقط الناس الذين يعرفهم أو الذين يستطيعون إثبات هويتهم، قيل إنه لم تأت بعد أي تعليمات من الحزب. قلت: تماماً، هذا الفشل هو ما يتكرر في أوقات الأزمات. انتابك لأول مرة شعور باليأس، نسيته فيما بعد ثانية. ما لم أنسه هو أنك في هذا المساء - وقد كان الضوء ما زال يسطع - على الطريق إلى البيت كنت قد جمعت عشر شارات للحزب على الأقل كان الرفاق الخائفون قد تخلصوا منها. وكم كنت مصدومة ومطمئنة حين نزلت الدبابات. وكيف في الأيام التالية - حين كنت تجلسين بشارة الحزب على طاولة في أحد المطاعم - كان الآخرون يغادرون الطاولة بشكل لافت. ومن دواعي انزعاجك أنه لم يكن أحد سواك أنت وزميلة مسيحية من أصرَّ في اجتماع لجنة الطلبة على أن لا يهتم الحزب فقط بتأثير خصومه - وهم موجودون بالطبع - بل يجب أن ينتبه لمطالب العمال المشروعة. كان الرد: لن نترك شبراً من

الأرض لأعداء الطبقة. وقيل لي إن عليّ أن أنتبه لأيّ الفريقين سيكون ولائي. التزمت الصمت. والتزم بيتر غوتمان أيضاً الصمت. ثم قال: تعرفين طبعاً مقولة بريخت حين أحجم عن كتابة مسرحية عن روزا لوكسمبورغ: لن أقطع قدمي فقط لأثبت أنني قاطع ماهر.

نعم. كنت أعرف هذه المقولة. ولكن أليس على المرء أن يسأل نفسه لماذا يُعدّ ذلك تشويهاً للذات إذا قال المرء أو كتب ببساطة ما هو كائن فعلاً؟

هوهو! - صاح بيتر غوتمان - سيدتي! ببساطة قَوْل ما هو كائن! ليس أكثر ولا أقل!

كنا قد وصلنا فرحين أمام بوابة فندق ميس فيكتوريا. نزل بيتر غوتمان من السيارة. أدخل رأسه مرة أخرى في قلب السيارة: إذن، متى ستسألينني أخيراً؟

عن ماذا؟ ماذا عليّ أن أسألك؟

إن كنت قد نسيت أشياء مهمة في حياتي من قبل.

أنت؟ - قلت - ستكون آخر شخص أسأله.

فصفع باب السيارة.

كان الدكتور كيم قد سافر في عطلة. شخص ذو وجه مستدير يدعى وو سون كان سيعتني بي، ولكن لا بد أن يقوم الدكتور بان بقياس ضغط دمي أولاً، هز كلاهما رأسه، ذكرا لي أرقاماً صَعُبَ عليّ تصديقها، ثم قربا رأسيهما وتهامسا بالإنجليزية لأن الدكتور بان كان صينياً وليس كورياً، أراد أن يعرف "whether there are some troubles in your life just now" (إن كنت تعانين من بعض المشاكل في الحياة حالياً)، كان لا بد أن أضحك، قلت إن هناك

بعض المصاعب، أبدا كلاهما تحفظاً، لم يستطردا في السؤال، تناقشا حول النقاط التي يجب أن يضع فيها وو سون الإبَر، بعضاً منها الآن لعلاج ضغط الدم المرتفع. "Relax!" (استرخي!) قالا بتَوَسُّل في صوت واحد: "relax!" (استرخي!) لكنني لم أستطع الاسترخاء، لم أكن أعرف بعد أنني لن آتي إلى هنا ثانية بسبب نوبة قلق ستجعل من المستحيل عليّ أن أستلقي لمدة نصف ساعة على الأريكة بهدوء.

اتصلت سالي: "How are you today?" (كيف حالك اليوم؟).

آهٍ يا سالي - قلت إن شيئاً ما ليس على ما يرام.

قالت إنها استشعرت ذلك بالفعل عند سماعها صوتي.

ماذا عنك أنت؟ - سألتها - "How are you?" (كيف حالك؟)

سيئة للغاية. جاءت إليّ. تمشينا على الساحل هناك في حديقة أوشن بارك صعوداً ونزولاً، حديث بلا تحفظ باللغة الأجنبية، ضوء شتاء كاليفورنيا، كان المطر يهطل منذ أسابيع، أمطاراً غزيرة، كان لا بد من سد العجز المائي الذي استمر ثمانية أعوام، في حين كان التلفاز لا يعرض سوى صور أناس يحملون أكياس الرمل ويركضون في الظلام، رجال الإطفاء يضخون المياه من القباء أو بيوت تنزلق من على المنحدرات غير الممهدة. كان لون المحيط يميل إلى البني، يضرب بأمواجه العالية الشاطئ الخاوي.

قالت سالي: "It is hopeless" (لا أمل)، هذه أول قاعدة يجب أن يعرفها المرء. ليس هناك أمل، "you know"، هناك فقط الالتزام، المضي قدماً، والبحث عن الجذور. هذا كل ما نستطيع فعله.

أعرف ذلك أحياناً - قلت - وأنساه ثانيةً.

قالت إنها تنساه كل يوم.

كنت أعتبر سالي النموذج البشري الذي أجري عليه تجاربي. كنت أجرّب عليها كيف أشعر حين أنطق بصوت عالٍ الكلمات صعبة النطق، في حماية اللغة الغريبة والمحيط الغريب رأيت نفسي واقفةً هناك، مستندةً إلى جذع شجرة الكافور، أشرح لها الأنواع المختلفة من الملفات، "the bad files and the good files" (الملفات الحميدة والملفات الخبيثة). كان عليها أن تضحك: آهٍ، أيها الألمان!

كلا - قلت - لا تضحكي، ليس الأمر مضحكاً! سالي يهودية. سوف تفهمني، هكذا خطر لي على عكس المنطق. - انصتي إليّ - قلت - هل يمكنك أن تتصوري ماذا كان ليحدث لك حين يصفعك من داخل أحد تلك الملفات حرفان هما في تلك اللحظة بمثابة حكم بالإدانة، حكم بالإعدام المعنوي. IM - هل تعرفين أصلاً ماذا يعنيان؟

كلا - قالت سالي بسذاجة - "I have no idea" (ليس عندي فكرة).

يا لحسن حظ أمريكا! الشتازي، نعم، كانت قد سمعت بذلك. إنه معروف للجميع.

عميل سري، كيف أقولها بالإنجليزية؟

"Oh I see. Some kind of agent? Or spy?" (نعم فهمت. ما يشبه العميل؟ أو الجاسوس؟)

آهٍ يا سالي، لا تدفعيني لليأس، لماذا لم تكن تعرف كلمة واحدة من اللغة الألمانية، بطبيعة الحال صار كل شيء أكثر مباشرةً وفجاجةً وبشاعةً في اللغة الأجنبية التي تستعصي فيها الفوارق لأنها ببساطة ليست متاحةً عندي. لكن ماذا يمكن أن تكون تلك الفوارق أصلاً؟

سأحكي لك ما حدث، حسناً؟

ولكن هذا تحديداً لم يكن بهذه السهولة. إذن: بحسب ذاكرتي التي حاولت استدعاءها قدر الإمكان، جاء رجلان شابان إلى مكتبك ذات يوم في صالة تحرير المجلة التي كنت تعملين فيها يستعلمان منك عن معلومة تافهة تخص هذا العمل. مكتوب في الملفات أنهما اعترضاك في الشارع. لكنني لا أتذكر ذلك. عرّفا نفسيهما بما كانا حقاً: موظفين لدى جهاز أمن الدولة.

متى؟ سألت سالي.

- ١٩٥٩

"O my goodness. But then you were another person!"

(يا إلهي. لكنك كنت شخصاً آخر في ذلك الوقت!)

دعك من ذلك يا سالي. الأمر لا يتعلق بذلك الآن. الأمر يتعلق بالذاكرة، يتعلق بالتَّذكُّر: هذا هو موضوعي منذ فترة، أتفهمين؟ وكان من الممكن أن أنسى هذا. خطر لي أنك قابلت هذين الشابين اللذين كان اسماهما هاينز وكورت - أو شيء من هذا القبيل - مرتين أخريين، مرة - تذكرت الآن - غالباً بجوار محطة مترو أنفاق تالمان بلاتس، لكنني قلت لسالي إنني لم أعد أتذكر عن أي شيء تحدثتم، فقد كانت حسبما أتذكر مواجهات تافهة تحدثت عنها في البيت بالمناسبة، وكنت قد صرحت لهما بذلك مباشرةً. لم تكوني مرتاحة لهما، ما زلت أذكر هذا، لكن الجميع كان يعرف أن هؤلاء الناس يتقصّون كل من كانت له صفة تقريباً، فهذه هي وظيفتهم في نهاية الأمر ولم يكن ذلك يزعجك في شيء. ثم أنك تخلصت منهم بعدها بفترة قصيرة بالمناسبة. وحين بدأت بعد ذلك بعد «التحول» عملية مطاردة العملاء السريين في الملفات لم يخطر ببالي لحظة أن يطالني الموضوع أنا أيضاً. لم أشعر بأي عبء، هل تفهمينني يا سالي؟

قالت: "O yes, I understand" (أي نعم، أفهم). كانت واثقة من نفسها إلى حد أنها لم تكن أبداً لتجد خطاباً غرامياً من عشيقة رون في جيب معطفه. قالت هذا ليس على سبيل المقارنة بما لا يرقى لمستوى هواجسنا الأمنية المضللة.

كان حرفا IM مكتوبين هنا، ولم أرد أن أصدق. إلا أن الجسد صدق على الفور، فبدأ القلب يدق طبوله، صرت أتصبب عرقاً، إنذار بكارثة، ردود فعل انعكاسية حول الهرب، وددت لو ركضت حتى آخر العالم. هل سانتا مونيكا هي آخر العالم؟

أي نعم، قالت سالي. بهذا المعنى هي كذلك.

لكن هذا لن ينفع. لن ينفع الهرب، حكمة شعبية قديمة. إلا أن المواجهة لن تنفع أيضاً. لم أعد أعرف أول شيء فكرت فيه بعد أن انفك الحصار الذهني. ما هو أول شعور انتابني، دون كلام، ما زلت أذكر، فإذا أمكن ترجمة ذلك بالكلمات يمكن أن أقول: لا تستطيعين أن تقولي ذلك لأحد الآن. لم يكن لدي شك أن عليّ مبدئياً أن ألتزم الصمت، كما لم أشك أن ذلك نفسه كان خطأً وأنه لن ينفع على المدى الطويل ولكي تفسري ذلك لنفسك - يا سالي - عليك أن تكوني قد عايشت ذلك معنا. كنت قد تجاوزت الضغوطات الأولى في عملية مطاردة الساحرات، أحد نصوصك التي تصف يوماً من حياتك تحت المراقبة قد أعطى الفرصة لاستباحة الادعاء عليك بما لم يخطر لك ولا حتى في الحلم. لم أكن لأتحمل ضغوطات أخرى في تلك اللحظة يا سالي. مرة أخرى واجهت الاختيار بين أحد الأمَرّيْن، واخترت ما بدا لي في تلك اللحظة أقل جرحاً.

هكذا نفعل جميعنا - قالت سالي متنهدةً - لكن هل كنت ملزمةً بالحديث عن ذلك أساساً؟

هذا بالضبط ما سألت نفسي عنه - قلت - حين صار بإمكاني أن أطرح الأسئلة مجدداً، وكانت إجابتي: لا. لا. قلت لنفسي إنني لست ملزمة بالحديث عن ذلك. وبالمناسبة كنت أشعر بالخوف.

هذا ما يجب ألا تدعي أحداً يلحظه عليك هنا، قالت سالي. فهم حين يتشممون شخصاً خائفاً ينقضون عليه.

مثل الحيوانات المتوحشة، أستطيع أن أقول لك.

خطر لي «معطف الدكتور فرويد». تمنيت لو كان يستطيع حمايتي.

على العكس - قالت سالي - فإن سبب وجوده أصلاً هو أن يسلبك وسائل دفاعك عن نفسك.

في الحلم مررت على طريق صحراوي مستقلة سطح شاحنة صدئة، بدا لي أنه كان لا بد أن أزحزح الحمولة من على السطح لكي أصل إلى الأرضية، كانت ثقيلة جداً، تكاد تكسر الرقبة أثناء الرجرجة على الطريق، لكنني استطعت ذلك أخيراً ووصلت إلى أرضية صندوق البضائع، لكنني شعرت بخيبة الأمل حين اتضح أنه فارغ تماماً. استيقظت أثناء العتمة وأنا أشعر بأسى لا يمكن عزوه إلى الحلم وحده، ولم يفاجئني أنني تساءلت الآن في منتصف الليل: ماذا أنا فاعلة هنا أصلاً؟ كنت قد استسلمت تقريباً لشهوة الابتهاج بالأسابيع الأولى، وتعمدت تقريباً أن أتجنب مساءلة نفسي عن ذلك. اعتبرت ذلك - إن كنت أحسن التذكر الآن - أحد مكتسباتي، من دون أن تكون هذه الكلمة قد خطرت ببالي - فكرت وأنا أستنشق نسيم مساء كاليفورنيا العليل الذي دخل من النافذة المفتوحة، أنقى من هواء كل الأماكن الأخرى ماراً عبر خروق الشبكة الكثيفة التي وضعت على النافذة لصد الذباب، تلك المخلوقات التي تلوث الغرفة المحصّنة، بل

الأسوأ: تجعلها غير آمنة. إنه هوس الأمريكيين بالأمان.

لكن ماذا كنت أعرف عن الأمريكيين؟ كان عليّ أن أعترف بأنني أشعر بالغربة. فتشت داخل نفسي وأنا على استعداد لإدراك ألم الغربة، لكنه لم يأتِ، تركني أواجه مصيري. صندوق نقل البضائع فارغ، خطر لي وأنا أضحك ضحكة قصيرة ساخرة من نفسي.

لماذا لم يكن لدي شعور بالغربة، لم يكن هذا طبيعياً، فهذا بلد غريب - دارت الأفكار بداخلي - لم أكن أريد العيش مرة أخرى في ألمانيا كبرى - واستمرت الأفكار تدور في رأسي - غير منطقي لكن خواطر الليل لها طابع مختلف عن خواطر النهار، لاسيما أنها تعرف كل المسارات السرية ونقاط الضعف التي يمكن أن تتسلل من خلالها إلى الوعي الذي يقاوم لكن مقاومة ضعيفة من خلال الأسئلة المضادة التي كنت أعرفها، أعرفها حتى الملل. ولكن هل كنتُ أفضّلُ حقاً ألمانيا الأصغر على المدى الطويل، بكل نواقصها، بل بالأحرى بكل آفاتها وخطاياها، بجرثومة السقوط التي كنت قد استشعرتها منذ زمن بالفعل؟ عدت مرة أخرى على الطريق الصحيح، في مسار واسع، لم يكن عليّ سوى أن أتوقف وأدع الفرصة للخطاب والخطاب المضاد بداخلي. لن أتعلم شيئاً جديداً، لكن النوم سيهرب من عيني، كان ذلك مجرباً، لم يُجدِ شيئاً أن أغمض عيني بلا جدوى.

حتى سمعت وأنا نصف نائمة صوت صلصلة الزجاج الخفيض، كان ذلك الرجل المشرد الذي يتخذ لنفسه مقراً على ناصية الشارع الصغير خلف البناية ويفتش في صناديق القمامة ليلاً عن الزجاجات التي يتقاضى عنها الرهن. سمعت صوت القعقعة ولم أنتبه كيف غفوت.

يوم جديد مع الشريط الصوتي القديم في الرأس الذي دار فيَّ بلا

توقف وراح يهيج ذلك السؤال مرة تلو الأخرى: كيف استطعت أن أنسى هذا؟ كنت أعرف بالفعل أن أحداً لن يستطيع أن يصدقني، بل لاموني باعتبار أن هذا هو جرمي الحقيقي - جرم - يا لها من كلمة ألمانية جميلة!

اتصلت بذلك الصديق في زيوريخ: أنت كمتخصص في علم النفس لا بد أن تعرف: هل يمكن نسيان هذا؟ أنهم أطلقوا عليّ اسماً مستعاراً؟ أنني كتبت تقريراً؟ لم يتخل عن هدوئه، قال: ماذا في هذا؟ ماذا بعد؟ بالمناسبة: يمكن أن ينسى المرء كل شيء. الحقيقة أن عليه أن يفعل. ألا تعرفين مقولة فرويد: من دون النسيان ما كنا استطعنا أن نعيش؟ - قلت: الإزاحة! فقال: ليس بالضرورة. إن الإنسان ينسى أيضاً كل ما لا يعتبره مهماً. - لكن لا يمكن أن ينطبق ذلك علي في هذه الحالة. - من يدري. كم من الوقت مضى منذ ذلك الحين؟ ثلاثة وثلاثون عاماً. - آهٍ بحق السماء! وكيف تريدين اليوم معرفة ما كان مهماً بالنسبة إليك آنذاك؟ - هذا ما أريد اكتشافه. - وكيف؟ - سأغوص مرة أخرى في هذه البئر. - حظاً سعيداً. لكن أرجوكِ: احذري. أمعني التفكير في كونك الآن مسؤولة عن نفسك كليةً. وأن أحداً لن يحمل عنك هذا. وأنك - أرجو أن تعذريني - في حالة معنوية استثنائية. - وماذا عليّ أن أفعل في رأيك؟ أن أبدأ جلسات للعلاج؟ - ربما كان هذا أفضل شيء.

لكن هذا ليس مطروحاً، فلم أكن بحاجة إلى المساعدة، لم يكن مسموحاً لي أصلاً بالاحتياج إلى المساعدة، فإن عليّ أن «أتعامل مع الأمر» بنفسي. وليس قبل مضي وقت طويل جداً، ربما لم أفهم قبل اليوم أن هذا التمادي لم يكن بعيداً عن التفكير القديم الذي أودى بي - كما قال بيتر غوتمان لاحقاً - «إلى التهلكة». تصفحت الكتب

أبحث عن الفَرَج. وجدت أبيات بريخت عن المدينة التي أعيش أنا فيها الآن.

بينما أمعن التفكير فيما أسمع عن الجحيم
رأى أخي شيللي أنها مكان
ربما يشبه مدينة لندن. وأنا
الذي لا أسكن في لندن وإنما في لوس أنجلوس
أرى، بينما أمعن التفكير في الجحيم، أنها
لا بد أن تكون أقرب شبهاً للوس أنجلوس

مدينة الملائكة، فكرت ساخرة. أحضرت سيارتي الـ GEO ذات اللون الأحمر الناري، كل مرة هي تجربة في الشجاعة والمهارة أحاول بقدر الإمكان ألا يشاهدني أحد خلالها، وذهبت مرة أخرى إلى شارع ٢٦. بيت بريخت - المكعب الذي تناقش فيه مع أدورنو وإيسلر[١] ولوتون[٢] وفكر في مشاكل «غاليلي» الأخلاقية المعقدة - قد سكنه

---

(١) **هانس إيسلر**: (١٨٩٨-١٩٦٢) مؤلف موسيقي نمساوي، وهو مؤلف موسيقى نشيد السلام الوطني في الجمهورية الألمانية الديمقراطية، وقد اشتهر بتعاونه الطويل مع برتولت بريخت.

(٢) **تشارلز لوتون** (١٨٩٩-١٩٦٢): ممثل أمريكي وِلِدَ في إنجلترا وشارك في أفلام سينمائية وأعمالٍ مسرحية كما عمِلَ مخرجاً أيضاً وأخرج فيلماً واحداً هو فيلم ليلة الصياد. تدرب لوتون في لندن بالأكاديمية الملكية للفنون المسرحية (RADA) وظهر أول مرة على المسرح كممثل محترف عام ١٩٢٦. وأدى مجموعة كبيرة من الأجزاء الكلاسيكية والحديثة وأحدث بذلك تأثيراً عظيماً في الدراما الشكسبيرية على مسرح فيك القديم. وانطلق عمله السينمائي به إلى هوليوود، ولكنه مع ذلك تعاون مع ألكسندر كوردا في =

رجل كنت أراه أحياناً في حديقته وقد بدا أنه لم يكن يعرف بالتأكيد من كان يسكن هنا قبله. ترى كم مرة اضطر بريخت لمغادرة هذا المنزل ليذهب إلى وسط المدينة؟ أو إلى عائلة فويشتفانغر[1] في فيلا أورورا حيث أوصلتني سيارتي صعودة فوق صخور المحيط الهادئ عند باسيو ميرامار؟ حيث أطلعتكم مارتا فويشتفانغر منذ سنوات ذات مساء لا ينسى على مكتبة زوجها وحيث كان الآن عمال البناء ينهون عملهم في البيت الفارغ بين سحب الغبار. هناك حيث استطاع بريخت أن يناقش «السيد الصغير»[2] - الذي كرس أيامه بمنتهى الصرامة من أجل عمله - في المشكلات السياسية والأدبية التي كانا يتفقان عليها، بينما كان يتجنب السيد الآخر - توماس مان - بقدر الإمكان. هل حدث ذلك في أي وقت خلال العصر الأوروبي الحديث أن اضطرت النخبة

= بعض أبرز الأفلام البريطانية في ذلك العصر، ومنها فيلم الحياة الخاصة لهنري الثامن. وتوجه لوتون في مشواره الفني لاحقاً إلى الإخراج المسرحي، ومن أبرز أعماله مسرحية عصيان الحاكم العسكري كين *Caine Mutiny Court-Martial*، ومسرحية دون خوان في الجحيم لبرنارد شو، والذي شارك في بطولتها أيضاً. كما أنه شارك في العرض الأمريكي لمسرحية حياة غاليلي لبرتولد بريخت.

(١) **ليون فويشتفانغر** (١٨٨٤-١٩٥٨): أديب ألماني يعتبر من أبرز الكتّاب الألمان في القرن العشرين. ولد في عائلة يهودية ميسورة، وهو شقيق الكاتب والصحفي مارتن فويشتفانغر. بدأ محاولاته الأدبية في سن مبكرة. درس التاريخ والفلسفة وفقه اللغة الألمانية في ميونخ وبرلين. وحصل على درجة الدكتوراه برسالة عن عمل لهاينريش هاينه هو «حاخام باخاراخ». أسس مجلة ثقافية هي دير شبيغل أو المرآة في عام ١٩٠٨، توقفت بعد عددها الخامس عشر. وقد هاجر فويشتفانغر من ألمانيا بعد وصول هتلر إلى الحكم إلى فرنسا ثم إلى الولايات المتحدة.

(٢) المقصود هنا هو ليون فويشتفانغر.

المثقفة مغادرة البلاد بلا استثناء تقريباً؟ دولة فايمار في ظلال النخيل. أين سمعت هذا من قبل؟ نعم، قالها لي ممثل عجوز في الفناء الأخضر خلف بيت شونبرغ في شارع نورث روكينغهام، حيث وقفنا أمام بعضنا كلٌّ يحمل كأس المارغاريتا في يده، قال: أنا نورمان، وعرفني بزوجته بيجي التي بدت مناسبة لمشهد من مشاهد تشيكوف، الشعر الأبيض مرفوع في تسريحة شعر من مطلع القرن، تلف عنقها سلاسل طويلة من العصور القديمة، على وجهها طبقة سميكة من المساحيق، على شفتيها أحمر شفاه أرجواني داكن، القميص والتنورة أيضاً ينتميان إلى إرث أزياء ذلك العصر. أما هو - نورمان - فكان يرتدي زياً لائقاً، بدلة وربطة عنق رغم حرارة الجو في الشتاء ذلك اليوم، عيناه زرقاوان كالبرمائيات، شعر أبيض مفروق بدقة، ووجه صغير إلى حد ما لا يزال مشدوداً. لم يكن المرء ليظن أنه ممثل. لكن هذا تغير على الفور حين بدأ يتحدث. كان صوته لا يزال متنوعاً، كان يدعم حكاياته بجرعة هائلة من الإيماءات، أراد بشدة أن يحكي لي: إنه عمل مع بريخت. كان ضمن القائمين على مسرح بيفرلي هيلز الذي أقيم فيه العرض الثاني من «غاليلي». كان يعرف قصصاً عن التدريبات مع لوتون، عرضها لي بحماس شديد لا يخلو من التمَرُّس: كيف كان لوتون أثناء أدائه دور غاليلي في التدريبات النهائية يدس يديه في الجيوب العميقة لثوبه الواسع "was playing with his genitals" (ويعبث بأعضائه التناسلية). وكيف وجّه بريخت التعليمات له - هو نورمان - عبر الهاتف كي يثني لوتون عن ذلك، وهو ما اعترض هو - نورمان - عليه حتى بعد أن ضمت هيلينا فايجل صوتها بشأن هذا المطلب لصوت بريخت. لكنه لم يكن يستطيع فعل ذلك. إلا أنه في اليوم التالي قبل العرض شوهد لوتون الغاضب يتتبع عاملة الملابس

التي أكدت أنه ليس ذنبها: أن تم إزالة جيوب ثوب غاليلي. أوتعرفين من كان مسؤولاً عن ملابس العرض؟ هيلينا فايجل!

آهٍ يا سيدتي - قال - كم نحن شاكرون لفضلكم كونكم أرسلتم إلينا كل هذا القدر من الثقافة الألمانية! أي رجال ونساء! بريخت. فويشتفانغر. توماس مان. هاينريش مان. هانس إيسلر. أرنولد شونبرغ[1]. برونو فرانك[2]. ليونارد فرانك[3]. فرانس

---

(١) **أرنولد شونبرغ** (١٨٧٤-١٩٥١): مُلحن نمساوي ورسام، ارتبط بالحركة التعبيرية في الشعر والفن الألماني، ورائد للمدرسة الفيينية الثانية. استخدم شونبرغ الهجاء الألماني المعياري حتى بعد انتقاله إلى الولايات المتحدة الأمريكية. ويُعد نهج شونبرغ، من حيث كل من التناغم والتطوير، من بين المعالم الرئيسة للفكر الموسيقي في القرن العشرين؛ فعلى الأقل قامت ثلاثة أجيال من المُلحنين في التقاليد الأوروبية والأمريكية بنشر فكره بوعي أو - في بعض الحالات - بالتفاعل عاطفياً تجاهه. وأثناء نشأة الحزب النازي في النمسا، كانت موسيقاه مُصنَّفةً، إلى جانب موسيقى الجاز، على أنها فن مُنْحَلّ.

(٢) **برونو فرانك** (١٨٨٧-١٩٤٥): كاتب وشاعر ومسرحي ألماني، درس القانون والفلسفة في ميونيخ حيث عمل بعد ذلك كروائي وكاتب مسرحي حتى حريق مجلس النواب ١٩٣٣. وقد تم اعتقاله من قبل السلطات بسبب أصوله اليهودية، فغادر ألمانيا النازية مع زوجته ليسل. عاشا أربعة أعوام بين النمسا وإنجلترا ثم هاجرا إلى الولايات المتحدة الأمريكية أخيراً عام ١٩٣٧ حيث التقى بصديقيه هاينريش وتوماس مان. وقد صار من أهم أدباء المهجر المناهضين للنازية.

(٣) **ليونارد فرانك** (١٨٨٢-١٩٦١): كاتب روائي وقصصي ألماني بارز ينتمي إلى المدرسة التعبيرية. درس الفن التشكيلي في ميونيخ وأصدر أول رواية له عام ١٩١٤. في العام التالي حدثت واقعة في أحد المقاهي حيث عبّر أحد الصحفيين الألمان علناً عن فرحته بقيام غواصة بحرية ألمانية بتدمير سفينة لوسيتانيا البريطانية لنقل الركاب المدنيين وهو ما أسفر عن مقتل ١٢٠٠ شخص. أثار ذلك غضب فرانك فقام بصفعه أمام الجميع، واضطر فرانك

فرفل[1]. أدورنو. برتولد فيرتل[2]. إلى آخره إلى آخره. آهٍ يا سيدتي، "what a seed!" (يالها من بذرة!)، وإن أفضل ما فيهم: حسهم الساخر. كم كان بإمكاننا أن نضحك معهم. إيسلر مثلاً - الذي كان جار نورمان على ساحل ماليبو - عانى ذات مرة من هبوط في الدورة الدموية، فاستدعتهم لو إيسلر التي أصابها الذهول، وكان إيسلر مستلقياً على الأرض فسألتُه، قال نورمان: "Hi, what is it. How are you feeling?" (مرحباً، ما الأمر؟ كيف تشعر؟) فأجاب على ذلك: «كأن ألف ضفدع يتضاجعون على لساني». فقلنا لأنفسنا إنه لا يمكن أن يكون هذا شخص يحتضر.

كان نورمان لا يزال مفتوناً بإطلالة بريخت أمام لجنة مكارثي[3]

= على إثر تلك الواقعة للهجرة إلى المنفى في سويسرا حيث ظل حتى ١٩١٨ وكتب مجموعة من القصص القصيرة التي تدعو إلى السلام. عاد بعدها إلى ألمانيا إلا أنه هاجر ثانية في عام ١٩٣٣ بعد وصول الحزب النازي إلى الحكم، فعاش في سويسرا وانتقل منها إلى لندن ثم باريس ثم هرب أخيراً عام ١٩٤٠ بطرق مثيرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية، إلى أن عاد بعد الحرب إلى ألمانيا في ١٩٥٠.

(١) **فرانتس فيكتور فرفل** (١٨٩٠-١٩٤٥) كاتب نمساوي يعد أحد أدباء الحركة التعبيرية. كانت كتبه هي الأكثر مبيعاً في العشرينيات والثلاثينيات من القرن الماضي.

(٢) **برتولد فيرتل** (١٨٨٥-١٩٥٣): كاتب ومخرج سينمائي نمساوي ذاعت شهرة أعماله في ألمانيا وبريطانيا وكذلك الولايات المتحدة الأمريكية حيث عمل وعاش مع زوجته الكاتبة زالكا فيرتل التي طُلِّقت منه عام ١٩٤٧.

(٣) بيان برتولد بريخت الكاتب والأديب الالماني الشهير عند استجوابه في لجنة التحقيق المكارثية، حيث تحدث إليهم قائلاً: «.. لقد كنت كاتباً مستقلاً، وأردت أن أظل كاتباً مستقلاً، وإنني لأؤكد على هذا، كما أنني أعتقد أنه كان من الأفضل لي نظرياً ألا أنتمي إلى أي حزب مهما كان، وكتاباتي التي =

وتصريح إيسلر الذي رفض التخلي عن الآخرين قائلاً: "They are all my colleagues" (إنهم جميعاً زملائي).

كان الضيوف قد تجمعوا فدُعينا إلى المائدة. البيت الذي عاش فيه أرنولد شونبرغ، الذي كان تلميذه إيسلر يكن له كل تقدير، خمسة عشر عاماً يسكنه اليوم ابنه رونالد مع زوجته باربارا. دخلنا إلى بهو يشبه صالونات فيينا: لم يتغير شيء هنا! صاح نورمان. أحضروا لنا شربة لحم و فطائر السُّميد بالإضافة إلى اللحم المسلوق مع الجزر ومختلف الصلصات، وأخيراً بطاطس مسلوقة، وللتحلية طبعاً تارت زاخر[1] مع القشدة والفراولة. تم اصطحابنا لمشاهدة خزانة مقتنيات كانت السيدة باربارا قد احتفظت فيها بتذكارات قليلة تخص والدها الموسيقي المهاجر من النمسا إيريك زايسل، وقد شاب الشجن حديث الابنة في بيت حماها المشهور حيث نُسي أبوها. أتذكر أنني لدى نهاية العشاء لم أجرؤ على التطرق للصراع الذي دار بين توماس مان وشونبرغ بسبب الانتقادات الحادة التي وجهها شونبرغ حول استخدام عناصر موسيقاه ذات النغمات الاثنتي عشرة في الفصل الثاني والعشرين من مسرحية «الدكتور فاوستوس». فهل كان هذا الصراع قد حُسِمَ

= تعتبرونها أدلة عليّ، في كوني منتسباً للحزب الشيوعي الألماني، هي لم تكتب للشيوعيين فقط، بل لكل العمال في بلادي، وكان تجسد أشخاصاً من الاشتراكيين الديمقراطيين، وعمالاً كاثوليك، وكذلك كانت تجسد بشخوصها، عمالاً لم يكونوا أبدا في حزب أو لم يريدوا أن ينضمّوا إلى حزب ما». (المصدر: جمال محمد تقي: اجتثاث مكارثي في العراق، الحوار المتمدن، ٢٠٠٦/٧/٢٦، العدد: ١٦٢٣)

(١) **تارت زاخر**: هي كعك شوكولاته صنعه الخباز النمساوي الشهير فرانز زاخر للأمير كلمنس فنزيل فون مترينخ في فيينا بالنمسا عام ١٨٣٢. وهي واحدة من أشهر ما يختص به المطبخ الفييني.

حقاً؟ بلى - قال أبناء شونبرغ - فقد تبادل كلاهما تلك الخطابات، بمعنى آخر تراضيا. وحول ما إذا كانا قد التقيا بعدها. هزوا رؤوسهم. قالت السيدة باربارا المتسامحة: إن شونبرغ قد مات بالفعل عام ١٩٥١، أي بعد ذلك بفترة قصيرة.

مرة أخرى عُدِّدت أسباب غضب شونبرغ الشديد من «الدكتور فاوستوس» - كما حكى الأبناء - حتى التعقيب الذي نشر في الطبعات اللاحقة من الكتاب كان جارحاً بالنسبة إلى أبيهم. أحضروا النسختين الألمانية والإنجليزية وقامت السيدة باربارا بقراءتهما علينا. بالمناسبة فقد قال شونبرغ أيضاً لو كان توماس مان تحدث إليه لكان ألّفَ قطعة موسيقية خصيصاً له ولهذا الكتاب.

من دون مقدمات اضطررت في هذه الليلة أن أجادل أستاذاً في قسم الدراسات الأدبية كان يعتبر «الدكتور فاوستوس» بمثابة تجسيد لدولة الاشتراكية القومية. كان عليّ أن أتمسك بفكرة أنها تتناول تأويلاً أكثر عمقاً بكثير للكيان الألماني من مجرد التاريخ وتورط المثقفين والفنانين الألمان في الوبال الذي يؤول إليه هذا التاريخ. لم يفهمني الأستاذ، كان يريد أن يثبت لي ببعض الاستشهادات من داخل الكتاب أنه مُحقّ، وقد هالني ما يكتنف تفسيره من التسطيح، ومع أنني اضطررت للحفاظ على اللياقة إلا أنني تمسكت بموقفي.

تكرر هذا حين أبدى الأستاذ تأييده لعقوبة الإعدام بعد أن أشار نورمان إلى وقعة قتل مراهقين لثلاثة أطفال بطريقة وحشية: ما سبب الإبقاء على هؤلاء المراهقين أحياء؟ وقد أيّد بعض من كانوا حول المائدة أيضاً الحكم عليهم بالإعدام. تخليت عن حيادي: لأجلنا - قلت - يجب أن يبقوا على قيد الحياة. معزولين، للتأكد أنهم لن يتمكنوا من التسبب في أي خسائر أخرى. لا أن يقتلوا. تساءلت إن

كنت قد أتحدث بهذه الطريقة لو كان ابني هو المقصود. فقال أحدهم إن السؤال لا يُسأل هكذا. - أين هي الحدود إذن؟ كنت قد باركت شنق النازيين المتورطين في جرائم الإبادة الجماعية. أضفت: ولكن يمكن للمرء تصور مجتمع آخر لم يكن هؤلاء المراهقون الثلاثة ليصيروا فيه بهذا الشذوذ. هل كنت مخطئة أم أنني حصدت نظرات مستهزئة؟ كان واضحاً بالنسبة إليّ أن معظم الأمريكيين يرون أن هذه الجريمة تتعلق بالطبيعة الإنسانية: مسألة أخلاقية يجب الالتزام بها.

في اليوم التالي مباشرة - كما أتذكر - صعدت إلى طريق سان ريمو لكي أتأمل بيت توماس مان من أمام المدخل، حيث كنتُ - كما يكتب هو - *أواجه محنة الوقت الخانقة عادةً ومع ذلك أعيش وأعمل في ظروف هادئة ومفيدة*. ثم أخذت على عاتقي أن أنزل مرة أخرى إلى الطريق الذي كان يمشي فيه حتى منتزه أوشين بارك إلى فندق ميرامار، حيث كانت زوجته كاتيا تذهب بالسيارة لاصطحابه. هو أيضاً كان يثقل على نفسه بقراءة الأخبار الآتية من ألمانيا. في الخامس من ديسمبر ١٩٤٤: *مقال فظ ومثير للقلق من ماركوزه*[١] *حول مقالي في*

(١) **هربرت ماركوزه** (١٨٩٨-١٩٧٩): فيلسوف ومفكر ألماني أمريكي، معروف بتنظيره لليسار الراديكالي وحركات اليسار الجديد ونقده الحاد للأنظمة القائمة. ولد في برلين لعائلة يهودية، خدم في الجيش الألماني خلال الحرب العالمية الأولى ودرس في جامعتها وحصل على الدكتوراه من جامعة فرايبورغ عام ١٩٢٢ وعمل بعدها لغاية عام ١٩٢٨ في بيع الكتب ثم انضم إلى مساعدة مارتن هايدغر في دراساته، وكان منتسباً لمعهد الدراسات الاجتماعية في فرانكفورت (حيث إنه كان يشكل جماعة فكرية ذات توجه ماركسي حتى عام ١٩٣٣. بعد استلام الحزب الاشتراكي القومي (النازي) السلطة قام الحزب بإغلاق المعهد وسافر ماركوزه بعدها إلى سويسرا لمدة عام ثم هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية وانضم إلى معهد الدراسات الاجتماعية هناك

جريدة *الأطلنطيك*... *غباء*. فقد دعا ماركوزه توماس مان *أن* يكتب مرة - *والفرصة سانحة - بلا تحفظ عن ماضيه، هكذا بلا تحفظ كما يفعل كبار المتحولين* جميعاً. المقصود هو ذلك «الماضي» الذي وثّقه توماس مان في «تأملات لشخص لا يهتم بالسياسة»[1]. ذلك الذي أدركه الآن إذن، كإنذار مبدئي حتى ذلك الحين، بعد هجرته، وبعد كل خطاباته الإذاعية إلى الشعب الألماني، في قلب انشغاله بالتناول الذي ربما يكون الأقل تحفظاً على الإطلاق لـ«خطايا المثقفين الألمان» من خلال «الدكتور فاوستوس».

صور من الذاكرة: لون أزياء كبرى الموظفات السائد يبدو أنه كان

= في جامعة كولومبيا عام ١٩٣٤. عمل خلال الحرب العالمية الثانية في أجهزة الاستخبارات الحربية الأمريكية (مكتب المعلومات الحربية ومكتب الخدمات الاستراتيجية) حيث عمل في الدعاية المضادة للنازية وتفكيك النازية. خلال الخمسينيات درّس الفلسفة والسياسة بشكل متتابع في جامعات كولومبيا وهارفرد وبرانديس وفي جامعتي كاليفورنيا.
رغم أن ماركوزه غادر ألمانيا فقد بقي عضواً في جماعة فرانكفوت الثقافية مع ماكس هوركهايمر وثيودور أدورنو وكان يمثل الجناح اليساري فيها. تأثير ماركوزه على القيادات الطلابية ظهر في الاحتجاجات الطلابية التي عمّت جامعات أمريكا وأوروبا خلال أواخر الستينيات، وقد ركز في كتاباته على نقد الرأسمالية وتجديد الأطروحات الماركسية مثل أن أهم تهديد للأنظمة القائمة سيأتي من الطلاب والأقليات في المجتمع وليس من طبقة العمال التي تم تطويعها من خلال النمط الاستهلاكي وتحقيق احتياجتها السطحية لتكون خاضعة للأوضاع القائمة والتركيز على البعد الفردي خلال النسق الماركسي.
وتوفي ماركوزه عام ١٩٧٩ بسكتة دماغية أثناء زيارته لألمانيا وكان برفقته يورغن هابرماس وهو منظّر من الجيل الثاني من جماعة فرانكفورت.

(١) مجموعة مقالات سياسية ثقافية صدرت عام ١٩١٨، يدافع توماس مان فيها عن النظام القيصري القائم في تلك الفترة في ألمانيا بقيادة القيصر فريدرش.

الأحمر القرمزي، قد يحدث إذن أن تظهر هيلاري كلينتون وباربارا بوش وزوجة آلغور وبرلمانيات أخريات أمام مشاهدي التلفاز الأمريكيين بهذا اللون نفسه. لكن الأحمر الذي علّمت به قناة سي بي إس[1] الولايات ليلة الانتخابات، التي فاز بها كلينتون بالفعل، كان أكثر دُكنةً. الحقيقة أنني حين عدت إلى شقتي في الخامسة بعد الظهر كان كل شيء قد حُسِم، وكانت مراكز الاقتراع على الساحل الشرقي تُغلَق، أما النتائج فسوف يتم تأجيلها حتى تبلغ الساعة الثامنة عندنا على الساحل الغربي أيضاً، لكن لا يمكن طبعاً التحدث عن ذلك في هذه القناة الإعلامية، كنا نجلس، أكثر من خمسة عشر شخصاً، معنا نبيذ أحمر وخبز ودجاج وجبن عند ريا وبينتوس حيث بتنا بالكاد ننتبه لشاشة التلفاز، كل الصيحات تتداخل، الأمريكيون يبذلون الجهد لشرح نظام الانتخاب غير المباشر لنا نحن الأوروبيين، ليس قبل أن يظهر الأبطال المنتصرون أنفسهم أمام أنصارهم أن يتوجه اهتمامنا إليهم مرة أخرى. التهليل حين يظهر كلينتون مع هيلاري على المسرح، متعتي حين تُخرِج هيلاري لكلينتون الخطاب من حقيبتها الأنيقة. يبدو أن بوش كان قد تلقى الضربة القاضية يوم الجمعة قبل الانتخابات، حين تكشّف أنه ليس فقط يعلم بتوريد السلاح إلى إيران، بل إنه هو

---

(١) شبكة كولومبيا للبث (Columbia Broadcasting System أو CBS) هي من أشهر شبكات التلفزيون في الولايات المتحدة الأمريكية وتعد قناة منوعات تجارية. امتلكت الشركة سابقاً من قبل فياكوم (Viacom)، وبعد الانفصال عنها نهاية عام ٢٠٠٥ أصبحت الآن من ضمن شركة CBS بدأت الهيئة عام ١٩٢٧ في الإذاعة، وعام ١٩٣٩ في التلفزيون. تعتبر الهيئة واحدة من كبرى الشبكات التلفزيونية الأربع في الولايات المتحدة، مع ABC، وNBC، وفوكس.

من دعا إلى ذلك القرار أصلاً، عندما قابل بعدها السؤال عن ذلك بتلويحة من يده ثم جاء على لسانه أن كلبه يفهم في السياسة الخارجية أكثر من «هذين المهرجين»، كلينتون وآلغور: تلك هي القشة التي قسمت ظهر البعير. - ونحن نحتفل.

لكن في اليوم التالي مباشرة سمعت في المحطة الإذاعية واعظاً مسيحياً يناشد الأمريكيين ألا يدفعوا الضرائب بعد اليوم حتى يترك هذا المنفلت البيت الأبيض. نعم، ريغان، حين كان لا يزال يجلس هناك، كان الجميع يشعر بوجود أب. "Maybe he had mistakes. But we all felt his energy: He was our father." (ربما كانت له أخطاؤه. لكننا كنا جميعاً نشعر بطاقته: كان بمثابة أبٍ لنا). «روبرت» المذيع الذي كان أصلاً واعظاً اتفق تماماً مع هذا الرأي، فصاحت امرأة تدعى شارون، امرأة كان زوجها يسيء معاملتها إلا أن روبرت أعطاها إجابة مقتضبة بأن عليها أن تظل صابرة ومُحِبة، وأن تظل تشعره دائماً أنه «رجل»، وكلما أرادت شارون أن تتدخل كان «روبرت» يصرخ فيها قائلاً: إنه يتحدث الآن فعليها أن تتفضل بالإنصات إليه، وقد تمكن من خلال خطبته العصماء أن يبث ملاحظاته العدائية ضد كلينتون. ثم أفرط في إخبار المتّصِل التالي كم هو إنسان متدين وصالح لم يرتكب ذنباً واحداً منذ خمسة وأربعين عاماً، ومع ذلك فحتى هو يواجه الكراهية (يكرهه البعض). "Shut up!"(اخرسي!) - صرخ في وجه إحدى السيدات كانت تريد أن تبدي اعتراضاً حتى وضعت السماعة. شخص مريض بجنون العظمة سُمح له بالتنفيس عن نفسه أسبوعياً من خلال محطة الإذاعة العامة.

استكمالاً للنص. أحضرت الملف الأحمر وخطابات «ل»، تلك

التي لن أعرفها أبداً والتي كانت قريبة مني جداً. كنت أراها أمامي، هيئتها، وجهها، تسريحة شعرها، أسمع صوتها كيف كانت تتحدث إلى صديقتي إيما من داخل الخطابات، من دون تاريخ لكن على الأرجح في نهاية السبعينيات تقريباً:

«عزيزتي، أرجوك ألا تضغطي عليّ. أتفهم أنك تتمنين أن يكون هناك من يقف بجانبك، رجل أو امرأة، يعيد إليك شيئاً من شعورك بفقدان الوطن. أستطيع أن أتصور أن الشعور بفقدان الوطن يمكن ألا يتولد بالضرورة في بلد آخر أو في المهجر فحسب، وأنه ربما يكون الأمر أكثر إيلاماً عندما يضطر المرء أن يواجه هذا الشعور بينما هو في بلده. عندما كنا لا نزال في فرنسا قبل الحرب، حين كان معظم الفرنسيين يريدون الاحتفاظ بأملهم في إمكانية التسوية، أبقوا على بعض المسافة منا بمخاوفنا وتوقعاتنا المليئة بالتهديدات، وقتها قال سيدي الحبيب ذات مرة: شيء مؤلم أن نرى القارة القديمة تسقط، حتى وإن كانت قد استحقت ذلك. ولكن: ألم تسقط بالفعل القارة القديمة؟ نعم أعرف: إنها وإن كانت قد تفتتت إلى أجزاء كبيرة إلا أنها تعمل على بناء نفسها من جديد وهو ما قد تستطيع بلوغه ربما بمساعدة الرب والأمريكيين.
أما أنا - أنا السيدة المسنة - فمن المفترض أنني سأبحث عن السكان الذين ربما لم ينشغلوا إلى هذا الحد بالتفكير في كيفية حدوث الكارثة وحجم مشاركتهم هم أنفسهم فيها، والذين قد يتحاملون على أنفسهم لكي يورِّثوا أبناءهم بلداً إنسانياً.
أتستطيعين أن تضمني لي ذلك؟

أترين. أنا لن آتي يا إيما. أتعرفين ما الذي يشغل سيدي الحبيب حالياً؟ إنه يجمع ملاحظاته عن الحياة اليومية. يسألني ويسأل كل شخص يقابله عن عاداته اليومية، ويقرأ كل ما يستطيع الحصول عليه من الصحف الألمانية، ويقتطع منها كل ما يجد عن الحياة اليومية لأهل بلاده. لكي لا يفاجأ ثانية إذا ما خطر لهم ثانيةً أن يحولوا أبسط عاداتهم اليومية إلى هوس.

لا عليك يا إيما، لا تحزني».

صديقتي إيما كانت إذن حزينة، كانت تشعر بالغربة وسط أهل بلادها وتشتاق إلى صديقتها «ل». بالطبع لم تحكِ لي أي شيء عن هذا. لم تكن تسمح لنفسها بإظهار الحالات المزاجية السيئة. إن التجربة التي كرست حياتها لأجلها قد فشلت. قبل موتها بشهور قليلة حين كنا خارجتين من أحد تلك الاجتماعات البائسة التي كان يُعاقَب فيها كل من ينتقد الأوضاع، قالت بابتسامة إنني لن أنسى: أن أحفادنا سيناضلون بشكل أفضل. - قلت: وإذا لم يحدث؟ - حسناً، قالت وهي تهز كتفيها.

نعم، نعم - قال بيتر غوتمان الذي صار عليه أن يستمع بصورة متزايدة لما يدور في رأسي - أعلم ذلك. لكن تستطيعين أن تبدئي تدريجياً في رؤية كل هذا التاريخ من جهة أخرى. - حسناً أي جهة تلك؟ - كفرصة مثلاً.

لم يكسرك. يمكنك أن تحكي عنه. لكنني لا أعرف - قلت لبيتر غوتمان وقد كانت تلك إحدى أندر الليالي حيث قابلتِه في مكتبه، وبدا منشغلاً بأوراق مهمة - من تكون هذه الذات التي تتحدث هنا؟ الموضوع لا يتوقف عند كوني نسيت الكثير فحسب. ربما ما يجدر التفكير فيه هو أنني لست متأكدة مَن الذي يتذكر هنا. واحدة من الذوات الكثيرة التي حلت فيّ بتتابع أسرع أو أبطأ، والتي اختارتني مقراً لها. من أيهم إذن تستقي آلة الذاكرة؟ حسناً - قال بيتر غوتمان - كلنا نعيش بهذا الخوف: ألا نتعرف على ذواتنا ثانيةً.

قلت: خذ مثالاً زمن ما بعد الحرب. كان «الفوهرر» قد مات. فراغ هائل تمدد بداخلك. كان لديكم في البلدة الصغيرة التي كان مستقرك فيها بعد هروبكم من الشرق، قسٌّ ناشط، كان ذكياً وجذاباً بالنسبة إليكم أنتم تلاميذ المرحلة الثانوية، وقد دعاكم للتقرب من الحياة المسيحية تحت إشرافه بأسلوب مغاير: العقيدة القتالية. كان يعزف على المفاتيح بقوة: هكذا لا بد أن نغني: «حصن قوي هو إلهنا»[1]، فلتعزفوا وتغنوا، هكذا قصد لوثر أن يخوض الإنسان المسيحي معركة الحياة مبتهجاً (المعركة المبهجة). ظللت فترة تذهبين إلى الكنيسة كل أحد، تجلسين عند المذبح وتستمعين له يعظ، مبهجاً مثيراً للجدل وذكياً، ولِمَ لا، خطر لكِ. لكن بعد ذلك، بعد بضعة أشهر كان عليك رغم ذلك أن تذهبي إليه لتخبريه أنك لن تأتي ثانيةً، فلم تستطيعي الإيمان بكثير مما في دينه، لا بالحمل الطاهر،

(١) **حصن قوي هو إلهنا**: أحد أناشيد الإصلاحي المعروف مارتن لوثر.

ولا بقيامة الموتى، ولا باستمرار الحياة بعد الموت. يا للخسارة - قال - لكن عليك أن تتحلي بالصبر مع نفسك، فحتى أنت لا تستطيعين أن تعرفي ما الذي يخبئه الرب لك.

حكيت ذلك لبيتر غوتمان كدليل على أنه لم تكن لدي قابلية للإيمان. يبدو أن الدين الجديد وجد لنفسه مدخلاً آخر. لقد تسلل بدهاء إلى الرأس.

نعم - قال بيتر غوتمان - أتظنين أنك الوحيدة التي كانت تؤمن بقوة العقل؟

ألم نكن نود تجنب الأسئلة المجازية؟

- من البديهي أنه كان على المجتمع القديم الذي جلبت له الطبقة الحاكمة الوبال أن يتم تطهيره. من البديهي أن يُمنح الذين كانوا مقموعين حتى ذلك الحين فرصتهم. وقد حصلوا عليها. دعمت الدولة الفقراء. الأسر التي كانت حتى ذلك الحين تخرج عمال مصانع وخادمات أرسلوا أبناءهم وبناتهم إلى الجامعة، زمرة جديدة التحقت بالجامعات، فهل كان هذا ربما سيئاً؟

كلا - قال بيتر غوتمان - من يدعي هذا؟

الحياة السرية للسيد هوفر. في الوقت المناسب في بداية حقبة كلينتون - التي لم تستطع كما وعد وحاول كلينتون القضاء على التمييز ضد المثليين في صفوف الجيش - تم الإعلان عن تسريبات حول كون ج. إدغار هوفر الذي ظل لمدة ثمانية وأربعين عاماً حتى ١٩٧٢ يتقلد منصب رئيس مكتب التحقيقات الفيدرالي (FBI) - كما يقال الآن - كان يعيش حياة جنسية أبعد ما تكون عن «الطبيعية» - وهو ما كان وراء إمكانية الضغط عليه - من خلال صور له وقعت في يد المافيا -

كما كان ضمن أسباب أخرى أدت إلى تحول مكتب التحقيقات الفيدرالي إلى أداة لتأجيج الحرب الباردة، ولحيادها عن مكافحة الجريمة، حيث تم توجيه نشاطها ضد الحزب الشيوعي الأمريكي الذي كان أصلاً قد أوشك على حل نفسه بالفعل منذ ١٩٥٦ إلا أن هوفر قد أصر على استخدام ألف وخمسمئة عميل - أثناء تولي روبرت كينيدي منصب وزير العدل -لمطاردة من تبقى منه، بينما تم الاكتفاء بأربعة عملاء فاشلين لمكافحة الجريمة المنظمة في ١٩٥٩، كما نشرت الجريدة. وقد أخبر وزير داخلية حكومة حزب العمال البريطانية المصدوم السيد هوفر بمنتهى الفخر أنه «يمتلك أدلة دامغة ومفصلة عن أهم ساسة أمريكا، لاسيما ممثلي الحزب الليبرالي منهم، بحيث يصبح موقفه هو سليماً تماماً». بفضل تلك الأدلة استطاع حتى بداية السبعينيات أن يبني شبكة ضخمة من عمليات التلاعب والابتزاز السرية التي دعمت حملته ضد اليسار الجديد وحركة الحقوق المدنية والحركة المناهضة للحرب على فيتنام. الآن فهمت بشكل أفضل لماذا تنفس بعض الأصدقاء الأمريكيين الصعداء بعد انتخاب كلينتون: أخيراً رئيس لا ينتمي إلى جهاز الاستخبارات السرية.

حالياً يتحدث العملاء السابقون في مكتب التحقيقات الفيدرالي (FBI) وجهاز الاستخبارات (CIA) بلا خوف في التلفاز كيف كانوا يراقبون المهاجرين في الولايات المتحدة الأمريكية أثناء الحرب، يراهم المرء جالسين في السيارات، أمام بيت بريخت على سبيل المثال، يبدون كما كان المرء يتصورهم، يرتدون القبعة التي يرتدونها في الأفلام التي تتناول ذلك الموضوع، أما الملفات التي كانت قد فُتحت من أجل تقاريرهم صارت تُسَلّم للباحثين عن طريق تقديم طلب، وقد تم تسويد معظم الأسماء ومقاطع كاملة كان يمكن أن

تشكل خطراً على من كانوا يراقبون آنذاك، إلا أن خطورتها قد انتفت اليوم.

خطر لي أن ميزة استقرار كيان الدولة تكمن في كون أرشيف جهاز استخباراتها لا بد أن يكون أنفع بكثير من أطنان الملفات التي لا يستهان بها لدى جهاز أمن الدولة الذي لم يستطع أن يستمر على قيد الحياة وينمي جنون العظمة لديه سوى أربعين عاماً، بينما استطاع مكتب التحقيقات الفيدرالي حتى نهاية الحرب العالمية الأولى أن يؤجج نوعاً من الحمّى الوطنية، بحيث لم يكن على جون ستاينبيك(١) سوى النطق بتعبير العدالة الاجتماعية، ولا على فولكنر(٢) سوى الدفاع عن الحقوق المدنية للسود ليستحق كلٌّ منهما ملفاً خاصاً لدى الجهاز،

(١) **جون ستاينبيك** (١٩٠٢-١٩٦٨): كاتب أمريكي ولد في كاليفورنيا وله أصول ألمانية إنجليزية أيرلندية، وهو من أشهر أدباء القرن العشرين. اشتهر بقصصه حول الحرب العالمية الثانية. فاز بجائزة بولتيزر في ١٩٤٠ عن رواية عناقيد الغضب. وفي عام ١٩٦٢ فاز بجائزة نوبل للآداب عن رواياته وأعماله العديدة. كانت لستاينبيك صلة وطيدة بالعديد من الكتاب والصحفيين اليساريين ممن أثروا في كتاباته وقد انضم لرابطة الكتاب الأمريكيين الشيوعية عام ١٩٣٥. في عام ٢٠١٢ تم الكشف عن بعض وثائق وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية CIA حيث يعرض ستاينبيك خدماته عليها في ١٩٥٢ أثناء التخطيط لجولة أوروبية كان سيقوم بها وقد قابل والتر بيديل سميث (رئيس وكالة الاستخبارات) هذا العرض بالترحاب، إلا أنه لم يتم الكشف عن طبيعة المهمة التي قام بها ستاينبيك خلال الحرب الباردة.

(٢) **ويليام كتبيرت فولكنر** (١٨٩٧-١٩٦٢): روائي أمريكي وشاعر وأحد أكثر الكتّاب تأثيراً في القرن العشرين. حصل على جائزة نوبل في الأدب عام ١٩٤٩، كما نال جائزة بوليتزر في عام ١٩٥٥ عن حكاية خرافية، وفي عام ١٩٦٣ عن الريفرز. تتميز أعمال فوكنر بمساحة ملحوظة من تنوع الأسلوب والفكرة والطابع.

بحيث دخل الهوس بملاحقة هيمينغواي الذي كان يَعرِفُ أنه مراقب - على عكس معظم الفنانين الذين لا يعبأون عادةً - طوراً جديداً، كما أن مخاوف توماس مان الشديدة صار لها سند في الملفات: فقد وُضِع تحت المراقبة بسبب نشاطه المبكر في مناهضة الفاشية.

إنها مسألة تربية - قال هورست مسؤول مجموعتكم في المحاضرة - كان ذلك عام ١٩٥٠، كنت تأتين من محاضرة علم التربية لدى البروفسور ف، فقال هورست إن هذا الحديث عن السجيّة، والخلايا الجينية، وتوريث سمات محددة كله هراء. قال: أعطوني ثلاثين وليداً ولدوا في اليوم ذاته وفي المستشفى ذاته، أعطوني ملجأً أربيهم فيه بمعزل عن التأثيرات الخارجية وأنا أضمن لكم أنهم لن يختلفوا في طبائعهم وسوف يتبعون جميعاً السلوك اليومي نفسه. كان ذلك في يوم غائم في الخريف، في وسط الشارع في مدينة جامعة ينّا، وقد أصابك شعور بالهلع أثناء حديث هورست الذي لم تستطيعي رغم ذلك دحضه.

اللغة. تدريجياً استطعت أن أبدأ التفكير في الفوارق بين الإنجليزية والألمانية رغم الاستخدام المقلّ الذي كان متاحاً لي في الإنجليزية فقط. فكرت كم هو أسهل عليّ أن أقول: "I am ashamed" من أن أقول "Ich schäme mich" (إنني أخجل)، كم تستطيع الألمانية رغم تساوي الكلمتين وتساوي المعنى أن تمسّ جذور مشاعري، تتسلل إليها، تداعبها، تغذيها، بل إنها تتماهى معها بشكل مؤلم. كما لم تستطع أبداً الكلمة الإنجليزية "pain" أن تمثل بالنسبة إليّ الألم الذي كنت أشعر به، كان بإمكاني أن أقول ببال مرتاح "It is painful" (إنه شيء مؤلم)، بسهولة كالكذبة - كما

خطر لي بينما رحت أتصبب عرقاً وأنا أتصوّر أن عليّ أن أقول بالألمانية: إنه شيء مؤلم، وأن يكون عليّ أن أفكر في الوقت نفسه في سبب ألمي. أو كيف يمكن لكلمة "conscience" أن تعوضني في أي لحظة عن تعبيرنا الألماني «الضمير»؟ كلمة تحوي «الوخزات» في طياتها، يقين وخز الضمير عندما يصاب الضمير بجرح، يقين انعدام الضمير، فمن المستحيل أن يخدع المرء نفسه بشأن ذلك، كما خطر لي. وبم تنفعني ترجمة «الحسرة» بـ«الندم»، أن أعبر عن «أنا أتحسر» إذن بـ"I regret": "He (or she) regrets what he (she) has done". أنا أتحسر على ما فعلته. أو ما لم أفعله. لا يمكن ذلك سوى في الألمانية. فكرت: ربما لأن الأمر يتعلق بأفعال أو هفوات ألمانية. اللغة الأجنبية كدرعٍ واقية، أو كمخبأ.

أو كما باغتني وقع كلمة "honest" عليّ في متجر الملابس الهندية ذلك في شارع سكوند ستريت، عندما وصل الأمر بعد الإجراءات الطويلة من البحث والقياس - والتي شجعتني عليها البائعة المسنة الوحيدة التي تتحدث الإنجليزية بلكنة هندية قوية - إلى مرحلة الدفع، إذ كنت بالفعل مستعدةً لأن أُسألَ عن رخصة القيادة التي تعد هنا بمثابة بطاقة هوية حين يود المرء أن يسدد المبلغ بشيك مصرفي وليس نقداً، فاعترفت طواعيةً أنني أحمل رخصة دولية لم يكن عادة يُعتدّ بها هنا، فقلت إنه بإمكاني أن أعطيها فضلاً عن الشيك - الذي كان بالمناسبة مطبوعاً عليه اسمي وعنواني - ما يكفي من البطاقات الشبيهة بطاقة إثبات الهوية التي تحمل جميعها الاسم نفسه والعنوان نفسه، وهو ما بدأت به على الفور أصلاً لكي أوقعها بذلك في محض صراع غير قابل للتسويةً. حدث لي مراراً أن اتصلت البائعة في هذه الحالة بمن هو أعلى منها. أن أشارت بوضوح إلى مدى غرابة تلك

الزبونة التي تتعامل معها، فتكون بذلك قد أزاحت القرار بالموافقة أو الرفض على رئيسها. أما هذه البائعة المسكينة فكانت هي كذلك صاحبة المتجر. فلو أنني واحدة من محتالات الشيكات اللائي كنّ كثيرات على ما يبدو لمسّ الأمر حافظة نقودها هي شخصياً. رأيت الصراع الذي خاضته مع نفسها، رأيت كيف تراجعت للوراء ثم قبلت الشيك: "You look honest!" (تبدين صادقة) - قالت بثقة، فأكدت لها: "Sure, I am" (بالطبع أنا كذلك)، وفي نفسي أضفت في صمت: على الأقل فيما يتعلق بالمعاملات المالية.

وفي الطريق إلى فندق ميس فيكتوريا أخذت أفكر أن كلمة "honest" الإنجليزية يمكن أن تتوازى في الألمانية مع «صادقة»، و«نزيهة»، و«مخلصة»، وأن "upright" (مستقيمة) يمكن ضمها لتلك المجموعة أيضاً أو الكلمة الجميلة "sincere" (صافية النية). بينما لا تقف "do one's best" (أن يبذل المرء قصارى جهده) على قدم المساواة مع تعبيرنا الألماني «أن يخلص النية»، أليس كذلك؟ سألت نفسي: هل متحدثو الإنجليزية لا يأخذون «بذل قصارى الجهد» هذا على محمل الجد بما لا يليق بالتأكيد بتعبيرنا عن «إخلاص النية»، ربما ببساطة لأن «خطايانا»- من الناحية اللغوية - تجنُّبها أصعب مما يسمى عندهم "guilt" أو حتى "blame"؟ هكذا بدا لي الأمر على أي حال. ولا يمكن أن يكون هذا محض صدفة - خطر لي - أن يكون شاعر ألماني هو مَن خطر له أن ينهي عمله في الدراما الإنسانية بذلك البيت المحمل بالذنب والعار: *من كان دائم السعي طموحاً، ذاك هو من نستطيع أن نُخلِّصَه*[1]. وبينما مررت بسرعة شديدة على حيوانات

---

(١) اقتباس من الجزء الثاني من مسرحية فاوست لغوته.

الراكون الثلاثة التي كانت تحملق فيَّ كعادتها أشرت لنفسي إلى بعض مشاعر عدم الرضى عن كون الشاعر لم يقدم توضيحاً لما هو شكل ذلك السعي الذي يصل بإنسان عادي لا يستطيع أن يعتبر نفسه عضواً نبيلاً في *عالم الأرواح* إلى نعمة «الخلاص» وفقاً لما يستطيع هو الالتزام به.

إلى أي مدى - كما خطر لي - يكون أسهل تقديم كشف حساب عن غوايات الطفولة من عن خطايا السنوات اللاحقة. حسناً إذن، لا بد أن يتم الكتابة عن ذلك ولو مرة: طُرفَة السجن. ربما حكيتها كثيراً أكثر من اللازم، النظرة الطازجة مضبوطة عليها. ما أراه هو غرفة المكتب الساهرة في مبنى النقابة بمنطقة أونتر دير ليندن، هناك حيث توجد اليوم صالة العرض التابعة لإحدى كبرى شركات السيارات الغربية. للأسف لم تعد عندي بطاقة عضوية لجنة الانتخابات الذي سلمها لكم - أنتم أعضاء اللجنة - أحد المسؤولين. فقد كنت قد تخلصت من تلك البطاقة بنفسك لاحقاً التزاماً بالتعليمات. كان عليكم دعم الحزب الشيوعي SEW (الحزب الاشتراكي الموحد) خلال معركته الانتخابية بغرب برلين. إن لديكم عضوية رسمية في لجنة الانتخابات - كما قام بتلقينكم - وهناك اتفاق مع السلطات في غرب برلين. المواد التي كان عليكم توزيعها كانت مزوّدة بالأختام لإثبات قانونيتها. غني عن القول أنه كان عليكم الانخراط في النقاش مع متلقي هذه الوثائق وإقناعهم بقدر الإمكان بانتخاب الشيوعيين. أما البطاقات التي كُتبت عليها أسماؤكم فلا بد من التأكد من عدم وقوعها في أيدي أعداء الطبقة. ولم يسأل أحد لماذا، ولا أنت أيضاً سألتِ. كان ذلك في منتصف الخمسينيات. في منطقة أونتر دين ليندن كانت لا تزال هناك مواقع بناء كنتم تمرون عبرها على سقالات متجهين إلى محطة السكك الحديد

بشارع فريدريش شتراسه. تم تكليف لورشن - رفيقة شابة - بمصاحبتك.

أتذكر رحلة الترام القصيرة باتجاه الغرب، الاتجاه الذي كان عليكم في أحوال أخرى تجنبه. ثلاث أو أربع محطات. كنت تتصفحين المواد التحريضية وقد وجدتها بدائية بشكل صادم. لكن لم يكن شيء لينفع، لم يكن ليخطر ببالك فعل ما فعله المحرضون الآخرون: التخلص من الأوراق في أقرب صندوق قمامة، والتسكع بضع ساعات في منطقة كو- دام ثم العودة إلى القطاع الديمقراطي. كنت تشعرين بالقلق - ما زلت أذكر ذلك - لكن لم يكن من الممكن أن تدعي أي شيء يُلحظ عليك إذ كان عليك أن تكوني بالنسبة للورشن - الرفيقة الشابة - مثالاً يحتذى. كان عمرك ستة وعشرين عاماً. لا أتذكر العنوان الذي أعطي لكم، ولا حتى الحي. كانت برلين الغربية بمثابة عالم غريب بالنسبة إليك. أرى أمامي شارعاً مظلماً لا أشجار فيه، به بيوت الطبقة البرجوازية المكونة من أربعة طوابق على الجهتين، ربما لم يكن سكانها - كما بدأ يتضح لك الأمر - يمثلون الجمهور الأكثر ملاءمة لدعايتكم التحريضية.

أثناء إعطاء التعليمات لم يخطر ببال أحد أن يخبركم بأبسط قواعد المخالفة القانونية، أن توزيع المنشورات على أحد المنازل يجب ألا يبدأ أبداً من الطابق الأرضي بل من أعلى طابق. قالت لي إيما هذا بعد ذلك بكثير حين حكيت لها عن مهمتكما الفاشلة. بدأتما بالأسفل من اليمين. عند باب ملطّخ بلون داكن قرعتما الجرس لكنه - وهو ما كان من دواعي ارتياحك سراً - لم يُفتح لكما. إذن رميتما الأوراق المخصصة لهذا المنزل عبر فتحة صندوق البريد في الرواق. وهكذا تحركتما باستمرار من الأسفل إلى الأعلى عند كل شقق هذه البناية

حيث لم يفتح لكما أحد. الجميع هنا قد ذهب إلى العمل - قلتما لنفسيكما. كان الوقت صباحاً. عندما نزلتما على السلم ووصلتما مجدداً إلى الطابق الأسفل كان هناك شرطي في زي داخلية- شتوم[١] التابعة لبرلين الغربية بانتظاركما.

أتذكر أن ضربات قلبك بدأت تتسارع، إلا أنك كنت تهدئين نفسك: لا يستطيع أن يفعل بنا شيئاً.

استطاع أن يصطحبكما معه. كان عليكما الذهاب معه إلى مركز الشرطة للكشف عن هويتكما. نسيت إن كان قد نظر في بطاقتي عضويتكما في لجنة الانتخابات. ما أتذكره جيداً هو الضوء الذي قابلكما أمام باب البناية: ضوء يتبع المطر الغزير حين تبدأ السماء في استعادة صفائها وترمي الشمس بشعاع ضوء العصر الخافت على شوارع وبيوت المدينة الكبيرة. كما أذكر بدقة الفتى الصغير، الذي يبلغ من العمر خمسة أو ستة أعوام، الذي جلس القرفصاء على مجرى السيل يراقب مراكب الورق تبحر. كيف نظر إليكم واستوعب الموقف بسرعة البرق فصاح: شيوعيون! اعدموهم جميعاً! وكيف قلت له بفخر أثناء مرورك: في هذه الحالة سيكون لديكم عمل كثير!

بعدها هدأت. الصورة الذهنية اللاحقة أشارت إلى مركز شرطة، جدران مبنية على الطراز القديم المغطى بالخشب وشيء يشبه المنضدة، جلس خلفها الشاويش الذي كان في الخدمة. كان رجلاً متقدماً في السن ولم يكن مسؤولاً عن موضوعكما. فاتصل برتبة أعلى. ثم تصفح أوراقكما ووجد بالفعل ورقةً لم يكن عليها الختم

---

(١) **يوهانّس ريتشارد راينهولد شتوم**: محام ألماني تقلد منصب رئيس شرطة برلين الغربية من عام ١٩٦٢ إلى ١٩٨٤.

الرسمي وهو ما أوقعكما فجأة تحت طائلة القانون. أشار إليك وشرح لك الأمر بدقة، بموضوعية ومن دون إبداء أي مشاعر انتصار. تملكك الغضب تجاه الرفاق في النقابة الذين كان عليهم إهداؤكما نبيذاً صافياً لأنكما كنتما ستذهبان في مهمة التحريض حتى إن لم تكن أوراقكما كلها قانونية. كان واضحاً بالنسبة إليك أن وضعكما لا يبدو وردياً، فكان عليك إذن أن تحسنيه من خلال سلوكك.

اضطررتما للجلوس على تلك الأرائك الخشبية التي لا يمكن تفاديها في مركز الشرطة بجوار الحائط. كانت لورشن خائفة. أتذكر أنك حاولت أن تتمتمي ببعض عبارات لتهدئتها. كان الشاويش بحاجة لأن يتناقش معك. كان الأمر يتعلق بمساوئ الديكتاتورية ومزايا النظام الديمقراطي الحر. حاولت بذل الجهد لإرجاعه عن تصوره الخاطئ للعالم. أخيراً أصدر آهةً: عجباً أن تكون امرأة بهذا الذكاء وهذه الثقافة متعنتة إلى هذا الحد! كانت إجاباتك مقتضبة وأبية ومتشددة. في النهاية طلب منك أن تتفقدي الخريطة المعلقة على الحائط فوق أريكتكم. كانت خريطة كبيرة بنفسجية للاتحاد السوفياتي، مرسوم عليها مجموعة من المربعات الصفراء الصغيرة، موزعة بشكل غير منتظم على أرض البلاد، يزداد تكدسها خاصة في الشمال الشرقي. أترين تلك المربعات؟ - قال الشرطي المسؤول - كلها معسكرات العمال. معسكرات للمعتقلين السياسيين. وقتها لم يكن بوسعك سوى الإشفاق إذا كان يتصور حقاً أنك قد تصدقيه. ما زلت أذكر أنه تفحّصك قليلاً ممعنا التفكير، ثم سأل ماذا يمكنك أن تقولي إذا استطاع أن يؤكد لك أنه هو نفسه كان معتقلاً في أحد تلك المعسكرات. حسناً، أي أنه كان واحداً منهم! مجرم حرب. ساعتها لم تكوني لتتحدثي معه أصلاً.

تمسكت بذلك. وإن كنت تواقة للوئام، كنت تتحاملين على

نفسك لاستخدام قلة الأدب، لكن خلال معركة الصراع الطبقي كان من الصعب تفاديها. احتملت الصمت إذن حتى وصل الشرطي الشاب، الذي كنتم في انتظاره، وإحدى الشرطيات التي استدعت لورشن أولاً ثم استدعتك إلى الغرفة المجاورة. طُلِبَ منك خلع ملابسك من أجل التفتيش الذاتي. قلت: هنا؟ من دون ستائر على النافذة؟ لا أعتقد ذلك. فتحت الشرطية باب خزانة، كان عليك خلع ملابسك وراءها. وجدت بطاقة عضوية لجنة الانتخابات التي كنت قد خبأتها في أحد جواربك، جذبته من يدها، وأرادت هي أن تسترده، فخدشتك في يدك. هكذا إذن يعامل البشر عندكم! نهرتها وبدأت تمزقين الورقة أمام عينيها إلى قصاصات صغيرة. هكذا يفعل المرء. كنت تعرفين ذلك من الكتب والأفلام. لم تنسي ما تم تنبيهكم بشأنه في النقابة. تخلصت إذن من الورقة التي كان باستطاعتك أن تسوي بها أوضاعك القانونية. صرخت الشرطية التي كانت قد استشاطت غضباً في وجهك: هل جميعكم على هذه الشاكلة؟ فعارضتها أنت ببرود وبداخلك رعشة: ليس الجميع، لكن الكثيرون.

حوارات جميلة تصلح للنشر. لا أستطيع أن أحصي كم مرة تجلت خارطة الاتحاد السوفياتي البنفسجية أمام عيني لاحقاً، لكن بادئ ذي بدء تجلت صورتك أنت أثناء نقلك في العربة الخضراء[1] وعزلك عن لورشن التي وقعت تحت طائلة قانون عقوبات الخاص بالأحداث، لمدة ليلة في زنزانة لأربعة أفراد بقسم مباحث موابيت -

---

(١) منذ عام ١٨٦٦ في بروسيا كان يتم استخدام عربات تجرها الأحصنة لنقل السجناء وكان لونها أخضر، لذلك استمر إطلاق اسم العربة الخضراء على سيارة الترحيلات.

ما زلت حتى اليوم ألقي التحية بعيني حين أمر بذلك السور الطويل المحصن بالأسلاك الشائكة. بالطبع انقضّت عليك السيدات الثلاث اللاتي كن في الزنزانة: ما سبب وجودك هنا؟ قلت: منشورات فأومأن بما يشبه الاشمئزاز: تهمة سياسية إذن! كانت لديهن مشاكل أكثر جدية.

واحدة منهن ظلت تدور في الزنزانة مطلقة عبارة واحدة كل دقيقة: «من أجل فرشاة أسنان»! بناءًعلى طلبي حولت هذه الجملة إلى حكاية طويلة ومثمرة بدأت من نزهة مسائية مع «زوجها» مروراً بشراء صابونة من إحدى الصيدليات، حيث وضع الصيدلي المستتر فرش الأسنان بإهمال في نافذة عرض كاملة غير مراقبة في متناول يد الزبائن، وصولاً إلى أخذ فرشاة أسنان واحدة، اتخذ الصيدلي لنفسه منها ذريعةً لإرسال سيارة الدورية وراءهما. أنت متهمة بالتحريض على السرقة، نعم أنت!

- حسناً إذن. ولكن سرقة فرشاة أسنان واحدة لا يمكن أن تؤدي إلى جريمة كبرى - حاولت أن تهدئي من روع السيدة. فهبت واقفة أمامك وطرحت عليك السؤال الذي لا تُحمَد عقباه: هل تعرفين أولئك الرجال؟ لم تكوني مستعدة لإجابة سريعة، بالمعنى الحرفي كنت تعرفين بضعة رجال فقط، لكن الأمر لم يكن يتعلق بهذا النوع من معرفة الرجال. كان الأمر يتعلق باستعدادك لأن تلقي بنفسك في التهلكة من أجل رجل، إذا قام «هؤلاء» بالضغط عليه؟ من: هؤلاء؟ - حسناً هؤلاء. إذا قاموا بالضغط عليه فعلاً، فهل سيعترف؟ - ليس لدي فكرة. ولكن عن أي شيء سوف يكون عليه... - أفٍّ! تلويحة يد تعبر عن الازدراء. عندما يأتونه بإذن تفتيش بيته. عندما يحاصرونه في الزاوية كما هي عادتهم. عندما يفقد أعصابه ساعتها ويقذف إلى

الأعلى بمنضدة في مطبخنا. - نعم، ماذا بعد؟ أصيبت السيدة بالذهول لما يمكن أن يكتنف المرء من السذاجة. إذن، لسوف يجدون شيئاً، هم. بل ربما يجدون الكثير من الأشياء. ثم جاءت مجدداً الواقعة الأحب إليهم: إنهم يسمون ذلك سرقةً وتستراً في آن واحد، هم. إنهم يهوون المبالغة إن كان بإمكانهم القضاء علينا واحداً تلو الآخر. ثم ينظرون بالطبع في ملفاتنا. حسناً فليكن... حتى أنت كنت تفهمين ذلك التلميح. حتى الرجال يستطيعون التزام الصمت، كما أكدت للسيدة، دون امتلاك أي دليل على ذلك. على أي حال كنت أتمنى لها من قلبي - كما كنت أتمنى للشاب الوسيم - أن تجتاز التحقيقات التي كانت تنتظرها في اليوم التالي، من دون أن يتمكن «هؤلاء» من انتزاع أي اعتراف منها. لأنه كان واضحاً حتى بالنسبة إليك أنت المبتدئة الغضة أنها - تلك التي كانت تعمل خادمة في أحد أشهر الفنادق الراقية - هي التي سرقت مجوهرات النزيلة الثرية موضوع التحقيقات. دائماً على الصغار! صرخت، ولم يكن بإمكانك سوى الاتفاق معها من كل قلبك. كان يتم التحقيق معها بالفعل منذ أسابيع، فبدأت تتلعثم في الكلام. لن يستطيع أحد العثور على الخبيئة - قالت فجأة من تلقاء نفسها - ولا حتى صديقها. لكنها أرادت على الأقل أن تعيش أخيراً حياة أفضل حين تخرج من السجن. فإنها تستحق ذلك. وقد شددت من أزرها بشأن ذلك بكل إخلاص. عليها أن تتمسك بصمتها - اقترحت عليها - فلا يستطيع أحد أن يثبت عليها أدنى تهمة. تلك خلاصة القول! صاحت، وأنت: قلت لها إن عليها أن تظل تفكر في العيش الكريم. - تلك خلاصة القول! - لكنك رأيت أن السيدة منهكة، يداها ترتعشان، غداً يأتون عليها - خطر لك حاملةً الهم. غداً تعترف على نفسها. ما زال لديك ما تقولينه بشأن منشوراتك - قالت

لي وهي تحسدني تقريباً - لا يمكن أن يحدث لك شيء.

هكذا كان الأمر. ولكن هل كان هكذا فعلاً؟ وُضِعتِ في إحدى زنازين الحبس الانفرادي في قسم مباحث موابيت واستمر التحقيق معك يومياً لمدة اسبوع كامل. أما كيف تبدو الزنزانة فهو الأمر الذي يعرفه الجميع اليوم: لوح يُرفع أثناء النهار، مقعد خشبي بلا مسند، طاولة صغيرة، خزانة معلقة بها بعض الأدوات المطبخية الخاصة بالسجن، وصابون ومشط، وكوب لأدوات غسيل الأسنان، وحوض. أما المرحاض فكان مكانه خلف جدار فاصل.

جاءت لزيارتك اختصاصية اجتماعية لم تحصل منك على كلمة واحدة زيادةً عن أهم المعلومات. الدين؟ سألت، فأجبتِ: لا يوجد. فكتبت رداً على ذلك على البطاقة الصغيرة التي أدخلتها بعد ذلك في الشريط المخصص لها في الخزانة المعلقة كلمة: منشقة. هكذا تعرفت على هذه الكلمة التي سوف تظهر في حياتي لاحقاً بمعنى مختلف تماماً، والتي أصابت القس الذي جاء لزيارتك أيضاً بالكدر، فرحل بعد فترة قصيرة. وبما أنك لم تحصلي على الكتب التي طلبتها - كتاب قواعد اللغة الروسية وكتاب «رأس المال» لماركس - فقد رحتِ تقلبين بتململ صفحات كتاب سميك كان يحوي بعض النصوص النثرية الرديئة: محاكاة لدراما شكسبير، وتبتدعين بعض الروايات المغلوطة عن علاقاتك العائلية لتحاولي من خلالها تضليل المحقق، ذلك الرجل متوسط العمر البليد الذي كان يهز رأسه معظم الوقت. كان فقط يريد أن يعرف «الحقيقة» وراء الجهة التي أرسلتك، وهو ما لم يكن سراً لكنه بالطبع لم يعرف ذلك منك. كان يحاول استجوابك بشأن ما إذا كنتِ قد كُلّفتِ بمهام أخرى غير مهمة التحريض المشؤومة تلك، وأي علاقة تربطك بأعضاء الحزب الشيوعي في غرب برلين.

كلها أسئلة رفضت الإجابة عنها بحسم رغم أنك كنت تستطيعين الإجابة عنها بالسلب بسهولة.

لم يخلُص معك إلى شيء، أما أنت - إذ كنت قد زعمت بلا داعٍ أن أباك توفي بينما هو في الحقيقة يتمتع بأحسن صحة وقد ذهب مؤخراً مع أمك في زيارة إلى عائلتك في كارلسهورست - فقد كان عليك ابتداع الشفرات الأكثر إثارة التي تمكنك من إبلاغ عائلتك التي ليس لديها أي فكرة عن ذلك الزعم لكي تمنعيهم من أن يعارضوه في إحدى الزيارات المستقبلية التي كان مسموحاً بها. كان عليك إذن أن تحسبي حساب أن تبدأ أمك تشك في سلامة عقلك بسبب رسالتك السرية التي حاولتِ إيصالها من خلال جملك المقتضبة ولم تستطع هي بالطبع أن تفك مغاليقها، وازدادت حيرتها في النهاية حتى أرادت أن تقنع المحقق - وهو ما أثار غضبك - بأن سلوكك هو محض طيش شباب.

بالمناسبة فإنك لم تستطيعي أن تخفي على نفسك أن الاعتقال لم يرُق لك، أنك لم تكوني بكل هذا الهدوء الذي تتظاهرين به البتة، أن معدتك كانت تتقلص وأنك لم تستطيعي بلع ولا قضمة واحدة من طعام السجن. كنت متوترة وعصبية بشكل مهلك، لم تكادي تستطيعين النوم. أما كلمة خوف فقد حرصت على تجنبها. كان الزملاء والرفاق الساخطون يرسلون علب الحلوى والفاكهة إلى زنزانتك، وكانت حملات الدعم قد انطلقت في «الخارج»، كما نُشر بيان احتجاج في الجريدة.

كنت تعرفين من خلال الأدب أن المعتقل لا بد أن يُنشئَ علاقات تآمرية مع المعتقلين الآخرين. فقمت بسحب المقعد الصغير ووضعه تحت النافذة نصف المفتوحة ذات القضبان التي أمسكت بها ورفعت نفسك إلى أعلى وسألت بصوت هامس يميناً ويساراً إن كان أحد

يستطيع أن يسمعك. جاء ردّ من جهة اليسار: صوت نسائي يائس. رغم أنه كان هامساً، لا يكاد ينطق حتى تقاطعه باستمرار ضوضاء الحياة اليومية في السجن، كان باستطاعتك التقاط أهم المعلومات عن وضع جارتك في الزنزانة: كانت هي الأخرى آتية من الجمهورية الألمانية الديمقراطية، تم اتهامها بأعمال التجسس في برلين الغربية لمصلحة جهاز أمن الدولة. كان من الصعب تجاهل الأمر: هذه السيدة كانت خائفة فعلاً. هكذا أضيفت إليك مهمة أخرى: كان لا بد أن تواسيها وأن تشدي من أزرها لرفع روح المقاومة لديها والتي كانت على شفا الانهيار. بالطبع لم تسأليها عن مدى صحة هذا الاتهام، لكنك حلّفتِها ألا تعترف بأي شيء. فلن يستطيعوا بالتأكيد إثبات أي شيء ضدها. إلا أنها بدت غير متأكدة تماماً. ذات مرةٍ، حين تم استدعاؤك للتحقيق من قبل شرطية كانت تبدي لك احتراماً، رأيت جارتك في الزنزانة نازلة عبر الرواق الطويل في صحبة شرطيين أمريكيين طويلين كالشجر. كانت قصيرة ونحيفة شعرها خفيف باهت. كان لديك تصور مغاير عن الجسوسات.

ثم انتهت الانتخابات بهزيمة نكراء للشيوعيين. خمد الاهتمام بك، ثم تم الإفراج عنك فجاء طالبان غير معروفين لك لاصطحابك من أمام باب السجن. كانا يحملان الورود معهما وقاما بتهريبك برخصتي قيادتهما إلى الترام حيث ارتأيا أنه من غير المقبول تحويل نقودكم الشرقية القيّمة لشراء تذكرة ترام بالعملات الغربية.

ما زلت أذكر كيف كنت تشعرين بالطمأنينة حين صار بإمكانك أن تدقّي الجرس على باب شقتكم. حين تطلعت فيك ابنتك الصغيرة وهي في حوض الاستحمام. أعتقد أنه لا توجد صورة أخرى لها من ذلك الزمن أثرت فيّ مثل تلك. كما أنني ما زلت أذكر أن نظرة الابنة

التي بدت غريبة في البداية قد وخزتك، وأن سؤالاً طرح نفسه بداخلك حول جدوى تلك المهمة وإن كانت تستحق فعلاً أن تفتقدك طفلتك لما يزيد على أسبوع.

غني عن القول أن الشكوى العاجلة التي تقدمت بها لدى الرفاق في النقابة بسبب عدم إطلاعكم على الحقيقة كاملة بشأن طبيعة مهمة توزيع المواد التحريضية، وإن كان تأثيرها قد تراجع، إلا أنه تم التصدي لها بالتأكيد. كنت متأكدة أن الرفاق في مراكز القيادة لا بد أنهم فكروا في الأمر. خلاف ذلك كنت قد أثبت نفسك على أفضل وجه. لكن بما أنك أثبتِّ نفسك كان بإمكانك أيضاً أن تبقي على جنونك، كان بإمكانك أن تقولي رأيك في مدى بؤس هذه المواد، وأنها إلى جانب كل النواقص الأخرى كانت مكتوبة بأسلوب ركيك. حينئذٍ سمعت لأول مرة الاتهام الذي سوف يلازمك منذ هذه اللحظة: اتباع المذهب الجمالي.

تساءلت ما إذا كانت كلمة «دوغماتية» هي الكلمة الصحيحة لوصف الشخص الذي كنته آنذاك؟ غير مستعدة للتنازل. مثابرة. راديكالية. كانت كلها أيضاً كلمات خطرت ببالي. وفوق كل شيء: أمتلك الحقيقة، وهو ما يجعل الإنسان أكثر تعصباً. معطف الدكتور فرويد. ماذا لو أنني قلبت المعطف؟ بحيث يصبح ما بالداخل في الخارج؟ لو استطعت وصف عملية التراجع، والتوقف عن التعصب ضد نفسي؟ الآن تحديداً؟ - خطر لي - متى إذن إن لم يكن الآن؟ لكن هذا لم يكن ممكناً.

جلست على مقعد تصفيف الشعر، كان وجهي في المرآة يبدو لي مثيراً للاستياء حين أكون مضطرة للنظر إليه طويلاً. في هذا الصالون أقضي أوقات مبتكرة، في البداية علق متدرب اسمه جيري ثوباً حول

رقبتي وغسل شعري، وأنصت على طريقة كبار المصممين إليّ وأنا أصف له كيف أودّ أن أقص شعري، على عكس كارولينا التي جاءت الآن لتقوم على خدمتي بسلاسة وسرعة، من دون تردد ومن دون قبضة يد زائدة، كما خطر لي. كانت قد اضطرت للانتقال من برلين إلى هنا، وقالت إن السنة الأولى كانت صعبة من دون معرفة باللغة، لكنها الآن - كما بدا لي - تتحدث ببراعة. أولم يكن على المرء أن يتعصب - فكرت، بينما لم يتوقف الشريط الصوتي في رأسي ثانية واحدة - ضد هؤلاء الذين يريدون أن يعيدوا عجلة التاريخ إلى الوراء بينما أردنا نحن القضاء على أسباب انحراف المسار كله باقتلاعها من الجذور؟ حكت كارولين عن رحلتها إلى المكسيك، الحرية هي استبصار الضرورة، ماذا غير ذلك؟ لقد كنتم أحراراً في أن تتخذوا الخطوة من مرحلة ما قبل التاريخ إلى تاريخ الإنسانية، كنتم قد حررتم أنفسكم من الخطايا، من تقاليد الزمن البائد الراسخة بعمق والتي لا تقتصر على شهوة الامتلاك، الشهوة التي كانت بالنسبة إليكم - أنتم الذين لا تملكون شيئاً - بمثابة انحراف يكاد يكون غير مبرر. رأيت أن كارولين قامت بقص شعري باعتناء ولكن على ما يبدو أقصر من اللازم. قصة الصيف، حسناً ليكن. إن الإنسان صالح، يمكن أن يتحسن، نعم ماذا يمكن غير ذلك. لم تكن قصة كارولين عن صديقها الأمريكي الذي وجدته ثم فقدته ثانية تمس القلب حقاً بشكل كبير، قالت: إن الوقوع في الخطأ مسألة إنسانية، فقلت: فعلاً معك حق في هذا.

كنت أعلم أن صحفية ألمانية كانت بانتظاري في فندق ميس فيكتوريا، لم يكن بوسعي أن أتحاشاها، كنت أشعر بالحرارة وبالخشية من الاستيقاظ، يبدو أن مفصلي علِق من جديد. على الأرجح أن الدكتور فرويد كان ليستطيع أن يشرح لي لِم كان جسدي - أو أياً كان

المسؤول عنه - يحاول على نحو متزايد أن يعيقني عن الحركة. على الأرجح أنه كان لينصحني أن أتنازل عن كل الأفكار التي تصوّر لي أن باستطاعة معطفه أن يحميني. على الأرجح كان لينصحني أن أتبع حدسي وألا أوافق أصلاً على تلك المواجهة مع السيدة لايزيغانغ. لكن بما أنني لم أعد أثق في حدسي وبما أن السيدة لايزيغانغ تفهمت تناول لقائي معها باعتباره موعداً إجبارياً فقد قمعت شعوري بعدم الارتياح بعنف وقابلتها.

كانت في انتظاري امرأة طويلة نحيفة شقراء شعرها مرفوع كذيل حصان، كانت ترتدي سروالاً أحمر وقميصاً فاتحاً مطبوعاً عليه شرائط وقبعات ملونة، وعليه سترة منسدلة قصيرة لونها أحمر في أصفر. بدأت على الفور بالحديث ولم تتوقف طيلة الساعات التالية. عن مرضها الذي أتى بها إلى أمريكا والذي كانت تبحث عن شفاء له في ينابيع النخيل في الصحراء. عن أبيها الذي كان السبب في أنها لا تشرب ولا نقطة واحدة من الكحول، بينما كانت للأسف مدخنة شرهة. كيف تعرفت على زوجها. كيف استطاع أن يؤمِّنَ لها روابط جيدة مع الناشرين حيث كانت هناك دسائس تدبر لها، تماماً كما في التلفاز، الجميع هناك كانوا ضدها، بحيث أصيبت باكتئاب شديد وصارت اليوم تعمل فقط باليومية وتتولى مهام محددة للقناة. كنت قد أدركت: أن مهمتها المحددة كانت أنا.

لاحظت بعد قليل أن أسئلتها كانت أهم لديها من إجاباتي التي كانت قد صاغتها بالفعل مسبقاً وحملتها معها حتى أنني استطعت بالكاد أن أغير فيها شيئاً. كانت قد استخلصت من بعض المواد المنشورة أنني تخلصتُ في وقت مبكر من أي أوهام لديّ بشأن الدولة - فلماذا لم أفعل شيئاً إزاء هذه الدولة. لماذا بقيت هناك. فهذا يعني

أنه كان عليّ أن أتنازل دائماً عند الكتابة. وإن كانت لا تخطر ببالها أي أمثلة في تلك اللحظة. لماذا لم أكتب بدلاً من رواية «كاساندرا»[1] كتاباً عن سوء الأوضاع الجمهورية الألمانية الديمقراطية. كيف يعيش المرء في ظل الديكتاتورية؟ فهي لا تعرف الجمهورية الألمانية الديمقراطية سوى من خلال زيارتين للقداس في لايبزيغ. لم تكن قد قرأت أهم كتبي، لكنها من أشد المعجبين بي، حقاً. سوف تقوم بصنع فيلم عن المثقفين في الجمهورية الألمانية الديمقراطية. قالت: عندنا يمكن للمرء أن يقول كل ما يريد.

أصبت بالوجوم وقلة الحيلة. كنت أرى أن كل محاولات الشرح لن تنفع. حاولت مواجهتها بكيف يتعامل الرأي العام الآن مع ملفي في الجمهورية الاتحادية. نعم. هناك بالطبع ذلك النوع من الصحافة الاستقصائية، إنها فظيعة. لا أستطيع أصلاً أن أتخيل أي بشر مؤذيين يجلسون في صالات التحرير، كلاب صيد حقيقية. هي أيضاً لم تكن تصدق ذلك في الماضي. لكن هل ما يقوله الرأي العام عني مهم حقاً لهذه الدرجة؟ لفتُّ نظرها إلى أن الصحفيين الذين بذلوا الجهد لعرض الموضوع بشكل مهني تم إنذارهم من قبل رؤسائهم. وأن لا هي ولا أحد غيرها يملك الشجاعة لكي يتحدث أو يكتب علناً عن الأوضاع التي أشارت إليها الآن في صالات التحرير. وأنهم جميعاً يلتزمون الصمت لكي يبقوا على لقمة عيشهم.

نعم، إنها الرأسمالية - لكنها لم تكن لتصف العالم الغربي

---

(١) **كاساندرا**: رواية لكريستا فولف صدرت عام ١٩٨٣ في ألمانيا الشرقية وترجمت بعدها إلى عدة لغات. وتدور أحداث الرواية حول حرب *طروادة* من منظور *الأميرة ابنة الملك الكاهنة كاساندرا*.

بـ«الرأسمالية»، بل بـ«اقتصادات السوق الحر» - حيث يعامل كل إنسان الآخر طبعاً كالذئب، هذا ما تجلبه المنافسة معها تلقائياً، لكنها زارت العالم كله تقريباً ولم تجد نظاماً اقتصادياً واجتماعياً أفضل. جاء بعد ذلك أيضاً تأييدها لحرب الخليج، ثم إن الأمريكان يتكبدون العديد من المصاعب لأنهم يقومون على حماية المهددين حول العالم ويتكبدون لذلك إنفاق أموالهم لنصرة الفقراء. للأسف لم يكن ماركس يفهم شيئاً عن الاقتصاد، فقد قرأت كتاب «رأس المال» بجزءيه وناقشت كل ذلك مع زوجها. ثم كان عليها أن ترحل بسرعة، فلو لم أنذرها لكانت قد فوتت رحلة طيرانها. عانقتني مودعةً. قالت إنه ليس عليّ أن أنزعج إن كنا مختلفتين في بعض وجهات النظر. فهي من أشد المعجبين بي وستبقى كذلك.

بقيت مخدّرةً. لو أنني قرأت هذا في أحد الكتب - خطر لي - لما كنت لأصدق. لم أكن لأسمح لنفسي أبداً بأن أستخدم مثل هذه الصور النمطية. لكن لِمَ لا يحق لشخص أن يطرح الأسئلة حتى وإن كانت بشكل جزئي بسبب انعدام المعرفة تبدو جارحة. وكيف يمكن الوصول إلى أي فهم إن لم يتم التطرق إلى هذه الأسئلة. تملكني مرة أخرى ذلك الشعور بالعبثية: لم يكن لكل ذلك معنى، لم يكن لدينا فرصة. لكن من كنا «نحن»؟

كل سطر سأكتبه الآن سوف يُستخدم ضدي

لكن ألم يكن الأمر كذلك على الدوام أو على الأقل منذ زمن، أولم يكن عليّ أن أتعوّد على ذلك؟ ما الذي يمنعني من وقف هذه التدوينات كلّها؟

انطلقت خارجة وكان الوقت ما يزال نهاراً، الحياة الطبيعية والناس العاديون الذين سبقوني والذين يقبلون في مواجهتي في منتزه أوشن بارك. بؤس، بؤس، متى كررت هذه الكلمة من قبل بلا توقف، مثل تعويذة. كان ذلك حين جلست تطالعين الملفات، استحوذ عليك شعور بالتسمم، نوع من الغثيان لم تعرفيه من قبل، حين اصطدمت بقصاصات الأوراق المكتوبة بخط اليد التي تناولت أعمالك. IM (العميلة السرية) «جيني»، يبدو أنها درست الأدب الألماني، ازداد قلقها من الكِتاب تلو الآخر بشأن انزلاقك إلى تيارات أيديولوجية عدوانية بشكل غير مطمئن، وجاء ذلك كما هو متوقع، في النهاية لم يكن بوسعها أن ترى شيئاً آخر في أحد النصوص التي أعترف أنها كانت على ما يبدو أكثر تعقيداً بعض الشيء ما عدا حزمة من الرسائل السرية المعادية للدولة والمشفرة بدقة. كان رد فعلك هو الضحك، لكن السم الخالص ألح عليك وفعل فعله، بؤس، بؤس، كنت تقولين ذلك لنفسك حين تغادرين الجهاز، فكان صوت بداخلك يقول في المقابل: «هناك ما هو أسوأ»، وهو ما كان صحيحاً بالفعل.

جلست لبعض الوقت على الأريكة في حديقة أوشن بارك، تحت أشعة الشمس الأخيرة، كنت بحاجة إلى تزويد نفسك بالضوء، رجل قصير مكوّر ربما كان في سني تقريباً جلس بجانبي وأشار إلى المحيط الذي كانت الشمس لتوها تهبط وراءه: "That's wonderful, isn't it?" (هذا رائع، أليس كذلك؟) نعم - قلت - "Marvellous" (بديع). رأى أن معي كتاباً جاءت في عنوانه كلمة «المجتمع الأبوي»، فسأل باهتمام بالغ إن كنت «أدرس»، فقلت: أقرأ فقط. أراد أن يتحدث. حكى أين يسكن في لوس أنجلوس، وأنه يستغرق أربعين دقيقة بالباص ليصل إلى هنا، فهو يحب هذا المكان. ياه، هل أسكن

حقاً في سانتا مونيكا؟ يا لحسن الحظ! - لمدة تسعة أشهر فقط - قلت - "I am German" (أنا ألمانية).

أثار ذلك اهتمامه. كان قد هاجر من أيرلندا إلى هنا قبل عشرين عاماً. أراد أن يعرف كيف تسير الأمور الآن عندنا بعد الوحدة: "Better or worse" (أفضل أم أسوأ)؟ قلت: "Different. Difficult." (مختلفة. صعبة). كان رأيه أنه دائماً حين يتم خلط شيئين مختلفين معاً لا بد أن تكون هناك فترة انتقالية صعبة. سألني إن لم أكن أريد البقاء هنا في النهاية؟ كلا، كلا - قلت - إن عائلتي أيضاً في برلين. وإذا كان زوجي قد تركني آتي إلى هنا بمفردي تماماً. نعم - قلت - "He did" (فعل ذلك). - وسألت نفسي إن كان بإمكاني أن أشهد مثل هذا الموقف في إحدى الحدائق الألمانية.

كيف يمكنني أن أقضي هذه الليلة؟ والليلة المقبلة، وليلة تالية وتالية؟ لا، لم أعد أذهب إلى «المركز» لإحضار رسائلي البريدية، والصحف، ورسائل الفاكس، فكرت أنه ليس عليّ أن أعرف كل شيء.

لم يرد بيتر غوتمان على الهاتف، سمح لنفسه ألا يكون موجوداً حين يحتاج إليه المرء. لم يستطع فريق إنتربرايس أن يبقيني أمام التلفاز مساء اليوم. النبيذ والجبن هنا. رحت أهرول في شقتي ذهاباً وإياباً. كانت هنا مذكرات توماس مان التي كان بوسعي أن أتصفحها، وأنتقي منها مقاطع بشكل غير منتظم. قرأت بتأثر كيف كتب عن غرامه الأخير، فرانسل. كيف سألها إن كان عليه أن يحرق مذكراته أم أنها تريد أن تعرفها الأجيال المقبلة. في النهاية: يمكنهم أن يعرفوني ولكن ليس قبل عشرين أو خمسة وعشرين عاماً عندما يكون كل شيء قد مات. *إن الاعتراف بكل ذلك في كتاباتك سيدمرني*. فكرت: لو لم

يكتب أي شيء عن ذلك لاختنق. إن وقف التجربة الذاتية، التي هي الغرض أصلاً، الكتابة: الرغبة في التعرف على الذات حتى الجذور - هكذا فكرت - كان ذلك ليخلّف نتائج تشبه وقف العلاج الذي يبقى على الحياة خلال مرض عضال.

سألت نفسي: هل الحياة فعلاً - كما يتعين علينا أن نعيشها - مرض عضال؟

كيف يعيش المرء في ظل الديكتاتورية؟ تلك الكلمة التي تصف أوضاعنا جاءت مع «التحول». كنت أظن أنني أعرف ما هي الديكتاتورية حتى عايشتها حين صرت في السادسة عشرة من عمري. كانت لا تقارن - خطر لي - بالعقود الأربعة اللاحقة التي عايشتها أيضاً، وكنت أقاوم المساواة بين الوضعين. لكن السؤال ظل يرافقني: كيف يعيش المرء في ظل الديكتاتورية؟

أجلس بعد عقد ونصف من طرح ذلك السؤال عليّ في غرفة مكتبي أمام كومة ضخمة من الأوراق التي ظهرت بلا مقدمات منذ فترة قصيرة وسط تركة زميل كنت أعرفه جيداً، كان أصغر مني سناً إلا أنه مات شاباً. قتل نفسه بالسم - كما قيل - وكنا جميعنا نعرف السبب. بداية التراجيديا - هكذا يتعين على المرء تسمية سلسلة الأحداث حين يكون في نهايتها شخص ميت - كنت قد عايشتِها، ولم تنسها أبداً: تجمع لبعض الكتّاب كان قد تم استدعاؤهم من قبل «جهة عليا» في مبنى مجلس الدولة الجديد الذي كانت سلالمه مفروشة بالسجاجيد، وكانت ستائر نوافذه الثقيلة تفتح وتغلق بضغطة زر. حكومة العمال والفلاحين صار بوسعها الآن أن تستحل ذلك لنفسها الآن. مزاج عام ضاغط ومتوتر في الوقت نفسه، نما إلى علم بعض المسؤولين ما ينذر بخطر وشيك: مرة أخرى يتم تحميل الأدب والأدباء مسؤولية الأوضاع

الاجتماعية المتدنية، هذه المرة بسبب انتشار أعمال الشغب بين الشباب. قيل إن الأدب يقدم للشباب نماذج لسلوكياتهم المعادية للدولة. وُضِع أحد الأمثلة على الطاولة: نسخة من فصل في مخطوط رواية قيد الكتابة، Rummelplatz التي كان كاتبها قد فعل بالضبط ما طلبه الحزب من الكتاب منذ فترة قصيرة: ذهب إلى أحد المصانع الكبرى وعاش وعمل مع العمال وتناول تطور بعض الشخصيات في هذا الوسط. كانت الجريدة قد طبعت فصلاً يتم فيه وصف الأوضاع البائسة في هذا المصنع - مصنع SAG WISMUT - الذي كان يقوم باستخراج اليورانيوم من أجل تسليح الاتحاد السوفياتي ليساعد بذلك في حماية السلام العالمي. من المستفيد - سأل السكرتير العالم للحزب - من إبراز تلك الأوضاع التي تم تجاوزها منذ زمن في هذه الرواية مرة أخرى؟ هل هناك تصوُّر أن الحزب لم يكن يعلم كيف كانت الأمور تسير في ذلك الوقت؟ كان يعلم ولكن كان عليه أن يتعامل مع الناس الذين كانوا هناك في الماضي، ومن بينهم النازيون القدماء، من بينهم المجرمون، إلا أنه حاول تأهيلهم بقدر الإمكان. بعض هؤلاء كان ليتقلد مناصب قيادية في هذا المصنع الكبير أو ذاك. البعض تم استبعاده تماماً وبعضهم الآخر فرّ إلى جهة الغرب، حسناً إذن لا بد أن يحسب المرء حساب الخسائر دائماً. لكن ما الذي كان الكاتب الرفيق يريد الوصول إليه، حين يصور لقراء اليوم لاسيما الشباب ولائم الإفراط في شرب الخمر؟ الاغتصاب؟ تم تمرير الدفتر الذي كانت الفقرات المثيرة للجدل معلّماً عليها فيه، بدا أنه يقرأها لأول مرة الآن.

صمت طويل مخجل، كان قد أُعِد للاستراحة مسبقاً ببعض المشروبات والمقبلات، جاء صغار الموظفين يتوسلون إليكم أن تقولوا

شيئاً بحق الرب. هناك نص ضمن كتاباتك حاول الدفاع عن ضرورة وجود الصراعات داخل الأدب والدعوة لاتباع نهج جديد في التعامل مع «الشباب». كما حاول آخرون أيضاً دعم الكاتب الذي تم الهجوم عليه، في النهاية بدا الأمر كأنما تم تفادي ما هو أسوأ.

كان ذلك في سنة ١٩٦٥. هل كنا لا نزال نؤمن أننا نستطيع من خلال الكلام والحجة أن نؤثر على آراء بل وأفعال المسؤولين؟ الواقع - كما كنا نظن - هو الحجة الأقوى، ولكن فقط حين يكون المرء واعياً له. السلطة والعقل يتوحدان، وَهْمُ المثقفين الألمان بامتياز كان قد فشل مرّة من قبل إبان المأساة الألمانية. في كل صفحة من الكتاب الذي يتم نقده كان ارتباط الكاتب بالبلد الذي يكتب عنه يتحدث عن نفسه. لم يكن ليوَدّ العيش في مكان آخر. أما ألا يضطر فنان أن ينتهي إلى الهلاك مثلما يحدث في المجتمعات الاستغلالية أمامنا وإلى جوارنا فتلك قاعدة كنا نظن أننا متفقون عليها مع المسؤولين.

أتذكر ليلة كاليفورنية. ليلة عيد الميلاد بحرارتها التي تصل إلى خمس وعشرين درجة مئوية كانت قد انقضت. الحياة الاجتماعية الصاخبة وصلت إلى منتهاها. لم يعد أحد يرغب في مقابلة الآخرين في المساء. ربما كنت أنا فقط أشعر أنني وحيدة، بل منبوذة. كنت قد جلبت معي من «المركز» أكواماً ثقيلةً من الصحف ورسائل الفاكس، فشلت وسائل حمايتي لذاتي، قرأت المقالات والنصوص التي صارت تتناول قضيتي بلغات مختلفة، واحداً تلو الآخر. لم تقتصر التقارير على الداخل الألماني بل تم نشرها في الولايات المتحدة الأمريكية أيضاً وفي معظم الدول الأوروبية عبر الصحف ونشرات الأخبار.

بعد تردد طويل اتصلت ببرلين، لم يسمع أحد، تصورت كَل الأشخاص الذين أثق بهم في إحدى الجلسات البهيجة، في حانة

مضيئة يتبادلون الأنخاب. تساءلت بجدية ما الذي عليّ فعله. كيف يمكنني تحمل الليل. تصفحت كتاب الراهبة بيرما التي أخبرتني أن كل يوم، كل دقيقة على حدة في حياتي هي الدقيقة المناسبة تماماً، وأن عليّ أن أتقبل هذا لكي أبقي على توازني العقلي. أدرت التلفاز وشاهدت تقريراً عن بعض السيدات المصابات بالسرطان اللاتي تجمعن للقيام بتدريبات مضادة للخوف ثم توفين الواحدة تلو الأخرى. استلقيت على سريري وأخذت أبحث بجدية عن حجج قد أحتاج إليها خلال الدفاع عن نفسي. لم أجد أياً منها. لم أستطع أن أمسك بطرف واحد من أطراف معطف الدكتور فرويد. شعرت أنني أدور في دوامة، وأدركت أنني في خطر. سبب الدوامة التي لم أعد بداخلها خطر لي باعتباره الشيء الوحيد الممكن. فكرت كيف أفعل ذلك، فتحول انتباهي بشكل ما. الصوت الذي كان بداخلي وكان يحذرني أن عليّ أن لا أوقع الآخرين في هذا الهمّ، والذي نصحني بأن أنتظر على الأقل خلال الأيام المقبلة، كان خافتاً جداً. تناولت بعض الأقراص المنومة لكنني حرصت على ألا تزيد عن الحد.

غفوت أو فقدت الوعي وشاهدت نفسي أموت. لم يكن ذلك حلماً. كانت تلك مشاهدة من نوع آخر. صقيع في الأطراف من القدمين صعوداً إلى الأعلى، وقد عرفت ما يحدث وأنا في كامل وعيي من دون أن أشعر نفسي بالخوف. كنت أعرف أن موجة البرودة ستبلغ القلب، تجمدت رويداًرويداً، بعينين مفتوحتين متُّ، لكنني كنت لا أزال أستطيع الرؤية، رأيت محيطي، جدراناً، ونوافذ، رأيت نفسي أيضاً مستلقية هنا على سرير واسع. لم يكن الأمر سيئاً. حين صحوت - حيث كان الظلامُ لا يزال مخيماً - استغرقت طويلاً لأؤكد لنفسي أنني لم أمُت بعد، ولأخرج من حالة الذهول. فكرت أنني أعرف الآن

كيف تكون الحال عندما يموت المرء، ولم أعد أشعر بالرهبة إزاء ذلك. شعرت بما يشبه السلوى.

الأيام المقبلة - أتذكر ذلك - كانت تتسم بالهدوء الشديد. كنت أفعل ما علي فعله، أقرأ كل ما يُرسل إليّ، أرى كيف ينهال سيل الأوراق، ولا أشعر بأي شيء. فقد كنت ميتة، وكان ذلك جيداً، لم يكن كل هذا يخصني. كالعادة جلست ساعات طويلة إلى آلتي الكاتبة وسجلت كل ما رأيت وسمعت. في «المركز» كانوا ينظرون إلي بطرف أعينهم ويبتعدون عن طريقي، وكان ذلك أيضاً جيداً.

أحد كبار الموظفين الذي كان مسؤولاً عن مرافقتنا دعاني إلى مطعم فاخر عقيم وأراد أن يسمع «روايتي عن الحكاية». لكنها لا يمكن أن تكون قد أرضته. سمعت بين جمله المرتبكة أن عليه أن يبرر وجودي في «المركز» أمام رؤسائه الذين هم بدورهم مضطرون للاستجابة للقيل والقال لدى الرأي العام المستَنْفر. قال إن الناس هنا تتعامل مع «شيء كهذا» بمنتهى الدقة، ولا بد أنني أعرف ذلك طبعاً. سألته: إن كان عليّ أن أرحل. فنفى ذلك مذعوراً. قال إن الناس هنا تساند ضيوفها. وأضاف أنه قبل سنوات كان قد تم توقيف باحث اتضح أنه كان عضواً لا يستهان به في منظمة نازية. بذلت جهداً كبيراً لأكتم نوبة ضحك شريرة.

غريزة الحفاظ على الذات بدت أنها لا تزال تعمل، حرصت على قضاء ساعة وقت الظهيرة كل يوم على أريكتي في حديقة أوشن بارك والنظر إلى البحر. يوماً ما اكتشف بيتر غوتمان ذلك، فجاء وجلس ببساطة بجواري. صمت. ثم قال أخيراً: أنت تهملين أصدقاءك يا سيدتي. فرددت بأن هززت كتفيّ. بعد برهة أخرى أراد أن يعرف إن كنت قد فكرت في أي لحظة أن أعود للمشاركة في الحياة مجدداً.

لكنني لم أكن أعلم. هل كنت أظن أنني سوف أكسب أي شيء من هذه العزلة؟ لكن الأمر لم يكن يتعلق بذلك بالأساس. بمَ كان يتعلق إذن؟ حينها عرفت: كان يتعلق بالنجاة من منطقة الخطر. أن أعبر منها بأقل قدر من الإحساس. كوسيلة لدرء الألم. لكنني لم أقل ذلك.

حسناً - قال بيتر غوتمان - أراد أن يبلغني: أنه قدم استقالته. أنه قرأ بعض الأشياء. وأنه أيضاً فهم بعض الأشياء. وأن الأمر واضح بالنسبة إليه أنني لن أنصت الآن لما يودّ أن يقوله لي. لكنه مع ذلك يفضل أن يأتي ذلك سابقاً على أوانه بدلاً من أن يتأخر: إنني أزايد على نفسي بإدخالها في حالة نفسية لا مبرر لها. وإن دوافع ذلك - إذا تحرينا الموضوعية - تافهة. بالطبع كانت وسائل الإعلام ستبالغ في الأمر. لكن كيف أدع ذلك يمسني إلى هذا الحد؟ هل كنت أتعامل مع نفسي بهذه الجدية فعلاً؟ هل أودّ أن أرى نفسي معصومة من الخطأ وبلا نواقص؟ أليس هذا نوع غريب من العجرفة؟

قلت إن هذا تحديداً لم يكن ينبغي أن يحدث لي. ترددت هذه الجملة بداخلي كتردد القوافي.

حسناً إذن - قال بيتر غوتمان - إذا كان الأمر كذلك فإنني أتمنى أن تسعدي يوماً ما بأن ذلك قد حدث لك أنت تحديداً.

وقد جاء ذلك اليوم بالفعل، بعدها بأسابيع، حين استطعت أن أكتب في خطاب غاضب لشخص كان يجب عليه أن يعرف بشكل أفضل، إلا أنه أعرب عن أسفه بأسلوب منافق في إحدى مقالاته التي لا حصر لها بشأن كبوَتي المزعومة: انزلوا عن كاهلي جميعاً. لكن قبل ذلك كان لا بد أن تحدث بعض الأشياء الأخرى. كان لا بد أن يبدأ الهاتف حياته الخاصة، كان عليه أن يحمل لي أصواتاً من عالم بدا

لي ضائعاً؛ لكن الحياة كانت تستمر فيه على ما يبدو بشكل طبيعي. اضطرت غريس بالي[١] لأن تتصل من بيتها في الغابة على الساحل، اضطرت أن تقول: يجب أن تعرفي "I am with you" (أنني معك). ليف كوبيليف كان عليه أن يتصل ويحلفني ألا أشرح لأحد أي شيء سوى لنفسي ولأولادي وليس لأي من أولئك المخابيل حولنا. أثناء حديثنا رأيته مجدداً يتجول في مدينته موسكو بلحيته البطريركية، متكئاً بقوة على عصاه، غاضباً بسبب مقال صحفي حافل بالافتراءات، قلقاً بشأن موجة جديدة ربما تكون متوقعة من معاداة السامية. رأيت بيت الكتاب في لينينغراد أمامي، حيث كانت تقدم شرائح اللحم والكشكاة[٢] الدسمة في الصباح الباكر، رأيتكم مع الزوجين المترجمين المسنين جالسين على الدرج تستمعون لحكاياتهما عن المؤامرات التي كانت تحاك ضد آل أخماتوفا[٣]، عن الحكم الذي أصدر ضدهم في الاجتماعات، رأيت الزهور التي كانت توضع دائماً على قبر أخماتوفا الذي كان قريباً. رأيت الرجل الذي كان يقف منعزلاً، يتحدث قليلاً، محاطاً بهالة من انعدام الود، إلا أنه رغم ذلك بدأ ذات ليلة يتحدث عن المعتقلات التي كان عليه أن يقضي فيها عدّة

---

(١) **غريس بالي** (١٩٢٢-٢٠٠٧): كاتبة قصص قصيرة وشاعرة أمريكية عملت بالتدريس وكانت ناشطة سياسية أيضاً.

(٢) الكشكاة أو القاشة هي نوع من حبوب الحنطة السوداء التي تؤكل في الموصل شمال العراق وفي أوروبا الشرقية. الأكلة شائعة بين اليهود في العالم. أحياناً يتم الخلط بينها وبين طبق الكشك الشائع في مصر إلا أنها تختلف عنه تماماً.

(٣) **آنا أخماتوفا** (١٨٨٩-١٩٦٦): هو اسم مستعار **لآنا أندرييفنا غورنكو**، شاعرة روسية تعتبر من أبرز شاعرات روسيا في عهد الاتحاد السوفياتي، وتعتبر من أشهر المؤثرين في الشعر الروسي، وقد تُرجمت أعمالها إلى العديد من اللغات.

سنوات. لم يكن مصطلح «غولاغ»[1] معروفاً بعد. كنتم متعطشين للمعلومات، تريدون أن تعرفوا أين كنتم تعيشون. كتبت على آلتي الكاتبة:

أحياناً أفكر أن عليّ فقط أن أبذل الجهد بالطريقة الصحيحة، ساعتها سوف تتجلى الجمل الصحيحة والمخلصة على السطح. ثم بعدها أعرف أن كل المجهودات لا تجدي شيئاً. ما يجب أن أراه الآن لا يريد أن يتمثل لي. لدي هاجس أنه شيء بسيط جداً، وتحديداً لذلك هو محتجب هكذا.

أقرأ بعد غيبة طويلة في كتاب الراهبة. أنه ليس على المرء تفادي الألم. أن عليه أن يجلس في مكانه ببساطة ويراقب نفسه بهدوء: هكذا المرء ببساطة. إنه لم يأت إلى العالم ليحسن من نفسه بل لينفتح عليه.

لكن تحديداً عندما يحاول المرء ذلك - خطر لي - تتم معاقبته. كانت الراهبة لتقول إن على المرء أن يكون مستعداً. هذا أيضاً لا بد من تحمله.

ماذا كان لا بد أن يحدث بعد ذلك؟ ذات ليلة حين أردت أن أعود

---

(١) غولاغ أو معتقل سيبيريا هو الاسم الذي كان يطلق على معسكرات الاعتقال والعمل الإلزامي السوفياتية. يرجع تاريخه إلى عام ١٩١٨م، أي بعد عام واحد من قيام الثورة البلشفية التي فجرها لينين. ولكنه صار من معالم عصر ستالين الدموي. كان الغولاغ في عهده عبارة عن معسكرات للعمل الإلزامي والسخرة، تعرض المقيمون فيها لكل أشكال القمع والتنكيل. كان معقلاً لانتهاك كل حقوق الإنسان ويقال إن ضحايا الغولاغ السوفياتي في عهد ستالين منذ عام ١٩٢٩م إلى ١٩٥٣م، حوالي ١٨ مليون سوفياتي، سقط منهم قرابة خمسة ملايين شخص.

إلى البيت وكنت قد سلمت سلسلة مفاتيحي للأمن في الطابق الرابع، جلس الحراس أمام التلفاز الصغير ولم يلتفتوا إليّ. رأيت من فوق أكتافهم: معالم مدينة مظلمة، ومضات ضوء تفجيرات. قال أحدهم: "We're bombing Bagdad with missiles" (إننا نقصف بغداد بالصواريخ). بغداد ليلاً تحت قصف الصواريخ الأمريكية. وظل أحد الرجال يكرر: "Unbelievable" (شيء لا يصَدَّق). ولم أكن أدري إن كان هذا تعبيراً عن الصدمة أم الانبهار بالتقنيات الأمريكية. سُئِل مراسل أمريكي في بغداد فقال إن اللحظة الأسوأ كانت قد مضت منذ خمس وعشرين دقيقة، حين زُلزِلت الأرض جراء انفجار أحد الصواريخ. وإنه شعور لا يوصف حين تحلق الصواريخ بعويلها الرهيب بهذا القرب فوق أحدهم. نعم، بغداد تقع تحت القصف، "but we don't know much" (لكننا لا نعرف الكثير). مرت سيدة مسنة من قسم التصوير، رأت المشاهد التلفزيونية فسألت: "What happened?" (ماذا جرى)؟ فقال الرجال: "Baghdad is being attacked" (بغداد يتم مهاجمتها). "O my goodness" (يا إلهي) – قالت، وتمتمت بشيء مثل: إنهم لم يسمعوا أي أخبار منذ بضعة أيام، لتجيء هذه الآن! استشعرت أنه كان عليّ أن ألتزم الصمت، ألا أقحم نفسي. أمريكيون فيما بينهم. تم استهداف فندق سياحي – سمعت المذيع يقول – وكذلك مبنى كان العراق يستخدمه في تصنيع القنابل النووية، لكنّ موظفاً في الأمم المتحدة شرح على الفور أنه كان متواجداً في هذا المبنى قبل أسابيع قليلة، وأنه كان قد تم إيقاف العمل فيه منذ فترة بعيدة.

هل تشاور بوش مع كلينتون في هذا؟ سألنا أنفسنا في اليوم التالي بينما جلسنا في الاستراحة نشرب الشاي. إن حكومة كلينتون هي التي

بدأت. في جميع أنحاء البلاد وجب دق الأجراس في الوقت نفسه، حقبة جديدة عليها أن تبدأ. بينما سقطت الصواريخ على بغداد.

قال فرانشيسكو: الحلم الأمريكي. اتضح أن: الأمريكيين الذين كانوا بيننا لم يكونوا مؤمنين به. سيدة شقراء في منتصف العمر، صديقة لإيميلي، كانت محامية، قالت: إنها لم تعرف حقاً سوى الآن - من خلال الاطلاع على كتاب مالكولم إكس[١] - كيف كان على الأمريكي الأسود أن يعيش في أمريكا البيضاء، وإنها تسكن منذ فترة قصيرة حياً يسكنه أيضاً بعض السود من الطبقة الوسطى، وهو ما كان يزعجها في البداية حيث إنها ببساطة غير معتادة على رؤية السود يفعلون أشياء طبيعية مثلهم مثل البيض. يذهب ابنها إلى مدرسة خاصة حيث لا يوجد أيّ طفل أسود، وهو لا يلعب معهم في البيت أيضاً.

كنت قد سمعت في الصباح حواراً إذاعياً مع الطباخة السوداء التي صارت الآن عجوزاً، والتي كانت تعمل لسنوات طويلة لدى عائلة روكيفيلر[٢] ثم لدى سياسي مرموق يبدو أنه اتضح تورطه في قضية

---

(١) **مالكوم إكس** (١٩٢٥-١٩٦٥): واسمه عند مولده: **مالكوم ليتل**، ويُعرف أيضاً باسم **الحاج مالك الشباز**، هو داعية إسلامي ومدافع عن حقوق الإنسان، وهو أمريكي من أصل إفريقي، دعا إلى تصحيح مسيرة الحركة الإسلامية التي انحرفت بقوَّة عن العقيدة الإسلامية في أمريكا، وناضل من أجل دعوته حتى اغتيل. بالنسبة لمحبيه كان مالكوم إكس رجلاً شجاعاً يدافع عن حقوق السود، ويوجِّه الاتهامات لأمريكا والأمريكيين البيض بأنهم قد ارتكبوا أفظعَ الجرائم بحق الأمريكيين السود. وأما أعداؤه ومبغضوه فهم يتهمونه بأنه داعيةٌ للعنصرية وسيادة السود والعنف. وقد وُصف مالكوم إكس بأنه واحدٌ من أعظم الإفريقيين الأمريكيين وأكثرهم تأثيراً على مر التاريخ.

(٢) **عائلة روكيفيلر**: إحدى أشهر العائلات الأمريكية الثرية التي تعمل في المجالات الصناعية والسياسية والمصرفية كما أنها كونت ثروة هائلة من خلال امتلاكها لكبرى شركات النفط.

تزوير. ما الذي كانت تعرفه، هذا هو ما سئِلت عنه. وما إذا لم يكونوا تحدثوا عن ذلك في المطبخ. "O no!" (بالطبع لا!) قالت بمنتهى الذعر. كان لدينا عمل كثير جداً. الطبخ ثلاث مرات في اليوم! لم يكن ذلك سهلاً.

حسناً - قال بيتر غوتمان - مجتمع غير طبقي. مرة أخرى كان قد وقف على بابي ذات ليلة راسماً على وجهه ملامح البراءة بقدر الإمكان: هل سيُسمح لي؟ أراد أن يعرف ماذا كنت أكتب. ناولته بعض الأوراق. كان هذا ردّاً على خطاب أحد الأصدقاء، نوعاً من التحليل الذاتي. ظل يقرأه طويلاً، أطول من اللازم، كما اعتقدتُ وصمتُّ. شربنا النبيذ الذي أحضره معه، وأكلنا المعجنات المملّحة.

كما تعرفين - قال بيتر غوتمان بعد قليل - لدي غرام عبر الهاتف.

وماذا تقول، الآن تحديداً؟

تدعو إلى الاعتدال. ضبط النفس قبل كل شيء. إنها لا تطيق أبداً أن يكون المرء حانقاً على نفسه.

من يفعل ذلك؟ أنت؟

أنا أيضاً - قال بيتر غوتمان - أحياناً.

الآن تحديداً؟

لسنا نتحدث عني يا سيدتي. إننا نتحدث عنك. اسمعي لرجل مسن حكيم: إن حب الذات هو أصعب أنواع الحب على الإطلاق.

وأنت يا عزيزي، إنك تستحق جائزة في مناورات تحويل الانتباه الخالصة. أما أنا فأسأل في الآونة الأخيرة: لربما كنت قد ضيعت على نفسي الفرصة الكبرى في حياتي بسبب تقصيري.

وماذا كانت لتكون؟ - أراد بيتر غوتمان أن يعرف.

أن آتي إلى الغرب. في شهر مايو ١٩٤٥: على نهر الإلبه. الذي سعى فوج النازحين جاهداً للوصول إليه مثل كل الأفواج الأخرى وكل جنود القوات المسلحة المجهدين من المعركة والذين كانوا قد تخلصوا من أسلحتهم، والضباط الذين خلعوا نياشينهم وأوسمتهم وأشعلوا حريقاً صغيراً على جانب الطريق ألقوا فيه بأوراقهم، وقد احترمتهم لذلك بالمناسبة. استغرق الأمر ساعات، بينما كنا نعتقد أننا انتصرنا. استَقبَلَنا الأمريكان كأول قوة احتلال، ثم سيطر الإنجليز على أطراف مكلنبورغ التي كنا قد لجأنا إليها. ولكن في النهاية، في ذلك الصيف نفسه، كانت القوات السوفياتية هي التي تقدمت حتى نهر الإلبه طبقاً للاتفاقات. هي التي فرضت نظامها على الجزء الشرقي من ألمانيا الذي نشأتُ وكان بديهياً أن عشت فيه. كانت الساعات قد مضت: لو لم تكن جياد كبار الملاك التي قعدنا عليها مستهلكة إلى هذا الحد بحيث استحال دفعها ولا حتى بالجَلد بالسياط - كنت لأعيش حياةً مختلفة تماماً. هكذا كان الحال في ألمانيا آنذك، محض صدفة تقبض على مصيرك.

ثم؟ - قال بيتر غوتمان - أتريدين العودة؟ تصحيح الصدفة؟ اجتياز نهر الإلبه هذه المرة؟ أن تكوني الشخص الآخر الذي كنت لتصيريه؟

في الأغلب كنت سأصبح مدرِّسة كما كنت أريد أصلاً. إذا ما كنت سأكتب فهذا ما لا أعرفه، لأن ما دفعني للكتابة كانت هي دائماً الصراعات التي توفرت لي في هذا المجتمع. لم أكن لأتعرف على زوجي. أبناء آخرون، أو لا أبناء. كنت لأدع خصائص أخرى تختمر بداخلي، وأكبت أخرى. هل كنت سأسكن في منزل متعدد الطوابق على أطراف إحدى المدن الكبيرة؟ أي حزب أختار؟ هل كانت حياتي

لتصير مملة؟ كنت لأكون متقدمة في السن بالنسبة إلى جيل ثمانية وستين. لم أكن لأزور جهة الشرق. كنت سأقضي عطلتي في إيطاليا. الآن، بعد أن سقط الحائط، كنت سأصل كغريبة إلى بلد غريب حيث يتكلم الناس الألمانية أيضاً، إلا أنني لم أكن لأفهم. لأنني كنت سأظن أن الحياة التي أعيشها، والتي نعيشها جميعاً هي الحياة الطبيعية أصلاً. وكنت سأصبح بلا خطيئة.

حسناً - قال بيتر غوتمان - يكفي هذا.

ذهب. لم أكن مرهقة بعد، فقصدت الملف الأحمر. فما عدا الرسائل الأخيرة من مايو ١٩٧٩ التي لم تكن موقعة من «ل» وإنما من شخص يدعى «روث»، أخبر إيما بموت صديقتها، كانت هناك رسالة واحدة تعتذر فيها «ل» عن تباعد توقيت إرسال خطاباتها مؤخراً.

«لا تتصوري يا عزيزتي إيما أنني لا أفكر فيكِ. على العكس، أفكر أكثر من ذي قبل في سنواتنا معاً، والتي كانت هي نفسها كذلك أولى سنوات مع سيدي الحبيب. لعلّك حزرت يا إيما لماذا التزمت الصمت كل هذا الوقت: توفي سيدي الحبيب. ما زال يصعب عليّ أن أكتب هذا هكذا ببساطة. إن شوقي إليه، إلى حضوره الجسدي لا يخمد. ما زلت أنتظر أن أراه عند الباب حين ألتفت وأنا جالسة على مكتبي، ما زلت أشعر بالألم نفسه لكونه ليس موجوداً، ولن يكون موجوداً أبداً.

كان الشك يساوره. كل أبحاثه خلال السنوات الماضية كانت مكرسة لذاك السؤال: إلى أين تذهب البشرية؟ أستطيع أن أشهد أنه لم يكن يمزح حين توقع زوال جنسنا. إن الأحداث السياسية في السنوات الأخيرة، خلال حقبة مكارثي، والإطاحة بأللندي

بتدبير من الأمريكان في تشيلي وما حدث بعدها في هذا البلد وله، قاده إلى البقية. تحول الأمر إلى يقين في نفسه بأن الوحشية التي استطعنا بالكاد أن ننجو منها سوف تسود الأرض لا محالة. وقد رحل بمحض اختياره.
أما أنا فقد تقدمت في السن، ليس هذا طريفاً. ليس في اقتراب الموت شيء طريف. ما زلت أخرج للعمل، لساعات أقل بالطبع لأنني أحب هذا العمل، لكن أيضاً لأنه غير ذلك سرعان ما يصير المرء في هذا البلد فقيراً. أقابل دورا الآن بشكل متزايد، وقد بقيت هي المرأة الشجاعة نفسها التي كانتها دوماً. إنها تدير تركة زوجها، وأنا أساعدها أحياناً. إنني أشعر بالإرهاق».

لم تستطع صديقتي إيما أن ترد على هذه الرسالة. إلا أنها وصلتها بالقطع، كانت وقتها في المستشفى. كانت تعاني من سرطان الغدة الدرقية. لم أرها أبداً مهزومة أو خائفة. كانت قد تحايلت على إحدى الممرضات واختلست النظر إلى تقرير تشخيص حالتها؛ بعد ذلك أعدت نفسها للموت بأن وهبت كل شيء لن تحتاج إليه بعد ذلك وأحرقت بعض الأوراق. ذات مرةٍ حين لم أستطع إخفاء حزني قالت: أتعرفين؟! لقد شهدت كل ما يمكن أن يشهده إنسان في هذا الزمان. يكفي هذا.

بحثت عما يحول انتباهي. آن- مصورة «المركز» - كانت قد عرضت علينا منذ فترة طويلة أن تصحبنا إلى الأحياء العشوائية في لوس أنجلوس، حيث يجب علينا - كما كان الجميع يقول لنا - ألا نذهب بمفردنا بأي حال من الأحوال. كانت لدي مرافقة جديدة:

تيريزه التي لم كنت أعرفها سوى قبل بضعة أيام إلا أنني كنت أثق بها فعلا مثلما كنت أثق بصديقة قديمة، صحفية، كانت قد جاءت من ألمانيا إلى هنا لتكتب تقريراً لجريدة ألمانية عن انتخابات عمدة لوس أنجلوس المقبلة. كانت قد جاءت إلى هنا من قبل مراراً، كانت تحب هذه المدينة حد الإدمان. بدا أنها تعرف كل شخص فيها، وكان كل شخص يعرفها. كانت لتأتي معي أنا وآن بالتأكيد إلى المناطق المحرمة على البيض. كانت تلقي التحية بإشراق على الأحياء التي كنا نمر بها، على تقاطعات بعينها، وعلى البنايات واحدةً واحدة. كانت تيريزه في منتصف الأربعين. شقراء، نحيفة، شعرها قصير، عيناها رماديتان، كأن عليهما ستاراً، كلما طال بها الوقت في المدينة انكشف. حين مررنا بسيارة آن الـ "Peugeot" على الطريق السريع تنهدت تيريزه من فرط السعادة. كانت تريد أن تقدمني لدائرة أصدقاء جديدة لكنني لم أكن أعلم ذلك بعد.

كانت آن تسكن في سانتا في أفينيو في أحد أحياء الفنانين الذي كان قد أنشئ في مصنع سابق وتم فيه إسكان الفنانين الذين كان دخلهم السنوي يقل عن ٢٥ ألف دولار. كان المسطح مؤمّناً بسياج عالٍ منيع ونظام معقد لتأمين المداخل، فلم تُفتح البوابة الثقيلة سوى من خلال رقم سري معين. للأسف هذا ضروري - قالت آن - فنحن نسكن هنا في منطقة غير آمنة بالمرة. لا تتصوروا أنه يمكن للمرء أن يخرج للتمشية هنا ببساطة. ألا يزعجك ذلك؟ - سألتها. قالت آن إن الإنسان يعتاد على كل شيء. وأن لا أحد يستطيع أن يحصل في أي مكان غير هذا في هذه المدينة على شقة ومرسم بسعر معقول. كان عليّ أعترف أنها محقّة. غرف شاسعة مرتفعة، مساحة لتعليق صورها فيما يشبه معرضاً مستمراً على الحوائط وعلى أحبال مشدودة بالطول

وبالعرض، مساحة لغرفة تحميض الصور، ركن للمطبخ وغرفة معيشة فيها طاولة وأرائك وخزانة أسطوانات الموسيقى. المكان هنا يضج بالحياة - قالت تيريزه - أما نحن الاثنتين الأخريين فقد نظرنا إحدانا إلى الأخرى: كانت تيريزه تتمنى أن تستطيع العيش هكذا.

في الفناء بين البنايات كان السكان قد زرعوا حقلاً من نباتات الصبار، لوحت لنا رسامة من مرسمها لتريَنا محاكاة لفن التصوير الجداري الروماني نفذتها لعميل سخي. ضربة حظ.

وصلنا بعد ذلك إلى العالم السفلي. في الجهة المقابلة لمجمع الفنانين مباشرة، بجانب أحد الشوارع العريضة، أرتنا آن مقلب القمامة الذي كان يمتد في الأفق، جزءاً ممهداً فيما يشبه الأرض الفضاء تتطاير فوقها الريح وسحب الأتربة وقطع صغيرة من الفضلات. لم أعد أبدي أي اعتراضات على مثل هذا الجوار، فأسعار الإيجار المنخفضة للفنانين تفسر وتبرر كل شيء. جاء رجلان باتجاهنا، كانت آن تعرفهما، قالت إنهما يعيشان في مقلب القمامة، يبنيان عشتيهما من بقايا الخشب والمعادن. حمل كلاهما شيئاً في يديه لم أتمكن من معرفة ما هو لكنهما كانا يعرضان علينا شراءه. ليس اليوم - قالت آن بلطف - فلوح الاثنان لها وانسحبا في سلام.

اصطحبتنا إلى وسط المدينة عبر مناطق أكثر إهمالاً. قالت آن إنها لم تكن لتترجل هنا أبداً. كانت مجموعات من المشردين تتنطع على جدران المنازل على أطراف الشوارع، قليلون منهم يتحركون. كلهم سود. شوارع خرِبة. كان لدى آن هدف محدد، تواعدت مع شخص عبر الهاتف. عندما أوقف السيارة - قالت - عليكما أن تنزلا وتركضا بأسرع ما يمكنكما إلىٰ المتجر الوحيد الذي له نافذة عرض سليمة وباب بحالة جيدة سوف يُفتح لكما، فتدخلا بمنتهى السرعة. هذا ما حدث

بالفعل. كان شاب ينتظرنا خلف الباب المسوّر، فتحه برهة وجذبنا إلى الداخل. لم تكد آن تلحق بنا حتى تعلق رجل بكاحليها، اشترت حريتها بسيجارة، ثم بدولار، وأفلتت إلى الداخل معنا، ضغط الرجل خده من الخارج على الزجاج، أشار بإصبعه إلى نقطة، فقبلت آن خد الرجل الأسود في النقطة التي أشار إليها عبر الزجاج. بدا حينئذٍ راضياً وذهب.

وجدنا أنفسنا في واحة وسط الصحراء. كان الرجل الشاب قد تحول إلى نقطة انطلاق للمشردين. كان قد حول الجزء الخلفي لهذه الغرفة - الذي كان مؤمناً بسياج قوي وكان هو نفسه يرسم فيه - إلى ورشة يقوم المشردون بتصنيع لعب خشبية فيها، أشياء جميلة بأشكال بسيطة يَسهُل بيعها لأنه لا يوجد سواها غير الألعاب المصنوعة من البلاستيك. قال إن المعجزة هي أنهم لا يشترون بالأرباح خمراً وإنما آلات وخامات ليتمكنوا من مواصلة التصنيع. المهم هو أنهم لا يُجبرون ولا يساءلون ولا تتم محاولة إقناعهم بشيء، وأن بإمكانهم المجيء أو الرحيل وقتما شاءوا، أو حتى العزوف والعودة بعد فترة طويلة. كونهم يُقبلون ببساطة كيفما كانوا. وأنهم، أو بعضهم يقبلون هذا العرض، تلك هي المعجزة الثانية.

كانت لدى آن الرغبة في إضفاء وميض ضوء على المشهد القاتم، اصطحبتنا عبر الأحياء المكسيكية التي كانت تكنّ لها حباً خاصاً، والتي كانت تتسوق فيها، والتي كانت فقيرة إلا أنها ملونة وتضج بالحيوية. تناولنا غداءنا في مطعم كان اسمه سيريناتا دي غاريبالدي، وأوضحت تيريزه أن تلك المدينة، لوس أنجلوس، تعد بمثابة مهرب بالنسبة إليها. كلا بل - قالت رداً على نصف سؤال من آن - لم تكن قد انفصلت بعد عن زوجها، إنه لا يزال يتمسك بها بزعم أنه سوف يهلك من دونها. فقالت آن إنها كانت لتنتهز هذه الفرصة.

أوشك النهار على الانقضاء، فعدنا مرة أخرى إلى وسط المدينة عبر أحياء الفقراء. كان المشردون يتجمعون الآن حول الإرساليات التبشيرية، ونقاط التجمع الكنسية، والملاجئ العامة التي أنشأتها المدينة - كأنها المغناطيس - لكي يحصلوا على صحن حساء قبل حلول الليل ولكي يجدوا مأوى لليلتهم. الآن فقط يمكن للمرء أن يرى كم يبلغ عددهم، ككتلة رمادية داكنة قاتمة مصطفة في طوابير. كلهم تقريباً سود، وجوه كثيرة منهم بلا تعابير. زوجان فقط جلسا على مجرى السيل معاً، كانا في سن الشباب، يضحكان، ظننت أنهما حبيبان ولفت نظر آن إليهما. فقالت: حبيبان؟ حسناً ربما. لكن لا يمكن أبداً التأكد إن لم يكن ذلك الشاب ببساطة قوادها. بالمناسبة فإنها كانت قد توقفت عن التصوير في هذا الحي منذ زمن، ليس فقط لأنه خطر. فهمت أن شعوراً بالخجل قد منعها من توثيق مشاهد الخزي في حياة هؤلاء البشر. بدلاً من ذلك صورتنا نحن الزائرتين المتميزتين من «المركز» على النحو الذي يفيد بقدر الإمكان لرصّ الصور المكبرة مسلسلة فيما يشبه المعرض في رواق الطابق السادس. لم يكن بإمكاني أن أشعر إزاء هذا المعرض سوى بالفحش.

عدت مستنفدة تماماً إلى البيت في فندق ميس فيكتوريا الذي كان قد غير وجهه. والذي لم يبد لي كواحة فحسب بل كبرج عاجي، كحصن دفاع منيع في مواجهة بؤس هذه المدينة الذي كنا مغيبين إزاءه. هرولت بين المطبخ والشقة ذهاباً وإياباً، لم أستطع أن أجلس إلى الآلة الكاتبة، ولا أن أكتب شيئاً، أكلت القليل وشربت على غير عادتي كأسين متتاليتين من الويسكي بسرعة، دون أن أشعر بأي تأثير. ثم أخرجت من كيسي الهندي البريد الذي كنت قد أحضرته هذا الصباح من «المركز» من دون أن أنظر فيه وقلبت في أوراقه. كانت

بينها رسالة فاكس، مقال منشور في صحيفة ألمانية مرموقة، لصحفي مرموق، قرأته للأسف من دون قصد. فقد تناول كل شيء، كل ما كنت قد اعتدت عليه في الأيام الأخيرة. شعرت أنني انتقلت إلى أجواء مختلفة، إلى خطر حقيقي، لم أكن لأستطيع تفاديه، كان عليّ أن أتخذ قراراً في هذه الليلة.

أريد أن أتذكر ماذا فعلت في تلك الليلة التي لم أستطع أن أكتب عنها شيئاً. ذهبت إلى السرير، أخذت قصيدة فليمينغ المقدس معي. *لا تخشى بأساً، ابقَ أبداً فوق الهزائم*. كررت كل مقطع حتى استطعت ترديده في المنام. لكن الليل كان قد انتصف لتوه. ماذا بعد؟

حينئذٍ بدأت أغني

ظللت أغني الليلة بطولها، كل الأغاني التي كنت أعرفها، وأنا أعرف العديد من الأغاني ذات المقاطع الكثيرة. قمت مرتين لشرب كأس من الويسكي، لكنني لم أسكر. رن جرس الهاتف مراراً. كنت أعرف من الذي يحاول الوصول إليّ بهذا الإلحاح، لكنني لم أرد. غنيت «في ذاك اليوم تحت قمر أيلول الأزرق»[1]، غنيت « اسدوا، اسعدوا، المتسلق آت»[2]، وغنيت «فليحيَ الجنود منعمين في رحمة

---

(١) قصيدة لبريخت كتبها في رحلته بالقطار إلى برلين ١٩٢٠ ثم نشرت عام ١٩٢٧ في ديوان بعنوان «في تذكر ماري آ.»، وهي تتناول ذكرياته عن غرامه القديم يعتقد أنه بفتاة تدعى ماري روز آمان.

(٢) أغنية شعبية كان يغنيها عمّال الجبال والمناجم والمحاجر للترفيه عن أنفسهم ولكي تبعث فيهم الأمل في الخروج إلى ضوء النهار والعودة من عملهم =

الرب»[1]. «أيها السيف في يساري». أغانٍ من عصور مختلفة تداخلت في رأسي، فجأة سمعت نفسي أغني «يا لغباء سؤالكم، يا لضآلة سؤالكم، لماذا نحن نتقدم (نزحف - زاحفون)»، ثم توقفت بسرعة.

ما زلت أذكر أنني شعرت بأن معطف الدكتور فرويد يحوم حولي، وأنه أبلغني بأنني في تلك الليلة سأعرف الكثير عن نفسي، ولأن في ذلك خطراً فإنه سوف يحميني. حينئذ سوف يتضح إن كنت أريد - كما أزعم دائماً - أن أعرف حقاً. لم أتعجب من أنّ معطفاً يتحدث إليّ.

غنيت «حين كنا مؤخراً في ريجينسبورغ»، غنيت «عند النافورة أمام البوابة»، غنيت «لاح القمر»، ثم غنيت «سماء إسبانيا فرشت نجومها»، وهنا يتشاجر الناس حول قيمة السعادة، وبعدها غنيت «حيث تكون أجمل المروج يكون موطني »، لكن أيضاً "We shall overcome" (إنّا لمنتصرون) و "Au clair de la lune" (في صفاء القمر). غنيت «الترحال متعة مولر»، و«أيها الرب الأعظم في السماء، سبعة قروش هي كل ما تبقى معي» و«نجمتان تقفان في السماوات العليا» و «مساء سعيد، ليلة سعيدة» و«لا بلاد جميلة في هذا الزمان»، و«هلمّوا يا رفاق، على الجياد على الجياد» و«الفرسان الزرق، إنهم يتقدمون» و« آهِ ستراسبورغ، آهِ ستراسبورغ، أيتها المدينة البديعة» و«الأغنية تجلب السعادة الكبيرة» و«إلى ستراسبورغ عبر طريق شانتس» و«أعرف شجرة سنديان تقف على شاطئ البحر» و«في الشارع يقف

= الخطر والشاق إلى بيوتهم سالمين. كما أن مطلع الأغنية شاع استخدامه بين عمّال الجبل كتحية يتبادلونها ليتمنوا لبعضهم السلامة والأمل.

(١) من الأغاني الوطنية الألمانية

الصبي معه إطار المعدني» و«دعونا نفرح ونبتهج» و«كان لي رفيق» و«انطلق لحن الفلوت المشرق» و«كل العصافير حضرت». لم أتمهل طويلاً واستحضرت الأغنية تلو الأخرى من مخزون ذاكرة لا تهمد، غنيت «الأفكار حرة»، وغنيت «ثلاثة فتية عبروا الراين» و«ثلاث زنبقات، ثلاث زنبقات، زرعتها فوق مقبرة» و«أيها الوقت الساكن» و«أشجار السرو العالية يدلّون النجوم» و«في أغسطس تزهر الورود» و«إن لديك هدفاً نصب عينيك» و«الزهرات الصغيرة نائمة» و«لقد جئت إلى هنا غريباً» و«رأى الغلام وردة واقفة» و«جاء شهر مايو» و«على الطريق هناك خلف الأسوار» و«كل ما أملك من الأفكار» و«أتريد أن تهديني قلبك» و«إنها، إنها، إنها.. إنها نهاية قاسية» و«جاء الربيع» و«أيها الشتاء وداعاً» و«بالأعلى على العربة الصفراء» و«في مرج لونبورغ» و«في الصباح الباكر إلى الجبال نسير» و«إنك الأحب إليّ» و«غنيت الساعة تلو الأخرى وأرحت قلبي» وغنيت «كنا أمام مدغشقر» وغنيت «حيث ترتفع القمم الزرقاء» وغنيت «سرنا عبر ألمانيا كلها»، غنيت «خادم البلاد عليه أن يقرع الطبول»، غنيت «الربيع قادم، استيقظ أيها المسيحي» و« في قاع نهر فالتافا تتبختر الأحجار» و«من يود الرب أن يهديه للصلاح» و«هيا، هيا إلى الصيد السعيد» و«ذهبت هكذا وحدي إلى الغابة» و«حصن قوي هو إلهنا» و«اخرج يا قلبي وابحث عن السعادة» و«هبت الأجراس حين هبت عاصفة برنفارد» و«أجلس هنا في القبو العميق» و«الهدوء يسود كل القمم» و«لا نار ولا فحم يمكن أن يحترق إلى هذا الحد» و«المساء يحل من جديد» و«حين رمت شمس المساء الذهبية بآخر أشعتها» و«من بين كل رفاقنا لم يكن أحد بهذه الطيبة وهذا الصلاح» و«اصعد إلى أعلى أيها النسر الأحمر» و«مُعَذّب ملوّع بلا حدّ» و«من يريد أن ينعم بالسعادة حقاً» و«كم تتجلى

لي الطبيعة بهيجة» و«اطلعي أيتها الشمس» و«حيث يكون الغناء، دع نفسك تستقر ببساطة» و«علامتنا هي الشمس» و«الأمير أويجن، الفارس النبيل» و«أفيقوا أيها الأغبياء على هذه الأرض» و«بهدوء يتسلل إلى وجداني جرس حميم» وغنيت «سلاماً الآن وتصبحون على خير» و«يبدو أن صياداً وقع في شباكه» و«في مارس يغرس الفلاح الورة الصغيرة» و«في جبل الثلج» وأخيراً «السعادة، شرارة الآلهة الجميلة».

حينئذٍ لاح الصباح، وقع أول شعاع ضوء على فروع الكروم المتشابكة على النافذة، وأنا غفوت ببساطة. بعد بضع ساعات كنت جالسة إلى الطاولة الكبيرة إلى آلتي الكاتبة، كنت أطل على منظر قمة سطح مائل منخفض، ظهر طائر أزرق كبير له ريش براق لم أر مثله هنا من قبل ولم أره بعد ذلك اليوم أبداً. اقترب من نافذتي جداً، حط على الدرابزين، أمال رأسه اللامع ونظر إليّ. أدركت أنه رسول، وفهمت رسالته التي لم يكن من الممكن التعبير عنها بالكلمات.

كتبت من باب الالتزام كل ما أراد أن يخطر لي. بعد الظهر ذهبت إلى متجر وولوورث لأشتري مصباحاً لمكتبي. كنت قد حملت الصندوق الطويل تحت ذراعي ووقفت في الصف أمام الخزنة، فخاطبني شاب أسود، في منتهى الوقاحة، بدا غير مهندم، تحت طاقيته الضيقة ظهر شعر أسود قصير مشعث، له أسنان تالفة ووجه مُجدَّر. وضع علبة من الحلوى في يدي ومعها دولار، عليّ أن أدفع عنه، لأن عليه أن يذهب سريعاً. لم أكد أفهم رطانه، وقد بدا أنني أثرت استياءه بذلك. قلت إنني لست بحاجة إلى الدولار، يمكنني أن أدفعه من أموالي. كلا. لم يرد ذلك. رأيته بعد ذلك يخرج بخطى سريعة. خطر لي ربما كان عليه أن يبحث عن حمام. استغرق الأمر طويلاً حتى انتهت البائعة الوحيدة، والتي كانت غير مؤهلة مثل كل

البائعات هنا، من تحصيل الأموال من العميلات الواقفات أمامي وتغليف سلعهن. دفعت ثمن علبة الحلوى من جيبي وأخرجت الدولار من الفكة. ثم وقفت والصندوق الطويل تحت ذراعي، وفي يدي علبة الحلوى والفكة وانتظرت. لم يأت. هل كان يسخر مني؟ هل كان يريد لأي سبب الانتقام من سيدة بيضاء؟ هل كان عليّ أن أرحل ببساطة؟ ثم فجأة حين استدرت كان واقفاً خلفي. "Here you are!" (تفضل)! صحت بارتياح ومددت يدي له بالعلبة والنقود. بدا كأنه تحوّل. أخذ كليهما بابتسامة مشرقة، ضغط يدي ضغطة طويلة ودافئة، شكرني وكرر الشكر. افترقنا برضى تام. يبدو أن ذلك كان اختباراً، ويبدو أنني اجتزته.

في صندوق البريد بـ«المركز» كان هناك بالإضافة إلى العديد من قصاصات الصحف الجديدة جواب من روث. وجهت لي الدعوة لحضور مناقشة مع مجموعة يهودية كنت ألتقي بها على فترات غير منتظمة، وكان رئيسهم - إن صح تلقيبه بذلك - صديقاً لها. أما كيتشن التي كانت في الآونة الأخيرة تحرص بشكل خاص على مراقبة الوارد الصادر من بريدي فقد وضعت أمامي أوراقاً جديدة من رسائل الفاكس مقلوبة على ظهرها. قالت: "Are you okay?" (هل أنت بخير)؟ فقلت: "No" (كلا). فردت هي: "I thought so. What is the matter?" (هذا ما ظننته. ماذا جرى؟). دعوتها لتناول الغداء معي. حاولت أن أحكي لها - متخطيةً حاجز اللغة - ماذا كان يجري. حاولت أن تفهم. كانت قد قرأت الصحف الأمريكية. قالت ما كان الجميع يقوله في البداية: لكن لقد مر على ذلك زمن طويل! كانت تحبني. أرادت أن تواسيني. كنت أعرف أن مجرد كلمة الشيوعية تثير حفيظتها، مثلها في ذلك مثل جميع الأمريكيين.

فجأة شعرت بتقلصات مؤلمة في معدتي. لم يعد بإمكاني أن أبلع. اضطررت أن أترك طبق المعكرونة يبرد وأحاول أن أخفي عن كيتشن أنني لم أكمله. حتى الشرب لم أقدر عليه. بعد عشر دقائق خفَّت التقلصات، لكنها ظلت تتكرر منذ ذلك الوقت كثيراً، من دون أن أستطيع فعل شيء إزاءها.

مع حلول المساء بدأ في المركز «حفل المستقبل» الذي دُعي إليه كل العاملين، ملتزمين بالتنكر في زي إنسان المستقبل. أما أنا فقد ربطت سواراً على شكل حية فحسب ووضعت الحية الخشبية الملونة - التي كنت قد اشتريتها خلال إحدى رحلاتي إلى سان دييغو - على كتفي. فظن المشاركون في الحفل أنني أريد أن أجسد شخصية المرأة الحية، وكانت بعض النسوة يعرفن أن الحية تُمَثّل رمزاً أنثوياً قديماً. كان الجميع قد بذل جهداً كبيراً للتنكر في زي إنسان المستقبل، أطلوا في ملابس لامعة كالمعادن، وقام آخرون بلفّ أنفسهم ببعض الأجهزة الكهربائية، ووضع بعضهم الآخر أغطية رأس مثبتة عليها هوائيات، وجاء بعضهم في زي صاروخ. رقصوا على موسيقى المستقبل الإلكترونية، كما أننا أكلنا أطباقاً مثيرة وشربنا مشروبات خيالية. تميزت مجموعتنا من خلال بينتوس وريا اللامعين، زوجين فضائيين، كوكبين يلتفّان حول بعضهما.

فاجئني ظهور بيتر غوتمان في وقت متأخر، بالطبع من دون أي مسعى إلى التنكر. ولكن كيف هذا - قال - إن زيه هو الأكثر دقةً: لقد جاء في زي إنسان. إنسان من القرن العشرين. عالم من الزمن الماضي، حين كان لا يزال هناك علوم. كان يحظى بنجاح كبير.

التقينا في البار لنشرب كأساً من شراب سُمي «لونا كوكتيل» وكان لونه أصفر فاقعاً. استمع بيتر غوتمان لتفسيري لموضوع الحيّات.

حسناً - قال - إذن يا سيدتي أنتِ ترتدين إلى المجتمع الأمومي.

أيُعدّ هذا تراجعاً - قلت - هذا هو السؤال. على أي حال كان ليتعيّن عليّ في المجتمع الأمومي أن أتحمل مسؤولية القبيلة كلها. أتصور أن ذلك مجهد. لم أنظر يميناً ولا يساراً وأخذت أرتشف من الشفّاط.

فقال بيتر غوتمان: قاعدة قديمة: عندما ينسد الطريق في وجه المرء، لا بد أن يرتد إلى الوراء خطوة ويبدأ في التفاوض.

التفاوض بشأن ماذا - أردت أن أعرف - الاستثمار رأس المال؟

إنك تعطيني أكثر من حقي يا سيدتي. لا سيولة معي الآن. كما أنني أشك أنه في هذا الزمان، الذي ننتمي جميعنا هنا إليه كما هو واضح، يمكن أن تَرِدَ كلمة مثل رأس المال. فإن الدولار الأخير قد تم تمزيقه من خلال آلة الزمن.

هل أنت متأكد يا سيدي؟ كانت تلك إيميلي التي جاءت في زي الكاهنة بيثيا[1] مرتديةً عباءة خيالية وراحت توزع النبوءات في كل وجهة. بالطبع أنا "sure" (متأكد) - قال بيتر غوتمان - لأن ذلك إن لم يكن قد حدث، ولو كان الدولار ظل يفيض على العالم، لما كنا أصلاً شهدنا المستقبل الذي نجلس فيه بأريحية الآن.

حدث وكان، قلت مستنكرةً. أما لوتس، ابن مدينة هامبورغ، فارس النجوم، الذي شرح أنه يمثل المصالح العابرة للقارات، فقد

(١) بيثيا: كاهنة الإله أبولو في الأسطورة اليونانية القديمة. كانت تقوم بإبلاغ نبوءاته للبشر كاهنة في المدينة تدعى بيثيا. وتنتاب الكاهنة عند قيامها بذلك العمل غيبوبة تجعلها تهذي بكلام مبهم، نتيجة وقوعها تحت سيطرة أبولو، ومن ثم يقوم غيرها من الكهنة بتفسير تلك النبوءات للناس.

أضاف: إن معه حق. بالطبع معه حق، لكنه في نفس الوقت حالم ميئوس منه.

سأل إن كنتُ قد سمعت كلمة اليوتوبيا من قبل.

يا إلهي، هذا ما كان ينقصني. حينئذٍ جاء أيضاً فرانشيسكو في ثوب البندقية الفاخر مع قناع الشيطان - الشيطان لن يموت أبداً - حسبما زعم هو - واقترح عليهم بخفة لافتة أنه حان الوقت أن يخففوا عبء اليوتوبيا من على كتفيَّ الشرقيتين ويرفعوها على أكتافهم الغربية.

موافقة عامة. ماذا كان يعني ذلك؟ كان يعني أن يبدأوا في الهلوسة. بالطبع كنا جميعاً قد شربنا بعض الخمر، بقيت تركيبة المشروبات ذات الألوان البهيجة سراً، إلا أنها أثمرت نتائج لا يمكن التنبؤ بها، فقد بدأت مثلاً ريا في زي الكوكب البراق - بعد أن كانت مجموعتنا قد تجمعت تدريجياً عند البار - تسبح بخيالها في عالم يحصل فيه كل إنسان، لاسيما كل فتاة تبلغ الرابعة عشرة من عمرها راتباً ثابتاً، فيستطيع أن يتحرر من والديه. إن هذا سوف يساهم في تخفيض معدلات الانتحار لدى الشباب بشكل ملحوظ.

خمن الجميع ما الذي دفع ريا إلى هذه الرؤية التي بدت لنا غامضة بعض الشيء. خاصة بينتوس كان عليه أن يعارضها، وقد لاحظت أنه يعارضها كثيراً في الآونة الأخيرة. على المرء أن يكون أكثر طموحاً من ذلك. عندما كان لا يزال مع الماويين كانوا مؤمنين أنه من الممكن إجبار البشر من أجل سعادتهم. وأن سعادتهم - هكذا آمنوا - تكمن بلا شك في تكريس حياتهم كاملة متكاملة لخدمة المجتمع. ذلك الذي لا بد بالطبع من تغييره بشكل جذري، هكذا ظنوا. إن لم تكن هناك وسيلة أخرى فليكن بالعنف.

حسناً ماذا الآن؟ - أراد لوتس أن يعرف.

الآن بما أننا نتحدث بالفعل عن اليوتوبيا، فإنه يعوّل أمله على أن تتكون لدى الناس على مدى وقت طويل، طويل جداً، حاجات جديدة. ليس فقط السعي وراء المال والسلطة والاستهلاك.

لكن كيف، وبأي وسيلة؟

ليت ذلك لا يحدث من خلال الكوارث - قال لوتس. ليتنا لا ننتظر حدوث الكوارث لنصير أذكياء. على سبيل المثال ليست لدى كل واحد منا سيارة خاصة في المستقبل.

خسارة فادحة! قال فرانشيسكو.

ثم قمنا باستخراج الطاقات البديلة وأوقفنا الكارثة المناخية، قالت مايا زوجة لوتس التي ارتدت ثوباً فضفاضاً لإحدى الآلهة القديمة.

وإيناس التي لعبت بمنتهى الجرأة دور العشيقة التي سوف تظل موجودة في كل مستقبل فقد أضافت: ساعتها لن يشعر الآباء فقط بل الجميع بالمسؤولية تجاه الأطفال. - بالطبع لا! جاء الرد من فرانشيسكو، لكن إيناس أكدت له أن الناس لن يظلوا ضيقي الأفق وأنانيين، بل سيصير قلبهم كبير، وربما يصبحون أيضاً أذكى.

هل تقصدون - قال هانو، صاحبنا الفرنسي النبيل الذي جاء مرتدياً ما يشبه بدلة المناسبات الرسمية وجسَّد دور رئيس هيئات النقل الفضائي - أأنتم تقصدون: أن الإنسان سيعرف أكثر عن نفسه؟ ويريد ذلك أيضاً؟

صمت.

معرفة الذات أكثر أمر قد يدفع الإنسان كذلك للشك - قال بيتر غوتمان - أقصد إنسان اليوم.

هادم اللذات.

أنقذت إيميلي الموقف. رفعت مستوى حكمتها وتمتمت بنبوءات بيثيا، ونظرت من خلف نافذتنا في الطابق الحادي عشر إلى بعيد على البحر المتلألئ تحت ضوء القمر الخافت وأعلنت: أن البشر سوف يتعلمون أن يعرفوا كل شيء عن أنفسهم وسوف يستخدمون ذلك ليصيروا عوناً بعضهم لبعض.

يا للملل! صاحت ريا. قيل لها إن الصراعات لن تنتهي، بل إن الصراعات الحقيقية ستبدأ حينئذٍ: أي بين البشر في اختلافاتهم الفردية، ليس فقط بين الغني والفقير، والأعلى والأدنى، والمؤمن وغير المؤمن.

لكنني كنت أعرف كل هذا. فهل سيبدأ كل شيء من جديد؟

توجه فرانشيسكو بنا إلى طاولة مستديرة خاوية، بعيدة بعض الشيء، أمام الواجهة الزجاجية مباشرة. فجأة صارت ضجة الحفل خلفنا واستطعنا أن نتحدث كأننا في غرفة مغلقة.

أتذكر أنني لم أرفع عيني عن القمر الساطع بينما راح يرسم قوسه الكامل فوق البحر المتلألئ.

لأول مرة جلس معنا ستيوارت، الأسود الوحيد بين الحاصلين على منحة «المركز»، والذي جاء متأخراً عنا جميعاً وكان دائماً يعزل نفسه. أدركت فجأة أننا تعاملنا معه بذلك التحفظ نفسه الذي تعامل به الآخرون معي في الآونة الأخيرة: من باب الريبة. استطعت فجأة أن أنطق بذلك.

بدا ستيوارت متفاجئاً، غير متأذّ، كأنه مستمتع، واعترف الآخرون: إني على حق. كان ستيوارت يعمل على كتابة بحث اجتماعي حول المجتمعات السوداء في لوس أنجلوس، ولم يدع مجالاً للشك - حين قام بشرح مشروعه - في وجهة نظره الراديكالية

الرافضة للهياكل المجتمعية التي كشف عنها. كان هو الآن من كان ينتقدني من ناحية غير متوقعة تماماً: لم يكن يودّ أن يتظاهر بأنه لا يعرف شيئاً عن الموضوع. هو في النهاية أيضاً يقرأ الصحف ويلتقط بعض الأحاديث والإشاعات التي كانت تحيط بي كالقوس في «المركز». يجب أن يتوقف هذا، حسب رأيه. قبل كل شيء يجب أن تتوقف عملية تسللي هكذا.

كان التناقض عاماً، لكنه غير مقنع. تسلل؟

نعم. وكأن لدي سبباً لأن أشعر بتأنيب الضمير.

يغضبه هذا.

تأنيب ضمير؟ ليس هذا هو الموضوع. ما هو إذن؟ - حسناً، ظننت أنني كنت لأعيد النظر في الأمر. - لست ضد إعادة النظر. لكن في ماذا؟ - أريد أن أكتشف كيف كنت آنذاك. لماذا تحدثت معهم بالأساس؟ لماذا لم أطردهم فوراً. وهو ما كان فعله لاحقاً أصعب؟

حسناً. لماذا إذن؟

لأنني لم أكن بعد أراهم كـ«هؤلاء»، على ما أعتقد. هذا ما قلته أولاً. بالطبع لم أعد أعرف كل ما تطرق إليه الحديث في تلك الليلة، لكنني ما زلت أذكر أن البحر، المحيط الهادئ هناك في الخارج، والقمر بالأعلى كانا معي طوال الوقت. أدركت كم صعُب عليّ أن أدخل التعبيرات اليومية لذلك البلد الذي جئت منه ذات يوم، والذي يتم تناوله في الصحف التي يقرأها أصدقائي بشكل متزايد باعتباره إمبراطورية الشر. لم أكن أجادل كثيراً على أي حال فيما كان يُقرأ هناك، لكنني فقط كنت أعيش في بلد مختلف. كيف يمكن وصف هذا؟

إن الحقائق مصفوفة بعضها بجوار بعض لا تنتج الحقيقة. أتفهمون. للحقيقة عدّة طبقات وعدّة جوانب، وأما الحقائق العارية فهي فقط ما يطفو على السطح. إن الإجراءات الثورية يمكن أن تكون صعبة على أولئك الذين تمسهم، فاليعاقبة[1] لم يكونوا شديدي الحساسية، ولا كان البلاشفة كذلك. لم نكن نحن لننكر أننا نعيش في ديكتاتورية، ديكتاتورية البروليتاريا. فترة انتقالية، فترة حضانة للإنسان الجديد، أتفهمون؟ من *كنا نودّ أن نمهد لهم طريق الودّ*، *لم يودّوا هم أن يكونوا ودودين*. تمسكت بذلك. لقد انفجرنا من فرط اليوتوبيا، بما أننا ذكرنا هذه الكلمة. لم نحب بلادنا كما كانت وإنما كما يجب أن تكون. *إنها لن تبقى كما هي*، هذا ما كنا متأكدين منه.

حينذاك إذن - قلت - حين تحدث إليّ هذان الشابان ولم أطردهما على الفور كنت ما زلت أؤمن: ربما كان وجودهما ضرورياً. ربما نحتاج إليهما. بعد سنتين أو ثلاث فقط لم أكن لأدع «هؤلاء» يدخلون من الباب. وهذا ما نجحت في نصح آخرين به. ما الذي

---

(١) **اليعاقبة**: أعضاء أكبر جمعية سياسية ثورية حكمت أثناء الثورة الفرنسية. واستمدّت هذه الجمعية اسمها من مقرها في باريس بالقرب من كنيسة سانت جيمس الذي يعني بالفرنسية جاكوب أي (يعقوب). وكانت المنظمة الوطنية الوحيدة في البلاد التي تكونت لفترة قصيرة بعد بداية الثورة. وينحدر معظم أعضاء جمعية اليعاقبة من الطبقة الوسطى. وقد اعترضوا في بادئ الأمر على الحروب الخارجية خشية أن تؤدي إلى الدكتاتورية العسكرية. ولكنهم أيدوا الحرب عام ١٧٩٢م عندما نشبت مع بروسيا والنمسا، وذلك أملاً في الوصول إلى الحكم. جاء اليعاقبة إلى السلطة عام ١٧٩٣م، وبدأوا عهد الإرهاب؛ فحكموا على مئات الفرنسيين بالإعدام بالمقصلة. وكان روبسبيير أكثر زعماء اليعاقبة نفوذاً، ولكن أتباعه انقلبوا عليه عام ١٧٩٤م وأعدموه، وفقد اليعاقبة بعد وفاته السلطة.

حدث في تلك الفترة؟ أراد أصدقائي أن يعرفوا. رأى فرانشيسكو أن ما حدث هو ما قد يحدث لكل الأوهام: لقد انفجروا. عارضه لوتس قائلاً إن هذا كان يتجاوز الوهم. لقد كان هذا تصوّراً جديداً لشكل المجتمع، بديلاً كنا نحن - قال «نحن» - في أمس الحاجة إليه. من يمكن أن يكون قد رأى ذلك أوضح منهم، هم جيل الثمانية والستين؟ ومن يمكن أن يكون قد شهد ما هو أمرّ مما شهدوه، مثلنا «نحن» المحطمين؟ قال: بالكاد يختلف ذلك عما كان عندكم.

قلت: **الطريق الخبيث إلى المعرفة** [1]. قبله يكون الطريق الطويل للمعرفة، الطريق المؤدي إلى المعرفة. ما لم يكن بوسعنا أن نعدّه محتملاً. ما لم نرِد أن نصدقه. تبدد الأمل، انهارت اليوتوبيا، انتقلت إلى مرحلة العفن بلا رجعة. كان علينا أن نتعلم أن نعيش من دون بديل. الآن فقط أدرك أننا جلسنا وحدنا إلى الطاولة المستديرة في القاعة. كانت الموسيقى قد توقفت منذ فترة طويلة، والبار أغلق، آخر الحاضرين كانوا قد رحلوا، الأوراق الملونة، والأكواب البلاستيكية، والشفاطات تناثرت على الأرض، الزينة انسدلت متهدلة من على المصابيح المضاءة القليلة الباقية. كان الوقت بعد منتصف الليل. أسفت على أنني ظللت أتحدث كل هذه المدة، بل إنني تحدثت أصلاً. لم أستطع التخلص من الشعور بأنني قد انهلت عليهم بالأجزاء التي طفت على سطح مخزون الذاكرة لكنني لم أتمكن على الإطلاق من التوغل إلى الحقيقة الحقة.

كيف ذلك؟ سأل بيتر غوتمان الذي ذهبت معه إلى حديقة أوشن

---

(١) **الطريق الخبيث إلى المعرفة أو جويا**: رواية لليون فويشتفانغر صدرت في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٥١.

بارك حيث اتكأنا على الدرابزين نشاهد زرقة البحر الليلية، والقمر الذي كان الآن قد حاد إلى أقصى اليمين مشارفاً أعالي جبال سانتا مونيكا، ثم استكملت السير إلى فندق ميس فيكتوريا عبر الشوارع الخاوية من البشر. كيفما كان.

نعم، نعم - قلت - كان كل شيء صحيحاً. لكن الأمر لم يكن يتعلق بذلك أصلاً. فبمَ كان يمكن أن يتعلق؟ ما زال يتعلق بالسؤال كيف كان بوسعي أن أنسى. لماذا لم يطرح عليّ أحد هذا السؤال؟

قد يشغل المرء نفسه أيضاً بالأسئلة الخاطئة

قال بيتر غوتمان ويبدو أنه كان محقاً.

في اليوم التالي بدأت أكتب رداً على رسالة نبيلة من أحد أصدقائي *«لطالما كنا نعلم أن الحياة المتناقضة نفسها هي التي ستتولد عنها الحياة الأخرى»*، استغرقني ذلك أسبوعاً وعدة مسودات ورقية، وعدّة ليال بلا نوم. أوشكت على كتابة نواة لما شعرت به، ولم أستطع تسميته، حتى قمت فزِعة ذات ليلة حيث تجلت لي الجملة الأخيرة من خطبة طويلة - كان أحدهم قد ألقاها عليّ - مكتوبةً أمامي: **ذلك الغريب بداخلك**. أقنعتني على الفور، صَدَقَت. أو - خطر لي - ربما كذلك ذلك الغريب بداخلي الذي كنت أشعر به كما يشعر المرء بورمٍ أو جسم غريب داخل جسده. سوف يأخذ الطبيب عينة لكي يحدد طبيعة هذا الجسم، بينما يتعلق الأمر في الواقع بكونه: خبيثاً أم حميداً. وبالسؤال: يُستأصَل أمْ لا؟ بخطورة أن ينتشر الجسم الخبيث في الجسد الصحيح كله ويفتك به.

يحدث لي ما لا يجب أن يحدث - أقول لنفسي - ويبدو ذلك كأنه صحيح، لكنني ما زلت لا أعلم إن كان نصاً معاكساً يتحرك بداخلي في الوقت نفسه ويشكك في هذه الفرضية. ما يشبه الفضول تجاه الخطوات التالية التي سأخطوها. أو تجاه الأفكار القادمة التي سأفكر فيها. حتى كلمة اللاجدوى التي تسيطر على ليلي ونهاري فيها نوع من الرضى الذي أشعر به عادةً عندما أكون قد وجدت التوصيف المناسب لحالة ما.

راشيل - مدربة نظام فلدنكريز[١] التي صرت أذهب إلى بيتها الصغير بانتظام لأتعلم منها - كانت ضد النشاطات العنيفة تماماً. جعلتني أحس أي تأثير يمكن للتغيرات الحركية البسيطة أن تحدثه على النظام بأكمله. كيف تعيق العادات المتأصلة حرية الحركة. كيف أن فك هذا الحصار عن الجسد يفك الحصار عن العقل أيضاً لأننا لا نتكون من جسد وعقل فقط، لأن ذلك الفصل الذي أوعزت لنا به المسيحية غير صحيح ومدمر. بحيث نسينا تماماً - قالت راشيل - أن نرى أنفسنا كوحدة: أن الجسد والعقل والروح منصهرون في كل خلية فينا. أي أنكِ أنت مثلاً - قالت لي بعد الجلسة الثالثة - كنت دائماً تحاولين التحكم في كل شيء عبر رأسك. وما زلت تحاولين. لكنك بدأت تفهمين بم يتعلق الأمر. إنك لا تتعلمين فقط من خلال الرأس. إن مقاومتك تقِلّ.

(١) **نظام فلدنكريز**: نظام للتربية البدنية قام بتصميمه الطبيب الإسرائيلي الروسي موشيه فلدنكريز (١٩٠٤-١٩٨٤) يهدف إلى تقليل الألم أثناء الحركة، وتحسين الأداء البدني، بالإضافة إلى أنه روّج لأهمية الوعي لاسيما لدى الطلبة بأهمية الصحة البدنية العامة من خلال الحركة.

قلت: معطف الدكتور فرويد.

عفواً؟

المعطف، أتعرفين، الذي يدفئك، لكن أيضاً يخفيكِ، الذي يجب أن يُقلب باطنه إلى الخارج. لكي يصير باطنه مرئياً.

كما تشائين - قالت راشيل - أنا يكفيني أن تتسق حركاتي مع مشاعري كما أراد لهما الرب. بالمناسبة - أضافت وكأن عليها ألا تكتم هذا عني - إنها عادة لا تقبل غير المرضى اليهود. كان بيتر غوتمان قد أحالني عليها. لم أسأل أكثر، ولم تقل هي شيئاً أكثر. أذكر أن ذلك كان أحد أول الأيام المشمسة بعد المطر الغزير.

وقفت سيارتي الـGEO الحمراء مطيعة على ناصية الشارع أمام كوخ راشيل، لكنني لم أستطع أن أركبها لأنني تركت المفاتيح بالداخل وأغلقت الأبواب. وجدت بطاقة التأمين ولمست منهم حرصاً حقيقياً على تحمل المسؤولية إزاء سوء طالعي. بعد عشرين دقيقة جاء فني مختص لطيف، أنهى مشكلة فتح السيارة من دون كسر الباب، ولم يتبق لديه سوى ابتسامة ناعسة للرد على مزحتي بأن كل الفرص متاحة أمامه ليصير لص سيارات ناجحاً، وإجابة حاسمة بـ: "You're welcome!" (عفواً) رداً على شكري الحار "Thank you so much!" (شكراً جزيلاً). انعطفت بسيارتي المستعادة إلى شارع ويلشاير بوليفار ومضيت في مواجهة الشمس التي غطست بكامل بهائها مرة أخرى في المحيط الهادئ.

كان كل شيء كما يجب أن يكون، حيوانات الراكون الثلاثة نجت من طوفان السيول، المصباح فوق مدخل فندق ميس فيكتوريا أومض كما كان يفعل دائماً، السيد إنريكو لملم الأوراق من على مكتبه وألقى التحية منشرحاً وسعيداً مثل كل الناس بأن الشمس قد أشرقت على

كاليفورنيا من جديد. حملت حقيبة المشتريات التي قمت بشرائها في الطريق إلى شقتي، شربت كأس مارغاريتا وأكلت خبزاً وجبناً أثناء قيام طاقم شركة التأمين بإنقاذ إحدى الحضارات الغريبة، وكنت أنا ممتنة لذلك جداً.

أفكار لاإرادية دارت في رأسي، فجأة تبادرت إلى ذهني كلمة «الفزع»، ما اسمها بالإنجليزية؟ أمسكت بقاموس لانغنشايت: "schock"، أي نعم طبعاً، كانت هي هذه بالفعل مع أنها لا تتطابق تماماً مع الفزع الألماني. وقع نظري لأول مرة خلال تلك الأسابيع كلها على الغلاف الخلفي للمجلد، قرأت كلمة الغلاف: «تم تضمينه أكثر الكلمات حداثة من مجالات الحياة كافة، مثل: اللّوّاء والسوق الداخلية»[1]. فأردت أن أعرف المقابل الإنجليزي لهذه الكلمات، بحثت ووجدت: «اللّوّاء، مصطلح سياسي معاصر في الجمهورية الألمانية الديمقراطية (contemptuously = بوضاعة): "quick-change artist" (فنان سريع تبديل مواقفه)»، فاقتنعت على الفور بإمكانية ترجمة الكلمات. لأن الزميل الشاب الذي كان أول من استخدم هذه الكلمة في خريف ١٩٨٩ - وكان ذلك في كنيسة المخلص في ليشتنبرغ أثناء احتفالية الكُتّاب: **سبات المنطق مرة**

(١) اللوّاء: طائر مهاجر من فصيلة نقار الخشب له سلوك غريب من نوعه، قادر من خلاله على تحويل رأسه ١٨٠ درجة تقريباً، وذلك عند شعوره بالخطر، مشابهاً في حركته هذه حركة الثعبان. وقد شاع إطلاق هذا الاسم في ألمانيا الشرقية وقت التحول وسقوط حائط برلين (١٩٨٩) خلال الاحتجاجات الشعبية على المتحولين الذين تحولت مواقفهم على خلفية انهيار النظام لتتماشى مع موقف النظام الجديد. وقد كانت هذه التسمية تستخدم فيما سبق لوصف الانتهازيين بشكل عام.

أخرى. فعلياً لم يكن يفعل أي شيء آخر سوى قراءة توصيف هذا الطائر من كتاب بريم «عالم الحيوان»[1]، ولم يكن عليه أن يفعل أكثر من ذلك للسخرية من سلوك المفرطين في الحماس للتهيؤ للأوضاع الثورية، ولم أفعل أنا أي شيء - قلت لنفسي - سوى نقل هذا التعريف في يوم الرابع من نوفمبر الشهير إلى ميدان ألكسندر بلاتس.

تجمعتم في كنيسة المخلص في أكتوبر ١٩٨٩، لم يكن أحد بعد يعيركم اهتماماً، لكن فعالياتكم لم تعد تُمنع، وفتحت الكنائس أبوابها. «**سبات المنطق مرة أخرى**»، لم يكد أي شعار آخر ليكون أفضل، هذا ما شعر به المئات ممن تزاحموا داخل الكنيسة وظلوا حتى حلول الليل يسترقون السمع إلى عشرات المشاركات من الكتّاب والمغنين. سعادة فائضة - كان هذا هو المزاج العام السائد في تلك الليلة. كانت اللغة حرة، كأن الأمر بديهي. لا محاذير ولا اعتبارات كبلت الكلمات التي كانت على ألسنة الجميع، تجربة لم تودّوا الاستغناء عنها ثانيةً أبداً. ازدادت قناعتك في ذلك اليوم حول الضغط من أجل تشكيل لجنة تحقيقات مستقلة تكون مهمتها التقصي حول ما جرى في تلك الليالي التي احتفلت فيها الجمهورية بالذكرى الأربعين لنشوئها مع المتظاهرين السلميين، ومن الذي أعطى الأوامر باستخدام العنف ضدهم. تعافى المجتمع من المرض. بعد فترة قصيرة شكلت بالفعل مثل هذا اللجنة.

---

(١) **عالم الحيوان**: هو مرجع مهم صدر في ستينيات القرن التاسع عشر، ذاعت من خلاله شهرة عالم الحيوانات والمصوّر والكاتب المتخصص في تاريخ الطبيعة ألفريد إيدموند بريم حول العالم.

حين جاء بيتر غوتمان - من دون إبلاغ لكن كما هو متوقع بينما كان الوقت يقترب من منتصف الليل - أعطيته الخطاب الذي كتبت مسودته كرد على صديقي. «التعلم من الأخطاء هو أصعب أنواع التعلم، كم كان التعلم من الصواب ليكون أكثر سهولة، لكن هذا ما لم نمنحه لأنفسنا». التزم الصمت إزاء ذلك، تدريجياً عرفت ما يعنيه صمته، لكن ذلك لم يزعجني. قلت إنني أريد أن أعرف ما كان قد حدث لي آنذاك.

إذن أنصتي إليّ - قال بيتر غوتمان - المسألة بسيطة جداً: كنت تودّين أن تصيري محبوبة. من السلطات أيضاً. المخاوف المبكرة منذ الطفولة من الثعبان الضخم الذي كان يستلقي أمام سريرك ليلاً بحيث لم يكن بوسعك مغادرة السرير تحت أي ظرف من دون دعس هذا الثعبان المقزز وأن يعضك هو. لكن ما علاقة هذا الثعبان بمخاوفك من الكذبة أو بالاكتشاف أو بالأم التي غرست بداخلك هذا الخوف، وأن الكذب على الأم هو أسوأ الخطايا، «الرب يرى كل شيء»، وقد ربطت بنفسك قصة الرجل الذي تنبت يده خارج القبر بالكذبة الأصلية، الكذب على الأم، حينئذ زُرِع الرعب بداخلك، تأنيب الضمير والخوف من الضمير («إن أنا اقترفت اليوم ذنباً فيا رب لا تؤاخذني عليه»[1])، التشكك في النفس كمكمن لخوف جديد ومخاوف متشعبة، والميل أو الإجبار على أن يصير المرء كاملاً لا يؤاخذ أيضاً، والتماهي مع السلطات. كسب رضاها. من أجل تفادي الخوف الأكبر، الخوف من فقدان رضى الأم.

---

(١) أحد الأدعية التي كان الإنجيليون يعلمونها للأطفال. أما اليوم فلم تعد تستخدم سوى السطور الأولى من الدعاء.

والآن، سيدتي - قال - لم تكوني أنت الوحيدة. بالمناسبة أنت الآن انسحبت إلى داخل أعماق معطف الدكتور فرويد.

في إحدى الليالي التالية كانت الرحلة المثيرة إلى منزل كارل، المصور الألماني الأصل الذي كان يعيش في عش عصافير بين الهضاب، تحت كلمة **هوليوود** المكتوبة بالأحرف العملاقة أمام الصخور مباشرة، رمز المدينة الذي كان من الممكن رؤيته من نافذة كارل على مقربة مخيفة، كما تظهر من النافذة الأخرى لوس أنجلوس الهائلة الألِقة ممدّدةً في الأسفل ليلاً، مشهد يعقد اللسان. وكان كارل قد بنى بنفسه هذا البيت الصغير حول حجرة وحيدة، الحجرة الأصلية، أقام قبواً وشرفة خشبية، معجزة صغيرة. كان بوب رايس قد أحضرني إلى هنا، سوانا كان هنا أيضاً آلان، أمريكي من أصل ياباني، وصديق بوب، وزوجان يهوديان متقدمان في السن، المحامي جون وشريكة حياته، أستاذة جامعية وابنتها. شربنا شراب الـ«جين تونيك» وتكدسنا حول طاولة في إحدى الغرف الصغيرة المتداخلة والتي كانت جدرانها مغطاة بصور كارل. كان هو وآلان قد طبخا، تم التنويه باللمسات اليابانية، وقد غمرتنا ألفة كأننا نعرف بعضنا بعضاً منذ زمن طويل. لطالما كنت أتفاجأ بكم الدفء الذي يستقبلني به الناس رغم أنهم بالقطع قرأوا جميعاً المقال المنشور في «نيويورك تايمز» والذي تضمن «بروفايلاً» صحفياًعني صُدِمتُ عندما قرأته. قال لي المحامي جون بصوت خفيض إن عليّ أن أتصور ببساطة أن الأمريكان يشكلون الصورة التي يريدونها لكل بلد وكل إنسان حسب تصوراتهم، وإن الكثيرين يعتبرون ذلك «عظيماً» (great) أن تكرس الصحيفة الكبيرة كل هذه المساحة من أجلي، بغض النظر عن محتوى المقال.

طلب بوب من آلان أن يحكي لنا عن احتجاز اليابانيين القاطنين في الولايات المتحدة الأمريكية في المعتقلات بعد تفجيرات برل هاربر، فقد وقع ذلك على والديه وعليه حين كان يبلغ من العمر عاماً واحداً. لم يرد آلان أن يقول الكثير كم كان صعباً عليهم أن يجدوا لأنفسهم موطئ قدم في الحياة اليومية الأمريكية الطبيعية حين خرجوا، فقد كان عليهم مواجهة الكثير من سوء الظن. كان يعمل بالمناسبة في استوديوهات يونيفرسال ضمن العاملين في بناء الكواليس، وقال إن بإمكانه مرافقتي عبر الاستوديوهات إذا كان ذلك يثير اهتمامي.

كان جون قد قرأ الكثير عن خريف ١٩٨٩. فحوّل النقاش إلى السؤال عن الكلمة الإنجليزية الملائمة لترجمة كلمة «انتفاضة» الألمانية، وجدنا "uprising" لكنها لم تكن مطابقة تماماً، كنا بحاجة إلى الاستعانة بالقواميس.

كيف كانت تلك الأسابيع، تلك الشهور القليلة التي يصعب إيجاد اسم مناسب لها؟ تلك التي تسربت ببطء وبشكل غير لافت إلى عدة سُبُل، صبت إحداها في إحدى الحدائق الأسقفية بعد ندوة في إحدى الكنائس، تجمع بضع عشرات هناك، انخرطوا في مناقشات حادة، كان الوقت بداية الصيف، الانتخابات تم تزويرها، كان ذلك الآن موثقاً من شهود تواجدوا في مراكز الاقتراع. ما زلت أذكر أنك قلتِ: لن يجرؤوا على ذلك مرة أخرى! ارتفع مستوى الشحن العاطفي، مشاعر مختلطة، بالتأكيد، كان لديك إلى جانب الغضب والاستياء أيضاً قلق، فإلى أين ينتهي كل هذا إن كان المسؤولون لا يزالون وسوف يظلون غير قادرين على رؤية الواقع وإدراك المزاج العام في البلاد والتفاعل معه.

الحوار! كان المطلب الأول للمتظاهرين الأُوَل، إلا أن الحكّام

راحوا يتخذون إجراءً سفيهاً تلو الآخر، حتى أنهم في النهاية منعوا مجلة «شبوتنيك» التي كانت تصدر في موسكو وتنقل إليكم من اتحاد غورباتشوف السوفياتي الأفكار الجديدة التي راحت تنتشر في بلادهم بلا منازع. كنتم هناك أثناء أحد العروض المسرحية النقدية التي كانت المسارح تتخاطفها آنذاك، حين ألقى أحد الممثلين بكومة من تلك المجلة على خشبة المسرح، وشهدتم كيف هلل الجمهور وانتفض مصفقاً محيّياً إياه. كانت بيانات المجموعات المختلفة لا تزال تنتقل سراً من يد إلى يد، وكانت المناقشات الصريحة لا تزال تعقد في المنازل، لكن وتيرة الأحداث أخذت تتسارع بشكل تستحيل مقاومته.

وجدت الآن الملف المكتوب عليه ١٩٨٩/٩٠ والذي كانت النصوص التي كتبتِها في هذين الشهرين أو تلك الشهور الثلاثة مُجَمّعةً فيه. إلا أن هذا يدهشني الآن. كانت قد طُلِبت منك آنذاك. في البداية مناشدة للمسؤولين للدخول في حوار مع المنتقدين كنت قد صغتها مع بعض الزميلات ثم عرضتها في اجتماع كبير، وقد أصابتكم دهشة مربكة حيث ووجهت بسبعة أصوات معارضة مما أوضح: أن الريح قد غيرت اتجاهها. حوارات وتقارير ونداءات عبر الإذاعة والتلفزيون اللذين صارا مفتوحين لك فجأة. لاحظت أن تلك النصوص كانت مشبعة بالآمال التي كان لا بد من تسميتها بالأوهام. «من أجل وطننا» هكذا سميتم إحدى تلك المناشدات التي كانت قد عفا عليها الزمن بالفعل حين نشرت. لكنني أعلم مذّاك أن الحراك الشعبي لا يتحقق من دون هذه الأوهام.

لكن أهم ما أريد أن أتذكره ليس هو هذه النصوص، لا شيء على الإطلاق في ما كُتِب أوْ أُرسل، الأهم هو الظرف الذي تواجدتم فيه. كل هؤلاء الناس الذين تدفقوا محتشدين في الشوارع، غرباء تماماً

كانوا يتبادلون الحديث عن موضوعات كانت بالأمس فقط محظورة، ويقولون ويهتفون ويفعلون ما لم يكن ليتوقعه منهم أحد ولا حتى هم أنفسهم، بذكاء وخيال واسع وانضباط، وكانت تلك بلا شك نشوة السعادة التي كنتم فيها. كانت غالباً ما تكون تجربة مؤلمة جداً حين انعقدت بالفعل لجنة تقصي الحقائق التي تم الإلحاح في المطالبة بها وقتاً طويلاً وذلك في مبنى البلدية الأحمر، ولاحقاً في إحدى الكنائس، وحين ظهرت السلطة ممثلة في كبار بل أكبر مسؤوليها في أكثر أشكالها وضاعة حين اضطرت لتبرير استغلال نفوذها. كنت أعرف - قلت لبيتر غوتمان - أنني لا أريد أن أشهد مثل هذا مرة أخرى. كنا جميعاً في حالة روحانية استثنائية.

في التلفزيون فيلم عن شارلي شابلين، بتفاصيل قوية عن قيام هوفر رئيس مكتب التحقيقات الفيدرالي بتتبعه. في النهاية شريط بعدد الكيلومترات من الملفات الذي تركها هوفر هذا وراءه. في تلك الأثناء كان الجميع يعلم أو يستطيع أن يعلم أن الرئيس اللاحق للولايات المتحدة رونالد ريغان حين كان ممثلاً ورئيساً لنقابة السينمائيين - حيث كان يعمل مخبراً سرياً T-10 لدى مكتب التحقيقات الفيدرالية - كان يتجسس على زملائه ويشي بهم لمصلحة إحدى شبكات المصالح الكبرى. "So what? Never mind" (وماذا في هذا؟ لا عليكم). كيف قالها السيد هوفر أمام لجنة التحريات عن المشاركة في نشاطات معادية للقيم الأمريكية: «الشيوعية أسلوب حياة خبيث، إنها تنتشر كالوباء. وإن حظرها سيصير حتمياً». أساليب الحياة الخبيثة التي لم تتجاوز حتى عتبة مفهوم الأونترمينش(١) يجب استئصالها من دون أدنى

---

(١) **أونترمينش**: كلمة ألمانية وتعني «الإنسان الأدنى» أو «الأجناس الدنيا»

شعور بتأنيب الضمير.

خرجت إلى شارع سكوند ستريت لألهي نفسي، قابلت عند المطعم الذي يفترض أنه يصنع أفضل هامبرغر الصديق الذي جاء رغم خوفه من الطيران من أوروبا ليحاورني. كان مقرراً أن يقضي يومه الأول في التحضيرات من دون إزعاج، إلا أنه دعاني الآن لأجلس معه، كان هذا طبق الهامبرغر الوحيد الذي كنت آكله في أمريكا، كان يقدم في سلة من الخوص وكان شهياً فعلاً. تحدثنا عن رحلة الطيران وعن النبيذ في درجة رجال الأعمال لدى شركة لوفتهانزا، وعن تأثير الاضطرابات التي يحدثها اختلاف التوقيت، عن المناخ الطبيعي والسياسي في ألمانيا، ثم سألني في النهاية: لماذا بقيتِ على العهد؟ كلا: لا تقولي شيئاً الآن.

ودعنا بعضنا بعضاً ومررت أنا على المتجر الهندي لأشتري لنفسي لعبة قراءة الطالع، ومعها تعليمات مفصلة لكيفية استخدامها. في الحديقة الأمامية لفندق ميس فيكتوريا رأيت مشهداً لا يصدق: السيدة أسكوت، المديرة، التي لم تتصدَّ لشيء بحزم أكثر من منع اصطحاب الحيوانات جالسة إلى طاولة صغيرة بيضاء مرتبة ويدها اليمنى تحت نبات غريب ذي أوراق كبيرة، ملفوفة في أحد أرديتها الفضفاضة ذات الألوان الهادئة وعلى حِجْرها قطة تداعبها بحنان. كانت تلك القطة التي تبناها الرجل الضخم ذو الملامح الهندية الذي كان في تلك الأثناء قد سافر. "Isn't it sweet, isn't it lovely?" (أليست لطيفة، أليست

= وجمعها أونترمينشن، وهو مصطلح شهير في الأيديولوجية النازية العنصرية استُخدم لوصف «الشعوب الدنيا» وخاصة «الجموع في الشرق» ويُقصد بها الشعوب الواقعة في الشرق الجغرافي لألمانيا النازية، وخاصة اليهود والغجر والشعوب السلافية كالبولنديين والروس والبيلاروس والأوكرانيين.

جميلة)؟ سألتني بينما أذهلني أيضاً أنها استطاعت أن تخاطبني باسمي الأول. "Yes, Mrs. Ascott, it is" (نعم يا سيدة أسكوت، إنها كذلك). علامات ومعجزات.

على طاولتي كانت الوثيقة الآثمة، جسم الجريمة الذي كان الصديق الآتي من ألمانيا قد أحضره معه لي، مربوطاً بإحكام، **سري!** كان عشرات الصحفيين قد رأوا قبلي وأغفلوا كيف يسمح القانون بذلك. لم أكن أستطيع أن أفتحها بعد. كنت مرهقة. استلقيت على السرير الواسع وقرأت في مذكرات توماس مان.

في ٢٢ نوفمبر ١٩٤٩ كتب: *المستشار أديناور*[١] *يشرح لفرنسي أن ألمانيا لم تكن تريد جيشاً. يجب ألا توقَظ الذكريات العسكرية. حينئذٍ كانت صحافة ألمانيا الغربية كلها - بينما لم تكد مسألة نزع السلاح من أجل مصلحة ألمانيا قد انتهت - قد انتقلت للدعوة لإعادة التسلُّح ضد روسيا. لترد الأخيرة بفرض التجنيد الإجباري في شرق ألمانيا. - وألّف بيشر*[٢] *وإيسلر سلاماً وطنياً جديداً يتفق والوحدة والحرية اللتين لا يسع أعداء الشعب تعكير صفوهما. - شعور بالفناء والتقادم والسخف. عسكرة السلام. لكن ما هو الصواب، وما هو المستقبل؟*

سؤال جيد - خطر لي - لماذا بقيت على العهد؟

أذكر أن أحداً كان قد حثك ذات مرة بوضوح على «البقاء على

---

(١) **كونراد أديناور** (١٨٧٦-١٩٦٧): كان أول مستشار لجمهورية ألمانيا الاتحادية من عام ١٩٤٩ إلى عام ١٩٦٣.

(٢) **يوهانيس روبرت بيشر** (١٨٩١-١٩٥٨): شاعر تعبيري وسياسي، تقلد منصب وزير الثقافة وكان أول رئيس لاتحاد المثقفين في الجمهورية الألمانية الديمقراطية، وهو مؤلف كلمات السلام الوطني لها.

العهد». لابد أن ذلك كان في السبعينيات. في لايبزيغ. كنتم جالسين - مجموعة من الكتاب - لتناول الإفطار في أحد الفنادق حيث كنتم قد قضيتم الليلة بعد انتهاء إحدى الفعاليات في اليوم السابق. فتوجه إليك رجل مسن فجأة، نائب عام سابق، كان قد تم إعفاؤه من مهامه لأنه رفض رفع دعوى ضد فالتر يانكا[1] وفولفغانغ هاريش[2] «أي لأنه أهمل في واجبه إزاء المعركة الضرورية لمواجهة أعداء الجمهورية الألمانية الديمقراطية»، وهو الآن رئيس هيئة الكِتَاب والنشر، أي الرقيب الأعلى. وضع يده على كتفكِ وقال: فلتبقَي أنت على العهد فحسب! - أي عهد؟ - سألته متحيرةً. فقال: عهد الإنسانية.

غفوت. رأيت حلماً تسلل مخترقاً حاجز المنطقة المحظورة للحبوب المنومة، وأنا أعرفه بدقة، لأنني نقلته على الورق، وكنت لأتوخى الحذر قبل أن أبتدع مثل هذا الحلم المتطفل الذي يمكن كشفه بسهولة. حلمت إذن أنني استلقيت على ما يشبه اللوح، ويتم تقطيع أطرافي إلى شرائح بمنشار، يتم فصلها، الساقين أولاً، ثم الذراعين، وفي النهاية الرأس حتى انكشف المخ ثم تم تقطيعه هو أيضاً، وقد صاح رجل معلقاً: هذا ما يجب أن يكون. ثم كان اسمي أيضاً مكتوباً هناك بحروف من نور، فانطفأ هو الآخر في النهاية.

عند الصحو جاء هذا الشعور الثقيل: إن خطراً يهددني من داخل نفسي.

---

(١) **فالتر يانكا** (١٩١٤-١٩٩٤): كاتب مسرحي وناشر ألماني.

(٢) **فولفغانغ هاريش** (١٩٢٣-١٩٩٥): صحفي وفيلسوف عاش في ألمانيا الشرقية. اعتُقل عام ١٩٥٦ وحُكم عليه بالسجن لمدة ثمانية أعوام بتهمة «تأسيس جماعة متآمرة لمصلحة الثورة المضادة»، وخرج من السجن عام ١٩٦٤.

في الصباح الباكر جريت إلى الهاتف ونقلت إلى برلين: إن جسدي ينفصل عني. بالطريقة نفسها ولكن ليس بالسرعة نفسها التي ينفصل بها الوقت عني. ربما صحّ ما طرحه يوري تريفونوف[1] من أن شهوة االكتابة تتراجع مع السن، قلت ذلك لكنني لم أُواجَه سوى بالرد الخشن بأن تلك مجرد أعذار، وأنني على ما يبدو ما زلت أفكر في الجمهور بدلاً من أن أبلغ الصفاء الداخلي - وهو الشيء الضروري - وأن أكتب لنفسي. وقد أردت من ناحيتي كما هو معتاد في هذه المواقف أن أعارض في البداية، إلا أن المدهش لي هو أنني قلت نعم وتلذذت بالاستسلام. قلت: معطف الدكتور فرويد. - ماذا؟ - لا شيء. - أتفكرين في ذلك بسبب مسألة الشهوة؟ - كلا، ولكن أيكون ذلك عنواناً جيداً؟ - على حسب.

على حسب ماذا؟ - على حسب إن كان الطريق يؤدي إلى العالم الداخلي: إن المدخل إلى العالم الداخلي هو الجرح، هكذا خبرت. نوع الحركة: تحسس الماضي ببطء في الظلام. شعور كأنك في نفق. عليّ أن أسبر أغوار هذه البئر. لكن أكان عليّ ذلك حقاً؟ أم أن ذلك كان فقط تدريباً إجبارياً مرة أخرى؟ **شخص غريب يوجه نظره صوبي**. ولكن هل صح ذلك أصلاً؟

لماذا بقيتِ على العهد؟ الفندق. الحوار حول الشخص، التوتر، المصابيح. لم تكن الإجابة قد انتهت بعد، كان بوسعي أن أُعطِيَ إجابة جزئيةً: كان هذا هو الأمل في أن أولئك، الكثيرين، الذين -

---

(١) **يوري فالنتينوفيتش تريفونوف** (١٩٢٥-١٩٨١): كاتب روسي من روّاد ما يسمى «النثر الحضري» في الأدب الروسي. وكان من المرشحين الأقرب للفوز بجائزة نوبل عام ١٩٨١.

كما كنت أعتقد - كانوا يفكرون مثلي، سيفرضون إرادتهم. لأنه لم يكن ليتسنّى غير ذلك. لأنه بغير ذلك كان هذا البلد وكل ما جسده بالنسبة إلينا لينهار. لأنه لم يكن لدينا بديل. - كنت أعرف: إن هذا السؤال سيظل يصاحبني عبر السنوات.

في المساء تناولنا مأكولات مكسيكية، كان التشويق قد استُنفد بسبب الإرهاق، لم أستطع أن أصون لساني، اتهمت الصديق الذي استجوبني - كما أعلن «من دون اعتبارات» -بالغطرسة، فقال: أما الآن فقد أهنتِني، فأجهشت حينئذٍ بالبكاء.

في اليوم التالي ذهبنا خلال المطر الغزير في البداية إلى طريق صن ست بوليفار، انعطفنا عند باسيو ميرامار، صعوداً إلى فيلا أورورا حيث مسكن فويشتفانغر الذي تم البناء حوله بعد وفاة مارتا فويشتفانغر. كان بوسعنا أن نقف في الشرفة وننظر مشدوهَين إلى البحر. كان بوسعي أن أحكي لذلك الصديق كيف كان البيت من الداخل ممتلئاً بتلك الكتب القيّمة كلّها. جلسنا بعدها قليلاًعلى دِكّة على شاطئ ماليبو في الشمس التي كانت قرب الظهيرة قد ارتفعت وشعرنا بالراحة. قال الصديق: إنني أُعتبَر الآن عندنا من اليساريين الأكثر تطرفاً، بينما لم أتغير أبداً إلا أن بلادي قد تم سحبها نصب عيني إلى أقصى اليمين بسرعة لا تصَدّق. ثم خطر لي: لماذا عليهم دائماً أن يشغلوا أنفسهم بمشكلاتنا، لِمَ لا نهتم ولو مرة نحن أيضاً بالصعوبات التي تواجههم؟

مررنا مرة أخرى صعوداً عبر طريق صن ست بوليفار كله وبدأنا في الغناء. غنينا: «أفيقوا، أيها الأغبياء على هذه الأرض»، و«عندما نخطو جنباً إلى جنب»، و«سماء إسبانيا فرشت نجومها»، و«لأن الإنسان إنسان» و«مادزيد، أيتها الرائعة»، و«عبر الجبال مرت فرقتنا الباسلة» و«أينما تصوّب العين نظرها ترى المستنقعات والقفار في كل

مكان». كان الصديق يعرف الأغاني كلها، أردت أن أعرف من أين. ماذا تعتقدين - قال - حين كنت في سنة ١٩٦١ قبل بناء الحائط في برلين كنت دائماً أعبر إلى جهتكم وأشتري أسطوانات إيرنست - بوش.

في المساء جلست وحدي في شقتي وشربت نبيذ لوفتهانزا الذي تركه لي الصديق، وقرأت في مذكرات توماس مان: باسيفيك باليساديس - على بُعد بضعة كيلومترات مني - الأحد الموافق ٤ ديسمبر ١٩٤٩. *في تلك الأيام ولع كثير معذِّب وتفكّر في كيانك وأهدافك، في أهوائك الإيروتيكية في الصراع مع التبصُّر في أوهامك. الأجمل على الإطلاق يُدّعى أنه ضد عالم بأكمله، لم أكن لأودّ أن أمسّه... الكتابة عن هذا كله صراحة قد تدمرني.*

جلست إلى آلتي الكاتبة وكتبت:

الآن صارت الكتابة بمثابة اشتغال على الذات عند ذلك الشريط الحدودي الذي يلفّ به سرك المكنون نفسه، والذي يمكن أن يعني جرح الذات أو تدميرها، لكنها أيضاً المحاولة لاحترام ذلك الشريط الحدودي للسر المكنون الفعلي فقط، والذي يحيط بتلك النواة، والقيام رويداً رويداً بتحرير المحظورات التي يصعب الاعتراف بها من حُكم المسكوت عنه. ليس تدميراً للذات وإنما تحريراً للذات. عدم الرهبة من الألم المحتّم. أو التغلب عليه.

أو تخطي الرهبة. لو كان توماس مان شاباً اليوم - خطر لي - لما كان عليه أن يفزع من الإفصاح عن ميوله الإيروتيكية، إلا أنها على ما يبدو لم تكن تُمَثّل «سره المكنون». عدم القدرة على الحب، ألا

يُسمح له بالحب، تلك هي اللعنة التي حلت على حياة المؤلف الموسيقي الألماني أدريان ليفركون[1] الذي لم ينكر توماس مان قربه من شخصيته هو نفسه. وهو يمس بها - كما أظن - معاناة الرجال غير القادرين على الحب، والذين قد يرتكبون الجرائم لملء الفراغ بداخلهم.

أكانت تلك علامة جيدة أن الكتابة قد استحالت عليّ؟ علامة على سلامة النية؟

أشعر أنني مثل الفارس[2] الذي عبر بحيرة الأرض - قلت لصديقي في زيوريخ عبر الهاتف.

قال: لقد جاء رد فعلك مبالغاً فيه.

كم كنت غبية آنذاك.

حسناً. كان من الممكن أن يكون هذا كل ما بوسعك قوله بشأن ذلك اليوم؟

وكيف تشرح لي أنني استطعت أن أنسى ذلك؟

بكل بساطة: يبدو أن الأمر لم يكن بكل هذه الأهمية بالنسبة إليك.

---

(١) **أدريان ليفركون**: الشخصية الرئيسية في رواية «الدكتور فاوستوس» لتوماس مان. في الرواية يحكي زيرينوس تسايتبلوم قصة صديقه الموسيقار ليفركون الذي يعقد اتفاقاً مع الشيطان بأن يمده بأربعة وعشرين عاماً من العبقرية الموسيقية مقابل أن يمتلك الشيطان روحه.

(٢) عبارة مأخوذة عن قصيدة درامية شعبية عن الفارس الذي يقصد بحيرة كونستانس أو بحيرة الأرض الألمانية، إلا أن الوقت شتاء وهو يفوّت الشاطئ ويعبر البحيرة المتجمدة كلها دون أن ينتبه اعتقاداً منه أنها مجرد أرض خاوية. على الضفة الأخرى يهنئه الناس بوصوله بينما يستحوذ عليه الخطر المخيم فيفقد عقله ويموت على حصانه من شدة الرعب.

ربما كان ذلك صحيحاً. لكنني لا أستطيع قول هذا الآن.
تستطيعين أن تقولي كل شيء الآن؟
تعني أن أحداً لا يصدقني على كل حال؟ بالمناسبة:

لم أكن أكتب بعدُ آنذاك

كانت الجملة نافذة المفعول، كنت أعلم هذا. أردت أن أسجّل لنفسي أن اتصالات من هذا النوع الخاطئ لم تكن متاحة بعد ذلك. ساعتها جاء ما يشبه الطمأنينة، ساعتها فُتِحت الأقواس ولو لملليمترات.

أذكر كيف سمحت لنفسي بالاستيقاظ في وقت متأخر، وبالقراءة في السرير مبكراً، فسوف يعود المفصل لقصوره مرة أخرى، لن يستطيع أي علاج أن يعيد بناء مفصل مُدمّر، أفلم يكن ذلك سبباً وجيهاً للتلكؤ بقبضات يد غير ضرورية، وتوبيخ الآلة على الجهة الضيقة من الطاولة باعتبارها نذير شؤم؟ أذكر كيف ضبطت نفسي متلبسةً أتحدث إلى نفسي بفظاظة. كيف صرخت في الدرج العالق: «هيا افتح أيها الوغد». كيف وقفت في وسط المطبخ، والشرشف في يدي، وقلت بصوت عالٍ: إن هذا ليس ضرورياً على الإطلاق. حسناً، ماذا تحديداً؟! لكنني كنت أعرف بمنتهى الدقة. لم يكن هناك بدّ من إنكار أن هذه النصوص تزايدت أبطأ بكثير مما كان الوقت يمضي، فقد كان متعجلاً، كان موجوداً دائماً، كان يتمدد، ربما كان بوسعي استخدامه لأنفض عن نفسي ذلك الشعور بعدم الجدوى الذي تشبث بي.

لم أتحمل الوحدة، كان عليّ أن أكون وسط البشر، ذهبت إلى منتزه ثيرد ستريت، قابلت شاحنة قمامة ضخمة، كان مكتوباً على جانبها: "If you don't start recycling your litter Santa Monica will look like the inside of this car" (إن لم تبدأ في إعادة تدوير نفاياتك، فسوف تصير سانتا مونيكا مثل داخل هذه العربة). كان لا بد أن أفكر في الكميات الهائلة من الأكياس البلاستيكية التي يتم وضع أصغر المشتريات فيها، وفي أن مساهمتي الوحيدة لتفادي تضخم النفايات كانت جملتي الشهيرة: "No bag, please!" (بلا حقيبة من فضلك)! والاعتياد على أن أجعلهم يكدسون مشرياتي في حقيبة قطنية أكون قد أحضرتها معي. أودّ اليوم أن أتناول مرة أخرى شطيرة من متجر المأكولات الطبيعية، حيث يضع كلّ شخص علامة على المحتويات التي يفضلها في الحشو، ثم حين يتم الانتهاء من تحضير الشطيرة يناديه النُّدُل باسمه الأول، وحيث توجد لافتة بالخارج على الحائط: "In loving memory to Tony" (تخليداً لذكرى توني العطرة). بدأت أقرأ في الجريدة التي كانت على الطاولة المجاورة، صحيفة «دايلي بريز» التي لم تكن قد صادفتني من قبل. قرأت العنوان الرئيسي: **جائزة أوسكر لترومبو تعوضه أعواماً من الألم**. وكانت هناك صورة كبيرة ملونة، سيدة في السبعينيات من عمرها جلست مرتدية قميصاً أحمر وبنطالاً أنيقاً «كاروهات» على أريكة رمادية على الطراز الأمريكي، ووراءها ذلك المصباح العمودي الذي لا مفر منه، متكئة على ركبتها، ممسكة بتمثال ذهبي في يمينها، تمثال الأوسكار بالطبع، وكانت قد أغمضت عينيها من وراء النظارة ومطت شفتيها بتوجس. لم تكن امرأة مشرقة بالسعادة تنظر إلى الكاميرا، لأن جائزة الأوسكار هذه كانت أصلاً لزوجها السيناريست

المعروف دالتون ترومبو[1] أحد «مشاهير هوليوود العشرة» الذين رفضوا الوشاية بزملائهم الشيوعيين أثناء عصر مكارثي، هكذا انتهت به الحال هو ومجموعة أخرى من الكتاب والمخرجين والممثلين على القائمة السوداء، وهو ما كان يعني منعهم من العمل، فكان يتكسب من السوق السوداء الخاصة بالكتاب الممنوعين، والتي عرض من خلالها أعماله سراً. أموال قليلة - قالت أرملته - لكنه كتب وكتب وكتب، وكان عليها تحمّل عبء تدبير الأعمال المنزلية وتربية الأبناء، حيث إنها لم تكن لتحصل على وظيفة طالما لم تكن على استعداد للانفصال عن زوجها والتخلي عن اسمه. كان عليها الاعتياد على أن يهبَّ شخص واقفاً ويرحل حين تجلس بجانبه، وعلى ألا يدع الجيران أبناءهم يلعبون مع أبناء آل ترومبو. عشرة أشهر قضاها زوجها في السجن بتهمة إهانة لجنة التحقيق في الأنشطة التآمرية ضد أمريكا. كانت هي غاضبة وممتلئة بالخوف على مستقبل أسرتها في الوقت نفسه، فقامت بكتابة الصياغة النهائية لمخطوطات زوجها على الآلة الكاتبة، وقام هو بتسريبها تحت اسم مستعار عبر شبكات علاقاته في هوليوود، وقد كان أحد الأصدقاء مستعداً لانتحال صفة كاتب لأحد الأفلام، وهو الذي كان ترومبو قد كتبه في الحقيقة وقد فاز بجائزة الأوسكار.

---

(١) **جيمس دالتون ترومبو** (١٩٠٥-١٩٧٦): روائي وكاتب سيناريو أمريكي رفض المثول أمام لجنة التحقيق في الأنشطة المعادية لأمريكا في ١٩٤٧ أثناء تحري اللجنة عن تأثير الشيوعية في صناعة الأفلام. ظل اسمه موضوعاً على القوائم السوداء إلا أنه في تلك الأثناء فاز بالفعل بجائزتين واحدة منهم منحت باسم روبرت ريتش وهو اسم مستعار كان يستخدمه ترومبو للتحايل على منعه من الكتابة أو اضطهاده.

بالضبط كما حدث في تشيكوسلوفاكيا - خطر لي - بعد دخول قوات حلف وارسو: كان المترجمون الممنوعون من النشر يجدون زملاء على استعداد لكتابة أسمائهم على نصوص الآخرين. يبدو أنه تحت الضغوطات المشابهة تتولّد أشكال مشابهة للتضامن. غرقت في الذكريات. بالطبع لم يكن أصدقاؤك المترجمون التشيكيون ليستطيعوا ترجمة كتبك ووضع أسمائهم عليها، فقد كانوا ضمن الدائرة الأضيق للمعارضين. كان هناك أستاذ سلوفاكي متخصص في الأدب الألماني أعطاهم اسمه من دون أي مقابل، بالطبع كان محرر دار النشر يعلم ذلك تمام العلم، ولكن غير ذلك - خطر لك - ما كان يجب أن يعرف أحد، هذا ما قلته حين سُمِح لي لأول مرة بعد «التحول» بإقامة قراءة في براغ، وقتها جاء العديد من المستمعين إليّ بعد القراءة وقالوا ضاحكين: لكننا جميعاً كنا نعرف ذلك!

لم تكن هناك أية مواساة لي الآن كون كل الأصوات المعارضة يتم قمعها هنا مثل هناك. إن العالم الذي يبدو منقسماً بشدة يتغذى في أعماق أعماقه على الجذر نفسه، أي أنه أكثر خداعاً مما يمكن لمعظمنا أن يتصور.

جلجل اسمي، فأحضرت شطيرة سلاطة الدجاج وعصير التفاح الغازي، وضعت الجريدة جانباً وأردت أن أبدأ في الأكل، حينئذٍ شعرت بنظرة ترمقني. على بعد ثلاثة أمتار مني على الناحية الآخرى من الرصيف، سيدة شابة سوداء جلست على حوض زهور حجري كبير ورمقتني بنظرة غير مريحة. من شكل ملابسها يمكن أن تنتمي إلى فئة المشردين. لم أكن متأكدة لأنه على بعد خطوات منها كانت هناك عربة صغيرة كالتي تُستخدم أثناء التسوّق، ارتصت فيها بنظام بضع علب. «إنها جائعة»، خطر لي وكان أول تصرف صدر عني أن

عرضت عليها شطيرتي التي كنت قد قضمتها بالفعل في تلك الأثناء. كيف استطعت أن آكل في ظل هذه النظرة، التي كانت بالمناسبة تنقلب إلى أعلى في بعض الأحيان، بحيث لا أستطيع أن أرى سوى البياض في عينيها. كان شعرها مجدولاً في ضفائر دقيقة كثيرة ومشدوداً إلى الخلف لينتهي في ربطة مشعثة، بعض الخصلات كانت مصبوغة بلون أفتح قليلاً من بقية شعرها الذي كان بالمناسبة أسود. كانت ترتدي سترة حمراء في هذا الجو الحار، وانشغلت في سوار اللؤلؤ الذي يطوّق معصمها الأيسر، من وقت لآخر كانت تطلق ضحكات متهكمة أو تصاب بنوبة من الضحك المتهكم. أكلت إذن ونويت أن أعطيها نقوداً، لكن من أين كان لي أن أعرف إذا كانت تريد نقوداً، من أين كان لي أن أعرف أنها لن ترفضها، بالضحكة المتهكمة نفسها؟ من أين كان لي أن أعرف أساساً أن نظرتها كانت موجهة إليّ أصلاً، بما أنها كما هو واضح مختلة عقلياً؟ لم أعطها شيئاً حين مررت بجوارها، انكمشت في نفسي وأعطيت النقود لرجلين جلسا على دكتين مختلفتين وأمسك كلٌّ منهما بلافتة: **مشرد وجوعان**، ووضع كلٌّ كوباً من الورق المقوى أمامه من أجل النقود المعدنية. في طريق العودة تجنبت المكان حيث يحتمل أن تكون تلك السيدة لا تزال جالسة تضحك ضحكتها الرنانة على طرف حوض الزهور، كنت أعلم أنني لن أنساها، ولكن ماذا ينفعها ذلك؟

في مكتبة ميدنايت - سبيشيال بحثت عن كتب أرت شبيغلمان ووجدتها، تلك التي نصحوني بها بشدة: ماوس Maus (الفأر). مصير أحد أفراد عائلة الكاتب اليهودية مصوّرة بالرسوم: اليهود على شكل فئران والألمان على شكل قطط، مجازفة محفوفة بالمخاطر. قد تكون تلك أكثر الفئران المرسومة حزناً على الإطلاق، حسبما قالت

السيدة التي نصحتني بالكتب والتي كانت هي نفسها تنتمي إلى أولئك الذين تدور الأحداث حولهم: "A SURVIVORS TALE" (قصة أحد الناجين) كان العنوان الفرعي. قابلت هنا أناساً كانوا يعرفون أنفسهم كـ"survivors"، ناجين من الهولوكوست مثل تلك السيدة أيضاً، أجنيس التي كان من المفترض أن تصحبني بعد بضعة أيام مرة أخرى إلى أحد تلك اللقاءات مع المنتمين لـ«الجيل الثاني». الباقين على قيد الحياة - قالت - ليس الأحياء. هكذا ما زال بعضنا يرى نفسه حتى الآن، مثل آبائنا.

على صورة غلاف المجلد الأول من "MAUS" (**الفأر**) رُسِم صليب معقوف[١] أسود عدواني في قلبه رأس قطة ملامحها مصممة لتشبه تكشيرة هتلر، تحتها في ظل الصليب المعقوف تمدد زوج من الفئران يتضح بوضوح أنهما لاجئان. قرأت ليلاً في هذا الكتاب مستمرة في البكاء.

عبرت شارع ويلشاير بوليفار، على اليمين في شارع ثيرد ستريت كانت المغسلة الصغيرة التي تركت بها قميصي الحريري الذي كنت قد اشتريته بسعر رخيص. كانت الكورية اللطيفة قد عرفتني في تلك الأثناء، كانت تناديني باسمي الأول، لم يعد عليّ أن أُملي عليها عنواني، زعمت أن دموعها ستنهمر حين أقرر الرحيل. كانت تعمل يوماً بعد يوم لمدة اثنتي عشرة ساعة في تلك الغرفة المعتمة الخانقة وسط تلك الملابس المغسولة المعلقة من السقف إلى الأسفل. بعد كاليفورنيا أفينيو جاء مجمع البنايات الذي كان في نهايته فندق ميس فيكتويا، كان الشارع محفوفاً بأنواع غريبة من الأشجار التي نمت عليها

(١) **الصليب المعقوف**: رمز النازية.

يوماً ما زهور فاقعة الحمرة تشبه في شكلها فرشاة تنظيف الزجاجات، وقد أسعدني أن عرفت أن تلك الأشجار تسمّى بالفعل "bottle brush trees" (أشجار فرشاة تنظيف الزجاجات).

ماذا بعد؟ إنني ملتزمة. أخوض معركة مع الأوقات. في كومات الأوراق التي كنت قد أحضرتها معي إلى أوروبا عبر المحيط يسود طبعاً زمن المضارع. إنني أنسى باستمرار مجدداً أن أحوّل ما أستخرجه من النصوص المختلفة إلى زمن الماضي. كل هذا الذي أصفه الآن هو في الماضي: ذلك اليوم الذي قمنا فيه أخيراً ببلوغ مقصدنا بالسفر إلى الجنوب، ارتحلنا إلى سان دييغو حيث اشتريت الحيّة الخشبية التي كان ينقصها بعض الأجزاء من كشك للفن المكسيكي، وهي الآن موجودة فوق خزانتي الصغيرة مع تذكارات أخرى، وتذكرني بحواري مع البائعة. لم تكن تريد أن تبيعني الحيّة، قالت: "It is broken!" (إنها مكسورة). وأنا: "Doesn't matter, I am broken, too" (لا يهم، أنا مكسورة أيضاً). أعطتني الحيّة بسعر مخَفّض. "Broken" (مكسورة). تعبير موَفّق. لاحظ زملائي الذين كانوا قد جاءوا معي إلى جنوب كاليفورنيا أن مزاجي كان قد أشرق حين جلسنا لاحقاً إلى منضدة طويلة عند «ألفونسو» واستمتعنا بمأكولاته المكسيكية، شواء الروبيان واللحم أو خبز التورتيلا مع الفاصوليا الحمراء.

بعدها وقفت طويلاً أمام ثوب ميديا(١) ليانا ستيرباك(٢): جسد

---

(١) ميديا في الأساطير الإغريقية هي ساحرة شهيرة وكانت ابنة أيتس ملك كولخيس، وكان أبوها قد رماها في السجن بعد أن خاف من سحرها الذي استخدمته في الهرب وهربت إلى معبد هيليوس إله الشمس وهو جدها كما يزعم. ووقعت في حب جاسون زعيم الأرغونوت الذي وصل إلى كولخيس في ذلك الوقت، وقعت في حبه وساعدته على الهرب، وعندما عاد إلى

امرأة مصنوع من الأسلاك المضفرة، محاط بتجهيز في الفراغ من الأسلاك الكهربائية موصولة بمقبس أخذت تضيء ثم تنطفئ برهة ثم تعود تضيء. كل شيء يشتعل على بشرة هذه المرأة، الحياة تشتعل على بشرة هذه المرأة، فقد كان هذا هو الثوب الذي يُفترض أن ميديا قد أعطته لغلاوكي[1]، غريمتها، تلك التي احترق جلدها. على مساحة عرض ضوئي ظهر نصٌّ قمت بنقله:

أريد أن أحس بمشاعري كما أحس أنا بها. هناك سلك شائك
ملفوف حول كل جسدي ورأسي
وبشرتي تتشابك مع لحمي من الداخل. كيف يمكن أن تشعري

= ثيساليا خدعت عم جاسون المدعو بيلياس وقتلته بعد أن وعدته برد شبابه. انزعج جاسون من زوجته الهمجية فتزوج عليها لكنها قتلت زوجته الثانية وأولادها في نوبة غضب، فهربت من كورنث، في عربتها التي تقودها التنانين التي كانت هدية هيليوس، ووصلت إلى أثينا حيث تزوجت الملك أوغيوس وأنجبت منه ابناً سمي ميدوس ولكن عندما اكتشف أنها تخطط لقتل ابن الملك الآخر ثيسيوس اضطرت لترك أثينا والهرب. في رحلة هروبها رافقها ابنها وعادت إلى كولخيس وأعادت أباها للعرش والذي أخذه منه أخوه بيرسس.

(٢) **يانا ستيرباك**: فنانة كندية تشيكية المولد، من مواليد عام ١٩٥٥ كانت قد هاجرت مع والديها في عام ١٩٧٠ بعد ربيع براغ إلى إيدمونتون ثم فانكوفر في كندا، وتقضي حالياً وقتها بين مونتريال وبرشلونة، وهي تتمتع بسمعة عالمية مثيرة للجدل. فقد اشتهرت بتماثيلها التي تنتمي للفن المفاهيمي والتي ترتبط دائماً بعلاقة مع الجسد، وهي معروفة بأعمالها التي تتسم بالنسوية التي تغلفها السخرية السوداء.

(١) **غلاوكي**: في الميثولوجيا الإغريقية هي ابنة كريون التي تزوجها جاسون. وقد قتلتها ميديا، جنباً إلى جنب مع أطفالها. وهي معروفة أيضاً باسم كريوسا.

بكل هذه الراحة على بعد خمسة أميال فقط
عن يساري؟ لا أريد أن أسمع نفسي أفكر، ولا أن أشعر بنفسي
أتحرك. ليس معنى ذلك أنني أريد أن
أشعر بالخدر. أريد أن أنسلّ تحت جلدك. سأستمع إلى
الصوت الذي تستمعين إليه، أتغذى على
أفكارك، أرتدي ملابسك.
الآن أنا أسلك مسلكك، وأنت لم تعودي مرتاحةً.
كونك تجعلينها لكِ
فإنك قد حررتني من أفكاري، عاداتي، دوافعي. يجب عليّ
أن أكون ممتنة لكن بدلاً من ذلك...
لقد بدأتِ تزعجينني. أنا لن أعيش مع
نفسي داخل جسدك
وأفضل أن أجرّب أن أصير جديدة مع شخص آخر

السيدة بجلدها المحترق التي تريد أن تنسلّ إلى جلدي لكي تدعني أشعر بما تشعر لكي تتحرر من ألمها، والتي لا تستطيع رغم كل شيء أن تشعر أنها في وطنها في جسد امرأة أخرى. حنين معروف. وخيبة أمل معروفة.

أقيم لقاء مجموعة «الجيل الثاني» في وادي سان فرناندو. أجنيس - السيدة الضخمة بارزة العظام في الستينيات من عمرها - قادت بي طوال الطريق عبر الطرق السريعة إلى الشمال. كان لا بد أن تثرثر. كان لا بد أن تحكي عن زوجها، الكاتب الروسي الذي كان قد هاجر - إذ كان يهودياً - من الاتحاد السوفياتي قبل حقبة غورباتشوف،

والذي كانت هي - ابنة العائلة الألمانية اليهودية - قد قابلته هنا، وكان ذلك من دواعي سعادتها التي لا توصف. كان قد ألف كتاباً في نقد ستالين، وهو الذي أعطتني إياه. لم تستطع تجاوز وفاته منذ ثلاثة أعوام. استشهدت غاضبة بأقوال بعض الصديقات اللاتي قلن لها إن عليها أن تسعد بأن زوجها قد مات ولم يتركها من أجل امرأة أخرى. وجدنا القاعة التي التقت مجموعة «الجيل الثاني» في غرفة فرعية بجوارها، كانت الغرفة أكبر من اللازم بكثير، ربما توزع أربعون شخصاً على المقاعد الأمامية. كان روث هناك، وأنا سعدت بهذا، فقد كنت أشعر بغربة شديدة. لم يكونوا هم الأشخاص أنفسهم الذين التقيتهم عند روث، هؤلاء هنا كانوا في الغالب أكبر سناً. مدير المجموعة والفاعلية أيضاً كان رجلاً وسيماً في منتصف الأربعينيات، طبيباً، واثقاً بنفسه، متمرساً في إدارة الحوار. عرفهم بي بملاحظة أذهلتني، كنت قد أشرت لها عن نفسي: أنني "a lone voice out of the wilderness" (صوت متفرد في البرية). قال إنني أول ألمانية يقومون بدعوتها. قال إن معظم الحاضرين لم يكونوا قد تحدثوا إلى أي ألماني في حياتهم. المسنون من «الجيل الأول» بالكاد يحضرون، ما عدا أمه العجوز، سيدة نمساوية أصلها من فيينا كان المفترض أن تساعدني في الترجمة، إلا أنها كانت مضطربة إلى حد أنه كان عليّ أن أتصرف بإنجليزيتي التي تفتقر إلى الحساسية.

الناس الذين كانوا أمامي كانوا يتعاملون معي بشكل بديهي باعتباري ممثلة لألمانيا الحالية، كانوا يستجوبونني عن أحوال هذا البلد، شرقاً أم غرباً لم يكن يشكل ذلك أهمية بالنسبة إليهم. كانت الأسئلة حادة، حاولتُ أن أكون واضحة ولكن أيضاً مفهومة في إجاباتي. ما يُنقل إليهم اليوم كان يؤكد حكم هؤلاء الناس على هذا

البلد الذي كانوا يحددون هويتي على أساسه. حاولت ثانيةً أن أؤكد لهم أن معظم الألمان اليوم ليسوا معادين للسامية. لاحظت أن الكثيرين لم يصدقوني. امرأة شابة جذابة ألحت في شكوكها إزاء تأكيداتي، تلك التي أعرتها اهتماماً خاصاً، لم أتمكن من إقناعها.

في النهاية جاء الزوجان الشابان اللذان كانا قد سألاني إن كان بإمكانهما التجرؤ على الانتقال بطفليهما الآن إلى ألمانيا: قالا لي إنهما قد اتخذا قرارهما. كنت سعيدة بذلك. جلسنا بعدها في مجموعة أكبر في أحد المقاهي، أكلت الأيس كريم، ولم أكد أتمكن من المشاركة في الحديث لأنني كنت مرهقة وقد هجرتني مهاراتي في الإنجليزية تماماً تقريباً. ودعني روس بدفء خاص، واصطحبتني أجنيس على طريق العودة بينما كان الظلام قد حل بالفعل. حكت لي في الطريق بشيء من الخجل أن السيدة الشابة الجذابة كانت قد نشرت بين المشاركين أنني كنت أتعاون بشكل مكثف مع جهاز الاستخبارات في الجمهورية الألمانية الديمقراطية وأشي بزملائي. ضربة غير متوقعة. والآن كان عليّ أن أناقش الأمر كذلك مع أجنيس.

الغرفة التي عدت إليها كانت غريبة. وقفت آلتي الكاتبة الـBROTHER بفم مفتوح على الناحية الضيقة من المائدة الطويلة، نهمةً، لابتلاع مسودات الأوراق الفارغة بداخلها لتردها ثانيةً بعد أن تكون ملاحظاتي قد سُجّلت عليها، عملية تلقائية لم تعد بحاجة إليّ من أجل إتمامها. خلف ظهري كانت الأسطوانات يُكتب عليها بأحرف مبهمة، مجدداً **استُنفِدَت الذاكرة**، ولم تكن لدي فكرة ما الذي يمكن أن يكون قد استنفدها. في النهايةكنت أنا أيضاً مستنفدة، أخبرت آلتي الكاتبة بذلك فأجابتني ببرود: **يتم حفظ ملف النسخة الاحتياطية، الرجاء الانتظار**. فواصل استراحتي كان يمليها عليّ معالِجُ برنامج

«وورد»، ثم يستمر في الخشخشة ويقذف إليّ ما لم أكن قد زودته به، كان أستاذاً في التزوير الذي لا يمكن إثباته، وسوف يتعين عليه ذات يوم أن يتحمل المسؤولية عندما أملّ من اللعبة الخبيثة وأقرر وقف الإنتاج. فكيف لي على المدى الطويل أن أقبل هذا التلاعب الذي يتعامل به في أعماق برامجه المعضلة مع معطياتي غير المبرجمة والتي تعد نسبياً بريئة واثقة به. فقد أخذ بالفعل يطرح عليّ أسئلة وجودية: **الحفظ - المحو؟** وددت لو قلت له: فلتفعل ما تشاء. وقد داعبت سبابتي الزر المغري. بضغطة بسيطة كان النص لينمحي. والآن كان لا بد أن يظهر ما كنت أريده حقاً. إذا ما كان غضبي واشمئزازي قد بلغا ذلك المدى الذي يبعث على التخلص من سبب هذا الغضب وذلك الاشمئزاز. ضغطت على الزر الآخر: **الحفظ**. راحت الآلة تخشخش منتصرة إذ منحت نفسها مِداداً جديداً من العلامات. **يتم قراءة محتويات القرص الممغنط**. الآن ضغطت على الزر الذي يقوم بخدعة إفراغ الشاشة. فلنكمل مع النص.

غريب أنني لم أشعر بالذنب، أتستطيع أن تفسر لي ذلك؟ كنت في الآونة الآخيرة أتحدث إلى السنجاب الأمريكي الذي كان يهرع إلى السقف الخشبي المنخفض المقابل لنافذتي كل يوم، والذي كنت حين أجلس إلى آلتي أراه عن قريباً جداً. أياً كان ما أردت أن أسأل عنه كان السنجاب يبقى غير متأثر إطلاقاً. كنا قد صرنا في شهر فبراير، فجأة تكسرت براعم الأشجار في شارع ثيرد ستريت بين ويلشاير بوليفار وكاليفورنيا أفينيو، زهرة كرز بيضاء ممتلئة في قلب الشتاء. لكن ماذا كان الشتاء يعني هنا.

وقفت مع تيريزه - التي صرت أراها بشكل متكرر أكثر، والتي تركت نفسي لأصاب بعدوى إدمان هذه المدينة منها- على رصيف

ميناء سانتا مونيكا الذي كان يفتنها. يوم لا تشوبه شائبة، ضرب البحر الشاطئ بموجة صغيرة ذات رغوة بيضاء. خليج ماليبو - زعمت تيريزه - هو أجمل شواطئ العالم، وأنا لم أعارض. لكن ألم تكن قد لاحظت أن المياة لا رائحة لها هنا؟ هذا المحيط الهادئ الباهر تحتنا، هذا الخضار الشفاف بحروفه الرغوية البيضاء، لا يمكن أن يكون هناك مشهد طبيعي أجمل من هذا، ولكن هل تنبعث منه كذلك رائحة البحر؟ رائحة الطحالب، والأسماك، رائحة المياه الرمادية في بحر البلطيق المتواضع؟ لم تكن تيريزه قد لاحظت ذلك بعد، بل لم تكن تريد إدراك ذلك أصلاً. أرادت أن تصحبني إلى أصدقائها في فينيسيا، كان عليّ أن أتعرف عليهم، لكن كان عليّ أن أتعرف على فينيسيا أولاً، بسحرها المتفرد، بالطبع بتكدس السائحين فيها بعض الشيء، وطبعاً، بقنواتها المائية التي من المفترض أن تكون محاكاة لمدينة البندقية (فينيسيا) الأصلية، إلا أنها صارت مردومة حالياً، بالطبع تهدمت أيضاً بعض البيوت التي كانت يوماً ما رومانسية، ولكن ألم يكن ذلك سر فتنتها؟ ألم تكن روح كاليفورينا تتركز هنا تحديداً؟ في فينيسيا حيث يمكن بالكاد حتى في وسط أيام الأسبوع المرور فيها، وحيث يتجمع كل مخابيل وأنصاف مخابيل لوس أنجلوس أيام الآحاد، يتدافعون إلى المتاجر بملايين القمصان ويتزاحمون حول الميادين حيث تقام العروض، ونحن في وسطهم. حيث يحصل الرجل الأسود النحيف الذي يقوم بحركات ثعبانية على من تشاركه اللعب - أو لنقل على ضحيته؟ - سوداء، وبيضاء، و مكسيكية، و يابانية. السيدة البيضاء لم ترِد المشاركة، كانت لتصعد إلى ساحة الرقص على جثتها، كانت ممتلئة قليلاً، وكانت ترتدي تنورة قصيرة بعض الشيء بالنسبة إلى ركبتها غير المصبوبة، كانت النساء الثلاث

الأخريات أكثر جاذبية منها، لكن الرجل الأسود لم يكن يعرف الرحمة، جذب السيدة البيضاء إلى المنتصف، أفلتت منه، والآن صار غاضباً، أحكم قبضته عليها، تركها صديقها ذو الوجه الطفولي تواجه مصيرها، استلم بابتسامة خجلة حقيبة يدها التي ناوله الرجل الأسود إياها باستعلاء، ثم أدار المسجِّل، موسيقى التانغو، أخذ الرجل الأسود السيدة المكسيكية أولاً ورقص معها، كان مبدعاً، فقد رقص مع كل امرأة على موسيقاها، كان «يسترقصهن» إن وُجِدت هذه الكلمة، جعل الدمى ترقص. لم يكن يقترب منهن أكثر من اللازم، إلا أن مشهد اغتصابٍ مكشوف كان يدور هناك، وهو ما لم يستطع أحد أن يثبته عليه، ولا حتى يستطيع أن يطرح الأمر فحسب من دون أن يجعل نفسه موضع سخرية. السيدة السوداء فقط كانت أطول منه، وكانت تهيم بضحكات عالية وإيماءات بذيئة حوله، حتى استطاع أن يتأقلم على الأمر أيضاً بالضحكات العالية والتصفيق، إلى أن تمكن من ترويض السيدة وتحويل الأمر إلى رقصة لاثنين. في المقابل انسحبت السيدة البيضاء بشكل مثير للشفقة، تحديداً لأن الرجل الأسود قد عاملها بمنتهى التهذيب وراقص كل نقاط الضعف فيها بلا رحمة تحت وطأة التصفيق الهادر من الجمهور شديد التنوع.

«إنه يثأر لنفسه»، قالت تيريزه، ثم تراجعنا للوراء بسرعة.

كان هذا هو اليوم الذي لا يُنسى والذي قربتني خلاله تيريزه إلى الطريق. اليوم الذي تعرفت فيه على جين وتوبي ومارغري. سميتهم «الشباب» وشعرت أن الفضول كان ينتابني تجاههم. سوزان ليس بعد، كانت سوزان شائعة، مادة أحاديث بينهم. سوزان كانت تنتمي إليهم وفي الوقت نفسه أيضاً لا تنتمي. كانت أصلاً تودّ أن تأتي هي الأخرى، لكن لا أحد ممن عرفوها كان يتوقع مجيئها حقاً. فهي لا

تلتزم بأي موعد أبداً. يقال إنها تريد أن تبدو مثيرة بلعب دور المرتبكة. رأت جين أنها حائرة بالفعل، غير ذلك لا يمكن تفسير أفعالها المتناقضة. إن كانوا يقصدون إثارة فضولي تجاه سوزان فقد حققوا ذلك.

جلسنا في الشمس المتوهجة أمام المقهى الألماني الشهير في الشارع الرئيسي بفينيسيا وأكلنا كعك التفاح الألماني الأصيل، تحادثنا وكأننا نعرف بعضنا بعضاً منذ زمن، بشكل مختلف عما هو سائد في أمريكا- كما خطر لي - حيث يتحدث الناس بنفس القدر، إلا أن الأحاديث تبقى في أحاديث nice-to-see-you (سعدت بلقائك). ما جرى هنا كان شيئاً آخر. شعرت بارتياح لكونهم يتصرّفون وكأنني غير موجودة معهم، وكأنني لا أزعجهم، ليثبتوا لي بذلك فعلاً أنني لم أكن أزعجهم. كانت سوزان - كما عرفت - امرأة ثرية. لا، ليست ميسورة الحال - قالت تيريزه: ثرية حقاً. إنها تملك جزيرة. ليست كبيرة، ولكن لا يهم. وفي الوقت نفسه هي شحيحة بعض الشيء مثل كثير من الأثرياء. على سبيل المثال إنها تسكن في بيت صغير جداً في أحد أضيق شوارع فينيسيا، طاله التدهور مثل هذه البيوت الأخرى كلّها. لكن غالٍ! صاحت مارغري. لا تعشموا أنفسكم! بالمناسبة كانت سالي على وشك شراء فيلّا في بيفرلي هيلز، كانت لا تزال تساوم السمسار، إلا أنها فوتت الفرصة على نفسها في النهاية. ضحك الجميع. عرفت أن المباني الحديثة التي ارتفعت على إحدى جهات الميدان كانت مملوكة لسوزان أيضاً، وأن جين استطاعت أن تفتتح معرض الصور الخاص بها هناك. سألتني إن كنت أريد رؤيته؟ - بالتأكيد.

عرفت أن جين نفسها كانت مصوّرة. «متميزة!» همست لي مارغري. إلا أنها أيضاً متخصصة في علاج الأزواج الذين يواجهون

بعض المشاكل في علاقاتهم الزوجية، كما شرحت لي وهي تهز كتفيها. فإن على المرء أن يتكسب بطريقة ما. كانت أحياناً تشعر بالضجر تجاه أولئك الأثرياء الذين يتبادلون تصعيب الحياة على أنفسهم من فرط الملل. ماذا عن توبي؟ رجل نحيف هادئ أصغر سناً، تكوّن لدي انطباع أن أحداً لا يريد أن يقترب منه أكثر من اللازم. رأيت كيف وضع يده برفق على كتف تيريزه وراحت هي تدلك خده بيدها أثناء سيرنا إلى معرض جين. كانت جين قد عرضت بعض أعمال مصوّرة مجرية شابة موهوبة جداً، مناظر طبيعية، ووجوه لم أر مثلها من قبل. أحبت جين هذه الأعمال جداً، كما كانت تفخر بها مثلما تفخر بأعمالها هي. أحسست أنني صرت أنجذب إليها أكثر فأكثر، ولكن هل كان لا يزال لدي وقت لأبدأ عقد صداقات جديدة هنا؟ حينئذٍ كانت تيريزه قد حددت موعد لقائنا القادم بالفعل.

اتصلت روث. قالت إنها لا بد أن تراني لأمر ضروري. لا بد أن تتحدث إلي بشأن ليلة «الجيل الثاني» التي كان عليها أن تفكر فيها باستمرار. لم تكن راضية عن المشاركين. إنهم يتقوقعون داخل مخاوفهم وأحكامهم المسبقة تجاه ألمانيا. لم يكونوا ليبذلوا الجهد لإدراك الواقع الجديد. ولسوف يستهجنون بحزم أن تطأ أقدامهم الأراضي الألمانية. كانوا يواجهون كل أنواع المصاعب الكبرى مع آبائهم، ومع أن بعضهم كان قد رحل بعيداً عن أبويه فقط لكي لا يتعيَّن عليه رؤيتهما بشكل متكرر أكثر مما يلزم، إلا أنهم ورثوا آراء آبائهم عن الألمان من دون مراجعة.

قلت: ولكن يمكن تَفَهّم هذا.

نعم ولا - قالت روث - الوجه الآخر من العملة هو أنهم يشعرون بالحنين إلى التحدث مع بعض الألمان عن جراحهم التي كانوا

هم من علّموهم إياها. قالت إنني لا بد أن أكون لاحظت ذلك. بعدها قام الكثيرون بالاتصال بها: أخيراً أتيحت لهم فرصة التحدث إلى شخص ألماني كان يتمتع بالمصداقية.

قلت: إنه لا يتسنى توقع شيء أكثر من ذلك.

قالت روث: إن أمي مريضة جداً. سوف تموت.

بدأ قلبي يخفق بصوت عالٍ: ستموت الأم من دون أن تكون الابنة قد تصالحت معها. كانت روث قد خمنت ما فكرت فيه. «كلا»، قالت إنهما صارحتا بعضهما. إنهما وجدتا وسيلة للتفاهم. إنه لم يكن يتبق بداخلها أي أثر للحقد تجاه أمها.

أتبكين؟ - سأل بيتر غوتمان حين دخل. قلت: من الفرحة. لقد جئت في الوقت المناسب تماماً.

جيّد أن أسمع هذا - قال - ونادر الحدوث أيضاً.

تشفق على نفسك؟ - أردت أن أستفزه.

سخرية - قال - أفضل من الإشفاق على النفس.

هل لا تزال أمك على قيد الحياة؟

كلا. إن موت أخي الأكبر منذ بضع سنوات بالسرطان أفقدها عافيتها. كنا قد أخفينا سر المرض عن أمي. أخي الثاني المصاب هو نفسه حالياً بالسرطان ولا يريد أن يصدّق يتهمنا بذلك الآن. إنني لست متأكداً حتى اليوم ما الذي كان يمكن أن يكون صحيحاً. لا بد أن نعترف أنها ماتت كمداً.

بقيت صامتة.

هل نجحت في أن أخرس لسانك؟ إنني أسيء استغلالك - كما تلاحظين - كطوق نجاة.

قلت: أعمى يقود كسيحاً.

أحياناً كنت أسأل نفسي ما الذي يولّد بداخلك هذه الأنا العليا القوية.

هل وصلنا مرة أخرى إلى فرويد؟ لكنني أستطيع أن أضيف معلومة هنا يا سيدي: المذهب الإنجيلي البروسي. أن تكون مجتهداً، متواضعاً، وشجاعاً وصادقاً دائماً. فضائل، أوصت بها الأم الحبيبة جداً.

والتسامح مع الذات بعض الشيء لم يكن ضمن هذه الفضائل؟

"Absolutely not, Sir" (على الإطلاق يا سيدي).

قال: ولا بد أنه من الصعب جداً تعلم ذلك لاحقاً.

"Yes, Sir" (نعم يا سيدي).

لكن من أين يأتي هذا الوعي باقتراف الذنب عند الكتابة.

إنك فطنت له. إنها النظرة الباردة. النظرة الباردة للكاتب إلى كائناته. وأنه في اللحظة التي تتخذ خلالها كل تلك المسافة بينك وبين ألمك بحيث يكون باستطاعتك الكتابة عنه، لا تكون تلك الكتابة صادقة تماماً.

بمعنى أنه حين يكون عليك الكتابة فإنكِ لا تستطيعين الكتابة، وحين تستطيعين الكتابة يكون عليكِ ألا تكتبي.

"Correct, Sir" (صحيح يا سيدي).

حسناً، ها قد دبرت لنفسك شيئاً جميلاً. أتكون سيدتي كالفينية[١] متخفية؟

---

(١) الكالفينية: (والمعروفة أيضاً باللاهوت المصلح) هي مذهب مسيحي بروتستانتي يعزى تأسيسه إلى المصلح الفرنسي جون كالفن، وكان هذا الأخير قد وضع بين عامي ١٥٣٦م و١٥٥٩م مؤلفه «مبادئ الإيمان المسيحي» والذي يعتبره الكثيرين من أهم ما كتب في الحركة البروتستانتية.

فلنتحدث عنك يا سيدي.

ماذا تريدين أن تسمعي؟ أنني أنا من غرست اضطراباتي العصبية في نفسي بنفسي؟ بدأت في سن المراهقة أجتهد في المدرسة كالمجنون، رغم أن معلميّ نصحوني أصلاً بالاعتدال. حتى خطي غيّرتُه، فصار فجأة دقيقاً ومنمقاً. كلا، لم تمارس عائلتي عليّ أي ضغوط في ذلك. بالرغم من أنه كان طبيعياً- ولكن ماذا تعني هنا أساساً كلمة «على الرغم»! - إذن: على الرغم من أنه كان طبيعياً - وماذا تعني هنا بحق السماء مرة أخرى كلمة « طبيعياً»! - مثلما في الكثير من العائلات اليهودية أن يكون هناك «إثم» لا يتم التحدث عنه أبداً. لم يكن والدا أمي قد غادرا ألمانيا، بل ماتا في مدينة تيريسين، وقد حاولت إحدى الخالات التي كانت قد هاجرت إلى أمريكا مبكراً أن تشرح لي بالتفصيل لِمَ لم يكن بإمكانهم إنقاذ الأبوين، لكنني كبتُّ هذا ثانية على الفور. لا أعتقد أن مسألة الشعور بالذنب تلك تلعب أي دور لدى عائلتي. مع أنني أتذكر الآن أن أمي حين كانت تحتضر وكانت قد فقدت تركيزها تماماً، سألت فجأة: أين الأبوان؟

بقيت صامتة. سأل بيتر غوتمان إن كان من الأفضل أن يرحل. قلت: بالطبع واضح بالنسبة إليك أنني ألمانية.

والآن أنت تعتقدين أنني كيهودي لا بد أنني أواجه صعوبات في التحدث مع ألمانية بشأن هذه الأمور.

أنا أسأل. لقد قابلت يهوداً هنا لا يرغبون أن تطأ أقدامهم الأراضي الألمانية مرةً أخرى أبداً. أفهم ذلك. أظن أنني كنت لأفعل الشيء ذاته لو أنني في مكانهم.

هكذا كنت أنا أيضاً أفكر عندما كنت شاباً. ثم درست في ألمانيا، في فرانكفورت، ثم أغرمت أنا وصديق عمري الألماني بالمفكرين

اليساريين الألمان الذين كان بينهم يهود أيضاً. كلا، لم يكن الأمر صعباً. مرة واحدة فقدت أعصابي حين أراد مكتب التسجيل أن يحصل مني على صحيفة الحالة الجنائية الخاصة بي من الشرطة، وهو ما لا يوجد أساساً في إنجلترا، وقد هددوني بأن لا يقبلوا أوراق تقديمي إذا لم أحضرها. وقد أذهلني أنا نفسي أنني بدأت أصرخ في ذلك المكتب الألماني، كان من الممكن أن يطردوا والديّ ويقتلوا جدي وجدتي، بينما أنا لا أسمح بأن يتم تهديدي من قبل أي موظف ألماني. ثم خرجت راكضاً وكنت مزهواً بنفسي جداً، على الرغم من أنني وجدت نفسي مثيراً للسخرية بعض الشيء.

أتَرى؟

ماذا أرى؟

الألماني الحقيقي لم يكن ليجد نفسه مثيراً للسخرية ولو بعض الشيء، بل عظيماً فائق العظمة. إذن، كيف انتهى الأمر؟

حسناً، تم قبول أوراق تقدمي بعد فترة قصيرة دون الصحيفة الجنائية. ولكن كيف وصلنا أصلاً إلى هذه القصص القديمة؟

عبر الطريق إلى القضية اليهود الألمان.

نعم. بالمناسبة: أنا أيضاً يصعب عليّ التحدث إلى ألمان معينين، تماماً كما يصعب التحدث إلى يهود معينين. كما لم أدخل أبداً في علاقة مع سيدة يهودية، هذه هي أول مرة، وهذا هو سوء الطالع.

أردت أن أعرف أين سوء الحظ في ذلك.

قال إنه لن يستطيع أن يوفّر عليّ الاستماع إلى قصة يهودية أخرى، قصة ليليان التي كان أصلها من عائلة أرثوذكسية متشددة من فيينا، كان الأب قد أنقذ نفسه قبل الترحيل بقفزة من القطار، إذ كان في بولندا لدى الفدائيين، ثم عمل لاحقاً في تجارة الفراء وصار ثرياً

لدرجة لا توصف. كان على ابنته - التي كان يعبدها - أن تتزوج من المستوى نفسه، ابن صائغ يهودي هولندي ثري جداً. وإن لديها طفلين، وإنه لَعَار لا يمحى بالنسبة إلى عائلة يهودية أورثوذكسية أن تهجر السيدة أسرتها. لن تفعل ذلك أبداً. قال إن الأمر كله ميئوس منه تماماً. وإنه أحياناً لا يعرف فيمَ كل هذا العذاب.

ربما كان من المنطقي التساؤل الجاد ذات مرة - قلت له في حذر. سألته إن كان يفهم الآن لماذا أردت أن أحمله على أن يحكي لي عن عائلته.

قال: تعنين حتى القرابة من الدرجة الثالثة والرابعة؟

نعم. أوتفهم الآن أيضاً لماذا يبدو لي البحث عن شكل فني لمضامين معينة فاحشاً. بالمناسبة: منذ متى أصابك هذا الاكتئاب؟

منذ عام.

هذا وقت أطول من اللازم.

إنه الجحيم، أستطيع أن أقول لك، إذا أنا قررت أن أؤمن بالجنة والجحيم على الإطلاق.

هل فكرت في الانتحار من قبل؟

إنني أعيش بهذه الأفكار. ألا تعرفين مدى المواساة في معرفة أنه ليس على المرء أن يعيش؟

بلى. أعرف ذلك.

ثم ماذا؟ هل ما زال الشريط الصوتي يدور في رأسك؟

إنه يدور. لكننا أردنا الحديث عنك. هل يوجد ما يساعدك؟

إن أحوالي تتحسن حين أستطيع أن أتحدث عن الأمر.

أتمنى لك ألا تصحو غداً شاعراً بذلك الفزع.

سأوافيك بالأخبار يا سيدتي.

الشريط يدور. كيف يسعني أن أشرح لهم أنه لا توجد بقعة أرض صغيرة في العالم تثير اهتمامي مثل تلك الأرض الصغيرة التي وثقت بقدرتها على خوض إحدى التجارب. كانت قد فشلت بفعل الضرورة، مع الإدراك جاء الألم. كيف أشرح لهم أن الألم كان بمثابة مقياس للأمل الذي كنت لا أزال أحفظه في مخبأ كان يخفى حتى عليّ.

اتصلت شينيا من موسكو، في منتصف الليل، قالت إنها أخطأت في حساب فارق التوقيت بين موسكو ولوس أنجلوس. حسناً، لم يعد يمكن تغيير ذلك. سألتني إن كنت نمت. كلا؟ لامتني على ذلك. كانت تقرأ الصحف الألمانية، وأرادت فقط أن تتواصل معي. توقفي يا شينيا! - حسناً، ماذا؟ - كفاك تصنعاً. تريدين جس نبضي. كانت تجد المقولات الألمانية أحياناً غريبة. لكن إذا كان لا بد من جس النبض - فلتتفضلي. إذن ما الأمر؟ قالت إنه لايمكن قول هذا في جملة واحدة. كان باستطاعتي أن أستعين بجملة ثانية. فإن لديها وقتاً.

شينيا التي تكبرني سناً كانت تحب أن تُعَرِّف نفسها ب«البحّار الأحمر». كانت قد جاءت إلى ألمانيا عام ١٩٤٥ مع الجيش الأحمر وعينت في الأعوام التالية ضابطاً مسؤولاً عن الشؤون الثقافية في برلين. منذ ذلك الحين وهي توثّق صداقاتها مع الكتاب والمسرحيين الذين كانت قد ساعدتهم آنذاك. كرست حياتها بعد ذلك لمهمة نشر الأدب الألماني في أقسام التحرير ودور النشر السوفياتية التي عملت فيها. على الهاتف ليلاً قالت إننا كنا متفقتين على ألا ندع شيئاً يهزمنا. كنت أعلم كم حاول البعض هزيمتها. كانت يهودية وهو ما صعّب الأمر أكثر. قلت: لكن هذا كان في عصر مختلف. آهٍ - قالت - هذا

ما يظنه المرء فقط. من كانوا يريدون هزيمتنا هم دائماً الناس أنفسهم، لكن بطلاء مختلف. يستمع المرء إلى ما لديهم، ثم يخطر له: هراء. أم أنني كنت قد نسيت ما قلته لها ذات مرة: إن أمنيتي القديمة هي أن أصير معروفة. أن أعرف نفسي بالكتابة. إذن، من الذي يمنعني من ذلك؟

لديك ذاكرة أفضل من اللازم يا شينيا.

الحمد لله - قالت - ما زلت أرانا جالستين في غرفة الفندق مع مدير دار النشر، أما زلت تذكرين؟

وسألتني إن كنت أعلم ذلك. كان الأمر يتعلق بكتاب لكِ، أرادت شينيا نشره بأي ثمن، إلا أن مدير دار النشر لم يكن ليستطيع نشره إلا إذا حذفتِ بعض المشاهد التي يظهر فيها الجيش الأحمر. قال إن نقدك كان لاذعاً أكثر مما ينبغي، وإن الجيش الأحمر هو الشيء الوحيد الذي يمكنه الحفاظ على تماسك إمبراطوريتهم الهائلة.

لم تكن لديك رغبة في أن تتحملي ذنب انهيار إمبراطوريتهم الهائلة، لكن لم يكن بوسعك حذف تلك المشاهد، كما لم يكن بوسعك حذف مشاهد الأمريكيين في حرب فييتنام التي أراد الناشر الأمريكي حذفها. قلت إنه لم يكن ليتبق من نصك ساعتها غير هيكل عظمي.

نعم، وإنه ليأسف لذلك صدقاً، كما تأسفين، وتأسف شينيا أيضاً. فجأة كان علينا أن نضحك بالضرورة عبر الهاتف، وحين انتهينا من ذلك قالت شينيا إنها كانت تتصل أصلاً لتقول لي: الآن يودّون إصدار الكتاب الذي دار الحديث عنه آنذاك، وإن جملةً واحدةً لن تحذف منه. إذ كان الأمريكيون قد أسقطوا بالفعل - ضد رغبتي ومن دون علمي - تلك المقاطع التي لم ترق لهم، وكانت هي تعلم ذلك.

حسناً - قلت - فقد انهارت إمبراطوريتكم الهائلة حتى من دون تدخّلي.

لا تكوني واثقة إلى هذا الحد - قالت - فإن الروح تخلخل أعتى الكيانات.

يا شينيا - قلت لها بعد فترة صمت - هل يمكنك أن تتصوري أنني استطعت أن أنسى ذلك؟

فهمت السؤال على الفور. ليس هناك ما هو أسهل من ذلك - قالت - لو لم أكن قد نسيت معظم ما كان في حياتي لما استطعت الاستمرار على قيد الحياة.

ولكن ألا تمسّني شرارة من الشك طوال هذه السنوات كلّها! من يمكن أن يصدقني في ذلك؟

إن لم يكن ذلك سواء بالنسبة إليك فإنك لم تتغلبي على الأمر بعد يا عزيزتي. إذا جعلتِ قوة الماضي تعلو على الحاضر فقد انتصروا هم إذن.

هل كانت حياتنا بلا جدوى؟

إنك الآن تنحدرين عن مستواكِ. اقرأي قليلاً في كتبك.

كنت أفعل ذلك لتوي. في الكتاب الأول الذي لم تقوموا بترجمته مطلقاً لأن الضابط السوفياتي بدا أقل حيلةً من الطبيبة الألمانية. تسأل الروسي الذي كانت تحبه ذات يوم عن أهم صفات إنسان المستقبل. أوتعرفين ماذا يقول: الإخاء. القدرة على مواجهة الحياة بصدر عارٍ. عدم الشك في الآخر. القدرة على قول الحقيقة. عدم النظر إلى سلامة النية واللين والسذاجة كمَواطِن ضعف. حب الحياة لن يعني بعد ذلك العبور فوق الجثث بلا اكتراث.

حسناً - قالت شينيا - قد يكون ذلك جميلاً جداً.

شينيا! شيء كهذا لن يكتبه اليوم ولا حتى أصغر الكتّاب وأغباهم! كتبت هذا بعد خمسة أو ستة أعوام من موت ستالين. كنت في الثلاثين من عمري. كانت تلك هي السنوات التي فتحوا فيها ذلك الملف الخاص بي. يا شينيا، كم مرة في الحياة يصير المرء شخصاً آخر؟

قالت شينيا إنه كان عليها أن تمعن التفكير. سألت إن لم يكن واضحاً بالنسبة إليّ أننا نعيش في القرن الأكثر شيطانية عبر التاريخ. أن قوى جبارة تشد كل منا باتجاهات مختلفة. يجب على المرء أن يحاول أن يحافظ على نفسه، لا يمكن فعل أكثر من ذلك. وبذلك "doswidanja" (إلى اللقاء).

توفيت شينيا في تلك الآثناء. حينذاك - ما زلت أذكر - عدت إلى سريري، لم يكن من الممكن التفكير في النوم ساعتها. فكرت في فترة الإقامة تلك في موسكو. صورة ستالين الضخمة كانت معلقة فوق مدخل الفندق، لم تكد تغيب عن أنظاركما أبداً حين تستقلان الباص أو التاكسي عبر المدينة، كانت معلقة في كل مصلحة إدارية فوق المكاتب. لا يعني هذا أن الأمر كان يعجبك، لكن تعبير «ثقافة تمجيد الأشخاص» لم تكن قد اخترعت بعد. قال بعض الأصدقاء الروس إنه في وقت الثورة كانت تلك الصور واللافتات تحل محل الصحف والمنشورات، ولكن الآن كان من الممكن الاستغناء عنها في الحقيقة. ما عدا ذلك كانت كلها ظواهر هامشية كنتم لتتخطوها معاً. أما الصديق الذي رافقك طوال الوقت كمترجم - حسناً ربما أيضاً ليس فقط كمترجم - سكب كأساً من الفودكا على مصباح السقف حين ودعتما بعضكما في غرفة الفندق، ثم أطلق شتمة بالإضافة إلى ذلك. كان يظن على ما يبدو أنه يتم التنصت عليكما، وأنت ضحكتِ، لكنك أخذت ظنه على محمل الجد. كان هو أول شخص يبلغك من دون

كلمات أنه لم يعد يصدق أي شيء. من أين جاء ضيقك، حين رحل؟ ما شأنك أنت في ما يصدق هذا الروسي؟

دار فيلم في خيالي، لم أكن قد نسيت شيئاً. لا شيء من مشاهدة دخول الجيش الأحمر إلى مكلنبورغ، ولا من خوفكم عندما بدلت قوات الاحتلال مواقعها، رحل الأمريكيون وجاء الروس، لكنهم لم يكونوا روساً فحسب، كان معهم أيضاً المغول والكالميكيون[1]، هكذا قال الناس في القرية المكلنبورغية مرتجفين، شهدتُ القوات المنتشرة من الجنود المغيرين المغتصبين السوفيات الذين اجتاحوا البلاد، أزياء الجيش الممزقة، التجهيزات الفنية المثيرة للشفقة، عربات الخيول التي وصلوا بها إلى وسط أوروبا، بينما استغرقتم أياماً في ربيع ذلك العام ١٩٤٥ حيث مررتم بفوجكم النازح، بآلة الحرب الألمانية ذات الكفاءة العالية، التي صارت ملقاة، مهجورة، غير ذات نفع منقلبة في الخنادق. كان الشعور بالخزي عميقاً، متمثلاً في انتصار هؤلاء الجنود غير المزوّدين بالأسلحة، مهترئي الملبس ضعيفي التغذية - الذين كان معظمهم سمر البشرة، وبعضهم عيونهم ضيقة كالشق - على قواتنا التي تم تسليحها جيداً، المجهزة بكل شيء. إلا أنه بعد سنوات قليلة

(١) **الكالميكيون**: تقع كالميكيا في جنوب شرق الجزء الأوروبي من روسيا في سهوب بحر قزوين، وتمر فيها أنهار بارزة مثل: الفولغا والكوما، إضافة إلى عدد من البحيرات. كما أنها تمتلك ثروات طبيعية لا بأس بها من الفحم والنفط والغاز. وينتمي شعب الكالميك القليل العدد إلى أسرة الشعوب المنغولية الأصل. وعندما ذهبت أكثرية المنغول في أثناء تنقلاتهم لِى أعماق القارة الآسيوية في القرنين السادس عشر والسابع عشر، بقي بعض القبائل في السهوب شمال بحر قزوين، بحيث انضم الكالميكيون طوعاً إلى قوام الدولة الروسية في عام ١٦٠٩، وتعني تسمية الكالميك، التركية الأصل، بالعربية: «مَن بقي».

انقلب شعورك - بشكل غير ملحوظ في البداية حتى وصل إلى درجة أن انتصار تلك القوات السوفياتية لم يعد مرجواً فحسب، بل صار يمثل إنقاذاً بالنسبة إليك، وإلى أن تحول تصور أنكم أنتم - الألمان، الاشتراكيين القوميين - وليس هم من انتصروا إلى رؤية مرعبة.

مجموعة من الحكايات تتجلى أمامي، أناس من موسكو ولينينغراد، أناس كان بوسعك أن تتحدثي إليهم بصراحة ومن دون أي اعتبارات. بعضهم ضباط سابقون في الجيش الأحمر، كانوا قد دخلوا الرايخ الألماني آنذاك بكتائبهم منتصرين. واحد منهم كان في مسقط رأسك الذي كنت قد هربت منه قبل ذلك بفترة قصيرة. كان قد صار كاتباً، جاء بصحبة وفد إلى برلين، جلس بجانبك في أحد حفلات العشاء. فجأةً قال لك كيف كان يحزنه أنهم كانوا قد دمروا قلب مدينتك آنذاك من دون سابق إنذار. كان هذا الحي في تلك الأثناء قد شُيّدَت فيه بيوتٌ جديدة قبيحة، كنت قد رأيتها. لاحقاً طلب منك آخر أن تبحثي عن إحدى السيدات في ريف مكلنبورغ، وأن تسألي - إذا كانت لا تزال تسكن هناك - إن كانت قد أنجبت طفلاً ولد في عام ١٩٤٦. للأسف لم يكن لها أثر. البروفسور ييروزاليمسكي المؤرخ، قابلته تحديداً في حديقة قصر سيسيليان هوف حيث كان مؤتمر بوتسدام التاريخي قد أقيم، وحيث جاء هو لإلقاء محاضرة. هو الذي أوضح لك الجذور التاريخية للستالينية وطلب منك بإلحاح ألا تتخلي أبداً عن مواقفك الناقدة للتصريحات الرسمية من الجانب السوفياتي. كان مصاباً مريضاً جداً، يتنفس بصعوبة. استطعت أن تزوريه مرة ثانية في أحد المستشفيات في موسكو، وقد ألح على الخروج معك إلى الحديقة لكي تتحدثا. ثم مات بعدها بفترة قصيرة. أو الزملاء الذين ساروا معك سراً في الشوارع أو الحدائق حكوا لك القصص الحقيقية

لبلادهم وقصصهم الشخصية، بحيث ظللت فترة تفكرين أنه يوجد بالفعل هنا أناس لديهم القدرة على النقد وإصلاح هذه الإمبراطورية الهائلة من الداخل، وقد كانوا هم أنفسهم يرجون ذلك، حين طُلب منهم - من خلال الـ«غلاسنوست»[1] - واتتهم الفرصة للعمل الذي كانوا يطالبون به بالفعل منذ زمن: الحفاظ على الوجه الحقيقي لبلادهم ووضع المواطن نصب الأعين. عمل بطولي. يقال اليوم «يوتوبيا» مع مط الشفتين. رأيت وجوههم المرهقة المُصرّة في صالات التحرير التي سرت فيها فجاة روح مختلفة.

لا يكاد أحد منهم موجوداً هناك، في دليل عناوين موسكو سقط اسم تلو الآخر. أما أنا فلا أجرؤ على أن أحذفهم.

الشيخوخة هي وقت الخسائر

وكشف الحِجاب كذلك؟

حين جاءتني روث رأيت ذلك بادياً عليها: كانت أمها قد ماتت. أحضرت لي روث ديوان شعر لنيلّي زاكس[2] كان يخص أمها.

(١) **غلاسنوست**: هي سياسة الدعاية القصوى والانفتاح والشفافية في أنشطة المؤسسات الحكومية في الاتحاد السوفياتي سابقاً بالإضافة إلى حرية الحصول على المعلومات. وأطلقت هذه الدعوة بواسطة الرئيس الروسي السابق ميخائيل غورباتشوف في النصف الثاني من الثمانينيات. كان أول استخدام لهذه الكلمه (غلاسنوست) في الاتحاد السوفياتي في نهايه عام ١٨٥٠ وتعني الشفافية. وكانت ترمز إلى فترة بالاتحاد السوفياتي كان فيها أقل قدر من الرقابة، وحرية أكبر في الحصول على المعلومات.

(٢) **نيلي زاكس** (١٨٩١-١٩٧٠): اسمها الأصلي ليوني زاكس وهي شاعرة =

حاولت أن أثنيها عن هذه الهدية بكل قوتي، قلت لها إنه لا يوجد شيء أقل استحقاقاً من هذا الآن تحديداً. وإن هذا سوف يكون ضاغطاً عليّ. لم تستسلم روث. خاصةً لأنني رفضت بهذه الشدة - قالت - إنها ترى أنني بحاجة إليه. ولسوف أدرك ذلك ربما بعد وقت طويل. يمكنني ببساطة أن أضعه في أي ركن وأكدّس الكتب فوقه. سوف يُحَرِّقني ذلك، وهذا هو المطلوب. فتحت الكتاب:

أيها العالم، قد أُلقِيَ بالأطفال الصغار مثل الفراشات
مرفرفةً بأجنحتها في النار

سيكون عليّ أن أقبله، وأن أعيد قراءة تلك السطور مرة بعد أخرى.

كان وقوف بيتر غوتمان عند الباب بشكل غير متوقع إحدى تلك المصادفات التي تتبعها دهشة في كل مرة حين كانت تبعاتها تتضح. لقد فطن لمزاجنا وأراد أن ينسحب على الفور، لكننا أصررنا على بقائه. عرّفته على روث وشهدت انجذابهما كأن بينهما ألفة قديمة. بينما كنت أحضر الخبز والجبن والطماطم من المطبخ وأصب لهما النبيذ كانا قد انخرطا في الحديث بعمق، تحدثا عن حياتهما. كان الأمر لا يصدق، على خجل كليهما.

لم يكادا يلاحظان أنهما قد بدآ يأكلان فعلاً، وأنا تصرفت بهدوء

= وأديبة ألمانية. منحت جائزة نوبل في الأدب في عام ١٩٦٦ مناصفة مع الأديب اليهودي شموئيل يوسف عجنون، وذلك لأعمالها الشعرية والمسرحية التي فسرت القدر اليهودي بقوة واضحة.

واستمعت إليهما. نعم، حتى قصة أمها التي كانت عادةً تحتفظ بها لنفسها فقد أسرّت بها لبيتر غوتمان، كما تحدث هو ببعض التلميح عمّا يسميه «مشكلة حياته». وبعدها لم يستغرق الأمر طويلاً لإدراك أن مشكلاتهما كانت قد فُرِضت عليهما بفعل التاريخ الأسود لهذا القرن. ومع ذلك - قال بيتر غوتمان - يبدو أن ويلات زماننا قد تجاوزها القرن القادم الرمادي الذي نقف على حافته.

عارضته روث بشدة. مَن المستفيد إذا نحن رأينا المستقبل أسود وأكثر سواداً - قالت. سألته إن لم يكن يعرف أن بوسع المرء أن يستحضر الويلات في ذهنه ويستحثها.

في الحقيقة لم يكن بيتر غوتمان يعتقد بذلك، قال ذلك من خلال تعبيرات وجهه أكثر من الكلمات. لكن الحقائق العسيرة لا يمكن للأسف القضاء عليها في العالم ولو بهذه الطاقة الروحية كلّها.

الآن فقط لاحظت أننا كنا نتحدث الألمانية طوال هذا الوقت، روث بشيء من اللهجة الراينلاندية التي لم تكن قد تخلصت منها، بينما كان عليها أن تبحث عن بعض الكلمات، وقد تأثرت بذلك. أخذها الحماس، أرادت أن تقنعه فعلاً. كانت تعرف إلى أين يؤدي ذلك - صاحت - حين يقع الرجل في براثن أفكاره التي لا مخرج منها بحيث لا تستطيع حتى المرأة الأذكى والأحب إلى قلبه أن تخلصه.

سألها بيتر غوتمان كيف تستطيع أن تفسر لنفسها أن أكثر المفكرين الأفذاذ في زماننا، أولئك الذين كانت هي تجِلّهم جداً، كان تصورهم عن العالم الأكثر تشاؤماً؟

- مثل من؟

حسناً، سيغموند فرويد مثالاً.

أي نعم، فرويد! اعترفت بصحة ذلك. وقد كان بالفعل طبعاً

معلمها الروحي ومثلها الأعلى. لكنه - مع كل الرؤى المؤلمة التي فرضتها عليه الحياة - لم يستسلم للهزيمة وإنما استكمل العمل على تجاربه لعلاج الأرواح المأزومة. إذن فقد أثبت أنه لم يفقد الأمل. رجل كهذا رفع عن نفسه اليأس من البشرية من خلال حياته البطولية الخاصة. بينما غيره - توقفت روث، كأنها قالت أكثر من اللازم.

ألح عليها بيتر غوتمان أن تكمل كلامها. وقد أفصح لي لاحقاً أنه منذ تلك اللحظة كان قد أصيب بحالة توتر غير مفهومة. حسناً نعم - قالت روث - إنها كانت تعرف «مفكرين أفذاذاً» كما أسماهم بيتر غوتمان، لم يتمكنوا من تخليص أنفسهم من دوامة كلمة «العبث». ولا حتى من خلال أقصى مجهودات حبيباتهم حميميةً. كانت تعرف ذلك - قالت روث - من خلال صديقتها ليلي.

شيء لا يصدق - خطر لي - أذكر أنني فكرت: لا يصدق.

صديقتك؟ لكنها لم تكن حتى الآن مسار حديث - قال بيتر غوتمان.

كلا؟ قالت روث إن هذا خطأها. صديقتها ليلي، كان يتعيّن أن تذكرها من البداية. محللة نفسية. من برلين. حيث كان الزملاء الأعزاء تحت ضغط النازية يشهدون بلا اعتراض كيف كان المحللون النفسيون اليهود يُطرَدون من الجمعية المشتركة. كان عليهم الهجرة فجلبوا ثمرة التحليل النفسي إلى هنا في أمريكا. أما صديقتها التي لم تكن هي نفسها يهودية كانت قد عرفت أنه في ألمانيا النازية لن تكون هناك فرصة للتحليل. ولم تكن تريد أن تتخلى عن حبيبها اليهودي الذي هاجر بناءً على تحريضها إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

ما جاء حينئذٍ، ما حكته روث عن ليلي، عن حياتها، عن شخصيتها بدا لي كأنني أعرفه. من خطابات تلك السيدة «ل» التي

كانت في الملف الأحمر في مكتبتي. وحبيبها، الفيلسوف؟ سمعت بيتر غوتمان يقول. ماذا كان اسمه؟

كنت قد عرفته بالفعل - قال لي لاحقاً. لم يكن في الواقع ممكناً، لكنني عرفته بالفعل.

ذكرت روث الاسم الذي انتظره بيتر غوتمان.

ساد الصمت لبضع ثوانٍ، ثم قال بيتر غوتمان بصوت خفيض:

نعم. إنه هو.

كان هذا هو الرجل الذي كان يعيش معه منذ سنين.

كان يأسه يزداد - قالت روث - إذ يرى في الإنسان عيباً خلقياً، مصمماً حتى يكون لديه الاستعداد لأن يخاطر بوجوده من أجل مُتَع قصيرة الأجل. كان يشك في أن نزعة تدمير الذات موضوعة في خلايانا الوراثية.

مثل هذه المصادفات يمكن فقط أن يبتدعها المرء - خطر لي - لكن في تلك الليلة ملأني شعور بأنني على الطريق الصحيح تماماً كما لم يحدث لي منذ زمن. كل الأشياء كانت تتطابق ويصير لها منطق. ظننت أنني لاحظت الشعور نفسه على بيتر غوتمان، كان متحمساً وفضولياً.

في النهاية فحسب - وكنا بعد منتصف الليل - كانت روث على وشك أن تودعنا، فسألها بيتر غوتمان بصوت خفيض: وكيف مات؟ قالت روث: قتل نفسه. لم يبد بيتر غوتمان متفاجئاً.

افترقنا بسرعة، فجأة أحسسنا بالإرهاق الشديد. قلنا إننا سوف نزور روث. قالت إنها ربما تجد في أوراق ليلي التي تركتها لها حيث كانت تثق بها بعض خطابات من صديقتي إيما. اكتسبت الإقامة في

هذه المدينة ضرورة جديدة. جلست بضع دقائق إضافية إلى آلتي الكاتبة وكتبت:

غريب هو تأثير المفاجأة. يكاد يخجلني أنه كان يتعين عليها أن تغير مثل هذا المزاج العام بحيث يكون هناك مجال للبهجة. الآن فقط أدرك أنني لم أكن أؤمن بهذا.

خلدت للنوم، أخذ الشريط الصوتي في رأسي استراحة. كنت أكثر إرهاقاً من أن أقرأ أيضاً. حلمت بمساحة ماء هائلة لونها داكن كان عليّ عبورها. بدر كامل أحمر في السماء. صاح صوت: ألم تكتفي بعد؟ - أجبت: كلا! فلتضئ أيها القمر الصالح القديم، فلتضئ![1] سِرتُ وسِرتُ في المياه التي كانت ترتفع حتى ركبتي. لم يكن الشاطئ مرئياً، بدا مستحيلاً الوصول إليه أصلاً. حين صحوت قال لي صوت لا أميّزه: **مدينة الملائكة**. اعتبرت ذلك أمراً.

وبما أنه كان بوسعي أن أكتب لساعات طويلة أثناء اليوم، وإنما ليس ساعاته كلّها، وكان من الضروري ملء الوقت المتبقي، وبما أنه لم يكن بوسعي بأي شكل أن أهدر الوقت ببساطة، فالوقت كان موجوداً دائماً، لا ينهزم، ولا يتأثر. بما أنني كنت بحاجة إذن إلى ما يُسمّى تحويل الانتباه الذي لا يُعتدّ به عن غير حق، فقد فضلت الذهاب مرة أخرى إلى مون كي في البلدة الصينية. جلسنا عشرة في

(١) استشهاد مقتبس من كتاب حكايات الأطفال: «رحلة بيتر الصغير إلى القمر» للكاتب جيرت باسيفيتس.

الحجرة البسيطة حول الطاولة الكبيرة المستديرة التي امتلأت بعد قليل، بعد أن شربنا كوب الشاي الأول وأكلنا رقائق الربيع في عشرة أطباق بيضاوية، وسرطان البحر بكل أشكاله وتتبيلاته المتنوعة. تمسك فرانشيسكو بسمكه الحلو- الحامض، كانت بينتوس تميل إلى طلب اللحم البقري، وبقيت أنا على البطة المحمرة المقرمشة، دارت أطباق الأرز، ولم تكفِ بالطبع زجاجة بيرة لكل شخص، أدرنا الصينية الكبيرة التي كانت في الوسط وتبادلنا تذوق كل الأطباق. كانت ريا ترتدي قرطاً جديداً اشترته من سوق باسادينا الشعبي، اشتكت إيناس من عدم قدرة فرانشيسكو على الحسم بشأن المكان الذي سيقضي فيه السنوات القادمة، في أيطاليا أو ربما هنا حيث عاش وشَيّد فرانك غيهري[1] الشهير الذي أراد أن يكتب عنه، أما بات فقالت إنها تشاجرت مع صاحبة البيت وسوف يكون عليها أن تنتقل إلى سكن جديد مرة أخرى. ولم يعرف هانو بعد أي النقاط يجب أن يركز عليها في بحثه، كانت بينتوس قد انتهت أخيراً من قراءة تصحيحات كتابه عن روح العصور الوسطى القديمة. كان لوتس قد تلقى خبر قبوله لمنصب أستاذ جامعي الذي تقدم له في فرانكفورت، وقد أسعدنا ذلك، وكان لا بد أن نتبادل الأنخاب معه هو ومايا من أجل هذا. أما بيتر غوتمان الذي جاء معنا لأول مرة تحدث لأول مرة أمامنا جميعاً عن فيلسوفه ومصيره.

---

(١) **فرانك غيهري**: اسمه الحقيقي **إفرايم غولدبرغ** وهو مهندس معماري كندي أمريكي يهودي ولد في تورنتو - كندا، ويعيش ويعمل منذ عام ١٩٤٧ في كاليفورنيا بالولايات المتحدة الأمريكية. يعد واحداً من أهم المعماريين المعاصرين، ويُعرف بمنهجيته النحتية والعضوية في التصميم.

بعد حوالي أربعة أو خمسة أشهر سنكون كلنا مبعثرين في جميع أنحاء أوروبا، ربما لا نلتقي ثانيةً أبداً، إلا أن المحبة التي كانت تجمعنا لم تكن وهماً. كنت أعرف أن الجزء الذي أظهرناه بعضنا لبعض لم يكن فيه أي رياء، كنا نستمتع أننا لا نعرف بعضنا عن بعض إلا القليل حسب ما نودّ أن نتبادله من الحكايات، كنا فرحين بشبكة العلاقات التي كانت قد نشأت. لاحظت أن الهدوء قد خيّم على الطاولة وأنني نطقت بما كنت أرغب في التفكير فيه فحسب. الحقيقة أننا فريق ممتاز. ثم جاءت الكعكات الصغيرة التي كانت أوراق الطالع مخبوزة بداخلها. فتحناها: "You are open and honest in your philosophy of love" (أنت منفتحة وصادقة في فلسفتك عن الحب).

وفي اليوم التالي، أو في أحد الأيام التالية، جلست مع بوب رايس في مطعم غلادستون، كان قد دعاني إلى العشاء - "how are you?" (كيف حالك؟) - سألني عندما حيّاني، فقلت: "It is very hard" (صعب جداً)، فأجاب: "I know" (أعرف)، ثم قال ما بعثني على الضحك: "I am proud of you" (إنني فخور بك). غلادستون مطعم عملاق على المنحدرات، حيث يكاد روّاده يسقطون بشكل رأسي في البحر، هنا كان بوسع مئات الأمريكيين تناول الطعام مع عائلاتهم في الوقت نفسه، على طاولات خشبية كبيرة، بكميات هائلة، معظم الذين يأكلون يمتازون بالبدانة حتى الأطفال. طلبنا كأس المارغاريتا الأساسي بالنسبة إليّ، والذي كان أفضل في أماكن أخرى، ومعها الروبيان مع جوز الهند. قال بوب: الهامبرغر جيد هنا.

لم يتوقع بوب أن يكون الصوت عالياً هكذا لأن الجميع كانوا يصرخون، وأنه كان علينا نحن أيضاً أن نصرخ. كان قد حضر معي

إلى هنا ليحكي لي كيف ساعده أحد كتبي بالذات على الاعتراف بتوجهه المثلي. كان عليه أن يعقد يده مثل مكبر الصوت لكي يصيح بجملة الاقتباس من كتابي ولكي يوضح لي مدى بشاعة أن يكون على المرء أن يخفي جزءاً من شخصيته، حين يتعين عليه الاختباء دائماً، ومدى الارتياح حين لا يفعل ذلك أخيراً. يخطر لك - صاح بينما صارت الآن قائمة المأكولات ملفوفة كمكبر صوت أمام فمه - يخطر لك أنك إذا كنت قد قلت هذا فيمكنك قول كل شيء، ثم تشعرين بالحرية.

الأمهات والآباء السّمان لم يجدوا حرجاً في إضافة بعض الضوضاء إلى الضوضاء العامة. كانت الكميات التي يلتهمونها لا تصدق، شرائح لحم عملاقة، أبراج من النقانق، هامبرغر بحجم أكبر من كف اليد، وكل ما يتمناه الأطفال يُقدّم لهم. لكن بوب بدا أنه لا يكاد يلاحظ، كان يحكي لي عن صديقه، عن حياتهما المشتركة، ذكر أسماء رجال مرموقين كانوا مثليين، وصاح لي بما لم أفسر كل كلمة منه، كم كان سعيداً حين وجد لدى زوجته بعد وقت طويل عصيب قدراً من التعاطف الإنساني، وأن أبناءه كانوا يحبونه ويأتون لزيارته.

جلسنا على مقربة شديدة من البحر، كانت الشمس قد هبطت لتوها في حقل من الضباب. أترين الشعاع الساطع في الأفق - قال بوب - هذا هو أكثر شيء أحبه. تمدد ضوء رمادي نَدُر أن يظهر هنا. استمر صوت الضوضاء يعلو حولنا.

بوب الذي استمع إلي وأنا أقرأ فيما يشبه «اختبار الكفاءة» كان قد أحضر لي معه قصيدة أراد أن يقرأها عليّ، لكن ذلك كان مستحيلاً وسط كبسولة الضوضاء تلك، فخرجنا إلى الشرفة الخشبية حيث الرطوبة والبرد والظلام وحيث كنا وحيدَين. جلسنا قريبين على مساحة

الأرض التي كانت تفصلنا عن البحر، لم يكن أي شيء مسموعاً سوى هدير الأمواج المتكسرة التي راحت ترشنا برذاذها. كانت الريح قد أخذت تشتد، قرأ بوب - صارخاً مجدداً - القصيدة التي كان موضوعها مسامير الصليب والتي كتبتها الشاعرة الإنجليزية إيديث سيتويل عام ١٩٤٠:

ما زال يهطل المطر-
قاتماً مثل عالم الإنسان، أسود مثل خسارتنا -
أعمى مثل المسامير الألف وتسعمئة وأربعين فوق الصليب.

نعم - قلت - مسامير الصليب ترِدُ في نصي.

فرض المساء نفسه عليّ. ولكن ما الذي سيبقى لي من يومي الحالي؟ أن الربيع قد جاء ثانيةً في كامل بهائه؟ أن السؤال عمّا إذا كان ذلك هو آخر ربيع أو من آخر فصول الربيع لي يستتر وراء كل نظرة؟ أن إعلان مقتل عشرات الآلاف من العراقيين وآلاف الجنود الأمريكيين في السنوات الأربع الماضية لا يبدو أنه يفزع أحداً؟

إنه لتصوّرٌ مرعب أن يملك المرء موهبة استقراء المستقبل.

لكن وقتذاك كانت تلك الموهبة مطلوبةً. كنت متهورة بما يكفي حتى أنني أطلعت أصدقائي - «العصابة» كما صرنا نسمي أنفسنا، تيريزه ومارغري، وأيضاً توبي - على بطاقات قراءة طالعي.

التقينا بالخارج عند الميناء الجوي الخاص، حيث أقام مانفريد - صديق جين الفنان الألماني - مرسمه في مهبط طائرات لم يعد مستخدماً. كان ذلك أحد تلك الصباحات التي تخطو سماؤها إلى المساء بسحر غريب. خرجت من جهاز مانفريد أغاني موسيقى الريف

(الكانتري)، كان الشواء قد أعد بالخارج، كانت تلك رائحة شواء النقانق. كانت زجاجات النبيذ والبيرة قد أُحضِرت، من المطار القريب حلقت الطائرات الخاصة. إنهم الأغنياء - سمعت - الذين يطيرون في المساء من مكاتبهم في لوس أنجلوس حيث يجمعون أموالهم إلى سان دييغو أو ماليبو حيث توجد فيلاتهم التي تشبه القصور.

أصدقاء الأصدقاء جاءوا وذهبوا، تمت استضافتهم وإدماجهم في الأحاديث، ألقوا عليّ التحية من دون إظهار فضول مزعج، بعضهم استطاع أن يغني إحدى الأغاني، وكان يتم تقييم منحوتات مانفريد المعدنية.

أترين - قال مانفريد - هذه أمريكا بالنسبة إليّ. عندما يكون المرء قد عاش هنا فترة فقد يصل إلى النقطة الحرجة، حيث يكون قد فوّت على نفسه فرصة القفز خارجها فلا يعود يستطيع العودة إلى أوروبا. قال إن ذلك قد حدث له. كان قد سافر في العام السابق - من باب التجربة - إلى ألمانيا، كان عليه أن يتقبل الأمر. بالتأكيد لا تصل العلاقات مع الأصدقاء هنا إلى درجة عالية من العمق، بالتأكيد يتحرك المرء هنا أحياناً في مياه ضحلة، لكن هذه البساطة تكون أحياناً مريحة بالمقارنة بهوس الألمان بتعقيد كل شيء.

سألت نفسي متى كنت قد سمعت عن أمريكا لأول مرة ومن مصدر مباشر. سألت مانفريد: أتعرف ليونارد فرانك؟ لم يكن يعرفه.

ترينه جالساً، شعره أبيض، نحيفاً، مستقيماً وفي الوقت نفسه عفوي الملبس، آتياً من أجل كتاب كان قد صدر عن دار نشر في ألمانيا الشرقية إلى ميونيخ بصحبة مجموعة من زملائه، معظمهم ألمان شرقيون كانوا قد قضوا مثله وقتاً طال أو قصُر في أحد بيوت الكتاب على إحدى بحيرات براندنبورغ. كانت الدولتان الألمانيتان قائمتين

بالفعل، لكن من دون الحائط، ولا القيود على السفر، وإنما كان في الجمهورية الألمانية نقص في النقد الأجنبي، فكان على الألماني الغربي أن يستعيض عن أجره عن الكتب الصادرة في الجمهورية الألمانية الديمقراطية الذي يصعب دفعه بالنقود الغربية بإقامةٍ طويلة هنا. لم تكن الدولة الغرب ألمانية لتهتم بكُتُب ليونهارد فرانك، بقدر عدم اهتمامها نفسه بكتب هاينريش مان وليون فويشتفانغر وآنا زيغرس. كنتم تعرفون أنه كان قد عاش كمهاجر في الولايات المتحدة الأمريكية، ورحتم تمطرونه بالأسئلة، حكى عن طيب خاطر لكنه اكتفى بالحكايات الطريفة. حين دخلت زوجته شارلوت الغرفة أشرق وجهه ولم يرفع نظره عنها. كانت ممثلة وكانت - كما حكى لكم - قد شاركت بالتمثيل في أحد المسلسلات التلفزيونية الأمريكية كبطلة أصيبت بمرض السل إلى أن ماتت في النهاية، وقد أغرم بها الجمهور. ولكي تجيد تمثيل المرض بمصداقية كانت قد استعانت بأحد الأطباء ليشرح لها كيف يسعل المصاب بمرض رئوي. بعد موت شخصيتها المفضلة انتظر منها الجمهور أن يكون بوسعه توديعها علنياً. أصر المنتج على أن توضع شارلوت كجثة على خشبة المسرح حيث يتمكن الجمهور من التوافد عليها. استلقت شارلوت متصلبةً جامدة تفكر طوال الوقت فيما يشبه التعويذة: مئة دولار، مئة دولار. كان ليونارد فرانك معجباً بكل دور من أدوارها، وبكل كلمة كانت تقولها.

خلال شهوره الأولى في لوس أنجلوس كان - حين لم يكن ضرورياً أن يقضي وقته في الاستوديو - يثبت نظره على المحيط من على دِكّة في حديقة أوشن بارك جالساً من دون حركة. حين سأله أحد معارفه عمّا كان يراه حينئذٍ كان قد قال: هنا تقع أوروبا. ولكن كلا - تم الإيضاح له - هنا لا تقع أوروبا، هنا تقع اليابان. فهز رأسه

وذهب. قلت: وأنا كان عليّ أن أفكر في ذلك مراراً حين أجلس في حديقة أوشن بارك، ربما على الدِّكة نفسها التي كان يجلس عليها آنذاك.

وهكذا إذن، لأكثر من خمسة عشر عاماً بعد ذلك أجد في سيرة حياة ليونارد فرانك «يساراً حيث يوجد القلب» وصف هذه الحالة التي يضع فيها المنفى المهاجرَ: *الآن لم تعد هناك رجعة. هذا الوعي المعطِّل رافقه طوال سبعة عشر عاماً يوماً بعد يوم، . . . أنه لم تعد هناك رجعة إلى ألمانيا، إلى ورشته، إلى حياته، إلى مناظره الطبيعية، التي كان ذات يوم يشعر أنه جزء منها . . . . حياته لم تعد حياته. انشطرت في المنتصف إلى شقين.*

قال مانفريد: نعم. إنه يتفهم أن المرء يمكن أن يصاب بالحنين إلى القارة القديمة. لكن جين هنا، وهو لا يستطيع أن يقتلعها ليأخذها إلى أوروبا. رأيت النظرة التي رمقته بها جين، رأيت أنها تعلقت به، فاجأني وأسعدني ذلك. أكلنا وشربنا وتنقلنا بين المجموعات المختلفة. جاءت جين إليّ وقالت إنها لم تكن تتصور أن تجد مرة أخرى إنساناً يمثل كل هذه الأهمية في حياتها مثل مانفريد. سألتها: لِم لم تستطيعي تصور هذا؟ قالت: سوف أحكي لك هذا لاحقاً.

وقد حكت لي ذلك في ذلك المساء نفسه. عندما حل الظلام انطلقنا، لكننا لم نكن بعد نريد أن نفترق، فتواعدنا لقضاء الليلة عند توبي في فينيسيا، وزعنا أنفسنا على مختلف السيارات، وجلست أنا بجانب جين في سيارتها. سرنا برهة على الطريق السريع صامتتين، ثم أحسست مجدداً أن ذلك السير في الظلام على الطرق السريعة كان يوقظ الرغبة في تبادل الأحاديث. أرادت جين أن تعرف إن لم أكن أظن أن مانفريد يناسبها لأنهما مختلفان جداً. قلت إنني سابقاً كنت

لأظن ذلك، لكن بعد أن رأيتهما معاً لم أعد أفعل. قالت جين إنها هي نفسها لم تكن تعرف أن هذا تحديداً ما كانت تحتاج إليه. وإنها حتى ذلك الحين لم تكن عرفت سوى العلاقات المعقدة بين البشر، تحديداً بين البشر القريبين بعضهم من بعض. قالت إنني لا شك أعلم أن والديها ألمانيان يهوديان نجيا من مختلف معسكرات الاعتقال، وأنهما التقيا في أحد مخيمات النازحين بعد الحرب. كانت لوالدها أسرة قبل ذلك، زوجة وابنة كانتا قد قُتِلتا. أظن - قالت جين - أنه لم يكن بوسعه أن يحبني حقاً أبداً. كان دائماً يرى في الخلفية ابنته الأولى المقتولة. أيمكنك تصوّر ما يعني ذلك بالنسبة إلى طفلة؟ قالت إن التصوير الفوتوغرافي ساعدها أن تجد الطريق إلى نفسها، والغريب أن ذلك حدث من خلال تركيزها عبر الكاميرا على أناس آخرين بحيث تستطيع تجاهل نفسها تماماً.

أتذكر كم شعرت بالسعادة لكوني قابلت جين.

كانت حجرات توبي في بيته الصغير في فينيسيا قد تم إخلاؤها. رأيت كيف صُدِمت تيريزه لذلك. ألم يكن أحد قد أخبرها أن توبي يريد أن يقطع أوصال الماضي ويرحل إلى المكسيك؟ في أحد الأركان كانت نماذج البيوت التي قام بتصميمها. أعمال يدوية مبتكرة دقيقة الصنع من الأخشاب الرقيقة لم يقبل أحد عرضها كالعادة - قال توبي ببعض مرارة. وإن عليه أن يجرب حظه في مكان مختلف تماماً. تناولنا النبيذ والمكسرات، ثم كان عليّ أن أخرج بطاقات قراءة الطالع. كان على كلّ واحد أن يهمس في أذني بالسؤال الذي يودّ أن يطرحه على البطاقة. تأكدت من الجميع أنهم لا يؤمنون بالبطاقات. أن ما نفعله هنا هو مجرد لعبة. خلطت البطاقات ثم بدأنا.

فاجأني أن توبي أراد أن يعرف إن كانت علاقته بأبيه سوف تتحسن

مرة أخرى. وضعت البطاقة المطلوبة ووجدت ذَكَرين بعيدين أحدهما عن الآخر يسير كلٌّ منهما باتجاه الآخر. بدا توبي فرحاً بهذا الفأل، لم يكن يصدق أبداً أنهما سيحتفظان بعداوتهما إلى الأبد، وأنا لم يطاوعني قلبي لأكرر: إن هذه لعبة يا توبي، إنها لعبة!

أما تيريزه فأرادت أن تعرف في أي قارة سوف تجد سعادتها، فقالت البطاقات إنها ستبقى غير مستقرة وإن هذا ما سيضمن لها السعادة. أو على الأقل المثابرة. تحيرت تيريزه واتكأت على توبي.

أردت أن أمنع جين من أن تثق هي الأخرى بالبطاقات. أردت أن أقول لها: أنت لا تؤمنين بالخرافات. لكنني لم أكن أعرف الكلمة - "superstitious" - فقلت: لا تؤمني بالبطاقات، أرجوكِ يا جين! قالت: "Certainly not, don't worry!" (لا بالتأكيد، لا تقلقي!). لكنها أصرت أن عليّ أن أسأل البطاقات لها هي أيضاً. أرادت أن تعرف إن كان من الممكن أن يقع أحد في حبها، وأنا لعنت طيشي وامتثالي، إذ بدأت هذه اللعبة. خلطت لها الأوراق طويلاً، عازمة بقوة على انتزاع الإجابة الصحيحة، وقد حالفني الحظ: على البطاقة الأخيرة- التي طغت على البطاقات الأخرى جميعها - ظهر العالم الذي سوف سيزوِّد حياة ذلك الرجل أو المرأة التي يكون من نصيبها بلا شك بوفرة من الحب، حب ستستشعره وتنميه. كان هناك الكثير الذي يمكن قوله في ذلك فيما يتعلق بجين. سألتها: راضية؟ قالت: "Thank you" (أشكرك). ولم أكن أعرف: هل كانت قد كشفتني؟ هل أرادت أن تصدق البطاقات؟ أدركت أنه صارت لي سلطة حتماً على الآخرين، وقررت ألا أفتح بطاقاتي لأحد مرة أخرى.

حتى طرق بيتر غوتمان بابي بعد أيام قليلة وطالبني من دون مواربة أن أكتشف له عن طريق البطاقات ما العمل حين يحب المرء

شخصاً بينما يكون كل أمل في إمكانية العيش معه محض وهم. لم أعد أعرف ما هي الألاعيب التي استخدمتها لدفع البطاقات إلى تلك النتيجة التي كنت أطمح بها منذ البداية: التسامي - قلت - يجب أن تجعلوا مشاعركم تتسامى.

قال: أي نعم يا سيدتي.

بالمناسبة فقد كانا بالطبع قد خالفا نذرهما منذ فترة طويلة فيما يخص رغبتهما في قطع اتصالاتهما الهاتفية. كانا يتواصلان بكثافة لكن ذلك لم يجعلهما أسعد. لم يكن هناك شيء يقال في هذا.

سألني عن «ظروفي». عما إذا كانت قد انقضت. قلت: ليس بشكل كامل. فأظهر استنكاره. سألني إن لم يكن بوسعي أن أرتضي بنفسي كإنسان عادي، له عيوب وأخطاء مثل الجميع. قال: بحق الرب، فلتتوقفي عن ذلك! فأنت لم تؤذي أحداً.

بلى - قلت بعنادٍ - آذيت نفسي.

بمَ يتعلق الأمر أصلاً؟ يتعلق بأن يكون واضحاً بالنسبة إليّ أن هذه الظروف تنقضي. بحكم الخبرة، حتى وإن لم أكن أستطيع أن أصدق نفسي بشأن ذلك الآن. سيأتي وقت يكون فيه من الصعب عليّ أن أتذكر.

أردت أن أستغني ولو مرة عن الأقراص المنومة. كوب من الحليب الدافئ قد يكون جيداً الآن. قمتُ وأعددت لنفسي كوباً من الحليب الدافئ بالعسل. كان الظلام لا يزال مخيماً إلا أن العصافير قد بدأت بحفلها الموسيقي الصباحي. من قال، أو أين كُتِب أنه يتعين عليَ أن أشارك بالتفكير في الأفكار التي تدور في رأسي دائماً؟ جوفاء،

كانت هذه هي الكلمة الصحيحة. كنت جوفاء. الآن اشربي هذا الحليب على جرعات صغيرة - قلت لنفسي - والآن استلقي مرة أخرى. الآن أنا متعبة. الآن جاء المشرد الذي كان يبحث عن الزجاجات في صندوق القمامة كل صباح تحت نافذتي. سمعت رنين الزجاج، ثم لا شيء.

“How are you today?” (كيف حالك اليوم؟) مصعد كامل مكدس بأناس أبرياء ليس لديهم علم بشيء. “O thank you, I am fine. That’s wonderful” (أشكركم، أنا بخير. هذا رائع). كان أحد قد حكى لي إن موظفات هذا المبنى الإداري ينتظر منهن أن يبدلن ملابسهن كل يوم. لاحظت كيف بدأت في الالتزام بهذه القاعدة. حسناً هل كنت قد جننت؟ تحدثت في مكتب السكرتارية مع كيتشن. قالت إنها كانت تحاول مراراً القذف برسائل الفاكس تلك التي تأتيني من أوروبا في ماكينة فرم الأوراق. لم يسعني إلا أن أضحك على ذلك. كنت قد قلت لها إن عليها أن توقف البحث عن «ل»، وحكيت لها قصة ليلي. وضعت حزمة الأوراق - التي كانت موضوعة مجدداً في أحد الأدراج - في حقيبتي من دون أن أطلع عليها.

ذهبت إلى شارع ثيرد ستريت وأكلت شطيرةً. اشتريت لنفسي واحداً من تلك القمصان الحريرية الرخيصة. لدى العودة إلى المنزل كنت قد سمعت جرس الهاتف يرن وأنا على الدرج. ظل يرن ويرن بلا توقف، ثم كان ذلك الصوت المضطرب من برلين. أين أنت بحق الجحيم؟ حاولت مراراً وتكراراً ولم أستطع الوصول إليك. - لكن أنا لم أذهب إلا لتناول الغذاء. - حسناً. كنت قد فكرت أنه لم يكن يتعين عليّ أن أرسل إليك ذلك المقال. - أي مقال؟ - مقال غير مريح على الإطلاق من شخص لم تكوني لتنتظري منه ذلك. - ذكر

اسمه. - لم أقرأه بعد. - إذن دعيه، أتسمعين؟ لا تقرأيه. لم يكن يتعين عليّ أن أرسله لك. - آهٍ أتعلم: المبالغة مبالغة. - حسناً تماماً. لكنني لم أستطع الوصول إليك، وقد بدأت فعلاً أتصبب عرقاً، تعلمين؟! - إذن اسمع، مرة واحدة وإلى الأبد: لن يحدث لي شيء. لا يوجد أي خطر هنا. - هذا جيد. كان ذلك سخيفاً حقاً. فكرت هكذا فقط بسبب ذلك المقال اللعين. - كلا، لا تفعل تحديداً بسبب ذلك المقال اللعين. اخلد إلى النوم. أليس الوقت عندك بعد منتصف الليل؟ - نعم، فعلاً. الوقت عندي بعد منتصف الليل. - عندي في المقابل الساعة الرابعة بعد الظهر. إنه أمر يصعب الاعتياد عليه، ألا تعتقد؟ - نعم أعتقد ذلك أيضاً، إنه أمر يصعب الاعتياد عليه. - تصبح على خير.

أما المقال فقد قرأته بعد أيام، على جرعات صغيرة. كانت تلك هي الجرعة الزائدة، وقد انتظرت رد فعلي، فكاد لا يحضر على الإطلاق. فهل بدأت بشكل ما تكوين حيل دفاعية؟

أعرف أن الأمر يكاد لا يصدق، لكن كانت هناك طيور وردية، وردي داكن، طائر من تلك كان قد وقف على طرف السطح المقابل لنافذتي في الصباح الباكر.

لأيام تأرجحت بي هذه الأرض الثملة كأنما وقفت على سن إبرة.

كانت لفندق ميس فيكتوريا حياة سفلية. حين كنت أستقل المصعد إلى القبو لأستخدم الغسالات، كنت أقابل فرقة النظافة أحياناً، تقريباً كلّهم من اللاتينيين، ما عدا أنجلينا التي كان أصلها من أوغندا. هنا بالأسفل يكونون بمفردهم وعلى حريتهم، كانوا يخرجون شطائرهم ويشربون القهوة في أكواب ورقية، يتندرون على بعضهم وربما أيضاً علينا، يضحكون بصوت عال لحدّ الصياح، بالكاد كانوا

يأبهون بي. الآن كانوا لا يزالون معاً يستعرضون صوراً لأبنائهم ويضربون على أفخاذهم وكانت لديهم مسرّات ومشاعر لم أكن لأشاطرها أحداً أبداً، وكانوا - ما داموا هم في هذا العمل البائس - يتمتعون بحريتهم كما لم أكن أنا لأفعل أبداً، هكذا خطر لي، إنهم لم يعبأوا بما يحدث بالخارج في هذه المدينة. لم يكن قد مرّ على مجيئهم أكثر من ثلاثة أو أربعة أعوام هنا، ربما ليس جميعهم بطريقة شرعية، كانوا يعرفون من الإنجليزية الضروري الذي لا يكاد يُفهم، لم يشاركوا في الانتخابات، وليحكم من يريد. كانت حياتهم قاسية لدرجة لا أستطيع حتى أن أتخيلها، لكن الآن، خلال ربع الساعة تلك في منتصف يوم عملهم، جلسوا هنا وكانوا معاً منشرحي الصدر غير عابئين بممر القبو المتسخ الخانق ولا بالسيدة البيضاء التي مرت حاملة حقيبة غسيلها والتي سوف يظهرون لها بعد ذلك بساعتين - حين يأتون إلى شقتها لتنظيف الأحواض وكنس الأتربة - أنهم يحرصون على صلاح أحوالها.

شعرت بجاذبية النهاية، عليّ أن أقاومها وأن أدع كل ما كان محل صمت أو كان مسكوتاً عنه حتى الآن يعلو بداخلي ويخرج، وأن أنقله على الورق. «جاذبية النهاية»، الآن ألاحظ المعنى المزدوج لهذا المجاز. لكنني أتركه مكتوباً برغم أنه - أو لأنه - أيضاً بمعناه الآخر ينطبق على جاذبية نهاية الحياة وليس نهاية هذا النص فحسب.

دائماً ذلك الابتهال نفسه، على القنوات كلّها - قلت لبيتر غوتمان الذي قدت به السيارة مرة أخرى عبر لوس أنجلوس ورحنا نستمع إلى الإذاعة. أنا أيضاً لم يكن باستطاعتي بعد أن أتوقف عن ابتهالي.

قال: من المؤكد أنه واضح بالنسبة إليك أنك كنت لتُخرِجي نفسك من الجملة الختامية بصياغة جيدة لتفسير الحسرة. تمسكي

بأصدقائك. فإذا لم ينفعك أي صديق، فلماذا لا تتمسكين بأعدائك. لِم لا تتمسكين باحتقارك لأولئك الصحفيين الذين قالوا لك صراحة إنهم لم يستطيعوا الوفاء بمسؤوليتهم في تحري الدقة، حين عرفوا أن منافسيهم سوف ينشرون الخبر؟ أنه كان عليهم حينئذٍ استغلال السبق فوراً؟ الكراهية أيضاً يمكنها أن تجعل المرء قوياً. عليك فقط أن تصدقي هذا.

- أنت تتحدث عن الكراهية يا سيدي؟

لم يرد بيتر غوتمان على ذلك. أراد أن يعرف لماذا لم أغضب بعد، بحق السماء.

قلت: لم يخطر لي هذا بعد. أتساءل إن كان كل شيء بلا جدوى.

أتشكين في هذا؟ كل شيء كان بلا جدوى، وكله كان محتماً.

قلت: إنك تجيد المواساة. - فقال نعم، إنه يستطيع ذلك إذا كنت مصرة على هذه الكلمة. أولم يكن من المواساة معرفة: أننا لسنا الأوائل؟ ولسنا أيضاً الأواخر؟

نحن مخلوقات غريبة الأطوار، أليس هذا صحيحاً؟

"Right, Madam" (صحيح يا سيدتي).

ثم طلبتُ منه أن يلتفت ويراقب الشمس كيف كانت تهبط في البحر عند أقصى نهاية طريق ويلشاير بوليفار، وقد تجاوزَت الشبر الأخير من الأفق كعادتها بسرعة لا تصدق كأنها تقرر إعطاء نفسها في هذا الجزء دفعة أخيرة، هذا هو ما كان قد حدث مجدداً، ثم خيم

الظلام حينئذٍ بسرعة، وقد خطر لي أنني لا أريد أن أعيش على المدى الطويل في بلد لا يعرف الغسق. قلت لبيتر غوتمان إنني متعلقة بغسق الشمال، ثم التزمنا الصمت بقية الطريق ووصلنا أيضاً بعد قليل عند روث التي كانت قد وجهت لنا الدعوة.

أرادت أن تتحدث معنا عن ليلي، وأن تُرِيَنا بعض الأشياء.

الآن - بعد عدّة سنوات - ازدادت دهشتي: هل كنا ثلاثتنا فعلاً نتصرف وكأن التقاءها في هذا المكان لذلك السبب هو المسألة الأكثر بديهيةً في العالم؟ لا أكاد أريد أن أصدق هذا. هل عبّرنا من قبل - أنا وبيتر غوتمان - عن دهشتنا القلقة من تلك الوفرة المذهلة من المصادفات الأكثر غرائبية على الإطلاق والتي كان لا بد أن تأخذ مجراها لكي تجد بعض الألغاز التي كان كلٌّ محمّلاً بها حلاًّ لها هنا. أم أننا كنا قد تعودنا إلى هذا الحد على الظروف النفسية الشاذة بحيث عشنا من دون شكّ أن تكون ما زالت هناك أي معجزة خيالية بوسعها أن تخرجنا عن المسار؟ هل كان الأمر كذلك؟ إذا لم يكن كذلك فقد تعيّن عليّ أن أبتدعه.

أن تكون روث قد أعدت لنا محتويات صندوق خشبي فيه أوراق ليلي. أنها قدمت لنا الشاي والكعك لأن كرم الضيافة اقتضى ذلك. أننا شربنا الشاي وأكلنا الكعك رغم أننا في قرارة أنفسنا كنا ننظر إلى الصندوق الخشبي الذي كان على طاولة جانبية فحسب. كان صندوقاً بسيطاً مغلقاً بمزلاج، يبدو أن روث كانت قد تسلّمت فيه سلعةً ما من إحدى شركات الشحن. كان - حين فُتح أمامنا أخيراً - يحتوي على بعض الأوراق بشكل أساسي.

كانت ليلي قد رتبتَ أشياءها بعناية قبل وفاتها. بما أنه لم يكن لديها أبناء ولا ورثة كان عليها أن تعتني بتركتها بنفسها، كما قالت

لروث. كانت ليلي سيدة لا تعرف الإشفاق على الذات، حسها الفكاهي غليظ، بالمخالفة تماماً لفيلسوفها الذي ظل حبيبها لمدة أربعين عاماً. قالت روث إنها لم تحسب ذلك سوى مؤخراً. لم تقصد القول إنه لم يكن هناك أي رجل آخر قد خطا فوق عتبة ليلي، فقد كانت امرأة جياشة المشاعر، لكنها كانت قد قالت لها مراراً وتكراراً إنها وجدت بين مليارات البشر على هذا الكوكب هذا الرجل الواحد الذي كان مقدراً لها بالتأكيد. ولم يكن ليتسنّى لها أن تَعجَب بما يكفي لهذه السعادة.

الفيلسوف؟ آه.. ذاك! كلا، ما عدا زوجته دورا التي كانت نموذجاً للصلابة وليلي فلم يكن على علاقة بأي امرأة أخرى، كما أنه لم يكن بحاجة إلى ذلك. وسواء كنا نصدق ذلك الآن أم لا: لم يكن بين السيدتين أي بوادر للغيرة.

ألهذا الحد صارت ليلي تابعة بشكل كامل لحب هذا الرجل؟ سألت بشيء من العنف غير المقصود. كلا البتة! صاحت روث. إنها لا تتصور أي امرأة أخرى أقل استعداداً للتبعية من ليلي. كان الشرر يتطاير أحياناً بينها وبين الفيلسوف. كانت كثيراً ما تقول لنفسها إن أسوأ ما يمكن أن يكون في المنفى بالنسبة إلى إنسان مثل ليلي هو أن تضطر للانخراط في نوع من التقليد الأعمى من أجل الرغبة في مجرد البقاء على قيد الحياة. أم أننا لم نكن قد لاحظنا بعد كم يميل المجتمع الأمريكي أكثر فأكثر للمحافظة؟ هذا أيضاً ما كانت ليلي قد فتحت عينيها عليه. قبلها كانت تؤمن حقاً بالخطاب النقدي الحر الذي كانت الصحف الأمريكية تروّج له. كانت ليلي تجري اختباراً - قالت روث - على كيفية رد فعل من تحادثه حين تذكر - بشكل عابر طبعاً - كلمة «شيوعي».

أنت أول أمريكية - قلت - تنطق بهذه الكلمة وكأنها كلمة متداولة في الحياة اليومية. - فلنبق منذ الآن على كلمة «أنتِ».[1]

هذا ما علّمتني إياه ليلي وفيلسوفها - قالت روث - لقد أثبتا لي، مدى الجبن الذي التف به جميع الأمريكيين - جميعهم تقريباً - حول هذه الكلمة. وإنهم، بل إننا، نفصل أنفسنا بأنفسنا عن حقل هائل ذي تداعيات كبرى من الفكر والواقع الأوروبي، ونفرض على أنفسنا أحد المحرمات الكارثية إذ نعتبر الشيوعيين كلهم مجرمين. منذ ذلك الحين وأنا أسأل عن أعمال بعينها، عن كُتّاب بعينهم، عن أسماء بعينها. وإن ذلك يساعدني بالمناسبة - رغم أنني لم أكن لأظن ذلك - في جلسات العلاج مع المرضى.

كيف ذلك؟ - أراد بيتر غوتمان أن يعرف - بالتأكيد أنت لا تودين تسريب الأفكار الشيوعية إلى مرضاك، أليس كذلك؟

بحق السماء، كلا، قالت روث. وإلا لما بقي لها مرضى. ولكن إنه لأمر عجيب كيف ينكشف حجاب أفكار ومشاعر الآخر عندما يقوم المرء باختبارها من داخل ذاته. حسناً: يختبرها إلى حد ما.

كنت أنا الوحيدة بين ثلاثتنا - كما فكرت - التي كانت قد عرفت شيوعيين حقيقيين. في البداية كنت أستطيع أن أعدّهم واحداً واحداً على أصابعي. تذكرت أن الأوائل كانوا نماذج وشائعات. تجلى لك وجه مربيتكم آنيليزه، التي حكت لك، أنت الطفلة، كيف بكت عائلتها حين اضطر الشيوعيون في بلدتكم أن يحرقوا أعلامهم علناً في ميدان مولتكه بعد انتصار النازيين. حسناً، فهل كنتم أنتم شيوعيين؟

---

(١) أنتِ: تقصد هنا أن ترفعَ التكلّف وتخاطبها بالصيغة الحميمية في مقابل صيغة الاحترام الرسمية.

سألتها بتشكك. نعم، قالت إنهم كانوا شيوعيين. أما الشيوعي التالي فكان جاراً لنا، سائق عربة الجعة - إن كنتِ لا تزالين تذكرين جيداً - الذي لم يكن بوسعك سوى التقاط بعض الشائعات مما كان الكبار يتهامسون به عنه. نعم، كان قد عاد من المعتقل، إلا أنه كان عليه أن يوقع ألا يحكي شيئاً، وقد كان بالفعل أبكَمَ كالسمكة. منذ ذلك الحين طُبع في رأسك أن الأمر لا يقل سوءاً كون المرء شيوعياً أم يهودياً. لحسن الحظ لم ينطبق أيّ منهما عليكم.

أما أول شيوعي حقيقي بالنسبة إليك - كنت أحكي عنه كثيراً - فقد كان هو هذا المعتقل الذي كان حتماً ضمن أولئك المعتقلين الذين اقتيدوا من قِبَل قوات الإس إس[(١)] من معكسر زاكسن هاوزن في مسيرة الموت باتجاه الشمال، ثم فرّوا هم وبعض الناجين هاربين من فرقة الحراسة واندمجوا ضمن اللاجئين في تلك الأرض التي تم توجيهكم من قِبل قوات الاحتلال الأولى - الأمريكية - للمبيت فيها مع فوجكم. الرجل الذي قدمت له أمك طبقاً من الحساء وسألته عن سبب إرساله إلى المعتقل. قال الرجل: أنا شيوعي. - حسناً - قالت أمي - لكن من أجل ذلك لا يرسل المرء إلى المعتقل. لم يبدُ على الرجل أي تعبير. قال: أين كنتم تسكنون جميعاً؟

---

(١) **وحدات إس إس (أو شوتزشتافل)**: كانت منظمة تابعة للحزب النازي الألماني أنشأت سنة ١٩٢٥ وكلفت بمهمة حماية أدولف هتلر. في سنة ١٩٢٦ وضعت تحت إمرة الجناح العسكري للحزب النازي المعروف بقسم الهجوم واختصارها SA. في سنة ١٩٣٩ أصبحت الإس إس وحدة شبه عسكرية مستقلة تضطلع بمهام بوليسية في صلب الحزب النازي. وفي سنة ١٩٤٥ منعت هذه المنظمة واعتبرت منظمة إجرامية للدور الذي قامت به في المحرقة.

أما الشيوعي الحقيقي الثاني فكان الإسكافي زيلّ في القرية المكلنبورغية التي نزحتم إليها بعد هروبكم في ربيع ١٩٤٥. ألزمت قوات الاحتلال الروسي فلاحي القرية بتوفير العربات التي تجرها الخيول لكل أغراض النقل الممكنة، وكانت مهمتك كعاملة مؤقتة لدى عمدة القرية تقسيم هذه الأعمال على حسب حجم ملكية الفلاحين. فهب إلى مكتبك الإسكافي زيلّ الذي لم يكن يمتلك سوى حصان واحد وسبّكِ: قال إنك قد أثقلت عليه هو والأهالي عموماً. فرفضت اتهاماته في ضجر بينما تملكك تماماً الشعور بأنك على حق، إلا أنه استمر في هياجه وضرب بقبضة يده على الطاولة وخبط الباب خبطاً وراءه. أما العمدة الذي كان يختبئ لدى كل نزاع في غرفة نومه فقد ظهر ولقنك درساً، إذ كان زيلّ شيوعياً، وبالمناسة كان الوحيد في القرية، وإن هؤلاء هم من بيدهم الأمر الآن.

كان عليّ أن أقطع حبل ذكرياتي لكي لا يفوتني ما كانت روث قد استخرجته الآن من الصندوق والذي كان من ضمن مقتنيات ليلي. أولاً صورة: ليلي في العقد الأخير من حياتها، متكئة على نخلة في حديقة أوشن بارك، وفي الخلفية البحر. كما كنت أتخيلها دائماً، اتضح لي على الفور: هكذا كان يجب أن يكون شكلها. ليست طويلة، رشيقة البنية، لكن قوية، كانت ذا وجه حساس وجسور في الوقت نفسه، شعرها مشعث بعض الشيء، متحررة كأن الريح تهب في وجهها، ورغم أنها كانت تقف فقد كانت تعطي انطباع شخص سائر. سائر إلى الأمام.

نعم، قال بيتر غوتمان. ثم تفقد الصورة الثانية طويلاً، التي بدا أنها صُوِّرت في اليومْ نفسه وفي المكان نفسه، ولكن هذه المرة جلست ليلي بجوار رجل على دِكّة في حديقة أوشن بارك. رغم أنهما

لم ينظر أحدهما إلى الآخر، ولا كانا حتى يتلامسان، لم يكن هناك شك أنهما عاشقان. بالنسبة إلى رجل كان هو رقيقاً، يداه موضوعتان على ركبتيه، تشبهان الأيدي النسائية، رأسه كبير بالمقارنة بهذا الجسد. اختفت العينان خلف زجاج نظارات سميكة. لم يقل أحدنا ذلك، لكنني أعتقد أننا جميعاً فكرنا في نفس الشيء: هذا الرجل قد يكون استنفد جوهر حيويته.

قالت روث إنها هي من أخذت هذه الصورة. إنها تذكر هذا الصباح جيداً بسبب مشاعرها المتناقضة. كان ثلاثتهم يشعرون بالطمأنينة معاً، وفي الوقت نفسه أصابها بعض الحزن الذي لم تستطع التعبير عنه بالكلمات. كان هذا الحزن على أن ذلك كلّه سوف ينقضي قريباً. أخرجت روث أثناء حديثها بعض قطع المكتشَفات الأخرى. جواز سفر ليلي، رزمة أوراق من أيامها في برلين من بينها شهادة الدبلوم في الطب، ولم أكد أنا أجرؤ على أن آمل في هذا، صورة لها مع صديقتي إيما وهما سيدتان شابتان، محاطتان بسيدات أخريات، منهمكتان في حديث حميم، على ما يبدو خلال أحد المؤتمرات. تلك الصورة التي اصفرّت وتآكلت حروفها كانت ليلي قد حفظتها لعقود وأخذتها معها إلى العديد من بلاد المنفى وعبر المحيط.

كم كانتا صغيرتين. كم هما جميلتان. كم كانت تشع منهما الطاقة. كم امتلأتا بالأمل.

عن أي موضوع يمكن أن تكونا قد تحدثتا بهذا الانهماك؟ عن آرائهما المختلفة؟ قالت روث إن ليلي كانت أناركية مخلصة. كانت ترفض كل تقييد للأفكار في إطار الدوغما، بل تمقته. كانت تعظني كثيراً بأن الحزب - قالت روث - لا يلبث أن يتحول إلى غاية في حد ذاته ويصير غير مؤهل لإحداث التغيير.

أما الفيلسوف فقد كان على الجانب الآخر يرى أن الإنسان لا بد أن يُدفع دفعاً إلى سعادته. في هذا القرن - كما كان يقول - سارت البشرية في مفترق طرق، وإنه كان بوسعها أن تختار للمرة الأخيرة بين اتجاهين فيما يبدو معاكسين، ثم اتضح أن الطريقين ينتهيان إلى الجنون، إلى التراجيديا. وأما المشاركة في ذلك - كان الفيلسوف يقول - فتلك كانت حياتنا. وماذا في هذا؟ - عارضته ليلي - أولم يكن هذا مثيراً؟ ألم يكن شيقاً؟

أحضرت روث ملف أوراق من الصندوق، رفعته لأعلى. قالت إن هذا هو لب إرث ليلي: مناقشة، تبادل آراء وحجج بين ليلي والفيلسوف كانا قد أقاماها على مدى زمن طويل، ليقنع كلٌّ الآخر من ناحية، ولاستيضاح الذات من ناحية أخرى.

إن هذا شيء لا يصدق، قال بيتر غوتمان.

ناولته روث ملف الأوراق: بإمكانه أن يقيمه.

بدأ بيتر غوتمان في تصفحه على الفور. ظل يكرر: شيء لا يصدق. لم أكن قد رأيته مستثاراً إلى هذا الحد من قبل. مثل هذا لا يحدث للباحث سوى مرة واحدة في العمر. أترى؟ قالت روث بلطف. وتحديداً اليوم وهنا. وتحديداً من خلالي.

كانت صورة مفترق الطرق قد تثبتت في خيالي. متى أدركت أن عليّ أن أتعلم العيش من دون بدائل؟ على دفعات - على ما أذكر - مثل هذا الشيء لا يمكن تعلمه بين ليلة وضحاها. تجلسين بين الرفاق الذين يشهدون الشيء نفسه مثلك تماماً. ينكمش عددهم. أما الأكبر سناً فهم متقدمون عليكم: هم مدربون على التمسك بالأمل ضد أي منطق. يعتقدون أن ليس لديكم أي حق لأن تستسلموا. إن المشروع الذي كرسوا حياتهم لأجله كان ثمرة عمل أجيال على المدى الطويل،

ليس على مدى حياتنا القصيرة فحسب. عندما أفكر فيهم - قلت لبيتر غوتمان ووروث - في أصدقائي الذين ماتوا جميعاً في تلك الأثناء، أرى كل وجه على حدة، مشرقاً وسط فيض من الظلمة، التي تلتهمه على الفور. ذلك الذي سألته بعدها، قال: شيء ما يبقى دائماً. انظري إلى أي فزع انتهت الثورة الفرنسية، وماذا يخطر للمرء عندما يتذكرها؟ الحرية، المساواة، الإخاء.

قلت: لم أسأله عما سيخطر للاحقين حين يفكرون فينا.

ربما - قال بيتر غوتمان - سيقال إنهم عاشوا من دون أوهام لكن ليس من دون أن ذكرى لأحلامهم. لرياح اليوتوبيا على أشرعة شبابهم.

قلت: لتصل كلماتك إلى مسامع الرب.

استقللتُ سيارتي الحمراء بمفردي - إذ كان لا يزال لدى بيتر غوتمان ما يقوم به في وسط المدينة - نزولاً عبر طريق صن ست بوليفار، رأيت حشود البشر، البيض، والسود، والسمر، والصفر، نازلين عبر البوليفار، ولا يسائلهم أحد - كما خطر لي - فما الذي يستثيرك أنت؟

تدريجياً كنت قد فقدت حيائي من أن أصير جزءاً من قطيع الصاج الذي سار عبر شبكة طرق لوس أنجلوس. وقد أسهمت سيارتي الصغيرة في أن أحفظ في عقلي بنية خريطة المدينة، لكن فجأة بدا أن هناك شيئاً غير صحيح على الإطلاق، أخذت السيارة تخرج عن السيطرة. لحسن الحظ كنت قريبة من محطة البنزين، لحسن الحظ وصلت إليها. عامل المحطة - الذي كان واضحاً جداً أنه لاتيني - أدرك بسرعة أن مسماراً كان قد انغرس في إطار السيارة الخلفي الأيسر. راقبت في دهشة مدى السرعة التي أصلح بها الرجل التلف

الذي كان قد لحق بالسيارة المتوقفة، لوس أنجلوس مدينة السيارات، كان الأمر بديهياً بالنسبة إلى كل إنسان أن كل إنسان يحتاج في كل وقت إلى سيارة معدة للانطلاق. "Thank you so much" (شكراً جزيلاً). - "You're welcome, Ma'am, good luck" (عفواً سيدتي. حظاً سعيداً).

أكملي الطريق صعوداً عبر صن ست بوليفار باتجاه المحيط، ولا تقاومي دوامة السقوط خارج الذاكرة، تلك التي تجرفنا جميعاً عبر هذا البوليفار الشهير إلى المحيط المظلم.

دون جهد وجدت الطريق إلى شارعنا، إلى موقف السيارات السفلي، في استدارة جريئة من دون الاضطرار للمناورة أوقفت سيارتي الصغيرة في مكانها بين سيارة فرانشيسكو ذات الطراز القديم المكسوة بالخشب، وسيارة بينتوس وريا المكشوفة السوداء الأنيقة. كانت السيدة أسكوت قد أوقفت سيارتها البيضاء الفارهة كالعادة أمام المدخل، بحيث كانت تسد نصفه، فهي كمديرة لفندق ميس فيكتوريا اتخذت لنفسها هذا الحق بالتبعية. التقينا أمام المدخل وتبادلنا التحية بلطف شديد. منذ متى وأنا أحس بذلك الشعور بالعودة للبيت حين أفتح باب شقتي؟!

بالتأكيد أعددت لنفسي الطعام في ذلك المساء، غالباً جلست أمام التلفاز أثناء الأكل، ثم بعد ذلك فحسب فتحت حقيبتي الهندية التي كنت قد أخذتها معي إلى روث. الأرجح أن ذلك كان في وقت متأخر من المساء. أرى أمامي الظرف الأبيض الكبير الذي كان اسمي مكتوباً عليه. لا أحد غير روث يمكن أن يكون قد وضعه لي في الحقيبة. في الظرف ورقة مكتوبة بخط يد روث وخطاب مغلق مرسل بالبريد الجوي، موجه إلى ليلي. هذا الخطاب - كما كتبت لي روث - كان

وارداً من ألمانيا حين كانت ليلي ترقد على سرير الموت. وقد وجدته مغلقاً بين الأوراق المتبقية التي تركتها لها ليلي. لم ترِد أن تفتحه. والآن هي تريد أن تسلمه لي لأنها تعتقد أنها بذلك تتصرف كما كانت ليلي وأيضاً مرسلة الخطاب لتفعلا.

كانت مرسلة الخطاب هي صديقتي إيما.

كان مختوماً من مدينةٍ ألمانيةٍ غربية، وعليه طوابع بريد ألمانيةٍ غربية. أبقيته في يدي طويلاً، أدرته وقلبته حتى فتحته في النهاية. لا بد أن هذا الخطاب قد تقاطع تقريباً مع خبر وفاة ليلي. كان مكتوباً بخط يد إيما النسائي المسن البارز على ورق الخطابات اللامع الذي عرفته عندها.

«عزيزتي ليلي، سيكون هذا خطاباً طويلاً. سنحت لي الفرصة كي أعطيه لأصدقاء ألمان غربيين، سوف يمررونه عبر الرقابة على البريد.

أنا مصابة بالسرطان. لا يعرف أحد ذلك سواي. سوف تصدقينني حين أقول إن معرفة أن حياتي صارت قصيرة لا تفزعني. فقد ترسخ في العمق الشعور السابق منذ السنوات البنية[1] بأننا جميعاً موتى في إجازة. وقد عشت السنوات اللاحقة كلها كمن يعيش خلف ستار. كنت مشغولة باستمرار ولم أكن أريد أن يعيقني شيء. حين مات ستالين كنت جالسة هنا عندنا «بتهمة ملفقة» في

(١) **السنوات البنية**: تعبير يستخدم في ألمانيا لوصف الأوقات التي كان فيها شخص ما يتقلد وظيفة أو منصباً في ظل الحكم النازي بين ١٩٣٣-١٩٤٥، أو كانت قناعاته تتماشى مع النازية أو الفاشية السابقة.

السجن. حين همس لي أحد الحراس بالخبر بكيت. ليس عليك أن تقولي شيئاً بشأن هذا، فقد قلت لنفسي كل شيء بالفعل.
سوف تذكرين: ذات مرة، بعد الاستيلاء على الحكم بفترة قصيرة كنا قد شهدنا في إحدى القاعات الهائلة خطبة للـ«فوهرر»ونوبة انبهار الجماهير. أثناء الخروج قلتِ: الآن صار لديهم مخلِّصهم. علينا أن نرحل من هنا بأقصى سرعة. كنت مصممة وبعيدة النظر.
بقيت أنا، كانت عندي مهمة حزبية. عملية انتحارية، بمنظور اليوم. كنا مجموعة صغيرة، بعد عام تم القبض علينا. فقط لأن أحداً منا لم يعترف بأي اسم، استطعنا أن ننجو بحياتنا. ثلاث سنوات في المعتقل، وبعدها تحت الرقابة المشددة. لم يعد بوسعي أن أفعل أي شيء. لاشيء تقريباً. إنني أتساءل ماذا كنا لنفعل لو كنا عرفنا كل شيء منذ الثلاثينيات، كل شيء عن التطهير في الاتحاد السوفياتي، كل شيء عن الغولاغ. كنا لنصير يائسين لا حيلة لنا. إن تصور أوروبا فاشية لم يخطر لنا سوى في الكوابيس.
ستالين - هكذا كنا نقول لأنفسنا - كان قد أوقف ذلك.
لقد فشلنا. البلاد التي أعيش فيها، والتي كنت أعوّل عليها بعض الآمال تتجمد وتتحجر أكثر عاماً بعد عام، والمنتظر أن تأتي اللحظة التي ترقد فيها كجثة هامدة على الطريق، متروكة للنهش فيها. ماذا بعد؟ مرحلة طويلة من العفن.
أم أنني أنا من لا ترى حلاً قريباً لكِ، أو لكم؟ آهٍ يا ليلي، اكتبي لي قريباً، فإن إيما الماهرة حائرة في أيام شيخوختها. إليك تحياتي يا عزيزتي. كيف كنا نقول سابقاً؟ "Adieu" (سلاماً)».

كانت إيما قد أخفت عني طويلاً أنها كانت مصابة بهذا السرطان. ماتت بعدها بسرعة جداً. لم تتحدث عن الموت. مرةً واحدةً فقط قالت إنه يعنّ لها كأنها تنتقل إلى كوكب آخر يتحرك بسرعة شديدة مبتعداً عن الأرض ولأول مرة يمكنها من عليه أن ترى الأرض كاملة ومن الخارج. وإن هذا شيء شديد الإثراء.

غمرني في تلك الليلة شعور لا يوصف بالإرهاق. الغريب أن خطاب إيما كان قد واساني. نمت على الفور ونمت حتى وقت متأخر من اليوم التالي. تذكرت أحد الأحلام بوضوح: سقوط متسارع عبر طبقات متكاثفة، هواء أولاً، ثم ماء، وطين، وحطام، وحصىً. خشيت أن أنحشر، خشيت أن أختنق. وفجأة كانت تحتي الأحجار التي وجدت عليها ملاذي، والصوت: إنك تقفين على أرض صلبة. طاردتني تلك الجملة بعدها طويلاً. فهمتها.

يوم الأحد أردت أن أذهب مع تيريزه وجين وبقية «العصابة» إلى الكنيسة، الكنيسة الأسقفية الميثودية الأفريقية الأولى. في المنطقة التي تقع فيها الكنيسة بدا أن الناس يقدسون يوم العيد، كانت الشوارع خالية من البشر. كانت عصابتنا قد تواعدت، وصلنا هناك مبكراً جداً، والتففنا حول مُجمّع المباني. كانت تيريزه تعرف طريقها هنا أيضاً، أرتنا المباني التي اشترتها الطائفة وأوقفتها للخدمات الاجتماعية، مدرسة وروضة أطفال ودار للمسنين، بدا أن الطائفة ليست فقيرة. كان الحي ينم عن رفاهية وازدهار، الحدائق الأمامية معتنى بها، ليست فاخرة لكنها مزروعة بعناية، كل المباني تقريباً المبنية من الخشب - إنها في ذلك شأن مثيلاتها في المدينة بأكملها - كانت قد طُليت في السنوات الأخيرة بطلاء جديد، باللون الوردي، والسماوي، والفيروزي، أما

إطارات النوافذ فبالأبيض الناصع. أرجوحة أشبه بأرجوحات هوليوود خلف المبنى، في المدخل سيارة لعائلة من الطبقة الوسطى الدنيا كان صاحب البيت الأسود يغسلها في صباح يوم الأحد، بينما خرج أبناؤه الذين ارتدوا الملابس البهيجة في يد أمهم ذات القبعة الكبيرة وقميص الدانتيل الفاخر من البيت ليتحركوا جميعاً بخفة باتجاه الكنيسة.

فعلوا ذلك بنجاح - قالت تيريزه - لكن بالتأكيد هم ليسوا هم أنفسهم بعد، إنهم موظفون مصرفيون ومندوبو تأمينات ومديرو محلات ومسافرون وموظفون لدى البلدية، إنهم يبالغون قليلاً في سعيهم لتقليد البيض، ولا يزالون يظنون أن بإمكانهم أن يصلوا لأن يصيروا ناجحين مثل البيض وبالإضافة إلى ذلك متدينين، أقصد: متدينين حقاً بالمعنى الإنجيلي، سوف ترين بنفسك.

كنا قد سجلنا أسماءنا، تم استقبالنا في المكتب، رويداً رويداً دخل خدام الكنيسة، نساء سود ورجال في ثياب بيضاء، وضعوا عليها الأوشحة الحريرية الملونة، ألقوا علينا التحية، وعانقونا، قدموا لنا الشراب، وسألوا عن أصولنا، وعن وظائفنا. صار المكان فجأة مكتظاً بالبشر في جو بسيط بهيج. في النهاية جاء الكاهن، كان هو الأكبر سناً، وجهه ذكرني بثمرة ذابلة داكنة، كان وجه مهرج عجوز ودود، كان مشرقاً، هو أيضاً عانقنا، أحسست بضغط يديه القويتين أعلى ذراعي، خطر لي أن هناك عدّة أنواع من الأمان، أما ذلك الذي يبعثه هذا الرجل فهو الأبعد منالاً.

طلب الكاهن من إحدى الخادمات - سيدة أنيقة في منتصف عمرها، كانت تضع وشاحاً بنفسجياً على ثوبها الأبيض - أن تصحبنا إلى أماكننا في الكنيسة. كنا سبعة، بالإضافة إليّ أنا وتيريزه كان معنا جين، ومارغري، ومانفريد، وتوبي، وحتى سوزان. كنت سعيدة أننا

لم نجلس في الصف الأول وإنما في الخامس. بدَوْنا بين هذه الزمرة من الأربعمئة شخص على الأقل الذين ملأوا الكنيسة إذ كنا البيض الوحيدين. لم يكن مريحاً بالنسبة إليّ كوني كنت على وعي بهم في كل ثانية، أنظار كثيرة أحسست بها مترقبة، مختبرة، ولكن فيم كان الاختبار، هل كان عليّ أن أتصرف كامرأة بيضاء؟ لكن كيف تتصرف تلك في هذا الوضع؟

حينئذٍ زلزلت الأرض تحت أقدامنا، بإيقاع منتظم، ثم سمعت التصفيق، ثم الغناء. التفتُّ أنا والآخرون، كان فريق الإنشاد قد دخل، وقف الجميع ونحن أيضاً، بدأوا كلهم يصفقون مع إيقاع الأغنية، وأنا ترددت، فقد كنت دائماً أرفض التصفيق مع الإيقاع، ثم صفقت أنا الأخرى، لم يكن الأمر محرجاً. قام الفريق بإنشاد الترانيم - لا يمكن ذكر تسمية أخرى - لم يكادوا يسيطرون على أنفسهم من الفرحة، لكنهم التزموا بالأغنية، بالنص، واللحن، وإيقاع التصفيق، والخطوة المزدوجة البطيئة المترددة التي دخلوا بها عبر الممر الأوسط، وتفرقوا أمام منبر الوعظ إلى مجموعتين أخذتا تغنيان بالتساوي، وبينما استمر كلّ فرد في الغناء والتصفيق اتخذ كل مكانه على الجهتين حيث تدرجوا خلف المذبح في مواجهة الطائفة، ثم أخذوا يغنون غناءً كثيراً وطويلاً، مما أطرب المستمعين. تقدمت مغنية منفردة من وسط الفرقة إلى أحد الميكروفونات، وتم استقبالها بالتصفيق والهتاف. صوتها الساطع فتح القلوب، لا أستطيع وصف ذلك بتعبير آخر، ثم عادت المغنية ملوحةً إلى صفوف الفرقة التي راحت تغني وتغني وتُسَبّح وتنشد. لم يكد يُلحظ أن أحد الخدام كان قد صعد إلى المذبح، الآن رأيت الخدام الآخرين جالسين عن يمينه وعن يساره على الأرائك، بدأ الطقس الديني بتبادل الحديث والغناء مع الطائفة.

وقع نظري على امرأة أنيقة في الصف الأول ترتدي حُلّةً خضراء ضيقة لا تكاد تناسب قياسها، وقبعة باللون الأخضر مع الأبيض على الرأس، وقفازات قطنية في يديها، هبت واقفة وأجابت بصوت عالٍ على سؤال الخادم، "yes"، إنه الرب إلهي، "yes"، إنني أؤمن به وبابنه الوحيد االمولود، كلا، لا أشرك به آلهة أخرى سواه. رفعت السيدة يداها إلى الأعلى، تمايلت على إيقاع فرقة الموسيقى التي استأنفت من جديد. خادم آخر كان قد وقف حينئذٍ على المذبح ورتل ببهجة الاعتراف الأخير(١) وكذلك ببهجة الإنصات واليقين في طلب المغفرة. لم يبد رب هؤلاء الناس رباً غيوراً، ليس رباً يصرّ على الندم والحسرة، بدا عارفاً بأنه كان مستحيلاً على أبنائه الالتزام بتعاليمه، أنه كان هناك الكثير في هذا العالم مما لا يستطيع ولا حتى هو تغييره في الحقيقة، وأنهم يبذلون الجهد ويأسفون حين لا يتسنّى لهم تماماً الصلاح وتجنب المعاصي، فلربما يحالفهم التوفيق في المرة القادمة إذا شاء الأب الذي في السماوات أن ينظر إليهم هذه المرة أيضاً، وقد كان الخادم متأكداً من ذلك فشكره عليه، وصدّقت الطائفة كلها على هذا الشكر من كل قلبها. وقد شعرت أنه لا شيء يمكن أن يفصلني عنهم بشكل قوي أكثر من طقس الاعتراف وطلب المغفرة هذا، لكنني لم أستطع الانغماس في هذا الشعور، إذ بدأت إحدى الخادمات حينئذٍ

(١) **الاعتراف الأخير**: يقصد به اعتراف الإيمان وهو الذي يقوله الكاهن جهاراً قبل التناول، إذ يعترف المسيحيون بأن جسد السيد المسيح ودمه هما لمغفرة الخطايا ونوال الحياة الأبدية، ويصلون الاعتراف بخضوع ورهبة. فبالاعتراف يستعدون للتناول من الأسرار المقدسة. (المصدر: قاموس المصطلحات الكنسية: الموقع الرسمي لكنيسة الأنبا تكلاهيمانوت القبطية الأرثوذكسية - الاسكندرية، مصر).

تعريفنا بالضيوف، وقد رأيت أنه كان هناك بعض البيض سوانا في الكنيسة، من بينهم بعض المعارف من «المركز». كان علينا جميعاً الوقوف، وطُلب من الطائفة أن تحيينا، ففعلت. بدايةً قام الجالسون بجوارنا مباشرةً بعناقنا، ثم جاء بعض الجالسين في أماكن أبعد، وقفوا في صف قصير، أحسست بخدود سوداء كثيرة على خدي، وسمعت أصواتاً كثيرة تقول "welcome"، بدأت أبتسم، وأضحك، وأشعر بالطمأنينة.

اتخذ القداس مجراه، التراتيل ترتفع وتنخفض. الآن وقف الكاهن على المذبح، ودوداً وواثقاً بنفسه يوزع التحيات على الطائفة. كان يريد التحدث إلينا اليوم عن أن الأمر يعتمد علينا لتغيير حياتنا وبدء حياة جديدة كل يوم. "Yeah!" صاح كثيرون، "right" (صحيح)! صاحت السيدة ذات الحُلّة الخضراء، لوح لها الكاهن، فردت ملوحةً بحماس. بدأ الكاهن يتحدث. كان له وجه منتفخ وشفتان تتحركان بسرعة لا تصدق، كل جمله تقريباً كانت تُستقبَل بالهتاف والموافقة، "oh yes, you're right" (أي نعم، أنت على حق). أما الخدّام في الخلفية فقد كوّنوا فرقة الإنشاد، عبروا بكل ما أوتوا من الأداء التراجيدي بالإيماءات واللفتات: "Isn't he wonderful?" (أليس هو رائعاً؟) أحياناً كانت إحداهم أو أحدهم يهب واقفاً ليصيح بصوت عالٍ: "Great! Wonderful!" (عظيم! رائع!) أحياناً كان أحدهم يلكم الكاهن في ضلوعه من شدة الإعجاب، وراح هو يتمايل ببعض الخطوات الراقصة على إيقاع موسيقى الروك، وهو ما كان محط إعجاب، قام بأداء عرض قصير على موسيقى الروك، وهبت الطائفة هاتفةً. قامت السيدة ذات الحُلة الخضراء بأداء رقصة فردية أمام الصف الأول قوبل بتصفيق حاد من الجالسين بجوارها، ضحك الكاهن بكل

جوارحه وشرح لطائفته أنه لا يجد صعوبة في تصور أن يتمكن كل واحد وواحدة منهم اليوم ببساطة شديدة من رؤية كل شيء بشكل جديد تماماً، أي بعين المحبة، وأنه سوف يكون من السهل جداً عليهم - بعون الرب - قلب حياتهم ببساطة مثل القبعة القديمة المعلقة في بيته على الخزانة، والتي يعرفها قطعاً - كما قال - الكثيرون منكم. بلا شك، نعم طبعاً، كانوا يعرفون القبعة، أخذوا يتبادلون وصفها واعتبروا أن من أهم إبداعات كاهنهم مقارنة حياتهم بتلك القبعة، لكن ألم يكن غير محقٍّ في ذلك؟ بلى. كان محقاً، كالعادة، وهذا ما صاحوا به إليه الآن، وكانوا ليستمروا في صياحهم لو لم تكن فرقة الإنشاد قد انطلقت من جديد، هذه المرة بقيادة آلة الكونترباص الكبيرة الخاصة بأحد الأعضاء الأكبر سنّاً.

في تلك الأثناء جذب بعض الخدام الغطاء البلاستيكي من على المنضدة الطويلة الضيّقة التي امتدت بعرض المساحة كلها بين المذبح والصف الأول والتي سوف تتحول إلى مائدة للقربان، والتي ركع بالفعل بعض المؤمنين أمامها، وكانت بينهم السيدة ذات الحُلّة الخضراء التي كانت تريد أن يناولها الكاهن القربان بنفسه وراحت تنظر إليه بإخلاص قلبي.

والآن - ما لم أكن أنتظره - تقدمت الكنيسة كلها إلى القربان، رجلاً بعد رجل، سيدةً بعد سيدة، صفاً بعد صف، بداية من الخلف، ونظم الخدام المَنفَذ إلى مائدة الرب بذكاء ولطف، وضعوا حقائب السيدات على إحدى الأرائك، وساعدوا المعاقين. كانت هناك حركة كبيرة في الكنيسة بمنتهى الهدوء في ظل نغمات الموسيقى الممتدة. رأيت بعض البيض يركعون، كان من بينهم أحد مدراء «المركز»، رأيت آني اليهودية تتناول القربان المسيحي. والآن جاء دورنا. لم

أستطع أن أنجو بنفسي، دفعتني تيريزه، ركعت على حرف الأريكة أمام المائدة، رقائق صغيرة وضعت في الأطباق الصغيرة، وفي صف من الثقوب منظم بأسلوب مبتكر وُضعت بعض الكُشتبانات مع النبيذ. أكلت الخبز، وشربت النبيذ. باركك الرب، قال الخادم الذي وقف أمامي.

إنها أول مرة منذ خمسين عاماً - قلت لتيريزه - أي منذ تعميدي، وبالمناسبة أنا لم أعد أنتمي إلى أي كنيسة. قالت تيريزه إنها تربت في مدرسة راهبات وإنها فرت هاربةً من الكنيسة حين صار عمرها خمسة عشر عاماً، لكن الأمر مختلف هنا. هذا ما قاله جميع أصدقائنا الذين كانوا قد التقوا أمام الكنيسة في مجموعة بيضاء صغيرة، مرتبكين بعض الشيء، لا يكادون يستطيعون إخفاء الحركة التي كانت قد أثرت فينا بالفعل، ملوحين في كل الاتجاهات حيث أخذوا يودعوننا بانحناءة من الرأس أو بالابتسام.

كانت الحرارة قاتلة. وزعنا أنفسنا بين السيارات، ركبت أنا في الخلف مع تيريزه، جلست بجانبها مارغري اختصاصية العلاقات الزوجية. قالت إنه لو شهد مرضاها كل أسبوع مثل هذه الخبرة من الطاعة وإنكار الذات لما احتاجوا إلى المزيد من جلسات العلاج. كنت مرهقة، فأغمضت عيني، وانزلقت في الذكريات، عن مدارس الأحد الأسقفية في الغرف الرتيبة القبيحة، عن شفتي القس المجعدتين المنافقتين حين ينطق اسم الرب، عن مقاومتي غير المجدية للتعميد، عن حرصنا على السخرية من طقس القربان.

لم تمسسنا آنذاك أي نفحة من خفقان جناح ملاك، يا أنجلينا، بينما شعرت اليوم برفرفة هادئة مستمرة. إلى من كنت أتحدث؟ أنجلينا، الملاك، السيدة السوداء في فندق ميس فيكتوريا، كانت

تجلس بشكل بديهي تماماً بجواري على المقعد الخلفي في سيارة تيريزه، مرتاحةً - إن كان ذلك تعبيراً ملائماً بالنسبة إلى ملاك - مبتسمةً. الراحة واجبة في نهاية الأمر ولو مرة، أليس كذلك؟ لم أودّ أن أثقل عليها بالأسئلة المباشرة، حسب التصور الذي كوّنته في طفولتي عن الملاك الحارس كان من الطبيعي أن يستطيع قراءة الأفكار. ليس دائماً، قالت أنجلينا، فهي كثيراً ما تكون أكثر إرهاقاً من أن تفعل ذلك بسبب عملها الطويل. لكن بالمناسبة فإنك تعرفين ذلك بنفسك بالفعل. ماذا - سألت - ماذا عليّ أن أعرف؟ لم يكن باستطاعتي أن أتوقف عن الضغط على الملاك الذي قال أنني أعرف بالقطع أنني دائماً - حين أتمكن أولاً من طرح سؤال - أكون قريبة جداً من الإجابة. لماذا إذن كنت أريد انتزاع الإجابة منها؟ إنها موجودة فقط للحالات الطارئة، ولم تكون موجودة لغير ذلك؟ هل كانت ربما تتوقع أن يتعين عليّ أن أخجل من سؤالي؟ ألم تكن تستشعر فعلاً أنني حالة طارئة وأنني بحاجة إلى قليل من التثبت؟ من ماذا؟ - أرادت أن تعرف.

هل كان - الملاك - جزءاً من خلاصي

و: هل كنت سأعرف يوماً ما مجدداً ما هي السعادة - قلت مندهشةً - كنت أخشى أن أنسى حتى ذكرياتي عنها، يا أنجلينا!

لم يُجِب الملاك، اختفى. لطمتني حرارة الظهيرة كأنها وتد، زحفت وأنا غارقةً في عرقي خارج السيارة التي كان علينا أن نتركها واقفةً على طريق برودواي. كان الشارع المحفوف بالنخيل في وسط

المدينة خالياً من الملائكة حتى المحيط الهادئ، خالياً من السيارات والبشر في سعير يوم الأحد هذا، أبنية ونخيل من دون ظلال، فأين نذهب نحن العالقون العطشى؟ حينئذٍ حدثت المعجزة. وقتها ظهر باب أزرق سماوي في جدار المبنى الأبيض، وقد وقفت سوزان عنده، فتح الباب من ورائها فدخلنا إلى غرفة ضيوف معتمة، كانت خالية من البشر، عبرنا منها لنصل إلى فناء كانت فيه طاولات تحت ظلال أشجار غريبة، حيث جلس أناس مرفهون يأكلون ويشربون، وحيث كانت الطاولة المخصصة لنا خاليةً كأن الأمر بديهي، وحيث وُضع أمام كل منا كوب من الشاي المثلج بعد دقيقة واحدة، إكسير الحياة الذي لم نطلبه حتى، ولكن يبدو أن ما يحتاج إليه المرء معروف هنا. حتى قائمة الطعام كانت مناسبة لنا. سلاطة بتنويعات مختلفة، كانت تُقدّم بسخاء ولكن ليس بسرعة، كنا بحاجة إلى بعض الوقت حتى نبرد (لنستريح - لنتخلص من الحر - نطفئ حرّنا) وننخرط في الحديث معاً.

في أحد الأحاديث التي بدا أن ذلك الأسبوع الأخير - الآن، بالنظر إلى الوراء - قد امتلأ بها، ربما يمكنني أن أعتبرها أحاديث مستمرة، ليس أن أصفها، كما يخطر لي آسفةً، أحاديث يبدو أنها تنبع من المادة الأكثر عبوراً في خبراتنا، عابرة أكثر حتى من بعض الأفكار، لأنه في اليوم التالي حين أردت أن أدون ما بقي في ذاكرتي من اليوم السابق لم يكن قد تبقى لي سوى بعض الكلمات الاسترشادية. تحدثنا عن الله والشيطان. تحديداً سألنا أنفسنا متى اقتضت الضرورة بالنسبة إلى الأديان القديمة اللجوء إلى الأخلاقيات التي قسمت أفعال الإنسان في النهاية إلى «خيّرٍ» و «شرير». متى إذن ابتدعت الجنة والنار، الملاك والشيطان؟ ولماذا؟

أنجلينا، ملاكي، راحت تتأرجح بين أغصان شجرة الكافور التي

جلسنا تحتها، وتنصت إلينا باهتمام وببعض السخرية. أنا فقط من كنت أراها. كان هذا طبيعياً وستبقى الحال هكذا منذ الآن. بقيت متيقظة أتعامل مع الحقائق برفق، لكنني تعودت على هذه الرفيقة. وهي، الملاك، جعلتني أقول - لأنه من أين لي أن أعرف هذا سوى منها - أنه يمكن أن يكون هناك سر أسود ليس فقط بين البشر وإنما أيضاً بين الملائكة، إذ إن الملائكة السود كانوا قد احتجوا على الرب وكان عليهم لذلك أن يقبعوا في السماء السفلى، في طبقات الزمن والمكان والخيال الأقرب إلى البشر، على عكس الملائكة البيض، الذين يتحلقون في الأبعاد العليا من الأنوار والترنيمات الخالدة حول عرش الرب. بدا أن أنجلينا لم تكن بحاجة إلى تعاطفي معها باعتبارها أحد الملائكة المحروقين، أومأت بحركة غير مكترثة لم أكن لأتوقعها من ملاك.

كبُرت مجموعتنا، إذ انضم لويس إلينا، رجل قويّ البنيان ذو رأس أشيب مجعد، متخصص في الإثنيات - كما قيل لي - يعمل في الجامعة المحلية، والذي حيّاه الجميع وخاصة تيريزه بحرارة شديدة. أحضر معه امرأة شابة لم تكن تعرف أحداً. زانّا، كما عرفها، قال إنها تعمل حسب وصفها في مجال الإخراج بشكل ما. لم يكن بإمكان أحد يشك أنهما عاشقان. قام الجميع بتفحُّصِها خفيةً ولكن بشكل دقيق، كما فعلت أنا أيضاً. كانت نحيفة بشكل ملحوظ. جذبتني، كل شيء فيها كان داكناً، البشرة، الشعر المرفوع بذوق رفيع، الملابس الفضفاضة المنتقاة بعناية، وحتى العينان، وهو ما لم ألحظه سوى لاحقاً حين التفتت إليّ. كانت قد جلست بجانبي. لمدة طويلة لم أر سوى مقطع وجهها حسَن التقويم.

عُرض على لويس و زانّا السؤال الذي كان يشغلنا آنذاك: لماذا

احتاجت الأديان القديمة إلى فكرة القربان، القربان البشري. لم تكن كل الأديان القديمة تعرف القربان البشري - قال لويس - فلم يقم الهوبي مثلاً - إحدى قبائل الهنود الحمر التي كان يدرسها - سوى فيما ندر بتقديم إنسان قرباناً للآلهة. صار الحديث يروح ويجيء الآن حول خصوصية طقوس كبش الفداء الحالية. على ما يبدو فإننا لا نستطيع التخلي عنها، على ما يبدو فإننا سوف نظل بحاجة إليها، فإن كان الصلب قد صار صيحة خارجاً على صيحات العصر، فإن الطرد من المدينة لا يزال يُمارس.

انحنت زانّا عليّ وسألت بصوت خفيض: أتعتقدين أنهم يتجاوزون حدودهم معك لأنك امرأة؟

كان لا بد أن يقول ذلك شخص آخر أولاً. لم يكن بوسعي إثبات ذلك إلا إذا جمعت الكلمات التي استخدموها ضدي وقارنتها بالكلمات التي يستخدمونها في مواجهة الرجال.

مرحباً - قالت جين - هل من أحد في المنزل؟

كانت امرأة قوية، شعرها أشقر مرفوع في جدائل ثعبانية، كانت ذات وجه عريض جميل، وعينين زرقاوين أخّاذتين، ويدن قويتين، وبنيانٍ عفيّ.

أما توبي، الذي جلس قريباً جداً من تيريزه، والذي كان يمكن رؤية يديه النحيفتين القادرتين على تشكيل قطع الخشب الدقيقة التي كان يصنع منها نماذجَ للأبنية التي كان يريد أن يشيدها ولم يهتم أحد غيره بذلك؛ توبي، الذي تخلص بصعوبة من عدم رضاه عن نفسه الذي دفعه للرحيل إلى المكسيك، تساءل إن لم تكن القصة(1) تهدف

---

(1) قصة القربان والفداء.

إلى إبلاغنا رسالة بعينها من خلال غَلَبَة القيم المادية دائماً وليس الروحية.

قالت زانّا إنها تتشكّك في صحة هذا. وسألت إن لم يكن قصور تصورنا بسبب التشديد على الأمور الأكثر فجاجةً، هو سر عدم قدرتنا على رؤية شيء سوى غَلبَة الماديّ، وعدم إدراكنا للتأثير الحاسم للقوى الروحانية.

هي لا تؤمن إذَن - قالت سوزان - بأن يكون الإنسان مبرمجاً وراثياً لتغليب القيم المادية؟ ولكن كيف تفسر لنفسها هذا السعي المستدام من جموع البشر إلى امتلاك السيارات والبيوت والغسالات والأموال، الأموال، الأموال؟

البعض منا ممن كانوا يعرفون سوزان بشكل أفضل أخفوا سخريتهم منها لكونها هي تحديداً - المليونيرة - تحمل همّ سيطرة الماديّة بين البشرية. لكننا ظلمناها، فقد كانت واعية بوضعها المتناقض. بإمكاننا أن نتحدث كما شئنا - قالت - نعم، وهي أيضاً، بل هي قبل أي شخص آخر، فنحن جميعاً ننتمي إلى الجزء الصغير من البشرية الذي يعيش في ترف. فقد كانت عندنا السيارة التي يحلم بها الآخرون، فكيف لنا أن نحكم على رغباتهم؟

ارتأت مارغري أن الأمر يعتمد بالأساس على ما نعتبره طبيعياً. كم قابلت في عيادتها أزواجاً كانوا يتعاملون على أساس قاعدة أن الرجل هو من يدرّ المال والمرأة هي من تقوم بصرفه وتنجب الأبناء وتنظّم الحفلات وتشرف على الخدَم، ولا شيء أكثر طبيعية أكثر من ذلك. حتى تقترب المرأة من سنّ الستين فتصاب فجأة ببعض النوبات فتبدأ بصب غضبها على زوجها وكل البشر الآخرين في محيطها بطريقة شرسة وجارحة، وبفورات من الهوس لا تستطيع تذكرها لاحقاً. لكن

حينئذٍ يجلس الاثنان أمامها، وتنطلق المرأة في حضرة المعالجة على زوجها الذي يجلس بجانبها كالحمل، لا يفهم شيئاً، يتحمل كل شيء يُلقى عليه. هناك أناس إذن تتفجر حياتهم المضغوطة المقموعة في وقتٍ ما، فيدرك الشخص صدمته بشأن الأمور الطبيعية التي كان يعيش فيها حتى هذه اللحظة.

جلسنا طويلاً في الفناء الداخلي الظليل. تحت وطأة إلحاح سوزان في طلبها تواعدنا أن نذهب إلى الصحراء يوم اكتمال البدر لنشاهد روعة ظهور القمر. يوماً ما - قال لويس - سيجوب هو وزانّا الصحراء الجنوبية ليصل أيضاً لدى قبيلة هنود الهوبي، حيث كان يعرف شيخاً عجوزاً. وقد سمعت نفسي أسأل: أتأخذانني معكما؟ فقالا: "Yes. Sure" (نعم، بالتأكيد).

اتفقنا إذن على ذلك. تفرقنا، وركبت أنا مع لويس وزانّا، بالكاد كانت الحرارة قد انخفضت قليلاً، لكنني شعرت باستجمام غريب. كان الدخول إلى القاعة الباردة في فندق ميس فيكتوريا يشبه الوصول إلى ميناء الوطن. كان هناك رسالتان من أجلي لدى السيد إنريكو. الأولى كانت بطاقة بريدية قد أرسلها محامٍ (أحد خريجي كلية الحقوق) في لايبزيغ. كتب لي: «على عكسك فلطالما كنت أكره الجمهورية الألمانية الديمقراطية فصارت لدي بذلك مناعة ضد أشياء كثيرة. أما أنت فقد كنت جزءاً هاماً من الجمهورية الألمانية الديمقراطية، وأنا أكرهك».

أما الثانية فكانت ملحوظة من بيتر غوتمان. كتب أنه كان يريد فقط أن يطلعني على أحد الاقتباسات التي وجدها لتوه لدى أحد أحب كُتّاب المقالات لديه. جاء الاقتباس كما يلي: *إنني لا أنكر هَول معسكرات الغولاغ، ويثير اشمئزازي أكثر من أي شيء من ينكرون*

ماضيهم الستاليني، إلا أن الشيوعية كانت بمثابة أمل كبير. ففي الماركسية - وهذه مسألة يهودية بحتة - مبالغة جنونية في تقدير الإنسان. فهي تحملنا على أن نصدق أننا كائنات قادرة على تحقيق العدالة الاجتماعية. خطأ فادح، دفع ملايين البشر حياتهم ثمناً له، إلا أنه بمثابة فكرة سخية وإطراء عظيم للبشرية.

استلقيت على السرير لأستريح قليلاً، فغفوت اثني عشرة ساعة.

ماذا بعد؟ الخطر يقترب أكثر، أسمع - بينما أكتب هذا - على الإذاعات كلّها. يقول السياسي في التلفاز إن القضية ليست إذا ما كان وإنما متى سوف ينجح تنفيذ الهجمة الإرهابية القادمة في ألمانيا، وهي التي ما لبثنا أن استطعنا منعها هذه المرة. إن المخاوف تتزايد لدى الشعب، وهذا ما لا يجب بلوغه على أي حال، قال إن ذلك هو رد الفعل الخاطئ. الوقت - كما يخطر لي - له محور، يتحلق حوله، يمكن ذكر التاريخ، الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١، مادة، تتخللها تدخّلات سوداء، حين يتم الإفصاح عنها فإنها تعني الموت. لم نكن مستعدين لذلك، ونلاحظ مبدئياً بالتدريج وبتردد أننا أدركنا هذا متأخراً ولم نعد «نستطيع» هزيمة «ذلك». إن «ذلك» موجود فينا، أن ندمر جذورنا.

مضى الوقت، كنت قد بدأت أعدّ الأيام، أحياناً ليلاً كنت أمرّر كلمة مثل الغربة. مؤخراً حدث فعلاً زلزال، كان مركزه جنوب كاليفورنيا، لساعات طويلة على شاشات التلفاز استمر ظهور جهاز قياس الزلازل، الذي تخطى مؤشره القياسات المسموحة، ثم تأتي الباحثة المختصة في الزلازل الهادئة التي يتعين عليها التعليق على هذه الهزّة لكي لا يصاب الشعب بنوبة من الفزع. وتذكرت تلك

المحاضِرة، الألمانية التي كانت تجلس بجواري في إحدى حفلات العشاء في الجامعة وكانت قد حكت أن زوجها - الباحث المتخصص في الزلازل - لم يسعه أن يتوقف عن التحذير، من أن السؤال ليس إذا ما، وإنما متى سوف يحدث الزلزال الكبير في لوس أنجلوس: "THE BIG ONE" (الكبير)، الذي كان الجميع يعلم به، والذي لم يرِد أحد أن يصدقه، لأن أحداً لم يأخذ مسألة الخطورة المتزايدة لمدارات الأرض الآخذة في الانحراف عن بعضها على محمل الجد، ولا فالق سان أندرياس، الذي شُيّدت هذه المدينة فوقه ذات يوم. أما هما فقد كان لديهما دائماً بعض غالونات من مياه الشرب جاهزةً ومؤونة غذائية تصلح للاستخدام لمدة أسبوع. على تلك الأشياء سوف يكون هناك بالمناسبة ساعة الجدّ قتال واستقتال، لذلك فإنهما يخبئانها. أولئك الأمريكيون السفهاء ليسوا على استعداد لأن يهيئوا أنفسهم حتى لما يمكن أن يعنيه فقط الانقطاع التام لشبكة الحاسب الآلي. ما يمكن أن يحدث مثلاً، إذا انهار النظام المحاسبي بالكامل، وهو ما لم يجرؤ زوجها على تخيّله أصلاً. كان أحب عليهما أن يغادرا هذه المنطقة الخطرة اليوم قبل الغد، لو لم يكن فقط عمل زوجها هو ما يبقيهما هنا.

الشارع، محتضن المحيط. الضوء، الضوء السماويّ الخارق. السيارات مصفوفة مصد الصدمات إلى مصد الصدمات، وسيارتي الـGEO الحمراء الصغيرة وسطها، أحد الصباحات النادرة التي جرؤت فيها على القيادة عبر حركة المرور كي أصل إلى الشاطئ، رغم أنني كنت مصابة بالصّداع. كانت أفكاري مثبتة على الزلزال. فقد مرة بسلام مرة أخرى. من الذي كان يتحدث إليّ هنا؟ أنجلينا. هل يستطيع الملائكة إذن فعلاً قراءة الأفكار؟ بالمناسبة، هل كان الأفضل

أن أنعطف الآن يساراً؟ فلن تأتي أي حدائق بعد ذلك. أعرف هذا، لكنني لم أكن لأفكر في ذلك الآن. هذا ما يفعله الصّداع. كانت الحديقة مثل كل الحدائق مزدحمة. وجهتني أنجلينا إلى المكان الخالي الوحيد. جعلتني أكتشف تلك البقعة من الشاطئ حيث استطعت أن أضع مقعدي المطوي ومظلة الشمس وأشاهد البحر وليس فقط البشر شبه العراة. أخبرت أنجلينا أنني بحاجة إلى بعض الهدوء. بالمناسبة فقد اشتد الصداع. حين تشبعت بالمشاهدة آلم عيني وميض انعكاس الشمس على الماء قصدت إلى الكتاب الذي كنت قد أهملته طويلاً "The Wisdom of no Escape" (حكمة عدم الهروب) للراهبة بيرما.

بالمناسبة ليس في نيتي أن أبرر ظهور الملاك أنجلينا أو أن أعطي أي تفسيرات بشأنه. حسب استطلاعات الرأي فإن ستة وثمانين بالمئة من الأمريكيين يؤمنون بالمعجزات وبالطبع أيضاً بالكائنات الفضائية، بالملائكة على سبيل المثال. أو أن أحد تماثيل مريم العذراء، الذي لم يكن ذا أهمية بالأساس حتى حينه في بيت قس هو غير ذي أهمية أيضاً يستطيع فجأة أن يبدأ في إراقة الدموع. وبالطبع كنت وما زلت - وأنا من أنصار التنوير الذين تصعب زعزعتهم - لا أؤمن بهذا النوع من الظواهر، وهو ما يجب أن يظل واضحاً إلى الأبد. أتذكر جيداً جداً حالتي المزاجية حين تحدثت إيميلي، الأمريكية، إلى ضيوفها بعد إحدى حفلات العشاء المميزة الفاخرة بمنتهى السذاجة عن «المنجّمة» الخاصة بها، سيدة تعيش في المكسيك، تمتلك قدرات خارقة والتي كانت قد هاتفتها لمدة ساعتين وأبلغتها بالعديد من النبوءات كان من بينها الخبر الأهم بالنسبة إلى إيميلي، وهو أن قطتيها اللتين كانتا تقيمان في أحد بيوت الحيوانات بنيويورك لا تودّان الانتقال ثانيةً. فإن معرفة

ذلك قد وفرت على إيميلي بعض وخز الضمير. ما زلت أذكر أنني التزمت الصمت وخطر لي: لا يمكن أن يكون هذا حقيقياً. كانت إيميلي تسمي نفسها «مثقفة ماركسية»، مادية على كل حال، إلا أنها تعتبر الظواهر فوق الحسية أمراً وارداً، بما أننا لا نستطيع أن نعلم أي طاقات تهيم في أعماق وعينا وفي الكون. وماذا عن - خطر لي - معطف الدكتور فرويد؟ صنمي أنا؟ - على الإطلاق، قال الصوت الآخر بداخلي. كان هذا بالنسبة إلى منجمة إيميلي أنقى وأوضح أنواع العلم.

أخبرتني أنجلينا أنه ليس على المرء أن يفسر كل شيء وأنني بالإضافة إلى ذلك مريضة. مريضة؟ أنا؟ بعض الصداع الخفيف؟ - والحمّى؟ - أي حمّى؟

كان رأسي ساخناً، لكن اليوم من أشد الأيام حرارةً. فتحت الجريدة التي تسمّى "Weekly World News" (أخبار العالم الأسبوعية)، والتي أخذتها معي إلى متجر ديلي عندما كنت أشتري لنفسي سلاطة يونانية وخبزاً. العنوان الرئيسي: "The most horrifying photo ever published!" (الصورة الأكثر بشاعة بين ما تم نشره على الإطلاق!) ثم بحروف عملاقة: "FACE OF SATAN APPEARS OVER WACO!" (وجه الشيطان يظهر في واكو[1]) وبجانبه صورة سحابة الدخان الذي تصاعد من مخيم تلك

(١) **واكو**: مدينة أمريكية تقع في ولاية تكساس. في يوم ٢٨ فبراير عام ١٩٩٣ قام عملاء مكتب الكحول والتبغ والأسلحة النارية بالهجوم على طائفة ديفيديان في منطقة واكو، بتكساس، ودارت معركة بالأسلحة النارية راح ضحيتها أربعة عملاء فيدراليين وستة من أعضاء الطائفة، وكان العملاء الفيدراليون يحاولون إلقاء القبض على زعيم الطائفة، ديفيد كورش، بناءً على

الطائفة التي يقال إنها أحرقت نفسها، والتي كانت تشبه تصوّر موريس الصغير[1] عن شكل الشيطان. قيل إن هذا الوجه القبيح قد ظهر خلال العديد من الكوارث في الآونة الأخيرة وهو دليل على أن المعركة الكبرى بين الله والشيطان قد بدأت، وأنه يتعين على كل إنسان أن يقف الآن على الجهة الصحيحة.

اتكأت للوراء على مقعدي، نسيت الصّداع والقشعريرة وانغمست في الحياة من حولي، في زرقة السماء، وفي الحركة النشطة للأجساد شبه العارية على الشاطئ، والرمال البيضاء الناعمة، والريح التي كانت قد هبّت وداعب بشرتي. كل هذا - كما قالت الراهبة - هو في هذه اللحظة تماماً كما يجب أن يكون. حياتك الحافلة. "Let it be" (دعيها). كانت تودّ أن تتجلى لي.

في المساء أصابتني قشعريرة من البرد. نمت نوماً متقطعاً، لم أستطع أن آكل، تمرغت في الشراشف المبللة، طنّ رأسي، لم تنفع أقراص الأسبيرين في شيء. بدلاً من أن تتعاطف معي أنجلينا ظلت تتبعني بنظراتها المستهزئة. تسأل لِمَ أسمح لأحد بمحاولة إقناعي بما لا يناسبني. وإن لم يكن قد اتضح لي بعد الإذعان بصبر ليس من طبائعي. لكن قد يتغير المرء، قلت لها معارضةً. كانت أنجلينا كاشفةً بالطبع أن الأمر بالنسبة إليّ يتعلق بتفادي الأسى. سألتني إن لم أكن ألحظ أنني ما زلت في رحلة الهرب. قلت إن عليها أن تدعني وشأني. فاختفت.

= المعلومات التي توافرت لديهم والتي تقول إن أعضاء الطائفة الدينية المتطرفة يقومون بتخزين الأسلحة. وسميت هذه الحادثة بحصار واكو.

(١) تعبير ألماني دارج كناية عن السذاجة والتصوّر الطفولي للأمور.

جاءت سيدة مسنة - غرترود - ترتدي زياً أزرق فاتحاً يشبه زي الراهبات، اعتنت بي باهتمام ومودّة، أرادت لتوها أن تطبخ لي طعاماً شهياً كنت لآكله بالتأكيد، إلا أنها وقعت فجأة على جنبها وبدأت تحتضر، وهو ما أدركته على الفور. غرترود تحتضر - خطر لي - إلا أنها تحولت أمام عيني إلى فيل ضخم يحتضر، كان حزيناً جداً وأحزنني جداً، ثم كانت غرترود مرة أخرى في سريرها، ثم ماتت. حينئذٍ بدأت أبكي. لم أكن أعرف أحداً باسم غرترود، لم يخطر لي سوى الملكة العجوز غرتروده في «هاملت» التي خانت زوجها مع أخيه.

وقتئذٍ طلع الصبح، وعلى سريري وقفت أنجلينا، شرشف التنظيف في يدها، لم أتعجب لذلك. قلت: ملاكي. لكنها لم تشارك في هذا. قالت إنني مريضة، وإنها لن تشغّل المكنسة الكهربائية. سألت إن كان عليها إحضار طبيب. قلت: "No doctor" (لا طبيب)، فقالت: "Yes, it is very expensive" (نعم إن أجره باهظ). باهظ جداً. قلت: يا أنجلينا، وبالإنجليزية: كلنا حتماً سنموت. لم يكن في ذلك جديد بالنسبة إليها، ابتسمت ابتسامة العارف وقالت: "Yes. That's true" (نعم. هذا صحيح).

خطر لي: لماذا كان عليّ أن أبلغ هذه الحقيقة بلغة أجنبية؟ ربما لم أكن لأتحملها باللغة الأصلية الألمانية. كيف كان الناس جميعاً يتعايشون مع هذه المعرفة؟ لم يكن شيء ليواسيني. أحضرت لي أنجلينا شاياً. ارتفعت درجة حرارتي، جاءت ريا لتطمئن عليّ، وتيريزه، وبيتر غوتمان أدخل جمجمته الطويلة واستخدم كلمة «أزمة». استغرق الأمر يومين أو ثلاثة. بعدها انقضى، فقمت، وإن ظللت مترنحةً بعض الشيء، إلا أنني استعدت عافيتي سريعاً، ذهبت للآخرين، انخرطت في حياتهم، وفي أحاديثهم.

ما كان مهماً من ذي قبل كان قد فقد مغزاه. عرفت الآن أنه يتعين عليّ أن أموت. عرفت كم نحن ضعفاء. بدأت الشيخوخة. معطف الدكتور فرويد تفتّق. كنت أودّ أن أكتشف ممّ كانت بطانة المعطف تتكون. كان بإمكاني أن أفعل ذلك في أي مكان في الأرض. فلِم ليس هنا؟

لم يعجِب بيتر غوتمان المزاج الذي خالجني. جلسنا في سيارتي الـGEO الصغيرة وذهبنا إلى كارل، المصور الألماني، إلى بيته على الهضاب مباشرة تحت حروف **هوليوود**. كانت الشوارع على عكس المتوقع خالية. في الصباح تم إعلان الحكم الذي أصدره المحلفون في «قضية رودني كينغ»[1]، والقضية الثانية التي تخص أفراد الشرطة الأربعة البيض الذين كادوا يقتلون رجلاً أسود كان قد هرب منهم. لو كان الحكم عليهم صدر بالـ«براءة» لتوقع الكثيرون اندلاع أعمال عنف في المدينة منطلقة من أحياء السود. أصدر القاضي حكماً فيه حكمة سليمان: اثنان من المتهمين "guilty" (مذنبان) واثنان "not guilty" (بريئان). تنفس البيض الصعداء وهلل السود في كنائسهم.

اتخذت الحياة في المدينة مسارها الطبيعي. كان كارل قد كسا جدران غرفه الصغيرة المتداخلة بمجموعة من الصور الكبيرة، وجوه

---

(١) **رودني غلين كينغ**: مواطن أمريكي من أصل أفريقي اشتهر على إثر أحداث دموية شهيرة وقعت في مدينة لوس أنجلوس الأمريكية وسميت باسم «قضية رودني كينغ» أعقبت نشر فيلم فيديو تم تصويره من طرف مصور هاوٍ يدعى دافيد هاليداي يتعرض خلاله رودني للضرب المبرح من قبل شرطة لوس أنجلوس في ٣ مارس ١٩٩١. وقد حظي الفيديو بتغطية إعلامية هائلة أسهمت في اندلاع أعمال شغب كبيرة في المدينة الأمريكية لاحقاً بعد تبرئة أفراد الشرطة الذين اعتدوا عليه من قبل المحاكم الأمريكية.

سكان المدينة، بيض وسود وصفر ولاتين. كلما أطلت النظر إليهم كلما انتقل إجهادهم إليّ. نعم، قال بوب رايس الذي كان أيضاً معنا بالطبع وكان قد أحضر صديقه آلان معه. إلى متى يمكن أن يستمر هذا؟ هذه المرة لم نكد ننجو، وبمنتهى السرعة سوف ننسى نحن البيض مجدداً هذا الخوف الذي شعرنا به. ولن نودَّ أن ندرك مدى ضعف السطح الذي نتحرك فوقه. جلس أستاذ يهودي مسن بجواري أثناء تناول الطعام، بدا أنه مريض جداً، طبيب نفسي كان قد كرّسَ وقتاً طويلاً من حياته العملية في دراسة نفسية هتلر، اعتقدت أنني فهمت أنه اعتبر هذا نوعاً من الالتزام تجاه اليهود الذين قُتلوا. شيء واحد هو ما كان بوسعه أن يقوله: كان الرجل عنيناً. كما أن عماه في الحرب العالمية الأولى كان عمى هيستيرياً. أما زوجة الأستاذ، السيدة العجوز الأنيقة، فقد أومأت لي بإشارة كي لا أصر على استكمال هذا الحديث. لاحقاً همست لي بأنه يثير أعصاب زوجها بشكل مبالغ فيه. حينها فقط لاحظت أننا كنا نتحدث الألمانية طوال الوقت.

قال كارل إنه يريد الذهاب إلى ألمانيا في أسرع وقت ممكن. وإنه يريد أن يصوّر الوجوه في برلين الشرقية وفي برلين الغربية. يريد أن يحاول الإمساك بهذه اللحظة المتفردة. أنا أرى أمامي مجموعة من الوجوه المصدومة من عام التحول. قلت: عليكَ أن تسرع. سوف يغلقون أبوابهم ثانيةً. إنهم يبدأون بالفعل بالخجل من أنه كان لديهم أمل لبضعة أسابيع بل إنهم عبّروا عن ذلك أيضاً.

أي أمل؟

أدركت أنه كان يصعب عليّ الإجابة عن هذا، بدا الأمر وكأنني أندد بمن كان لديهم أمل في ذلك الوقت، لأن الذي كانوا يأملون، بل كنا نأمل فيه، كان منافياً للواقع، ومخجلاً، ومضحكاً. بالكاد لا أزال

أعلم كيف أجبت كارل. ربما ذكرت كلمات مثل «تقرير المصير»، أو «العدالة»، أو «التضامن».

«الحرية»، اقترح أحدهم.

لم أكن قد سمعت هذه الكلمة آنذاك. انتخابات حرة، هذه نعم. حرية السفر. كانت الأهداف غالباً محددة. كل ما يندرج تحت الحرية، قال بيتر غوتمان.

في الصباح التالي جاء معنا إلى بيوت المهاجرين. أرادت تيريزه أن ترينا إياها، كانت قد أجرت سيارة مريحة، وكانت تؤدي مهمتها لكتابة تقرير عن المعركة الانتخابية حول منصب رئيس البلدية في المدينة. كان شارع مابيري رود هو أول محطة لنا، البيت الذي سكنته زالكا فيرتل[1] خمسة وعشرين عاماً، حيث ربت أبناءها، وكتبت

---

(١) **زالكا فيرتل** (١٨٨٩-١٩٧٨): ممثلة وكاتبة سيناريو وشقيقة المؤلف الموسيقي وعازف البيانو إدوارد شتويرمان ولاعب كرة القدم زيجغونت شتويرمان. ولدت فيرتل في سامبور إحدى مدن مقاطعة جاليشيا في الإمبراطورية المجرية النمساوية (أوكرانيا اليوم). كان أبوها محامياً يهودياً وتقلد لفترة طويلة منصب عمدة سامبور قبل إجباره على ترك منصبه في ظل موجة صاعدة من معاداة السامية. في فيينا تعرفت زالكا على المخرج بيرتولد فيرتل الذي تزوجته عام ١٩١٨، وفي ١٩٢٠ انتقلت إلى هامبورغ لتعمل في المسرح الكبير ثم إلى دوسلدورف، بينما كان برتولد يعمل في برلين حيث أسس فرقته المسرحية. وفي عام ١٩٢٨ انتقلت العائلة إلى هوليوود حيث حصل برتولد على عقد للعمل كمخرج وكاتب لدى شركة فوكس فيلم، وكان المقرر بقاؤهما لمدة ثلاثة أعوام فقط إلا أن الأوضاع المضطربة في ألمانيا جعلتهم يقررون البقاء في المهجر، وقد عاشا في مدينة لوس أنجلوس حتى انفصلا. وأقامت زالكا بعد ذلك في جنوب كاليفورنيا. وقد أسست صالوناً أدبياً في هوليوود كان يحضره الكثير من كتاب المهجر البارزين مثل شارلي شابلين وأرنولد شونبرغ وهانس إيسلر وبرتولد بريخت وغيرهم.

العديد من السيناريوهات التي لم يتم تنفيذ معظمها، وناقشت خطط الأفلام مع غريتا غاربو[١] وكتبت لها السيناريوهات. البيت الذي تحول في الثلاثينيات إلى ملتقى للمهاجرين الألمان والذي كان مركزاً لتنظيم المساعدات الواسعة النطاق لدعم الزملاء المحتاجين في كاليفورنيا والمهددين في المناطق المحتلة من النازي. كان كتابها «القلب العنيد» على المقعد بجواري، منذ قرأته كنت قد مررت ببيتها أكثر من مرة، طريق قصير من شارع سكوند ستريت عبر أوشن أفينيو الذي ينعطف يميناً ليصب في مابري رود. طريق يستغرق أقل من عشر دقائق، كنت أحكي خلالها لمرافقيّ عن زالكا فيرتل، على ما يبدو بنبرة معينة جعلت بيتر غوتمان يسألني: كنت تحبين أن تتعرفي على هذه السيدة، أليس كذلك؟

نعم بكل تأكيد، كنت لأحب ذلك. لفت انتباهي أن تلك الأمنية لم تراودني إلا فيما ندر، رغم إعجابي الشديد ببعض المهاجرين الذين كنا سنشاهد بيوتهم أيضاً. إنها منسية تقريباً - قلت - ولا تكاد تذكر في بعض التقارير عن المهاجرين في «فايمار الجديدة في ظلال النخيل»[٢].

(١) **غريتا غاربو** (١٩٠٥-١٩٩٠): ممثلة أمريكية سويدية المولد، اشتهرت بعد أن مثلت في الفيلم الصامت (Gösta Berlings saga) المأخوذ من رواية لسلمى لاغرلوف. ذهبت إلى هوليوود وبعد فترة قصيرة أصبحت أكثر نجوم السينما شعبية في العالم، وتعتبر خامس أفضل ممثلة في المعهد السنمائي الأميريكي، وهي كانت من النجوم الكبار خلال ١٩٢٠-١٩٣٠ إلا أنها توقفت عن التمثيل عام ١٩٤٠.

(٢) كتاب للألماني هولغر غومبريخت صدر عام ١٩٩٨ بعنوان «فايمار الجديدة في ظلال النخيل» يتناول مستعمرة المثقفين المهاجرين الألمان التي تكونت في لوس أنجلوس في الأربعينيات إذ هاجر إليها توماس وعاش فيها مدة عقد

هل كنت لأحب أن أتعرف على ليون فويشتفانغر؟ سرنا عبر صن ست بوليفار إلى طريق سان ريمو درايف، صعوداً إلى أعلى المدينة، كنت قد قرأت لتوي كتاب «اليهودي زوس»[1] مرة أخرى لأؤكد لنفسي أن الكتاب يتضمن - بالطبع - نفحة من معاداة السامية.

على عكس فيلم فايت هارلان[2] الذي تربطني به ذكريات طفولية غريبة يصعب التثبت منها. بديهياً لم تكن أمك لتسمح لك بمشاهدة هذا الفيلم، وبديهياً كنت ترغبين في ذلك بشدة - أن تَرَيْ «الملك الأعظم» مع أوتو جيبور[3] أو المدينة الذهبية في النهاية مع كريستينا

= كامل ولحق به العديد من الكتّاب والمثقفون الآخرون أشهرهم برتولد بريخت. إذ سميت لوس أنجلوس بالعالم الجديد.

(١) **زوس اليهودي**: رواية للروائي ليون فويشتفانغر صدرت في عام ١٩٢٥، مأخوذة من قصة جوزيف زوس أوبنهايمر الذي كان يعمل في بلاط الدوق كارل ألكسندر في القرن الثامن عشر في فورتنبرغ بشتوتغارت. أثناء عمله مع الدوق يصنع أوبنهايمر لنفسه أعداءً كثر، يتآمر بعضهم للوشاية به لدى الدوق ليتم القبض عليه في النهاية وإعدامه بعد موت الدوق كارل ألكسندر. صارت رواية جوزيف زوس أوبنهايمر مادة للعديد من المعالجات الدرامية لما يزيد على قرن كامل، كانت أولها قصة قصيرة لويليام هاف عام ١٨٢٧، لكن أنجحها كانت رواية فويشتفانغر التي بناها على مسرحية كان قد كتبها عام ١٩١٦ ثم تراجع عنها، كما وصف قصة هاف بأنها معادية للسامية بشكل ساذج.

(٢) **«زوس اليهودي»**: فيلم مأخوذ أيضاً عن حكاية جوزيف زوس أوبنهايمر من إنتاج شركة تيرا فيلم كونست، تم إنتاجه عام ١٩٤٠ بناءً على طلب جوزيف غوبلز شخصياً وهو يندرج تحت أفلام البروباغاندا النازية ويعد أحد أكثر الأفلام معاداة للسامية. وقد أخرج الفيلم فايت هارلان الذي شارك أيضاً في كتابة السيناريو مع إيبرهارد فولفغانغ مولر ولودفيغ ميتسجر. وقد لعب دور البطولة الممثل فرديناند ماريان أمام كريستينا زودرباوم زوجة هارلان.

(٣) **أوتو جيبور** (١٨٧٧-١٩٥٤): ممثل مسرحي وسينمائي ألماني ظهر في أكثر =

زودرباوم[1]. كل ما كان يهمك حقاً كان يُحرّم عليكِ.

تبعت ذلك عندي ذكرى يستحيل أن تكون معتمدة على خبرة حقيقية، إلا أنها كانت عنيدة جداً لدرجة أنني أريد أن أصدقها. في مدينتنا كانت هناك ثلاث دور للسينما، واحدة منها هي الأحدث، سينما «كيفهويزر»، كان لها مخرج جانبي حيث كنت تقفين في يوم جميل من تلك الأيام - حيث أرى نفسي بذاكرتي المهولة واقفةً- ورحت تسترقين النظر داخل غرفة العرض عبر الشق الصغير في الستائر المنسدلة على الشاشة مباشرةً. هناك ظهرت صور ساطعة، وجه مشوّه بشكل مخيف، مشنقة، كنت تريدين استكمال مشاهدة ذلك بأي ثمن، ولم يكن بوسعك تحمّله أطول من ذلك مهما كان الثمن. حينئذٍ أمسك بك أحد من الخلف وراح يجذبك موبخاً إياكِ. «اليهودي زوس». الرغبة والرهبة، هذا ما تبقى.

بالطبع لم أحك لمارتا فويشتفانغر عن ذلك - قلت - حين زرناها منذ بضعة أعوام في فيلّا أورورا التي كانت لا تزال سليمة. ببلاطاتها الإسبانية الرائعة في البهو، بمكتبة فويشتفانغر القيّمة التي أخرجت منها مارتا بعض المجلدات، بالمخطوطات المطبوعة على الطريقة القديمة، بغرفة المكتب حيث حكت لنا سكرتيرة فويشتفانغر- هيلده فالدو التي كانت قد صارت عجوزاً ضعيفة - عن طريقة عمله وعن النسخ المختلفة من مخطوطاته التي يختلف لون أوراق كلٍّ منها، عن تركيزه

= من مائة فيلم بين ١٩١٧ و ١٩٥٤. وقد اشتهر بأداء دور الملك البروسي فريدريك الأعظم في عدة أفلام.

(١) **بياتا مارغاريتا كريستينا زودرباوم** (١٩١٢-٢٠٠١): ممثلة ومنتجة ومصورة سويدية الأصل ولدت في ألمانيا وقد اشتهرت بأدوارها في عدة أفلام أثناء حقبة النازية.

المبهر، وبالسلحفاة العتيقة التي راحت تتسحّب عبر الشرفة، تلك التي يطل منها المرء على منظر فريد للمحيط الهادئ. كل ذلك أصبح ماضياً، كانت مارتا فويشتفانغر قد ماتت، والمكتبة أُهديت للجامعة، وفيلاّ أورورا صارت موقعاً للبناء. لاحقاً، اليوم، صارت تستقبل الكتّاب الناطقين بالألمانية وهي المكان الوحيد هنا الذي يذكر بالهجرة الألمانية في هذه المدينة.

كالعادة حين كنت أقتفي أثر المهاجرين لم أكن أصل إلا إلى شعور ضاغط بالعبثية. هل يمكنكم أن تتخيلوا - قلت - أنني لم أكن أعرف معظم أسماء أولئك الكتّاب الذين عاشوا هنا لأن ألمانيا لفظتهم حتى نهاية الحرب؟ لا بريخت بالطبع الذي سوف نصل إلى بيته في شارع ٢٦ بعد ذلك، ولا ألفريد دوبلن[1] الذي كان بالمناسبة أيضاً مثل هاينريش مان متواضعاً وكان يسكن في شقة مررنا بها بينما بدت فيلاّ توماس مان، في ١٥٥٠ شارع سان ريمو درايف، التي كانت محل زيارتنا التالية مروراً بصن ست بوليفار منعطفين إلى ألمالفي درايف مهيبةً ولائقة، إلا أنها كانت محاطة بالنباتات بحيث بقيت مختبئة عن أنظارنا. وأنا لم أجرؤ يوماً على الاقتراب.

أرادت تيريزه أن تخطو داخل قطعة الأرض لكننا أوقفناها. قالت إنها تريد على الأقل رؤية النافذة التي جلس خلفها في الركن على الأريكة يكتب عمله «فاوست». أما أنا فكان عليّ أن أتساءل مجدداً،

---

(١) **ألفرد دوبلن** (١٨٧٨-١٩٥٧): طبيب وروائي وكاتب مقالات ألماني، اشتهر ألفرد دوبلن بروايته «ميدان ألكسندر في برلين». وهو كاتب غزير الإنتاج تعددت أساليبه، وامتد إنتاجه إلى نصف قرن، واضطلع في عدد كبير من الحركات الأدبية الألمانية. يعد ألفرد دوبلن واحداً من أهم الشخصيات في حركة الحداثة في الأدب الألماني.

إن كان ممكناً أن تكون في خزانة الكتب الضيقة في بيت والدَيّ في «غرفة الرجال»[1] خلف «شعب بلا مكان»[2] لهانس غريم وخلف كتب كارل ألبريشت[3]، «الاشتراكية التي تعرضت للخيانة»[4]،

---

(١) **غرفة الرجال**: كان سائداً في القرن التاسع عشر وبداية العشرين أن تُخصص إحدى غرف المنزل للرجال فقط، تكون عادة مفروشة بالأثاث الفاخر وجدرانها مغطاة بالخشب الداكن اللون، حيث يكون بوسع الرجل القراءة أو مباشرة أعماله بهدوء ولا يرحب بدخول النساء إلى هذه الغرفة سوى لترتيبها أو القيام على خدمة الرجل.

(٢) **شعب بلا مكان**: رواية للكاتب القومي هانس غريم صدرت عام ١٩٢٦ جذبت العديد من القراء حتى أنه بيع منها حوالي ٧٠٠ ألف نسخة فور صدورها. وقد استخدم عنوان الرواية كشعار سياسي فيما بعد في جمهورية فايمار وألمانيا النازية لاسيما بعد اتفاقية فيرساي التي منعت ألمانيا من توسيع إمبراطوريتها الاستعمارية حيث شاع استخدام هذا الشعار للتعبير عن أن شعب ألمانيا لم يعد يجد له مكاناً وصار يعاني من الفقر والبؤس والجوع والزيادة السكانية. كما جاءت الشهرة الأكبر لهذا التعبير في ظل ألمانيا النازية لتبرير الغزو الألماني لبولندا والاتحاد السوفياتي والتوسع الهائل في المستعمرات الشرقية لضمان تفوق الجنس الآري على البولنديين والروس الذين كان النازيون يعتبرونهم جنساً أدنى.

(٣) **كارل إيفانوفيتش ألبريشت** (١٨٩٧-١٩٦٩): كاتب ألماني شيوعي، اشتراكي قومي. شارك وهو في السابعة عشرة من عمره في الحرب العالمية الأولى وأصيب إصابة بالغة. سافر إلى الاتحاد السوفياتي عام ١٩٢٤ للمساهمة في دعم الاشتراكية. إلا أنه تم القبض عليه من قبل جهاز الاستخبارات الستاليني وتعذيبه ثم حكم عليه بتهمة التجسس وصدر حكم بإعدامه في عام ١٩٣٣. لكن بما أنه كان لا يزال مواطناً ألمانياً استطاع أن يلجأ للسفارة الألمانية فتم إرساله إلى ألمانيا في أبريل ١٩٣٤. لكنه اعتقل أيضاً في معسكرات النازية لعدة أشهر وتم التحقيق معه في سجون الغيشتابو وسجن كولومبيا في برلين حتى تم الإفراج عنه من هناك.

(٤) كتاب لكارل ألبريشت عن تجربته خلال عشر سنوات كموظف عام في الاتحاد السوفياتي، صدر في برلين ولايبزيغ عام ١٩٣٨.

ولإيدوين إيريش دفينغر[1] «الجيش خلف الأسلاك الشائكة»[2] «بودنبروك»[3] كما أعتقد أنني أتذكر؟ لا بد أنني مخطئة - قلت لنفسي ثانية - لأنك كنت لتقرأيها آنذاك لأنك كنت تقرأين كل ما يقع بين يديك من المطبوعات.

---

(١) **إيدوين إيريش دفينغر** (١٨٩٨-١٩٨١): كاتب ألماني نشر أعماله خلال فترات جمهورية فايمار وخلال الحكم النازي وفي جمهورية ألمانيا الاتحادية، وقد تُرجمت أعماله إلى أكثر من اثنتي عشرة لغة ووصل مجموعها إلى مليوني نسخة. إلا أنه يعد نموذجاً للكاتب القومي الفاشي.

(٢) الجزء الأول من الثلاثية التي كتبها دفينغر بعنوان الثلاثية السيبيرية (أو الشغف الألماني) وتعد أهم أعماله وقد صدرت بين عامي ١٩٢٩ و١٩٣٢ وتُرجمت إلى عدة لغات. تتناول الثلاثية فيما يشبه التجربة الذاتية الفترة ما بين ١٩١٥ و١٩٢٤ وتستند بالأساس في الجزء الأول إلى اليوميات التي كان قد سجلها دفينغر في المعتقلات الروسية تحت عنوان «الجيش خلف الأسلاك الشائكة»، وفي الثاني كضابط في جيش ألكسندر كولتشاك تحت عنوان «بين الأبيض والأحمر». أما الجزء الثالث فجاء بعنوان «إننا ننادي على ألمانيا» ويتناول عودة الأسرى إلى ألمانيا التي تغيرت.

(٣) **بودنبروك. قصة انهيار عائلة**: هي رواية توماس مان الأولى، نُشرت في عام ١٩٠١ عندما كان يبلغ من العمر ٢٦ سنة، مع نشر الطبعة الثانية في عام ١٩٠٣ كانت الرواية قد لاقت نجاحاً كبيراً قاد توماس مان إلى الحصول على جائزة نوبل للآداب في عام ١٩٢٩. وعلى الرغم من أن جائزة نوبل لا تمنح بسبب عمل محدد، فقد حددت الأكاديمية السويدية رواية بودنبروك كسبب رئيسي لحصوله على الجائزة. وتصور الرواية تراجع عائلة تجارية برجوازية غنية من شمال ألمانيا بالتحديد من مدينة لوبك على مدى أربعة أجيال، ويظهر التراجع بشكل واضح في شخصية كريستيان بودنبروك والآخر هانو بودنبروك. في كتابة الرواية استلهم مان الكثير من تاريخ عائلته (عائلة مان لوبك). والمدينة التي تعيش فيها عائلة بودنبروك في الرواية تشترك في الكثير من أسماء الشوارع وتفاصيل أخرى مع مدينة لوبك موطن مان الأصلي، ومع ذلك لا تذكر الرواية اسم لوبك.

هل يجوز أيضاً أنني لم أكن أعرف اسم مارلين ديتريش أيضاً؟ ألم يذُر الحديث أبداً في حضرتي عن «الملاك الأزرق»[1]؟ بالنسبة إلى تيريزه كانت كل البيوت التي سكنتها ديتريش في هذه المدينة مألوفة. فرانس فيرفل[2]؟ لم أكن أريد المتابعة بذكر الموسيقيين والممثلين. شبكة متداخلة من الثقافة الألمانية كانت قد تمددت فوق هذه المدينة. لم يبق أي شيء منها. لا أعرف - قلت - كم من الشباب الذين يبلغون العشرين اليوم يعرفون هذه الأسماء.

ماذا تريدين؟ - قال بيتر غوتمان - السقوط خارج الذاكرة هو الأمر الأكثر طبيعية في هذا العالم. وأنا وأنت وتيريزه، إننا لن ننساهم.

كنا مرهقين، منهكين، جوعى. لم تشارك تيريزه في نواحنا، بل

---

(١) **الملاك الأزرق**: عنوان فيلم ألماني أنتج عام ١٩٢٩-١٩٣٠ من إخراج جوزيف فون شتيرنبرغ. اشترك في كتابة سيناريو الفيلم كارل غوستاف فولمولر وكارل تزوكرماير وهو مأخوذ عن رواية «البروفسور أونرات» لهاينريش مان. وقد تم عرض الفيلم لأول مرة يوم ١ أبريل ١٩٣٠ كما تم إنتاج نسخة إنجليزية منه بالممثلين أنفسهم عرضت في لندن يوم ٤ يوليو من العام نفسه.

(٢) **فرانتس فيكتور فيرفل** (١٨٩٠-١٩٤٥): كاتب نمساوي. يعد أحد أدباء الحركة التعبيرية. كانت كتبه الأكثر مبيعاً في العشرينيات والثلاثينيات من القرن الماضي. ولد فرفل في براغ سنة ١٨٩٠، ويعود أصله إلى إحدى عائلات التجار اليهودية. أنهى دراسته للتجارة في هامبورغ وأصبح مسؤولاً عن النشر في دار كورت فولف للنشر في لايبزيغ، وفي الفترة من سنة ١٩١٥ إلى سنة ١٩١٧ شارك في الحرب العالمية الأولى، ثم عاش بعد ذلك كاتباً حراً في فيينا، وفي سنة ١٩٣٨ هاجر إلى فرنسا، وفي عام ١٩٤٠ هرب من باريس عبر جبال البرانس إلى البرتغال، ومن هناك هاجر إلى أميركا حيث مات في كاليفورنيا في سنة ١٩٤٥.

كانت لديها خططها الخاصة. توجهت إلى شارع هوليوود بوليفار وأخذتنا إلى مطعم «موسو و فرانك» حيث كان كتّاب أمريكيون مثل هيمينغوي[١] وفولكنر[٢] وفيتزجيرالد[٣]، بالإضافة أيضاً إلى العديد من المهاجرين الألمان يلتقون. معروف أن بريخت مثلاً كان من بينهم. إنني أعشق هذه الأماكن. استقررنا في إحدى الكوى حيث جلسنا على المقاعد الحمراء التي يُفترض أنها موجودة في هذا المطعم منذ بداية

(١) **إرنست ميلر همينغوي** (١٨٩٩-١٩٦١): كاتب أمريكي يعد من أهم الروائيين وكتّاب القصة الأمريكيين. كتب الروايات والقصص القصيرة. غلبت عليه النظرة السوداوية للعالم في البداية، إلا أنه عاد ليجدد أفكاره فعمل على تمجيد القوة النفسية لعقل الإنسان في رواياته، غالباً ما تصور أعماله هذه القوة وهي تتحدى القوى الطبيعية الأخرى في صراع ثنائي وفي جو من العزلة والانطوائية. شارك في الحربين العالميتين الأولى والثانية حيث خدم على سفينة حربية أمريكية كانت مهمتها إغراق الغواصات الألمانية، وحصل في كل منهما على أوسمة حيث أثرت الحرب في كتابات هيمنغوي وروايته.

(٢) **ويليام كتبيرت فوكنر** (١٨٩٧-١٩٦٢): روائي أمريكي وشاعر وأحد أكثر الكتاب تأثيراً في القرن العشرين. حصل على جائزة نوبل في الأدب عام ١٩٤٩، كما نال جائزة بوليتزر في عام ١٩٥٥ عن حكاية خرافية، وفي عام ١٩٦٣ عن الريفرز. تتميز أعمال فوكنر بمساحة ملحوظة من تنوع الأسلوب والفكرة والطابع.

(٣) **فرانسيس سكوت كي فيتزجيرالد** (١٨٩٦- ١٩٤٠): مؤلف أمريكي للروايات والقصص القصيرة تعد كتاباته نموذجاً مثالياً لكتابات عصر الجاز، وهو المصطلح الذي صاغه بنفسه. كما يعد أحد أعظم الكتاب الأمريكيين في القرن العشرين، ويعتبر أيضاً عضواً في «الجيل الضائع» للعشرينيات. كتب أربع روايات: «هذا الجانب من الجنة» و«الجميلة والملعون» و«غاتسبي العظيم» و«الليلة الناعمة»، إضافة إلى رواية خامسة لم تكتمل وهي «حب التاجر الأخير» التي نُشرت بعد وفاته. كما كتب أيضاً العديد من القصص القصيرة التي تعالج موضوعات الشباب وتقدم العمر واليأس. كما مثلت رواياته في أفلام سينمائية أشهرها غاتسبي العظيم عام ٢٠١٣.

إنشاء هذا المطعم. تفحصنا روّاد المطعم الآخرين بفضول لربما يكون بينهم وجه مألوف. قائمة الطعام أيضاً يفترض أنها لم تتغير - كما أُبلِغْنا - إذن طلبت أنا لحم ضلع الخروف، وهو ما أثار الشهية بشكل غير عادي كما هو متوقع، ولكن في هذا المكان لا يمكن لأي شيء أن يزعجني.

بعد فترة قالت تيريزه إنها كفتاة صغيرة كانت كثيراً ما تتمنى أن تولد لأبوين مختلفين وفي مكان آخر. لا أن تكون حبيسة تلك المدرسة الداخلية الكاثوليكية البشعة. لم يكن بوسعنا أن نتصور أي ضرورة أودت بها إلى هناك، بأي قسوة يُفرض هذا الدين الحق. قالت إنها تكره الكنيسة منذ ذلك الحين، لا يتسنّى لها غير ذلك. فقد تلقت جرعة زائدة من الدين آنذاك. كان عليها أن تضحك دائماً حين تسمع أو تقرأ كيف كان يتم تلقين الأطفال في الجمهورية الألمانية الديمقراطية.

لا أعلم لماذا لم أزر متجر الكتب القديمة في شارع سكوند ستريت سوى متأخراً جداً. أعتقد أن ستيوارت - الباحث الأسود الوحيد في جماعتنا - هو من نصحني به. جلسنا أمام مقهى لارجو وأكلنا سلاطة فواكه البحر. كان ستيوارت بين الباحثين في دفعتنا هو ذلك الذي يبقى منعزلاً غالباً، انعزالياً كان يثير اهتمامي منذ وقت طويل ربما تحديداً لذلك السبب، وبسبب بعض ردود الفعل المتحفظة أثناء نقاشاتنا الطويلة. فمن مطة شفاه أو رفع حاجب كان من الممكن أحياناً استقراء الازدراء أو النقد خلال نقاشاتنا. كان هو الوحيد بين الأمريكيين في مجموعتنا الذي كان يسكن في لوس أنجلوس، كان غالباً ما يقف على يسار كل شيء ويستطيع أن يقدّر العلاقات في هذه

المدينة بشكل أكثر واقعية من الجميع. كان آتياً من الحركة النقابية - كما قال - ولكن من مجموعة منشقة. فالنقابات «البيضاء» الكبرى لم تكن تنشغل بمدى استغلال الشركات للعمال المكسيكيين، فقد كانوا في أحيان كثيرة لا يتقاضون أجراً على الإطلاق حين يكونون قد دخلوا البلاد عن طريق الهجرة غير الشرعية. وقد كان هو كاختصاصي اجتماعي يدرس كيف يقوم رجال الأعمال بمساعدة السوق بتمييز العمال على أساس العرق والجنس، وكيف تساعدهم النقابات على ذلك. كيف يتم التعامل بعنصرية في تخصيص المناطق السكنية وبيع البيوت، وهذا غير قانوني، لكن الجميع يعرف ذلك، والجميع يفعل ذلك. قال إنه يطمح إلى مجتمع متعدد الثقافات، وإنه يعمل مع مجموعات في مناطق الملونين، كان يريد تسييسهم. من أجل ذلك كان يجب عليهم أن يفهموا حقيقة المجتمع الذي يعيشون فيه.

ها قد كان هناك شخص يريد تغيير العالم. فهل كان الأمر يستحق فعلاً؟ قال لي ستيوارت: أرجو ألا تستسلما. خطر لي أنني أريد أن أتذكر دائماً، أن شاباً أمريكياً كان قد قال لي هذه العبارة، وقد حفظت ذلك في ذاكرتي بالفعل، وعندما أستدعي هذه العبارة اليوم أستطيع أن أرى الضوء الذي وقع من سماء الظهيرة الخالية من الغيوم على شارع ثيرد ستريت. لاحقاً فقط اتضح لي أن ستيوارت كان قد دعاني إلى مائدة الوداع. بعدها ببضعة أيام كان قد اختفى، قيل إنه اضطر لقطع فترة إقامته في «المركز» مبكراً. لم يكن قد ودّع أحداً. وجدت في صندوق بريدي ورقة منه: "Don't worry" (لا تقلقي).

أرسلني إذن إلى إيريك تشيم كلاين في متجر الكتب القديمة الذي كان مظلماً جداً كما يجب أن تكون كل متاجر الكتب القديمة، والذي كانت كل جدرانه بالإضافة إلى بعض الطاولات مغطاة بالكتب.

إنجليزية وفرنسية بل وروسية. في النهاية وجدت في الخلف يساراً في الركن المكتبة الألمانية وبدأت أفتّش في صفوف الكتب. أخذت أفتح هذا الكتاب أو ذاك وقرأت الأسماء والتواريخ: هنا كانت تركة المهاجرين الألمان الذين ماتوا في الغربة أو الذين تمكنوا من العودة لكنهم اضطروا لأن يتركوا وراءهم بعض المتاع الذي كانوا قد أتوا به معهم ذات يوم من أوروبا. أم كيف يمكن أن تصل إلى هنا رواية فيكي باوم(١) الضخمة المغلفة بالكتان الأحمر الذي صار اليوم بالياً، «الحب والموت في بالي»، الصادرة في ١٩٣٧ في دار نشر كويريدو لأدب المهجر في أمستردام. لم أكن قد سمعت عن هذا العنوان من قبل، لكن مؤخراً فقط كنت قد مررت بمنزل فيكي باوم الهائل على طريق ألمافي درايف.

كانت إذ فطنت بذكاء حاد لطبيعة الاشتراكية القومية قد هاجرت مبكراً من ألمانيا، وكانت واحدة من القليلين الذين حققوا نجاحاً أيضاً في الولايات المتحدة الأمريكية واستطاعوا أن يعيشوا حياةً مرفهة. تصفحت الكتاب، حينئذٍ جاء إليّ شاب أسود مهذب، طرح عليّ

---

(١) **فيكي باوم (١٨٨٨-١٩٦٠)**: كاتبة نمساوية من عائلة يهودية، بدأت الكتابة مبكراً إلا أن أول رواية لها نشرت بعد أن بلغت الواحدة والثلاثين من عمرها، وأما الرواية التي اشتهرت بها فقد صدرت عام ١٩٢٩ بعنوان «الناس في الفندق» وهي التي تحولت إلى فيلم حاز على جائزة "Academy Award"، وقد سافرت إلى الولايات المتحدة مع أسرتها بعد أن تلقت دعوة لكتابة سيناريو الفيلم. كانت أعمال باوم ممنوعة في الرايخ الثالث، فبقيت في المهجر وحصلت على الجنسية الأمريكية عام ١٩٣٨. كتبت باوم ما يزيد على خمسين رواية تحول الكثير منها إلى أفلام سينمائية وكانت معظم كتاباتها بعد الحرب العالمية الثانية باللغة الإنجليزية بدلاً من الألمانية، بالإضافة إلى ذلك صدرت مذكراتها عام ١٩٦٤.

السؤال الإجباري: "Can I help you?" (هل أستطيع مساعدتك؟) حاولت أن أجعله يفهم ما أبحث عنه. قال: "Wait a moment!" (انتظري لحظة!)، وبعد دقائق قليلة جاء رجل أكبر سناً، رجل يقظ، شعره أبيض، على رأسه طاقية يهودية سوداء، كان لا بد أن يكون هو صاحب المتجر. استمع إلى مطلبي بصبر: أدب المهاجرين الألمان الذين عاشوا هنا. فَهِم. عليّ أن آتي ثانيةً غداً بعد الظهر، كان يعتقد أن لديه شيئاً لي. أما مجلد فيكي باوم فقد تركته لهم ليعيدوه مكانه.

اليوم التالي، يوم من شهر يونيو، كانت الحرارة قد ارتفعت ثانية بشكل غير عادي. اصطحبني صاحب متجر الكتب القديمة المسن - السيد كلاين - صعوداًعلى درج خشبي إلى غرفة محفوظات طويلة، تحت عوارض السطح مباشرةً حيث كانت آلاف الكتب مرصوصة على الجدران وعلى الأرض وعلى منضدات طويلة. كان الحر لا يحتمل، في خلال ثانية كنت غارقة في عرقي. فاحت رائحة أوراق ساخنة وخشب ساخن. آهٍ لو شب حريق هنا!- خطر لي. كان صاحب متجر الكتب القديمة قد أخلى ركناً على إحدى المنضدات حيث وضع الكتب التي أراد أن يعرضها عليّ. تركني وحدي.

الكتب التي رأيتها في هذا اليوم للمرة الأولى مرصوصة الآن حولي، آخذها في يدي، ويعاودني شيء من الأجواء التي كانت أحاطت بي آنذاك. في الأعلى كان المجلد الصغير «الإنسان صالح» لليونارد فرانك، غلاف من الورق المقوى الأحمر ظهره مصنوع من الكتان، يبدو عليه القدم بوضوح، وورق مصفرّ مستهلك، صادر عن دار نشر غوستاف كيبنهوير في بوتسدام، من دون تاريخ إصدار، لكن فيه إشارة: «كُتِب في ربيع ١٩١٧» وإهداء: «إلى الأجيال القادمة».

حماسة لم تكن لتظهر خلال الحرب العالمية الثانية، خطر لي وقد رأيت بالفعل من النظرة الأولى على العنوان الذي يدعو للسخرية أن الكاتب الذي كان وقتئذ في ريعان شبابه كان قد ألّف كتاباً رائعاً مناهضاً للحرب لم تتجاوزه الحكايات الوحشية وعنفوان الكتب اللاحقة الأكثر شهرة التي صدرت في العشرينيات. لماذا سقط خارج الذاكرة؟ كتاب ريمارك «كل شيء هادئ على الجبهة الغربية» [1] لم يكن بوسعه أن يكون أكثر استفاضةً، وهو ما كان موضوعاًهناك أيضاً، ممزقاً، من دون غلاف ومن دون إشارة للناشر، لكنها على الأرجح الطبعة التي وجدتها نفسها - وكان وجودها يشكّل لغزاً- لدى جدتك وقرأتها على أريكتها. كنت قد قلت لنفسي مراراً، لا يمكن أن يكون هذا حقيقياً، فلم تكوني قد رأيت جدتك تقرأ شيئاً سوى « جريدة لاندسبرغ المحلية»، فكيف يخطئ كتابٌ ممنوع طريقه إليها؟ ومع ذلك فإنني ما زلت أشعر بخشونة مسند أريكتها في يدي، بينما كنتِ تسجلين بداخلك صوراً رهيبة من تلك المحاضرة، والتي أعتقد أنني لا أزال أذكرها حتى اليوم. كما أذكر المقولة التي كانت تُكتب بالحروف القوطية مؤَطّرةً بالأسود، معلقةً على الحائط، والتي كنت تعيدين قراءتها مراراً وتكراراً، والتي كانت تحزنك كل مرة، والتي حفظتُ سطراً منها، وهو الذي لم أجد أصله سوى لاحقاً: «كان لي ذات يوم وطن جميل»[2]. أعرف اليوم أنه هاينريش هاينه. كيف وصلت قصيدة لهاينريش هاينه إلى جدتي؟ *كان لي ذات*

---

(١) **كلّ شيء هادئ على الجبهة الغربية**: هي الرواية الأشهر لريمارك والتي تدور حول معايشة الجنود الألمان العاديين للحرب. (انظر هامش ٢ صفحة ١٦١).

(٢) من قصيدة «في الغربة» للشاعر هاينريش هاينه.

يوم وطن جميل/ شجرة سنديان / نَمَت هناك عالية والبنفسج تدلى لطيفاً / كان حلماً. هل كُتِب اسم الكاتب تحت النص مثلاً؟ لا أعتقد. مهاجر أيضاً. واحد ممن أحسوا بالغربة أيضاً. مثل ذلك الذي كَتَبَ الإهداء لرفاق القدر في كتاب إيريش كستنر[1] «رجل يعطي معلومات» الذي كان موضوعاً أيضاً في الركن على المنضدة الطويلة: «عزيزي باول، "Merry X-Mas" (عيد ميلاد سعيد) - هذا الكِتاب يُفترض ألا يجعلك تنسى لغتنا القديمة. مع خالص محبتي. فالتر».

جاذبية انطلقت من هذه الكتب

مرة أخرى أقع تحت تأثير هذه الجاذبية إذ أتعمق في الكتب التي كتبها هؤلاء المهاجرون لاحقاً مستعيدين الذكريات بعد عودتهم أو ليكن عدم عودتهم إلى ألمانيا ما بعد الحرب. إن كتب لودفيغ

---

(١) **إيريش كستنر** (١٨٩٩-١٩٧٤): شاعر وروائي وقاص وكاتب سيناريو ألماني، ولد في مدينة درسدن وتوفي في مدينة مونيخ. تلقى في بدايات حياته تأهيلاً لمهنة معلم ابتدائي، ثم سيق إلى الجبهة إبان الحرب العالمية الأولى، إلا أنه أُعفي من الخدمة بسبب إصابته بمرض في القلب. درس الأدب الألماني والتاريخ والفلسفة وحصل في عام ١٩٥٢ على شهادة الدكتوراه، ثم عمل كاتباً وصحفياً مستقلاً في مدينة برلين. عند بداية الحكم النازي في عام ١٩٣٣ أُحرقت مؤلفات كستنر، ومُنعت من التداول في المكتبات إلا أنه لم يترك ألمانيا كغيره من أدباء تلك المرحلة ومفكريها، بل تابع نشر مؤلفاته خارج البلاد. (المصدر: الموسوعة العربية)

ماركوز[١] وليونارد فرانك وكورت غوتس[٢] وكارل تزوكماير[٣] ومارتا فويشتفانغر، وإيريش ماريا ريمارك - تلك الكتب التي يمكن العثور عليها بحسب نتائج البحث على الإنترنت كقطع أثرية بما أن معظمها لم يُعَد نشره منذ عقود. يتعثر عملي بينما أدفن نفسي داخل هذه

---

(١) **لودفيغ ماركوز** (١٨٩٤-١٩٧١): فيلسوف وكاتب ألماني من أصل يهودي. عاش في فرنسا من عام ١٩٣٣ حتى عام ١٩٤٠ مع ألمان آخرين في المنفى. ثم هاجر إلى لوس أنجلوس حيث عاش هناك من عام ١٩٤٠ حتى عام ١٩٥٠ ثم عاد إلى ألمانيا وعاش فيها حتى وفاته في عام ١٩٧١.

(٢) **كورت فالتر غوتس** (١٨٨٨-١٩٦٠): كاتب وممثل ألماني سويسري.

(٣) **كارل تزوكماير** (١٩٧٧-١٨٩٦): كاتب ألماني، اضطر إلى ترك ألمانيا والذهاب إلى المنفى في هيندورف على ضفاف بحيرة فالرزيه في النمسا بعد استيلاء النازيين على السلطة. وهناك صنع من منزله الريفي مكاناً لالتقاء الكتّاب والفنانين الذين هربوا من المطاردة والاضطهاد السياسي والاقتصادي في ألمانيا. ومن بين هؤلاء الكتّاب والفنانين الذين سموا حينذاك بدائرة هيندورف، كان أودون فون هورفات وشيفان تسفايغ. بعد ضم هتلر للنمسا في عام ١٩٣٨ وجد تزوكماير نفسه مضطراً للهروب لأن والدته كانت تنحدر من عائلة يهودية. في البداية هاجر إلى سويسرا ثم إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث عمل هناك في هوليود كاتب سيناريو. وحين رأى أن عمله في كتابة السيناريو لا يسير على ما يرام، قام في عام ١٩٤١ باستئجار مزرعة في فيرمونت، قام بزراعتها حتى نهاية الحرب. وفي عام ١٩٤٣ قام تزوكماير بالتعاون مع المخابرات السرية الأمريكية للشؤون الخارجية المعروف باسم «مكتب الخدمات الاستراتيجية»، بأن كتب تقارير عن الممثلين والمخرجين ودور النشر والصحفيين الذين ازدهرت أعمالهم أثناء فترة «الرايخ الثالث» في ألمانيا. وبعد نهاية الحرب عاد تزوكماير إلى أوروبا في عام ١٩٤٦ كمندوب ثقافي مدني تابع لوزارة الحرب الأمريكية. وبعد رحلة استكشافية في ألمانيا لمدة خمسة أشهر كتب تقريره الشامل «التقرير الألماني»، الذي انتقد فيه إجراءات الاحتلال السياسية المتعددة، وقدم قائمة من اقتراحات التغيير الصحيحة. ونشر هذا التقرير لأول مرة في عام ٢٠٠٤.

النصوص. أبحث عن المواضع التي يصف فيها كتابها ما أحدثه المنفى في نفوسهم. ما الذي كان يعنيه أن يصيروا بلا جذور. وأن يعرفوا أن أحداً من المحليين في بلاد المنفى بل ولا حتى من أبناء الوطن السابقين لا يستطيع أن يُقدّر كيف غيّرتهم سنوات من هذا العيش في الظل. وأقرأ مجدداً تلك الرواية التي كنت قد وجدتها أيضاً لدى السيد كلاين في متجر الكتب القديمة منشورة في سلسلة تدعى «صحافة المحيط الهادئ» كان قد أسسها مهاجرون لم أكن أعرفهم من قبل: «هذا الثأر لي»، لفريدريش توربرغ.[1]

أتذكر تحديداً الليلة الأمريكية التي قضيتها - بسبب هذه الرواية التي تعد إحدى الروايات المبكرة جداً التي تصف الأوضاع في معسكرات الاعتقال الألمانية - مؤرقةً، لما فيها من وصف بشع لأعمال التعذيب السادية التي مارسها قائد الإس إس ضد المعتقلين اليهود كما لم أقرأ من قبل. على مستوى - إذا أردنا أن نقول - فلسفي يتعلق الأمر بالسؤال حول ما إذا كان يحق لليهودي المؤمن أن يقتص من جلاده بنفسه رغم كون هذه بالأساس مهمة «الله». أما الراوي فقد فعلها، قتل رجل الإس إس، وآخر ما يخطر ببال هو أن يكون الهرب إلى هولندا، ثم إلى الولايات المتحدة الأمريكية قد حقق له السعادة، وقد وقف حينئذٍ بالميناء في نيويورك ينتظر كل سفينة آتية من ألمانيا، إذ ربما يكون أحد الرفاق الخمسة والسبعين الذين تركهم وراءه في تلك الثكنات على متنها، فارّاً مثله. يمزق قلبه تصوُّر أن يكونوا قد

(١) فريدريش توربرغ (١٩٠٨-١٩٧٩): كاتب وصحفي وسيناريست وناشر نمساوي - تشيكوسلوفاكي. عُرف أيضاً في النمسا بعد الحرب مترجماً وناقداً أدبياً.

قتلوا جميعاً من باب الثأر لأنه قتل هذا القائد.

المحزن أكثر في نسختي: على هوامش أوراق المجلد الصغير المصفرّة كان النص المطبوع مسبوقاً بملاحظات بالقلم الرصاص لا بد أنها لقارئ يهودي مهاجر. كانت تصاحب عمليات السرد القاتمة بتعليقات وصيحات ومشورات متأخرة. وتحت الجملة الأخيرة كان ذلك القارئ قد كتب: «أمريكا مليئة باليهود الذين يحبون ألمانيا ويحنون إليها».

إنني بالفعل لا أزال أرى نفسي على الأرض الساخنة المليئة بالكتب لدى السيد كلاين، نما برج الكتب التي كنت أريد أخذها معي، أسماء معروفة، عناوين غير معروفة لأرنولد زفايغ [١] وليونارد فرانك. ومرة أخرى فيكي باوم، وبرونو فرانك. لكن أكثر ما أشعل الطمع في نفسي كانت ثلاث مجلات غير لافتة رمادية ومهلهلة بعض الشيء، ثلاثة أعداد من "WORT" [٢] من الثلاثينيات، مجلة المهاجرين التي كانت تصدر من موسكو. أريد أن آخذ هذه، قلت للسيد كلاين حين عاد إليّ. ابتسم بسعادة: نعم - قال - أظن هذا. لكن هذه النسخ الثلاث تحديداً ليست للبيع، قال إنه حصل عليها هو نفسه وهو طالب في بوستن كمقتنيات قديمة ويريد أن يحتفظ بها. تحدثنا عن الكتب الأخرى، عن الأسعار، إمكانية الشحن، كل شيء مر من دون مشاكل. ثم عدت إلى المجلات: سألته إن لم يكن بوسعه

---

(١) **أرنولد زفايغ** (١٨٨٧-١٩٦٨): كاتب ألماني وناشط سياسي مناهض للحرب وللفاشية.

(٢) **WORT**: أو «كلمة» هي مجلة أدبية شهرية عنيت بأدب المهجر وكانت تصدر بين عامَي ١٩٣٦ و١٩٣٩ من موسكو ويقوم بتحريرها برتولد بريخت وليونارد فويشتفانغر وفيللي بريديل.

أن يغير رأيه. . . هز السيد كلاين رأسه. قال إنه لم يكن يتعين عليه أن يريني إياها. فقلت: إنني قد أحتاج إليها في عملي المباشر، ربما يودّ أن يراجع نفسه في الأمر. بالنسبة إليه - قال - كانت هناك ذكريات غالية ترتبط بهذه المجلات. شعرت بنبرة تردد في صوته واستمررت في الضغط. جاءت لحظة صمت. في النهاية التفت السيد كلاين إليّ وقال: "But they are very expensive!" (لكن ثمنها باهظ جداً).

باهظ جداً، بالطبع. سألته: "How much?" (بكم؟) نظر إليّ السيد كلاين متفكراً بينما قال: "One thousand dollars" (ألف دولار).

لم يكن يريد أن يبيع. كان يريد أن يختبرني.

كنت أفهم أن عليّ أن أدفع لأسباب كثيرة.

قلت: "I'll take them. They are more important than a new car" (سآخذها. إنها أهم من سيارة جديدة).

بدا السيد كلاين وقد أُخِذ على حين غرة. جاءت لحظة صمت. موافق، قال السيد كلاين أخيراً، ضحك وضمني. كان عليّ أن أذهب إلى البنك أولاً. وقد أعطاني السيد كلاين المجلات لآخذها معي، لم أكن لأدعها ترسل إليّ بالبريد الجوي مع الكتب الأخرى. لم أندم على هذه الصفقة أبداً.

في شقتي استلقيت على السرير وتصفحت أعداد مجلة "WORT". قرأت افتتاحيات توماس مان وهيمينغوي. قرأت لإيريش فاينرت[1] ذكرياته عن وجوه الرفاق الذين سقطوا في إسبانيا. من لا

---

(١) إيريش برنار غوستاف فاينرت (١٨٩٠-١٩٥٣): كاتب ألماني شيوعي كان عضواً في الحزب الشيوعي الألماني هرب من ألمانيا إلى سويسرا بعد استيلاء =

يزال يذكرهم؟ - قلت لروث وبيتر غوتمان اللذين التقيت بهما. في ألمانيا الجديدة هذه سوف يُسلّمون للنسيان. لكن ربما كان هذا تحديداً هو سر تمسكي بألمانيا الأصغر، كنت أعتبرها الوريث الشرعي لألمانيا الأخرى التي تم تتبعها وتعذيبها في السجون والمعتقلات، وفي إسبانيا ومختلف بلدان المنفى وأُنهكت ببشاعة ومع ذلك قاومت. لم أستطع أن أمنع نفسي من أن أتصفح أمامهما أضخم عدد من مجلة WORT ذات الغلاف الرمادي الممزق والخط الأحمر والصفحات المصفرّة، عددين مجمّعين من أبريل ومايو ١٩٣٧. كانت سعادتي الأكبر بهذا الاكتشاف: كانت هيئة التحرير قد طلبت من جميع الكتّاب الألمان المناهضين للفاشية المهاجرين المتاحين إرسال معلومات عن سيرهم الذاتية وأعمالهم، وقامت بنشر ردودهم على خمسين صفحة، مئة كاتب كنت أعرف أنا منهم ثمانية وعشرين بشكل شخصي - قلت لبيتر غوتمان وروث - مرت وجوههم أمام عيني، ومصائرهم، وكتاباتهم. «هذه الكتب أُحرقت في ألمانيا»، «هذه الكتب ممنوعة في ألمانيا»، هكذا كتب تحت أحد العناوين القصيرة. حين صدرت هذه المجلة -

---

= الحزب النازي على الحكم. وعاش من عام ١٩٣٣ حتى عام ١٩٣٥ مع زوجته وابنته في محمية زار، ثم ذهب من هناك إلى باريس لكي يتمكن بعد ذلك للوصول إلى الاتحاد السوفياتي حيث نشر من هناك أنطولوجيا القصائد المناهضة للفاشية صدرت عام ١٩٣٤. انضم إلى الألوية الدولية المشتركة في الحرب الأهلية الإسبانية حيث عمل مراسلاً على الجبهة، ونقل خبرته تلك في قصائد نشرها في ديوان بعنوان «الرفاق» صدر لاحقاً عام ١٩٥١. واصل فاينرت هجومه على ألمانيا ونشر الدعاية المعادية للقوات المسلحة الألمانية حتى كان يطبع بعض الأشعار ويرمي بها للجنود خلف الحدود. في عام ١٩٤٣ اختير رئيساً لما سمي باللجنة الوطنية لألمانيا الحرة. ونشر مذكراته حول الحرب في العام نفسه بعنوان «تذكروا ستالينغراد».

قلت - كنت في الثامنة من عمري، كنت أقرأ حكايات الأخوين غريم وأندرسون وهاوف بشغف، ربما صانني هذا مما هو أسوأ. فهل تستطيع هذه الحكايات أن تضع أساساً لمشاعر التعاطف ضد الظلم؟ للقدرة على التفرقة بين الخير والشر؟

لم تسمعي يوماً كلمة نقد صريحة ضد الفوهرر، كنت فقط ألحظ ملامح أمك المرتابة والقلقة، التي صارت قرب انتهاء الحرب أكثر يأساً. كانت قد قالت - ولا بد أن ذلك كان في ١٩٤٣/ ٤٤ - لإحدى زبائنها التي كانت تثق بها: لقد خسرنا الحرب! تم الإبلاغ عنها وعليه جاء رجلان بزي عسكري أكثر من مرة إليها واستجوابها. كان الخوف قد ملأ والديك، وحاولا إخفاء ذلك عنك لكنهما فشلا.

على الطاولة أمامنا كان كتاب باول مركر[1] الذي كنت قد وجدته أيضاً في متجر الكتب القديمة، مجلد ضخم من ٥٧٤ صفحة، مغلف بالكتان البني، بيانات الناشر: هيئة تحرير «إل ليبرو ليبر» المكسيك، ١٩٤٥ . عنوانه: «ألمانيا - تكون أو لا تكون؟» كنت أعرف مدير دار النشر تلك، فالتر يانكه - قلت لضيوفي - شيوعي مخلص من عائلة عمّالية، عمل بشكل غير شرعي بعد عام ١٩٣٣، تم حبسه في أحد سجون النازي، كما حارب كقائد في إسبانيا لدى الجيش الشعبي الإسباني، ثم سجن في المعتقلات الفرنسية بعد انتصار فرانكو. قلت: من ضمنها معتقل «لي ميل».

لقد ذهبت إلى هناك من مارسيليا، حيث حاولتما اقتفاء أثر المسار الذي وضعته آنا زيغرس في روايتها «العبور». في معتقل «لي ميل» لم

---

(١) باول مركر (١٨٩٤-١٩٦٩): سياسي وعضو فاعل في الحزب الشيوعي الألماني، والحزب الاشتراكي الألماني الموحد.

يكن هناك أحد، المبنى الذي كان المساجين يحتجزون فيه مغلق، كنتما تنظران عبر نوافذ متربة على الحجرات الداخلية، استطعتما تصوّر أجزاء من نقوش الجدران - من الفواكه والأطعمة - التي كان المساجين ومن بينهم ماكس إرنست[١] قد رسموها ليهونوا على رفاقهم الجائعين. مساحة الأرض كلها مغطاة بالحصى الصغير المكسّر الجاف الأحمر، هنا كان يصنع الطوب الأحمر. لا بد أن هطول المطر كان يحول ذلك الفناء كل مرة إلى مستنقع أحمر.

الإنجاز - قلت - هو إصدار هذين المجلدين الضخمين لباول مركر في دار نشر أدب المهجر. بل الإنجاز أولاً هو كتابة هذا العمل في المهجر. كباعث على ذلك لا بد للمرء أن يتصوّر السؤال الملح لدى المهاجرين اليساريين بشأن ما ستؤول إليه ألمانيا بعد الانتصار على هتلر، وهو السؤال الذي دارت حوله العديد من المناقشات الجدلية، على سبيل المثال بين بريخت وتوماس مان، هنا في كاليفورنيا، حيث التزم ثمانية من الكتّاب المتميزين - من بينهم بريخت والأخوان مان في أغسطس ١٩٤٣ في *تلك اللحظة*، حيث *اقترب نصر دول الحلفاء* - بواجبهم في استقبال حشد *الأسرى والمهاجرين الألمان في الاتحاد السوفياتي الذي حث المواطنين الألمان على إجبار حاكمهم المستبد على الاستسلام غير المشروط والنضال من أجل إرساء ديمقراطية قوية في ألمانيا*. وقد تلت ذلك الجملة الأهم والتي كانت آنذاك أبعد ما تكون عن البديهية: *نحن أيضاً نعتبر أنه من الضروري التفرقة التامة بين نظام هتلر والطبقات المرتبطة به من ناحية والشعب*

---

(١) **ماكس إرنست** (١٨٩١-١٩٧٦): رسام ونحّات وشاعر ألماني. فنان غزير الإنتاج، ويعتبر واحداً من أبرز رواد الحركة الدادائية والسريالية.

الألماني من ناحية أخرى.

وفي اليوم التالي يكتب بريخت غاضباً في مذكرة أعماله[١]، ويتصل بتوماس مان عند فويشتفانغر ليسحب توقيعه الذي كان - حسب رأيه - *يطعن الحلفاء في ظهورهم*. قال إنه *لا يستسيغ أن يستمر الحلفاء عشرة أو عشرين عاماً في توقيع العقوبات على ألمانيا*.

لطالما ازداد وما زال يزداد إعجابي ببعد نظر باول مركر الذي يوجد كتابه الذي ألّفه بعد رحلته عبر المحيط الآن موضوعاً أمامي. أتصفحه حتى الصفحة الأخيرة، حيث يقترح على اللجنة المركزية للحزب الشيوعي مبادرة من إحدى عشرة نقطة، أولها: *تأسيس نظام ديمقراطي مناهض للفاشية وجمهورية نيابية تتمتع بكل الحريات الديمقراطية*.

ما كان مصير هذا الرجل؟ سأل بيتر غوتمان آنذاك.

قلت: قيل إنه توفي في عام ١٩٦٩ «محطّماً نفسياً وجسدياً». بدايةً تم استبعاده من الحزب لأنه كان على اتصال بالأمريكي نويل فيلد[٢] الذي ساعده مثلما فعل مع الكثير من المهاجرين لدى الهرب

---

(١) **مذكرة أعامل بريخت (Arbeitsjournal)**: هي على عكس الكثير من المذكرات السابقة عليها التي تتناول تفاصيل الحياة الشخصية للكاتب أو الفنان تتميز مذكرة الأعمال الخاصة ببريخت بأنها عبارة عن تجميع لمختلف المواد، فقد كان بريخت يدوّن خطط مشروعاته ومسوّدات الحكايات وانطباعاته عن بعض القراءات، وملخصات للنقاشات المختلفة التي خاضها مع أصدقاء وفنانين وعلماء، كما تتضمن تعليقاته على الأحداث السياسية اليومية، بالإضافة إلى بعض قصاصات الصحف والصور التي تثري المادة. (المصدر: مجلة دير شبيغل، كلاوس فولكر عن مذكرة أعمال برتولد بريخت، ١٢/ ٢/ ١٩٧٣).

(٢) **نويل هافيلاند فيلد (١٩٠٤-١٩٧٠)**: دبلوماسي أمريكي ذو توجه شيوعي عمل جاسوساً لحساب الاتحاد السوفياتي أثناء فترة عمله موظفاً بوزارة =

من فرنسا المحتلة. قلت: إن سرد حكايته المذهلة سوف يذهب بنا بعيداً جداً. سقط ميركر بعد ذلك في غياهب محاكمات سلانسكي البولندية في الجمهورية الألمانية الديمقراطية، وحكم عليه بالسجن لثماني سنوات - بعد أن كان ستالين قد مات! - فقضى منها أربعة في السجن. بعدها تمت تبرئته وردّ اعتباره من القاضي نفسه الذي كان قد أصدر حكماً ضده قبل ذلك. تم إبعاده وتعيينه في مناصب تافهة.

كان فالتر يانكا الذي كان رفيقه في المنفى في المكسيك وظل يعمل معه بشكل شخصي لفترة طويلة بعد عودتهما قد حكى لكم عنه. هو نفسه كان قد قضى ثلاثة أعوام في المعتقل بعد عام ١٩٦٠ في الجمهورية الألمانية الديمقراطية بتهمة «تكوين جماعة مناهضة للثورة». إلا أنه لم ينكسر جراء ذلك بل بقي مناضلاً. وباعتباره كاتباً مسرحياً فقد كان يرشدكم في بعض مشاريع الأفلام.

يبدو أن الاهتمام المتزايد بموضوعٍ ما يدفع الأشياء كلها نحوه مصادفةً، فمن المناسب أن يُنشر مقالٌ صحفي الآن تحت عنوان «شعاع ضوء من الماضي المظلم»، حيث يتم نشر تقارير بحثية عن سلوكيات العمال البرلينيين إبان العصر النازي: مقاومة الديمقراطيين الاشتراكيين والشيوعيين، الذين كان عدد قتلاهم قد ارتفع بشكلٍ خاص، آلاف المعتقلين والذين تعرضوا للتعذيب، ومئات ممن أُعدِموا. إلا أن التصور حول الإفساد الاجتماعي للشعب من خلال النظام الاجتماعي الاشتراكي القومي لا يمكن إثباته لدى العمّال البرلينيين. - أين النصب التذكاري لهم؟

= الخارجية الأمريكية في الثلاثينيات، إلا أنه تمت التضحية به ككبش فداء خلال موجة التطهير العرقي الكتلة الشرقية الستالينية بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية.

راودني شعور أن عليّ أن أمهل نفسي إجازة من التفكير، من الكتابة، استلقيت، حاولت أن أفرغ رأسي كما كانت الراهبة تنصح، لكنني سمعت جرس الهاتف. لم تطاوعني نفسي أن أتركه يرن، جاء الصوت من بعيد. أرادت إحدى الصديقات أن تبلغني أن البوسنيين محاصرون الآن في المدينة وأنهم أعلنوا أن لديهم هناك مصنع كلور إذا ما قاموا بتفجيره فهو كافٍ ليلوّث أوروبا بأكملها.

أحياناً أريد أن أعرف كيف كانت طبقات الزمن التي مررت بها والتي أخترقها في عقلي بلا جهد مرتّبة بداخلي: كطبقات فعلاً، بعضها فوق بعضه بدقة؟ أم ككتلة متداخلة من الخلايا العصبية تصدر منها طاقة لا نعرفها تشد ذلك الخيط الأحمر المطلوب على حدة في كل مرة؟ هل سيكتشف الباحثون في مجال الخلايا العصبية ذلك يوماً ما؟

بحثت عن تسلية، شعرت بضغط اقتراب تاريخ السفر، وكان عليّ أن أقول لنفسي أنني لم أهتم بما يكفي أو على الإطلاق بمعالم الجذب التي ترتبط لدى كل إنسان باسم لوس أنجلوس الساحر. اتفق بوب رايس مع هذا الرأي، لا يمكن أن يكون المرء قد جاء إلى هنا من دون أن يزور واحداً من استوديوهات هوليوود الشهيرة على الأقل. قال إن آلان، صديقه الياباني الذي يعمل «خلف كواليس» استوديوهات يونيفرسال سوف يصطحبني إلى هناك. اليوم والساعة تم تحديدهما من دون تدخّل مني - أحد النشاطات التي أخذ خلالها الحافز والتردد يتصارعان بداخلي إلى أقصى الحدود، إلا أن اللياقة إزاء المرافق سيطرت على الموقف في نهاية الأمر. جاء زميل سويسري معنا، ناقد

أدبي، قرأت في قسمات وجهه عند إلقاء التحية التوجس الذي راودني نفسه. وبدا أن آلان كان يستشعر بعض الحرج حين كان يصطحبنا عبر المداخل، إلى السلالم المتحركة فيما يشبه الأنفاق المغطاة بأسقف زجاجية، والتي لا تتوقف عن نقل السوّاح إلى الأسفل حيث تبدأ «الجولة» التي انضممنا إليها. "Welcome to the largest film and television studio in the world. Here you don't just watch the movies - you live them. The real star is you." (أهلاً بكم في أكبر استوديوهات التصوير السينمائي والتلفزيوني في العالم. إنكم لا تشاهدون الأفلام هنا فحسب وإنما تعيشونها. أنتم النجوم الحقيقيون هنا). خلال خمسين دقيقة من التجوال في مدن من الكواليس المتناثرة على مساحات هائلة من الأرض مروراً بالمواقع التي شهدت تصوير أفلام شهيرة، تحديداً تلك الأفلام - قلت لآلان - التي لا أعتبرها من «النوع الذي أفضله». خسارة. قال آلان، لكنني كنت فقط أريد أن أعِدّه لأنني ربما لم أكن لأعرف تلك الأفلام المشهورة أو بعض مشاهدها. أو أنني كنت لأغادر مبكراً لأن «الجولة» صارت الآن بالفعل تثير أعصابي لاسيما بسبب المشاركين المنبهرين انبهاراً غير مشروط أكثر منه بسبب الشهود الصامتين يميناً ويساراً على الطريق.

لكن "Psycho"[١] هذا أعرفه! فعلاً كان مكتوباً هنا بإضاءة شديدة السطوع، بيت الرعب، ولاحقاً يتم إطلاعنا أيضاً على حركة الكاميرا في

(١) **سايكو أو مضطرب العقل (Psycho)** هو فيلم إثارة من إنتاج عام ١٩٦٠ للمخرج ألفرد هيتشكوك. يعد اليوم أحد أبرز أفلام المخرج ألفرد هيتشكوك كما يعتبر الفيلم من أكثر أفلام الرعب تأثيراً. أنتج لاحقاً عدد من الأجزاء التالية للفيلم كما أعاد إنتاجه في عام ١٩٩٨. الفيلم من بطولة: جون غيفين، وجينت لاي، وفرا مايلز، وسيمون أوكلاند، وأنتوني بركينز.

مشهد القتل الشهير في الحمام. لكن في البداية أكملنا الجولة، E.T.[(١)] ظهر أمامنا بصوت يبعث الحنين في النفس: "Quick! Hop aboard a starbound bike! And fly home with E.T." (بسرعة! اقفز على متن الدراجة الفضائية! وطر عائداً إلى موطنك مع إي. تي.)، وهذا ما فعلناه، طرنا إذن بعد ذلك عبر الفضاء وكدنا لا نعود إذ وقعنا في العديد من المواقف الخطرة أعيد تصويرها من أفلام لم أكن أعرفها ولم أُرِد أن أعرفها: جسر تَهَدّم من تحتنا، في محطة مترو الأنفاق شهِدنا زلزالاً، سيارات سقطت في الأعماق، صرخ الركّاب، في إحدى البِرَك ظهر ذيل سمكة قرش منذراً بالخطر. الأفضل على الإطلاق كان نفق الثلج، الذي يبدأ المرء فيه فجأة بالدوران، لكنها كانت الجدران التي تدور من حولنا. على المرء أن يتذكر ذلك عندما يظن أنه في وسط الدوامة وأنه سوف ينجذب إلى الأعماق، حينئذٍ تكون الجدران هي التي تدور من حوله ويكون هو ذاته في عين الإعصار.

ولكن كيف يمكن للمرء بعد ذلك في المستقبل أن يفرق بين الحقيقة والخدعة؟

أن تنسَي ذلك تحديداً، فهذا هو الهدف من هذه المؤسسة بأكملها، قال صاحبنا السويسري. لكن المشاعر التي تتولّد بداخلنا بفعل هذه الخدعة حقيقية. نحن ندفع الأموال مقابل هذه المشاعر.

---

(١) إي. تي: (E.T. the Extra-Terrestrial). هو فيلم خيال علمي أمريكي أنتج عام ١٩٨٢، من إنتاج وإخراج ستيفن سبيلبرغ وكتابة ميليسا ماثيسون. يحكي الفيلم قصة صبي اسمه إليوت (بالإنكليزية: Elliott) يصادق مخلوقا فضائياً ودوداً ضل سبيله إلى كوكب الأرض، فيحاول إليوت مساعدته للعودة إلى كوكبه الأم بدون أن تعرف أمه والحكومة بأمره. «إي. تي.» هو اسم المخلوق الفضائي.

وقد دفعنا أيضاً مقابل الكثير من العروض الخطِرة الأخرى، في الماء وعلى الأرض، بالبارود والمفرقعات والنيران والتفجيرات، ومقابل عرض شرق آسيوي للمبارزة بالسيف أمام تنين، لكن في النهاية وصلنا إلى قاعة أيضاً حيث يتم كشف سر الخدع. على سبيل المثال كيف يمكن جعل شخص يتسلق تمثال الحرية ثم جعله يسقط في النهاية، وهو ما قام به هيتشكوك بالفعل.

بعد ذلك جلسنا متعبين حيث كان المساء قد حل بالفعل، هناك أعلى الجبل في المطعم الياباني البديع الذي يطل على المدينة المترامية الأطراف بأكملها والتي بدأت الأنوار تضيء فيها تدريجياً، شيء لا يصدق - قلنا - لا يُنسى، فابتسم مضيفنا آلان راضياً. في البداية شربنا كأساً من شراب يدعى «كاميكازي» يتكون من ثلاث جرعات من الفودكا مع عصير الليمون. كان يستحق اسمه فعلاً كما ارتأينا جميعاً إذ ازداد استعدادنا للثرثرة، أكلنا السوشي وخليطاً آخر من الأطباق، فاخرة جداً وشهية، بها سمك نيّء كثير، وتحدثنا عن التناقض بين الضمير الياباني والضمير البروتستانتي، كيف أن الأول يقوده الخوف من فقدان ماء الوجه في المجال العام والآخر من الإخفاق أمام الله. وأنه قد يعدّ تقدماً في تاريخ البشرية - كما ارتأينا - عندما طُرِحت مسألة الضمير الخصي. الغريب هو كيف تناسب هذا الحديث بشكل كبير مع تجربة اليوم ومع منظر أضواء المدينة الليلية في تلك الأثناء.

حين عدت إلى فندق ميس فيكتوريا، غير عابئة بحيوانات الراكون الثلاثة التي كانت في نوبة الحراسة كعادتها، كان بيتر غوتمان قد ترك لي مجدداً ورقة تحت الباب. جملة لكلايست[١] بدا له أنها تستحق

---

(١) **بيرنت هاينريش فيلهلم فون كلايست** (١٧٧٧-١٨١١): هو كاتب مسرحي

المشاركة: *بلى إن الجنة أوصدت أبوابها و الكاروبيم*[1] *وراءنا علينا أن نرتحل حول العالم لنرى، إذ ربما تكون في مكان ما في الخلف مفتوحة مرة أخرى.*

كان الوقت لا يزال قبل منتصف الليل، هاتفته: ماذا لو أننا تنازلنا عن الجنة؟

قال: أنت نفسك لا تؤمنين بذلك. فنحن في قلب هذه الرحلة حول العالم بالفعل. فقط بطريقة مختلفة عما استطاع كلايست أن يتصوّره: ليس بعربة الخيول. بل بالصواريخ. إننا نبحث عن البوابة الخلفية، فإذا كانت مقفلة فسوف نفجرها. في أسوأ الأحوال بالقنبلة الذرية.

شكراً جزيلاً - قلت - سيساعدني هذا جداً على النوم.

في اليوم التالي ذهبنا بسيارتي الـGEO الحمراء الصغيرة مرة أخرى إلى صديقته مالينكا عبر وسط المدينة، كانت مالينكا قد أعدت الغداء، بعدها جلسنا بالخارج في حديقتها الصغيرة جداً تحت شجرة ليمون عطِرة وتحدثنا عن اللغة. قالت مالينكا إنها نشأت كصربية، وإنها درست الإنجليزية على عجل حين جاءت إلى أمريكا منذ عشر سنوات، من دون لكنة لكي لا تلفت الانتباه. إنها تكتب بلغتين. لكن

= وقاص وشاعر وناشر ألماني. كان شخصية منعزلة عن الحياة الأدبية في عصره وعن الحركات الأدبية كالكلاسيكية الفايمارية والرومانتيكية.

(١) **الكاروبيم**، هي جوقة من الملائكة مذكورة في عدة مواضع من الكتاب المقدس، وتعتبر أحد أقسام الملائكة في اليهودية والمسيحية، وتكتب في صيغة الجمع لا المفرد. ووظائفها لا تختلف عن وظائف الملاك، بخصوص نقل البشرى والرسالة، بنوع خاص كان يرتبط الشاروبيم بهيكل القدس، وقد ذكرت في الرسالة إلى العبرانيين بهذا المعنى.

حين تكتب شيئاً شخصياً فإنها تتحاشى اللغة الصربية الكرواتية لكي لا تشعر أنها "sticky" (عالقة).

كانت شخصيتي مرتبطة باللغة، اللغة هي موطني الحقيقي، بدا ذلك مبتذلاً، لكنني كنت أشعر أنهما يستمعان إلى ذلك بشيء من الغيرة. ارتأى بيتر غوتمان أن شخصاً آخر يكون بداخله، يكتب بلغة يخطر له في كثير من الأحيان أنها ليست لغته.

تجولنا في منطقة سكن مالينكا، في فيرفاكس، الحي اليهودي، حيث المطاعم اليهودية، ومتاجر مأكولات الكوشير[(١)] التي كانت مالينكا تشتري منها بعض أنواع الجبن. أبوان يهوديان يرتديان الطاقية اليهودية السوداء، طفلاهما الصغيران في أيدهما، جادَّان جداً في الطريق إلى المعبد. مسنون كثيرون، ففي الجوار يُفترض وجود بعض دور المسنين. لا رفاهية لدى هذا الحي، ولا هؤلاء الناس، بل هم أقرب إلى الفقر. لكن الإيقاع هنا أبطأ مما هو عليه في أماكن أخرى من المدينة. صورة مسالمة، كم هي صافية. هذه المدينة كأعمال القص واللصق.

بدا بيتر غوتمان مرتاحاً بيننا نحن السيدتين اللتين كانتا تحملان له القدر نفسه من الودّ. اعترَف لنا أن لديه ما يطلق عليه "sweet tooth" (ضعف تجاه الحلوى)، وأنه يشتري كميات كبيرة من الكعك شديد التحلية.

حين قدت السيارة نزولاً عبر ويلشاير بوليفار كان الظلام قد خيّم.

---

(١) كوشير: هي كلمة يهودية معناها أن هذا الطعام موافق لقوانين الطعام المعمول بها في الشريعة اليهودية. تُسمَّى القوانين الخاصة بالطعام في العبرية «كشروت»، وهي صيغة الجمع من كلمة «كاشير» أو «كوشير» ومعناها: مناسب أو ملائم.

البيت الصغير خلف المجموعة الضخمة من المباني والذي كانت راشيل - معالجتي التي تعالجني بنظام فلدنكريز - تمارس عملها فيه صار مألوفاً بالنسبة إليّ. كان بوسعي أن أخبرها أنني قد تحسنت، أنني لم أعد أتناول الأقراص، لكنني كنت لتوي أشعر ببعض صعوبة في الحركة. عزت راشيل سبب ذلك إلى بعض المفاصل الصغيرة بعينها في منطقة الحوض أرتني إياها على لوح أوتوماتيكي. أشعرتني جلسة العلاج بتحسن لكنني لم أتخلص من الألم تماماً. مرة وضعت ساقي على وسادة وتحدثت إليها باليديشية[1]: اخلدي للنوم!

حكيت لها عن حديثنا عن اللغات. قالت راشيل: لغتي هي لغة فلدنكريز، وسوف تستغرقني طيلة حياتي لكي أتعلمها على حق.

حولت الحديث على ويليام راندولف هيرست[2] الذي كان فيلم أورسون ويلز «المواطن كين» الشهير المأخوذ عن قصته قد عُرض علينا لتوه لأننا كنا قد قررنا أن نقوم برحلة إلى قلعة هيرست. لأسباب لا أعرفها كان المفترض أن يكون هذا هو أفضل فيلم تم صنعه على الإطلاق. قالت راشيل: أمثال هيرست وكارنيجي[3] وج. باول

---

(١) **اللغة اليديشية أو الييدية**: هي لغة يهود أوروبا وقد نمت خلال القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين من لغات عدة منها الآرامية والألمانية والإيطالية والفرنسية والعبرية. يتحدثها ما يقارب ٣ ملايين شخص حول العالم، أغلبهم يهود أشكناز.

(٢) **ويليام راندولف هيرست** (١٨٦٣-١٩٥١): ناشر بصحيفة أمريكية ومنشئ أكبر سلسلة صحفية وطنية أثرت أساليبها بشكل كبير على الصحافة الأمريكية.

(٣) **أندرو كارنيجي** (١٨٣٥-١٩١٩): هو صناعي أميركي عصامي ومنشئ مؤسسة كارنجي. ولد في اسكتلندا وهاجر مع عائلته وهو في الحادية عشرة إلى الولايات المتحدة حيث أقاموا في بيتسبرغ، بنسيلفانيا. عمل في مصنع للأجواخ خادماً وبعدها في شركة للسكك الحديد، حيث اقترح على أصحابها =

جيتي[1] من الرجال لا بد أنهم كانوا أشراراً. كنا متفقتين بشأن ذلك. قالت إنها لن تصبح ثرية من عملها أبداً. فالمرء لا يصير غنياً إلا بخداع واستغلال الآخرين.

قالت وهي تودعني: “You are a clever pupil” (أنت تلميذة ذكية). منذ زمن لم أكن قد شعرت بمثل هذه الفرحة بالثناء.

كان المصعد الزجاجي الخارجي في فندق هانتلي قد عاد يعمل ثانية، أردنا أنا وبيتر غوتمان أن نصعد مرة أخرى لنشرب المارغاريتا

= إنشاء قاطرات مع أسرّة للنوم. وفي سنة ١٨٦٢ أسس شركة كيستون لبناء الجسور، كانت أول من مدّ جسراً حديدياً على الأوهيو. وفي سنة ١٨٦٤ استثمر في مجال البترول وانطلق في مجال إنتاج الفولاذ فوسّع أعماله، وضاعف شركاته ونشاطه حتى وصل إلى بيتسبرغ حيث استفاد من مناجم الفحم القريبة من معامله لسهولة المواصلات النهرية. وخلال الأزمة الاقتصادية والاضطرابات الدموية سنة ١٨٩٢ عرفت شركات كارنجي على عكس مثيلاتها الازدهار مستفيدة من بعض التشريعات التي كانت تسهّل أعمالها. وعندما اندمجت جميع شركات الصلب والحديد سنة ١٩٠١، ترأس كارنجي هذه الإمبراطورية الصناعية، لكنه ما لبث أن تخلى عنها وانسحب نهائياً من مجال الصناعة ليكرّس نفسه لأعمال ثقافية وخيرية. وفي سنة ١٩٠٥ أنشأ مؤسسة كارنجي الخيرية - الثقافية برأسمال ١٠ ملايين دولار. لم يكتف بذلك بل أنشأ أيضاً مؤسسات عديدة للأعمال الخيرية فكانت تهتم بالمتاحف والمسارح والمكتبات ومراكز الأبحاث ومؤسسات لمكافأة الأشخاص الذين يقومون بأعمال بطولية وكذلك لتحسين المستوى الحياتي للعمال. وكان قد قام في عام ١٩٠٣، بتمويل بناء نصب السلم في لاهاي. كان كارنجي إنساني النزعة مسالماً فقد كان ينادي بتوزيع فائض الثروة على المحتاجين ولصالح الخير العام.

(١) ج. بول جيتي (١٨٩٢-١٩٧٦): رجل أعمال أمريكي عمل في مجال النفط وكان واحداً من أغنياء العالم. بلغت ثروته عند وفاته مليارَي دولار أمريكي. ورغم ثرائه اشتهر ببخله الشديد.

الخفيفة ولنستمتع بالمنظر الرائع، ونجلس بجوار مراهقي الصف الثانوي، ثلاث فتيات بشعر طويل وإيماءات مغرية، وخمسة فتيان كلّ منهم مختال بطريقة مختلفة، كلهم في حوالي السابعة عشرة من العمر، صوتهم عالٍ بشكل لا يصدق، كانت الفتيات ينتهزن كل فرصة للصباح، كلهم - أولئك البيض أبناء الطبقة الوسطى - كانوا يتصرفون وكأن العالم ملكهم.

لا أحد كان يهتم بغروب الشمس. قال بيتر غوتمان كيف سيكون الأمر حين أشتغل على ملاحظاتي حول إقامتي في أمريكا. إنها فرصة العمر، حسب رأيه. هذا ما تقوله أنت يا سيدي. تشعرين بالغربة بالطبع - قال بيتر غوتمان - لا بد أن أقول لك ذلك. لكن من دون أي اكتراث تجاه كل العاملين. سألته إن كان قد شعر هو نفسه بعدم اكتراثي؟ وإذا كان ذلك قد حدث - قال بيتر غوتمان - فإنه لا يعتقد أنه مسموح للكاتب أثناء الكتابة أن يفرض على نفسه أي اعتبارات. قلت إنه صراع يصعب حله، ولكي أخفف من وطأته أخذت على عاتقي أن أحمي نفسي أقل من الآخرين. ماذا لو كان ذلك أيضاً خداعاً للنفس؟

حوارات مكررة مع شركاء متغيرين.

اتضح لي أنني آخذ من نفسي عبرةً، بأن أتغاضى عن نفسي بينما يبدو كأنني أركز تماماً عليها. حركة غريبة ومتناقضة.

سألني إن كنت أعرف أن أورسن ويلز - تحديداً لأنه في فيلمه عن السيد هيرست القوي لم يتحر القدر الكافي من الاعتبارات - لم يعد يستطيع الحصول على موطئ قدم لدى هيرست بعد ذلك؟ فقد جعل كين المحتضر يقول كلمة السر في الفيلم كله: "Rosebud".

يفترض أن - اسمعي هذا، فهو مأخوذ عن رجل أمريكي مضمون - أن هيرست نفسه كان يسمي “a certain piece of the anatomy of his love” (قطعة معينة من تشريح حبه)، لممثلة مشهورة بهذا الاسم. ويفترض أنه كان خارج ذاته حتى أن سره المكنون هذا قد تجاوزه إلى أن وصل إلى فيلم أورسون ويلز. وكان قد أخذ على عاتقه ألا يُعرض الفيلم في دور السينما وهناك زعم أنه سعى لشراء نسخ متعددة منه والتخلص منها، كما لم يُسمح لأي من الصحف التابعة لمؤسسة هيرست حتى أن تأتي له بذكر. صنع أورسن ويلز لنفسه لهذا الفيلم أعداءً جبابرة، ولم يستطع تحقيق أي شيء يساويه في القيمة بعد ذلك.

سألت بيتر غوتمان إذا كان بوسعه أن يتصوّر أن يطمع أحد في أن يعرف أكبر قدر ممكن عن طبيعة الإنسان ويكون مستعداً لعقد تلك الصفقة بما فيها من المثالب التي قد يجنيها في المقابل. تفكيك بطانة معطف الدكتور فرويد إلى مكوّناته، أتفهم؟ تماماً كما يوجد باحثون لا يرتاح لهم بال إذا لم يصلوا إلى ما وراء الجزيئات الأصغر والأصغر التي يتكون منها عالمنا أياً كانت.

أستطيع أن أتصوّر، قال بيتر غوتمان. وربما كان لا بد أن يطرأ عليّ ذلك الذي حيرني في الآونة الأخيرة لكي أقترب من هذه المعرفة. على الطريق المباشر، ما حك جلدك مثل ظفرك. نظرنا من النوافذ الهائلة إلى الغسق المتداعي الذي تحوّل سريعاً إلى ظلمة. بدا كأن كائناً قد لاح لي، أردت أن أرى فيه أنجلينا، ملاكي، لم يثِر ذلك دهشتي، لم أكن متأكدة.

لكننا حين ركبنا المصعد الخارجي الزجاجي إلى الأسفل وقفت، أو حلقت، أنجلينا بجواري. كيف كانت تعرف دائماً متى يكون الأمر بحاجة إليها؟ بدت لي اليوم بشكل خاص لامبالية.

أتؤمن بالملائكة؟ سألت بيتر غوتمان.

يا سيدتي - قال - ماذا يجري؟

فلتُجِب فقط.

حسناً. إنني أؤمن بقوة تأثير الروح. أن ما يؤمن به الإنسان فعلاً هو ما يصبح حقيقة. حين يؤمن الإنسان بالله يتجلى له، ثم يكون للتعبد إليه مفعول.

الإيمان يحرك الجبال؟

في كل الأحوال إنه يعطي المؤمنين الثقة أنه يحرك الجبال. كما أنه من الوارِد جداً أن تعج مدينة الملائكة بالملائكة.

بالملائكة السود أيضاً، أيها السيد؟

ما هذا السؤال؟ هناك حيث تُخلق الملائكة لا توجد عنصرية.

كان هناك طقس مجرب يتكرر حين تخطط مجموعتنا البحثية أن تنظم رحلة. كانت قلعة هيرست وجهتنا. توقف الباص عند فندق ميس فيكتوريا، رويداً رويداً أخذ الركاب يظهرون بالترتيب نفسه، في الموعد تماماً طبعاً الموظفون الذين كانت الرحلة تعدّ عملاً بالنسبة إليهم، أنا عادةً في الوسط، وأخيراً من دون أي أثر للشعور بالحرج ريا وبينتوس، أو كذلك بيتر غوتمان الذي كان يتهادى بوجه معرِض ولا يجرؤ أحد على انتقاده. كدّس السائق حقائبنا في المكان المخصص لها أسفل الباص. أخذت أراقب من سيجلس بجانب من، بقي الأزواج معاً، في البداية جلس العزّاب وحدهم، كما فعلت أنا أيضاً، وكان هذا مناسباً لي. كنت أريد أن أفسح المجال لتأثير المناظر الشهيرة على شارع ١٠١ الساحلي عليّ، حيث وجه المبشرون المسيحيون إرسالياتهم لمسافات بعيدة تستغرق أياماً لكي يعيدوا الهنود الحمر المسالمين في المناطق النائية بأي وسيلة إلى العقيدة المسيحية.

مررنا بشاطئ ماليبو حيث تشتعل في هذه الأيام- بما أنني أقرأ في السجلّات القديمة - نيرانٌ يصعب السيطرة عليها. سانتا باربارا.

لنتحول إلى مزرعة مخرج[1] «دالاس»[2] و «عشائر دنفر»[3] الذي اشترى بثروته الطائلة قطعة أرض جميلة، أو لِنَقُل مزرعة كبيرة، إنها حركة الزمن، كما عرفنا من غريغ مرشدنا السياحي الذي جلس كما هو معتاد بجوار السائق ومعه الميكروفون. في الجوار هنا كانت أيضاً مزرعة رونالد ريغان، قال إنه حين كان يهبط هنا مع فريقه الرئاسي كانت أبواب مواقف السيارات تفتح وتغلق وكانت جميع الأجهزة الإلكترونية في البيوت تصاب بالجنون لأن طائرته كانت مدججة بالتجهيزات التكنولوجية عالية المستوى.

لم يكن جديداً عليّ أن ذوقي الفني تقليدي، أما الفنون ما بعد الحداثية الذي كان مخرج «دالاس» قد اقتناها وعرضها في مبنى أشبه بالخندق أو بمثابة جناح تحت الحراسة المشددة فلم تجذبني، شاشات عرض هائلة، ألوان فاقعة مطلية بواسطة فرش عريضة. أو حتى لون واحد. مونوكروم - قال لوتس - الباحث في مجال الفنون الذي رافقني: إنها «آخر صيحة» هذه الأيام. تواكب ذوق العصر وتحقق

---

(١) **إيرفينغ جوزيف مور** (١٩١٩-١٩٣٣): مخرج تلفزيوني أمريكي من شيكاغو، ذاعت شهرته بالأخص بعد إخراج اثنين من أشهر المسلسلات التلفزيونية وهما «دالاس» و«عشائر دنفر» وغيرهما.

(٢) **دالاس**: مسلسل أمريكي استمر عرضه من عام ١٩٧٨ حتى عام ١٩٩١ وحقق شهرة عالمية. تدور أحداثه حول الصراع الداخلي بين أفراد عائلة إيوين المالكة لشركة نفط كبرى.

(٣) **عشائر دنفر**: (أو الأسرة الحاكمة - The Dynasty) مسلسل أمريكي تدور أحداثه حول الصراع بين ثلاث شركات نفط مملوكة لثلاث عائلات تتصارع فيما بينها على السوق.

أسعاراً خيالية. بالطبع كان هناك عدة أفراد أمن بزي موحد يراقبون خطواتنا بدقة، ومتخصصتان في تاريخ الفن منتدبتان من الجامعة الأقرب لتتملقا سيدهما: إنه يقضي عطلة نهاية الأسبوع في هذه المزرعة مرة أو مرتين شهرياً.

أتعرفين بما يذكرني هذا؟ - قال لوتس - بنهاية الإمبراطورية الرومانية. هم أيضاً لم يكونوا يعلمون أنهم يعيشون مرحلة النهاية. - ليس عليهم أن يعرفوا هذا في الحقيقة، ما دامت أمورهم تسير بشكل جيد - قلت - ولِمَ يفسدون على أنفسهم حياتهم الجميلة بالتفكير في المستقبل القاتم الذي لن يستطيعوا تغييره على أي حال؟

الباص مجدداً. قال بيتر غوتمان: إنك تنامين وتفوّتين على نفسك أجمل المناظر الطبيعية. كنا قد وصلنا إلى هدفنا من اليوم، منطقة سان سيمون، فندق مقبول يطل على المحيط، وغرف مرتّبة. أخرجت لباس البحر فقط وذهبت لأسبح في حمام السباحة المُدفّأ اللطيف. في البداية لم أكد أستطيع تحريك أطرافي من فرط الألم، رويداً رويداً صارت مفاصلي أقدر على الحركة، أكثر ليونة. عندما تركت نفسي لأطفو على سطح الماء على ظهري نظرت مباشرة إلى السماء، كانت زرقتها لا تزال حتى الآن في نهاية فترة بعد الظهر لا تصدق. بعض أكاليل النخيل راحت تدفع بنفسها داخل مجال الرؤية. كنت وحدي في حمام السباحة، سبحت فيه بعرضه وطوله، فوق الماء وتحت الماء، كان ذلك بمثابة طقس للتطهر.

كم كنت دوماً أحب أن أسبح. كان النهر المحلي في مدينتكم واسعاً جداً، لم يكن بعيداً عن مصبه في النهر الأكبر الذي كان يسمى نهر الأودر وكان يصب في بحر البلطيق. كان يفوح برائحة لا مثيل لها، لم يفح أي نهر بعد ذلك بمثل هذه الرائحة أبداً. كانت حمامات

مدرسة تدريب السباحة التي تعلمت السباحة فيها لدى المدرِّب العجوز فيغنر مبنية من الخشب في النهر. ربطك المدرّب فيغنر وجذبك عكس التيار، أستطيع أن أستشعر التيّار المائي على صدري حتى اليوم. إذا استطاع أحد أن يسبح في المسبح الكبير ما يعادل حوالي الربع ساعة فإنه قد «حرر نفسه»، تعبير جميل. ثم كان يضع منشفته بإهمال بجوار منشفة السبّاح الآخر على الألواح الخشبية الساخنة ويستلقي على بطنه ليتشمّس. في الشتاء كان تدريب السباحة المنتظم يقام في المسبح العمومي الذي كانت تفوح منه رائحة الكلور. حينئذٍ كان الأمر يتعلق بسرعة السباحة، فكانت كريستل قوية البنية زميلتكم في الفصل التي كانت فاشلة في جميع المواد الأخرى غير قابلة للهزيمة، وكنا نستهزئ بالفتاتين البلهاءين بريجيت وإيزا اللتين كانتا تخشيان الماء.

لماذا لم أستوعب حتى الآن، أنه بعد أن صرت في السادسة عشرة من عمرك وتم القذف بك إلى مناطق أخرى لم تعد هناك مياه لمدة سنوات. مناطق سكنية بلا بحر، بلا نهر، بلا مسبح. كان بحرك بعد ذلك هو بحر البلطيق. البحر في الصباح قبل الإفطار بارد كالثلج، لا يتعدى الستّ عشرة درجة مئوية، حمام يستغر دقائق قليلة. الأحياء البسيطة التي كان المرء يتجمد فيها والتي لم تكد الأشياء تجف فيها حين كنتم تقعون ثانية في إحدى الصيفيات المطيرة. لكن بعد ذلك يجيء الحديث مع صديقك - تحت الشمس، حيث بريق المياه حتى نهاية الأفق، وأطراف الموجات الرغوية البيضاء التي كنت تدعينها تحملك، ودفقات الأمواج العالية التي كنت ترمين نفسك بداخلها، السباحة حتى الحواجز المئة، الملح على البشرة، كرسي الشاطئ ملاصق لكرسي الشاطئ، الأطفال بأبراجهم الرملية المعقدة، في الأعلى على الشاطئ المنحدر- عن حياتكما المستقبلية، كان كل شيء

ممكناً. بحر البلطيق الصغير، بحر السلام، فقد كان بالفعل واصلاً على مياه العالم كلها، وأنتم مغسولون بمياه العالم كلها، ولِمَ لا؟ عاماً بعد عام صارت الجزيرة خالية من السيارات، منبسطة مثل طبقك، أيام الشاي ولعبة البطاقات في الشرفة الزجاجية حين كان المطر يهطل بلا توقف، ليالي النبيذ وعزف القيثارة سقطت في الجب خلف الكثبان.

سذاجة، يا للسذاجة. في العام التالي لم يعد عازف الغيتار موجوداً معكم، المغني الشهير انتحر، في البحر بالمناسبة.

مغسولون بمياه العالم كلها

ولِمَ لا. لكن حين كنا هناك مجدداً في العام السابق، في ذلك المكان على الساحل، أقمنا في فندق صغير أنيق، ولم نكد نستطيع أن نعبر الشارع لأن السيارات كانت تصطف فيه مصد الصدمات في مصد الصدمات فتعيق حركته، بلوحات أرقام ليس فقط من المناطق المحيطة أو من برلين ودرسدن إنما أيضاً من هامبورغ وكولون، كان لا بد أن نفرح بذلك، فالبلاد فقيرة وتحتاج إلى السياحة على سواحلها. لكننا كنا نعرف أننا لن نأتي هنا ثانيةً.

وذات مرة - أذكر ذلك الآن - كنت هناك على ساحل البحر الشرقي، الذي يسمونه عن حق بحر البلطيق. في ليتوانيا حين كان ذلك البلد لا يزال ينتمي للاتحاد السوفياتي، كنتما قادمين من لينينغراد، حين لم تكن هذه المدينة تسمى بعد سانت بيترسبورغ من جديد، كنتما قد وقفتما هناك فقط على الشاطئ ورأيتما السفينة الحربية أورورا. لكن هنا في ليتوانيا جئتما لزيارة الأصدقاء الذين تعرفتم عليهم

على شاطئ البحر الأسود، في جاجرا على شاطئ الحجري، حيث حكى لك الشاب الأشقر أنه كاتب وأنه يؤلف حالياً نصاً عن يونس والحوت. تفهمين طبعاً - قال - الحوت يبتلع يونس. لكنك لم تفهمي، وهذا ما لم يكد يصدقه، قال إن الحوت هو روسيا العظمى وإن ليتوانيا الصغيرة هي يونس الذي يبتعله. أما أنت فلم تكوني تعرفين أن الليتوانيين يرون الأمر كذلك، وعندما زرتماهم ذهبوا معكما إلى بعض الأصدقاء الذين كان مقرراً أن يتم اللقاء في بيتهم، وكان لا بد ألا يبدو بوضوح كونهم اصطحبوكما معهم. وقد حكوا لكما عن عاداتهم الليتوانية وأهدوكما أغطيةً منسوجاً عليها زخرفاتهم القديمة، تلك التي لا تزال على طاولتنا حتى اليوم، ثم اصطحبوكما معهم إلى بحرهم البلطيقي الذي كانوا - كما بدا لك على الأقل - يحبونه بطريقة أكثر حميمية من حبكم لبحركم الشرقي.

ومرة أخرى بطريقة أخرى الاسكانديناڤيون آتين من ستوكهولم بمركب مكتظ بالكُتّاب عبر الجزر، من بينها الألمانية الغربية والألمانية الشرقية، تدور الأحاديث المهذبة والحذرة. أو على الجليد المطقطِق على أطراف كوبنهاغن مع أحد ممثلي بلادك متحدثين حول مخاوفكما. فأنا لم أكن أعلم شيئاً مما سوف يخالجني حين أفكر في كلمة «بحر».

نعم، لقد سبحت أيضاً في البحر الأسود، كانت تلك أول معرفتك بالجنوب، كانت البرتقالات تلمع في الحدائق بين الأوراق الخضراء الداكنة. وعلى الشاطئ كنتما تنتميان - دون أن تنتبها لذلك - إلى المجموعة التي كانت في مركزها وسيطرت عليها ماريا سرجييفنا، محامية من موسكو، هي التي زرتماها لاحقاً في بيتها في المبنى العالي على نهر موسكفا، لكنها هنا على البحر الأسود طوتكما

أنتما المنضمين حديثاً تحت جناحيها وباركتكما بصوتها الخشن المزعج خلال تعريفكما بعادات المنطقة والأوضاع القانونية في البلاد، والتي كانت بالمناسبة غير قابلة للاختراق بالنسبة إلى أي أجنبي، إلا أن ماريا سرجييفنا كانت تعرف كل خباياها ولم تدع مجالاً للشك لدى عملائها الروس في أن بإمكانها إذا تولت الدفاع عنهم أن تحصل لهم على حكم مخفف بالسجن خمس سنوات بدلاً من عشر، فلا يوجد شيء بينهما - هكذا هتفت فيهم على الشاطئ - وإذا تمكنت من الحصول على الحكم بخمسة أعوام فليجلب لها أقارب المحكوم عليه بعض الهدايا، فإنها تعتبر ذلك «لائقاً». تلك الكلمات كانت قد التقطتها من سنوات إقامتها العشرين في برلين، أجمل أوقات حياتها، وبالنسبة إليّ ترتبط ذكرى البحر الأسود دائماً بصوت ماريا سرجييفنا وبقطعة كافيار كبيرة مغلفة في ورق شفاف وفي عدد من مجلة «برافدا» التي كانت تجمعها لكم عند المداخل الخلفية للمطاعم الروسية الكبيرة من الطهاة تعهدوا لها بذلك، لكي تأخذوها معكم على الطائرة إلى برلين.

أو جزيرة بريتاني. أيام قاسية مطيرة على ضفاف بحر رمادي قاسٍ، ألوان لطيفة ورمال ناصعة ساخنة في منطقة النورمندي. إلقاء نظرة على البحر المتوسط من لشبونة وكان ومن أطراف صقلية. والآن المحيط الهادئ. هل كان هذا كافياً؟

هذا ولم تُذكر بعد البحيرات التي كنت قد استمتعت بالسباحة فيها، البحيرة الأصلية ومقصد الرحلات القديمة في عهد الطفولة، البحيرات المحيطة ببرلين، بحيرات مكلنبورغ البديعة. تلك البحيرة التي كانت قد صارت بمثابة وطن، والتي كانت تأتي إلى شاطئها - على مسافة من موقع السباحة - أبقار الجمعية التعاونية في السابق وتلك التي تخص الشركة ذات المسؤولية المحدودة الآن لتشرب،

والتي كانت على شاطئها الآخر مزرعة سمك السلمون التي صارت مهجورة الآن أيضاً. البحيرة التي كانت نظيفة وعميقة بحيث يعيش في قاعها السمك الأبيض، السمك الرقيق لذيذ الطعم الذي لا يمكن نقله. على أطرافها اصطاد الأطفال سرطانات البحر خلال إحدى الصيفيات.

أي نعم، وبحيرة زيوريخ، التي قررتما العودة إلى شاطئها من حيث جئتنا. هل كان ذلك كافياً؟ لم أكن أعلم أنه سيكون بوسعي أن أربط حياتي بتاريخ المسطحات المائية التي سبحت فيها أو التي وقفت على شواطئها، لأن أنهار بعض البلاد بدأت تتدفق إلى ذاكرتي بلا توقف. من يعرف اليوم نهر الفيبّر، غدير في إحدى مناطق تورينغن التي وجدتم سكنكم فيها بعد الحرب. لكن الجميع تقريباً يعرفون فرع بلايسه الذي يجلب معه التيجان الرغوية ذات الرائحة الكريهة، حين كنت تدرسين في لايبزيغ ثم لاحقاً في هلّله حيث سكنت على شاطئ نهر زاله المشرق. ثم جاء نهر شبريه، على الدوام وحتى نهر شبريه، على الدوام وفي أوقات مختلفة جسر فايدندام، كنت تعبرينه ممتلئةً بالأمل، سعيدةً، حزينةً، متعجلةً، ممتلئةً بالخوف. هل أذكر نهر البانك الظريف؟ لكن بالتأكيد سأذكر الإلبه في درسدن، في ضوء المساء، لا يقارن، حين تهبط الشمس المنخفضة من الغرب مباشرة في مجراه. الدانوب، هو ليس أزرق[1] ولم يعد يجري وسط فيينا وإنما وسط بودابست، أول مدينة أجنبية تزورينها. لكن نهر فالتافا

(١) هنا إحالة على مقطوعة «**الدانوب الأزرق**»، وهي مقطوعة موسيقية من نوع فالس من تأليف يوهان شتراوس الابن عام ١٨٦٦ وتم عرضها لأول مرة في ١٣ فبراير ١٨٦٧.

الذي تتبختر في قاعه الأحجار[1] والذي شهد وسمع الكثير مما كان مهماً في حياتك. صاحب الجلالة الراين، يا للعجب، إنه نهر غريب عني. نهر الزاينه الرشيق الباسم، ونهر التيمز البدين المُجِدّ. نهر التيبر في روما. ونهر نيفا الذي لا يُنسى في لينينغراد في الليالي المشرقة حين يمر عليه طلبة المرحلة الثانوية بزيهم الأسود والطالبات بأزيائهن البيضاء وهم يغنون. ونهر موسكفا طبعاً، موسكفا الصامت المتجهم، الذي عبرته ذات مرة أيضاً بمركب يحمل اسم **جوجول** حتى مدينة نيشني نوفجورود. لم تصلي أبعد من ذلك شرقاً، لم ترَي أنهار آسيا وأفريقيا الكبرى، ولم يكن يتعين عليك رؤيتها. واحد آخر فقط، نهر هدسون الذي تنعكس عليه ناطحات السحاب.

أيكفي هذا؟ أكان هذا بالفعل أكثر من اللازم؟ أكثر من اللازم من الجيد؟ الذي لا بد سوف ينتهي يوماً ما؟

ما زلت أذكر، هز إحدى كتفَيه: ريا. كانت إيناس وكيتشن تقفان خلفها. أبدين تعبيرات قلقة وأردن أن تعرفن إن كنت مريضة. كنت مستلقية على سريري بالفندق. لِمَ قد أكون مريضة؟ قلن إن أحداً لم يسمع عني شيئاً منذ عصر أمس. لم أظهر للعشاء، ولا ساعة الإفطار، وقد قارب الوقت على الظهر.

كنت أستحم في المسبح. قلت بسذاجة ولاحظت أن ذلك كان آخر ما أتذكره. كيف كنت قد وصلت إلى هذه الغرفة، أخرجت ملابس النوم واستلقيت على السرير، هذا ما لم أعلمه. حكيت ذلك ضاحكةً. فلم تُرِدن مشاركتي الضحك.

غريغ الذي أدلى بدلوه رغم احتجاجي أصاب التشخيص: فقدان

---

(١) إحالة على قصيدة لبيرتولد بريخت بعنوان «أغنية نهر فالتافا».

ذاكرة مؤقت. أراد أن يصطحبني إلى الطبيب. عارضت ذلك بشدة بحيث تنازل عن الخطة بعد أن أخذ مني وعداً بالإبلاغ على الفور إذا ما طرأت عليّ أيّ من تلك الأعراض مرة أخرى حتى لو كانت بسيطة. على كل حال لم يتبق وقت طويل للمناقشة، تجمعت المجموعة بالفعل لاستكمال الرحلة إلى قلعة هيرست. جلس بيتر غوتمان في الباص بجانبي وراقبني من الزاوية.

قال: إذن شيء ما في عقلك الباطن أراد أن يبلغك رسالة.

نعم - قلت - إنني إنسان مائي وليس عليّ أن أجلس في الأماكن الجافة.

قال: لم أرك بهذه البهجة من قبل.

وهذا يقلقكَ أليس كذلك؟

مبتهجة جلست بجانب بيتر غوتمان في الباص الذي صعد بنا المرتَفَع الواقع في منطقة هضاب رائعة بالكاد نما فيها الزرع. تم إنزالنا أمام أحد المباني الذي كان ارتفاعه يساوي على أقصى حد ارتفاع قاعة السفر في مطار صغير، حيث كان علينا أن نقف صفاً للحصول على التذاكر. كنت في حالة تجعلني أرى كل شيء غريباً، لاسيما تحية الزائرين التي ألقاها رجل ليس بصغير في السن يرتدي زياً عسكرياً أزرق لائقاً وقميصاً أبيض وربطة عنق، ويضع على رأسه قبعة من القش وكان موظفاً لدى ولاية كاليفورنيا، إلا أنه كان متماهياً تماماً مع ويليام راندولف وقد رافقنا عبر المزرعة، بدايةً من المسبح الخارجي الذي كان محاطاً بالأعمدة والتماثيل اليونانية، بعضها أصلي وبعضها أقل أصالةً - هذا ما قاله المرشد على الفور - عبر المزرعة النباتية البديعة التي يقوم على رعايتها ثمانية بستانيين، صعوداً على سلالم متأرجحة في إحدى دور الضيافة التي كانت حجراتها مكتظة بالأثاث

القديم الكئيب في معظمه. أكدنا لبعضنا جميعاً أننا لم نكن لنوَدّ أن نقيم هنا، إلا أنهم جميعاً كانوا قد أقاموا هنا، بدايةً من غاربو حتى شابلين، وإذا خرج أحد الضيوف عن الآداب ولم يحز على رضى المضيف فقد كان من الممكن توّ الوصول من رحلة أن يجد حقائبه أو تجد حقائبها المحزمة مع تاكسي أمام الباب: إلى غير رجعة.

كان عليّ أن أضحك على كل شيء، أيضاً على كون السيد هيرست كان لا يسمح للضيوف بمشاركة الغرفة إلا إذا كانوا متزوجين، بينما كان هو يصطحب ماريون ديفيس - عشيقته لسنوات طويلة - إلى هنا، لأن زوجته الكاثوليكية لم تكن تريد أن تُطلَّق. في المقابل ملأ جدران غرفة نوم ماريون بصور العذراء وأقفل على الكحول في خزانة آمنة.

أما المبنى الرئيسي في المزرعة كلها الذي كان المالك يسكن فيه والذي بدت واجهته مثل واجهة كاتدرائية فقد أثار استيائي بشدة، كل شيء أثار استيائي، الحجرة التي كان يتعين على الضيوف أن يتواجدوا فيها نصف ساعة أمام سيد البيت على العشاء، كئيبة، مقاعد ضخمة مزخرفة بالورود الكبيرة، غرفة الطعام التي كانت أقرب إلى قاعة استقبال الفرسان، صفوف أعلام في الأعلى على الجدران المغطاة بألوان داكنة، سجاجيد جدارية عملاقة قيّمة، أعمال فنية على كل الجدران في العموم، مقتناة من جميع أنحاء العالم أيام الكساد، أيام كان سعر كل هذا منخفضاً. أسقف أصلية من عصر النهضة في حجرات متعددة. ثم تجيء نقطة الذروة التي لا يغالبها شيء، «الحمام الروماني» الفريد الذي كانت بعض المدن تحب أن يكون لدى ساكنيها مثله، مغمور بضوء غامضٍ من خلال مجموعة من المصابيح الساطعة.

روما في مرحلة النهاية، ألم أقل ذلك، قال لوتس الواقف

بجواري. لا يمكن أن تستمر هذه الحال. إنها دائماً علامة سيئة عندما لا تريد الطبقة العليا من أي مجتمع أن تعيش زمانها، وإنما تحن إلى أزمنة سابقة.

حينئذٍ صرت واعية - كما أذكر - بأنني كنت أحب العيش في زماني ولم يكن بوسعي أن أتمنى زماناً آخر لحياتي. رغم كل شيء؟ رغم كل شيء. أشعر بفضول معين إزاء ما إذا كان ذلك ليستمر. ربما كانت الانفجارات في العاصمة الساحرة علامة على النهاية، على الأقل بالنسبة إلى ثقافتنا الغربية، لكنني أتلذذ في نعيم هذه الثقافة كما يفعل الجميع تقريباً.

كانت الرحلة إلى قلعة هيرست بمثابة نقطة تحول، بعدها بدأ الوداع إلا أنه استغرق أسابيعَ. أسابيعَ شعرت خلالها أنني أعيش في واقع آخذ في الانهيار. وكأن الحقيقة - أياً كان ما يمكن فهمه تحت هذا التعبير - تتراجع. كنت أعيش بين واقعين كان أحدهما قد غرق ولم يعد بحاجة إلى تدخل مني، أما الآخر، المستقبلي كما يُفترَض، بدا أنه راح يبتعد عني ولم يكن يعنيني.

ربما لا يعنيك بعد، قال بيتر غوتمان لدى حديثنا الطويل الأخير. مرة أخرى جلسنا على أريكتنا في منتزه حديقة أوشن بارك، تحدثنا وصمتنا، تركنا العدائين والماشين والسائرين يمرون من أمامنا، فرادى أو مجتمعين، يتحادثون بلغاتهم المختلفة. لسوف نفتقد ذلك. انتظرنا مرة أخرى نهاراً طويلاً حتى غرُبت الشمس.

إنه يعرف الآن - قال بيتر غوتمان - أن باستطاعته أن ينهي تأليف كتابه عن فيلسوفه. لم تكن لديه حتى الآن الشجاعة لطرح الأسئلة بهذا

الشكل الجذري مثلما كان هذا الرجل ليتطلب. أن يضع في اعتباره دائماً تلك الجملة: «لكنَّ ريحاً تهب من الجنة»، وأن يترك ساقيه للريح.

مرة أخرى لا نستطيع أن نتمنى ما سوف يحدث، قال بيتر غوتمان. فقلت: الحياة المُرَقّعة. مشبّكة بعضها مع بعض بإهمال.

فلتكتبي هذا عندك، قال بيتر غوتمان.

خفت نسمة الهواء مع حلول المساء، امتدت حرارة الجو إلى شاطئ البحر، لكننا لم نُرد أن نرحل. ظننت أنني سوف أحتفظ بهذا الضوء في ذاكرتي إلى الأبد، لكنني لم أعد أذكر الآن سوى أنني ظننت ذلك. أما الضوء الذي لاح فوق المحيط الهادئ قبل غروب الشمس بقليل فقد نسيته. كذلك عبير شجر الكافور. لكنني أعرف أنه موجود، إذن فإنه لم يضِع مني.

سألت: أتعرف أن فرويد طلب لنفسه القتل الرحيم؟

كان يعرف بالطبع.

بالمناسبة - قال بعد برهة - أما زلت تحفظينها عن ظهر قلب؟

عرفت على الفور ما يعنيه واستشهدت به من دون عثرة تقريباً: لا تخشى بأساً، ابقَ أبداً فوق الهزائم.

اتفقنا على أن يكون بوسعه أن يطلب مني النص في أي وقت إذا ما احتاج إليه يوماً. لكنه لم يطلبه أبداً.

بالمناسبة - قال، مرة أخرى بعد برهة - لم نعد نتهاتف. لا بأس. ليس الأمر جيداً جداً، لكن لا بأس.

كان قد خطر لي ذلك بالفعل.

سريعاً كانت الشمس قد غربت. سريعاً حلّ الظلام. وقفنا أمام

أريكتنا وانحنينا بطريقة رسمية: "Nice to meet you, Monsieur" (سرني لقاؤك يا سيدي).

- "You're welcome, madam" (عفواً سيدتي).

راشيل في بيتها الصغير في شارع ٢٦، على ناصية برودواي. قالت: علّمَنا فلدنكريز أن نحقق من خلال حركات بسيطة تأثيراً أكبر بمجهود أقل. استلقيت على إحدى الطاولات، تركتني لأجد الوضع الأريح، لأحرك ساقيّ حركة بسيطة وناعمة جداً بطرق مختلفة. Your mind will tell you that's a Feldenkrais therapist, she wouldn't hurt me, but your system is not so sure. I respect your system. (سيقول لك عقلك إنها معالجة بطريقة فلدنكريز، إنها لن تؤذيك، لكن النظام العام لجسدك ليس متأكداً، وأنا أحترم نظام جسدك العام). تركتني أتخذ المسافة المناسبة لأضع قدميّ، أرتني طريقاً أقل مشقةً للوقوف. إن ما تعلمه المرء بشكل خاطئ يمكن أن يعيد تعلمه بشكل صحيح، الموضوع يتعلق إذن بترك العادات الحركية غير المجدية بأسلوب ليّن. بعد جلسة العلاج صارت المفاصل بالفعل "softer" (أكثر ليونة)، كما تحسن مزاجي أيضاً، شعرت برغبة في الترفيه عن نفسي، أن أحضّر كوباً من الكاكاو مثلاً و "to let it be" (أن أدع كل شيء يمر). هل كان ذلك بسبب تلك الساعة عندها؟ هل كانت قد أسدت لي هذه النصيحة لدى الوداع؟

كانت الراهبة لتقول الشيء نفسه. أخذت كتابها معي حين ذهبت إلى سالي التي ألحت عليّ في طلب المجيء إليها مرة أخرى. أرادت أن تطلعني على شريط فيديو، فيلم كانت قد صنعته بنفسها وحدها.

بحثت في وجهها عن آثار تغيير، لكنني لم أجدها. ربما بدت أكبر سناً. لكن كان هناك تقدُّم: كانت قد رفعت دعوى الطلاق ضد رون. كان السبب: الكره. الكره تجاه رون وتجاه الذات. كانت تودّ أن تجرحه من خلال هذه الخطوات، لهذا الحد كانت بعيدة عن الواقع. ولم تكن لديّ الشجاعة لأقول لها هذا.

قالت إنها صارت تذهب الآن إلى معالجة أربع مرات في الأسبوع، وقد اكتشفت بالطبع في تلك الأثناء أن شعورها بأنها لا قيمة لها كان مرتبطاً بأمها التي كانت تدفع ثمن جلسات ذلك العلاج بالمناسبة. أثناء حديثها بلا انقطاع راحت سالي تقلب السلاطة وتسخّن السمك مع الخضروات في جهاز الميكروويف، بالإضافة إلى المعكرونة، وهي تتحدث وتتحدث. عن وحدتها، وعن غيرتها. وأنها لم تكن تستطيع التوقف عن الانغماس في تصوّراتها حول حياة رون الغرامية مع حبيبته. أنها لم تكن قادرة - وإن كانت معالجتها تنتظر منها ذلك - على استقبال ألم الفقد البسيط الطبيعي. بل تعذيب الذات المستمر بدلاً من ذلك.

أكلنا. كان الضوء جيداً في مسكنها الصغير ذلك المساء، ضوء شمالي سمح بدخول انعكاس شمس المغيب عبر الأسوار المتعددة في الخارج.

بعد ذلك أطلعتني سالي على الفيديو الذي كانت تعمل لإتمامه منذ فترة، تعبير ذاتي بلا رحمة ولا اكتراث، تمثيل للألم الخالص. هي نفسها في البداية كشابة جميلة تتزين بالمساحيق، وترتدي ملابسها. ثم هي كما كانت الآن، يبدو عليها التقدم في السن بشدة، بشعر أبيض، باكيةً، متحدثةً إلى الكاميرا، طارحة بعض الأسئلة. هي، وهي تقود سيارتها وتتحدث أثناء ذلك. هي بالسروال الداخلي

وحمالة الصدر في مسكنها، تقوم ببعض الحركات، تجرب بعض الخطوات الراقصة. صوت رون الذي كانت بالمصادفة قد سجلته على شريط، وصوتها، متداخلان أثناء قراءة النص نفسه. تظهر ألوان، بهلوان، بطاريق بمشيتها التي تشبه حركة الدمى، كلب يحك أعضاءه التناسلية بلا توقف في حجر. ثم تستمر هي في الظهور. وجهها، جسدها، عارية أيضاً. تخفت الموسيقى، بشكل مناسب.

كنت متفاجئة في البداية، ثم متعاطفة ومتأثرة، لم يكن هناك ما يدعو للخجل، لا شيء عاطفياً، كل شيء مهني، من دون أدنى حد من الملل، كانت تلك شجاعة، أن تصل إلى حدودٍ بعينها، بل تتخطاها. لماذا يتعين على مثل هذه التعبيرات الذاتية أن تُفرض من خلال الألم، ولكن لماذا أسأل، وقد كنت أعرف ذلك.

قلت لسالي كم أحب الطريقة التي فعلت بها ذلك، تحدثنا أيضاً عن نص النهاية، الذي علِق. كنت أعرف أن استحساني لن يخفف من ألمها. تعانقنا لفترة طويلة عند الوداع. هل ستأتين ثانية؟ - لا أعرف، قلت وخطر لي: لا أعتقد. لكن ربما تأتين أنت إلى أوروبا. - "I don't think so" (لا أظن ذلك). في النهاية أعدت إليها كتاب الراهبة. كنت قد وضعت علامة لها - ولي - على إحدى الجُمَل: *"My whole life is a process of learning how to make friends with myself"* (حياتي كلها عملية تعلّم كي أصادق نفسي).

الوداعات. أحاول أن أبقيها حاضرة - كم هي مناسبة تلك كلمة! جلسنا - نحن أفراد «العصابة»- في الفناء الداخلي لفندق ميس فيكتوريا، كلٌّ أحضر معه «شيئاً يأكله»، بل كان المقصود «شيئاً يشربه»، كان علينا أن نودِّع تيريزه، كانت قد أنهت مهمتها لكتابة تقرير

عن انتخابات عمدة هذه المدينة التي خسر فيها بالطبع المرشح المفضل لدينا. والآن كان عليّ أن أُعَدِّلَ مزاجي ليتناسب مع هذه الليلة التي بدت لي بالمناسبة مغمورة بغسق شفيف مستمر، الكلمة في محلها وكأن الظلمة لم تحل كما هي العادة على الفور، كأنه لم يوجد قمر ولا نجوم، إنما فقط دائرتنا المجتمعة حول خليط من كل ما هو متاح مما يمكن الجلوس عليه، بعض طاولات التخييم البسيطة التي كانت عليها الزجاجات المختلفة الأنواع والألوان التي رحنا نصب منها بعضنا لبعض، لكلٍّ في الكأس الذي كان قد أحضره لنفسه، وبالإضافة إلى ذلك بعض الشطائر وقالب كبير مستدير من الجبن، وخبز ومعجنات مالحة، وفاكهة. لو أن أحداً أدار جهاز تسجيل! لو أن أحداً احتفظ على الأقل في ذاكرته بما كنا نتحدث عنه خلال ساعات. اندهشنا حين اكتشفنا أنه صارت لدينا بالفعل ذكريات مشتركة كانت صالحة لتكوّن الإطار العام المتماسك لأحاديثنا. أما زلت تذكرين، أما زلتم تذكرون، نوبات الضحك المتوالية وكأننا لم نشهد سوياً سوى كل ما هو هزلي. بالفعل كانت سوزان قد فوّتت على نفسها البيت الذي كانت - وقد مرّ على ذلك بضعة أسابيع - تتفاوض بشأنه. بالضبط هذه سوزان. فضحكت معنا. أو تيريزه بولعها بلوس أنجلوس. كيف ضمت ذلك المشرّد الذي لم يتوانَ عن سرقتها إلى قائمة الأشياء التي كانت مولعة بها. ضحك. حسناً أو حتى مارغري التي كانت بالفعل قد سافرت إلى برلين وعادت مفتونة - قالت إن قلب العالم يخفق خلال تلك الشهور! - وشغلت رأسها بكل جدية بأن تفتتح مطعماً أمريكياً في حي برنسلاوربرغ: ما نقُص المكان غير هذا أيضاً. من أجل ذلك كانت على استعداد للتنازل عن الأزواج الأمريكيين الأغنياء المحتاجين إلى العلاج. ضحكات متعاطفة. عرض عليها توبي أن يتولى تصميم

العمارة الداخلية لمطعمها. إذن هل كان ذلك يعني أن رحيله إلى المكسيك ليس نهائياً بعد؟ كانت تيريزه تحيا على أمل واه. حسناً ربما إن كانت مهمة استكشافية - قالت جين فربما تكون هناك حاجة إلى مصورة صحفية مستعدة لأن توثّق المهمة كلها. من المرحلة الأولى وحتى الأخيرة؟ تصفيق وتهليل. قلت: يمكنك الإقامة عندي.

نعم بالطبع، كنا كلنا ثملين بعض الشيء، لكن لا يمكن أن يكون هذا وحده هو الموضوع. لقد كانت تلك اللحظة أيضاً مناسبة لمثل هذه التصورات. قبل ذلك بسنة وبعد ذلك بسنة لم تكن لتطرح. لفترة قصيرة جداً كان ذلك الذي نسميه «الحقيقة» يترنح. وبشكل عفوي كيّفنا نحن أنفسنا على هذه الحالة من الترنح.

لم تكن بعد كلمة العراق مصدر التهديد موجودة، لم تكن هناك صور بعينها على الصفحات الأولى من الجرائد بعد. في الصورة الذهنية كان يظهر ما كنا نحب أن نصدقه عن أنفسنا - أننا مصابون بخيبة الأمل، متراخون بشكل ما، مستعدون لأي شيء - كنا لا نزال سذّجاً بعض الشيء. مقارنة باليوم أيضاً أبرياء بعض الشيء. كلمة لم يعد يمكن تبريرها في نهاية قرن المتناقضات والعنف وحمامات الدم وموجات الخيانة والاستنكار، وكل أنواع الخسة التي لم يبق أحد منّا نحن الأحياء بمنأى عنها. ولا يزال مع هذا وذاك. . . الجالسون هنا، غارقين - هكذا بدا لي - في شفق ساطع، بدا أنهم ما زالوا يعقدون أملاً على المستقبل يكاد يستحق العقاب.

اقترح أحدهم أن نغني. مرة أخرى شهدت أن الأمريكيين لا يعرفون الأغاني. في النهاية اتفقنا جميعاً على أغنية "We shall overcome" (إنّا لمنتصرون). في الماضي كانوا ليغنوها بحماس. أرادوا أن يسمعوا منا نحن الألمان أغنية «عند النافورة أمام البوابة».

فجأة قفزت النجوم إلى المشهد، أطفأنا شموعنا لكي نراها بوضوح. كان الهدوء قد خيّم على المكان. صاح غريغ من إحدى النوافذ العلوية بتحية الليل «تصبحون على خير». جمعنا الفضلات في أكياس في وقت متأخر وتفرقنا. حتى أنجلينا كانت قد اختفت.

كان جون وجودي قد سافرا إلى برلين ليتعرفا على قريب جون البرليني الشرقي الجديد شخصيّاً.

الوقت الذي بدا كأنه لانهائي صار ضيقاً. التقيت مرة أخيرة ببوب رايس. إذن - قال وهو يودعني - ماذا عن معطفي؟

آهٍ يا بوب - قلت - المعطف لا يقهر. لقد أسدى لي خدمات عظيمة. أعتقد أنني أعدته إليك.

قال بوب إنه كان قد خطر له شيء كهذا.

ازدادت حفلات الوداع، ذات مرة ذهبت في سيارتي الـGEO من دون تكييف الهواء في القيظ الشديد عبر طريق أوليمبيك بوليفار حتى دوهني درايف لكي أحضر ستين قطعة من نقانق لحم العجل وأقضي النهار كله في تحضير زبدية عملاقة من سلاطة البطاطس. كل واحد وواحدة منا أحضر معه طبقاً من بلاده، وكل الزجاجات التي كانت لا تزال فيها بعض بقايا الخمر، فكان حفلاً بديعاً. حين ألقى فرانشيسكو - بلكنته الثقيلة التي احتفظ بها - خطبة وداعه وشكره أبلغنا مدير شؤون العاملين بمدى سعادته بأننا، كما يبدو، استمتعنا فعلاً بوقتنا هنا، وأننا لم ننظر إليهم وإلى المركز عموماً بعين الريبة فحسب، ومع ذلك فإن بوسعه أن يعترف أننا بدونا بالنسبة إليهم - أي للموظفين - المجموعة الأكثر قدرة على النقد من بين من مرّوا عليهم جميعاً، لكن أيضاً الأكثر كفاءة واستقلالية.

ارتدت السيدة أسكوت أحد أرديتها المزركشة بالورود الكبيرة، وكانت لا تزال بالكاد تعرف أحداً منا، إلا أنها بدأت تحت تأثير المشروبات القوية التي بدا أنها تقدرها تتحدث إلى مختلف الضيوف وتنخرط في حوارات لا طائل منها بينما لا تنظر إلى محدثها وإنما ثبتت نظرها على نقطة خلف كتفها اليسرى. قال فرانشيسكو: أتعرفين ماذا أصابها؟ إنها خجولة. لديها عُقَد. أثناء ذلك تخلى السيد إنريكو عن تحفظه وأدى رقصة مكسيكية سريعة ولم يتورع عن الرقص مع العضوات المفضلات لديه من الجنس اللطيف. تناوبت ريا وإيناس الرقص، قالت ريا إنه يهلكنا رقصاً.

جلس المدير بجانبي. أراد أن يعرف ما كنت أنتويه الآن. قلت إنني أريد أن أقوم برحلة أخرى إلى الجنوب الغربي. لأسباب كثيرة أهمها زيارة قبيلة هنود الهوبي الحُمر.

ياه - قال المدير - إنك تبحثين عن روح أمريكا. "Good luck" (حظاً سعيداً).

على مطلع السلّم وقفت أنجلينا تراقب الحفل. ابتسمت حين مررت بها. لم أودعها. قلت: "see you later" (أراك لاحقاً). لم يبد عليها الاندهاش.

أذكر أنني كنت مترددة بشأن ما إذا كان عليّ أن أذهب في تلك الرحلة إلى جنوب غرب أمريكا بالفعل مع لويس وزانّا. قلت إنني أفعل ذلك من أجل الأصدقاء الذين زعموا أن فرصةً مثل هذه يجب عليّ عدم ردّها، ثم تفاجأت حين جلست فعلاً في الطائرة التي يُفترض أن تهبط في منطقة ألباكركي، المدينة التي لم أكد أسمع عنها من قبل والتي لم أكن أعرف أي شيء عنها. انتبهت إلى أنني هبطت في جوٍّ من الصفاء، في وقت ما عبوراً فوق الإقليمي الدولي لأريزونا، وأن

هذا الصفاء قد استمر معي طوال الرحلة التي لم تستغرق أكثر من عشرة أيام، وأن المقعد المجاور لي في الطائرة ظل خالياً، إلا أنني كنت أعرف من الذي شغله. أنجلينا جاءت معي، كنا قد اتفقنا على ذلك في صمت. كنت قد فهمت أنها ستكون دائماً معي حين أحتاج إليها. كنت قد تخلصت من الاضطراب الذي كان يصيبني في الآونة الأخيرة.

هل جئت فعلاً الآن فقط إلى هذا البلد القائم على الأساطير؟ وكأن الشهور السابقة التي عشتها في الواقع الكثّ قد تلاشت. وكأن هذه المنطقة المتربة التي تهب فيها رياح الصحاري هي أول المدن الأمريكية التي أراها، وكأن نساء الهنود الحمر اللائي اصطففن في صمت تحت الممرات في السوق تعرضن الخزف ذا الزخارف الهندية للبيع هن أول السيدات الأمريكيات، ومساكن البويبلو الدائرية التي تشبه خلايا النحل على الطريق إلى سانتا في التي زرناها، المساكن البسيطة.

لوي، المحللة النفسية التي حصلت على اسمها من المعالج الهندي الذي أنقذها من مرض صعب بعد أن كان الأطباء الآخرون قد فقدوا الأمل فيها، لوي، صديقة زانّا كانت تسكن مع كلبها على أطراف الصحراء في شمال المدينة. تركتنا نبيت في كوخها الذي امتلأ بالأعمال الفنية الهندية، والأواني الفخارية الملونة والأقنعة، والمنحوتات، ومنسوجات السجاجيد والأقمشة التي كانت لوي نفسها ترتديها. قالت إنها تستبعد أن تنسحب إلى الثقافة الأخرى، أن تدعي لنفسها انتماءً لم يناسبها. لكن كان ليبدو لها خطأً أن تعيش هنا وسط الأشياء اليومية غير ذات النفع والتي يعتبر المواطن الأمريكي البسيط أنه لا غنى عنها.

سحرٌ ما خرج من مسكنها الذي لم نكن نريد أن نسلبها إياه. كان

بإمكاننا أن نتصور كيف أن المرضى يحبون المجيء إليها. ذات مرة ذكرت عَرَضاً أن بعض الباحثين عن النصيحة والعلاج يأتون إليها أيضاً من لوس أنجلوس، من بينهم كثير من النساء اللاتي لم يعد باستطاعتهن تحمل حياتهن الفارغة على حافة المختبرات البحثية التي يعمل فيها أزواجهن ملتزمين الصمت بشأن أبشع أنواع الأسلحة. وحين يبحث الأزواج أنفسهم عن المشورة - قالت - يقتفي مكتب التحقيقات الفيدرالي أثرهم ويريد أن يعرف ما صرحوا به وإن كانوا يشكلون خطراً على الأمن. قالت لوي إنها لا تكذب، لكنها أيضاً لا تقول الحقيقة كاملة وتناقش مع مرضاها ما يمكن أن تحكيه لموظفي مكتب التحقيقات الفيدرالي - وهم موظفون أذكياء على درجة من المعرفة بعلم النفس - من دون أن تتسبب في أذى للمرضى. قلت: «روح أمريكا»، وشرحت لوي بضحكة متحفظة أنها مربوطة منذ زمن بطاولة الفحص حيث يتم تحت ضوء المصابيح الساطعة تشريحها وتلقينها.

ولكن كيف كانت تستطيع ممارسة عملها؟

بأن تقدم بعض التنازلات، مثل أي شخص. وأن تحرص على ألا تفسد جوهر عملها.

لحسن الحظ كنت قد رسمت علامات بالقلم الأحمر العريض على خريطة الـ "Indian Country" (بلاد الهنود الحمر)، وإلا لما كنت وجدت الطريق الغريب الذي سكلناه باتجاه الغرب بالأساس مع انعطافتين قويتين باتجاه الشمال. أو من دون الملحوظات في المفكرة الحمراء - ماذا كنت لأعرف أكثر عن رحلتنا التي طالما استمرت كنت اعتبرها مادة للنسيان؟ أو من دون الصور التي تُظهر منا خيالنا عميقاً في ظلال سيارتنا **الأوبل** الخضراء البارعة البراقة، تحيط بنا النباتات الشوكية الشحيحة؟

هل كنا نعلم آنذاك أننا على الطريق إلى النقاط الأقصى من الحياة الأمريكية؟

لوس ألاموس لم تكن في طريقنا، لكن كان لا بد من ضمها، لم يكن هناك شك في ذلك. باتجاه الشمال، إذن من سانتا في، عبر شارع محفوف بمساكن البويبلو. تم التخطيط للقنبلة الذرية وتصنيعها وسط إحدى محميات الهنود الحمر الكبرى في الولايات المتحدة الأمريكية. المتحف الهزيل المتواضع، الأول الذي تم تخصيصه لروّاد لوس ألاموس زعم أن الهنود الحمر كانوا ليحبون تخصيص جزء من منطقتهم لصانعي القنبلة لأنهم مواطنون أوفياء للولايات المتحدة الأمريكية، كانوا ليودّون المساهمة في إيجاد مخرج آمن لها من الحرب، فخورين بأبنائهم الذين شاركوا مع الأمريكيين البيض في الخدمة العسكرية وحاربوا معهم على الجبهة.

من كان يريد زيارة المتحف كان عليه شراء تذكرة دخول لدى رجل عجوز، غالباً من المحاربين القدامى، لم يكد يستطيع أن يقوم بعمله وقد عززت قلة حيلته هذا الانطباع. أما التكنولوجيا العالية فقد رأيناها في صور كانت قد تم تحميضها في معامل واحة العلم تلك، أما المنفذون الأصليون الذين أنجزوا هذه المعجزة فقد كانوا بسطاء جداً يعيشون حياةً أقرب إلى البدائية، ويخضعون لتعليمات الأمن التي وضعها أحد القادة الذي كان على الأرجح يعاني من جنون العظمة. كان عليهم تحمّل عزلتهم التامة عن العالم الخارجي. رسالة أحد العاملين الشباب إلى أمه بعد إطلاق القنبلة الذرية على هيروشيما تعج بالارتياح لأنه سُمِح له الآن بعد أن تم تجربة المشروع بنجاح علناً أن يفصح لها آخيراً عمّا كان يعمل به طوال هذا الوقت. ولم يتشكك لا هو ولا أيٌّ ممن كانوا يعملون في المشروع ويذكرون كلمة هيروشيما

في الهدف السامي وفي ضرورة إطلاق القنبلة. المتحف كله يروي تاريخاً بطولياً. إنه يبدو - قلنا بعضنا لبعض متأثرين - وكأنهم آنذاك في ١٩٤٥ جمدوا المشاعر الإنسانية الطبيعية باستخدام عصى سحرية.

القنبلة: المتحف الجديد، افتُتِح لتوه، فولاذ وزجاج، كبير، على أحدث مستوى من التقنيات، كان تعبيراً فريداً عن الفخر. على عكس المتحف العتيق الصغير الهزيل بجواره عرض هذا كل مراحل تطور المشروع حتى بلوغ الهدف المنشود: **القنبلة** التي تم عرضها بالحجم الطبيعي في وسط القاعة المركزية. كيف يمكنني أن أسمي الشعور الذي استحوذ عليّ بينما رحت أطوف حول القنبلة، ووقفت أمامها ونظرت إليها عالياً؟ مزيج من القشعريرة والأسى. بينما كان الأمريكيون الذين يأتون في مجموعات صغيرة وكبيرة إلى لوس أنجلوس يُبدون انبهارهم وفخرهم.

ليس للمرة الأولى كان عليّ أن أفكر في أينشتاين الذي كان توقيعه على إحدى الرسائل الموجهة إلى رئيس الولايات المتحدة الأمريكية قد أسهم في وضع صناعة القنبلة في حيز التنفيذ. في لياليه بعد إطلاقها على هيروشيما وناغازاكي. خطر لي أننا كنا قد اعتدنا على أن نرى رجالاً صالحين مثله ممن شاء حظهم العسر أن يبرعوا في أحد المجالات العلمية الخطرة، متورطين في صراعات مستعصية وفي آثام لا مفر منها.

عدنا إلى سيارتنا في صمت. وكنوع من التدريب الإجباري تجولنا في المنطقة الشاسعة المؤمنة بسياج من الأسلاك الشائكة القوية، والتي يتم التحذير بقوة من دخولها. أعداد من المباني القبيحة - معامل ومعاهد بحوث - كانت قد انتشرت. لم نكن نشك في وجود علماء على أعلى قدر من التخصص يتم توفير أفضل بيئات العمل لهم

ويتقاضون أجراً أعلى بكثير من روّاد لوس ألاموس الأوائل، في سرية تامة لتطوير أسلحة دمار أكثر فاعلية بكثير مما كانت عليه القنبلة ذات الطراز القديم. وكونهم دمروا جمال طبيعة المنطقة بالفعل فتلك أعراض جانبية لا يمكن تفاديها. أردنا أن نترك هذا المكان بأسرع ما يمكن.

جلسنا بعد ذلك في مطعم كئيب جداً على الطراز الغربي نمضغ قطع اللحم الكبيرة، الطبق الوحيد الذي يقدَّم هنا. سألت زانّا موجهة السؤال لنفسها أكثر منه لنا عن سبب اختيار حضارتنا أن تسلك طريق تدمير الذات الذي يعتبر لويس أنه لا رجعة منه. هل كانت تلك النزعة متأصلةً في خلايانا الجينية؟ إن الدراسات الأحدث قد فندت هذه الفرضية: إذ إن الأطفال الصغار الذين لا يستطيعون الكلام بعد يساعدون الكبار من دون أن يكون ذلك قد غُرِس في نفوسهم إذا ما أصاب الأُوَلَ مكروهٌ فاحتاجوا إلى المساعدة. أفهل يكون صراع الأوّلين العنيف من أجل البقاء مشتعلاً في أعماقنا لدرجة أنه حتى يومنا هذا تقمع نزعة التفوق بداخلنا كل النزعات الأخرى «الأكثر إنسانية»؟ مثل هذه الأسئلة كانت تشغلها ليل نهار - فقد كانت مؤخراً تعدّ لإخراج مسرحية عن روبرت أوبنهايمر(١) مع بعض الهواة، وهم لا

(١) **روبرت أوبنهايمر** (١٩٠٤-١٩٦٧): فيزيائي أمريكي ومدرس الفيزياء النظرية بجامعة كاليفورنيا، بيركلي. وهو المدير العلمي على مشروع مانهاتن لتصنيع السلاح الذري الأول في الحرب العالمية الثانية ويعرف أوبنهايمر بـ **والد القنبلة النووية**. وقد اشتهر بمقولته: **الآن أصبحت الموت، مدمر العالم**، وذلك بعد الانتهاء من صنع القنبلة الذرية. بعد الحرب أصبح أوبنهايمر الرئيس المشرف على اللجنة الأمريكية للطاقة الذرية واستخدم منصبه للضغط والتحكم في استخدامات الطاقة الذرية وتجنب سباق التسليح النووي مع الاتحاد السوفياتي. حصل على جوائز من الرؤساء الأمريكيين جون كينيدي =

يرتضون الإجابات السطحية. قلت إنني أنا أيضاً كنت قد خططت ذات مرةٍ لعمل عن أحد علماء الفيزياء الذرية. سيناريو لفيلم سينمائي. قلت إنني لا أعرف إن كان اسم كلاوس فوكس معروفاً بالنسبة إليهم. بلى، نعم. أليس هذا هو جاسوس القنبلة الذرية المعروف؟

قلت إنه كان ينتمي لعائلة من اللاهوتيين الإنجيليين، نشأ على إعلاء القيم الإنسانية. حين جاء هتلر اضطر لمغادرة ألمانيا وعمل في إنجلترا على تطوير شروط تصنيع القنبلة. نعم، لقد نقل علمه إلى الجهة السوفياتية. فقد كان مقتنعاً بأن تدمير أجزاءً كبيرة من الأرض لا يمكن منعه إلا إذا تحققت المساواة المعرفية في الأبحاث الذرية بين القطبين. حين تم كشف أمره صدر حكم ضده كمواطن إنجليزي بالسجن أربعة عشر عاماً - حكيت لزانّا ولويس - وعاد عام ١٩٥٩ بعد العفو عنه إلى الجمهورية الألمانية الديمقراطية، حيث عُيِّن نائباً لرئيس معهد البحوث الذرية في روسندورف. هذا ما لم يكن الاثنان يعرفانه.

آنذاك كان يبهركم الصراع الأخلاقي الذي وقع فيه والذي لم يرَ له مخرجاً غير ذلك: اللجوء إلى توازن مشاعر الهلع. أما صديقكم المخرج كونراد فولف فقد أراد أن يصوِّر فيلماً عنه. كان عليه أن يسعى إلى «السلطات الأعلى» لكي يصل إلى كلاوس فوكس.

ثم وقفتم بالفعل ذات يوم في غرفة مكتبه في درسدن. كان رجلاً

= وليندون جونسون. كعالم يشتهر أوبنهايمر بمؤسس المدرسة الأمريكية للفيزياء النظرية أثناء عمله بجامعة كاليفورنيا، بيركلي. عمل كمدير معهد الدراسات المتقدمة خلفا لأينشتاين، كما حقق أوبنهايمر إنجازات مهمة للفيزياء مثل (تقريب بورن - أوبنهايمر) كما عمل على نظرية (البروتون - إلكترون) وعملية أوبنهايمر - فيليبس والثقوب السوداء وميكانيكا الكم ونظرية مجال الكم والأشعة الكونية.

طويل القامة نحيفاً متحفظاً وأقرب إلى الصرامة. خطرت لك كلمة «بروسي» و: كان رجلاً نزيهاً. استمع إليكم. قال إنه أعطى كلمةً ألا يتحدث مع أحد بشأن تلك القضية. وما دام لم يُعفَ من هذا الوعد فإنه سوف يلتزم الصمت. وبذلك ترككم تمضون.

كان من الممكن التفكير في ذلك، قال كونراد فولف. لكن الأمر كان يستحق المحاولة. لم تنسَي الانطباع الذي تركه كلاوس فوكس عليكِ، هالة من الإحجام كانت تحيط به.

مع ذلك - قالت زانّا - فهل أسهم عمل العلماء على القنبلة الذرية فعلا في إسقاط الاشتراكية القومية؟ ألم يكن على العالِم أن يرفض من حيث المبدأ المشاركة في صنع الأسلحة التي يمكن أن تهلك البشر في النهاية؟ أم أن الغاية كانت تبرر الوسيلة: ألم يكن على العالِم أن يفعل كل ما بوسعه لتوقيف مُدمّري البشرية، باستخدام وسائلهم هم أنفسهم البشعة؟ أي: أن يكون مذنباً في كل الأحوال. ثم أيضاً - تصاعد غير عاديّ للأحداث - ألم يكن مطلوباً منهم أن يضعوا بأنفسهم الأهداف المنشودة من القنبلة التي قاموا بصنعها؟

كيف سيكون شكل هيروشيما بعد ذلك، هذا ما لم يستطيعوا بالتأكيد تصوّره. صراع التراجيديات القديمة - قالت زانّا - لكن لماذا بدا لي صراع الأوريستيا وأيفيجينيا إنسانياً، وصراع أصحابنا علماء الفيزياء في المقابل غير إنساني؟ أهو الاكتمال الرهيب لوسائل الدمار؟ أترتفع حقيقة أن وجود البشرية متوقف على هذه اللعبة بهذا الصراع إلى بُعد آخر؟ أينقسم تاريخنا إلى ما بعد وما قبل؟

قال لويس: إذا كان من الممكن أن يُدفع أناس حسنو النية إلى مثل هذه الورطة فلا بد أن هذا المجتمع الذي يعيشون فيه مجتمع مريض. بل ربما محتضِر.

سألت نفسي عما كنتِ تفعلينه أصلاً يوم ٦ أغسطس ١٩٤٥. لم تكوني على أي حال قد سمعت أي شيء عن القنبلة، أعتقد أن ذلك استمر طويلاً. فحيث كنتم تقيمون في حظيرة قرية في ولاية ميكلنبورغ لم تكن هناك صحف، وكانت الإذاعات قد استولت عليها قوات الاحتلال. كان صيفاً جميلاً. كنت تجلسين في غرفة مكتب عمدةٍ ما، تملأين بعض الأوراق الرسمية.

في غرفتي بالفندق الصغير قررت تسجيل يوميات الرحلة. كانت آلتي الكاتبة بالفعل في طريقها عبر المحيط إلى أوروبا. كتبت:

ربما يستحق الأمر كتابة قصة عن الصراعات المستعصية. أين يجب أن تبدأ؟ من عند الإغريق؟ إلا أن الصراعات المستعصية من سمات الحداثة. فإن تعاسة إنسان العصر الحجري والمجتمعات الزراعية كان لها طابع مختلف عن تلك التي يعيشها الإنسان الحديث. لا يمكن أن يكونوا قد عرفوا وخز الضمير الذي يرافقنا عندما نرى أن كل قراراتنا التي لا مفر منها ليست صحيحة. وأنه لا خيار لنا بين الصواب والخطأ.

لا يدهشني كون أنجلينا كانت قد رافقتني إلى هنا. من دونها لصارت ليلتي في غرفة الفندق الصغير النتِنة ذات السرير المزدوج العملاق كئيبة. تفَحّصَت كل الأشياء في هذا السكن الحزين من المقعد الرث في زاوية الغرفة بجوار النافذة. من خلال سلوكها فحسب جعلتني أفهم أن ثمة علاقة بين مثل هذه الغرف والقنبلة المتوهجة في المتحف المضيء. فإن إحداهما شرط وجود الأخرى. ما هذا يا أنجلينا؟ قلت مستاءةً، فامتطت حينئذٍ القنبلة وطارت عبر النافذة العريضة.

في اليوم التالي قطعنا رغم الطقس السيئ مساحة كبيرة عبر نيو مكسيكو وبتنا في فندق «ثاندر بيرد لودج» وكان من دواعي الكآبة أن غرفه لم تختلف عن سائر الغرف التي أقمنا فيها طوال رحلتنا.

حلمت أن عدداً صغيراً من السيّاح انطلقوا إلى رحلة كشفية، كنا جميعاً نرتدي سترات صفراء وواقيات المطر أيضاً. يحذرنا قائد مجموعتنا من الطقس «القاسي» الذي سوف نواجهه. لم أشعر تجاهه بالثقة، ولكن لسبب ما بدا أنه لا يمكن الرجوع إذا كان المرء قد تعهد بالمجيء من البداية. قالت إحدى السيدتين البشعتين اللتين كانتا ضمن مجموعتنا: إن الله يرى كل شيء. علينا أن نتخذ طريقاً خفياً. فقالت الأخرى: إذا كان الله يرى كل شيء على أي حال فبإمكاننا أيضاً أن نسلك طريقاً معلناً. أخذت أتأمل ما علينا أن نخفيه وأيهما كانت على حق ولا أستطيع أن أحسم قراري. أعلم فقط أنني لا أريد أن أكون هنا، لكن لا يخطر لي أين يمكنني أن أكون غير ذلك. ثم أفكر:

أريد أن أكون حيث لا تزال هناك أسرار. حيث لا يُسلب المرء كل أسراره عنوةً، لأنه هكذا فقط يمكن أن يصير العالم نظيفاً.

صحوت متعبةً وأطرافي مهشّمة. كان الطقس أسوأ مما كان عليه في حلمي: برد، مطر، رياح. قررنا أن نبقى يوماً إضافياً في فندق ثندر بيرد لودج وأن ننساق وراء الانضمام إلى مجموعة من السيّاح كانت قد أرادت رغم الطقس السيء هذا الصباح أن تذهب في رحلة إلى أخدود شيللي. ارتدينا جميعاً كل الملابس الثقيلة التي وجدناها. كنا سنستقل شاحنة مفتوحة. تم توزيعُ أشياء واقية من المطر كانت إنقاذاً لنا. فقد صدت بعض الرياح أيضاً، ومع ذلك تجمدنا مع الوقت بشكل يرثى له.

تيموثي، أحد هنود نافاجو - ونافاجو هي أكبر قبائل الهنود الحمر في أريزونا - كان هو سائقنا ودليلنا. عرّفنا بنفسه: كان قد ولد في الأخدود فكان هذا ملعبه، وقد كان يقوم بتلك الجولة في الأخدود منذ تسع سنوات مرتين يومياً. كان يتوقف عند المزارات السياحية. وسط العواصف الثلجية وقفنا على مرتفع يطل على أطراف الأخدود الشمالية حيث لم نشاهد فقط الجرف السحيق وإنما أيضاً بعض أطلال شعوب الأناسازي ملقاة بالأسفل. مساكن صغيرة متداخلة بعضها ببعض مبنيّة داخل الكهوف - تركة هذا الشعب القديم الغامض الذي يُفترض أنه عاش هنا مئات السنين ثم اختفى بطريقة مُلغِزة، كما شرح تيموثي. لا بد أن أناساً صغيري الحجم - بالمقارنة بكِبر حجم مساكنهم - قد أقاموا هنا. رأينا رسومهم التوضيحية على الجدار الصخري الحاد المقابل لنا، رسوماً بيضاء، أبقاراً وحشية، ورجالاً يرقصون، أيضاً مرتين صليباً معقوفاً، وشمساً وقمراً في دوائر، أكبر وأصغر، جميلة ومؤثرة. زعم تيموثي أن قبائل الأناسازي كانوا يصلون للـ"Sunny Moon" (للقمر المشمس). لم يقل من أين كان يعرف هذا لكنني أردت أن أصدقه. شعرت كيف أصابني سر هؤلاء البشر القدامى بالعدوى، ويجب ألا تتخلى عني تلك العدوى.

وضع النافاجو اللاحقون بجانب رسوم الأناسازي التوضيحية البيضاء رسوماً توضيحيةً أخرى باللون الأحمر، أبقاراً وحشيةً كذلك، ولكن أحصنة أيضاً، لا بد أنهم كانوا قد رأوها عند الإسبان. مراراً وتكراراً كنا نشاهد أطلال قبائل الأناسازي في كهوف المنحدرات الصخرية تحت الجروف الشاهقة. هذه المساكن التي كانت على ما يبدو تستخدم في الاحتفالات الرسمية لم يكن الوصول إليها ممكناً إلا من الأعلى عن طريق الدرج. كلا. قال تيموثي الذي كان بالطبع

يحمل اسماً هندياً أيضاً ذكره لنا بعد أن طلبنا منه ذلك، قال إنه لا يستطيع أن يقول لنا لماذا هجر هؤلاء السكان الأصليون المنطقة حوالي عام ١٢٠٠، ولا إلى أين ذهبوا. فإن الهوبي يزعمون أنهم - الأناسازي - يعدّون أجدادهم. هز تيموثي كتفَيه.

كان تيموثي يتحدث الإنجليزية بلكنةٍ قوية. ذكر كلمات من لغة النافاجو. قال إن «الكلمات الصغيرة» في هذه اللغة يمكن مقارنتها بـ«الكلمات الصغيرة» عند هنود ألاسكا في كندا. لكن لا يمكن ذلك مع الكلمات الكبيرة. لكنهم يستطيعون أن يفهموا بعضهم بعضاً. أما الأناسازي فلغتهم غير مكتوبة، لذلك لا يعرف عنهم الكثير من المعلومات الدقيقة، كيف عاشوا وبِمَ كانوا يؤمنون.

حل المساء شديد البرودة. ونحن تجمدنا. أصر تيموثي على أن يريَنا المزرعة التي كانت في قاع الأخدود والتي لا تزال منذ بداية القرن التاسع عشر مملوكةً من العائلات نفسها ولن يتم بيعها أبداً. كانوا يزرعون الذرة والحبوب. وأما - "what I don't like" (ما لا يعجبني) - قال تيموثي بضحكة خجولة- هو أن النساء هن من يملكن الأرض. وهن يورثنها لبناتهن. ارتأى تيموثي أنه لا بد من تغيير شيء في هذا الشأن. ماذا عن الأسماء؟ سألتُ باهتمام. قال تيموثي: الأسماء يرثها الأبناء من الآباء طبعاً. كنت أحب لو أخبرني أكثر عن بقايا المجتمعات الأمومية في الحضارة الذكورية.

كنا في وقتٍ ما خلال تلك الرحلة إلى الأخدود بما فيها من أطياف الأحمر والأصفر الداكن التي أضاءت مرة أخرى قبل غروب الشمس بقليل - إذ كانت السماء قد استعادت صفاءها - بشكل يكاد يكون مؤلماً، مع خضار الشجر البكر، حتى أن شيئاً أصيلاً تغيّر بداخلي. حين نزلنا أمام فندقنا طلع كذلك القمر، كبيراً وأحمر

وعنيفاً. كان عليّ أن أتسمّر في مكاني لأشاهده. جاءتني رسالة، أو رؤية، أو لا أعرف ماذا يمكنني أن أسميها. كانت شهقة عميقة. كنت حرة.

نعم. ماذا غير ذلك، قالت أنجلينا. الآن تماماً أنا بحاجة إليك - قلت - ابقي معي. - حسناً، قالت أنجلينا غير مندهشة، ولكن لِمَ يكون على أول ملاك ألتقي به أن يندهش من طلباتي؟ حسناً، حسناً، كان ملاكي سيدة سوداء، لم تكن تعيرني اهتماماً كبيراً، لم يكن بالإمكان إنكار هذا، لكنها كانت قد قَبِلت، والملائكة يفون بوعودهم. ابتسمت أنجلينا ساخرةً. قالت إنها ستُبقي عيناً عليّ. لاحظت أنها مجهدة، ومع ذلك لم أتحرّج من أن أستدعيها.

ذهبنا إلى المطعم الذي تديره قبيلة نافاجو، تلقينا خدمة غير ودودة، أكلنا طعاماً وافراً جداً إلا أن طعمه لم يعجبني. فجأة انطفأ النور في الخارج حيث كانت العاصفة قد اشتدت من جديد، وقفت نادلات نافاجو يتضاحكن في الركن، استمر الظلام طويلاً. وأخذ الهدوء يزداد في المكان الذي كان الصوت فيه عالياً جداً بسبب السيّاح الذين كانوا يتصرفون هنا ما لم يكونوا ليسمحوا لأنفسهم في بيوتهم. بعد ذلك تم توزيع شموع صغيرة جداً في البداية ثم أكبر قليلاً لاحقاً في أكواب على الطاولات. منتهى الرومانسية، قالت زانّا التي كانت مثل لويس ومثلي لا تستطيع أن تنفصل عن الصور التي كنا قد رأيناها في خلال رحلتنا.

ربما كان هذا هو سبب مجيئي إلى أمريكا؟

كانت الغرف في كل الفنادق الصغيرة كبيرة، مصصمة وفقاً للنظام نفسه بحيث يمكن لثلاثة أفراد على الأقل المبيت فيها، الأسرة واسعة جداً وطريةً جداً، في كل مكان الأغطية البلاستيكية نفسها على

الشراشف، في كل مكان التلفاز في الموضع نفسه، في كل مكان الرائحة المتربة النتنة نفسها التي تبحث في كل مكان عن المُنَظِّف نفسه. إن أريزونا ولاية «جافة». جلسنا معاً ربع ساعة أخرى في غرفة زانّا ولويس وشربنا كأساً من الويسكي الفاخر الذي كان لويس قد أحضره معه. كان كلاهما قد انتابته هواجسي نفسها، وهو ما شعرت به من الطريقة التي تحدثا بها عن الأناسازي، كان فيها تأثر عميق، بل ربما شيء من الرهبة والقلق.

هل كانت في تلك الليلة الأولى قد خطرت لي بالفعل الكلمة التي صارت بمثابة علامة على الطريق طوال الرحلة؟

رحلة على الجهة الأخرى من الحقيقة

الشعور بأنك ترتحل خارج الزمن - كما يمكن للمرء أن يرتحل خارج جلده - أخذ يقوى. في لحظة ما وصلت إلى المعادلة: رحلة الأحلام، أيضاً لأنني كنت أتنقّل ليلة بعد ليلة بين الأحلام الغريبة التي استمرت دهشتي إزاءها في التراجع، والتي - لا أريد استخدام كلمة «إدمان» - بدأت أنتظرها أكثر بكثير.

على الإفطار أحضرت زانّا إناءين جميلين للشرب عليهما زخرفات نافاجو بلونيها الأسود والأبيض من متجر الهدايا الذي كانت قد قضت ساعتين تتفقده. أهدت أحد الإناءين للويس فشربا، كلٌّ في إنائه وحيّا أحدهما الآخر بالعينين، بدا لي كأنهما يجددان عهداً.

تفحص لويس أحد المنشورات الدعائية عن حياة الأناسازي. سوف نقتفي أثرهم. إن اسمهم بالمناسبة - الذي أطلقه عليهم النافاجو

بما أن أحداً لم يكن يعرف ماذا كانوا هم يسمون أنفسهم - كان يعني: الأوّلين. سوف ننطلق إذن إلى تلّ ميسا فيردي (التل الأخضر) حيث تَحسُن رؤية إرث الأناستازي. وصلنا على غير المتوقع إلى منطقة غمرها اللون الأحمر بشكل لا يُصدّق، الأحجار الرملية التي تصنع منها المواد اللازمة للشوارع والأرضيات والبلاطات كانت ألوانها تتراوح بين أطياف الأحمر والأصفر الداكن، لم نستطع أن نشبع من النظر إليها.

حين أغمض عينيّ يشرق - بعد السنوات الطويلة - بريق من هذه الصورة. تعطي خلفية لخبرية اليوم التي شغلتني: إن الجيولوجيين كانوا بصدد الإعلان عن أن عصر الهولوسين[١] الذي نعيش فيه اليوم والذي هو بالمقارنة بالعصور الجيولوجية السابقة لم يكن بعد بهذا القِدَم، قد انتهى الآن بالفعل، وأن عصر الأنثروبوسين قد حل محله. فقد ثبت أن الإنسان يُمثّل اليوم القوة الأعظم التي تستطيع أن تحدث التغييرات على الأرض - أيضاً تلك التي سوف يدركها الجيولوجيون في قرون لاحقة - وعلى القشرة الأرضية، من خلال انقراض الأنواع، من خلال تكوّن مواد بناء جديدة (الطوب والأسمنت). البعض يريد اعتبار هيروشيما حداً للحقبة، والبعض الآخر يعتمد بداية العصر الصناعي: ١٨٠٠.

لم يترك الأناسازي دماراً وراءهم حين أخلوا مناطقهم السكنية في

---

(١) **عصر الهولوسين أو العصر الحديث** يمثّل الفترة الأخيرة من الزمن الجيولوجي، الذي يغطي ١٠٠٠٠ سنة الأخيرة تقريباً من التاريخ الجيولوجي. ومن المحتمل أنّنا نعيش اليوم في فترة بين جليدية (دفء) وسيعود، بعد عدة آلاف من السنين، الجليد ليغطي مرة أخرى المناطق التي كانت تغطيها الأغطية الجليدية البليستوسينية.

صمت وارتحلوا إلى مناطق أكثر فقراً سوف نتعرف عليها أيضاً خلال رحلتنا.

بما أن اللون الأحمر في المنطقة لا يوصف أخذت أُصوِّر بشكل مكثف على غير عادتي وكنت أعلم بالفعل أنني سوف ألتقط صوراً لن تكون سوى مخيبة للآمال. تراجع الأحمر كلما توغلنا في الشارع الذي كاد يكون خالياً، حل محله الرمادي المخضرّ، كان علينا أن نتبع الدليل الذي أوصلنا إلى نصب الزوايا الأربع[1]. وقفنا إذن حينذاك أمام الحجر الذي يمثل تلاقي حدود الولايات الأربع: أريزونا ونيو مكسيكو ويوتا وكولورادو. رأينا كيف كانت المجموعات الأخرى التي تجمعت أمام النصب تكنّ احتراماً شديداً لهذا المكان، وبقينا نحن غير متأثرين، أكملنا طريقنا بعد ذلك واقتربنا من ميسا فيردي التي سمعنا وقرأنا عنها الكثير، مروراً على الجبال النائمة التي كانت تُبلِغ الطبيعة برصانتها والتي كانت قممها ومنحدراتها مغطاةً بالثلوج.

كان الطريق قد طال بنا حين حسبنا الوقت، في النهاية استغرق الأمر ربع ساعة إضافية لنصعد إلى الهضبة، إلى «الطاولة الخضراء». كان المساء قد حل، والمتحف الذي كان يشرف عليه حارس لطيف كان سوف يغلق أبوابه خلال نصف ساعة، لم ندع ذلك يوقفنا، أردنا أن نعرف شيئاً عن مراحل الاستعمار المختلفة في ميسا فيردي وعن الأناسازي الذين عاشوا هنا لمدة ثمانمئة عامٍ وشيدوا بيوتهم تحت منحدرات صخور الأحجار الرملية، تحت جدران الأخدود بحيث كان

---

(١) **الزوايا الأربع**: هي منطقة أمريكية حدودية تشكل النقطة الوحيدة التي تحد أربع ولايات أمريكية مختلفة وهي ولايات أريزونا وكولورادو ونيو مكسيكو ويوتا وقد أصبحت العبارة تستعمل لذكر الولايات الأربع.

من الصعب الوصول إليها من الخارج، والذين حفروا حجرات احتفالاتهم الرسمية تحت الأرض، تلك الكهوف المستديرة التي لا يمكن بلوغها سوى من خلال درج عبر فتحة من الأعلى. المفترض - كما قرأنا على لافتات وجدران المتحف - أن السيدات هن اللاتي كن يبنين البيوت وأن القبائل كان يحكمها النظام الأمومي. ذهبنا إذن في جولة في ميسا فيردي ورأينا الكثير من أطلال الكهوف وفي النهاية معبد الشمس الشهير متعدد الطوابق. هبت رياح قوية، كان الجو مشمساً لكن شديد البرودة، لم يخطر لنا أننا قد نشعر بمثل هذا البرد القارس أثناء رحلتنا.

أمام باب الخروج في المتحف كانت هناك نافذة عرض: “What we owe to the Indians” (ما ندين به للهنود الحمر). تم عرض كل ما أخذه «الرجل الأبيض» عن الهنود الحمر، من الطب حتى المنتجات الزراعية.

سعدنا بالسيارة الدافئة، تبادل زانّا ولويس على عجلة القيادة، وكان بإمكاني أنا أن استلقي ملفوفة بالغطاء على المقاعد الخلفية، لم أشهد شيئاً من حلول الظلام. كنت ضائعة في متاهة تشبه جدرانها جدران مساكن الأناسازي. الخيط الذي كان عليه أن يخرجني لم يكن مع أريادني[(١)] بل بالطبع كانت أنجلينا ملاكي هي من وضعته في يدي، كان بوسعي أن أتحدث إليها بشكل طبيعي تماماً، أن أسألها إن لم يكن هؤلاء الأناسازي «أكثر إنسانية» منا نحن البيض الأغنياء الموجودين

(١) أريادني: في الميثولوجيا الإغريقية القديمة هي ابنة مينوس ملك كريت وباسيفاي ابنة هيليوس إله الشمس، وعندما أتى ثيسيوس ليقتل مينوتور وقعت أريادني في حبه ودلته على فكرة الخيط الذي وضعه في بداية المتاهة وأرشده إلى طريق الخروج ثم حملها معه خارج الجزيرة.

اليوم. لم تكن أنجلينا تجيب عن مثل هذه الأسئلة، كنت أعلم ذلك بالفعل، كما أنها لا تعير مشاعر الذنب اهتماماً، كان رأيها أن من شأنها فقط أن تعيق المرء عن المضي في حياته متحرراً وسعيداً بذلك، وعن أن نسلك طريقاً جديداً لإنجاز ما هو ضروري اليوم أياً كان ما يمكن أن نتهم أنفسنا به في الماضي.

التزمت الصمت، كنت قد فكرت مراراً سرّاً أن الخبرة الحياتية لدى ملاكي قد تكون بسيطة بعض الشيء، ربما لم يكن يفهم نفسية الإنسان الحديث المعقدة بشكل كامل، لكنني لم أنطق بذلك أبداً، وبالمناسبة لم يكن هذا مهماً بالنسبة إليّ.

لم نكن لنتوقع ما كان عليه فندق ساذرن ويست جراند هوتيل في دولورس حيث كنا قد حجزنا إقامتنا، حيث استقبلنا فريدي، أحد ملاك الفنادق الذي يصعب ابتداعه، رجل قصير صعب المراس. بأدب غامر أشار لنا إلى غرفتنا التي كان من المفترض - كما لوحظ عليه - أن تثير إعجابنا. كنا قد وقعنا في بيت للدمى: خمس غرف، كوابيس باللون الوردي، متناهية الصغر، مظلمة، حتى حين تضاء المصابيح ذات القَلَنْسُوَات الوردية، وكانت على كل مساحة صغيرة خالية مزهرية فيها ورد صناعي، كانت الستائر مسدلة، والشبابيك غير قابلة للفتح، خزانة صغيرة جداً، حمام صغير جداً به حوائط وردية وشراشف وردية. هكذا - كما يظن فريدي - كان تصوّر الأوروبيين عن الفنادق، كان يرغب في لقائهم، أما أنا فقد شعرت كيف أخذ حديثه المتدفق يعكّر مزاجي.

بدا أن حال الاثنين الآخرَين تشبه حالي، كنا بحاجة لأن نشرب شيئاً، لكن فريدي لم يكن مخوّلاً إليه إهداؤنا مشروباً، لم يكن يدير هذا الفندق منذ فترة طويلة، كما عَلِمنا. أشار علينا بالذهاب إلى متجر

الخمور في الشارع نفسه، متجر مشروبات كحولية ضيق حيث باعتنا فعلاً سيدة عجوز جداً - لا بد أنها خارجة من فيلم ميس ماربل - بعد شدٍّ وجذب بعض زجاجات النبيذ الأحمر التي تخلت عنها بصعوبة: "I told my husband to buy more red wine!" (لقد قلت لزوجي أن يأتي بالمزيد من النبيذ الأحمر!)، بالإضافة إلى ذلك اشترينا الويسكي والتيكيلا، وهو ما أثار شكوك السيدة بائعة الخمور بشأننا. "Be careful!" (كونوا حذرين)، نصيحة قدّمتها لنا لنعمل بها على الطريق.

فريدي بدوره اتفق بشدة على أننا قد نواجه بعض المصاعب بمشترياتنا تلك. كان يفضل أن يقدِّم لنا النبيذ في فناجين القهوة لكي لا يلحظ أحد على الطاولات الأخرى في مطعمه - الذي كان بالمناسبة صغيراً جداً - كيف أنه يساعدنا على ارتكاب المعاصي. وأخيراً وجد مخرجاً: بما أن المطعم كان مقسّماً بواسطة أخشاب كثيرة إلى مقصورات قطار، فقد أزاحنا إلى طاولة في أبعد ركن في القسم المختبئ الذي لا يمكن لأحد أن يراه. كان على الطاولة مثلما على كل الطاولات قطار خشبي ينقل الملح والفلفل. وقد جلب فريدي الكؤوس إلى هنا بثقة، ثم شرب هو كأساً معنا أيضاً بينما تولت فتاة شابة شقراء بعينين مرسومتين بالكحل الداكن طلباتنا "American food" (أطباق أمريكية)، كميات هائلة بأسعار رخيصة.

إلا أن فريدي لم يغادرنا. أثناء تناولنا شرائح اللحم أخبرنا كل شيء عن عائلته: كان جده من ألمان الفولغا[1] وقد جاء إلى هنا عام

(١) **ألمان الفولغا**: هم فلاحون ألمان كانت كاترينا الثانية أو كاترينا الكبيرة، الأميرة الألمانية التي تربعت على عرش الإمبراطورية الروسية من عام ١٧٦٢

١٩٠٦ وشق طريقه هنا كمزارع، ترنح والده بين الأزمات الاقتصادية واحدة تلو الأخرى، أما هو - فريدي - فقد صار شرطياً في أوهايو، وظيفة ليست سيئة - “you see” - ومع ذلك فقد تخلّى عن كل شيء ذات يوم وجاء مع زوجته وأولاده فقط إلى هنا في كولورادو، وكان قد قرر بسرعة شراء هذا الفندق بعد أن أتمّ دورةً مكثّفةً لدى بعض الأصدقاء في الإدارة الفندقية. والآن فإنه يحاول لمّ شمل عائلته من جميع أنحاء أمريكا. كان أخوه قد وصل بالفعل، كانت الفتاة الشقراء التي تتولى الخدمة إحدى بنات أخيه. وكان المنتظر أن تصل أخته أيضاً من مدينة كانساس سيتي. هكذا نراه - قال بينما رفع كأس النبيذ الأحمر - إنساناً سعيداً. فهنّأناه بشيء من الأسى.

في الصباح التالي بعد زيارة قصيرة للمنطقة كنا متفقين على أن دولورس هو المكان الأمثل لفيلم بوليسي يتعين أن تدور أحداثه في أمريكا القديمة. لم تكن فقط محطة سكك حديد ريو جراند سائرن التي كانت تعمل منذ زمن بعيد هي التي احتفظت بجمال طرازها القديم، بطريقة أخرى جسد الزوجان إيرينا وآلف صاحبي المخبز الزمن الماضي. كانا قد جاءا من حي كرويتسبرغ البرليني، اصطحبها هو بعد فترة خدمته العسكرية معه إلى هنا، فصارا الآن يصنعان الخبز والكعك على الطريقة الألمانية ويبيعان مقتنيات ألمانية قديمة. وقد أطلعانا على فرنهما الخشبي، فاشترينا الخبز المصنوع من الحنطة

= إلى عام ١٧٩٦ وأقامت مستوطنات على ضفاف نهر الفولغا، قد جلبتهم إلى هناك لتطوير هذه المناطق وتحديث مزارعها، فأقاموا بعض المدن الحديثة تحت إدارتها مثل مدينة «أوديسا» على البحر الأسود، ولذلك صار يطلق عليهم اسم «ألمان الفولغا». وقد نفاهم ستالين إلى سيبيريا أثناء الحرب العالمية الثانية، لأنه شكّ في إمكانية تعاونهم مع النازيين أثناء الحرب.

السوداء والكعك المحلى بعسل النحل لنأكله في المساء في غرفتي بالفندق في كاينتا، لكن الآن كان علينا أن نزور الحدّاد، رجلاً في السادسة والثمانين لا يزال يمارس العمل (why not?). كان يصنع دوّارات الرياح الحديدية للقرية كلها. كان قد عاد إلى دولورس من حيث أحضر زوجته منذ واحد وستين عاماً: كان قد أعادها إلى عائلتها. كان هو هولندي الأصل، جاء إلى أمريكا مع والديه حين كان طفلاً.

والآن أودّ أنا لو أقابل شخصاً كان والداه أمريكيين أصلاً، قالت زانّا بينما كنا ننعطف لدى كورتيز غرباً، ونتحرك على طريق ترابي باتجاه كايتنا، مرة أخرى في مشهد طبيعي أحمر يمر وسط منطقة خصيبة. في الشارع غير المعبد الذي لا تكاد تسير فيه السيارات مررنا على بعض الحقول المهملة. حينئذ ظهر - كان ذلك فعلاً يشبه الظاهرة التي تتخطى كل توقعاتنا - على جهة اليمين في أرض مزرعة مسيّجة راعي بقر على حصان من دون سرج. قالت زانّا: إنني لا أصدق هذا الآن، وتوقفنا. أبقار كثيرة كان راعي البقر يقودها بالحبل مثلما نشاهد في الأفلام. كان رجلاً في الخمسينيات من عمره، جاء إلينا عند السياج، كان يرتدي ملابس ممزقة، وقبعة رعاة البقر الكبيرة، بدا وقوراً. بجواره امتطى ولد صغير ربما في السادسة من عمره أيضاً حصاناً من دون سرج، ارتدى قميصاً أحمر فاقعاً وطبعاً قبعة رعاة البقر.

أراد الرجل - أبو الفتى بالطبع - أن يعرف من أين أتينا، وردد أسماء البلاد الغريبة وراءنا. كان قد وُلِد في هذا الوادي، يذهب في الصيف مع القطيع إلى الجبال التي تعلو دولورس، في اليوم التالي يكون القطيع قد «احترق». سأل عن وظيفة كلٍّ منا، نحن الغرباء بالنسبة إليه، وأراد أن يعرف: “What do you think about eternal

life?” (ما رأيكم في الحياة الأبدية)؟ وبعد تلعثمنا حرجاً وتحاشياً للسؤال بدأ يلقي علينا محاضرةً قصيرةً عن «المُخَلِّص». لم يكن يكترث لمؤسسة الكنيسة، فقد كان هو نفسه تبشيرياً. لم يذكر اسم الطائفة التي كان يشعر بالانتماء إليها، فالأمر لا يتعلق عنده بذلك، فإن المخلص والمنقذ يضمن لنا الحياة الأبدية. تكوّن لدينا انطباع بأن الرجل يباركنا قبل أن نكمل طريقنا. كنت سعيدة أنني قمت بتصويره. سوف تبدّد هذه الصور ظنوني حول أننا لم نقابل بشراً من لحم ودم وإنما كائناً روحياً. لكنه موجود بالفعل فيها بكامل بهائه كراعي بقر والقطيع في الخلفية.

وكذلك الشارع الذي فاجأنا أن صبّ فيه طريقنا الترابي وكانت فيه منطقة البناء الوحيدة، كل ذلك وثقته أيضاً. هذا الشارع الجديد من الواضح أن الهنود الحمر هم من شيدوه، كنا نقترب من بلاد النافاجو، هنود حمر على المعدّات العملاقة، فتيات من الهنود الحمر على الجرّارات، بنات النافاجو المسؤولات عن علامات غلق الطريق، كنا نحن تقريباً الوحيدين الذين يسيرون على هذا الطريق. سألنا إحدى الفتيات فيم كان الشارع سوف يستخدم. لم تكن تعرف سوى أن طريقاً سريعاً إلى كورتيز سوف يتم بناؤه للسائحين. لكننا كنا قد رأينا على يمين ويسار الشارع مضخات نفط، وبين الحين والآخر لافتات تكساكو وموبي أويل، ومرة لافتة لشركة موبي أويل: “We are proud to be a part of the Navajo nation” (فخورون بأن نكون جزءاً من أمة النافاجو). ضحكت الفتاة التي كنا نسألها خجلةً كأننا فتحنا معها موضوعاً غير لائق، تصرفت كأنها لم ترَ مضخة نفط في حياتها. إلا أنها اصطحبتنا على الطريق حتى خرجنا إلى الشارع غير المعبّد الذي ألفناه حيث امتدت حولنا الطبيعة غير المشذّبة.

وجدنا منتزهاً على أطراف الأخدود يطل على منظر طبيعي جبّار. أكلنا لحماً مجففاً للمرة الأولى، وأعجبنا طعمه على عكس ما توقعنا، كانت معنا بعض زجاجات الماء وخبز الحنطة الشهيّ الذي اشتريناه من دولورس. بعد جولة بين المناظر الطبيعية التي عقدت ألسنتنا، وحيث كان نهر سان جوان يتثنّى بالأسفل، وصلنا إلى دائرة نفوذ وادي الآثار، تلك الكتلة الجبلية الغريبة التي تظهر في الأفق، نذير الشؤم الذي كنا قد سرنا طويلاً قبل أن نصل إليه أخيراً، بعد أن دفع كلٌّ منا خمسة دولارات على باب الدخول واستطعنا أن نصعد بالسيارة إلى مركز الزوّار حيث احتلت العشرات من السيارات الموقف وحيث ألح علينا بنات وشبان النافاجو في عرض جولة لمدة ساعتين ونصف أو ساعة ونصف.

كنا مرهقين، لكننا شعرنا أن علينا الالتزام بألا نفوّت علينا شيئاً، فأخذنا الجولة الأقصر، مرة أخر على شاحنة صغيرة مكشوفة كانت تقودها سيدة شابة، بدينة جداً مثل كل سيدات النافاجو. أراحنا أنها كانت تقود المركبة القديمة بحذر بالغ على الطرق السيئة في وادي الآثار التي كنا نراها في أفضل ضوء ليلي، أشكال غريبة وقت غروب الشمس، مرة أخرى بلون أحمر لا يصدّق. كانت لكل الأحجار أسماء كما قيل لنا: القفاز الراحيّ، والفيل، والجمل، والأخوات الثلاث. أما في النصف الثاني من الرحلة، في الظل وعكس اتجاه الريح، فقد صار الجو شديد البرودة مرةً أخرى، هذه المرة سوف نصاب بالبرد بالتأكيد. رجل أمريكي وزوجته ممن كانوا مع مجموعتنا شاركانا المخاوف نفسها التي استطاع لويس تهدئتها بعض الشيء بأن وزع علينا كعكات الزنجبيل المفضلة لديه والتي كانت وفقاً لقناعته علاجاً لكل الأمراض.

وصلنا جائعين إلى كاينتا، إلى ويثريل إن، فندق يديره النافاجو، غرف كبيرة، شديدة النظافة. على الناصية - كما قالوا لنا في مكتب الاستقبال - هناك مطعم يمكننا الحصول فيه على أطباق النافاجو. كانت الأطباق مثلما كانت في كل مكان أقرب إلى الأطباق المكسيكية، خبز مُحَمّر، عليه فاصوليا، وفوقها السلاطة. مخيب للآمال.

في الصباح التالي، على الإفطار، تكرر معنا عدم فهم النادلات ما كنا نعنيه بطلباتنا. في النهاية أحضروا لي خبز التوست الفرنسي، وقد أرضاني ذلك. بعد ذلك تزودنا باللحوم المجففة وانطلقنا في اتجاه محمية الهوبي التي كانت - كما علمنا - تقع على هضبة معزولة عن أرض النافاجو الأكبر بكثير. لم يكن السلام يسود بين القبائل، هكذا سمعنا. كان هذا - كما اكتشفت فيما بعد - بخساً شديداً. فإن الصراع بين الهوبي المسالمين المستقرين وبين النافاجو البدو الغزاة امتد لقرون حول الأرض والملكية.

أحاول أن أتذكر مشاعري، فقد كانت متباينة. اهتمام، فضول عارم، لكنني لم أستطع كبت الشعور بعدم الارتياح لأننا الآن أردنا نحن أيضاً أن ننضم إلى تيار الزائرين الذين يأتون لمشاهدة شعب قديم يعاني من الغزاة وحضارتهم الأجنبية، مثلما يشاهد المرء الحيوانات في حديقة الحيوان. كان لويس يتمنى أن يجد الشيخ العجوز الذي كان في العام الماضي قد سافر عبر أوروبا لطلب العون وجمع بعض الأموال لشعبه. وهناك قابل لويس السويسري.

صعدنا أعلى الجبل. أخذت الأرض تصير أكثر إقفاراً. إن الملغز بالنسبة إلى المتخصصين في الإثنولوجيا هو - قال لويس - لماذا قرر الهوبي الاستقرار هنا تحديداً. ليس هناك سوى شجيرات العرعر

الحشائش الجافة. خصصنا نصف ساعة لنستكمل كتابة ملحوظاتنا عن الرحلة. أعطانا لويس بعض المعلومات عن تاريخ استيطان الهوبي القديم وعن معاركهم مع الغزاة الإسبان والأمريكيين اللاحقين، واستشهد لنا بعنوان كتاب: "When Jesus came, the Corn Mothers went away" (حين جاء المسيح رحلت أمهات الذرة[1]).

بعد ذلك توجهنا مباشرة إلى بلاد الهوبي. على الـ"Second Mesa"، أو التلّ الثاني، وجدنا مركز ثقافة الهوبي، وفندقاً صغيراً أصفر داكناً ذا طابقين، وعدة مبانٍ متداخلة أقسامها كما في مدينة عربية. في مكتب الاستقبال استقبلتنا زينة مروعة: "Happy Easter!" (عيد فصح سعيد!) أراد لويس أن يستدير عائداً على الفور. لكن بما أن المكان الآخر الذي كنا قد حجزنا غرفاً فيه قد وُصِف لنا بأنه "depressing" (يبعث على الكآبة)، فقد قررنا إتمام الحجز هنا. غرف جميلة في الطابق الثاني في آخر الممر. دعتني زانّا إلى غرفتها لشرب كأس من الويسكي لأننا كنا متعبين. كان لويس مفتوناً بتاريخ الهوبي منذ فترة طويلة، لاسيما بأساطيرهم وطقوسهم، لكنه لم يكن قد زار بلاد الهوبي من قبل. كان مرتبكاً وكان يتعجلنا.

ذهبنا باتجاه هوتيفيللا، إحدى قرى الهوبي التي تقع على التل الثالث وحيث كان المفترض أن نجد الشيخ جيمس كوتس الذي كان لويس قد تعرف عليه في سويسرا. شمس المغرب على تل الهوبي شديد الإقفار. مناظر شاسعة لانهائية تتخللها مرتفعات الحجر الرملي،

---

(١) **أم الذرة**: أو بتول الذرة هي شخصية في الأساطير الأمريكية القديمة لدى الهنود الحمر وهي تصوّر مرة على شكل امرأة عجوز وأخرى على شكل شابة تدرّ الذرة بفرك جسدها. وحين تكتشف حيلتها يشمئز الناس منها ويهينونها ويطردونها (المصدر: الموسوعة البريطانية)

وفي المدى قمم الكاشينا أو جبال سان فرانسيسكو: لاحقاً علمنا أن اثنين من قديسي ديانتين مختلفتين قد تنازعا على هذا الجبل. الكاشينا هم كائنات أقرب إلى الآلهة عند عشائر الهوبي، كانت تنزل في يناير أو فبراير من على جبالها إلى بلاد الهوبي وتعيش بضعة أشهر بين البشر.

في هوتيفيللا سألنا أول رجل قابلناه عن جيمس كوتس، قال إن ابن جيمس، دينيس، كان هنا لتوه. جاء بعدها بالفعل ومعه بعض حقائب المشتريات من المتجر، من الخلف اعتقدنا أنه امرأة، ضفيرة طويلة غير معقودة انسدلت على ظهره. حين خبر عمّن كنا نبحث ركب من دون جدال بجانب لويس في السيارة ودلّنا على طريق وعر على أطراف القرية. جعلنا نتوقف عند ما يشبه عربة قطار مركونة، اختفى بداخلها وظهر على الفور ثانيةً، لكي يلوّح لنا بالدخول. كنا قد سمعنا أنه لا بد من إحضار بعض المأكولات هدية من الضيف إلى الهوبي، فكانت معنا كعكة المكسرات وبعض الفواكه.

حين خطونا بداخل العربة صدمتنا حرارة ورائحة كريهة. بالداخل وقف الرجل العجوز، كان مستلقياً فقام وارتدى سترة لائقة. قال إنه قادم لتوه من العمل. مدّ إلينا يده الدقيقة النحيلة السوداء. كان هذا إذن جيمس كوتس. في عتمة العربة رأيت أن بشرته سمراء، وذو وجه هندي جميل، كانت إحدى عينيه مغطاة بقطعة من الجلد. استغرق الأمر برهة حتى فهم متى وأين كان قد قابل لويس، بعدها بدأ يتذكر فذاب. نعم، تذكر أن لويس كان يعيش في أحد الجبال وقد استقلا شاحنته معاً.

أما دينيس الذي لم يكن قد ذكر لنا اسمه سوى الآن - كانت لديه بوادر لحية، عيناه ضيقتان، ووجهه أميل إلى التحفظ - فسألنا إن كنا

نريد قهوة. أومأنا بعباراتنا الأوروبية (المجاملة) المعتادة، تمنّعنا، فقال دينيس إن الأمر بسيط.

فقر مدقع، هكذا يمكن وصف الظروف المعيشية لهنود الهوبي. كان التصوير غير مسموح به تحت أي ظرف في منطقتهم، كنا قد وضعنا كاميراتنا في الصندوق الخلفي في السيارة حتى لا تغوينا ردود فعلنا المنعكسة، وبذلنا مجهوداً في أن نستخدم عيوننا كعدسات الكاميرا. حول المساكن - التي قد نعدّها نحن مساكن إيواء مؤقتة - تجمعت حثالة عدة سنوات: بدءاً من حطام السيارات الصدئ حتى أبراج فوارغ العلب وفضلات الأيام الأخيرة الماضية. اصطحبنا دينيس إلى بيت جانبي. كان قد شُيِّد من الأحجار الكبيرة الداكنة، كانت النوافذ والأبواب مجَمّعة من كل مكان، ولم تكن تُغلق بإحكام، باب المطبخ كان يُفتح من تلقاء نفسه باستمرار، لم يكن بوسعي أن أتصور كيف كان سكان هذا البيت يتمكنون من تدفئة بيت كهذا في شتويات التل القاسية. ومع ذلك كان البيت من بين البيوت الأكثر صلابة في محيطه.

كان المطبخ عبارة عن غرفة مربعة. في الوسط وقفت طاولة بيضاوية مغطاة بمفرش من المشمّع، وحولها مقاعد خشبية، وعند الحائط المقابل أريكة مغطاة بالجلد الممزق وعليها وسادات من أجل جيمس. صب دينيس من إناء معدني كان على الموقد شراباً بنيّاً - أسماه قهوة - في كوب. جلس جيمس على مقعده. دخلت سيدة شابة ممتلئة ومعها فتاة في الرابعة من عمرها. جلستا على الأريكة الجلدية. كانت تلك شقيقة دينيس - كما علمنا - وكان هذا مطبخها الذي كنا نجلس فيه. أخذنا نداعب الطفلة التي كانت جذابة مثل سائر أطفال الهنود الحمر تتجاوب مع مداعباتنا. كان الأطفال في الآونة

الأخيرة - كما قيل لنا - يتعلمون الإنجليزية إلى جانب لغة الهوبي في المدرسة الابتدائية. كان هناك مدرسون للغة الهوبي. لكن ليست للهوبي لغة كتابة. كانوا قد استبعدوا الكلمة المكتوبة واعتمدوا على النقل الشفاهي الذي يمتد منذ العصور القديمة.

كان دينيس شاباً قليل الكلام. يبلغ من العمر ثلاثين عاماً، كما حكى لنا لاحقاً، وكان قد ذهب إلى المدرسة الثانوية في لوس أنجلوس، آنذاك حين لم تكن هناك مدارس ثانوية في بلاد الهوبي بعد. لكنه أحب العودة جداً، قال إن الحياة هنا "nice" (لطيفة)، وإنه يحب هذه البلاد.

تحدثت إلى شقيقته. سألتها من يملك الحقول عند الهوبي، قالت: الرجال، وضحكت وقد أخفت الضحكة خلف يدها حين حكيت أن الحقول عند النافاجو تملكها النساء. سألتها إن كانت تعمل هي أيضاً في الحقول. نعم. كان الرجال يزرعون الذرة والحبوب، والنساء الفلفل الحار والطماطم و القرع. رأينا في اليوم التالي المعدات الزراعية موضوعة على عربة دينيس، مجاريف قوية، أدوات جرف ذات مسطح حاد من أجل الأرض الصلبة. منذ سنتين صار لدى العائلة جرّار، قبل ذلك كانوا يستخدمون الأحصنة فقط في العمل. كان على دينيس أن يسير ثلاثة أميال إلى حقله الذي كان يقع بالأسفل بعيداً في الأخدود. علمنا من أحد المنشورات الدعائية أن الهوبي كانوا قد ابتدعوا طريقة للزراعات الجافة ويقال إن العلماء «البيض» ما زالوا لا يعرفون حتى اليوم أسباب نجاحها. أحسست بما يشبه الشماتة تجاه العلماء الغربيين الذين لم يستطيعوا الوصول إلى مكنون سر هذه الثقافة التي كانت في أعينهم بدائية، وأدركت أنني أتمنى للهوبي أن يستطيعوا الحفاظ على أسرارهم.

ذهبنا مع دينيس إلى بيت صغير كان يسكن فيه. على الفور خرجت بنت مفعمة بالحيوية، جذابة جداً. ابنتي - شرح دينيس حيث بدت علينا الدهشة: دينيسيا. فوراً كانت قد جلست في سيارتنا استكشفت التفاصيل التقنية، أغلقت النافذة وفتحتها وتركتها تنزلق، وضعت المفتاح في موضعه وأطلقت النفير طبعاً. عندما أكملنا طريقنا جلست مع دينيس على المقعد المجاور للسائق، طفلة يقظة وشديدة الذكاء، تمتلك رشاقة وخفة في جميع حركاتها، كما لا يفعل الأطفال الأوروبيون.

سألنا دينيس إن كنا على عجلة من أمرنا للعودة إلى الفندق. حين أجبنا بالسلب اصطحبنا إلى صخرة النبوءات، صخرة شمخت وسط المشهد الطبيعي. وقفنا أمام كهف. قديماً كانت الاحتفالات الرسمية ومراسم الكهانة تقام هنا. أطلعنا على رسوم توضيحية على جدران الكهف: ثلاثة أشخاص على ما يشبه الميزان، شخصان ينزلان إليهم في خط متموج، الأجزاء المختلفة من الرسم لا بد أنها تكوّنت على مراحل مختلفة وظلت تستكمل رويداً رويداً. كان من رأي دينيس أن نبوءة هذا الرسم سوف تتحقق: محاربان يتقاتلان. هذه الحرب سوف تأتي. بين من؟ سألناه. بين الهوبي والنافاجو؟ قال دينيس كلا وضحك. ربما بين الأمريكيين والروس.

على مدخل الكهف رأيت حزمة من الأعواد المصنوعة من الحشائش المجدولة معقودة بجدائل قصيرة، رأسها متفحم. سألت ماذا يمكن أن يكون هذا: إنه قربان. أشار إلى أحد الأحجار داخل الكهف، حيث كانت هناك أيضاً بعض حِزَم من جدائل الحشائش الأطول. كان هذا مذبحاً قديماً للقرابين. نعم، لا يزال بعض الناس يأتون إلى هنا ويقدمون قرابين بسيطة للآلهة القديمة. وهذا هو الدليل

الواضح على أن ديانة الهوبي القديمة لا تزال حيّة، وهي التي بدت علاقة دينيس بها ملتبسة. حين ابتاعني الكاشينا المحدودب - تمثال أحد الآلهة الذي كان قد صنعه من الخشب ولوّنه - بسعر يُعدّ باهظاً، لم يكن يستبعد أنه سوف يؤمّنني أثناء نومي حين يسهر على حراستي في الليالي التالية.

أما أنا فقد وقفت طويلاً أمام القرابين الفقيرة. هل كانت تلك هي روح أمريكا التي كنت أبحث عنها؟ اعتقدت فجأة أنني فهمت علامَ كانت تعتمد القوى الخفية التي أنتجت التاريخ البشري: أن بضعة قرون لا تعني لها شيئاً وأنها تدفعنا جميعاً إلى هدف لم تكن لتفصح لنا عنه.

في الليل حرسني الكاشينا. في المنام تحدثت إلى أنجلينا التي أحسست بوجودها بقربي. قلت إنه إذا ترك المرء نفسه ليغوص بالعمق الكافي لاختفت الفوارق بين البشر والشعوب. هناك روح تحوطنا جميعاً - قلت ناعسةً - إنها روح تلك القرابين التي كانت حيّة بداخلها هي - أنجلينا - أيضاً. والراهبة بيرما التي لم تكن تعرفها على الأرجح. هل نسميها «الهيبة»؟ قلت إننا نحن البيض قد أبعدنا أنفسنا عنها إلى أقصى حد. لكنه اتضح لي الآن أنه لم يكن هناك سبب آخر لتسليم معطف الدكتور فرويد ذلك إليّ سوى تأكيد وجود هذه الروح. التزمت أنجلينا الصمت.

كان الإفطار - كعك الذرة الزرقاء المحلّى بعصير القيقب المركز - شهيّاً.

كل القرى على التل الأول حيث كانت تقام أعياد الربيع الخاصة بالهوبي كان المفترض أن تكون «محذورة» على غير الهنود الحمر، لأن الكثير من البيض لم يكونوا يلتزمون بقواعد منع التصوير والتسجيل الصوتي. وجدنا حينئذٍ في كل مكان على الطريق عند

مداخل التلال لافتات: **محظور على غير الهنود الحمر**. فشهدنا لأول مرة في حياتنا صدّاً بسبب لون بشرتنا.

في النقطة الثانية تقابلنا مع دينيس في فندق هوتيفيللا، في الساعة الواحدة حسب توقيت الهوبي، فقد كانت لهم توقيتاتهم الخاصة، كما خبرنا: بالنهار كانوا يقدمون ساعاتهم ساعة للوراء ليأخّروها مرة أخرى بالليل. لم نستطع اكتشاف السبب وراء ذلك، لكن لويس شرح لنا أنه لا توجد إشارة إلى الوقت في لغة الهوبي ولا علاقة أيضاً مع المكان، وقد فهمت أننا نعيش في عالم آخر وأننا لا نستطيع أن ندرك طريقة تفكيرهم. كان دينيس قد ارتدى أجمل قميص أمريكي ملوّن لديه من أجلنا، ووضع دينيسيا على كتفه وانطلق. "Are we walking?" (هل سنذهب مشياً)؟ صاح لويس مهرولاً وراءه. "Yes" (أجل). ركضنا خلفه إذن ما يقرب من مئة متر حتى أطراف التل، أراد أن يُريَنا الحقول الصغيرة جداً التي تقع في الأسفل على سفوح الأخدود والتي كانت تقوم عليها النساء، وتحيطها أسوار بدائية. بدا لي كأنني أنظر من الأعلى إلى زمن ماضٍ من الحضارة الإنسانية، كان في ذلك بعض تأثريشوبه الألم، في حقول النساء تلك. كان عليهن أن يسلكن طريقاً مجهداً نزولاً وصعوداً ليزرعن، ولغرس البذور والاعتناء بها، ولا بد أن الأجواء في الصيف بالأسفل غير آدمية حرارتها. لكن عائلاتهن لم تكن لتستطيع الاستغناء عن المحصول الهزيل الذي يجلبنه إلى البيت.

ركبنا جميعاً في السيارة. لم يستوقفنا دينيس في أي مكان، لم يكن متأكداً ماذا يمكن أن يريَنا. اصطحبنا إلى برج مراقبة على الجهة الأخرى من التل. شعرت أنني مُلزَمة بالاعتناء بدينيسيا التي كانت تريد الإفلات باستمرار إلى الشارع. لم يهتم والدها بأن يحذّرها ولا أن ينهاها عن أي شيء. سارت معنا حتى أطراف التل حيث الانحدار

شديد، ووقفت هنا بجانب أو ربما أمام أبيها بأصابع قدميها على هذا الحرف، لكنه لم يرَ ضرورة في أن يمسك بيدها. لقد تعلمت مبكراً أن تنتبه إلى نفسها بنفسها.

سرنا عائدين إلى بيت شقيقة دينيس. جاء جيمس العجوز أيضاً ثانيةً وجلس معنا. صُبّت لنا القهوة من إبريق الألومنيوم الكبير في أكواب بلاستيكية، ثم تمت دعوتنا إلى إحدى وجبات الهوبي الحقيقية، خبز الذرة: رغيف من خبز الذرة ملفوف بطريقة شهية في أوراق الذرة، محشوّ بالفلفل الحار - حار لكن ليس حاراً جداً - واللحم البقري. وجبة جيدة، قالت شقيقة دينيس التي لم تكن قد جلست معنا إلى الطاولة لتناول الطعام، وإنما جلست على مقعد كبير تأكل وجبتها في الزاوية، ثم غلّفت لنا ثلاثة أرغفة أخرى من خبز الذرة لنأخذها معنا على الطريق.

فجأةً اهتم دينيس قليل الكلام بأسلوب حياتنا. سأل لويس وزانّا إن كانا متزوجين. تبادل كلاهما النظرات ثم قالت زانّا: إننا نعيش معاً. وهو ما تضاحك دينيس وجيمس لسماعه مبديان تفهُّماً. سألتُ دينيس كيف يتزوجون، فقال: في لاس فيجاس! فضحك الجميع. ثم اتضح أن لديهم مراسم الزواج الخاصة بهم، والتي يقوم بإتمامها أحد الكبار في السن، لكن الدولة لا تقرّها. إذا كانت المرأة تريد أن تؤمّن على حياتها أو أن ترث زوجها بعد وفاته فإن عليها أن تتزوج مرة ثانية. بدت حياتهم معقدة جداً بالنسبة إلينا: اتفاقيات غير كافية مع الأمريكيين البيض لم يتم حتى الالتزام بها. جزيرة صغيرة لبلاد الهوبي وسط بحر النافاجو الواسع.

الآن اتخذ الحوار حول المائدة مساراً حيوياً. رأى جيمس الساعة حول معصم لويس، أشار إلى أن عنده مثلها، أيضاً من سويسرا. إنها

ساعات ممتازة، قال إنه فقد ساعته مرة أثناء العمل في الحقل ثم وجدها بعد سنتين، وكانت لا تزال تعمل. ضحك ضحكة خبيثة على هذه المزحة الموفّقة التي خدعته بها الساعة. أراد دينيس أن يعرف أين كان من الممكن شراء ساعة كهذه. سأله لويس إن كان يريد واحدة. "Yes" (أجل). فقال لويس إنه سيعطيه ساعته. اتضح أن لويس ينتمي إلى عائلات بلو بيرد. في فندق هوتيفيللا توجد عشر عائلات. هو - دينيس - كان قد ذهب أيضاً إلى قمم الكاشينا، تلك الجبال المقدسة التي تأتي منها الكاشينا لكي تعيش بين البشر. حين تحدثنا لاحقاً عن كون دينيس لم يعد يأخذ ديانة الهوبي على محمل الجد، قال لويس: يكون الشعب قد ضاع حين يفقد إيمانه. حينئذٍ تُسلب روحه ويطغى عليه حطام حضارتنا. قال جيمس إنه ربما يأتي إلى لندن في شهر نوفمبر لحضور أحد المؤتمرات. فإن الهوبي يشعرون أن الاتفاقية التي أبرمت في القرن الماضي بين الدولة وقبائل الهنود الحمر مجحفة ويطمحون إلى مراجعتها.

قام بتوديعنا بمنتهى الإجلال.

أعطى لويس ساعته لدينيس الذي قال فقط: "Pretty good!" (جيد جداً!) ووضعها بإهمال في جيب قميصه. كتبت له زانّا أيام الأسبوع بالإنجليزية إذ كانت مكتوبة على الساعة بالألمانية. حين عدنا إلى الفندق شعرنا بالأسى. هل كان الهوبي شعباً في طريقه للانقراض؟

جلسنا بعض الوقت في غرفتي، ربما لأنني كنت آمل سراً في أن تستمع إلينا أنجلينا. قال لويس إنه كان قد درس بشكل علميّ - كما وصف هو ذلك - شعوباً كانت في طريقها للانقراض في جميع أنحاء العالم. لم يتسنَّ في كل الحالات حل لغز هذا الانقراض. في الظروف المتشابهة تنهار بعضها أحياناً، وبعضها يتحمل حتى وإن

تراجعت أعداده. على ما يبدو إنها تستمد بعض القوة من أطلال بعض الآثار المعمارية التي كانت تزين عصور ازدهارها. ونحن - قلت - شهود على انهيار إمبراطوريات كبرى ولم نكن - مثلنا مثل الأولين على ما يبدو - مستعدين لذلك. قالت زانّا: لكن بوسعنا أن نضع أنفسنا مكانهم. إنها تستعد في الفترة القادمة لإخراج نص عن سقوط طروادة وتحتاج في ذلك فقد إلى صوت شاهد رصين يروي الحكاية. فهو ما يحقق التأثير الأكبر.

قال لويس: إن المرء يتشمم النهاية. فهل «اشتممت» نهاية بلادي؟ العجيب أن واقعةً خطرت لي، مقابلة مع السفير السوفياتي في ٣٠ مارس ١٩٩٠ في سفارته الكبيرة في منطقة أونتر دير ليندن التي كنتما كثيراً ما تعتبرانها الحكومة الحقيقية لبلادكما والتي لم يتم استقبالكما فيها لسنوات. ثم فجأةً هذه الدعوة الحصرية، دعوة على الغداء. فراغ خزانة الملابس التام، بيت الدرج الشاسع، الردهات الهائلة الفارغة، ثم حجرة الطعام الضخمة المخيفة التي كانت في وسطها مائدة عملاقة عليها طعام كثير كثير أُعِدَّ لكما وللسفير وزوجته اللذين جلسا قبالتكما. المترجم الشاب الذي لم يجد وقتاً للأكل، والذي كان يترجم ببراعة ومن دون لكنة، جالساً في الجهة الضيقة من المائدة. قائمة طعام مطبوعة بأحرف مذهبة. كافيار ولحم سرطان البحر، صينية سمك السلمون، حساء مرق البورش، وصينية الدجاج. امرأة مهيبة ترتدي قلنسوةً بيضاء ومريلة بيضاء كانت تقدم الطعام. ظلت زوجة السفير - السيدة الفخمة - صامتة. كانت لدى السفير رغبة في الاستفاضة بشأن فوائد البيريسترويكا(١) والغلاسنوست في بلاده.

---

(١) **البيريسترويكا**: كلمة روسية تعني «إعادة البناء» وهي برنامج للإصلاحات =

كان قد طلب نقله خصيصاً إلى برلين وها هو الآن يجلس هنا في هذا الموقف الصعب غير المتوقع. لم يكن قد مر على انتخابات مجلس الشعب في الجمهورية الألمانية الديمقراطية وانتصار تحالف المحافظين أكثر من أسبوعين. لكن الموقف في بلاده كان هو أيضاً صعباً، قلتِ معارضةً إياه. فقال: بالضبط. يكفي النظر فقط إلى الوضع المعقد في ليتوانيا.

لماذا كنتم قد جئتم؟ كان السفير قلقاً بشأن الاضطرابات بسبب ملفات الشتازي. ألم يكن من المفترض أن تتوقف تلك المسألة؟ فأجبت بالسلب، قلت إنه يجب أرشفتها وإتاحتها للقضاة وللمؤسسات الأخرى التي كانت تبحث بالإنابة عن الضحايا.

تحدث السفير عن الرقابة التي تمارس بشكل منظّم على سفارته من قِبَل قيادات حزب الاتحاد الاشتراكي الألماني. فقمت بالتعبير عن قناعتك بأن غورباتشوف كان قد تهاون جداً في التعامل مع هذه القيادات القديمة، لكنه عارض ذلك. فقد كان حاضراً في ستة اجتماعات بين غورباتشوف وقيادات حزب الاتحاد الاشتراكي، لم تتوانَ الجهة السوفياتية أبداً عن الحديث بشكل مباشر. آخر مرة بعد أحد تلك اللقاءات في البهو قال غورباتشوف لمرافقيه: ماذا علينا أن نفعل بعد؟ فقد كان يواجَه دائماً بأن كل شيء على ما يرام في الجمهورية الألمانية الديمقراطية، لاسيما فيما يخص الأوضاع الاقتصادية.

= الاقتصادية أطلقه رئيس الاتحاد السوفياتي ميخائيل غورباتشوف، وتشير إلى إعادة بناء اقتصاد الاتحاد السوفياتي. صاحبت البيريسترويكا سياسة الغلاسنوست، وأدت السياستان معاً إلى انهيار الاتحاد السوفياتي وتفككه سنة ١٩٩١.

سألتِ بعد فتح الحدود في نوفمبر: ألم يستشره أحد؟ قال إنه لم يكن يعرف شيئاً إلا لاحقاً، وإنه كان قد عارض ذلك. لكن لم يكن ليسمع له على كل حال. كان الجميع تحت وطأة الفزع يأمل أن يكون فتح الحدود بمثابة رسالة تطمين لحشود المهاجرين.

ردّ مُصَدّقاً على سؤالك: إن الاتحاد السوفياتي لن يسمح بدخول الجمهورية الألمانية الديمقراطية إلى حلف شمال الأطلسي، هذا ما يمكن أن تكونوا متأكدين منه. فإنهم لن يتخلوا عن أكثر مواقع دفاعهم أهمية.

كان من رأيه أن الأحوال المعيشية للشعب في الاتحاد السوفياتي سوف تتحسن بسرعة، فقد زاد إنتاج السلع الاستهلاكية والغذائية، وأن النقص في مناطق عديدة يتركز أساساً في نقص إمكانيات وسائل المواصلات وفي أنه لدى الناس الكثير من الأموال بحيث يستنفدون كل السلع. إما أنه كان يراوغ أو أنه فعلاً أعمى.

اتضح أنه لم يكد يعرف التيارات السياسية في بلادكم، وأن القوى التي فعّلت الثورة السلمية كانت غريبة عنه، وأنه على ما يبدو قد دعاكم لكي يعرف أكثر عن ذلك. فماذا بحق السماء كان جهاز استخباراته يفعل طوال هذا الوقت؟

من دون أن تعولي آمالاً كبيرة على النجاح أخذت تحثينه على إعادة تفعيل دور سفارته في برلين، وأن عليه أن يتعامل معها باعتبارها حلقة وصل بين الشرق والغرب، وأن يدعو الكتّاب من الغرب ومن الجمهورية الألمانية الديمقراطية ومن الاتحاد السوفياتي، ويقوم بتنظيم فعاليات كبرى. أن يظهر بلاده من الزاوية الثقافية الأفضل لديها. وقد وجد كل ذلك «هاماً جداً ومثيراً». هراء.

قضيتما ثلاث ساعات في السفارة. لدى انصرافكما أوصلكما

المترجم الشاب كذلك عبر الساحة الأمامية حتى البوابة الخارجية. في تلك الأمتار القليلة التي لم يكن باستطاعة أيٍّ من الحراس أن يسمعه خلالها أفاض إليكما: إنه لم يكن قد استمع إلى مثل هذا الحوار الشيق في السفارة من قبل. إن السفير - قال وهو يومئ لنا مستنكراً - «جدٌّ عجوز» ليست لديه أيه فكرة عن شيء. الأوضاع في بلاده سيئة جداً لدرجة أن البعض يعتبر وقوع حرب أهلية مسألة حتمية، ويسأل المرء نفسه فقط ما إذا كان الكثير أم القليل من الدم سوف يسيل. غورباتشوف لا أمل فيه. لقد فعل الكثير جداً من أجل بلاده. قال إنه كان ليشيّد له نصباً تذكارياً من البلاتين، لكنه لا يصلح الآن سوى لأن يكون له تأثير متوازن كرئيس. فإن الحزب الشيوعي يشهد نهايته على كل حال، الحل الوحيد قد يكون في أن يصبح هناك حزب اشتراكي ديمقراطي يأخذ زمام الأمور بيده.

وقفتما مخدّرين في منطقة أونتر دير ليندن. مواجهة من الجنس الثالث. كنتِ قد اشتممت النهاية.

كان هدفنا التالي هو الأخدود الكبير. كان ذلك هدف آلاف السائحين الآخرين، كانت الفنادق المجاورة مزدحمة جداً، ألقينا نظرة من إحدى منصات المشاهدة على عمق الأخدود الغريب الذي غمرني بشيء من الهدوء الغريب لأن هيبة الطبيعة كانت تفوق كل المقاييس البشرية، وصلنا حينئذٍ بعيداً بعض الشيء عن ضجة السائحين الذين لم نكن نرغب في أن نصير جزءاً منهم، بالأسفل في الحقول الحمراء حيث أكملنا حديثنا في الغرفة مع ما تبقى معنا من الويسكي عن انقراض الشعوب. رأى لويس أن هذا الاختفاء يكون مرتبطاً دائماً بعدم قدرة شعب أو قبيلة أو عشيرة على مقاومة حضارة أكثر تفوقاً منها تقنياً.

علينا أن نتذكر فحسب خطابات ثلاثة من شيوخ قبائل الهنود الحمر الذين كانوا معروضين في مركز ثقافة الهوبي، كانت على ما يبدو موجهة إلى جهة حكومية يصفون فيها العوَز والفقر الشديدين اللذين يعاني منهما شعبهم، ويطلبون من الرجل الأبيض العون (الآلات، البذور، التقنيات). ويقولون إن البيض كرماء صرحاء. ثم يتحدث أحدهم باستفاضة عن كم كان البعض من شعبه عنيداً ومنغلقاً، كم كان أصم وأعمى حتى أنه يحرم نفسه من مزايا طريقة عيش الرجل الأبيض.

جلست ذاك النهار في مطعم الريشة الحمراء وكتبت، بينما كان لويس وزانّا يرغبان في النزول إلى سفح الأخدود عبر الطريق المتعرّج وبالطبع صعوده مرة أخرى، مجهود جبّار ليس مطروحاً أصلاً بالنسبة إليّ. في المساء من الهليكوبتر طللنا على مشهد بانورامي كامل. شعور أخّاذ.

لاحقاً أكلنا شرائح لحم رائعة مع البطاطس المخبوزة وشربنا بيرة كبيرة محلية الصنع. كنا قد بخسنا كمية الويسكي قدرها، إذا كانت لا تزال في الزجاجة وكان علينا لأسباب لا نعرفها أن نشربها كلها ذلك المساء. بدا لي كأنني ألتف حول الحقيقة التي أعيشها مرةً ثم أدخل إليها ثانيةً من الخلف.

ما كان يواسيني هو أنني أحسست بوجود أنجلينا بجانبي لا تتزعزع.

في الليل استطعت أن أنام، تجلى لي وجه جدتي. أرادت أنجلينا أن تعرف لماذا كنت مكتئبة هكذا. ماذا جرى لجدّتك؟ - لقد ماتت جوعاً أثناء رحلة الهرب في ١٩٤٥. - ثم؟ - ثم إنني لم أحزن عليها كما يجب أبداً.

سألت أنجلينا: ألم تكوني تحبينها؟

كانت امرأة مستقيمة، مشاعرها جافة. كانت فتاة ريفية بسيطة، فقيرة جداً، كانت تعمل في الصيف في تحزيم محاصيل الحبوب في منطقة شرق نهر الإلبه، حيث تعرفت على جدي الذي كان يعمل في جمع المحاصيل قبل أن يتحول إلى العمل في السكة الحديد ويترقى في عمله ليصبح مشرف مقطورة. وهو ما تطلّب منه أن يتعلم الكثير عن القراءة والكتابة لدى مدرس خاص كان ابنه - أبي - قد أشار به عليه حتى نجح في الامتحان. لسنوات طويلة كانا يسكنان في شقة في القبو. إذا ما كانت جدتي تستطيع الكتابة بشكل صحيح، لا أعرف، لم أرَ منها شيئاً مكتوباً أبداً. كانت تضع القروش بعضها فوق بعض، كنا نحن الأطفال حين تأتي شهادتنا الدراسية جيدة نحصل منها على فلس.

ثم ماذا؟ - سألت أنجلينا - وما الذي منعك من أن تحزني عليها؟

قلت إنني منعت نفسي من التفكير فيها باعتبارها ضحية لا ذنب لها. اقتطعت مشاعري لأنه كان عليّ، وأردت أن أعتبر خسارتنا للوطن وعذابنا عقاباً عادلاً للجريمة الألمانية. لم أسمح لنفسي بالشعور بالألم. كانت جدتي حين ماتت أكبر مني الآن قليلاً يا أنجلينا. الآن يتجلى لي وجهها ليلاً حين لا أستطيع النوم. لماذا الآن تحديداً؟ ولماذا هنا؟ لم تجب أنجلينا.

في الصباح كتبت في مفكرتي:

إنني أعرف بالفعل منذ زمن أن الآثام الحقيقية هي تلك التي تحدث في صمت وليست هي التي تظهر للعلن. وأن المرء يظل ينفي ويخفي تلك الآثام الصامتة لمدة طويلة جداً، وأنه لا ينطق بها أبداً. بتشَبُّثٍ وثبات نخفي ذلك السر المكنون.

كنا نودّ أن نقضي ليلة على الأقل في لاس فيغاس. فإن لاس فيغاس - كما قيل لنا - هي مركز أمريكا تلك التي يبحث عنها الأجانب بشدة. جذبنا فندق ميراج بمنشوره الدعائي. كانت غرفنا قد تم حجزها بسعر رخيص لحد الدهشة. قال لويس إن عليه أن يترك نقوده في صالات اللعب. أبدى بعض توتر، رغبة في التواجد في لوس أنجلوس بسرعة لدرجة أدهشتني. أنا وزانّا تفاهمنا بنظرات ساخرة من وراء ظهره. قال لويس إننا يجب ألا نكون متعجرفين هكذا. يجب ألا ننكر أن هناك رغبات بعينها على الإنسان الحديث كبتها في ظروف أخرى، إلا أنها في مكان مثل لاس فيغاس يمكن أن تؤخذ على محمل الجد ويتم التنفيس عنها. وهو ما يجعل هذا الإنسان الحديث حين يرجع إلى حياته الطبيعية قادراً على العمل من دون أن يصيبه المرض.

لوّح للمعلنين على جانب الشارع الذين كانت مهمتهم جذب من لديهم استعداد للزواج ليدفعوهم بعد ذلك إلى إحدى البنايات الخشبية حيث يتم الزواج في فترة قصيرة جداً وبثمن رخيص. إذن - قال لويس لزانّا - هل ندخل؟ - قالت: الأفضل ألا نتزوج أبداً على أن نفعلها هكذا. هل كان يعتبر هذا العرض نوعاً من العلاج أيضاً؟ لِمَ لا؟ - قال - إذا قارنّا هذا بالقوانين التطهرية الصارمة التي تسود عادة.

كان فندق ميراج يعد كل من يخطو عتبته بـ

الدخول إلى عالم العجائب الفردوسي

أتذكر من خلال الصور التي تظهر في المنشور الأحاسيس التي انتابتني حين دخلنا البهو الشاسع المغمور بالنباتات العجيبة والموسيقى

المعسولة والعطور المخدّرة: بدأت أقاوم. على مضض تبعت الموظفين إلى المصاعد التي فرضت علينا السير في طرق ملتفة كثيرة فقط لكي نمر على الصالات التي كانت فيها طاولات القمار وعلى صفوف الأفراد المسلحين، تندر لويس على ضجرنا من هذه الألاعيب الرخيصة: نعم - قلنا - لأن تحديداً في هذا المكان هل تسود منافسة بين القائمين عليه حول من يتعامل بصدق أكبر مع زبائنه ومن يغشهم أقل؟

أشعر منذ البداية بنقص في الهواء. كأن أحداً كان قد نفخ فقاعة نحن بداخلها فانخفضت نسبة الأوكسجين التي كنا نحتاج إليها لكي نعيش. في الغرفة الكبيرة المترفة استلقيت على السرير شديد الطراوة وكان عليّ أن أقاوم رغبة عارمة في النعاس. لكن راودني شعور أنني قد أبرمت عقداً مع السلطة الحاكمة هنا وتعيّن عليّ أن أنفذ شروط هذا العقد الآن. أن أقع في مثل هذا المأزق الآن كان آخر ما كنت أتوقعه. بل الأرجح - وهو ما وقع بالفعل بعد ذلك - هو أن تعمل هذه الأجواء المخدّرة تأثيرها عليّ. بمعنى تبخُّر كل المشاعر لكي لا تنهار إزاء القوة الهائلة للانطباعات التي كانت تتعرض لها.

هذا تحديداً لا بد أنه هو ما حدث مع السيدة الهزيلة التي جلست لبضع دقائق إلى طاولتنا في المطعم الإيطالي، بعد أن رفضنا ما كانت تتكسب منه: أن تصوّرنا. بدا أنها أرادت فقط أن تشرح لنا طبيعة عملها، إلا أن حديثها المنفرد تطرق إلى شكوى لانهائية وتطوّر تدريجياً إلى اتهام النظام، تلك الآلة التي تسمى لاس فيغاس والتي تم استدراجها إليها حين كانت فتاة شابة ساذجة، حين ربح صديقها في لعبة القمار وفرّ مع الفتاة النحيفة الجميلة بلا رجعة من صالات اللعب، وتركها لتبقى هنا لا سبيل لها: مع وحش لا يدعها تخرج

من سجنه أبداً، أعاذكم الرب - قالت السيدة - فإن ذلك يفترسكم «من الساس إلى الرأس»، وينخر فيكم حتى العظام. في المقابل بقيت هي بمظهرها الذي يشبه الشبح والتي سعت تغليفه مؤقتاً بمساحيق التجميل، مثالاً منذراً. إنكم لا تعرفون - قالت - ما يجري هنا وراء الكواليس. ما يدور برؤوسهم هنا لكي يسلبوكم أموالكم. حتى آخر سنت. وحين تخسرونه ولا يأتي أحد لتخليصكم فإنهم يرسلونكم إلى أقرب محطة قطار ويعطونكم تذكرة بلا رجعة. وقد أسسوا خدمة خاصة للمنتحرين الذين يجمعونهم فجراً من غرف الفنادق. ما من ضيف يقابل هذا الوجه القبيح لتلك المدينة الصحراوية وجهاً لوجه.

لكننا لم نكن نودّ الحفر في أعماق هذه المدينة البرّاقة، كنا نريد أن نخطو بعض خطوات في هذا العالم الوهمي البرّاق، كنا نريد أن ننبهر باكتمال الخدعة التي كنا سوف ننتقل بها عبر طريق سير قصير إلى روما، بواجهات البنايات التي لا يمكن التفريق بينها وبين الحقيقية التي كنا نعرفها، بسماء لا تدنو شيئاً من سماء روما الحقيقية إلا من حيث إنها تدور بالأجرام السماوية حول المدينة مرةً كل ساعة فتحاكي بذلك دورة يوم كامل. فجأة لم نعد نعرف إن كان الناس من حولنا زائرين مثلنا أم مواطنين فعليين من روما البديعة تلك. انتابني الخوف. أردت أن أخرج من هنا سريعاً، لكن لم يكن هناك مخرج سوى ذلك الطويل الذي يمر بصالات القمار.

أردنا في البداية أن نحاول مع الأفراد المسلحين. وقفوا في صفوف طويلة، وفي صفوف طويلة جلس أمامهم المقامرون الذين كانوا يقومون على خدمتهم ويريدون استغلالهم، متلاصقين تلاصقاً. الضجيج الذي كان مسموعاً، أحياناً مرتفعاً وأحياناً منخفضاً، كان

صوت صلصلة وجلجلة النقود حين تُجبر إحدى الماكينات بفعل ضغط مقبض الرفع على أن تفرغ محتوياتها في وعاء جمع النقود. حينئذٍ تكسحها الفريسة سعيدة أو سعيد الحظ في الدلو البلاستيكي الذي يحملونه جميعاً، ثم يتجمع الأقل حظاً حول مكان الفائز، ليستمدوا بعض الشجاعة، وليزودوا أنفسهم عن طريق بعض اللمسات الخجولة بالقوى الخفية إذ ربما - في أحسن الأحوال - يصيرون في مكانه. وحين يصير مسلسل الانتصارات للفتاً أكثر من اللازم يظهر مبعوثون من الإدارة ليراقبوا خفيةً إن كان النظام مستتباً.

بعد أن كنا قد فهمنا «كيف تجري الأمور» وجدنا أماكن متباعدة على الماكينات. من دون اقتناع وضعت دولاراتي في الشقّ، بفتور متزايد تتبعت تعليمات عنصر الأمن المسلح الذي أشار إليّ بمكسب ضئيل مرةً واحدةً فحسب لم يعوّض خسارتي. هكذا كانت حال الآخرين أيضاً. بدا لويس متعجلاً كي يأخذني إلى حيث «اللعب الصحيح». من أين كان لويس يعرف وكيف شرح لنا نظام لعبة الروليت، هذا ما ظل يشكل لغزاً بالنسبة إلينا، لكن جهلنا لم يوقفه، وجد لنفسه مكاناً على إحدى الطاولات وبدأ يصنع لعبته. وضعت أنا مبالغ ضئيلة، خسرت كما هو متوقع وتوقفت حين بلغت المبلغ الذي كنت قد وضعته لنفسي حداً: ستين دولاراً.

التوقف الآن هو محض غباء - قال لويس - يجب إعطاء القدر الذي يكمن وراء هذه اللعبة فرصة ليفصح عن نفسه. تحوّل ثانية إلى طاولة اللعب، ودّعت أنا زانّا التي لم تعد هي نفسها تلعب، وإنما وقفت فقط وراء لويس. سألتني لماذا أريد أن أذهب. لم نكن قد بلغنا منتصف الليل، النوم في مثل هذا التوقيت يعد هنا مخالفاً للتقاليد. قلت إنني أشعر بالملل حقاً. ضحكت زانّا: قالت إنني إذن حقاً لست

لعوباً بطبعي. بالمقارنة بلويس. . . بدا أنه كان يكتشف لتوه جزءاً من كيانه لم يكن معروفاً بالنسبة إليه هو نفسه.

قلت إن كل إنسان يشهد ذلك مرة على الأقل في حياته، إلا أن خصائص مختلفة عما لدى لويس كانت تلح عليّ. على كل حال - قالت زانّا - كان عليّ أن أخلد إلى النوم. أما هي فعليها أن تبقى مع لويس أياً كان ما سيفعله في تلك الليلة. إنها ليلة استثنائية في حياته.

لم يكن بوسعي إلا أن أندهش لذكاء هذه الشابة. كنت فجأة أشعر بالإرهاق حتى أنني لم أكد أجد غرفتي. قبل أن أغفو حاولت أن أتواصل مع أنجلينا، لكن بالطبع لم يكن لملاك أن يتبعني في مثل هذا المكان. لقد كذبت إذن - قلت - حين وعدتِ بأنك سوف تكونين حاضرة حين أحتاج إليكِ. الملائكة أيضاً يكذبون. كان في ذلك بعض السلوى. ربما لم أكن لأتحمل شيئاً متكامل الكمال.

في الخارج كان المنظر كما لو كنا نهاراً بفعل فيض الأنوار الكهربية، أناس مستثارون كانوا يصرخون في الشوارع. اضطررت للقيام مرة أخرى لإسدال الستائر الثقيلة. في الثلاجة الصغيرة وجدت زجاجة صغيرة من الشامبانيا فشربتها كلها. ثم كان عليّ أن أتصل ببرلين.

هل حدث مكروه؟ صاح صوت مضطرب. - كلا، لا شيء. وهذا هو الموضوع. - حسناً هل أنت ثملة؟ - هذا أيضاً. ولكن قبل كل شيء أريد أن أسألك سؤالاً. - اسألي. - هل واضح بالنسبة إليك أن كل محتويات رأسك سوف تضيع معك حين تموت؟ - بلا شك. بالإضافة إلى ذلك أيضاً ما قد كتبته. - آهٍ. يا له من كسر. لا يبدو أنه يزعجك. - إنني لا أفكر في ذلك باستمرار. - أنا أفعل، منذ فترة

قصيرة. الآن تصمتين. ما كنت أريد قوله أيضاً: إننا نتقدم في السن.
- شكراً على هذه الخبرية. - تصبح على خير.

صوت بعيد. مكان بعيد. حشود من البشر، مسيرة احتجاجية تتحرك باتجاه مبنى البلدية الأحمر، من دون حاجة إلى التوجيه. يتدفقون من فتحات مترو الأنفاق إلى ميدان ألكسندر بلاتس، يرفعون لافتاتهم، ويعلقون شعاراتهم. خليط من البهجة والفخر والتصميم يصدر منهم، وهو ما لم تشهديه على هذا الكم من الوجوه لا قبل ولا بعد ذلك، وهو ما يصيبك بالعدوى. تشعرين كيف تتبدد وحشة الليل، إنها تتلاشى، حين سار المنظمون باتجاهك في الصباح الباكر في محيط ميدان ألكسندر بلاتس وفي أفضل الأجواء بالأوشحة البرتقالية التي كتب عليها **لا للعنف**، مسرحيون، تعرفين الكثيرين منهم، ممثلة صديقة تأتي باتجاهك. بريخت - قالت - كان لا بد أن يكون هنا: قررنا منذ اللحظة أن نهاب حياة البؤس / أكثر مما نهاب الموت. أن يقفز نصه من على المسرح إلى الشارع. والمعجزة أن شعار **لا للعنف** يتم اتباعه في جميع أنحاء البلاد من قِبَل الناس كافة. منصة مرتجلة من شاحنة نقل تبادل الخطباء الأدوار عليها. كان هذا هو المستحيل الذي أراد أن يتحول إلى حقيقة. والذي كان - وأنتم تستشعرون ذلك - لا يمكن أن يدوم سوى للحظة تاريخية. لكنها جاءت.

بائعة الورد التي كانت توزع المنشورات أمام متجرها: الآن لا بد أن يكون المرء حاضراً. لا يمكن أن يفوّت ذلك.

لاحقاً تأتي الشماتة، ويأتي الاستهزاء، والتهكم، بالطبع. حظر اليوتوبيا. لكنني رأيت بالفعل تلك الوجوه الصادقة المنتفضة. تلك العيون اللامعة. هذه الحركات الحرة. تم إيقافها. نعم، تطلعت

الأعين بعد فترة قصيرة إلى المتاح في نافذة العرض وليس إلى وعد بعيد. ازداد الإقبال على طاولات القمار.

استيقظت بسبب الضجة التي كانت أمام الفندق ولم أستطع أن أنام ثانيةً.

في الصباح ساد هنا ضوء يؤلم العينين. ظهر لويس بنظارة شمس عملاقة على الإفطار. قالت زانّا إنه لا يزال مرهقاً قليلاً. فلم يذهبوا للنوم قبل الساعة الرابعة. أدركت أنه ليس مطلوباً الاستعلام عن كم المكاسب التي حققها. بعدها بفترة طويلة، حين جلسنا في السيارة نطق بما جال في خاطره، بلى، إن على المرء أن يسأل نفسه ماذا يعني ذلك بالنسبة إلى تطور الإنسان أن تطغى على عقله لدى توفر فُرَصٍ معينة نزعة ما أقوى من المنطق. كان حتى لحظة معينة قد فاز بستمئة دولار، لكن بدلاً من التوقف استمر في اللعب ولم يخسر هذا المكسب فقط وإنما مبلغاً آخر صغيراً إضافةً إليه.

عند أفراد الحرس المسلحين جلست السيدة اليابانية العجوز في الصباح في المكان نفسه الذي كانت تجلس فيه ليلة أمس وتلعب كالمهووسة. كان لا بد أن نفكر في الجرذان التي كانت خلال إحدى التجارب تضغط بلا كلل على زر يحدث في رأسها نوعاً من الشعور بالنشوة، والتي نسيت من أجله الأكل والشرب ولم تعد تستطيع أن تستغني عن هذا الشعور الجميل، وكانت لتدفع نفسها للموت لو لم يمنعها أحد من ذلك.

أخذت رغبتي في الفرار من هذا المكان تقوى. سألنا السيدة المسنة في مكتب الاستقبال التي دفعنا عندها حسابنا إن كانت قد لعبت من قبل في تلك الصالات. صاحت: كلا أبداً! “These people are ill!” (هؤلاء البشر مرضى!).

في صمت رحلنا من المدينة، الواحة المتألقة البرّاقة التي كانت تقع وسط الصحراء لكي تقودنا إلى التجربة. جلست زانّا إلى عجلة القيادة، وأنا بجانبها. سرنا وسرنا وصارت الحرارة غير محتملة، لم يعد جهاز تكييف الهواء في سيارتنا قادراً على ضبطها.

وادي الموت. نعم، هكذا كنت أتخيّل الصحراء، كثبان رملية لانهائية تصيب بالعمى. حرارة حارقة. عند محطة البنزين تحذيرات، ألا تذهب للصحراء وحدك أبداً في سيارة أو سيراً على الأقدام، ولا تذهب أبداً من دون إمدادات المياه. فإن لها كل عام المزيد من الضحايا.

الوادي الميت. وادي الأموات. هناك رقدوا جميعاً، جميع أمواتي، يتعذبون في قبورهم بينما أنا أعبر من فوقهم. انظري فقط، قالت أنجلينا. منذ متى كانت بجانبي؟ منذ متى ونحن نترنح فوق هذا المشهد الطبيعي؟ خطر لي، لو أن الأموات يريدون أن يقولوا لي شيئاً. أنجلينا التي كانت تقرأ أفكاري قالت: كلا. إن هذه خرافة لدى الأحياء أن يكون لدى الموتى رسائل لهم. في حياتهم لم يكونوا أكثر فطنةً من الأحياء اليوم.

في الموت لا يتعلم المرء شيئاً. وجدت ذلك محزناً.

لم تكن أنجلينا تهتم بالمزاج. لم تَرِد أن تعرف على الإطلاق إن كنت خائفة من قوة الجاذبية الهائلة للأموات. طرنا إلى الساحل. شعور الطيران الذي لا يضاهيه شيء، وأنجلينا بجانبي. كنت أعرف أنه الوداع. لقد تمت المهمة يا أنجلينا، لكن لماذا يتراجع الشعور بالاكتمال؟ قادتني كلمة كنت أبحث عنها منذ أسابيع لاشعورياً: مؤقتاً. مهمة مؤقتة وصلت إلى نهاية مؤقتة.

ضحكت أنجلينا: لكن أليس الأمر كذلك دائماً؟

طرنا من الطرف الشمالي مباشرة عبر الضباب الكثيف فوق لوس أنجلوس. كان وسط المدينة على اليمين. البلد الصغير الذي جئت منه، هل كان أقل قيمة من أن يستحق التعاطف؟ ألم يحلق فوقه منذ البداية نذير شؤم السقوط: في العدم معه؟ هل كان محتملاً أن أكون قد عانيت هذه المعاناة كلّها جراء خطأ تافه؟

شرحت أنجلينا بشكل قاطع، إن ذلك ليست له أيّ أهمية. ما يقاس هو فقط الأحاسيس وليس الحقائق.

ربما تكون وظيفتها هي أن تعرف تحديداً. أما أنا فكان عليّ أن أتساءل: يقاس ممن؟ بأي مقياس؟

بدت أنجلينا جديرة بي، كما كانت هنا - مهللةً، نعم، كدت أستخدم تلك الكلمة غير اللائقة - تطير فوق المشهد الطبيعي إلى ميناء اليخوت بصواريه وأشرعته البيضاء، عبوراً فوق الشارع الساحلي إلى الحديقة الكبيرة بمئات سياراتها التي كانت تلمع وتعشي البصر في الشمس.

إن هواجسي لا تشكك فيها. أن تمسني الآن في الأحلام - في الأحلام يا أنجلينا! - بعض معرفة عما لا بد أن يدور حوله الأمر. أو كان لا بد للأمر أن يدور حوله. إن الأرض في خطر يا أنجلينا، وكل واحد منا لديه مخاوف أن يصيب روحه بالضرر.

تلك هي المخاوف الوحيدة التي تستحق - كما ارتأت أنجلينا - لأن كل شر آخر يتولد من ذلك. طيرت الريح شعرها للوراء. السواد جميل، قلت بعدما تفحصتها من الزاوية فترة طويلة. اقتربنا من فينيسيا. تعرفت على المباني، على الشوارع الضيقة، الميادين التي ظهر الحواة فيها، في ذلك اليوم أيضاً. كان أمامنا القوس الدقيق لخليج سانتا مونيكا وشاطئ ماليبو (اللذين كانا في تلك الأثناء - إن

كانت الأخبار الأحدث تفرض عليّ أن أسجل تلك الملحوظة - قد تشوها بفعل العواصف وحرائق الغابات المدمرة).

قلت: أليس عليّ أن أطير في دائرة كبيرة الآن؟ عودة إلى البداية؟

افعلي ذلك. قالت غير متأثرة.

وسنوات العمل؟ أألقي بها ببساطة؟

لِمَ لا؟

السنّ يا أنجلينا. السنّ يمنع ذلك.

لم يكن لدى أنجلينا أي علاقة بالسن. كان لديها كل الوقت. أرادت أن تنقل طيشها إليّ. أرادت أن أستمتع بهذه الرحلة الجوية. أرادت أن أنظر إلى الأسفل، مودعةً منحنى الخليج السخي الذي طالما جذبني، والأطراف الرغوية البيضاء التي كان البحر يكسحها على الشاطئ أمام الشارع الساحلي، وصفوف النخيل وسلسلة الجبال الداكنة في الخلفية.

والألوان. آهِ يا أنجلينا، الألوان! وهذه السماء.

بدت راضية، طارت في صمت، وأبقت عليّ إلى جوارها.

إلى أين نحن ذاهبتين؟

هذا ما لا أعرفه.

هذا الكتاب

لم يكن لدى أنجلينا أي علاقة بالسن. كان لديها كل الوقت. أرادت أن تنقل طيشها إليّ. أرادت أن أستمتع بهذه الرحلة الجوية. أرادت أن أنظر إلى الأسفل، مودعةً منحنى الخليج السخي الذي طالما جذبني، والأطراف الرغوية البيضاء التي كان البحر يكسحها على الشاطئ أمام الشارع الساحلي، وصفوف النخيل وسلسلة الجبال الداكنة في الخلفية.

والألوان. آهٍ يا أنجلينا، الألوان! وهذه السماء.

بدت راضية، طارت في صمت، وأبقت عليّ إلى جوارها.

إلى أين نحن ذاهبتين؟

هذا ما لا أعرفه.

ISBN 978-9933350680